

عباس محمود المقاد

سَعْدُ زَعْلُول

مِثْلُ نَجْمٍ وَتَحِيَّة

١٣٥٥ — ١٩٣٦

مُطْبَعَةُ حَجَّازِي بِالْمَقَاتِ

تليفون ٥٥٤٨٠

عباس محمود المقاد

سَعْدُ زَعْلُول

سَيِّرَةٌ وَتَحِيَّةٌ

١٩٣٦ — ١٣٥٥

مُطْبَعَةُ حَجَّازِي بِالْقَاهِرَةِ

تليفون ٥٥٤٨٠

تمهيد

الصديق والمؤرخ في الكتابة عن رجل كسعد زغلول يستويان أو يتقاربان ، لأن الصديق لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ ، والمؤرخ لن يقول فيه ما ينكره الصديق . ومن النقص في جلاء الحقيقة أن يكتب المؤرخ ترجمة لعظيم ثم لا يكون على مودة لذلك العظيم ، لأن الترجمة فهم حياة ، وفهم الحياة لا يتسق لك بغير عطف ومساجلة شعور ، ولأن يكون الكاتب مؤرخاً وصديقاً خير للتاريخ نفسه من أن يكون مؤرخاً وكفى ! ولا سيما حين تستوى الحقيقة والمجاملة في ميزان الأعمال والصفات

وإنا في هذه السيرة — أو هذه السيرة والتحية — قد أنطقنا المؤرخ ولم أحاول قط أن أسكت الصديق ، لأن الصديق هنا جدير بأن يتكلم ، فما أثبت حرقاً في هذه السطور إلا الذي أعلم أنه صحيح لا شبهة عليه ، وما تميل بي الصداقة إلى الإعجاب بل الإعجاب هو الذي مال بي إلى الصداقة في الحياة وبعد الممات . وحسبك من إنصاف أنك لا تقول إلا ما يقره العدو في الجملة وإن ناقشه في التفصيل ، ولعله لا يناقشه في التفصيل بدليل قاطع أو برأى جميل .

وكل ما في هذا الكتاب من وصف أو ترجمة أو تاريخ فالمقصود به بادية الأمر هو جلاء الحقيقة عن حياة سعد زغلول أو «نفس» سعد زغلول ، فأكبر الحوادث ما لم تكن لها يد في جلاء الحقيقة عن تلك النفس لا محل لها في هذا الكتاب ، وأصغر الحوادث التي تزيدنا علماً بها ونفاذاً إلى سريرتها لها المحل الأول فيه ، وما ذكرناه فيه عن مصر أو عن الجيل أو عن هذا الرجل أو تلك الطائفة فأنما نذكره بمقدار ما نتأدى منه إلى تلك النهاية ، ولشرح الحوادث بعد ذلك معرض غير هذا المعرض وسياق غير هذا السياق .

ولقد تدعو الضرورات إلى التغاضي عن بعض الأمور والاجتزاء بمثل واحد يغنى عن عدة أمثال . فان حدث هذا في قليل من مواضع الكتاب فاليقين الذي لا ريب فيه أنه لن يحجب سراً من تلك السريرة الواضحة ولن يطوى جانباً من ذلك السجل الممدود ، ولن يزيدنا ذكره وتفصيله علماً بما أردناه بهذا الكتاب ، وهو استجلاء الحقيقة عن نفس سعد زغلول ، وغاية ما هنالك أنه يضع الظلال حيث ينبغي أن يوضع الظل ولا يوضع النور ، وقد يكون ذلك أقرب إلى المثال وأعون على الجمال .

وخير ما أرجوه لهذا الكتاب أن يكون تفصيلاً وافياً لتلك التحية الجميلة التي نطق بها المصريون كثيراً ولا يزالون ينطقون بها في كل عام وكل مقام ، وهي تحيتهم إذ يهتفون « لتحي ذكري سعد زغلول »

عباس محمود العقاد

الطبيعة المصرية

في أوهام الناس

طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة ، جنسية ونفسية ، واجتماعية وسياسية ، يقوم كثير منها على الاشاعة والغرض ، وقليل منها على التحقيق والانصاف .

وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها ، فان هذه الطبيعة واضحة سهلة ، ليس في الأمم العريقة كافة — فيما نعتقد — أمة أوضح منها وأسلم . ولكنها قد احتجبت طويلا لما أحاط بها من أقاويل الأمم المنافسة لها أو المتوترة منها ، وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران المتوترين ، وطال اعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها ، حتى وقر في الأذهان وأصبح التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لا تبدو على تلك الأقاويل المفتراة ونحن نرجع إلى الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الأمم الناقصة أو الأمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقنع السامع أو ينفي عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الأذهان من ناحية الاقتناع ، ولا تعجب شيء عجبتنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلى الآذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالاخلاد ، حتى إذا جاء دور التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الاخلاد التي استقبلت الأوهام بالأذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلى التعصب والتشدد في وجه الحقيقة ، كأنما الأوهام صديق مسالم ينزل بها نزول النصير المأمون الجوانب المحمود العواقب . . . أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له وتثور عليه .

ورأس الأ كاذب على الطبيعة المصرية أنها طبيعة أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبالي غارة الأجني عليها . فمن أعداء المصريين يشك في هذه الأ كذوبة ؟ أو يكلف نفسه وهو يقدفهم بها أن يضاهي بينهم وبين غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الخلطة بينهم وبين أبناء الأمم الأخرى ؟ على أنها كما قلنا رأس الأ كاذب وأيسرها تفنيداً عند النظر القريب ، فضلا عن النظر البعيد

فليس شأن المصريين في هذه الخلطة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور القديمة ، إذ هي كلها مزيج من غالب ومغلوب وأصلاء وغرباء ، لا تدرى من أحقهم بوصف الوطنى ومن أحقهم بوصف الدخيل ، إذا مضى عليهم جيلان أو بضعة أجيال

ولقد كانت هذه الأمم جميعا لا تبالي من يحكمها من أبناء البلاد أو غير أبناء البلاد ، لأنها كانت منهوبة مظلومة على كلتا الحالتين . وكانت تطبق الحاكم حتى يجاوز بها حد الطاقة فتثور عليه وتمالئ أعداءه سواء كان من الأجانب أو من المواطنين العريقين فيها ، ولم تنشأ الفكرة الوطنية بمعناها الحديث إلا حين نشأت فكرة الحكم بالحق والحكم لمصلحة المحكومين وبطلت فكرة الحكم للغالب القاهر بقوة المال والسلاح ، فقد أبطأت « الانسانية » طويلا قبل أن تخترع الديمقراطية أو الفكرة الوطنية ! وقد أصيبت جميع الأمم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الإبطاء الذى لا ذنب فيه على أحد ، فلو أننا استعرضنا تواريخ انجلترا أو فرنسا أو المانيا أو ايطاليا أو تواريخ الفرس والهند والصين وما بين أولئك من شعوب المشرق والمغرب التى استقرت فيها الدول وقامت فيها العروش لما استطعنا أن نعثر على شعب واحد خلا من سلطان الأجانب ، واستعصى حكمه على أسرة بعد أسرة من الواغليين الطارئيين عليه فى عنف المقتحم تارة وفى رفق المتودد تارة أخرى . وربما كانت مزية الأمة المصرية على أهم كثيرة فى هذه الخلطة أن

الحاكم الأجنبي كان ينتحل دينها ويتخذ عاداتها ومراسمها ويحفظ ماله في أرضها ولا ينقله إلى عاصمة بعيدة منها . فان جرى على هذه السنة في سياستها طالت أيامه فيها وتمهدت حكومته بين أكنافها ، وان خالف هذه السنة لم يأمن انتقاضها ولم يزل على خطر منها ، وحذر من جموحها وانقلابها

وانما شاع اتهام المصريين بالخضوع للسطوة الأجنبية ولم يشع ذلك كثيراً عن الأمم الأخرى لأن المصريين أمة لها تاريخ قديم متصل بالعالم في شرقه وغربه وقديمه وحديثه ، فالأخبار عنها متصلة وذاكرة الشعوب بأخبارها مشغولة ، ولأن العالم القديم والعالم الحديث كليهما قد تلقيا تاريخ هذه الأمة من أفواه الأعداء والمغرضين ، ولم تحفل هذه الأمة بتصحيح ما يقال عنها لأن تصحيح التواريخ القومية بدعة جديدة ، لم يُعرف لها خطرها ومبلغ الحاجة إليها قبل عصرنا الأخير

فاليونان في العالم القديم كانوا ينقمون على المصريين الترفع والشمم واعتبارهم الاغريق جميعا في الخضيض الأدنى من مراتب الشعوب ، وكانوا يشعرون بنفور المصريين منهم لأنهم أعانوا الفراعنة الغاصبين عليهم ، ودخلوا زرافات زرافات في الجيوش المرتزقة التي كان أولئك الفراعنة يستعينون بها على حراسة عروشهم واخضاع رعاياهم ، وكان اليونان يزعمون بطبيعة الحال أن الفراعنة يتخذون الجيوش المرتزقة من الأجانب ومن اليونان خاصة لأن أبناء البلاد لا يصلحون للحرب ولا يصبرون على مضانك الجندية ! أما الحقيقة فهي أن الفراعنة الغاصبين علموا بغض الرعية لهم وتربصا بهم وتحفزها للثورة عليهم فخافوا أن يسلبوا زمام القوة العسكرية إلى تلك الرعية ، واصطنعوا الجندا الأجانب ليتقوا بهم خطر الثورة وبوادر الفتنة ، وبلغ الخوف بهم أشده في عصر الغزوة الفارسية فأكثرُوا من جند اليونان وأقلوا من التعويل على جند البلاد ، وقد عرضنا لهذا المبحث في رسالتنا عن « رواية قبيزة التمثيلية » فقلنا ان اليونان مغرضون إذ يتكلمون عن الجنود الوطنيين . » وقد

كان ضلعهم ظاهر مع الملوك الفراعنة المكروهين الذين كانوا يحذرون التعويل على الجنود الوطنية فيكثرون من استخدام الجنود اليونانية ، وكان أولئك الفراعنة يحابون اليونان ويتبرعون بالمال الكثير لتعمير هياكلهم في بلادهم وإقامة الهياكل لهم في جوار المعابد المصرية ، وكان أبناء البلاد يعمقون فراعنتهم من جراء هذا ويتربصون بهم وبالجنود الدخيلة الدوائر ، وينعتون هؤلاء بأقبح الذعوت ويحرمون الأكل من أيديهم والتنزل إلى معاشرتهم ، ويقدحون في شجاعتهم وأماتهم بكل لسان على أن استخدام المرتزقة خطة لم تفرد بها مصر أيام الغزوة الفارسية ، لأنهم كانوا يُستخدمون في جيش فارس وساموس في هذه الفترة بعينها ، فليس من الانصاف أن يُتخذ وجودهم في الجيش المصرى برهانا على نقص في كفاءة المصريين للجندية والقتال . وكل ما اقتراه مؤرخو اليونان على شجاعة المصريين في ذلك العهد إنما كان حديث مونتور ودفاع دخيل بمقوت ، وما كان هذا ليخفى على أحد له بصيرة وفطنة وله إلمام بمواقع الأغراض والدعايات ، فما كان يحمل بمؤرخ باحث — ولا بمصرى على الخصوص — أن يتخذ شهادة الكتاب اليونان دليلا على جبن آباءه الغابرين . ولو صفر التاريخ من الأدلة النافية لهذه الفرية لكان للمصرى شبه عذر في الاصغاء اليها والاهتمام بشأنها ، أما والتاريخ حافل بالدلائل النافية لها قلن ينساق مع أكاذيب اليونان الأقدمين إلا رجل تعوزه الغيرة أو يحنح به الغرض إلى تصديق تلك الأكاذيب وإلى القراء بعض الدلائل التي حفل بها التاريخ حتى في رواية أولئك المؤرخين المغرضين

« فمنها ان الفرقة المصرية هزمت الفرق المرتزقة في كل مرة اجتمعت فيها تلك الفرقة الى فرد راية . فلما خطر لـ « وهاب رع » أن يشد ازر « ذكران » الزعيم اللوبى في حربه للمستعمرة الاغريقية ببرقة - رأى من الحكمة أن لا يرسل في هذه الغزوة جنود المرتزقة مخافة أن يتمردوا ولا تطيب نفوسهم

لنصرة ذكران وهزيمة إخوانهم الاغريق ، وعلم ان الفرقة المصرية تبغض
الاغريق وتصدق في قتالهم فأرسلها إلى الحدود . ولكن حسابه ما لبث أن
التوى عليه فكرت الفرقة المصرية راجعة إلى حربيه حين أحست اجتماع
الكلمة ووحدة القيادة ، فخرج « وهاب رع » واستعان بجميع جنوده
الاغريق وخرج بهم لقتال الثائرين فهزمه هؤلاء شر هزيمة ورفعوا قائدهم
« أحس » إلى العرش شريكا لذلك الفرعون ، ولولا ان علو « أحس »
على زملائه قد أثار في نفوسهم حسد الند للند نخاف اجتماع كلمتهم عليه لما
عدل بعد ذلك عن تأييد الجنود الوطنيين إلى مشايعة الأجانب والمرتزقين .
« هذا ما حدث في الواقعة الأولى بين المصريين والاغريق ، فلما التقى
الفريقان بعد ذلك مرتين كان الغلب الحاسم في المراتين للمصريين

« وأذل مما تقدم على منعة مصر وهيبة جيشها أن كورش
مؤسس دولة الفرس وفتح الامصار شرقاً وغرباً قد تهيّب أن يقدم على
غزوها فتركها وشأنها كما قال مسيو « جستاف جكفيه » في كتابه تاريخ
الحضارة المصرية مع أن كورش كان يعلم اشتراكها في الحلف الذي
تألب عليه مع البابليين والليديين والسبرطيين والمصريين ، فخارب بابل
وليديه وسوّف في محاربة مصر إلى أن مات

« ومن الدلائل على كذب الاقاويل على هذه الفترة أن قبيز —
مع تهجمه وقتوته — لم يجسر على غزو مصر الا بعد أن استوثق من خيانة
قائس اليوناني واطلع منه على أسرار الهجوم وفوّض اليه رشوة البدو
الضاريين في صحراء سيناء ، ثم لم يكفه هذا حتى الب الاسيويين على المصريين
وأعدّ لهم ستة أضعاف قوتهم من الفرسان ، وجيش مشاة يفوق جيشهم بعدد
غير قليل . وأسلحة لا عهد لهم بها في ذلك الزمان ، وأسطولا لبوالكرات
الطاغية الساموسى مال الى فارس بعد أن كان في حلف المصريين
« ولقد غلبت مصر ومالكها الفرس وما انكسرت قلوب أهلها

ولا خنعت رقابهم لنير الفاتح القوى المعتر بآسه وسلطانه ، فابرحووا يتحينون
الفرص ويثبون على غاليهم مرة بعد مرة حتى قلق « دارا » الأول وحضر
إلى مصر وقتل « ارياندا » وإلى الفرس الذي كان يتغطرس على المصريين
ويستنفرهم إلى الغضب والثورة ، وبالع في تمليق الشعب والكهان حتى بنى
معبداً للأمون واشترك في موكب الحزن على العجل « هابي » واكتب بما
يعادل اثنين أو ثلاثة وعشرين ألف جنيه من نقود هذه الأيام ، مكافأة لمن
يعثر بعجل جديد تجتمع فيه الشروط المفروضة في أسفار الكهان

« وظهر شمم الكهان المصريين على أتمه يوم اقترح « دارا » عليهم أن
يقيموا تمثاله إلى جانب تمثال « رعمسو الثاني » في معبد فتاح ، فلم يبال
أحدهم أن يحبه بتفضيل رعمسو عليه وان يقول له في غير مواربة ولا
دهان : انك لم تفتح فتوح ذلك الفرعون العظيم ولم تب مثل بلائه ، فتلقى
الجواب كاظماً وقال في حلم واناة : سأفعل كما فعل اذا عشت كما عاش ، وعدل
عن إقامة التمثال اذعانا لكبرياء رعاياه المغلوبين

« ثم استرجعت مصر استقلالها وكأخت حوله كفاح المستميت ، ولا
حل هنا لتفصيل الوقائع التالية لأنها خارجة عما نحن فيه

« فالحوادث التي انتقلت إلينا من مؤرخى اليونان أنفسهم تنفى ما تخلل
رواياتهم من سوء الشهادة للشجاعة المصرية وسائر الخلائق الكريمة ، ويجب
على المؤرخ المصرى أن يفتن لهذا ولا يجارى الأحاديث المشاعة التي لن
تخلو من الهوى وإن تركز إلى سند صحيح »

وفىما تقدم مثال صالح يقاس عليه في التعريف بتاريخ الأمة المصرية على
جليته في كثير من أدواره وأطواره .

وأخطر من هذه الدعاية اليونانية كثيراً دعاية أخرى تهمدت من العالم
القديم وشاعت بين الشعوب التي أخذت بقبس من مآثورات بنى إسرائيل ،

ونعني بها نبوءة السخط والنقمة التي فاه بها بعض كهان اليهود وتوارثها
الاعتقاب عن الأسلاف ، كأنها وحى سماوى تنزل من عند الله

فقد كان الامرائيليون الأفديون يبغضون المصريين لأنهم سخروهم في
أرضهم تسخير العبيد ، فهجروا الأرض كارهين إلى صحراء سيناء ثم إلى
تخوم فلسطين ، وظلوا يتمنون الهزيمة للدولة المصرية ويتلقون بالقبول
والترحيب كل ما يبشرهم بزوال مجدها وأفول نجمها ، وزادهم بغضاً على بغض
أنهم استنجدوا مصر على البابليين فأبت أن تنجدهم وكرهت أن تخوض
أهوال الحرب مع بابل من أجلهم ، فلما هزمتهم بابل وأسرت قبائلهم
وهدمت أركان دولتهم الصغيرة في فلسطين راحوا يتمنون لمصر مثل هذا
المصير وينذرونها سوء العاقبة إلى أمد مديد ، كما يفعل الكهان حين يقذفون
باللعنة على الأعداء الأقوياء ، وزعموا أن المعتمد على مصر لا يعتمد على سند
متين ولا يأوى إلى ركن ركين ، لأنها صانت دماء أبنائها عن حرب
لامصلحة لها فيها ، ولا داعى عندها لاقتحامها

وما من دولة كبرى في العصر الحديث أو في العصر القديم إلا تعلق بها
رجاء أمة ضعيفة في طلب الحرية والانصاف ثم خاب ذلك الرجاء ، فإذا فعلت
مصر غير ما فعلته قديماً وتفعله حديثاً كل دولة يراد منها اقتحام الحروب في
غير طائل ؟ ؟ وقد تسخط الأمم الضعاف على تلك الدول السكبار فيكون
سخطها معقولا مفهوماً ، ولكنها لا تكون على حق فيما تدعيه أو فيما تمناه ،
ومن واجب الناس أن يأخذوا كلماتها ولعناتها مأخذ الريية والمراجعة لا أن
يصغوا إليها إصغاءهم إلى الوحي المنزل والقضاء الدامغ ، فإذا تسهل أناس في
قبولها وتصديقها لأنها لا تضرهم ولا تغض من سمعهم فلنحن المقدوفين بها
أولى أن نتفهم أسبابها ونفطن لبواعثها ومراميها ، وقد تيسر لنا الآن أن
نفهم أسبابها كما نفهم كل شيء في هذه العصور ، فلا سلطان لتلك اللعنات
على عقائدنا في أنفسنا ، ولا على ماضينا أو حاضرننا الذي نحن فيه .

أما قبل اليوم فقد كان أناس من أبناء مصر يحسبون الايمان باستعبادها وإخلادها إلى المذلة فرضاً عليهم ، ويحسبون الشك في تلك اللعنات خروجاً على قضاء الله فيهم ، ولهذا قلنا إن دعاية بنى إسرائيل في العهد القديم كانت أخطر من دعاية الاغريق ، وظلت كذلك إلى زمن غير بعيد

وأخطر من الدعايتين معا خلط العامة من المسلمين بين اسم الفراعنة واسم قدماء المصريين ، أو ظنهم أن كل « فرعون » هو فرعون موسى الموسوم بالكفر والطغيان في سور القرآن . فأصبح اسم قدماء المصريين مرادفاً عندهم لاسم فرعون المنبوذ في كتاب الله ، وأصبحت سلالة هذا الجنس في وهمهم رجساً مذكوراً غير مستغرب فيه قدح قاذح ولا منتظر فيه دفاع مدافع ، ومن ذا الذي يدافع عن فرعون وآل فرعون ؟ !

ومن أدباء المصريين أو متأدييهم من قرأوا هجاء المتنبي فآثروا فيه بعض الأثر ، وخيل إليهم أن الشعر والتاريخ والواقع والنبوءات قد تضافرت على تصديق ذلك الهجاء من أقدم العهود . وأتى على الأدباء زمان كان البؤس فيه وسمّاً لسكل شاعر وكانت شكوى الشاعر فيه من ظلم قومه وغفلتهم عن حقه موضوعاً قلباً خلا منه ديوان ، فكان الشعراء الذين يحفظون أبيات المتنبي يستريحون إلى ترديدها ويجدون فيها مصداقاً لشكاياتهم ومتنفساً لمضاضة نفوسهم ، وشهادة لهم بالأدب ومحاکاتهم لاعلامه الأفذاذ ، وصرفهم ذلك عن وزن الأبيات بميزان التاريخ والبواعث النفسية ، فبلغوا بها فوق مبلغها من التصديق والعناية ، وما كان في وزنها صعوبة عليهم لولا شهوة الشكوى والبؤس أو « التباؤس » التي أشرنا إليها ، وإلا فهل كان المتنبي إلا شاعراً محققاً يقول ما لا بد أن يقوله كل شاعر محقق في ذلك الزمان ؟ وهل وصول الخصى كافور إلى عرش مصر أغرب من سيادة إحدى البغايا على دولة الروم لو كان المتنبي على علم بتاريخ الروم القديم ؟ وهل كانت أمة

الفرس ملعونة على السنة السكمان أو مقضياً عليها بالاستسلام حين تولاهما
سلطان خصى بعد زمن المتنبي بعد طويل ؟ وهل الخصيان والبغايا هم شر
الناس أو هل سيرتهم في الحكم أقبح السير التي عرفت شعوب العالم ؟
فأيات المتنبي ان هي إلا صسيحة حق تنفعنا إذا أردنا أن نفهم نفسه
ومضامين شعره ، ولكتمها لا تنفعنا إذا أردنا أن نفهم بها نفس أمة أو نقابل
بها بين جيل وجيل ، ولو أننا أحصينا كل ما ادعاء شاعر أو متشاعر على
رجل أو قبيلة أو وطن أو عنصر لخرج بنو الانسان جميعاً وليس فيهم فريق
حقيق بكلمة ثناء



ثم جاءت العصور الأخيرة والمصريون لا يسمعون عن أنفسهم إلا
التشهير بهم وسوء القالة عليهم وتفسير التاريخ على الوجه الذي يريده لهم
أعداؤهم والطامعون فيهم . فالأوروبيون نظروا إلى الشرق نظر المستعمر
الطامع إلى الغنيمة المطموع فيها ، فوصفوه في ماضيه وحاضره بالصفة التي
يحبونها ويتمنون دوامها ، وهم لا يحبونها مستقلاً ولا أهلاً للاستقلال ،
ولا يحبون لأنفسهم أن يكونوا ظالمين مغتالين يقتلون روح الحرية ويحكمون
بالذل على أناس يستحقون العزة والكرامة ، فليس مما يشبع مطامعهم أو
يريح ضمائرهم أن يتصف الشرق بصفات الشعوب التي تشبه الأوروبيين في
الفطرة وتساوئهم أو تقرب منهم في نعمة الحرية والسيادة ، وإنما يشبع
مطامعهم ويريح ضمائرهم معاً أن يتخيلوا الشرق مفطوراً على الخضوع مطبوعاً
على الاستسلام ، لا يغيرون من أمره شيئاً إذا أخضعوه وسيطروا عليه
واستمتعوا بخيرات الضائعة وثمراته المهمة واصقاعه الفسيحة

وهكذا دونوا لنا تاريخنا ولقنوه لنا في المدارس والكتب حتى رأينا
منا من يصدقه ولا يتحرج من تلقينه على هذه الصورة لصغار الأبناء ، كأنه
يحافظ على أمانة الدرس ويتحرج من التصرف في لوح العلم المحفوظ !

ونشأت في ابان ذلك بدعة الآرية والسامية وهي تلك البدعة التي تقضى للآريين بالسبق والرجحان في كل فضيلة من فضائل الأمم أو فضائل الأفراد ، وقد ظهر بطلانها الآن أو ظهر على الأقل أن الحاجز الذي أقامه مبتدعوها بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لا يسلم من ثغرة شك هنا وثلة ضعف هناك ، بل هو ينعكس في أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها القوم للآريين ، ولكن البدعة قد خدعت أناسا كثيرين في ابان نشأتها فتحدثوا بها كتحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، وما زالت تجنى على الأفكار حتى أوغل فيها بعض الغلاة من دعايتها فاستخرجوا منها دليلا على رجحان بعض الأمم الآورية على بعض واستئثار جماعة من تلك الأمم بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الأخرى ، فتصدى لها يومئذ من الآوريين من ينكرها ويزيفها ويبالغ في السخر بها ، بعد أن كانوا يتفقون على ترويحها والاعضاء عنها حين كانت معرتها لاصقة بالشرق وحده ، موقوفة عليه دون غيره

وقد رأينا بين الانجليز — ولاسيما الذين عاشوا في مصر والسودان — فئة تقرر المسبة الباطلة للمصريين وبين يديها ما ينقض تلك المسبة نقضاً لو أنها عنت بالالتفات اليه أو لم تعن بالتعاضد عنه ، ومن هؤلاء جاكسون صاحب كتاب « عثمان دقنة » زعيم الدراويش المشهور ، فانك تقرأ الكتاب فلا ترى أحب إلى صاحبه من اتهام المصريين بالجبن والاستشهاد بالنوادير التي يتندر بها الدراويش عن الجنود المصريين المسوقين إلى قتالهم في أوائل الحملة السودانية ، ويعلم جاكسون مع هذا — ويروى في الكتاب نفسه — أن هؤلاء الجنود كانوا فلولا من اللصوص والسطار المسجونين المعاقين بانشغل المؤبد أو الموت العاجل ، قذفت بهم الحكومة المصرية يومئذ إلى أحشاء السودان لتستريح منهم أو تستريح من الدراويش . فكأنما كانت تجريدة السودان طريقة من طرائق تنفيذ العقوبات في ذلك الحين ، ولو شاء

جا كسون لفهم أن اللص الذى يساق لتنفيذ العقوبة مزوداً بعار الجريمة غير الجندى الذى يساق الى الحرب مزوداً بنخوة الوطنية والحمية العسكرية ، أو لو شاء لقارن بين هؤلاء السجناء والجنود الذين فتحوا السودان بعد ذلك أو اشتركوا قبل ذلك فى حروب الروس واليونان والترك والعرب ، ولكن من له بأن يشاء هذه المشيئة العvisية وهى على خلاف ما يهوى ونقيض ما يريد ؟

على أن كتابا انجليز ينصفون الشجاعة المصرية أو الجندية المصرية فى بعض ما يكتبون ، ومن ذلك ما قرأنا أخيراً لواحد من هؤلاء المنصفين — وهو مستر جريفز الذى كان مندوباً خاصاً لصحيفة التيمس فى بداية المفاوضات مع الجبهة الوطنية المؤتلفة — فانه يقول بعد استعراض تاريخ الجيش المصرى من عهد محمد على إلى العصر الحاضر : « ولا ريب أن المغامرين الأوربيين والترك احتكروا القيادة ، وأنه كان هناك جنود الهجوم من الترك والألبان فى الحروب الأولى التى دارت فى سورية ومن المسلمين والسودان فى الحروب التى دارت بعد ذلك . ولكن صغار الضباط — ومعظمهم من المصريين — كانوا هم الجزء الأكبر من الجيش الذى هزم الحملة البريطانية فى سنة ١٨٠٧ وفتح معظم السودان وأحرز النصر الملمين فغلب صحراء العرب وأعبي مراس الوهايين وكاد يقضى على السلطنة العثمانية لولا الدول الأوربية »

وخلافا لما يقال عن ضعف الطبيعة الحربية فى المصريين رأينا ضابطاً يابانياً يشهد لهم بأنهم أمة مقاتلين ، ويقول بعد أن قضى شهراً فى بورسعيد عقب الحرب العظمى : « ووافق ذلك ابتداء الجد فى حركة الاستقلال فسنحت لى فرص شتى للتحدث إلى المصريين والعرب والاصغاء إلى آرائهم

راجع كتاب لا بد لليابان من حرب بريطانيا لمؤلفه الضابط توتا اشيهارو

Japan must fight Britain, by Tota Ishimaro

وعقائدهم . وعجبت لما وجدته بينهم من فرط الشغف بالاستقلال وحسن
المودة لنا نحن اليابانيين باعتبارنا اخوانا مشرقين . والمصريون أمة مقاتلة
كالعرب . يبدو عليهم الاقدام والجسارة ، وإذا حسنت القيادة نشأ منهم
جيش حسن »

وهذا كلام رجل حربى من أمة حرية ، أقل ما فيه أن تجرد المصريين
من الطليعة العسكرية ليس من الظهور بحيث لا يجوز فيه مثل هذا
الخلاف البعيد

وابتلى المصريون إلى جانب المنكرين المستعمرين بطبقة من الترك
أو المتتركين ترفعوا عن « الفلاح المصرى » وحسبوا أنفسهم جنسا أكرم
وأعظم من جنسه العريق فى المدنية ، فشاعت هذه النزعة بين المترفين وأصحاب
المناصب ، وكان لها أثر ليس بالهين ولا بالمحمود فى تربية الأمة وعقيدتها
القومية .

ثم بدأت النهضة الوطنية فلم تخل من طائفة متعجلة ساخطة تستحث
الجماهير الغافلة ويملكها الحزن أن لا تسرع الجماهير الى مجاوبتها والنهوض
معهما ، فتتهمها فى سليقتها واستعدادها على سبيل الزجر والحض والاهابة ،
ويخطئ السامعون معنى الزواجر والتهم فيزعمونها حجة على صدق ما يقال
فى الطليعة المصرية ، يزكيها أنها تصدر من أفواه « الوطنيين الغيورين » وانها
شاهد من أهلها المقربين !

على أن هذا وأشباهه قد حدث فى أوائل النهضةات فى كل أمة شرقية أو
غربية قديمة أو حديثة ، وهذه ألمانيا — وهى فى طليعة الامم الكبرى —
قد عابها بعض أبناء النابهين فى أوائل نهضتها العصرية بما لو صدقه السامع
لنفذ منها يد اليأس وسجل عليها الجمود والتخلف إلى آخر الزمان ، ولكننا
نقرأ اليوم زواجر نيتشه وشوبنهاور وهينى وجيتى وغيرهم وغيرهم فلا نفهمها

الا كما ينبغي أن تفهم صيحة النصيح الأمين في غضبة التذمر ، أو غضبة
الرجاء المعتاق وهو على مقربة من الفلاح

تلك هي عناصر الأوهام التي أحاطت بالطبيعة المصرية في أدوارها
السابقة واللاحقة :

وهي كما يرى القراء كثيرة ومليئة أن تحدث ما قد أحدثت من أثر عميق ،
نعود إليها لتبين من استعراضها كيف تشيع أمثال هذه الأوهام مع بطلانها
وسخفها وقلة ثباتها على النقد حين نلاحظها قريبا أو نرجع بها إلى أسبابها
المعقولة ، فإن الرجوع بتلك الأوهام إلى أسبابها لكاف وحده لإبطالها
وتفنيدها والعلم بمداهما من الصدق والرجاحة ، ولن يتسنى لباحث أن يضع
هذه الامة في مكانها أو يضع بطلانها في مكانه قبل أن يحلو عنها غاشية
الأوهام التي أحاطت بها وكادت أن تلصق بتاريخها ، ثم ينظر إليها في جو
منزه عن كذب الاجحاف وكذب المحاباة

الطبيعة المصرية

في حقيقتها

قصدنا من الفصل السابق أن ننفي الأباطيل عن تاريخ الأمة المصرية ولم نقصد أن تتأدى منه إلى تقديسها، على النحو الذي ينحوه بعض المتعصبين في الزمن الأخير كلما كتبوا عن أوطانهم في معرض المنافسة والمنافرة، فليست الأمة المصرية أمة معصومة من العيوب والمآخذ، وليس من دأب الأمم العريقة أن تحتاج إلى هذا الضرب الرخيص من التقديس والتزييه، لتحصر المناقب كلها فيها وحدها وترجم الأمم الأخرى كلها بالنقائص والمثالب، وربما كان هذا الضرب الرخيص من التقديس والتزييه حاجة يشعر بها دعاة الأمم المحدثّة التي يعيها أن تضع نفسها في موضعها بين أجناس العالم بغير هذا الادعاء الملقق والامتياز المصطنع، وشأنها في ذلك شأن حديث النعمة أنى كان وحيث كان، يلقق نسبته إلى الأصول العريقة والأحساب الباذخة فيأتى بها كلها على الطراز الأول بين الأعراق والأحساب، في حين يقنع العريق الصادق العراقة بالنسب الصحيح على ما يشوبه من العثار والتقلب، ومن الفضائح والمضحكات في بعض الأحيان.

كلا ! ليس من همنا أن تتأدى من تبرئة الأمة المصرية إلى تقديسها والاعراق في تمييزها على غيرها، وإنما همنا — بل كل همنا — أن ندفع عنها الغواشى التي تحجب حقيقتها وتضلل الصديق والعدو في قياسها وسبر أغوارها، وإن تخرجها هذه الحقيقة عن أن تكون أمة لها محاسنها وعيوبها ولها أخلاقها وعاداتها، ولها خصائصها ولوازمها التي ليست بمحاسن ولا عيوب، ولا يمكنها أوصاف تنفرد بها لأسباب لم تعرض للأمم غيرها. ولعلنا لا نلخص الأمة المصرية في كلمة هي أوجز وأصدق وأجمع من

وصفها بصفاتها الجغرافية التاريخية المتفق عليها ، وهى أنها أمة طويلة التاريخ
قديمة عهد بالمدينة فى أرض زراعية .

فهذا الوصف الوجيز البين يجمع من أوصافها كل شىء ولا يندّ عنه شىء ،
وإذا توسعنا فى تفصيله واستنباط دخائله كان كفيلا أن يفسر لنا أخلاقها
وعاداتها ويوضح لنا غرائبها ونقائضها ، ويرد كل خصلة من خصائصها وكل
طور من أطوارها إلى النصاب المحكم والوضع الصحيح .

فالأمة المصرية ليست أمة بدعوة تتوثب إلى الحرب لأنها باب الرزق
وطريق السلامة من الجار المعتدى أو الجار الخفيف ، ولكنها أمة حضارة
مستقرة ومعيشة منتظمة تلجأ إلى الحروب حين تلجأ إليها لأنها ضرورة
لا يحصى عنها ونسكة لا تستهين بها إلا إلقاء لنسكة أكبر منها ، وأصعب عاقبة
من عاقبتها .

وهى لا تطيع حكامها كما يطيع البدوى زعيمه أو كما يطيع العسكر قائده :
إلى الحرب يارجال فاذا الرجال كلهم على أهبة القتال !

وإنما هى أمة توارثت العقائد والمأثورات جيلا بعد جيل وأصبح لها من
بعض تلك العقائد تراث تصونه فوق صيانة المصلحة وتغار عليه أشد من
غيرتها على المال والثروة ، ثم هى أمة ذات أرزاق مطردة ومعيشة مستقلة
لا يعنىها صلاح الحاكم كما يعنىها صلاح الأرض والسماء والعوارض
والأجواء ، فاذا دعاها الحاكم إلى حرب لا تعنىها فذلك شأنه وليس بشأنها
وتلك خسارته وليست بخسارتها ، أما إذا أصيبت فى عقائدها وموروثاتها
أو ظهر لها الجور على أرزاقها ومراقفها فهناك يستعصى قيادها كأشد
ما يستعصى قيادة أمة ، وهناك تصمد للحرب كما يصمد لها المقاتل المجبول
عليها ، ولسعد رحمه الله كلمة بايعة فى هذا المعنى قالها للإنجليز فليست من
نفوس أذكائهم جانب الحصافة وجانب الفكاهة فى لحظة واحدة ، وجاءت
فى موقعها وأوانها لأنها قيلت على آثار الحرب العظمى أيام كان تحضير الأرواح

شغلا شاغلا لكل من فقد عزيزاً أو شك في دين ، قال رحمه الله : « إننا لو استحضرنّا اليوم روح يوليوس قيصر وسألناه عن الأمتين اللتين جشمتاه أكبر العناء وحرمتا عليه الراحة لقال لنا إنهما هما المصريون والإنجليز ! »
وتلك كلمة حق من كلماته التي تقرب البعيد وتجمع الأطراف المتفرقات في حروف معدودات .

ولا شك في أن هذا الخلق الذي امتزج بالفطرة المصرية هو باعث الحاكمين جميعاً إلى مجاملة الأمة في عقائدها والحد من المساس بموروثاتها ومألوقاتها ، فمن لم يفتن من الحاكمين لهذه السياسة الرشيدة لم يعرف الراحة معها في سياسة أخرى ، ولم يأمن أن يزول حكمه ويفسد الأمر عليه فساداً لاصلاح بعده ، وكثيراً ما انتهت المجاملة بالحاكمين إلى التدين بالدين المصري والتخلق بالأخلاق المصرية ، إذا كانوا من الغرباء .

وقد حارب المصريون في جيوشهم المنظمة ولقوا في حروبهم أعداء ذوي بأس كاترك والعرب والروس ، فكانوا مثلاً في الشجاعة والنظام ولم يقل عدو قتال ولا عدو جنس أنهم نكوا عن مواقف الثبات والأقدام .

ولو أحصيت الثورات في تاريخ مصر القريب لما كانت في عددها دون ثورات الأمم التي اشتهرت بالتمرد ولم تشتهر بالاستسلام ، فقد ثار المصريون على الفرنسيين وثاروا على الترك والمتتركين ؛ وثاروا على الإنجليز في نحو قرن واحد ، وكان للعقيدة والموروثات في معظم هذه الثورات دخل أظهر من دخل المصاحبة والمرافق القومية أو الفردية .

وقدم العهد بالمدنية يتلخص في حب الأسرة واستقرار النظام البيتي على أساس بعيد القرار

فنحن لانستطيع أن نفهم كيف يكون المصري محافظاً شديداً في المحافظة ثائراً متأهباً للتمرد — إلا إذا فهمنا حبه للأسرة وحبه من أجل ذلك

للوروثات والتقاليد ، فهو محافظ كما تحافظ جميع الأسرات على تراثها ، وهو من أجل المحافظة على التراث مستعد للثورة أبداً لصيانة موروثاته وتقاليده . وقد يبدو غير معقول في ثورته وهياجه لأن العهد بالناس أن يستغربوا الثورة من المحافظين المقلدين ، ويزيدهم استغراباً لها أن لا يجدوا تفسيراً لها من خوف الضرر على المصالح والمنافع . فيقولون مدهوشين : أمثل ذلك الشعب الوادع المستقر يثور هذه الثورة لمثل هذا الضرر اليسير أو لغير ضرر على الإطلاق ؟ والواقع أن الذى يثور هذه الثورة غالباً هو المحافظ المغرق في المحافظة ، لأنه لفرط محافظته ينسى المصلحة في سبيل العادات ولطول الكبت أثر في هذا الجنوح إلى التمرد كلما سنحت الفرصة التي تنطلق فيها الغرائز وتخرج فيها على القيود .

فالمصرى يستمتع بهذه الفرصة ويسترسل فيها إلى أمد بعيد ، لأن كبت العادات وكبت الخضوع الأعمى أمران لا يطاقان إلى زمن طويل ، فإذا سنحت المناسبة فقد يكون الكبت الذى تعانيه النفس من العادات الطويلة سبباً من أسباب التمرد والشذوذ ، وتلك نقيضة في النفس الانسانية تظهر أبداً مع كل إفراط وكل استغراق .

إن المصرى لينسى كل شيء إلا وشائج الرحم وآداب الأسرة . وقد يسف المجرم إسفاف الحبث والنذالة أو يسف المسكين إسفاف الضعة والمتربة ، لكنه لا يزال في صميم نفسه ذلك الخلف المتحدر من أجيال وراء أجيال ، عاشت جميعاً في ظل الأسرة ، ودانت جميعاً بآداب العرف الاجتماعى والعلاقات البيتية والأخلاق المصطلح عليها .

راقبت هذا الخلق في نفوس العلية والسفلة ، وفي نفوس الشرفاء والمجرمين ، فوجدته على قرار مكين في جميع هؤلاء .

وأردت — وأنا في السجن — أن لا يفوتنى سبر هذا الخلق في طبائع

للصوص والقناك والمخاتلين والأتذال ومدمنى الخمر والسموم فاذا هم كلهم « بيتيون » فى طوية النفس ، يتمردون على القانون والفضائل والعظاى ، ثم يقف تمردهم عند حدود العلاقات البيتية ، والعواطف التى تأصلت بين الأعمار والاسنان على حكم الأبوة والنبوة والآخاء والقرابة فى الأدهار بعد الأدهار ، فقلما يخطو التمرد خطوة وراء تلك الحدود

رأيت مرة طفلاً صغيراً من الأطفال الذين يودعونهم سجن مصر ريثما ينقلونهم إلى سجن الأحداث فى الجزيرة ، وكان هذا الطفل مع أقران فى سجنه ينتظرون الترحيل فى فناء السجن المعرض لأنظار الرؤساء والسجانين فمر به سجين من العائدين فى جريمة السرقة ، فرفع له الطفل رأسه وناداه فى لهجة المسكنة الطبيعية التى يشعر بها الصغير فى غيبة أهله ، « جوعان » ! فتمهل اللص العائد وقال له : وماذا أصنع لك يا بنى ؟ وانصرف آسفاً فظننته لا يعود ولا يفكر بعد ذلك فى الطفل المستغيث ، ولكنه ما لبث أن عاد بعد دقائق ومعه رغيف سرقه من الخبز فقسمه نصفين وأعطى الطفل نصفه واستبقى لنفسه النصف الآخر ، ولو ضبطوه وهو يسرق الخبز لما نجا من الجلد الأليم أو من السجن على انفراد

ورأيت رجلاً شيخاً نازلاً من درج المستشفى وهو لا يقوى على الحركة ولا يجحد الممرض الموكل به من يقوى على حمله ، وكان على مقربة منه يافع لم يتجاوز السادسة عشرة لا يدل مرآه على ضلالة ولا على صحة سليمة ، فشق عليه أن يصير الشيخ المريض يتعثر فى خطاه ويثن من وجعه ، وتقدم إليه فحمله ومشى به على جهد شديد حتى أعياء حمله ، دون أن يكلفه الممرض ذلك أو يخطر له أنه قادر على هذا العبء الفادح ليافع مثله

وتلاحى شيخ فان وقتى عازم مشهور بالشر والعريضة فى السجن وفى الحى الذى يعيش فيه ، فسيبه الشيخ سباً لا يطيقه من أتداده ولا يأمن من يسيبه به أن يستهدف لضربة قاسية ، فما صنع الفتى المسبوب إلا أن بدا عليه الدهش

والتردد لحظة ثم هز رأسه وقال لمن حوله : « أنظروا إلى الرجل الشائب يعيب ولا يخجل ، وقال للرجل الشائب : « لو غيرك قالها لقتلته ، ولكن ماذا عسى أن أعمل لك وأنت أكبر من أبى ؟ »

ومن المشاهدات المألوفة في طرقات مصر أن ترى بائعا فقيرا يصطحب ولده الصغير ليأنس بصحبته ويخفف أعباء السعى والكدح برؤيته ومناغاته . ومن سائقي مركبات النقل من لا يخرج لشغله إلا ومعه ولده يجلسه في مكان القيادة ويتعجل الفرع بنموه وقيامه مقام الرجال في أشغال معاشه ، وأذكر أنني رأيت في بعض المنازل التي سكنتها طفلا لا يتجاوز الخامسة يقيم عند أبيه الخادم في المنزل بمعزل عن أمه التي تقيم في بلدتها مغضبة من زوجها ، فرثيت لطفل في هذه السن يفارق أمه ويحرم حنان الأنوثة وهو في أشد الحاجة إليه ، ولكنى لم ألبث أن رأيت موضع عناية الخدم والبيعة في الشارع كله : يلاطفه كل خادم أو بائع يعبر الطريق ويسألون عنه ليضاحكوه ويلاعبوه ، حتى أصبح « مدلل » الشارع والعبوة الحية ، وحتى ألف المقام وطابت له هذه الغربة ، وطفق بعض أصحابه الكبار يضايقونه بذكر البلد والسفر اليه فينفروا يوما نفور

وقد أنكر الغربيون ما أنكروا من مقام المرأة في الحياة الشرقية وقاسروا كلامهم عنها بمقياس الحقوق المدنية أو الحقوق السياسية التي كثرت حولها الجمعية بينهم على غير طائل ، ولكن الذي نعرفه نحن ويعرفه كل مطلع على أحوال البيئة المصرية أن مقام الأمومة فيها مكروه الجانب مرعى المكانة في البيوت كافة والبيئات قاطبة ، وإن الأم المصرية تنعم بين أبنائها وآلها بمنزلة يغبطها عليها الأمهات في بلدان المغرب والمشرق

فالأسرة عظيمة الشأن في آداب المصريين من أقدم عصور التاريخ ، وإن يتجرد المصري من عواطف الأرحام بين أبوة وأمومة وبنوة وقرابة وآصرة دانية أو قاصية ، وذلك هو قوام العرف الاجتماعي في أخلاقه

وعلاقاته ، وهو أيضا قوام « المحافظة المصرية » التي تحب الالفه وتعرض
عن البدع والخوارق

والوصايا باتخاذ الاسرة معروفة في الأدب المصرى منذ آلاف السنين .
ففي وصايا « فتاح حوتب » التي كتبت قبل أكثر من ستة وأربعين قرنا
يقول الوزير لتلميذه : « إذا كنت رجلا ذا منزلة فاتخذ لك منزلا وأحبب
قرينتك الحب الجميل . وأطعمها واكسها وطيب أوصالها ، وأدخل السرور
على قلبها طول حياتها »

ولم تلمس الوصية بتوقيع الاسرة وصلة الارحام بعد ذلك كلما كتبت
الوصايا في العهد القديم ، ففي نسخة من وصية « عانى » محفوظة في مخطوطات
الاسرة الثانية والعشرين يقول الحكيم : « اتخذ لك زوجة في شبابك
لتتجب لك ولدا تربيته وأنت في صباك ، وتعيش حتى تراه في عداد الرجال .
وما أسعد الرجل الذى له عشيرة كبيرة ! ان الناس يوقرونه من أجل بنيه » .
وفي هذه الوصايا يقول الحكيم : « ضاعف لأمك خبزها واحملها كما
حملتك ، لقد أثقلتها وما نبذتك ، وظلت تحملك حول عنقها بعد ميلادك ،
وظل ثديها ثلاث سنوات في فمك ، ولم تأنف من تنظيفك ولم تقل قط :
ماذا أصنع بهذا ؟ وأرسلتك إلى المدرسة تتعلم الكتابة ، ووقفت لك بالخبز
والشراب كل يوم تنتظرك . واذكر إذا تزوجت وانفردت بمنزلك كيف
ولدتك أمك وكيف ربّتك وتعهدتك بكل ما عندها من وسيلة ، عسى أن
لا تصيبك بضرر ولا ترفع يديها إلى الله بالدعاء عليك ، ولا يستمع الله
منها إلى شكاية »

فهذه الرحمة « البيتية » قديمة لم تتغير في الزمن الحديث ، ومن عظم
الرأفة بالبنين أن يمتد زمن الرضاع لهم إلى ثلاث سنوات كما يفهم من هذه
الوصية ، وأن الرأفة في تلك الأجيال السحيقة لغريبة ولو كانت رأفة
الآباء بالبنين

ومن الأخلاق التي تُلَازِم حب الأسرة ومُتانة الوشائج البيتية غيرة الزوجية وصيانة العرض واستهجان التفريط فيه لبلوغ مأرب واثقاء سطوة ، فيروض المصري نفسه على الضنك والرغبة ولا يروض نفسه على بيع العرض وابتذال البيت ، وينبغي هنا التفريق بين عرض وعرض والتمييز بين غيرة وغيرة . فإن البدوى مثلاً ليأبى أن يبذل عرضه ويشور على من ينتهك حرمة ، ولكنه يأبى ذلك كما يأبى أن يداس عليه مرعى الابل ومورد الماء ، ويغضب للزوجة وكأنه يغضب في منافرة أو مصاولة ، لأن اعتداء المغير على زوجته هو عنده بمثابة هزيمة في حرب أو نكوص في مجال صراع . أما المصري فغيرته على عرضه من نوع آخر ولعلة أخرى : إذ هو يغار على الزوجة اعتزازاً بصداقة متينة وأرحام أمينة ، وضناً بملاذ ألفة وسكينة ومأوى سعادة وطمانينة ، وانه ليغضب للزوجة وكأنه يغضب لقراية تقطع أو محراب يهان ، وهذا هو الفرق بين الغيرة التي منشؤها أدب الأسرة والغيرة التي منشؤها أدب القتال .

فالمصري اجتماعي من ناحية الأسرة وعراقة المعيشة الحضرية ، أو اجتماعي من ناحية انتظام العادات والعلاقات منذ أجيال مديدة على نظام الاسر والبيوت ، وهذا هو أقوى ما يربطه بالمجتمع أو يربطه بالأمة والحياة القومية ، وهو ارتباط أقوى في نفسه جداً من ارتباط النظام السياسي والمراسم الحكومية . فلم تكن الحكومة في تلك الأزمان الطويلة لمتزج بنفسه قطامتزاج الألفة والطواعية والمعاملة المشكورة . بل ربما كان صدوده عن الحكومة بما ضاعف اعتماده على الأسرة وحصر عواطفه الانسانية في علاقاته البيتية ، لأنها ملجأ خفيض ومهرب أمين من القسوة والمظالم ، وغاية ما يخامر من أمر الحكومة أنها شيء يدارى ما استطاع له المداراة ، ويستفاد من سطوته وجاهه ما تيسرت الفائدة ، ولا بأس بارضائها بالهدايا والمجاملات في غير

حفيظة ولا استكراه ، ولا عجب في هذا الشعور المبهم في زمن كان الناس فيه يعبدون آلهة الشر ويتزلفون اليها بالصلوات والقرابين ١

فعلاقته بالحكومة على الأغلب الأعم هي علاقة عداوة مريسة أو مهادنة محتملة ، لم تبلغ أن تكون علاقة ود يحرص عليه أو ضمان يحميه إلا في الندرة التي لا يقاس عليها . ومن ثم كان محافظا ومتحفزا للتغيير في وقت واحد ، أو كان محافظا في مسلكه الذي يدور على أصول الاسرة وعلاقات الرحم ، متمردا في مسلكه من ناحية الشؤون السياسية والمسائل الحكومية ، ومتى جد عليه جديد الإصلاح فإن يفلح عنده ولن يظفر منه بالترحيب والموافقة إلا ساعة يمتزج بنظام البيت والاسرة ويتسرب إلى حياته من باب عواطف الأرحام ومناظرات المنازل ، والأفلا أمل لإصلاح في توفيق

لكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن المصري ضعيف الاهتمام بالسياسة أو أنه مصدوف عن تتبعها واستطلاع أخبارها وماجرياتها ، أو أنه قليل البصر بمدخلها ومخارجها ، فإن الواقع قد كان على خلاف ذلك بل على نقيضه في عصور كثيرة ، والمشهور عن المصريين أنهم من أشد الأمم شغفاً بأحداث الدول وعناية باستطلاع أحوال الحكومات ، وقد يسرى بينهم شعور ملهم بدخائل الأغراض الخفية واتجاه الخير واتجاه الشر في الخصومات السياسية ، لما تعاقب عليهم من التجارب وتوالى على أسماعهم من أحاديث الصاعدين والهابطين والمقبلين والمديرين ، فإذا قيل إنهم اجتماعيون من قبل الاسرة وليسوا باجتماعيين من قبل الحكومة فليس معنى ذلك أنهم لا يشتغلون بالسياسة ولا يأنسون لحديثها ، وإنما معناه أن اشتغالهم بها في العصور القديمة لم يكن يتعدى جانب التحري والاستطلاع إلى جانب الخلق والتكوين

وإذا بدا على المصري أحيانا أنه ينتقاد في السياسة فليس معنى ذلك أنه لا يفهم . بل معناه أنه ينتقاد لأن الطاعة أشبه بنظام الاسرة من جهة ، ولأن أزمة الركود الطويلة من جهة أخرى ليس من شأنها أن تبعث روح الابتداء

والاقتحام، فالبقاء في الصفوف أيسر عنده من التفرد باعتساف الطريق ، وهو حتى في ثورته يريد أن يرى الصفوف حوله ولا يريد أن يعتسف الطريق وحده ، وكلما غلبت فيه نزعة الابتداء والاقتحام بغلبة الحرية والاستقلال — قلت فيه عادة الانقياد الاجتماعي أو قل فيه النفور من المخاطرة والأفراد .

ومما لا شك فيه أن الحضارة المصرية كانت منذ عهد عهيد حضارتين متجاورتين: إحداهما لأصحاب السيادة والأخرى للسودين الخاضعين ، وقد زعم بعض المؤرخين أن السادة والمساكين كانا جنسين مختلفين وعنصرين مستقلين ، وحديثاً رأينا أن ذوى السيادة بين المصريين كانوا من بلاد شتى وأجناس عديدة ، بعضهم ترك وبعضهم عرب وبعضهم غرباء من صنائع الفريقيين ، وبعضهم مصريون من أصحاب النباهة واليسار ، ويجب أن يحسب لذلك حسابه في اختلاف المشارب والأخلاق وتباين الميول والملكات ، إلى أن يتم مع الزمن امتزاج هذه العناصر كما امتزجت عناصر غيرها ، في كل فترة من فترات التاريخ .

والذهن المصرى العريق ذهن عملي واقعي سهل المنطق واضح في نظره إلى الدنيا وحكمه على الأشياء والناس ، شأنه في ذلك شأن أبناء الأمم الزراعية عامة .

فالأرض والغلة والنيل والفيضان كلها من الوقائع المحسوسة المطردة في قياس العقل بغير توثب في خيال ولا جماح من خاطر ، وهي تتصل بعالم الغيب اتصالاً بسيطاً لا يحوج صاحبه إلى التخيل والتغلغل ، وإنما يحوجه إلى الدين والايمان والانتظار في شيء من التسليم . ثم يتوطد الايمان والتسليم مع توطد الكهانة وتوطد الموروثات والعادات ، فيسلس ما جمح ويستقر ما اضطرب ويجرى على نمط هادئ من التفكير والنظر المحسوس . ولهذا خلق المصرى القديم عالمه السماوى فخلقه عالماً أرضياً آخر على غرار هذا

العالم الأرضى المشاهد بالعيان ، يأكل فيه الانسان ويشرب ويستعد له بزيادة
من طعام هذه الدنيا وبمتاع وآنية من متاعها وآنياتها ، ويحتفظ له بحسده من
العطب لأنه سيعيش هناك كما عاش هنا ، ويكون بعد الموت كما كان فى الحياة
ولهذوء العقيدة المصرية واستوائها وحضارة الامة التى تعتقدها وعذوبة
طبعها وإيناس عسرتها قد سلم الدين فى مصر من لومة العصية العمياء وقسوة
الهمجية الرعناء ، وسلم تاريخ مصر كله من المذابح الطائفية والضغائن الدينية ،
إلا أن يتسأل إليها ذلك من طائفة غريبة أو نخلة دخيلة ، وقد سلم الدين
المصرى من لومة الضحايا البشرية كما سلم من لومة التعصب والضغينة ، فلم تؤثر
عن المصريين فى أقدم عهودهم شعائر التضحية بالآدميين ومناسك التعطش إلى
الدماء . وكل ما حدث من التضحية الآدمية فى عهود التاريخ القديم فانما هو
الفتك ببعض الأسرى قبل أن تفرض حماية الأسرى فى آداب الحروب ،
ولا يحسب هذا من الشعائر أو المناسك التى يفرضها الدين ويجرى عليها
عرف المعابد والكهان

والمصرى عامل فى حياته كما هو عامل فى النظر إلى الحياة ، يخطئ كنهه
من يقرفه بالكسل ، ويجهله كل الجهل من يعزو إليه الركود وبغض الحركة ،
نعم أنه يألف أرضه ويسكن إلى تربة وطنه ولا يخف إلى هجرتها كما يخف
إلى الهجرة سكان البلاد التى لاصلة فيها بين المرء وتربة وطنه ومعاهد بلاده .
إلا أن عذره فى ذلك هو عذر جميع الأمم التى تعيش من الزراعة وتتصل
العلاقة بينها وبين أرضها ونباتها ، فأما أنه يعمل ويصبر على العمل فتلك خصلة
مشهودة يراها فيه رأى العين كل من شاهد الفلاح ينهض من الفجر للحرث
والسقى والبذر والجنى فلا يفرغ من عمله قبل الغروب ، إلا أن تكون غفوة
القيولة فى حمارة القيظ ، وهو يفعل هذا ويدمنه فى مواقته ولو كان هو مالك
أرضه وزارعها ، بلا تكليف من سيد أو مستأجر

ولقد صبر المصرى على العمل والمشقة ، ولقد عودته المواسم الزراعية أن ينتظرها كل شىء فى أوانه ، ويربط كل أمل بأجله ، فهو من ثم صبور طويل البال ، فيه اثارة من « القدرية » وانتظار الغيب وقلة استعجال المقادير ، وله فى هذا المعنى أمثال وحكم يتفق فيها عصر الفراعنة وعصر البخار والكهرباء ، أو يتفق فيها عصر الأناة وعصر السرعة والثوب

وشعار المصرى فى الخصومة : « اصبر على جار السوء يرحل أو تجيء له داهية » فهو صبور مسالم لا يعجل بالشر ولا يتفزز إلى الانتقام ، بيد أنه يصبر لينتقم ويصبر على المكايدة والنكاية كما يصبر ليرى عدوه راحلا عنه أو مصابا بدهية على يد غيره ، ومن الصبر وكتمان الغيظ ذلك اللدد الذى لا ينسى الخصومة ولا يقنع فى الثأر بما دون الاصماء والايجاع ، وشأن الأسرة فى خصوماته كشأنها فى جميع عاداته . فان عداوات الأسرة ومنافساتها لهى التى تدفع به إلى القتل وحرق الزرع وتسميم الماشية دون العداوات التى تغلب عليها الصبغة الفردية أو الصبغة العامة ، فيندر أن يقع انتقام فاجع فى الريف خاصة إلا لمحت فيه أن « ابن فلان » يثار من « ابن فلان » وقلبا يحدث أن هذا الفرد على حدة يثار من ذلك الفرد على حدة ، بغير نظر إلى القرابات والمنافسات

وهنا أيضا مجال تبيين منه الفرق بين تأصل الاخلاق الاجتماعية من ناحية الاسرة وتأصل الاخلاق الاجتماعية من ناحية النظام السياسى فى نفوس المصريين ، فالمصرى لا يحجم عن خطر فى سبيل الخصومات الأهلية من بذل المال إلى بذل الحياة ، فاذا احتمل من الحكومة ما ليس يحتمله من غيرها فليس انصافا ولا تمحيصا أن ينسب ذلك إلى الجبن والفتور ، وإنما الفرق الصحيح أو الفرق الأهم أنه لا يشعر بالنظام السياسى كما يشعر بالاسرة ، ولا يعيبه الخضوع للحكومة فى نظره أو ينظر مناقسيه كما يعيبه الخضوع لخصم

بيته وأقربائه ، وما لم يتساو الأمران عنده لا يحق للمنصف أن ينسب احتمالاً
إلى جبن أو فتور

وقد اشتهرت « النكتة المصرية » بين جيران مصر وعرف المصريون
« بالتنكيت » في الزمن القديم كما عرفوا به في الزمن الحديث ، حتى قيل إن
الرومان حرموا عليهم المحاماة في محاكم الاسكندرية ، لأنهم كانوا يغضون
من هيئة القضاء الروماني بالمزاح والدعابة ، في أثناء الدفاع وشرح القضايا ؛
ولست اللباقة وبراعة الحديث ولطف النادرة وحسن المؤانسة بالخصال
المستغربة في أمة قديمة الحضارة عريقة الآداب منصرفه في أكثر الأحيان
إلى السلم والمعيشة الوادعة ، وأخلق بهذه الخصال وحدها أن تكون ينبوعاً
فيأضاً للنكتة ولباقة التعبير في الجد والهزل على السواء ، فإذا أضيفت إليها
عبر الأيام ونقائض التاريخ وأطوار الحوادث المتعاقبة ففي ذلك مدد للفكاهة
لا ينضب ، وإغراء بالترويح عن النفس لا يزال يهديها إلى التبسط والمزاح
لذلك كان المصري مزاحاً بحكم لباقة المستفادة من قدم الحضارة ، ومزاحاً
بحكم الحوادث التي تلجئه إلى التخفيف وقلة الاكتراث ، ومزاحه في جميع
الأحوال متسم بالصبغة المصرية ، مطبوع بطابع إقليمه وتاريخه ، بحيث ينم
على خصائصه الفكرية والنفسية ويميزه نمطاً وحده قليل النظائر بين أنماط
الفكاهة والتنكيت .

والنكتة كما يعلم القراء إما نكتة دعابة أو نكتة تهكم ، وفي كلتا الحالتين
تتميز للمصري دعابة تشبهه ، وتهكم يناسب طبيعته وتاريخه بلاده

فأما الدعابة فهي تقوم في الغالب على إدراك النقائض وملاحظة المفارقات
ويختلف فيها الناس باختلافهم في التفكير والشعور والنظرة إلى الحياة .

فالعمليون الحسيون يدركون النقائض بين الأشكال والصور ويوجهون

التفاتهم إلى المشابهات اللفظية والتجنيسات المعنوية ، التي لا تمنع في التعمق ولا في التفتيش الخفى عن الأسرار

والخياليون المتعمقون على خلاف ذلك ينصرفون عن الأشكال والصور إلى ما وراءها من نقائص الأسرار ودخائل الاحساس والعاطفة الخفية ؛ فيقل في نكتهم جناس اللفظ والالتفات إلى المحسوسات ، ويكثر فيه جناس البداءة البعيدة ، والالتفات إلى الأسرار العويصة

ومن البديهة أن النكتة المصرية ان تكون في جملتها إلا نكتة محسوسات لا تنمادى في الخيال ولا تتعلق بالغوامض ، لأن أصحابها قوم عمليون حسيون يقيسون الأمور بمقاييس الوقائع والتجارب العيانية أما التهمك فأنت خليك أن تعرف أخلاق الأمة بحذافيرها من عرفانك بأسلوبها في تهكمها وسخريتها

فانك إذا عرفت ما تسخر به الأمة عرفت ما تجله وتحوطه بالهبة والكرامة وتهكم المصريين كله مصبوب على الجلافة والغفلة ، فشال الرجل الكامل عندهم هو اللبق اليقظ الذى يتجنب الخشونة ويفطن للخداع والمراوغة فلا تجوز عليه حيلة ، وأى شىء هو أدنى إلى الطبيعة المصرية وأشبه بالتاريخ المصرى من التهمك على هذا الأسلوب !

فالجلافة في القول أو في التصرف هي أول شىء يضحك منه أبناء أمة قديمة الحضارة مصقولة الحاشية تأنقت في الكلام حتى جعلته فنا كثير اللحون والاشارات ، وتأنقت في الكياسة وآداب المعاملة والمعاشرة حتى جعلتها فنا كثير المراسم والأصول ، لا يتقنه إلا من نشأوا عليه بالتربية والمرانة

أما الغفلة فالمصرى يزدرىها ويزدرى من يقع فيها ، لأن الحوادث والمظالم قد أحوجته إلى الحيلة وحسن التخلص ، واضطرته إلى التصرف بين الناس على حذر وكياسة توافق مصلحته وتليق بأدبه ، وجاءه المرتزقة من أبناء الأمم المشتغلة بالتجارة وترويج السلع الغريبة فأحوجوه مرة أخرى إلى

الحيلة واليقظة واجتناب الغفلة ، لأنهم كانوا جميعاً قنّاص كسب لا يتورعون عن خطفه واختلاسه بكل وسيلة ميسورة ، ولا يزالون محميين مرعيين وهو بينهم فريسة مباحة الذمار ، لا تأوى إلى حماية ولا تعدل على رعاية

وقد زار مصر رجل انجليزى هو روبرب كرزون صاحب كتاب « الأديرة والمعابد » فى شرق بحر الروم قبل قرن على التقريب ، فوصف أخلاق بعض الباعة المخادعين الذين ابتلى بهم المصريون فى ذلك الحين ، فقال إنهم على الجملة أنذال يتفاخرون بالحتل والاحتياى ، وإن هناك بيانا صحيحا لنصيب كل طائفة من القدرة على الخش والسرقة يدل عليه هذا التقدير « فلا بد من أربعة أتراك الخداع أفرنجى واحد ، ولا بد من أفرنجيين متعاونين لخداع أغريقى واحد ، ولا بد من أغريقيين مشتركين لخداع يهودى واحد ، ولا بد من ستة يهود معا لخداع أرمنى واحد »

وهؤلاء كلهم كانوا فى العصور الوسطى وما بعدها مسيطرين على المصرى الأعزل ، يزيفون له البضائع ^{التي} ويخدعونه عن قيمتها وعن درجتها وعن ثمنها وعن حاجته إليها ، بعد أن قضى العصور وراء العصور محتاجا إلى الحيلة والكياسة لا تقا ظلم الظالمين وغضب انغاصيين ودسياسة الدسائسين . فليس بعجيب بعد ذلك كله أن يزدري الغفلة وأن يجعلها هدفا لتهمكه وغرضاً « لقوافيه » وقفشياته

ولقد يكون ولعه بالكناية — بل إفراطه فى حب التورية والجناسات اللفظية — ناجما من هذه الحاجة إلى الكياسة فى التعبير واللباقة فى إبلاغ الإشارات والتلميحات إلى المعنيين بها من السامعين

ولم يظهر حب اليقظة والزراية بالغفلة فى النكتة المصرية وحدها ، بل ظهر فى جميع الآثار الفنية التى تعبر عن معاملات الشعب ومعايشاته ، فامتلات القصص والنوادر بكلمة « الملاعب والمغاز » وازدحمت بأفانين الشطار والعجائز الماكرات فى نصب الفخاخ والأشراك كما ازدحمت بأفانين

الأذكىاء والظرفاء في اجتناب ما ينصبه من فخاخن واشراكن . فكان مدار
القصة والنكته معا على الغفلة واليقظة أو على الجلافة واللباقة ، وكان في
هذه وتلك مجال واسع للانتقام من الحكام ، الذين يصلون بالسلاح والبأس
وهم فيما وراء ذلك أجلاف مغفلون !

ويخيل إلينا أن النكته المصرية والنسك المصري أخوان توأمان أو
صنوان يتجاوران ، فالنفس المصرية التي أرهقتها الحضارة ودمتها المؤانسة
وصقلتها المعيشة المنتظمة لن تستغنى عن ملاذ تسكن إليه كلما اشتد عليها الجور
وضاقت بها مفاسد الحياة العامة ، فإذا غلبت على المصري محبة المتعة والنعمة
الرخية فلأذه النكته والفكاهة ، يروح بها عن نفسه ويفرغ فيها جمعة
ضميره . وإذا غلبت عليه الصرامة وقلة الصبر على الفساد جنح إلى النسك
والزهادة وعمد إلى الرهبانية أو الدروشة كما فعل مرات كثيرات في عهود
الديانتين المسيحية والإسلامية ، أما إذا سنحت فرصة التمرد والانتفاض
فالثورة ملاذ لا يأباه صاحب المتعة ولا صاحب الصرامة

وقد رجحنا أن النسك المصري والمزاح المصري أخوان توأمان ،
لأنهما يدوران معا على الاستخفاف بسوء الحال واليأس من صلاح الأمور ،
وإنما يستخف أحدهما بحاله فيهجره ويعزف عنه ، ويستخف به الآخر
فيأخذه على هيئة ويسخر به لكيلا يجهد نفسه بهجره وكفاحه ، فليس
المصري بناسك على طراز ذلك النسك اليابس العقيم الذي يحمل الحياة
ويقابلها بالنفي والانكار ، ولكنه ناسك حين يكون النسك « عملا إيجابيا »
يقاوم الشر ويود صاحبه لو يقرر الخير في هذه الحياة ، وليس بالمستطيع

وأشبه بهذا أن يضاف إليه ما كتبناه في مقال « معبد ايريس » عن
الطبيعة المصرية حيث قلنا منذ بضع عشرة سنة : « كلما اقترب الموكب الضاحك

من جيرة المعبد بدا لنا منظر عجب : ههنا شعب يطير حول السرور طيران
الفراش حول النور ، وههنا معابد تسكن فيها حركات النفس. وتركد فيها
نسمات الحياة . وهذه المعابد تقيض ذلك الشعب وعلى خلاف سمته وسنته
ومن واد غير واديه الذى يهيم فيه ، فكيف مع هذا كانت معابده التى يذكرونها
فيها ربه ويعكس عليها ظل العالم فى نظره ؟ ويشكو لديها ما يلقاه من أمور
دنياء وحظوظ حياته ؟؟ أليس هذا من التناقض الحقيق بالعجب ؟؟ أليس
هذا الشعب المستبشر قد كان أولى بغير هذه المعابد الكاسفة الواجحة ؟؟

أما التناقض فلا شك أنه ملحوظ لسكل ناظر ولكن فى ظاهر الأمر
لا فى باطنه . فالحقيقة التى يهتدى اليها المتأمل ان هذه المعابد خلقت لهذا
الشعب ، وان هذه الجهامة لازمة لتلك الطلاقة ، وأن الشعب الذى يملك
حسه السرور ويسهل استخفافه للطرب وانتقاله إلى المجانة ليس يصلح له
معبد فيه أثر من الطرب والبهجة ، وليس ينقله من عالم اللهو الى العالم الالهى
منظر عليه مسحة من الطلاوة والبشاشة . فلا بد له إذن من جهامة تخيم حوله
على كل شيء حتى يثوب إلى مقام الخشوع والضراعة ، ولا بد أن ينسى كل
ما يذكركه بالهزل والخفة ساعة يغشى محراب العبادة ، كالطفل اللعوب لا تعلمه
أن يهابك ويتحاشى التأديب منك باللعب معه والتطلق فى كلامك له ، وإنما
يتعلم ذلك بالاحتجاز والجد أو بالقطوب والجفوة

من مثل هذا جاءت الصرامة البادية على معابد المصريين وتطرفت
الشدة إلى شعائرهم الدينية ، وبلغ من حاجتهم أو من رغبتهم فيما يذكرونها بالحزن
ساعة الصفو والرغد انهم كانوا إذا اجتمعوا فى ولائهم وظهر السرور على
وجوههم وأخذوا فى الرقص والمعاقرة وأمعنوا فى القصف والمسامرة خرج
عليهم المعبد بجثة مخنطة فى ناووسها فمروا بها بين الموائد وعرضوها على
الضيوف والندماء لينظروا اليها ويعتبروا بها ، ويذكروا مصير ما هم فيه من
نعيم زائل ولذة عاجلة

ولا يفوتنا أن نقول إن المصرى إذا سر قائما يملك السرور حسه ولا يغمر نفسه ، فهو لا يألف السرور الصامت القرير ولا يعرف إلا التهليل والابتهاج أو السكون والخواء . لا تسر نفسه وجسمه ساكن ولا يسكن جسمه وأمامه محرك للسرور أو مذكرة به ، وكيف يطيق من كان هذا طبعه أن يجمع بين التعبد وشيء من بوارى الصفو وبشائر الحياة في أماكن عبادته ومناسك دينه ؟ ثم إنك أن أردت أن ترد المصرى إلى طبعه وترى حقيقة المناسبة بينه وبين معابده فانظر إليه حين يفرغ من سروره الذى يستحوذ على حواسه ويستخف أعضاء جسمه ، فانك تراه واجماً مقفر النفس بادية الظلمة هامة العاطفة ، ويدرك أول شيء بالمعبد المصرى القديم الذى نستغربه ونعجب أن يكون محل صلاته وباب دنياه الآخرة . فاذا هو هو فيما يغيم على ظاهره من السكابة والخوف ، ويرين على باطنه من الظلام والتسليم

ولنعلم أن المعبد المصرى فى العصور الأولى هو قرين المقبرة وصنو الموت ودهليز العالم الأخير ، ثم لنعلم بعد أن الموت عند قدماء المصريين هو هجرة الحس إلى حين وراحة الجسم إلى أجل ، ثم تعود الروح إلى هذا الجسد الأول كما كانت قبل بعثها من عالم الأموات

ومرادنا بذلك أن نقول : إن الجسد جزء من الإنسان لم يكن يستغنى عنه فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ولا يجوز أن يهمل فى حالة من الحالات أبداً . فما كانت تعرف للنفس حياة بغير هذا الجسد ولا كان يفهم لها سكون أو حركة بغير سكون الجسد أو حركته ، فاذا أرادوا أن يحملوا النفس على الخشوع والتطامن فسيطلبون أن يتقدموا إلى ذلك باستئثار الحس وإحاطة الأعضاء بما يكف من نشاطها ويغل من حراكها وينسيها أبرأ مرخصات الحياة وأبعد موحيات الطرب ، وأن يدخلوا العابد المصلى فى برزخ بين الحياة والموت وجسر بين الدار والقبر . . . وما ذاك إلا الهيكل القديم كما بناه

المصريون لأنفسهم أو كما بنته لهم الطبيعة التي لا تخطيء لها هندسة ، ولو بنت
بأيدي الخاطئين »

تلك خطوط عاجلة لخصائص « النفس المصرية » كما ترى بعين الواقع
لا كما ترى بعين الغرض والخرافة ، وهي خصائص إنسانية تقتزن بالقوة
فتعدهن أقوم وأفضل ما عرف عن أخلاق الشعوب ، وتقتزن بالضعف فتسوء
وتتغل . ولكن نظيرها في مساوىء الضعف بين شعوب العالم ليس بقليل

أصل سعد

بعد الأوهام التي شاعت عن الطبيعة المصرية وناقشناها في الفصلين السابقين يسهل علينا أن نفهم لماذا يشك بعض الناس في انتساب سعد إلى الأمة المصرية ، لأنهم يستكثرون أن ينبغ رجل كسعد في مضاء عزيمته وعلو همته وصراحة رأيه ، في أمة شاع عنها ماشاع من تلك الأوهام

ومن عجائب العظمة — والعظمة كلها عجائب — أن يتناول الخلاف في أمر زعيم الوطنية المصرية كل شيء حتى نسبته إلى تلك الوطنية ، ولعله لو لم يتبوأ مكان الزعامة منها لأصبح في نظر المتقولين مصرياً لا نزاع فيه !

وسيرى القراء من الفصول الأخيرة في هذا الكتاب أن مزايا سعد جميعها كانت مزايا « المصري القوي » بلا استثناء خصلة من الخصال ولا خلة من الخلال ولا عمل من الأعمال . فهو في خلائقه العملية وفسكاهته الحاضرة واعتداده بالأسرة وكرامته للغفلة وإيمانه بالغيب مصرى فلاح من طينة المصريين الفلاحين : طبيعته هي طبيعة الفلاح في صورة واسعة وأطار كبير ، وطبيعة الفلاح هي طبيعة سعد في صورة ضيقة وأطار صغير أو منحرف بعض الانحراف ، ولكنهما على نموذج واحد في الوضع والصناعة .

وإن شئت التقريب بتشبيه « فلاحى » فقل إن كل فلاح في مصر إن هو إلا جدول صغير إلى جانب ذلك النيل الكبير ، يخالفه في طوله وعرضه وعمقه واتجاهه ؛ وقد يخالفه في الركود والحركة والتغير والنقاء ، ولكنه لا يخالفه في أصل المورد ولا في عنصر الماء .

بيد أننا نلتفت إلى الأقاويل التي قيلت عن أصل سعد لأنها جزء من تاريخه ، ومن الواجب علينا أن نعرف منشأها وسبب ورودها على بعض

الخواطر ، وأن نعرف مبلغها من الصدق والشبهة ، لتأخذ حقها من العناية وقد اتسعت مسافة الخلف بين أقوال المتقولين وفروض الفارضين اتساعاً يدل على ضعف الأسانيد والظنون التي يعتمدون عليها . فبعضهم ينسبه إلى المغول أو الترك وآخرون ينسبونه إلى البدو أو العرب ، وغير هؤلاء . هؤلاء ينسبونه إلى المغرب أو إلى القبائل البدوية التي ذهبت من مصر إلى المغرب في الفتوح الإسلامية الأولى ثم قفلت راجعة بعد جيل أو جيلين ، بعضها إلى الصعيد وبعضها إلى إقليم البحيرة وما جاوره من أقاليم مصر الشمالية

والأجانب هم الذين ينسبونه إلى المغول ومن يدخل فيهم من العناصر التركية ، وقد لمحت « التيمس » إلى ذلك تلميحاً عارضاً في خلال كلامها عنه بعد وفاته ، فقالت : « إنه كان طويل القامة نحيل البنية عريض المنكبين أسمر اللون مع شيء من الصفرة وعظماً خديه بارزان ، وعيناه ضيقتان ، فكان له في ذلك مسحة من سيما المغول »

ونعتقد نحن أن أبعد شيء عن الحقيقة هو هذا الفرض الذي لا يستند إلى غير هذا « الشبه » المزعوم ، وليس هو مع ذلك بالشبه الصحيح . فان ملاح سعد لا تذكر أحداً بالملاح التركية ولا سيما شكل الجمجمة المستطيل والأنف المنفرج ، وأسماء الأسرة كلها ليس فيها اسم واحد يشبه أسماء البيئة التركية التي لا يعقل أن تنسى أسماءها وتندمج في عنصر الفلاح كل هذا الاندماج بعد جيلين أو ثلاثة . فسعد الله وفتح الله وفرج الله وشلي وستهم والشناوى وشعث واسم زغلول نفسه هي من الأسماء التي لا تمت إلى البيئة التركية ولو بعد أحقاب . وقد تكون فيها مشاركة للتسمية البدوية ولكنها لا تشارك الأسماء التركية من قريب ولا بعيد

أما الذين ردوا أصله إلى البدو والعرب فشبهتهم في ذلك هذه الأسماء ، وأن أباه كان يلبس الطربوش البدوي والنطاق البدوي ويحمل السلاح كما

يحملة زعماء البدو على خلاف عادة الفلاحين . ومن البديهي أن هذه الأسماء شائعة بين الفلاحين كشيوعها بين العرب ، فليس فيها دليل ولا مظنة دليل . أما لبس الطربوش والنطاق فلم يكن هو لبس القبائل البدوية الأصيلة وإنما لبسوه لأنهم كانوا يقلدون حكام العثمانيين ، كما كان يلبسه سروات البلاد جميعاً ومنهم كبراء القبط الذين لا يشك في نسبتهم إلى العنصر المصري العريق ، والذين يحتفظ أبنائهم واحفادهم إلى الآن بصورة لهم ظهوروا فيها بالطربوش والنطاق والسروال كما كان يظهر الأمراء والحكام

وقد عثرت على نسبة قديمة لبنت من بيوت إقليم الغربية يسمى بيت الدباوية دلتى عليها السرى المعروف السيد عبد الهادى القصبي واهتدى إليها هو فى مراجعة بعض التراكات . هذه النسبة تصعد إلى رجل يسمى السيد جبير « الكائن مقامه بمحلة الأمير بإقليم البحيرة بالبحر الغربى بناحية رشيد » وتبعد من ثم إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه . ومن فروعها رجل هو كما جاء فيها بنصه « من جملة عصابة البطل الهمام سيدى محمد الخشوعى الكائن مقامه بالبراس بحارة الهزالان من أقارب أقاربه من جملة المائة ثمانين الشريف الذين توجهوا صحبته من مدينة فاس إلى أن أتوا معه بأرض مصر وكانت النصر على أيديهم وهما محبين للبطل الهمام بايعين أنفسهم فى الحرب والقتال » ويقول كاتب هذه النسبة : « ويرجع القول المفصل فى نسب السيد يوسف بن السيد عز الدين المذكور أعلاه أنه عقب ولده لصلبه السيد يوسف والسيد يوسف عقب السيد منصور والسيد منصور والسيد شاهين والسيد حسين . فأما السيد حسين عقب السيد محمد الأشعث وعقب السيد زغلول وتوجهوا ونزلوا بناحية مطوبس . فأما السيد محمد قطنى بقرية تسمى القنى وأما السيد زغلول قطن بعد مطوبس بالبيانات وكل منهم عقب رجالات . وأما السيد منصور والسيد شاهين توجهوا من البهنسة الغربى ونزلوا بإقليم الغربية وقطنوا بقرية تسمى سنياط الخ »

وأقوى ما في هذه النسبة أنها لم توضع لأسرة زغلول ولا لأسرة تدعى
القراية منها في الزمن الحديث حتى يقال إنها وضعت لمصلحة الأسرة ، ولكن
الاتصال « بزغلول » جاء فيها عرضاً ، وجاء موافقاً للمعروف من أن جد
الزغلولين نزل في « إيبانة » أو في البيانات كما كانت تعرف في ذلك الحين .
كذلك يتفق ما في هذه النسبة وما هو معروف من طريق القبائل العربية
التي رحلت إلى المغرب وعادت منه إلى الصعيد الأدنى في النيا وبنى سويف
والفيوم أو إلى الأقاليم الشمالية في البحيرة وما جاورها . ومن قديم الزمن
— إلى أبعد عصور الفراعنة — كان إقليم البحيرة مرتاد القبائل البادية التي
تردد في أفريقية الشمالية بين مصر وأقصى المغرب .

فهذا أقوى ما في هذه النسبة من مظنة ، ولكسنا لا بد لنا من الإشارة إلى
بعض مزاعمها ليقف القارىء على حظها من التحقيق في شتى المسائل . فن
كرامات بعض سلالتها : « أنه أرسل نقيبها إلى مدينة فوة وقال له تتوجه
إلى أفندى فوة وتأخذ منه إذن على الحجر الذي في الوكالة الذي عليه الطلاسم
وتخلى الأفندى السكان بمدينة فوة يرسل معك رجالا من أتباعه ينزلون لك
ذلك الحجر في المركب فان أجابوا بذلك يا ولدى فخذ وأحضر لنا به وإن
أبوا وتخلفوا ولم يسمعوا الكلام ويمتشلوا إلى الفقير ولربه الخير وإلا
يا ولدى ترجع من عنده إلى الحجر وتقف عند طرفه اليمين وتشير بيدك
يا ولدى وتقول له يا ولدى إن الشيخ يدعوك إلى منزله أيها الجماد وهو
يحضر لنا في ذلك فاذا كان البحر يا ولدى فاجلس فيه فانه يحضر لنا بك .
قال فتوجه النقيب فأبوا عن ذلك وقالوا له لا نسلم لك في ذلك الكلام . فان
سلمنا فان الوكالة تخرب ، ولكن قل يا فقير إن كان أستاذك له كرامة فتقل له
يأخذ الحجر بشرط لا يؤذى وإلا لا يكون هذا الكلام . وإحنا لا نمنع
من ذلك ، فما كان أمر النقيب إلا أن توجه إلى الحجر حكم ما أشار له أستاذه .
ودعاه فأتى كلامه حتى انتقل الحجر من مكانه ولم يأذ البناء ونزل في البحر

وجلس النقيب عليه وتوجه إلى ناحية القبلة والناس مجموعين عنده ينظرون.
الخ الخ .»

وفي موضع آخر من النسبة « أما من كرامات السيد الشريف جبير كان يطوى كل ثلاث سنين طيا صيام ومن جملة كراماته أنه كان يناغي الطير في جو السماء والسماك في قرار البحار والوحوش من الأبقار وتتكاثر عليه السباع وكل منهم ينخ لحضرة الأستاذ أن يركب عليه . . . »

وفيا بيناه من جانبي القوة والضعف في هذه النسبة الكفاية ؛ ولولا أن اعتقاد هذه الكرامات لأصحابها لا يمنع وجود أوائك الأصحاب في تلك البلاد لما تكلفنا الإشارة إليها

قال لي الأستاذ محمد زيد الأياني رحمه الله وهو من الثقات : « إن إيانة تنقسم إلى ساحل وبرية . وفي هذه البرية - وهي الآن تابعة لكفر الشيخ - ضريح ولي اسمه زغلول على قرب من سيدى غازى » قال الشيخ زيد : وقد حضرت مجلساً فيه أشقاء سعد قدم إليه نقيب ذلك الولي وقال لهم : « تعالوا خذوا نسبكم من عندي » فلم يحفلوا بأمره .

ومن هذا نعلم أن أسرة سعد لم تكن تعتد بذلك النسب ولم تكن تحتفظ به من باب أولى . على أنه لو صحح على علاقته لأثبت أن لسعد سلفاً في مصر عاشوا بين أهلها وصاهروهم مصاهرة طويلة يرجع تاريخها إلى مئات السنين، فله بذلك عراقة في بيئة الفلاح لا تفوقها عراقة زعيم من أبناء الأمم الأخرى في بيئة قومه . إذ ليس بين كبراء الأنجليز أو الفرنسيين أو الإيطاليين أو الألمان من هو أعرق في الانجليزية أو الفرنسية أو الإيطالية أو الألمانية من سعد في السلالة المصرية .

وقد خطر لي أن أسأل سعداً في صحة ما يقال عن نسبته المغربية فقال لي وهو يضحك : « إن القصة كلها من وضع محام عتيق كان من أصحاب الحيل الدفاعية والأساليب المستظرفة في « تخليص القضايا » على طريقة تلك الأيام

قال رحمه الله : « قبض علينا في بدء عهد الاحتلال ولبثنا في السجن زمنا بعد وضوح براءتنا وإدعاء المحققين رأيهم الصريح بهذه البراءة ، وألح علينا بعض الصحاب أن نبلغ الأمر إلى الانجليز طلبا للإفراج عنا فرفضنا ، فكان من الحيل التي لجأ إليها محامينا الأريب أنه التمس لنا أصلا أجنيا وكتب لنا نسبة سلسلة كنا نحن اول المستغربين لها الضاحكين منها حين اطلعنا عليها بعد الإفراج عنا ، وإنما ألجأه إلى هذه الحيلة أن فرنسا كانت قد استولت على تونس وأخذت في ضم التونسيين المقيمين بمصر إلى رعاياها ، وكان بعض الناقمين منا يريد عقابنا وتلفيق الشهادات التي تلصق التهمة بنا ، ثم أرادوا أن ينفوننا إلى السودان بعد تهافت التهمة وظهور بطلانها ، ولم تكن النسبة المغربية سبب نجاتنا كما أراد محامينا جزاه الله ، ولكنها بقيت فكاهة تتذاكرها ويتحدث بها أصدقاؤنا ، وتخلفت منها تلك الاثارة التي سمعت بها ، ولا منشأ لها غير تلك النسبة الموضوعة »

ذلك هو رأى سعد في أصل النسبة المغربية ، وكل ما قاله سعد عن أصله يدل على أنه كان يعتبر نفسه فلاحاً مصرياً ولا يرضى بأن يسلكه أحد في غير زمرة الفلاحين المصريين

والعجيب أن الذين نعتوا سعداً بالفلاح لم يكونوا كلهم من أنصاره ، بل كان فيهم فئة من أعدائه لم ينسبوه إلى الفلاحين اعترافاً بزعامته أو تصحيحاً لنسبه ، ولكنهم جروا على عادة فريق من المتتركين ظلوا يترفعون عن طبقة الزراع ويحرصون على نسبتهم التركية ، حتى استقرت النهضة الوطنية في قرارها فغيرت شيئا من تلك العادة

ويشبه ذلك في العجب أن الذين شكوا في نشأة سعد من سلالة مصرية صميمة لم يكونوا كلهم أعداء له أو أعداء لهذه الأمة ، بل كان فيهم فئة مصرية خالصة النسب صادقة الغيرة داخلها الحزن على أحوال بلادها والريب في غيرة اخوانها ، فضعف رجاؤها في مصيرهم ، ويئست على مضض أو كادت

أن تيأس من فلاحهم ، وأصبحت وكأنها لاتصدق أن واحداً منها يرتفع إلى ذلك الأوج الذى ارتفع اليه زعيم مصر فى نهضتها ، وينطوى على مثل تلك العزيمة الماضية والهمة الرفيعة والقدرة الراجحة ، فهى تشك فى نسبة سعد إلى طبقة الفلاحين من فرط الاعجاب به وفرط الأسى على وطنها ، وتبدى ذلك الشك وبين جوانحها شعور الأب الذى يقول لابنه « إنه ان يفلح » وما يتمنى له من وراء قوله إلا الفلاح

وقد شاع بين الفلاحين أنفسهم المثل القائل : « إن الفلاح إذا تمدن يجر على أهله داهية » وهو فيما يلوح لنا من وضعهم لامن وضع الأجانب المتمصرين ، لأنه أدنى إلى السليقة المصرية بما فيه من روح الفكاهة والتهكم ، وإنه لدليل على ما صارت اليه حالة الأمة من الظن بنفسها قبل النهضة الأخيرة التى عاودت بها ثقها وكبرياءها ، وإن كان المثل فى مغزاه لا يدل على تجرد الفلاح من القدرة وخلوه من ذوافع الطموح

وينبغى للذين يستريون هذه الريبة ويحسبون الفلاح مخلوقاً للضم والاستكانة أن يذكروا ثورة الفلاحين على الحكم التركى وثورتهم على الحماية البريطانية ، كلاتهما نشبت فى جيل سعد بين شبابه وشيبه ، وكلاتهما كانت ثورة قومية فى سبيل الوطنية المصرية والسيادة المصرية ، وكلاتهما قادها فلاح ابن فلاح وهما احمد عرابى وسعد زغلول ، وقد انتسب عرابى إلى السلالة النبوية كما كان يفعل كثير من المسلمين ، ولكنه على كل حال أعرق فى بيئته المصرية من أكثر زعماء العالم فى بيئتهم القومية ، ولم يكن فى وسعه أن يصنع شيئاً بغير طبقة الفلاح ، حامل الفأس ولا بسن الجلباب الأزرق

جيل سعد

جيل سعد هو الجيل الذي نشأ وترعرع فيه ، وهو أقرب الأجيال إلى جيلنا الحاضر ، لأن أبناء الجيل الحاضر قد شهدوا بعض سنواته وعاشروا بعض أبنائه ، وانساقوا لبعض عوامله وتأثروا ببعض مؤثراته . فهو من ثم أصعب علينا فهما من الأجيال التي بيننا وبينها فجوة بعيدة

لأنك ترى رأى العين ما يشبه جيلك وما يخالفه فى وقت واحد . فلا تقول هوشيه بجيلنا حتى تعود فتقول : هو على خلافه ، وتشك فى المشابهة التى لمحتها بيننا وبينه . ولا تحاول ان تحصر الخلاف فى مواضعه حتى تلتبس عليك وتمتزج أمامك بمواضع المشابهة والمقاربة . وكثيراً ما يكون الفرق بين جيلك والجيل الذى قبله فرقاً بين ابتداء المرحلة وانتهائها لفرقا بين نحوين مختلفين أو مذهبين متعارضين . فأنت محتاج إلى مقياس واحد ومحتاج كذلك الى مقياسين لاغنى لأحدهما عن الآخر . وهنا يكون التبلبل والتردد والضلال

وليس هذا كل ما يعترضنا من الصعوبة عندما نحاول الحكم على جيل متقدم علينا ، إذ نحن لانسى ان الأمم الشرقية قضت ردحا من الزمن تعجب بكل ما مضى وتنكر كل ما حضر ، وأنها تحاولت من ذلك رويداً رويداً فى أيامنا حتى انعكس الأمر فأصبح الغالب على الناس أن ينكروا كل ما مضى وينقلوا الاعجاب كله إلى الحاضر تارة وإلى المستقبل تارة أخرى فقبل خمسين سنة كان الحكم على الأجيال السابقة من أسهل الأمور عن كل انسان ، لأن الأجيال السابقة كانت هى الفضلى فى كل شيء ، والمقتدى بها فى كل غاية ، أما اليوم فلا خوف من محاباة الماضى وتفضيله فى غير مدعاة لتفضيل ، وإنما الخوف أن نجور عليه ونستصغره ونمسخ مزاياه ونرى غريباً فيه ما لم يكن بغريب

ومحل الصعوبة هنا أن أعداء الماضى وأنصاره لا يزالون كلهم فى قيد الحياة ، وأن منهم من هو عدو للماضى فى ناحية وصديق له فى ناحية ، فإذا تناولنا المقياس لنقيس به جيلا سبقنا ولم يعزب عنا بجميع مزاياه وجميع عيوبه ، فهنا لك أيضا تلبيل وتردد وضلال

والذى تنتهى اليه بعد طول المقابلة بين جيل سعد وما بعده إن ذلك الجيل — على نقص نصيبه من التعليم والتقدم — لم يخل من مزايا خاصة يرجع بها ما بعده رجحانا كان له شأن كبير فى نشأة سعد وأعماله فهو قبل كل شىء جيل ثقة ويقين متفق عليه ، سيان فى ذلك عقائد الدين وأفكار العصر الحديث

اليوم لا يعرف الناس عقيدة من العقائد ولا مذهبا من المذاهب الا قد عرضوها مرات على محك النقد والتحليل

فما هو الخير وما هو الشر ؟ وما هو الحسن وما هو القبح ؟ وما هو الشرف ؟ وما هو الضمير ؟ وما هو الجور وما هو الانصاف ؟ كل أولئك قد تعددت فيه الأقوال وتناقضت فيه الحجج وتصادمت فيه العقول ، فمزقته الشكوك وتعذر فيه اليقين المتفق عليه

أما قبل ستين سنة فقد كان العرف من هذه الجهة على صراط مستقيم لا حيرة فيه : فالحلال بين والحرام بين ، وما يستحق النقد والتشهير من أعمال العلية الحاكمين أو غير العلية الحاكمين أمر مفروغ منه لا يقبل الشك والمناقشة . وربما وقع الخلاف على الرجل هل هو خير أو شرير ولكن إن يقع الخلاف على الخير أو الشر ما هو وما علاماته وما اشراطه ، ومرجع الرأى فى هذا وذاك الى القانون الدينى الذى كان ساريا بين المتدينين مريانه بين غير المتدينين

ولم يكن ذلك شأن القانون الدينى وحسب ، بل كان شأن المذاهب

العصرية والدعاية الشائعة يومئذ عن الحرية وحقوق الشعب ،
وحقوق الحكومة .

فكانت الثورة الفرنسية في جذتها ، ومبادئ الحرية والأخاء والمساواة
على أشدها ، وكانت في أذهان المستنيرين كأنها تنزيل لا يجوز فيه جدال ،
بل لم تكن أطوار الاجتماع وفلسفة الدراسات النفسية قد أخرجت للناس
تلك الدعاوى التي يستند اليها من يجادل الآن في مبادئ الحرية والأخاء
والمساواة ، فكانت حقوق الشعوب ومعايير الرجال والأمم قسطا سائلا لا نزاع
فيه من جانب الدين ، ولا من جانب الفلسفة الحديثة ، والمذاهب
الاجتماعية السارية .

وفي أجيال الثقة واليقين التي من هذا القبيل يسهل تكوين العزيمة
وتعريف الحقوق التي تطلبها الأمة ، وتثور من أجلها وتدين من يخالفها

هذا وقد اجتمع لأبناء ذلك الجيل سببان لطلب الإصلاح : أحدهما من
داخل الأمة والثاني من خارجها

فأما السبب الداخلي فهو استفاضة المظالم واستفحال الخطوب ، وشيوع
الخراب والفساد في أعمال الحكومة ومرافق الرعية ، وتمادى الشر في ذلك
كله إلى مدى لا يطاق الصبر عليه فوق ما صبر الصابرون

وأما السبب الخارجي فهو انتشار دعوة الحرية في الغرب وتعاقب الأنباء
بالثورات على الطغاة ، انتصافا للشعوب وذوداً عن حقوق الأفراد

هذا وذاك — مع الثقة بالحق وانتباه العقول في طور النهضة الاولى —
قد كان لها جميعا أثر في تكوين جيل سعد وتزويده بالحمية والصرامة اللتين
لا غنى عنهما في عصور الوثوب والإصلاح .

أضف إلى ما تقدم أن جيل سعد كان بمشيئته وبغير مشيئته — أقرب إلى الوطنية المصرية الصحيحة من الجيل الذي لحق به في أوائل عهد الاحتلال البريطاني . فقد كان جيل سعد يحارب طائفة من الترك والمتركين ، ويناضل في ميدان مشتبك بين عنصر الفلاح وعنصر الحكام المستأثرين بالمناصب المترفعين على سواد الأمة ، فكان من الطبيعي أن يناضل لمصر دون غيرها ويجعل شعاره في الوطنية ان « مصر للمصريين » وأن البلاد لأبناء البلاد ولمن لا يبرأون من النسبة إلى البلاد ، ولم يكن الجيل الذي لحق بالاحتلال ينحو هذا النحو في دعوته الوطنية ، لأنه كان يصطنع الحكمة ويختصر المسافة فيما يحسب حين يضرب الاحتلال البريطاني بالسيادة التركية ؛ فكان يصر على اتباع الدولة العثمانية اصرارا لا معنى له في دعوة ترمى إلى تحرير الأمة وتحقيق الاستقلال ، ولم يزل يمضى في طريقه الخاطئة حتى جاء سعد مرة أخرى في أعقاب الحرب العظمى فرد الأمة إلى وجهة قويمه . وجعل شعارها من جديد ان « مصر للمصريين » وأن البلاد لأبناء البلاد ، وتمكنت الروح الوطنية الصادقة بعد اضطرابها زمنا طويلا حتى أصبحت السيادة العثمانية والسيادة البريطانية بمنزلة واحدة عند طلاب الاستقلال ودعاة الحرية ، فغضت مصر غنيمه نفسية لا تقوّم ولا تنحصر فوائدها في انتاج المحسوسة ، ويكفى لتقويم بعض قيمتها أن نسأل أنفسنا : كيف تنهض من رقبتها وتنطلق إلى حريتها أمة تتخذ من سيادة الآخرين عليها مثالا أعلا وغاية موهوقة ؟ وتطلع بعينها فلا ترتفع إلى مرتبة الأحرار المستقلين ولا تعدو مرتبة الخدم التابعين ؟ فصر قد استفادت في عالم الروح هذا أضعاف ما استفادته في عالم الاوضاع السياسية والمراسم الدولية

وقد يُتم تقدير الجيل الذي نحن بصددده أن نذكر - إلى جانب ما أسلفنا - أنه كان جيلا لم تنتشر فيه الطباعة هذا الانتشار ، ولم يعم فيه « التخصص »

هذا العموم ، وكلاهما مما يجور على الشخصيات ولا سيما في الخطابة ويكلفها في سبيل الظهور مشقات جساما لا تصمد لها الا بقوة خارقة وعدة ممتازة .

فالطباعة لا تحوج الزعيم أو المصلح إلى استخدام مهابته الشخصية وبلاغته اللسانية لأنه يتصل بتلاميذه من طريق الكتب والصحف فلا يعينهم شخصه كما تعينهم افكاره وبراهينه ، ومن ثم يصعب ظهور « الشخصيات » أو يقل ظهورها بقلّة الحاجة اليها

والتخصص يحيل الناس أجزاء من رجال بدلا من الرجال الكاملين الذين يستعدون بكل عدة في المسائل المتفرقة ، وان لم يبلغوا في كل مسألة على حدتها مبلغ الاختصاصيين المتفرغين للدقائق والتفصيلات ، وفي هذا ما في الطباعة من الجور على الشخصيات وتصعيب ظهورها وتقليل الحاجة اليها

فجيل سعد كان أوفق لظهور « الشخصية الممتازة » من الجيل الذي تلاه ، وهي مزية قد نفسر بها رجحان الجيل الماضي بالقوى النفسية ورجحان الجيل الحاضر بالقوى الفكرية ، على أننا لم نعن بهذه المقابلة ان الشخصيات في جيلنا هذا أقل عددا من مثيلاتها في الجيل المتقدم عليه ، ولكننا عنيانا ان المصاعب في طريقها أكبر وان الحاجة اليها أخفى وأندر . ولهذا محدّت بيننا بحدود لم تكن معهودة قبل أيام الثورة العراقية

فمن حقنا إذا نظرنا الى تقدم جيلنا في المعارف والصناعات ان نغبط بما وصلنا اليه ، ومن واجبنا اذا نظرنا الى الجيل السابق أن لا نغبط حقه وان لا ننسى عذره ، وأنه لم يخل من مزايا قيمة يوازن بها مزايا العصر التي أتينا بها أو أتى بها العصر ، فلا فضل لنا فيها

بيئة سعد ونشأته

التوفيقات التاريخية في تراجم النوابغ مشهورة متواترة ، والعظماء الذين سبقتهم أسبابهم قبل وصولهم إلى الدنيا غير قليلين في تاريخ العالم . فقد يتفق أحيانا أن تنهيا الأسباب لنموغ العظيم كما يتفق التحضير المرتب الذي ينتهى إلى غاية مقصودة ، فان لم يتفق هذا فأيسر ما يلاحظ في تراجمهم من التوفيقات والتمهيدات أنهم ينبغون في أوانهم الذى لا عائق فيه لنموغهم ، وأن تكون العوائق نفسها كأنها رياضة لهم وامتحان لقرتهم ، فلا بد في حياة كل عظيم من تمهيد أو توفيق ، ولا بد من الابتداء بترجمة العظيم قبل ولادته بسنوات

وسعد زغلول من عظماء العالم الذين تتجلى توفيقات التاريخ في بيئتهم ونشأتهم تجليها في حوادث زمانهم ، فهو ابن زمانه في طفولته وصباه وفتوته وكهولته وهرمه ، لم يولد قبل حينه ولم يولد بعده كما يحدث أحيانا في نشوء بعض العظماء ، ولم تكن رسالته متقدمة ولا متأخرة عن الرسالة المطلوبة منه ، بل جاء كل عمل من أعماله بتقدير وتدير ، يخيل الى من يراجع أنه منقول من برنامج مرسوم

نشأ سعد بين الفلاحين ، ولكن لم ينشأ من فقراء الفلاحين . فاستطاع أن يحس شقاءهم ولكن لم يستطع أن يصير عليه كما يصير الزراع المساكين في كل أرض منيت بالظلم وابتليت بالفاقة ، وفسدت فيها النخوة وبطلت فيها الغيرة على المظلومين ، اطول ماشغل الناس بمصائبهم عن مصائب الآخرين ، ولطول ما أحسوا من الضعف عن مغالبة القوة متفرقين

كان أبوه « ابراهيم زغلول » عميد بلده ومن أكبر أصحاب الثراء فيها ، يملك نيفا ومائتى فدان فيما يسمى بالجزائر ، وبيتاً فسيحاً له منظره اتسع لأكثر من مائة زائر ، وكان يتحدى الحكام الترك في مظهره وأبهة مسيره

ومقامه ، فكان يمشى فى ركب من العبيد الذين يلزمونهم ويقيمون معه ويعتمد عليهم فى نضال خصومه ، لقلّة أبنائه فى أيام شبابه ، وكان يجرى على سنة « العصور الاقطاعية » فى زعامته على أبناء بلده . فهو بهم كفيل وبحمل مغارمهم زعيم ، يؤدى عنهم الضرائب إذا أجذبوا ويدفع عنهم المظالم اذا وقعت الفتنة بينهم وبين الحكام ، يركب الخيل ويتقلد السيف ، ويُرَى كأنه مستعد فى كل لحظة لنضال ،

ووالدة سعد السيدة « مريم » بنت الشيخ عبده بركات من أسرة عريقة إتصل آباؤها بالولاية منذ عهد محمد على الكبير ، وجمعتهم المصاهرة بأعرق البيوت فى اقاليم الغربية والبحيرة ، وتولى أخوها « نظارة القسم » بمركز دسوق فى زمن كانت فيه هذه الوظيفة وأمثالها وقفا على الترك والشراكسة والمألوف فى تاريخ العالم كله أن يبدأ إنصاف الفقراء من غير الفقراء أو أن يبدأ بين أناس يحسون إحساسهم ولا يصبرون صبرهم ويجهلون جهلهم فلم يعرف فى تاريخ الأمم المظلومة ان الفقراء المستضعفين أنصفوا أنفسهم بأيديهم ، ولم يعرف كذلك أن الطبقات الغنية التى تحكم وتستأثر بمنافع الحكم تقبل إنصاف الفقراء طواعية من عند نفسها ، بغير دعوة صادقة ووثبة مزعجة ، تأتىها من غيرها وتضطر هى اضطرارا إلى مجاراتها وإنما عرف أن الدعوة إلى الانصاف وكف الطغيان تأتى من طبقة لا هى بالمضومة المكسورة ولا هى بالهاضمة الكاسرة ، أى أنها تأتى من طبقة قريبة إلى الفريقين ، تشبه الطبقة التى نشأ فيها سعد زغلول

والطبقة الوسطى ليست على نسق واحد فى التحفز لرفع الظلم والقدرة على إنكاره والتفكير فى كبجه ، فلا بد فيها من تفاوت بين موقع وموقع وأسرة وأسرة وحالة وحالة ، ولا بد من أسباب ترفع بعضها على بعض فى هذه

الخصلة ، وتتيح لأناس منها ما لا يتاح لغيرهم على اختلاف الموطن والتربية والحالة النفسية أو الاجتماعية

^١ ولقد كانت هذه الأسباب كلها في الجانب الذي يوافق عظمة سعد من طفولته الأولى ، ويرشحه من مهده لكرهه الظلم والتمرد عليه ، ويجعله بالنشأة والوراثة ذلك الزعيم المدخر لقيادة النهضة الوطنية

ولد في قرية « اييانة » في أطراف بعيدة من العواصم التي تستقر فيها هيئة الحكام و سطوة الرؤساء ، ولكنها ليست بعيدة من آثار عسفهم وجرائر فسادهم ، وسوء القالة فيهم

وولد في أسرة عزيزة أئمة من ناحية أبيه وناحية أمه ، فكل أب من آبائه بقيت له سيرة مذكورة لم تخل سيرته من حادثة اصطدام وقعت بينه وبين حاكم مرهوب ، ذى سطوة تملك الغنى والفقر أو تملك الحياة والموت في بعض الأحياء

وقد كان جزاء من يعتدى على حاكم بالقول الخشن — بله الضرب والاثخان فيه — أن يسجن حتى يبلى في السجن أو يجلد حتى يتبرأ جلده أو يموت ، وربما أمروا به فيشنق ثم يبق جسده في الهواء أياماً للعبرة والمبالغة في الارهاب ، وحدث فعلاً باقليم الغربية أن عمدة فلاحا اجتراً على ناظر القسم التركي بالاهانة فجوزى بالموت شنقا وأمروا بتعليق جثته ثلاثة أيام في ساحة الديوان زجراً لغيره . ففي تلك الأيام مر ناظر القسم بأرض الشيخ ابراهيم زغلول على ساحل النيل فأبى أن يعبرها دون أن يثبت مروره كما يليق بالحاكم الأمر الناهى الفعال لما يريد ؛ وعلم أنه في نجوة من كل سوء يصيبه من أنفه الشيخ ابراهيم بعد العبارة المائلة في أذهان الفلاحين من حادث العمدة المشنوق . فاجتراً على الشيخ ابراهيم بالتأنيب والاستخفاف ، وكبر على الشيخ أن يساء إليه هذه الاساءة لمحض الغطرسة وإظهار القدرة على الاذلال

والتحقير ، فمد يده إلى الحاكم المخيف وهو على متن جواده فأهوى به إلى الأرض وأوجعه ضرباً وانصرف إلى سبيله كأنه لم يأت أمراً يقوده إلى الموت . وسرى الخبر في جوار القرية فهرول إليه صهره « عبد الله افندى بركات » فزعا متوجسا من العاقبة يلومه على ما فعل ويذكركه مصير ذلك العمدة الذي اجتراً على أمر هو دون ما اجتراً عليه . فلم يتحرك ولم يفكر في عمل يعتذر به أو يصلح به ما فعل ، وعلم صهره أن لا حيلة له وللأسرة إلا أن يدبر الأمر بنفسه لمن لا يشاء أن يدبره لانقضاء حياته ، ولحق بالناظر فما زال به يسترضيه ويبذل له المال حتى قنع بمائة حجر ، وسكت عن المسألة فانقضت بسلام

وكان الشيخ عبده بركات - جد سعد لأمه - من أغنى الأغنياء في أقليمه ، يعتز بمكانه أشد من اعتزازه بماله ، فحق عليه المدير التركي ونوى أن يجمع وجهاء البلد إلى ساقية هناك ثم يرسل في استدعاء الشيخ عبده ليلقاه بينهم لقاء مهيناً ويغض من كبريائه وبسطة جاهه ، وأمر في أثناء ذلك برجل مغضوب عليه فشدته إلى ثور الساقية وترك الثور يدور فيها ويجره وراءه ! وإنه لكذلك إذ أقبل الشيخ عبده على متن جواده ورأى المسكين المشدود على الساقية فلم يحفل بشيء وهو قادم على حاكم البلد بين جنده وحاشيته إلا أن يبادر إلى ذلك الرجل فيحل وثاقه ولا يبالي بما هو صانع وظن الحاضرون أن الشيخ عبده مقضى عليه لا محالة ! وإن الحاكم سيغضب عليه ويتخذ من عمله ذريعة إلى التنكيل به وإذلاله ، وكان الحاكم خليقاً أن يفعل ذلك لولا أن حكام تلك الأيام كانت تعاورهم نوبات يصطنعونها وغرائب يفاجئون بها من لا ينتظرها ، ويحكمون بهما يروى عن الخلفاء السابقين إذ يهظون الناس بالغضب في ساعة الرضى والرضى في ساعة الغضب ، وإذا يفاجئونهم بالعقاب حيث لا ينتظر العقاب وبالأحسان حيث لا ينتظر الأحسان . فلم يغضب الحاكم على الشيخ عبده ولم يعاقبه على اجترائه ، بل نهض له واقفاً وحياه مرحباً وقال

لوجهاء الحاضرين « إن هذا الرجل الذى جلستم تنتظرون له المماتة لا شرف منكم جميعا . . . »

ولد سعد فى هذه البيئة التى تحس الظلم بآثاره ولا تحسه بهيبته واقتداره ولد فى أسرة تشاهد الظلم فى غيرها ولا تشاهده فى نفسها ، والبلدة التى ولد فيها — ونعنى بها إبيانة — بلدة أكبر من القرية الضئيلة وأصغر من المدينة الكبيرة ، وأمثال هذه البلدان من أصلح البيئات لنمو العظمة الفطرية لأنها تعلو على خمول القرية الضئيلة التى تركد فيها الحياة وتضعف فيها الحوافز والمنشطات ، ولأنها تنجو من ضجة المدينة العامرة التى تشغل الأذهان بالجلبة والمظاهر الفخمة ، فتأخذها الظواهر الخلابية ويضيق فيها مجال الذهن الباطنى فلا يستوفى حظه من النمو والتشقيف والمراجعة المفيدة ، ويقال ان بلدة إبيانة هذه كانت أول مصيف التفت اليه طلاب الاصطياف فى القطر المصرى بعد الفتح العثمانى ، إذ كان يؤمها وكلاء الدول وكبار الأجانب صيفاً لترويح النفس بهوائها المعتدل وجوها الندى ، على مقربة من البحر والمروج الفيح ، فهى بلدة ذات تاريخ ينجو بها من إهمال الخول

وكان لسعد أخوان شقيقان من أبيه وأمه هما فتح الله وفرج الله وأخت هى ستم — أما إخوته الآخرون — وهم شلبى والشناوى واحمد ومحمد وعبدالرحمن وفرحانة وستهم فهم إخوته لأبيه من غير أمه

ويلوح لنا أننا أمام أسرة مطبوعة بطابع الاستثناء فى بنية التركيب لأن الأب على صلابته وقوة نفسه قد مات ولما يقارب الشيخوخة ، ولأن أختاً صغيراً وهو فرج الله قد مات فى سن الطفولة . وقد عاش الأخوان سعد الله « سعد » وفتح الله « فتحى » حتى بلغا سن الشيخوخة وامتازا بالنبوغ والألمعية ، ولكنهما لم يعقبا ولداً فى السنين الطويلة التى قضياها فى المعيشة الزوجية ، ولم يولد لفتحى إلا بنت واحدة ماتت بعد شهرين ، ولسنا نجزم بصواب جميع الملاحظات التى استعرضها « لمبروزو » فى مذهبه المعروف

عن أسر النوايح والعقريين وما يشاهد فيها من العقم تارة والموت العاجل تارة ، والخصائص الغريبة في المرض والصحة والضعف والقوه تارات ، إلا أننا نعتقد أن المترجم الذى يمر بظاهرة كهذه الظاهرة في أسرة زغلول دون أن يسجلها ويعرضها للملاحظة يقع في تقصير

ولا نعلم من سجلات المواليد تاريخ ميلاد سعد . فلا غنى لنا في إثباته عن الترجيح دون التحقيق . والأرجح أنه ولد في ذى الحجة سنة ١٢٧٤ هجرية (أى في يوليو سنة ١٨٥٧ ميلادية) لأنه التاريخ الذى ذكره سعد لبعض سائليه عن ميلاده . أما التاريخ المكتوب على شهادة « الليسانس » التى حصل عليها من باريس فيقال إنه هو أول يونية سنة ١٨٦٠ ولد سعد في تلك السنة أو بعدها بقليل ، وهى بيئة زمانية صالحة لميلاد الزعيم الذى قدر له أن يحارب الظلم كصلاح البيئة البيتية التى نشأ منها ، والبيئة المكانية التى نبت فيها

فقبل الثورة العراقية بعشرين سنة كان تذمر الرعية المهضومة يختمر في أرجاء القطر كله ، وكان الشعور بحق الشعب وحق الفرد يتنبه ويتعاضم سنة بعد سنة ، وكان حق الحاكم المستبد قد أخذ في التزعزع والتراجع ، لأن العصر كله في الاقطار كلها امتلأ بالثورات ومطالب الاصلاح وحركات العصيان ، أما على الحاكمين الأجانب أو الحاكمين من ملوك البلاد فالطفل الذى يولد في هذه البيئة الزمانية ، مزوداً بميراث الانفة والجرأة والعطف على الضعفاء ، خليق أن يبلغ مدى استعداد ، ويترقى إلى أوج اقتداره

وقد ورث سعد من أبويه بنية الفلاح وصلابة الخلق وصدق العزيمة ، وعوجل بموت أبيه وهو في نحو السادسة من عمره فحرم عطف الابوة وحمايتها ، ولكنه حرمان لم يصادف ضعفا في مزاج نفسه فنهكها ويمحقها

وهي في نواتها ، بل صادف منه قوة أصيلة فأعان ما ركب فيه من ميراث الجند والشعور « بالذات » والاعتماد على النفس في تذليل المصاعب ومواجهة الناس ، حتى قيل إنه كان يتأني على اللعب ولا يطيل المراتة عليه ، فكان « يخيب » في ألعابه إذا أغراه باللعب داع من دواعي الطفولة الغالبة ، وسماه رفاقه من أجل ذلك « بالخبية » كما روى بعض أتباعه الذين شهدوه في طفولته وعاشوا بعده

وكان يعرض عن أخيه الصغير وأقاربه الآخرين حين يمعنون في ألعابهم كما يمين جميع الصغار ، ويقول في لهجة الرجل الكبير المترفع : « هؤلاء صبية مدللون ! » لأنه راض نفسه على سمت الرجولة من صباه الأول ، ووافق من عهد الصبا ينظر إلى اللعب نظرة الرجال لا نظرة الأطفال

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن اللعب لم يكن في ذلك العصر رياضة سائغة للصغار والكبار كما عرفناه نحن في العصر الحاضر ، ولكنه كان اسقاطاً لا يليق بغير الطفل المدلل الكسلان ، فلما زينت خليقة الجند لسعد أن يكون رجلاً قبل أوانه علم أنه لا يستطيع الجمع بين الطفولة والرجولة في وقت واحد فأعرض عن اللعب وأبى أن ينزل نفسه منزلة الصغار المدللين ويتخلى عن وقار الرجال المحنكين

على أنه كان أفكه طبعاً وأعذب خلقاً وأروح سجية من أن تستغرقه الصرامة العابسة وتقتل فيه الأريحية الضاحكة ، لأن الصرامة العابسة لن تستغرق إلا نفسها يؤدها حمل الجسد فلا يدع لها فضلاً من القوة تفرح به وتطرب ، ولم يكن سعد بالذي تستغرقه الصرامة في الشيخوخة المحوطة بالآزمات والخطوب بله الطفولة الدارجة في مهاد اللعب والمراح ، فانك لتعرف له في الشيخوخة طرائف من الفكاهة والعبث بالخصوم لم تفارقها خفة الصبا وجدة الطفولة ، ولكنه علم في نشأته أن اللعب ليس من شأنه فتجافى عنه وقصر في ميادينه ، ولعله لو نشأ في العصر الحاضر لكان له شوط

سابق في الألعاب إن لم يكن من كبار اللاعبين . وقد كان يألف ركوب الخيل وهو يافع لأنه لعبة تليق بالرجال ؛ وظل يركبها في القاهرة ويفضلها على المركبات إلى ما بعد اشتغاله بالمحاماة

ترى سعد بعد موت أبيه في كفالة أخيه الأكبر وزوج خالته الشناوى أفندى ، وهو رجل حازم كريم القلب جم المروءة ، شملت مروءته الآتباع والخدم فضلا عن الأخوة والأقارب ، وما يروى عنه أنه تجشم السفر من بلدته إلى القاهرة ليعود خادما مريضا سافر إليها في صحبة سعد يوم قصد إلى الجامع الأزهر . وهى مبرة إنسانية ، وهمة من همم الرأسة تزيدينا علما بشمال هذا البيت وما يفهمونه من معنى الوجاهة . وقد ورث الشناوى أفندى وجاهة أبيه من بعده وتولى رئاسة مجلس القضاء في مركز دسوق ثم في مركز زفتى ورأى الأخ الكبير في أخيه الصغير نجابة مرجوة ومخائل ذكاء ضن بها على الفلاحة والزراعة ، فعول على توجيهه إلى العلم وترشيحه للرأسة الدينية ، وأدخله المكتب ليتعلم القراءة ومبادئ الدراسة الميسورة في المكاتب ، ويحفظ القرآن تمهيدا لأشخاصه مع بعض أفراد الأسرة إلى الجامع الأزهر لإتمام العلوم الدينية فيه

ولعل من حسن الشهادة لطفولة سعد أنه برم بالمكتب في بداية عهده كما ينتظر من كل طفل مستقيم الطبع قوى الشكيمة يمتحن بتلك الأساليب العوجاء التى كان يجرى عليها التعليم قبل ثمانين سنة . فاشتد عليه أخوه مرة بعد مرة حتى اطمأن إلى المكتب ، وشاءت الأقدار أن توفر للصبي اليتيم كل ما يعين فيه عزيمة الجد وينجوبه من وخامة التدليل التى يبتلى بها الأيتام الصغار فى حضانة الأمهات الشواب ، فكانت أمه تشتد عليه كاشتداد أخيه كلما أنست منه تقصيرا أو شعرت بحاجته إلى تقويم ، وكانت تشكوه إلى الفقيه ليضربه ويؤدبه كلما استوجب العقوبة . وكان الضرب إذ ذاك مصابا على الجسم ولم يكن مصابا على النفس ، لأن ضرب التعليم بركة وحسنة ؛

والسعيد السعيد من الأطفال من تلقى العلم صعباً شديداً تتضاعف فيه المثوبة والأجر بمقدار ما تضاعفت الصعوبة والشدة ، حتى لأوشكت السلامة من الضرب أن تعاب وأن تحسب نقصاناً من حسنات الجهاد في سبيل العلم والدين ! وهذه هي العقيدة التي شاعت بين الآباء والأبناء وبين المعلمين والمتعلمين فظهرت الضرب من هوانه ، وجعلته ألاماً لا تتبعه ذلة أو شماتة

ان الذي يعلم عن أمهات العظماء المصريين في القرن الماضي لقليل جد قليل ، ولكننا لا نحتاج إلى غير ما نعلمه لنعلم ان السيدة « مريم » رحمها الله كانت أما جديرة بنجلها العظيم . فهي في الثانية أو الثالثة والعشرين من عمرها عرفت كيف يكون الخنو الرشيد على الصغير اليتيم ، وعرفت كيف تحنو بالقسوة كما تحنو بالرحمة ، وعرفت كيف تغض عنه كما تهش له وتقبل عليه وتبتلات وهي في عنفوان الشباب لتعكف على تربية بنيتها الصغار في غير شاغل يشغلها عن هذه الفريضة النبيلة . ولا شك أن سعداً قد ورث عنها كثيراً من مواهب العقلية والنفسية ، واستمد منها كثيراً من البأس والاصالة ، وقد سئل في شيخوخته عن بعض ما يلاحظ عليه من التراوح بين الحساسية والانانة والثورة والحكمة فقال : « ان خاق والدى هو الذى يتجلى في حينما أقدم أو أثور . أما المرحومة والدتى فقد عرفت بين أهلها بالحكمة والدهاء والقدرة على ضبط النفس ، فكانوا يحتكمون إليها فيما بينهم من خلاف . ويرجعون إليها في القضايا والمشاكل . فذاك هو خاق والدتى الذى يتجلى في عند ما ترونى أشير بالتريث والانانة »

ومن كمال عقل هذه الأم ولا ريب أنها ، وهي بنت الريف في ذلك العصر المتخلف ، كانت تنزل في بيت ولدها العظيم بالقاهرة بين عقائل الأسر اللواتي نشأن على التربية المصرية والمعيشة التركية فلا تشعر بينهن بغربة ولا يشعرن منها بغربة ، لأنها رزقت من رجاحة العقل وكرامة النفس ما يبوئها مكانة التوقير في كل بيئة وعند كل طبقة . وقد عاشت كتبها الناشئة

على أحدث ماتكون ثقافة العصر الحديث فاتصلت بينهما صلة الرعاية والمحبة وماتت بين يديها ودفنت في مدفن أبيها ، بعد مرض طال عليها وأضناها وصبرت عليه صبرها الماثور من صباها ، وقيل انه هو السرطان

لقد كانت ولا ريب ذات قسط عظيم من مجد ولدها العظيم ، وكانت ذكره لها شهادة من قرارة نفسه بفضلها ، فقد كان يذكرها الى أخريات أيامه كلما عرضت مناسبة للكلام عنها ، ومن ذلك أنه عزى صحفيا مشهوراً في فقد أمه فجاءه الصحفي يشكر له عزاءه ، فأطرق متأسياً وقال له : « يا فلان . هذا مصاب عرفته قبلك . ان فقد الأمهات خطب وجيع ، وانهن حقيقات منا بكل حب ومبرة ، لأنهن يخلصن لنا الحب ويقبلن منا كل شيء . »

وليس حب الأبناء للأمهات بغريب ، ولسكتنا لا نحسب القلب الكبير يصون فيه حبا طويلا لانسان دون أن يكون ذلك الانسان مستحقا له بالعدل وحسن التقدير ، ولو كان من الأمهات

دخل سعد المكتب في نحو السادسة وانتهى منه في نحو الحادية عشرة . ووضحت عليه في تلك السن الغضيرة خصلته اللتان امتاز بهما في جميع أدوار حياته — وهما الفهم والعزم — فكان يصحح كتابة اللوح من قراءة واحدة ، ويفرض على نفسه من الواجبات فوق ما يفرضه المعلم ، فيعيد في كل يوم ثلاثة أرباع المصحف وهو لا يطالب بأكثر من إعادة ربعين ، حتى حفظ القرآن حفظاً جيداً ولم يبق له ما يتعلمه في مكتب البلدة ، فتردد سنتين أو ثلاثاً بين رشيد ومطوبس يحضر على الشيخ احمد أبي رأس الذي توفي أخيراً وهو شيخ معهد دسوق ، ويدرس النحو والفقه ويتلقى أحيانا أصول التجويد بالجامع الدسوقي والقراءة على الشيخ عبد الله عبد العظيم المقرئ المشهور فيه ، ثم صحت النية على إرساله من هذه الجوامع الصغيرة إلى الجامع الأزهر الكبير ، وهو قبله طلاب المعارف الاسلامية

في مشارق الأرض ومغاربها ، وغاية ما يطمح إليه الفتى المتطلع إلى مقام الإمامة الدينية .

طرب سعد لهذه الرحلة كما يطرب كل ناشئ إلى رؤية الجديد من البلدان والجديد من الناس ، ولا سيما القاهرة التي اجتمع لها من سحر السمعة وخلاصة الأوصاف كل ما يشوق نفس الرقيب المتشوف الطموح وكان للأزهر في الاسماع سحر كسحر القاهرة أو يزيد ، فهو مجتمع السادة علماء الاسلام الذين تروى عنهم الكرامات وتضرب بتقواهم الأمثال ، ينتهى إليهم نحر السلف الصالح وتراثه من العلم اللدنى والعلم المنقول ، ويتوافد عليهم الطلاب من تخوم الصين إلى عبر الأطلس ، فما أسعد الناشئ الذى يتاح له أن يشهد عجيبة القاهرة وعجيبة الأزهر في رحلة واحدة . وما أحق سعداً على ما فيه من تشوف وطموح أن يطرب لذلك النبأ السعيد .

وينبغى أن ننسى الآن كثيراً وأن نذكر كثيراً لنقدر الأزهر كما كان يقدره أبناء مصر قبل مائة سنة .

فعدنا الآن مدارس ابتدائية في معظم البلدان الصغيرة ، وعندنا مدارس ثانوية في معظم عواصم الأقاليم ، وعندنا مدارس عليا وعلماء مشهورون فيها ، وعندنا أقدار رفيعة ومراتب شريفة لأولئك العلماء المشهورين ، وعندنا الوف من التلاميذ يتزاحون على أبواب المدارس ويغبطون أنفسهم على نعمة الظفر بالقبول ، ويستطيعون أن يتدرجوا في طلب العلوم العصرية من مكتب القرية إلى الجامعة المصرية ، أو جامعات أوروبا الكبيرة .

عدنا ذلك كله الآن فينبغى أن ننسأه كله لنفهم الباعث الذى أوحى إلى آل سعد أن يرسلوه إلى الأزهر دون غيره ، وأوحى إلى نفس سعد أن تغتبط بهذه القسمة وترتاح إلى هذه الأمنية .

فلم يكن في إقليم الغربية على إتساعه مدرسة ابتدائية واحدة على النظام

الحديث يوم ان دخل سعد مكتب القرية ، ولم يكن في القطر من المدارس الثانوية غير اثنتين إحداهما في القاهرة وهي المدرسة التجهيزية بالعباسية التي أسست في سنة ١٨٦٣ وسميت بعد ذلك بالمدرسة الحديوية ، والأخرى في الاسكندرية وهي مدرسة رأس التين التي أسست في السنة بعينها . ولم تنشأ دار العلوم ، التي تشبه الأزهر في بعض دروسه الا بعد قدوم سعد إلى القاهرة بسنة .

ولم يكن على أبواب المدارس القلائل طلاب يتزاحمون ، بل كان الطلاب وآباؤهم يصدفون عن أبوابها ويهربون من رواد الحكومة وهم يحوسون القرى لاختيار النجباء من الأطفال وإلحاقهم بالمدارس والبعثات . إذ كانت الحكومة متهمة في قلوب الرعية لا تؤتمن على شيء بله الاثمان على الأبناء ، وكان التلميذ الذي في عهدها كالجندي الذي تسخره في خدمة لاشرف فيها ، وتقذف به الى البلدان السحيقة بلا أجر ولا عناية ، وكان من الناس من يخاف المدرسة الحديثة على دين ابنه كما كان يخافها على حياته وسلامته ، لأنها كانت موضع ريبة بين جماعة الفقهاء الجامدين وجمهرة الأمة على الاجمال ، ولما تبددت هذه الأوهام لم تتبدد الا على بطن وكرهية ومقاومة ، ولم تكن الفئة المحدودة التي عرفت حقيقة التعليم الحديث وشاهدت بعض فوائده الفكرية والديوية بقادرة على اعداد الأبناء له من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية إلى العالية ، لندرة المدارس في أنحاء الريف وصعوبة إرسال الأبناء الصغار إلى الخواضر البعيدة فاختيار سعد للتربية الأزهرية ليس بغريب في ذلك الزمن بل هو الاختيار القريب المعقول ، نعم انه لم يكن بالاختيار الوحيد المستطاع ولكنه كذلك لم يكن اقل من غيره في النفع والسداد

وكأنما جاء سعد والاصلاح إلى الأزهر على موعد

فقد جاءه في سنة ١٨٧١ ، وهي السنة التي تولاه فيها الشيخ محمد العباسي المهدي وشرع في تنظيمه وتجديده ، فانشأ فيه بعد ولايته المشيخة بسنة واحدة

لجنة لامتحان الطلاب وإعطائهم اجازة العالمية ، ولم يكن لهذه الاجازة نظام قبل ذلك

وفي هذه السنة أيضاً قدم السيد جمال الدين الأفغانى إلى القاهرة ، وقدمت معه تلك الدعوة الجريئة الميمونة التي كانت تسير معه حيث سار لقد كان التعليم في الأزهر يومذاك تعليمين ، وكان المجاورون فيه فريقين فريق المحافظين على القديم ، وفريق النازعين الى الجديد ، أو فريق الماضين على ما وجدوا عليهم آباءهم . وفريق المختارين لأنفسهم بهدايتهم وحسن توفيقهم

وكان على سعد أن يختار لنفسه بين الفريقين ، فالى أيهما جنح ؟ ومع من منهما اتقى بمصيره ومستقبل حياته ؟

إن الفصل في هذه المسألة التي تناول فيما تناولته مذاهب السلف والخلف معضلة كثيرة الشعاب تحتاج إلى عقل أوسع وأعلم من عقل يافع في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة على أكبر تقدير ، ولكنها لا تحتاج إلى طبع أكبر من ذلك الطبع ولا بديهة أعلم من تلك البديهة ، فحسب اليافع ان يكون ذا طبع يختار لنفسه وينفر من الاملاء عليه ليهجّر الفريق الذي يمضى في طريقه مغمض العينين ويجنح إلى الفريق الذي يفتح عينيه ، ويعتمد على رأيه في الاختيار

وهكذا كان سعد ، وهكذا اختار

لقد تهدى إلى طريقه بوحى من البديهة في تلك السن الباكرة ، ولكن عقله فسر لنا بدايته بعد خمسين سنة ، فقال في خطبة القاها بالأزهر بعد عودته من أوروبا في سنة ١٩٢١ :

« جئت اليوم لأؤدى في هذا المكان الشريف فرض صلاة الجمعة ، وأقدم واجبات الاحترام لمكان نشأت فيه ، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة ، تلقيت فيه مبادئ الاستقلال لأن طريقته في التعليم تربي ملكة

الاستقلال في النفوس ، فالتلميذ يختار شيخه ، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادة من التلاميذ . الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه . ومتأهل له : يوجه اليه كل منهم الاسئلة التي يراها . فان أجاب الأستاذ وخرج — التلميذ — ناجحاً من هذا الامتحان كان أهلاً لأن يجلس مجلس التدريس ، وهذه الطريقة في الاستقلال التي تسمى الآن خللاً في النظام جعلتني أتحوّل من مالكي الى شافعي حيث وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم »

وامتحن سعد أساتذته كما قال فعرف الأساتذة الناجحين الكفيلين بالنجاح ، وما نظن أستاذاً أنصف في امتحان تلاميذه كما أنصف هذا التلميذ الصغير في امتحان أساتذته الكبار ، وأي امتحان للأساتذة وزملاء الدراسة كان يؤدي إلى انتقاء معلمين أفضل من محمد عبده وجمال الدين ؟؟ أو انتقاء زملاء في الأزهر وخارجه أفضل من اللقاني وأبي خطوة وعبد الكريم سليمان وأديب اسحق ؟

ومن ذلك الحين اتى سعد بسهمه على سهام دعاة الإصلاح غير مبال بالعواقب ، واشترك في حركة الإصلاح بالقسط الذي استطاعه في أثناء الدرس والطلب ، فألف جماعة من إخوانه الطلاب لإصلاح الأزهر وكتب منشوراً علقه في سواد الليل على أعمدة الجامع يبين فيه مواضع الخلل ووسائل العلاج التي تنجع في إصلاحه ، وثابر على حضور الدروس بين يدي الشيوخ النافعين من أنصار الجديد . فحضر « القطب على الشمسية » وبعض كتب التوحيد على الشيخ محمد عبده ، واختلف إلى مجلس السيد جمال الدين في داره بخان أبي طافية حيث كان يجلس لتعليم تلاميذه بعد أن حيل بينه وبين حلقات الجامع ، ويروى أنه قال بعد أن رأى السيد جمال الدين لأول مرة « هذا بغيتي ! » وان السيد جمال الدين استكتب تلاميذه موضوعاً عن الحرية فأجاد سعد في كتابته إجابة فاق بها أقرانه وأعجب بها أستاذه

فقال السيد « مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر أن يجيد في الكتابة عنها هذا الناشء »

وخير ما استفاده سعد من جمال الدين — فيما نعتقد — هو هدايته إلى معرفة نفسه وهدايته إلى التعبير عن تلك النفس في صور الخطابة والبيان فقد كان جمال الدين زعيم حركة إصلاحية لا بد لها من دعاية بالقول والكتابة ، فكان هو يدعو ويحب أن ينشر الدعوة على السنة تلاميذه ومريديه ، ومن ثم اتجه سعد إلى الخطابة والكتابة ، وسهر غور نفسه حين اشتغل بالتعبير عنها في كلام مسموع أو مقروء ، وأقبل على المطالعة إقبال من يريد أن يفهم ويفهم . فما هو إلا أن قرأ كتاب ابن مسكويه « في تهذيب الأخلاق » حتى تجرد لتأخيصة — وهو دون العشرين — ونشط للكتابة في الصحف والخطابة بين الإخوان ، فكان ذلك خير تعريف له بملكاته العقلية وملكاته البيانية ، أو خير هداية له إلى « معرفة الذات » والتعبير عنها بالأقوال والأعمال

وقد كان على رأس الوزارة في ذلك العهد وزير خطير من رجال الأريحية والهمة الذين يبرزون في عهود الظلم والاستبداد لأن الاستبداد يملك سلطان الخير والنية الحسنة كما يملك سلطان الشر والنية السيئة . وكان رياض يبجل جمال الدين ويحتفي به ويرجو النفع لهذا البلد من أعماله وأعمال مريديه . فرتب له عشرة جنيهاً مشاهرة ، واستعان بمريده الأكبر الشيخ محمد عبده على تحرير « الوقائع المصرية » صحيفة الحكومة . فاحتاج الأستاذ إلى مساعدين له في عمله ، ولم يجد بين تلاميذه من هو أقدر من سعد على المساعدة في هذه المهمة . فسعى في تعيينه لتحرير القسم الأدبي بالصحيفة الحكومية . وتم هذا التعيين في خامس أكتوبر سنة ١٨٨٠ بمرتب شهري ثمانية جنيهاً ، وهو مرتب كبير على المبتدئين في تلك الأيام ، لا يعطاه إلا رجل ظهر له امتياز نادر في علم أو صناعة ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية

صحيفة الثورة الفكرية ، تنطق بمبادئها ، وتنحى على الاستبداد ، وتبشر بالحرية والشورى !

لقد كان محمد عبده أستاذاً لسعد في الدرس وقدوة له في الخلق ، وكان سعد يدين له بالاستاذية ويكتب إليه بعد نفيه إلى سورية في أعقاب الثورة العراقية كتاباً التلميذ الأمين المخلص إلى الأستاذ الموقر المحبوب المعترف له بالفضل والتقدم . فاذا قابلنا في هذا المقام بين أسلوب محمد عبده وأسلوب سعد في أوائل عصر النهضة الكتابية فليس من همنا أن نفاضل ونعادل ، وإنما نريد أن نبين مكان سعد من استقلال الطبع وقدرته اللدنية على الاتجاه بفكره إلى قصده على استواء لا يعوقه زخرف اللفظ وقبوده . فانظر مثلاً إلى الأستاذ الامام وهو يقول في مقدمة رسالة الواردات « الحمد لله الواجب وجوده ، العام جوده ، والصلاة والسلام على نبينا أحكم حكماء العالم ، ومن هو لاساطين الالهيين خاتم ، أما بعد فيقول محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله ، الناشئ باقليم مصر بقرية تسمى محلة نصر ، خادم خدمة الحكمة ، المعرض عن نحو الكلام والكلمة ، المتخلي عن قيد لباس الطوائف ، إلى قضاء اقتناص صيد المعارف ، إني كنت مشغلاً بطلب العلوم ، فبينما أنا حول الرياض أحوم ، إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية ، فشغفت بها حباً ولكن لم أجد من هي له طوية ، فحرت في أمرى ، وأخذت أجيل فسكرى ، وكلما سألت أجاوبنى بأن الاشتغال بها حرام ، أو قد نهى عنها علماء الكلام وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق فوضحت لنا بها رفاق الدقائق ، بوفود حضرة الحكيم الكامل والحق القائم أستاذنا السيد جمال الدين الافغانى لازال لثمار العلوم جاني »

إلى آخر المقدمة ، وكلها على هذا النمط الذي يكاد يلتزم السجع في كل جملة ، وفي كل فقرة من جملة

فهذا أسلوب كان شائعاً في ذلك العصر ، وكان الشيخ محمد عبده يلتزمه في المقدمات أحياناً وفي الفصول من بدايتها إلى نهايتها أحياناً أخرى ، ولعل عذره من ذلك أنه كان أقدم أصحابه عهداً بالدراسة العتيقة ، فإن كان هذا عذراً له فليس هو بعذر للكتاب الآخرين الذين لم يطيلوا الدراسة على النظام العتيق وكانوا يلتزمون ذلك الأسلوب في غير المقدمات ، وظلوا على التزامه إلى ما بعد الثورة العراقية بسنين

أنظر إلى هذا النحو من الكتابة في أول مقدم جمال الدين وانظر معه إلى النحو الذي نحاه سعد حوالى ذلك الوقت في فصوله بالوقائع المصرية ، ومنها فصل عن الشورى يقول فيه :

« المستبد عرفاً من يفعل ما يشاء غير مسئول ، ويحكم بما يرسم به هواه وافق الشرع أو خالفه ، ناسب السنة أو نابذها . ومن أجل هذا ترى الناس كلما سمعوا هذا اللفظ أو ما يضارعه صرفوه إلى هذا المعنى ونفروا من ذكره لعظم مصابهم به وكثرة ما جلب على الأمم والشعوب من الأضرار ، وحق لهم النفور والاشمئزاز . إذ لم يذالوا من جرائمه إلا وبالا ، ولم يلقوا من أحكامه إلا نكالا . بل شاهدوا النفوس تذهب فيه ظلماً وتوكل فيه الأموال أكلاً لمأ . وتسفك الدماء زوراً وتدمر البلاد تدميراً ، فلا تثريب عليهم إذا كرهوا سوقه في سياق المدح ، ولو يراد به غير ما عرفوه

» ولقد تبين لك مما قدمناه أن الشريعة لا تبيحه ؛ وإنها توجب تقييد

الحاكم بالسنة والقانون

« ومن البديهي الواضح أن نصوص الشريعة لا تقيد الحاكم بنفسها فإنها ليست إلا عبارة عن معاني أحكام مرسومة في أذهان أرباب الشريعة وعلمائها ، أو مدلولها عليها بنقوش مرقومة في الكتب . ولا يكفي في تقييد الحاكم بها مجرد علمه بأصولها بل لابد في ذلك من وجود أناس يتخلقون بمعانيها ويظهرون بمظاهرها ، فيقومونه عند انحرافه عنها ويحضونه على

ملازمتها ويحثونه على السير في طريقها ، ومن أجل ذلك دعا سيدنا عمر رضى الله عنه الناس في خطبته إلى تقويم ماعساه يكون منه من الاعوجاج في تنفيذ أحكام الشرع الشريف . وقال تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) إذ لا بد في أن هذه الآية الشريفة عامة في دعوة الملوك وغيرهم إلى الخير : وتأمرهم بالمعروف وتنههم عن المنكر ، ليقوم بها الدين ولا يخرج أحد عن حده ، حاكما كان أو محكوما ، وليس الأمر هنا للذب كما فهم بعضهم . بل للوجوب والفرض على ماصرح به العلماء ، وقد فرض على الأمة الإسلامية أن تقوم منها أمة — أى طائفة — وظيفتها الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حفظا للشريعة من أن يتجاوز حدودها المعتدودون وصوناً لأحكامها من أن يتعالى عليها ذوو الشهوات »

هذه فقرة من فصل « الشورى » تعمدنا أن تكون أكثر الفقرات سجعاً وتقفية ، ولعلها أكثر الفقرات سجعاً وتقفية في فصول سعد عامة ، فنقرأها لا يسعه إلا أن يعجب لقلة التزام السجع فيها على النحو الشائع بين كتاب ذلك الزمان ، ومنهم استاذه ورئيسه في تحرير الوقائع المصرية ، فان السجع فيها يعرض نفسه عرضاً ويؤدي معناه كأداء الترسيل المطلق بغير تكلف ولا تصيد ، وهو إنطلاق من قيود العرف له دلالة بعيدة المدى لا تنحصر في الملكية اللغوية أو اليبانية ، بل تدل على العقل والخلق والملكية التعبير في وقت واحد ، وتنبئ عن نفس يتمكن منها معناها فتتجه إليه قديماً بغير التفات إلى الحواشي والنوافل ، وان استلزمها العرف وفرضتها العادة

لقد كان لقاء سعد لجمال الدين مرحلة في حياته ، لأنه وجهه إلى وجهته وأقامه في مقامه بين طلاب الإصلاح

ولقد كان اشتغاله بالوقائع المصرية مرحلة أخرى ذات شأن عظيم في تاريخ حياته كله ، لأن العمل فيها لم يقتصر على تصحيح العبارات وكتابة المقالات الأدبية ، بل تناول نقد أحكام المجالس الملغاة وتلخيصها والتعقيب عليها ، فتفتحت أمام سعد أبواب الدفاع القانوني والدراسة القانونية ، وأبواب الدفاع السياسى والأعمال السياسية ، وهى الوجهة التى صمد عليها بقية حياته ، وتم عليها تكوينه وتثبيت مواهب عقله ، ولم يلبث على الاشتغال بها غير قليل حتى ظهرت كفاءته فى نقد الأحكام وفهم مباحث القانون وما يقابلها من الشريعة ، فانتقل إلى وظيفة معاون بوزارة الداخلية مرتبها فى الشهر خمسة عشر جنيتها ، ثم انتقل إلى وظيفة ناظر لقلم قضايا الجيزة فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ وهى كما قال فى خطبة ألقاها عند اختياره لمنصب القضاء : « أشبه بوظيفة القاضى ، إذ كان من خصائصه أن يصدر الأحكام فى كثير من المواد الجزئية » .

وشاءت المصادفات أو التوفيقات التى أشرنا إليها فى مستهل هذا الفصل أن تكون هذه الأيام فاصلا بين عهدين فى حياة سعد ، وفى حياة الأمة المصرية .

فنقلته الوظيفة من الأزهر إلى الحكومة ، ومن العمامة إلى الطربوش ، ومن دراسة العلوم الدينية إلى دراسة العلوم القانونية

ونشبت الثورة العراقية فى تلك الأيام ، فانتقلت مصر بأسرها من حال إلى حال ، وانطوت فى تاريخها صفحة معلومة وبدأت فيه صفحة مجهولة وقدّر لهذه الصفحة المجهولة أن تعود فتلتقى بتاريخ سعد فى صفحة واحدة

سعد من الثورة العراقية

إلى الوزارة

أخذ القرن التاسع عشر حصته من مصر كما أخذها من أمم كثيرة ،
فتارت مصر في أواخر القرن كما تارت أمم البحر الأبيض المتوسط في بعض
سنواته الأولى أو الأخيرة ، ولم تثر إلا كماداتها في كل ثورة : أى حين
أزعجها الخطر في عقائدها كما أزعجها في مصالحها ، وخولفت أحكام دينها
كما خولفت أحكام العقل في سياستها ، فهانت الأرواح وضاعت الحرمات
وكسدت الأعمال وفاض معين الأرزاق ، واستنزفت الحكومة أموال
الرعية جباية ونهباً واحتيالا حتى لم يبق لها ما يستنزف . فكان الفلاح عاجزا
عن سداد الضرائب المتنوعة مرة في العام وهي تجبي منه مرات لتنفق في البذخ
والسفاهة ، أو ليؤدي بها بعض ربا الديون الأجنبية التي أنفقت قبل ذلك في
البذخ والسفاهة : ظلم وإسراف وربا وفجور ومخالفة دين من جميع
الوجوه وكان الحكام الذين جنوا كل هذا وجروا على الناس الخراب
والضياع يتيهون كبرا واختيالا كأنهم أحسنوا الحكومة كل الاحسان
وأسبغوا على الرعية نعمة الرغد والأمان : ويستكبرون على المصرى أن
يشكو ويستنصف لأنه فلاح مخلوق للسخرة والشقاء ! وما بهم في حقيقة
الامر من كبر عنصري ولا كراهية لعنصر الفلاح المصرى ، ولكنها الجهالة تسول
لهم ما استمرؤه من المظالم وتعميهم عما يجرونه على أنفسهم وعلى غيرهم من
الضنك والبلاء ، فلو أنهم كانوا حكاما في بلاد الترك أو الجركس أو الأرمن
أو مقدونية لظلموا إخوتهم وأبناء عموماتهم هذا الظلم وتصلفوا هذا الصلف :
كما كان أمثالهم يصنعون هناك في ذلك الأوان ، ولكنهم لسخفهم وغباهم

أبو إلا أن يصبغوا الظلم بصبغة الحزازة العنصرية واللاهانة القومية ، وإن
الظلم وحده لكاف للتفجير والتخريب

هبت الثورة العرابية كما تهب العاصفة بعد طول السكينة ، فاشتركت فيها
من الأمة كل قوة فكرية أو عسكرية ، وشايعها الجامدون والمصلحون على
السواء ، لأن المظالم والمفاسد لم تدع للمصريين سلوة يتعزون بها أو مهرباً
يثوبون اليه ، فمستهم مساعين في إيمانهم الديني وفي مصلحتهم الوطنية وفي
نخوتهم القومية وفي أرزاق الأفراد وما يغارون عليه من حرمة مصونة ،
ومن خصائص الطبيعة المصرية في هذه الثورة أن رجال الدين والأزهريين
جملة كانوا على رأسها وفي طليعة دعائها ، خلافاً لرجال الدين في كل ثورة
داخلية ، فإن الطبيعة المصرية على ما نظن لم تكن لتسيغ ثورة ليس فيها
« للمحافظة » مكان

لم تفلح الثورة العرابية لأنها أحيطت بدواعي الحبوط من الدسائس
الخارجية ، ومن تهالك الحكام على الدول الأجنبية ، ومن خطر الزعامة ،
وعيث الدولة العثمانية

ولولا ذلك لسارت في طريق أقوم من طريقها وانتهت إلى مصير خير
من مصيرها ، ولكنها تعرضت لذلك جميعه فانهت أمرها إلى الهزيمة ،
وكانت نهايتها بداية احتلال أجنبي للبلاد

واعقب الثورة ما أعقبها من نكال وانتقام ، ومن تجسس وسعاية ، ومن
خيانة الأصحاب ومكائدا لاعداء . فنكصت الاخلاق شر نكوص ، وران اليأس
على الضمائر ، فمات فيها رجاء الخير أو كرب أن يموت



اشترك سعد في الثورة كما اشترك فيها أساتذته وبعض زملائه ، وناله من
أذى الاعتقال بلاء غير يسير ، وخسر وظيفته وبات في مرصد الشبهة من
أنظار الحكام ، أعداء العرابيين

وكان في وسعه — لو رضى ضميره — ان يعتذر ويتزلف كما اعتذر
وتزلف مئات وألوف ، وان ينفذ يده من أصدقائه المهزومين ويتراعى في
أحضان أعدائهم الغالبين ، ولكنه أبى لرجولته ان يسومها هذا السوم ،
وكره لخلائقه ان توصم هذه الوصمة ، وظل على وفائه لأصدقائه المبعدين
يراسلهم ويراسلون ، ويعتمدون عليه في قضاء شعونهم فيقضيها لهم جهد
مايستطيع ، وفي تاريخ الاستاذ الامام رسائل كتبها سعد إلى الاستاذ بمنفاه
يتبين منها ألمه وعزاه وحالة النفوس والضماير يومذاك ، وفي إحداها وهي
مكتوبة في أواخر سنة ١٨٨٢ يقول :

« توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب وسألته أعارته ، فأجاب بأن
محمود سامى أخذه منه وسافر ولم يرده إليه ، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام
ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم في أى شىء تريدون حسياً كان أو معنوياً ،
وسأتحرى هذا الكتاب فى كتب سامى عند بيعها فاذا وجدته فيها اشتريته فى
الحال وأرسلته إلى حضر تكم أو أحضرته معى إن وافق ذلك استجماعى لوسائل
السفر . والحال العمومية على ما تركتها ، غير أن الناس أخذوا فى نسيان مافات
من الحوادث وأهوالها ، وقلت قائلهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ،
وأصبح المادحون للانكليز من القادحين فيهم . وبالعكس . والكثير يتوقع
انقلاباً أصلياً والله أعلم بما يكون »

وفي رسالة أخرى يقول — ويعنى الشيخ عبدالكريم سلمان — « أسفت
بل خجلت بما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبدالكريم الفاضل ثابثاً صدقه
بشهادة من سئلوا من الصادقين . ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم
ومن وثوقه بى فيما أرويه لكان الأسف مضاعفاً

« انى كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا للشيخ ، وما سمعت منه ما يقصد به
مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامى يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين
« المعروف » الا بما معناه الأسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف »

ومن هاتين العبارتين يبدو لنا مبلغ وفاء سعد ومبلغ الثقة به في نفس
الاستاذ الامام ، حتى أنه كان يرجع اليه في عتبه على خالصانه المقربين اليه ،
ويبدو لنا كذلك أن سعدا فكر في كل شيء بعدنفي أصحابه — حتى الهجرة من
مصر — ولم يفكر في القلب ومصانعة الأحوال ، ونسيان الأصدقاء .
وقد خطر له أن يستعيد وظيفته أو وظيفة غيرها في الحكومة فإذا بهم
يسومونه من التزلف والتسكّر ما لا يطيق ، فعدل عن التوظيف وقبل أن
يحترف المحاماة ، وفضل هذه الصناعة على انتظار الوظيفة بالتشفّع إلى هذا
واستعطاف ذاك

ونقول « قبل أن يحترف المحاماة » لأن المحاماة يومئذ لم تكن بالصناعة
الشريفة التي نعرفها اليوم ، وإنما كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من
لا يحسب « المرافعة » إلا مجالا للبداء وطول اللسان ، ومن لا يحسب النجاح
في القضايا إلا ضرباً من الاحتيال و « الشطارة » يغش به القاضى ويغش
به الخصم ويغش به الموكل ، ويعتمد فيه على الكذب والمراوغة والاختلاس ،
ولم تكن للحامى منزلة في نظر القضاء ولا في نظر العلية ولا السواد ، بل كانت
كلمة من القاضى تكفى لفصله ، وكان كل رجل « مستور » الحالة يأنف من
معاملته فضلاً عن مزاملته ومصاهرته ، وكان اسم المحامى مساوياً لاسم المزور
كما قال سعد . فاتصل بهذه الصناعة « والخجل يستر وجهه لسقوط اعتبار من
كانوا يتعاطونها » وقال في خطبته التى شكر بها من كرموه لتعيينه في
مناصب القضاء قال : « انى اشتغلت بالمحاماة متذكراً عن أهلى وأصحابى
وكلما سألتى سائل : هل صرت محامياً ؟ أقول معاذ الله أن أكون كقوم
خاسرين ! وجملة القول أننى كنت أجهل أن لا يعرفنى إلا أرباب القضايا وان
كنت أجهل ماذا تكون العاقبة

رضى سعد أن ينتمى إلى طائفة مزدراء ولم يرض أن يكون هو نفسه أهلاً
للازدراء ، بالتسكّر لأصحابه والتراعى على إقدام أعدائه

ولم يخف موقفه هذا على أناس من أعداء الثورة العراقية كانوا لا يفرقون في العداوة بين المعلوم والمعدور والمدين والبريء ، لأنهم كانوا يبرصد لكل مايقى من آثارها وآثار دعايتها ، وكان الثائرون أو المتهمون بالثورة بين منفي أو سجين أو قتل ، وكانت الدولة البريطانية قابضة على ناصية الأمور ، ومع هذا لم تزل الرجفة في قلوب أعدائهم يخافون ولا يهدأون ويظلمون إلى الانتقام ولا يرتوون . وعاظهم من سعد وبعض إخوانه أنهم لم يتزلفوا ولم يستغفروا ، واستكبروا ما في ذلك من التحدى لهم وقلة المبالاة بانتصارهم ، وما فيه من الانذار بعواقب هذا الإصرار ، وما عسى أن يختبئ وراءه من النيات والأفكار ، فظلوا يترقبون الفرصة السانحة أو يترقبون خلقها إذا هي لم تسنح كما يرومون

ونمي اليهم — أوزين لهم الوهم — أن سعداً وزميله في مكتب المحاماة حسين افندي صقر قد ألفا جماعة سرية سميها « جماعة الانتقام » لقتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة العراقية والرؤساء الذين نكلوا بالعراقيين ، فألقوا القبض عليهما وأحالوهما إلى المحاكمة ، وشككت للنظر في قضيتهما لجنة مختلطة أسندت رأستها إلى القاضي البلجيكي فلينكس « Flaminx » واشترك فيها حسين بك واصف وحامد بك محمود ومحمود بك سالم ومسيو دى هولتز Dehoitz الذى زامل سعدا بعد ذلك في دوائر محكمة الاستئناف وندبه المستشارون للخطابة في الاحتفال الذى أقاموه لتوديع سعد عند اختياره للوزارة . وكان فلينكس ودى هولتز من القضاة الأجانب المندوبين لإصلاح النظام القضائى وتنظيم المحاكم الأهلية

فلما نظرت اللجنة في التهمة لم تعثر بدليل ولا شبه دليل ، ولم تجد بداً من تبرئة المحامين المتهمين

ولسكنهما بقيا معتقلين بعد إعلان البراءة أكثر من ثلاثة أشهر ، لأن الحكومة عازمت على نفيهما إلى السودان ، وكلفت عثمان ماهر باشا

محافظ العاصمة أن يكتب المذكرة بطلب نفيهما لعرضاها على مجلس النظار ،
وأوشك الأمر بالنفي أن يصدر لولا أن وزير الحقانية في ذلك العهد حسين
نخري باشا عارض فيه ، وقال ان صدوره بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة
الأجانب الذين جئ بهم لتنظيم القضاء في البلد

فتأخر النفي وبقي السجينان معتقلين ، ولبثا في السجن إلى أن اتصل خبر
القضية بالمستر ما كسويل النائب العام فعجب لهذا التصرف المريب ، وأمر
بالافراج عنهما على الفور

عاد سعد إلى الحمامة بعد خروجه من السجن . عاد إلى الصناعة المكروهة
التي لا يحصى عنها ؛ فإذا أردنا أن نعرف كيف تكون « الكرامة الشخصية »
كافية وحدها لتكريم صاحبها على الرغم من ضعة الصناعة التي ينتمى إليها
وشيوخ العرف باحتقارها بين عليّة الناس وسوادهم . فسعد زغلول في صناعة
الحمامة هو المثل البارز لتلك « الكرامة الشخصية » أو تلك الكفاءة القوية ،
التي لا تحتاج إلى سند من غيرها لتعلو وتنبه وتستكمل قسطها من المبالاة
والتجلة والعرفان

فبالكرامة الشخصية وحدها أصبح المحامي سعد زغلول أهلا لمعاشرة
الأمراء والاميرات على سوية المساواة ، في زمن كانت فيه حدود الطبقات
كمحارم الدين التي لا تأذن بسماح ولا هوادة

وبالكرامة الشخصية وحدها أصبح المحامي سعد زغلول أهلا لولاية
القضاء . في زمن كان فيه المحامي كالحادم عند القضاة ، وكانت كلمة واحدة
من القاضي تكفي لحرمانه حق الاشتغال بهذه الصناعة

لم تهبط صناعة الحمامة بسعد زغلول كما كان يخشى ، بل كان سعد زغلول
هو الذي ارتفع بصناعة الحمامة ، وهي معجزة خارقة لما اعتاده الناس ،

ولكنه لم يتكلف لها إلا ما تعود من عادة الجد والأمانة والعزة ، أو من طبيعة الجد والأمانة والعزة التي طبع عليها

كل ما صنعه لتقرير مكانته وتقرير مكانة المحاماة من أجله أنه كان سعد زغلول ولا زيادة . وقد سأله أحمد بليغ باشا في لجنة الامتحان : ما هي واجبات المحامي ؟ فقال : درس القضية جيداً ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء

وهذا كان كلامه : وهذا كان عمله من يوم أن اشتغل بهذه الصناعة ، فلم يقبل قط الدفاع عن باطل ، ولم يرفض قط الدفاع عن حق ، ولم يحضر قط في جلسة إلا وقد درس جميع القضايا التي حضر للدفاع فيها ، دراسة لا يستدرك عليها القضاة ولا وكلاء النيابة ولا الخصوم نقصاً أو اهمالاً في موضع من المواضع . وكان من عادته إذا عرضت فرصة للصلح أن ينتهزها ويشجع موكله عليها برد « مقدم الاتعاب إليه » . فكان يقيّد « مقدم الاتعاب » في باب الأمانات لا في باب الموارد ليقى نفسه ضعف نفسه كما كان يقول . حتى إذا أراد الموكل الصلح رد إليه ماله وقال له : هذه أمانتك ردت إليك

واشتهرت أمانته وإخلاصه في عمله بعد فترة وجيزة ، فمالت شهرته القطر من أقصاه إلى أقصاه ، وأصبح توكيله في قضية مدنية أو جنائية ضماناً لكسبها وخذلان خصومه فيها ، ووثق به القضاة فأصبح قبوله القضية بمثابة حكم قاطع فيها ، وحرص كل صاحب دعوى على أن يكون سعد معه ولا يكون عليه . ومن المتقاضين من كان يوكله ويذل له الأجر الوافر لارهاب خصومه باسمه . ولو كان حقه أظهر من أن يحتاج إلى دفاع

جاءه رجل من القليوبية يستحق عند آخر ديناً يبلغ الخمسة والثلاثين جنيهاً بوثيقة مكتوبة . وكان ~~يسكر الدين~~ يشكر الدين ويستند في انكاره إلى « مخالصة » مزورة بامضاء الدائن . فقال سعد لصاحب القضية : إن الأمر لا يحتاج إلى

الحكم إنك إذا اعتمدت على وثيقتك وطعننت بالتزوير في المخانصة الباطلة
لست بالحكم بغير حاجة إلى توكيل يكلفك كثيراً أو قليلاً من المال . فأبى
الرجل إلا وكالة سعد ، ودفع له خمسة وعشرين جنيهاً مقدماً وهو يعد بدفع
خمس وعشرين أخرى عند انتهاء القضية ، وصدر الحكم كما كان ينتظر بالزام
الدين مبلغ الدين كله والمصاريف ، وماهى إلا أيام حتى جاءه الرجل بالمبلغ
المتأخر . . . فعجب سعد لأمره وسأله عن سر هذه الحكاية وهو لا يصدق أن
تاجراً رشيداً يكلف نفسه خمسين جنيهاً من أجل خمسة وثلاثين مضمونة كل
الضمان ، فقال الرجل : « إننى رجل كثير المعاملات ، وبين عملائى كثير
من المماطلين ، فاذا علموا أنك وكيلى استرحت من شرور كثيرة ، وخاف
منهم من يماطل ويطمع فى الروغان أن يضطر لا محالة إلى سداد الدين ومعه
مصاريف القضية ومصاريف المحامى سعد زغلول . فأنا لا أبذل الخمسين
بذلاً ولكنى أفتدى الألوف بهذه الخمسين »

فسر سعد بهذه الثقة ، وأقسم على صاحب الدعوى ليردن إليه مقدم
أتعابه ، فقبله بعد تشديد طويل

وجاءه وجيبه من إقليم المنوفية متهم بتزوير عقد يدعى به امتلاك ثمانية
عشر فداناً لبعض أقربائه ، ورجاه أن يقبل الدفاع عنه فأبى كل الآباء ، ولم
يقبل رجاءه إلا بعد اعترافه بالتزوير ، وكتابته إشتهاً على نفسه بالنزول
عن الأرض لأصحابها ، يحفظه عنده ليسلمهم هذا الإشتهاً بعد صدور الحكم
بالبراءة ، وقد كان ما أراد

كان هذا المثل القليل النظير — بل المثل الوحيد — كافياً للسمو بصناعة
المحاماة عن مهانة الابتذال ، وتطهيرها شيئاً فشيئاً من أذعياها الذين عرضوا
للناس من صناعتهم أسوأ الأمثال . فهذا محام يقيم الحججة ويكسب القضايا
دون أن يشتم ودون أن يخون ودون أن يشتط على الموكلين ، فلا محل
فى الصناعة — مع هذا المثل — إلا لمن سار على هذه السنة وتخلق بهذه

الخلقة ، ولا رواج لحام غير مستقيم بعد أن وجد أمام الناس مثل الانفعة ، سواء عند المستقيمين وغير المستقيمين ، ماداموا من طلاب المنفعة وأصحاب الحقوق

ومن طرائف سعد ما حدثني به في هذا الباب ليقم الدليل على أن الاستقامة تبعث الثقة بصاحبها بين أهلها وغير أهلها ، وكنت قد دخلت عليه بعد ظهور نتائج الانتخاب سنة ١٩٢٦ أمثته بفوز . فسألني سؤاله المعتاد : ما أخبارك ؟ أو ما قولك اليوم ؟

قلت كلها أخبار خير يادولة الرئيس . شيء لم يكن في الحسبان . قال متهللاً أو ليس كذلك ؟ ثم أبدى ثقته بعناية الله . وقال : إنها نتيجة لو توصلنا إليها بغير وسيلة القصد الصريح لما بلغناها

وتبسط للكلام كمادته حين يستريح بعض الراحة من همومه الكبيرة فقال :

« إن استقامة القصد قلباً تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم . أذكر اني كنت في مكنتي أيام الحمامة وإذا بسيدة في زى نساء البيوتات تدخل المكتب وتحيني تحية الأدب والاحتشام ، فأشرت إليها بالجلوس والتفت إليها بعد أن فرغت من عمل الحاضرين أسألها : من السيدة التي شرفني بهذه الزيارة ؟ قالت : محسوتك ع . اسكندر اسم امرأة من صواحب البيوت المريبة المشهورة في ذلك الحين . فما سمعت ذلك الاسم حتى ثارت ثائرتي وعجبت للوكيل كيف سمح لها بالدخول وكيف اختارتني هي لقضيتها أو للسألة التي قصدتني لأجلها . وخاطبتها بكلام قارص لم أرفع فيه حق الأنوثة . فلم تحر جواباً وتركتني أقول ما أريد . حتى إذا همدأت ثائرتي وسكت قالت لي : أسمع لي بكلمة ؟ قلت تفضلي ؛ قالت : إن الناس إذا رأوني عندك في قضية كان هذا شهادة لك لا عليك . إذ لو كنت أنت من معارف لما صدقوا اني أتق

بك واثبتك على المصالح ، ولولا انك مستقيم لما جئتك اليوم ، وإلا فان
زوارى المحامين كثيرون لم أفكر فى واحد منهم لأننى أعرفهم ، وفكرت فىك
لأننى لا أعرفك ولا أراك فيمن أراهم كل يوم ... »

قال رحمه الله : فسمعت كلاماً أريباً ولباقة معجبة ، وسرتنى هذه الشهادة
بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة !

وهنا يحق لنا أن نسأل :

ترى لو لم تلجئ الضرورة سعداً إلى مراس هذه الصناعة المكروهة على
مضض — أما كان من الجائز أن يتغير تاريخه كل التغير ، وأن تحتجب فيه
المزايا الليانية التى رشحته لزعامة الأمة المصرية ؟

إنه كان على التحقيق سيغدو عظيماً نافعاً حيث كان ، ولكننا لا نعرف
لزعامة سعد طريقاً كان أقرب إليها وأشبه بها من المحاماة . لأنها مجال كل
مزية كبيرة فى طبعه وفكره ولسانه : هى هيات له وسائل النمو على منبته
وفوق جذوره ، وهى التى أتاحت له فرصة طويلة لتفتيق ذهنه وتجويد
ملاحظات ، وهى شحذت فيه بديهة المنطق وقرينة البيان ، وصانت قدرة الخطابة
فيه عن التعطل والركود ، ولم تحرمه تلك الفضيلة الأصلية التى ورثها عن آل
أبيه وآل أمه ، وهى فضيلة النجدة والدفاع عن المظلوم .

« عسى أن تكرر هو شيئاً وهو خير لكم ... » ومصدق هذه الآية
الحكيمة يمر بنا فى كل ترجمة معروفة ، ويستطيع كل امرئ أن يراجع سيرته
وسير معارفه فيرى مصداقها يتكرر فى حياته وحياة غيره : كم أمنية يتلهف
عليها المرء ثم يهنئ نفسه بفواتها ؟ وكم نكبة يتشام بها ويحتشد لا تقاها ثم
تنقلب يمناً عليه وهداية له فى الخيرة ؟ يتفق ذلك فى حياة العظيم كما يتفق فى
حياة الصغير ، ويشاهد مع النجاح كما يشاهد مع الاخفاق ، وفى ترجمة سعد

مواقف عدة يتمثل فيها المتمثل بتلك الآية الحكيمة : وفي مقدمتها على ما نعتقد موقفه من المحاماة

لقد خسر سعد وظيفته على كره ، وقبل المحاماة على كره ، وعدّها صناعة لا يجمع بينه وبينها إلا عشرة الجدد ونكد الدنيا وخيبة الرجاء ، ولكنه لو فكر بعد ذلك بعشرين سنة وفكرت معه هذه الأمة لما اختار لنفسه ولا اختارت له الأمة غيرها صناعة . فكم يكره الانسان من تجربة وهي خير مأمون ! ولم يحب الانسان من أمل وهو شر وخيم !

بعد ثمانى سنوات أو تسع من اشتغال سعد بالمحاماة عرضت عليه وظيفة « نائب قاض » بمحكمة الاستئناف في سنة ١٨٩٢ فقبلها على ضالة مرتبتها بالقياس إلى ما كان يربحه من المحاماة . إذ كان هذا المرتب خمسة وأربعين جنيهًا ولم يكن يربحه من مكتبه يقل عن خمسمائة جنيه في الشهر ، أى أكثر من عشرة أضعاف مرتب القضاء

وقد تبع في ولاية القضاء خطوات استأذنه الشيخ محمد عبده كما تبعه في الدراسة الأزهرية وفي مصاحبة جمال الدين وفي تحرير الوقائع المصرية ، وكان الشيخ محمد عبده هو صاحب الاقتراح في تعيينه ، لا مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء كما تبادر إلى أوهام بعض الناس بعد ذلك ، لحسابهم أن مصاهرة رئيس الحكومة هي السر في تمييز سعد بتلك الوظيفة !

والحقيقة أن سعداً لم يصاهر مصطفى باشا إلا بعد تعيينه في القضاء بأربع سنوات ، ولم يستفد درهما واحداً علاوة على مرتبه بفضل تلك المصاهرة ، إذ كانت الترقية في مناصب القضاء العليا لا تجرى لذلك العهد إلا بترتيب مقدور ونظام محسوب لا استثناء فيه

وكان سعد أول بحام أسندت إليه وظيفة القضاء ، فكان هذا التعيين خليقاً أن يقع من الناس موقع الأمر المستغرب المفاجيء ، ولكنه على نقيض ذلك

قوبل بالتأمين والمواقفة البديهية كأنه أمر منتظر لا غرابة فيه . وابتهج به المحامون كما ابتهج به القضاة ، فأقاموا له حفلا كبيرا أعربوا فيه عن شكرهم لهذا الاختيار واعتباطهم بهذا التعيين ، قال فيه وكيل المحكمة — اسماعيل صبرى (بك) الشاعر المعروف — « ان تعيين حضرة سعد أفندى زغلول عضوا في محكمة الاستئناف دليل على أن المحاماة والقضاء شيئان ضريعان .. »

وألقي بعض المحامين كلاما يدل على حقيقة العلاقة بين القضاء والمحاماة في تلك الأيام ، لعل أصرحه وأقربه إلى الغرض كلمة حسن أفندى الشمسى و ابراهيم أفندى اللقاني لأنهما قد عمدا الى الهدف في تلك المناسبة دون الاطناب في التحية والمجاملة ، فقال حسن أفندى الشمسى : « أنت أيها الفاضل أدرى بأحاساستنا من جهة القضاة ، وكثيرا ما كنت معنا حينما كنا نكيل في ذكر كل واحد منهم بالكيل الذي يستحقه ، وقد علمت أن في القضاة من يتغالى في حب الاستقامة حتى ارتاب أن يكون في طائفتنا مستقيم . فبك اليوم نأمن على أنفسنا من مثل هذه الأفكار . فكن واسطة بيننا وبين حضرات القضاة لتوفيق ما بين الاحساسين ، ان كان ثم اختلاف »

وقال اللقاني : « ياسعد . وفي هذا اللفظ من معاني الاجلال والتعظيم ما يكفيني كلفة المقال . فياسعد قد عز على القول في هذا المقام مع مالى من الاثرة والاختصاص بك ، والاحتفاظ على جليل فضلك ، الى حد يحتبس معه لساني في البيان فأقتصر الآن على أن أهنيك من قلب يخالطه الأسف على انسلالك من بيننا وقد كنت واسطة عقدنا ، وبقدر هذا الأسف نهنيك على اتصالك بخطة القضاء . ولكن علام ؟ هل انتقلت الى مقام تكون أثرى وأوسع دنيا عما كنت فيه ؟ كلا . بل الى مقام يحبس فيه رزقك على راتب زهيد . . . فعلام نهنيك ؟ هل انتقلت الى مقام تراول فيه علما لم تكن تراوله ، أو تزداد سعة منه وقد كنت فيه قصير الباع ؟ كلا . اللهم الا أن يكون علم الاقتصاد ! فبأي شيء نهنيك ! نهنيك لأنك كنت تناضل عن الحق ،

وتحارب للانصاف ، وتجاهد للعدل ولم يكن يدك : فأصبحت والعدل يدك
يطلب منك الحق . . . »

فهاتان الخطبتان — فضلا عن اشتغالها على القول المفيد والتعبير
الصادق — تدلان على بعض البواعث التي بعثت سعداً الى قبول القضاء ،
وتدلان من وراء ذلك على بواعثه النفسية في جميع الأمور على وجه التعميم
قال سعد في شكره للجهتلين به تلك الليلة :

« سادق . تعلمون ان الحق صعب الاكتشاف ، وأن الحقيقة إذ تكون
ضالة تشعب طرق نشدانها على الباحث ، ويعلم الله كم من ليال مضت ما كان
أمرها عندي . لا لأنى كنت في عيش ضحك ولا لأنى قليل الميسرة ، ولكن
لأن الحقيقة ضائعة لا أجدها في طريق نشداني لها ، بين أناس عهدت اليهم
أمانة ولا من يؤديها منهم إلى أهلها . كنت أرى القانون يكرهنى على احترام
القضاة وضميرى يأبى الامتثال لاحترام كثير منهم ، فكنت أجمع بين
الاحترام والتحقير ، ولا استطيع التوفيق بين الظاهر والباطن ، فأعجبوا
أيها الأفاضل من مطيع غير مطيع ! ولا جناح على لأن القوانين لاحكم لها
على الأسرار والضمائر . أقول الحق إنى كنت أسأل من القاضى حقاً ومن
النيابة واجباً فلا أجد هذا ولا ذاك . أما الآن فكلنا يعترف في سره وعلمه
بأن القضاء ارتقى ، والحق عنده مسئول »

ان سعداً الصريح فى كل مقام ، وسعداً المطبوع على اعتبار الحقائق
الواقعية والمقاييس العملية ، وسعداً المزدرى بالمال فى سبيل كرامته أو فى
سبيل فرض هذه الكرامة على المسكابين والمتعتين ، هو سعد الذى يتجلى
لنا فى هذا الموقف أوضح جلاء

لقد استطاع الرجل أن يصبح علماً فى الشرف والكفاءة بين طائفة كانت
محرومة من الشرف والكفاءة . ولكن هل استطاع أن يخرس الألسنة التى
تتمحل الأسباب لانكار الفضل كلما وجدت ذريعة الانكار ؟ وهل استطاع

أن يمنع النفوس الحاسدة أن تسف وتلؤم وتبحث عن الاساءة بما في وسعها من غمز وتعريض وتجاهل واضطغان؟ هؤلاء لا يثنى عليهم بفضل المحسود عن الكيد له والاستطالة عليه . بل فضل المحسود وشهادة الناس به هما باعث الكيد والاستطالة وعلة البغض والدسيسة ، وأنهم ليزيدهم ضراوة بالأيذاء ان يعتصم المحسود بأنفته ويغار على حوزته ، وأن يعرف قدره ولا يفرط في حقوقه ، فذلك قمين أن يهيج حفاتظهم ويهبط بهم إلى مادون حضيضهم ، ويخيل اليها أن سعداً قد لقي الكثير من سفساف هؤلاء الحاسدين الصغار من أصحاب المناصب والمراسم ، ولو شاء لأعرض عنهم واكتفى بما يعرفه الناس من قدره وأقدارهم ، ولكنه رجل عملي لا يرضيه من الاقناع إلا الاخام العملي والارغام العملي ، وإلا الواقع الذي تبطل معه المسكارة والملاحاة ، فجوابه على من يستطيل عليه بمنزله أن يحتل هو تلك المنزلة ، ويريح نفسه من « عناء التوفيق بين الباطن والظاهر وبين الضمير والقانون » كما قال ، وتلك طبيعة فيه لا تظنه كان قادراً في يوم من الأيام على الاغضاء عنها والتهاون فيها ، سواء في أيام المحاماة أو القضاء أو الوزارة أو الزعامة وشبهه بقبوله القضاء اجتهداه في تحصيل إجازة الحقوق وهو في نحو الأربعين ، قاض كثير الأعمال ، وزوج حديث عهد بالزواج

فقد أبدى رأياً في إحدى المسائل الفقهية فعجب رئيس الجلسة الانجليزي لصدور هذا الرأي منه ، أو تظاهر بالعجب وهو يقول له : إن هذا الرأي لتحقيق بمن درسوا العلوم التشريعية وأحرزوا فيها الاجازات من أمثال فلان وفلان ، ولا ندري لماذا خاطبه رئيس الجلسة بهذه العبارة . فاعله أراد أن يعض من عزته ويسيء اليه ، ولعله لم يفتن لموقع العبارة من نفسه ولم يتجاوز بها عادته من الصراحة والخشونة . ولكن سعداً أحس منها أنها تصغير له واستطالة عليه بالشهادات بين زملائه ، فكان جوابه عليها ثلاث سنوات في دراسة الفرنسية والعلوم التشريعية ! والحصول على الاجازة « في ستة

١٨٩٧ « بدرجة متفوقة ، وهذا جواب بالعمل لا موضع بعده لمكابرة ولا حاجة معه إلى كلام !

ومن ثم تتجلى لنا البواعث الكبرى في نفس سعد إلى العمل في كل ميدان لا في القضاء وحده ولا في المحاماة وحدها ، وهي العزة والكرامة وفرض هذه الكرامة على المكابرين والمتعنتين كلها وجب أن تُفرض ، وفي هذا السبيل يهون المال ، ويهون العناء ، ويهون كل شيء

بيد أننا حريون أن ننظر اليوم إلى التعيين في مناصب الحكومة بغير العين التي كانوا ينظرون بها إليه قبل أربعين سنة ، فان وظائف الحكومة اليوم فائضة بحاملي الشهادات المستجمعين لشرائط الاستخدام ، لا يكون التهافت عليها إلا علامة عجز عن أعباء الحياة ورغبة في التواكل والخمول ، أما قبل أربعين سنة فقد كان البحث عن الموظفين الكفؤ . — ولا سيما في القضاء — مشكلة قومية من أعسر المشكلات ، وكان ملء الوظائف بذوى الكفاءة والنزاهة عملا وطنيا جليلا يساوى الاشتغال اليوم ببناء المصانع وتأسيس الشركات ، وكانت قلة الموظفين الأكفاء الأمانة حجة للإنجليز على المصريين في دوام الاحتلال . ثم كان سعد أول محام انتقل من المحاماة إلى القضاء وأثبت أن المحامي لا يقل عن القاضي في فضله أو في مكانته الرسمية والاجتماعية ، وهي مرحلة ذات بال في تاريخ الوظائف وتاريخ المحاماة وتاريخ سعد وتاريخ التقديرات الاجتماعية ليس الاعراض عنها بمعقول ولا بمحمود . وإذا كان الاقبال على الوظائف الحكومية اليوم دليل العجز عن أعباء الحياة الحرة فمن ذا الذي يقول إن سعدا قبل الوظيفة لعجز عن تلك الأعباء ؟ بعد أن نال من الصيت والكسب في عالم المحاماة ما نال ؟

لقد أنصف سعد صناعته وأنصف كرامته ولم يظلم إلا نفسه بقبوله تلك الوظيفة التي تحم من رزقه على قول زميله . بل أنصف القضاء والقضاة كدأبه في تعظيم كل عمل يتولاه : وقلبا صان كرامته أحد الأسرى الصياني

الى العمل الذى هو فيه ، وهكذا أصبح من العسير بعد أن أصبح سعد قاضيا أن يعامل القضاة بغير مايجمل ويليق بحرمة القضاء ، وأول ما بدا من ذلك أنه استنكر من وزارة الحقانية أن تعلن خطأ القاضى فى رسائل رسمية تذاع على جميع المحاكم ببيان الخطأ وتصحيحه حسبما تراه الوزارة ! فعدلوا عن الاعلان الصريح شيئا فشيئا إلى توجيه الرسالة سرأ إلى صاحبها المقصود ، وكتبتان اسمه فى الرسائل التى تذاع على جميع القضاة ، وقس على ذلك نظائر شتى من معاملات كل ساعة ومناسبات كل حالة ، مما يحدث ويتكرر يوما بعد يوم ، ويكون له أبلغ الأثر فى ترقية القضاء ، ولكنه لا يدخل فى إحصاء.

سمعت من السيدة الجليلة صفية زغلول أن سعداً كان ينذر فى أوائل عهده بالمحاماة لئن أربى دخله على ستين جنيهاً فى الشهر ليدافع عن الفقراء الذين يقصدونه بغير جزاء .. وسمعنا كثيراً عن قضايا الفقراء التى كان يهتم بها كاهتمامه بالقضايا التى يتناول عنها أحسن الأجور ، بل سمعنا عن دستوره المشهور الذى فرض به على نفسه أن لا يطلب فى قضية أكثر من خمسمائة جنيه بالغاً ما بلغ شأنها من الضخامة وكائنا ما كان أصحابها من اليسار . وقد ظل يذكر نذره للفقراء أيام المحاماة إلى ما بعد قيامه بالنهضة الوطنية الأخيرة . فقال لقرينته الجليلة : « الآن نوفى كل ما فاتنا من دفاع عن المظلومين . فهذه قضية المصريين جميعاً ، والغنى منهم فى طلب الاستقلال فقير »

لكننا نعتقد أن المظلومين والضعفاء الذين أنصفهم سعد بالحكم لهم أضعاف المظلومين والضعفاء الذين استطاع أو كان يستطيع أن ينصفهم بالدفاع عنهم ، ففى كل قضية نظرها مظلوم على الأقل قد أهن الجور أو استرد حقه المضيع ، واشتهرت معدلة القاضى سعد فى أنحاء البلاد فاستطاعت كل مدينة أو بلدة أن تتحدث عن مآثرة من مآثره فى فض المشكلات وجلاء الخفايا والضرب على أيدي أصحاب المطامع والألاعيب . ومن هذه المدن مدينة فى أقصى صعيد مصر هى اسوان بلدة كاتب هذه السطور . ففيها أيضاً سمعنا قبل

نيف وثلاثين سنة بحكم من أحكامه في قضية ولا كالقضايا . تقلبت بين المحاكم من اسوان إلى قنا ومن قنا إلى القاهرة زهاء عشر سنوات ، ولم يكتب لها الفصل الأخير إلا على يدى سعد زغلول

كان صاحب الدعوى فقيراً لا يملك شيئاً لأن ما يملكه كله قد استولى عليه خصمه وهو غائب منقطع في السودان أيام الثورة المهدية ، وكان خصمه رجلاً غنياً مفرط الذكاء شديد العناد واسع العلم بالحيل القانونية التي تعوق تنفيذ الأحكام أو تؤجلها من موعد إلى موعد ، ملأ بمداخل الدواوين ومخارجها وطرائق النفاذ إلى الموظفين بالشفاعة تارة وبالهديّة تارة أخرى ، وكان قد استولى على ملك غريمه فأصلح فيه وبذل أيام كان هذا الغريم مهاجراً في السودان على عهد الدراويش ، لا ترجى له عودة أو يظن أنه فارق الحياة . فلما فتح السودان وأبيح النزول منه وعاد صاحب الملك إلى بلده يطلب حقه لم يجد سميعاً ولا مجيباً . وأصبح — وهو الغنى — فقيراً حائراً لا يعرف كيف السبيل إلى القضاء ، ولا يكافئ خصمه في المال ولا في الحيلة ولا في المعرفة بلجاجة المقاضاة ، أو أصبح كما كان يقول لمن يلقاه وهو في حيرته لا يدري من وسيلة غير الشكاية والتشهير : « غنّمني — أي نهبنى — الدراويش في الغربية وغنّمني هذا الرجل في بلدى ... »

وطالت السنوات بالقضية ولا جدوى ، فكلما دنت من الحكم احتال الخصم الغنى الذكى في تأجيلها إلى أمد بعيد ، وكلما صدر حكم فيها احتال في تعويقه بالتماس أو اشكال أو ما شابه ذلك من أحاييل التنفيذ ، وأيسر حيله في ذلك أن يعتمد على علم أجنبي يرفعه على الدور والدكاكين ، ويقم إلى جانبه يونانياً أو إيطالياً فقيراً يتصيد من أنحاء أسوان بأبخس الأجر

ويش صاحب المال من رد ماله فهم أن ينزل عن بعضه وفاتح خصمه في الأمر فأبى وأعرض عنه ، لاعتزازه بمكانته وبقينه من غلبته ووصول الخلاف في القضية إلى أقصى مداه ، فانقسمت أسوان إلى معسكرين متناظرين

على ماجرت به العادة بين أهل الريف في أمثال هذه القضايا . . . واشتهرت القضية بين النظرفاء من قراء الصحف « بقضية » دريفوس !
ثم انتهت إلى مرحلتها الأخيرة في القاهرة ، فاجتمع أحد أنصار الخصم الغنى الذكى بأحد أنصار الغريم الفقير ، وكان الأول ثملاً لا يضبط لسانه فزين له السكر أن يغيظ صاحبه فراح يهزأ به ويقول له : « عوضكم الله في القضية خيراً . إن المال قد لعب فيها لعبه الذى لا يخيب ، وإن فلانا قد دفع إلى فلان ألف جنيه ووثق من النتيجة ، فلم يبق لكم إلا أن تنطحوا الجبل ! »

وأسرع من سمع هذا الكلام الى نائب أسوان فى مجلس الشورى ، وأسرع هذا الى الأستاذ الامام فى عين شمس ومعه الرجل المنكوب وهو يكاد يحن من الفزع واليأس بعد أن أصبح على مقربة من النهاية ، وكان نائب أسوان يزور الأستاذ الامام لزمالة له فى المجلس ، فقص على الأستاذ ما سمع وترك الرجل يقص عليه ماجرى له من السودان إلى القاهرة ، فأدركت الأستاذ تلك النجدة التى اشتهر بها واشتهر بها أشباهه من تلاميذه ومريديه ، وسعى إلى الاطلاع على القضية بحذافيرها فأجيب فى وزارة الحقانية إلى طلبه لما كان له من المنزلة وعلو الكلمة ، وما هو إلا أن استوعب أوراقها حتى علم صدق الرجل وأحس ما أصابه من الحيف والكمد والحيرة فى السنوات الطوال التى قضاها بين انتظار يتلوه انتظار إلى غير قرار ، فتارة ينتظر مناقشة الخبراء وتارة ينتظر حكم القضاء ، وتارة ينتظر التنفيذ أو الفصل فى التماس أو إشكال أو استئناف ، وهال الأستاذ أن يهضم صاحب الحق هذه الهزيمة بين سمع القانون وبصره ، تخفف إلى الروساء فى وزارة الحقانية فأفضى اليهم بشكوكه واقترح عليهم أن يدفعوا الرية بأحالة القضية إلى دائرة يرأسها سعد زغلول ، فقبلوا اقتراحه

وجاء يوم الجلسة (التاسع من شهر مايو سنة ١٩٠٥) والخصوم لا يعلمون بشيء مما حدث ، وإذا بهم يجدون دائرة غير الدائرة ، ويباغت الغنى الذكى

فيلغى توكيل محاميه ويتحيل بذلك لتأجيل القضية إلى جلسة أخرى ، فحبطت جميع حيله ، ومضى الفقير المظلوم يشرح مصائبه ومتاعبه ويقول على عادته في ختام كل شكوى : « الدراويش غنموني في السودان وهذا الرجل غنمني في أسوان » . . . والتبست العبارة على سعد زغلول وسأل عن معناها ففسرها له بعض الأسوانيين الحاضرين في الجلسة . فقال للرجل مبتسما : « دراويش وراك ودرأويش أمامك يامسكين » . . . وفطن محامى الخصم لمعنى مارأى وماسمع فجمع أوراقه والتفت إلى صاحبه يقول له : « لا فائدة ! » . . . وقد صدق حدسه وصدر الحكم على أثر ذلك بتأييد حق الفقير المظلوم

فاذا كانت إغاثة المضمومين في المحاكم على هذا النمط فليس لهم أن يأسقوا لا انتقال سعد من الدفاع عنهم إلى الحكم لهم ، وليس لسعد أن يأسف على النذر الذى كان قد نذره أيام المحاماة ، فان قضاءه أوفى بذلك النذر من الدفاع بغير أجر عن صاحب الحق الضعيف

ترقى سعد فى الوظائف القضائية من مرتب خمسمائة وأربعين جنيها إلى ألف جنيه فى السنة ، وأحرز رتبة المتمايز بعد سبع سنوات ، وأنعم عليه بعدها بالنوط المجيدى الثالث . وبقي فى هذه الوظائف أربعة عشر عاما من سنة ١٨٩٢ إلى سنة ١٩٠٦ التى دعى فيها للوزارة . وأوجز مايقال عن تاريخه فى تلك الوظائف — وهو فى الوقت نفسه أوفى مايقال — إنه لم تكن قط فى سجل القضاء صفحة أنقى ولا أجمل من صفحة سعد زغلول

في طريق الوزارة

انتقلت مصر بعد هزيمة الثورة العراقية إلى شيء من الذهول

فأما الجيل العراقي فقد تفرق زعماءه بين النفي والسجن والاضطهاد والاعتزال ، ولو أنهم تركوا أحراراً لما استطاعوا القيام بعمل يذكر في الأحوال الجديدة . لأن الجيل الواحد قلما يقوى على النهوض بدورين متعاقبين ، ولا سيما بعد الهزيمة الصريحة ، وأما الجيل الجديد فلم يكبر بعد ، ولا بد من انتظاره بضع سنوات

ولبثت مصر زمناً في حالة من الخمود والاعياء ، ولعل الأصح انها كانت في حالة الترقب والانتظار ، ريثما تنجلي الأيام عن مصائر الأمور

فلم يدر الناس في مبدأ الأمر ماذا يصنع الانجليز ؟ وماذا ينوون أن يصنعوا ؟ أغلب الظن انهم باقون في مصر إلى زمن لا تعرف له نهاية ! ولكن ماذا تصنع أوروبا ؟ وماذا تصنع فرنسا على الخصوص ؟ وماذا تصنع الدولة البريطانية في ايمان الشرف التي أقسم بها رجالها ؟ وماذا تصنع بالوعود التي صرحت فيها بأنها لم تقدم إلى مصر إلا لتوطيد عرش الامارة ؟

لم ينجل ذلك كله في بادئ الأمر ، ولكنه أخذ ينجلي رويداً رويداً حين أخذت الدولة البريطانية في انتحال الأعذار عاماً بعد عام لتطويل أجل الاحتلال . فبعد ان كان قدومها إلى مصر لتوطيد عرش الامارة أصبح لها غرض آخر وهو تنظيم الادارة المصرية تنظيمًا يكفل سداد الديون الأجنبية . . . ثم أخذت تزعم انها ستعنى بتربية المصريين وتدريبهم على حكم أنفسهم واستلام مقاليد الأعمال في بلادهم ، وعرضت على السلطان عبد الحميد مرة أن تغادر مصر على أن تعود إليها لتوطيد النظام إذا طرأ فيها ما يدعو إلى ذلك ، فأبى السلطان أن يبرم مع الدولة البريطانية معاهدة بهذا المعنى ، لأنه اعترف لها بحق الحماية أو ما يشبه الحماية ، وشجعته فرنسا وروسيا

على الرفض لانهما حسبنا أن انجلترا لم تقترح هذا الاقتراح إلا وهي تشعر
بتزعزع مركزها في مصر وتنوى أن تعود إليها بحجة أثبت وأوضح ، فعنَّ
لهما أن ترك انجلترا حتى تجلو في زمن قريب خير من جلائها بمثل هذه
المعاهدة ثم عودتها بحجة مشروعة لا تقدر الدول على مناقشتها

وبعد أن جاء مختار باشا الغازي إلى مصر — سنة ١٨٨٥ — للبحث في
المعاهدة المقترحة سكنت المسألة وعدل الانجليز عن متابعة البحث فيها. وفي ذلك
دليل على اتجاه الأفكار يومئذ بين المصريين والانجليز والدول الأوربية والدولة
العثمانية فيما يتعلق بمركز الاحتلال وما يقدر له من الدوام ، وفيه دليل على
الاسباب التي كانت تملي للمصريين في حالة الترقب والانتظار ، مع ما هم فيه
من الاعياء الذي لا تسهل معه الحركة ، ولا سيما الحركة إلى غير اتجاه
معروف

وكان الانجليز عقب الاحتلال يتقربون الى الناس بالعدل وتنظيم الشؤون
الحكومية ، ويحسبون أنهم يجتذبون اليهم قلوب المصريين بهذه السياسة
ويصرفونهم عن الاستقلال والحرية الوطنية ، ثم انكشفت حقيقة مطامعهم
وتبينت نية البقاء الطويل من أعمالهم وتمييداتهم ، وقد كان جيل الثورة يذكر
دسائس الحكومة البريطانية قبل الاحتلال ويعلم أنها هي التي أحبطت الثورة
وتوسلت بها إلى دخول مصر وتحقيق مطامعها القديمة في الاستيلاء على طريق
الهند ومفتاحها من قناة السويس ، فلم يؤخذ بتلك المظاهر وسامت ظنونه
بكل غرض من الإصلاح ، ثم نبت جيل جديد يشعر بالنفور الطبيعي من الحكم
الأجنبي ولا يسمع من دعاوى الاستعمار البريطاني إلا كل ما يريب ويشير
فانبثقت ينايع الحركة الوطنية هنا وهناك ، وكان انبثاقها كما رأيت من
مصادر شتى بين بقايا الجيل الماضي وبواكير الجيل الحاضر ، فلم تكن على اتفاق
في غير الشعور بالزعة الوطنية ، وحتى هذا لم يكن متفقاً منسجماً في معناه
ومرماه ، لأنه كان يمتزج أحياناً بالعلاقة العثمانية والصبغة الدينية ، وكان يمتزج

أحياناً أخرى بسوء فهم للصالحة المصرية والسبيل الأقوم لنجاح القضية القومية .

وتغلغل سوء الظن عند جميع المصريين فدأبوا على تزييف كل دعوى يدعيها الإنجليز وكل حجة يتذرعون بها إلى إطالة أيام الاحتلال ، ولما كانت حجة توطيد العرش قد انتهت زمانها وانتهى معها زمان الحجج التي من قبيلها فقد أصبحت دعواهم محصورة في تربية الأمة واعدادها لحكم نفسها وأصبحت هذه الدعوى هدف الحملة الكبرى من كل جانب بعد أن سلك الإنجليز مسلكهم المغيّب في وزارة (١) المعارف وأهمّوا التعليم الصحيح إهمالاً ظاهراً مقصوداً لا تجدى فيه المغالطة ، وحصرُوا همهم كله في المدارس على تخريج الموظفين ومن لا يحسنون ابتغاء الرزق من غير الوظيفة ، فصار « التعليم » هو الراية التي يحارب حولها دعاة الوطنية من جميع الصفوف .

والآن نحن نعرف الأحزاب السياسية والانتخابات الحزبية ، ونحسب أن مصر لم تخل قط من هذه الأوضاع والمراسم في عهد من العهود ، فيجب أن نذكر أن أحزابنا كلها ما بقى منها وما انقرض لم تكن معروفة قبل ثلاثين سنة ، ولم يكن في مصر كلها حزب واحد له اسم وبرنامج ورئيس وأعضاء على النحو المعهود بيننا اليوم . وأن القرن التاسع عشر كله قد انتهى ولما بدأ الأحزاب المصرية في الظهور ، وأن المرحوم مصطفى كاملاً زعيم الجيل الجديد بعد الثورة العرابية لم يظهر له اسم في السياسة المصرية قبل سنة ١٨٩٥ .. وأنه لم ينشأ صحيفة اللواء إلا بعد ذلك بخمس سنوات ... يجب أن يذكر الناشئ في جيلنا الحاضر كل هذا ليفهم كيف إن رجلاً كسعد زغلول يكون محامياً في بعض تلك الفترة ثم لا يكون زعيماً لحزب ولا داعياً في حركة وطنية ، كما ينبغي لرجل رشحته الحوادث في الشيخوخة لزعامة الأمة بأسرها

(١) كانت الوزارات تسمى يومئذ بالنظارات ولكننا آثرنا اسم الوزارة لتوحيد التسمية في جميع فصول الكتاب .

فجهد ما كان يصنعه المصري الراغب في خدمة بلاده يومذاك أن يساعد على إيقاظ الحمية الوطنية ورفع صوتها من جهة ، وأن يعمل ما استطاع لتعميم التهذيب والتعليم والثقافة من الجهة الأخرى ، وذلك ما كان سعد يعمل في الوظيفة وقبل الوظيفة ، فأمد الشيخ على يوسف بالمال لاستبقاء صحيفته التي لم يكن للبلاد صحيفة وطنية غيرها ، وبذل له مائة جنيه — وهي في ذلك الوقت مبلغ غير قليل — ليؤديها إلى شريكه الشيخ ماضى وينقذ الصحيفة من الاحتجاب ، وفي ندوة سعد وصحابته كان مصطفى كامل يتلقى التشجيع والتحييد يوم أن برز على مسرح السياسة المصرية للمرة الأولى .

وكانت الدعوة الوطنية كما أسلفنا شعباً مختلفات في المقصد والنتيجة المأمولة ، فمنها ما كان يتجه إلى الدولة العثمانية ، ومنها ما كان يتجه إلى فرنسا لأنها أكبر الدول الأوروبية التي كانت تناوى انجلترا في مطامعها الشرقية ، ولم يشترك مع هؤلاء ولا هؤلاء حصفاء الثورة العراقية الذين شهدوا بأعينهم تذبذب السياسة الفرنسية والسياسة العثمانية قبل الاحتلال . فقد رأى رجال هذا الفريق ما هو حسبهم وزيادة من هذه الآمال الكاذبة وهذه الجهود العقيمة . فاستقاموا على الطريق الوحيد المفيد الممهد لهم وهو طريق النهضة المصرية الصميعة واستقلال المصريين أنفسهم بطلب الاستقلال ، وتزويد الأمة بعدة العلم واليقظة والمثابرة ، لأنه مامن وسيلة إلى الاستقلال في رأيهم أنجع من وسيلة فهمه ، والاستعداد له ، والاصرار على طلبه ، ومن هذا الفريق كان أناس من فطاحل المصريين أمثال محمد عبده وسعد زغلول

وكانت خطة سعد أن يساعد مخالفيه فيما من شأنه إيقاظ الشعور وبث الحمية الوطنية ، ولسكنه يقف عند هذا فلا يرجو الاستقلال من الدولة العثمانية ولا من الدولة الفرنسية ولا يعول فيه إلا على التربية الوطنية واستقلال الأمة بالمطالبة ، وكل أولئك هو مستطيعه من حيث عمل في المحاماة ومن حيث كان يعمل في القضاء . فلم تمنح له فرصة لخدمة الدعوة الوطنية على حسب اعتقاده إلا اتهمها وعمل

فيها كل ما هو قادر عليه ؛ أيد مصطفى كاملا وعلى يوسف وغيرهما من كتاب الصحافة فيما تكفلوا به من إيقاظ روح الأمة وتكوين رأيها ورفع صوتها وإن لم يؤيدهم في توجيه الأمل إلى العثمانيين أو الفرنسيين ، وأيد قاسم أمين في تحرير المرأة وإصلاح الحياة الاجتماعية فلم يجد قاسم من يهتدى إليه كتابه غيره .

ولما هبت في البلاد تلك الدعوة المباركة إلى إنشاء الجامعة المصرية كان هو على رأسها وتبرع لها مع المنبرعين بمائة جنيه ؛ ومن منزله صدر منشورها الأول إلى الأمة في الثاني عشر من أكتوبر سنة ١٩٠٦ . وفيه يقول بلسان المجتمعين :

« في هذه السنة هب في الرأى العام تيار من نفسه لتحقيق هذه الامنية لأن الأمة انتهت بأن تفهم تمام الفهم أن طريقة التعليم فيها نافضة ودائرتها ضيقة تقف وتنتهى بالطالب قبل بلوغ الغاية ، وإن من وراء الحدود التي انحصر فيها معارف سامية وحقائق عالية وقضايا جليلة ومشكلات غامضة تشتاق النفوس إلى حلها ، واختراعات جديدة وتجارب بدية واختبارات كثيرأ ما شغلت وتشغل عقول كبار العلماء في أوربا ولا يصل إلينا منها إلا صداها الضعيف . فمنها ما يختص بالوجود وما يتعلق بالهيئة الاجتماعية وما يبحث فيه عن لغة الانسان وعن الآداب والفلسفة والشرائع والتربية وكل ما يهم ماضى الانسان وحاضره ومستقبله ، وهو موضوع علوم شتى لا يعرف واحد شيئا منها ولا يهتم بما كمل منها ولا بما هو سائر نحو الكمال ، وأبلغ من ذلك أنه لا يوجد لدينا درس نعرف منه قيمة المؤلفات العربية في الآداب والفلسفة والعلوم ولا قيمة من اشتهروا من مؤلفيها عند الاورباويين الذين بحثوا عنهم وعرفوهم ووفوهم حقهم من الاجلال والاحترام

» ان جميع الذين يشعرون منا بنقص تربيتهم العقلية يرون من الواجب أن يتقدم التعليم في بلادنا خطوة نحو الامام وأن أمتنا لا يمكنها أن تعد في

صف الأمم الراقية لمجرد أن يعرف أغلب أفرادها القراءة والكتابة أو أن يتعلم بعضهم شيئاً من الفنون والصناعات كالطب والهندسة والمحاماة . بل يلزم أكثر من ذلك : يلزم أن شباننا الذين يجدون في أوقاتهم سعة ومن نفوسهم استعداداً يصعدون بعقولهم ومداركهم إلى حيث ارتقى علماء تلك الأمم . . . «
وفي المنشور إفاضة في هذا المعنى ، ولكنّ ما تقدم كاف لبيان الغرض الذي توخاه سعد وأصحابه من إقامة جامعة كبيرة في مصر ، وحاول في أخريات أيامه أن يعود بالجامعة إليه ، لأنه كان يعتقد أن قيام المدارس العليا في بناء واحد لا يحقق الدراسة الجامعية التي تشعر الأمة بالنقص فيها والحاجة إلى استكمالها .

سنة ١٩٠٦

من حق هذه السنة التي صدر فيها مرسوم الجامعة أن تترك عندها قليلا لأنها أول سنة ذات بال في تاريخ الحركة الوطنية بعد الاحتلال فقد علم الانجليز لأول مرة أن «أعيان المصريين» الذين حسبوهم بمعزل عن حركة الحرية الناشئة يؤازرون هذه الحركة بقلوبهم ولا يجمعون عن التصريح بتأييدها في الآونة المناسبة . فلما حضر ولي عهد إنجلترا إلى مصر كتب إليه جماعة من الأعيان يذكرونه وعود الجلاء ويومنون إلى خطة إنجلترا في معاملة البوير بالحسن بعد هزيمتهم في ميدان القتال ، ويعلنون رغبتهم في استقلال الحكومة المصرية راجين من حكومة الأحرار في إنجلترا أن تكون على مبادئها فلا تنكر على مصر حقها في الحرية »

وفي هذه السنة وقع الحادث الأكبر الذي علم الانجليز منه حقيقة الشعور الذي يشعر به الفلاحون الصغار لابسى « الجلايب الزرقاء » نحو الاحتلال البريطاني ، بعد ما حسبوهم زمنا طويلا من أنصارهم الراغبين في حمايتهم لهم من ظلم الباشوات ومفسد الحكومة الوطنية ... ونعني به ذلك الحادث الفاجع الذي اشتهر باسم قضية دنشواى ، والذي كان له من الأثر في إيقاظ هذه الأمة ما لم يبلغه حادث سواه في الجيل كله . إذ ليس في مقدور المؤرخ أن يذكر قبل الحرب العظمى حادثا جمع قلوب المصريين كما جمعتها قضية دنشواى ، وآلم نفوسهم كما آلمتهم ، وأحيا شعور التضامن القومى كما أحياه بينهم ، وينبئنا عن ذلك بعض النبأ ما كتبه قاسم أمين في مذكراته حيث يقول : « ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق : المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى . رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا وزورا

مخوفاً ودهشة عصبية بادية في الأيدي وفي الأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه : حزن ساكن مستسلم للقوة مختلط بشيء من الدهشة والذهول .
ي الناس يتكلمون بصوت خافت وعبارات متقطعة وهيئة بائسة . منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دارميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف في كل مكان من المدينة »

والمواقع أن قضية دنشواي كانت نقمة في طيها رحمة . لأن مستعمري الانجليز آمنوا بعدها بالقومية المصرية إيماناً لا يجدى فيه التجاهل ، وعلموا أن الفلاح و ابن المدينة المتعلم في الشعور الوطني سواء ، وإن اصطناع المودة للفلاحين لا يجعلهم انجليزاً ولا ينسبهم أنهم مصريون ، وراؤا رأى العين نفور أصحاب « الجلايب الزرقاء » من الرداء الأحمر المغير على أرض آبائهم وأجدادهم . تخفضوا قليلاً من جهازة النعمة التي كانوا يرمون بها حب الفلاحين لهم وحبهم هم للفلاحين . . . وذهبوا يلتمسون العلل من ناحية التعصب الديني تارة والدسائس الأجنبية تارة أخرى ، لهذا النفور الذي كانوا يستغربونه أو يعلنون استغرابه . . . وليس فيه غريب .

خلاصة هذا الحادث أن بعض الضباط الانجليز خرجوا في رحلة لهم إلى الاسكندرية يصطادون الحمام على مقربة من أبراج قرية دنشواي ، فعلموا ذلك على الرغم من تنبيههم كثيراً إلى إجتنب الصيد في جوار القرى ، فخرجوا امرأة وأحرقوا جريناً واحتدم بينهم وبين الفلاحين شجار أصيب فيه جماعة من الفلاحين وثلاثة من الضباط ، وجرى أحدهم لولاه وهو مجروح - إلى المحطة القريبة يلتمس النجدة فسقط ميتاً بالرغم من (ضربة الشمس) بعد مسافة غير قصيرة ، لأن القبط كان على أشده في الثالث عشر من شهر يونيو ، فلم يقو الضابط الانجليزي على احتماله بعد ما أصابه من جهد الصيد والجرح والعدو الطويل .

حدث هذا والموظفون الانجليز الذين أفلقتهم بوادر الوثبة الوطنية يتوقون إلى مناسبة يضربون فيها الضربة المصمية ويثبتون فيها رهبة الدولة البريطانية ، فلم يترددوا في إغتنام هذه المناسبة ، وأصدروا الأوامر بارسال المشنقة

وأدوات التعذيب إلى دنشواى قبل انتقال المحكمة . وبعد يومين اثنين من وقوع الحادث كانت المحكمة قد انعقدت ، وكان الحكم قد صدر ، وكان المستشار الانجليزى ينفذه بين الجند المسلحين على مرأى من الآباء والأبناء والأقارب والأزواج ، وهو يقضى على أربعة من الفلاحين بالشنق واثنين بالسجن مدى الحياة ، وثلاثة بالسجن سنة وجلدهم خمسين جلدة

وازدادت شناعة الحكم بشناعة التنفيذ ، فكان المشنوق ينظر إلى الجمهور والجمهور ينظرون إلى المشنوق ، والشيوخ والأطفال والنساء ينظرون من قريب إلى المشنوقين والمجلودين بين صفوف الجند المحدثين بهم ، وهم يقهقهون بالبنادق والسيوف ، والمستشار فى خيالاته يحول بينهم ويصول

إن القارىء ليتخيل الآن وقع هذا الحادث الأليم فى نفوس المصريين ، ويعينه على تخيله ذلك الوصف الوجيز الذى وصفه به قاسم أمين فى مذكراته ، ويزيده قدرة على التخيل أن يعلم أن قاسماً كان يكتب لنفسه ولم يكن - على اتصاله بالأصلاح الاجتماعى - من المغموسين فى الحوادث السياسية ، لكن كلام قاسم وكل كلام موجز أو مسهب يقصر عن تمثيل ذلك الوجوم المرهوب الذى خيم على الأمة المصرية يوم تسامعت بأبناء الحكم وأبناء تنفيذه ، ولقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ فى أسوان ، فأغمرى على واحد منا ولم نستطع إتمام القراءة إلا بصوت متهدج تخنقه العبرات

وحسب القارىء من هذا الحادث أن يعلم أن غضب الأمة قد هال الوزراء الانجليز أنفسهم وزعزع بينهم سمعة كرومر بعد طول الإعجاب به والاعتماد عليه ، ودق المسامير الأخيرة فى نعش سياسته المصرية ، فعاد إلى القاهرة مقسوراً على إتباع سياسة جديدة غير سياسته الأولى من التجاهل والكبرياء ، ولم يكن يدري أنها سنته الأخيرة التى عزل بعدها وأذبح خير عزله قبل أن يعلم به ! ولولا عادة الحكومة البريطانية أن تدارى هزيمة رجالها لعزلته فى أعقاب الحادث ، بغير إبطاء ، لفرط ما فاجأها من سحق الأمة المصرية وسخط الذين سمعوا به فى أوروبا والبلاد الانجليزية .

وزارة المعارف

عاد اللورد كرومر إلى القاهرة في ختام السنة - أوفى مطلع السنة السياسية بخطة جديدة تميل إلى الاعتراف بالوطنية المصرية وتحويلها حقاً في حكومة البلاد أكبر من حق الأصغاء والتسليم ، وتحاول ماوسعها أن تنفي التهم الكثيرة التي أحاطت بنيات الدولة البريطانية وفي مقدمتها إهمال التعليم عمداً وحرمان الشبان المصريين حظ التربية الصالحة والتثقيف النافع . فكان أول ما بدا من دلائل هذه الخطة الجديدة دعوة سعد زغلول بك ليتولى وزارة المعارف العمومية ، وهو الرجل الذي تصدى قبيل ذلك لنقد التعليم في مصر ، وإنشاء جامعة كبرى تستدرك ما فيه من نقص وخلل .

ولم تكن هذه أول مرة عرض فيها اسم سعد لولاية الوزارة مع فئة من أبناء الفلاحين المعروفين بالنزاهة والخصافة ، فقد كان ترشيحه للوزارة من المطالب التي اشترك في طلبها مستر بلنت الشاعر الأيرلندي المستشرق والشيخ محمد عبده ومحمد المويلحي بك منذ سنة ١٨٩١ . وكتبوا بذلك خطاباً إلى لورد كرومر ذكروا فيه اسمه مع أسماء تسعة آخرين .

وكان لورد كرومر يعرف سعداً من زيارته لنادي الأميرة نازلي فاضل ، ويسمع عنه من أحاديث الأستاذ الإمام ، ويعلم ما اشتهر به في القضاء من الجِد والنزاهة وحسن الدراية ، ويتبين فيه تلك الصفات التي جعلته يقول في خطبة الوداع بعد ذلك بنحو سنة : « إن هذا الرجل قدير شجاع في عقيدته . وقد علمت كفى احترامه » وهي كلمة كبيرة من عميد بريطاني ، شديد الاعتداد بنفسه وبجنسه كاللورد كرومر ، لم يقلها عن مصري ولا ندكر أنه قالها عن صاحب من أصحابه الإنجليز أو الأوربيين .

ومن المحقق أن لورد كرومر عرف من اللحظة الأولى بعد لقاء سعد في

نادى الأميرة نازلى أنه يرى رجلاً لا كالرجال وموظفاً مصرياً لا يعد من أحلاس الوظائف المتماقين . فقد جلس معه ساعة فأدهشه أن لا يسمع منه ملقاً أو وصية أو رجاء كما تعود أن يسمع من رواد النادى ومن طلاب الحاجات الذين يلقاهم فى كل مكان ، فسأله بين المزح والجد والاستطلاع : « والآل ياسعد بك ليست لك حاجة ؟ » أو قال له فى عبارة أخرى : « وأنت ليست لك حاجة أيضاً ؟ » فامتعض سعد لهذا السؤال ، وأحس فيه تعريضاً به وبغيره من أبناء وطنه فقال له : « شكرآ ! ولكن لم أسألك أنت قضاء الحاجات ؟ » فلما عاد كرومر إلى مصر على أثر فاجعة دنشواى مزوداً من وزارة الأحرار بسياسة الهوادة والتسامح مع الوطنية المصرية ، والتقرب إلى المصريين الفلاحين بعد ما أصابهم من حيف فى تلك الفاجعة ، علم أن هذا الفلاح أصلح الناس لأن يكون رمزاً واضحاً للاعتراف الجديد والتقرب المقصود ، فتم الاتفاق على تعيينه وزيراً للمعارف العمومية ، وأعلن هذا التعيين فى الثامن والعشرين من شهر أكتوبر ، أو فى مستهل السنة السياسية.

تلقت الأمة وزارة سعد على هذا الاعتبار ، وفهمت منها أنها ابتداء خطة جديدة فى السياسة البريطانية ، فيها معنى العدول عن التجربة الماضية وفيها معنى الترضية والاعتذار ، فقال المؤيد فى يوم تعيينه : « مضت إحدى عشرة سنة وبضعة شهور على الوزارة المصرية وهيئتها على حالة واحدة لم يحصل فيها تغيير ولا تعديل بفضل سكونها وعدم حركتها حتى كادت تنسى الأمة المصرية أن لها وزارة من كبار رجالها وصار كل عمل فى الدواوين للبشارين وكل ظلامنة ترفع لهم وكل اعتراض يوجه إليهم . وبينما نحن كذلك فى هذا القنوط من وزرائنا إذا برنة جرس قوية صلت على الأذان فنبهت الأذهان إلى حركة جديدة فى الوزارة : حركة تعديل تبعث فى النفس أملاً جديداً من جانبها ، لأننا لانفهم بهذا التعديل الجديد معنى إلا أن ولى الأمر ومستشاريه من أصحاب النفوذ رأوا أن يعيدوا للنظار شيئاً من

سلطتهم فلا يكونوا مع المستشارين كما هم قبل اليوم ، ولعل هنالك تعليمات من قبل خارجية انكلترا قضت بذلك بعد الذي جرى من الحوادث في مصر وأساء المصريين »

ثم قال : « وسعد بك زغلول يعرفه المصريون قاطبة بالعلم والفضل وعلو المبادئ واستقلال الرأي كما يعرفونه بالمقدرة الفائقة . فيوم كان محامياً اشتهر بقوة عارضته وقوة بيانه وقوة استقامته ، وإذا اجتمعت هذه القوى في شخص رقت به لا محالة إلى ذروة الاحترام »

« ومنذ تولى القضاء في الاستئناف كان راية للعدل ودثالا للنزاهة واستقلال الرأي ، فكم أنقذ أرواحا كانت ضائعة بغش التحقيق وغرور القضاء الابتدائي ؟ وقد عرف في كل أدوار حياته بالنشاط وحب المزيد من العلم والتضلع فيه حتى أنه وهو حوالى الأربعين من عمره تعلم الفرنسية حتى برع فيها وأدى بها امتحاناً نهائياً في الحقوق »

ثم قال : « وهو القائل بالأمس إن الأمة المصرية ينقصها العلم الصحيح وهو الداعي إلى الجامعة المصرية . فما يطلب منه في نظارة المعارف أضعاف ما يطلب من سواه »

أما « اللواء » وهو لسان حال المتطرفين فقد كتب في التعقيب على تعيينه : « ان ما يعرفه الناس من أخلاق وصفات سعد بك زغلول وهو في المحاماة أولاً وفي القضاء ثانياً يحملهم جميعاً على الارتياح لهذا التعيين الذي صادف مصر يا مشهوراً بالكفاءة والدراية والعلم الغزير وحب الانصاف والعدل »

« ولكن لما كانت الوزارة من سنوات مضت إلى اليوم منصباً لا عمل فيه وكان المستشارون الانكايز أصحاب السيطرة الثابتة في النظارات ، حق للناس أن يتساءلوا عما يعمل به سعد بك زغلول في نظارة المعارف : هل سيكون

كبقية الوزراء أمره وأمر المعارف بيد دانلوب ؟ أم يكون وزيراً اسماً وعملاً
ويحيى سلطة الوزراء المصريين ؟

« اللهم إنا عرفنا سعد بك زغلول في ماضيه وحاضره أشد الناس تمسكاً
باستقلاله وحقوقه وأكثرهم انتقاداً على الذين تركوا سلطة مناصبهم لغيرهم
وسمعه يقرع بلمجة حادة الكسالى والمقصرين كباراً كانوا أو صغاراً ، فإذا
بقى سعد بك في وظيفته كما هو وكما كان — وهو ما نعتقد — أملنا خيراً كبيراً
للمعارف ورجونا سريان هذه الروح إلى بقية النظار وعودة الحياة المصرية
إلى الوزارة

« على أنه إذا كان جناب اللورد كرومر اختار سعد بك زغلول وزيراً
للمعارف تقديرآ لعله وإعلاناً لتغيير جنابه للسياسة الاحتلالية الماضية واتباع
لسياسة جديدة قاضية بإعطاء المناصب لمستحقها وتشريف الكفاءة — فإن
هذه السياسة تقضى قبل كل شيء بأن يكون الوزير وزيراً حقيقة وأن يكون
العامل عاملاً مؤدياً لوظيفته متمتعاً بكل حقوقه ، لا أن يكون آلة في يد
الموظف الانكليزي ولوجب أن يكون سعد بك زغلول المدير الفعال لدفة
المعارف المصرية والمصلح لخللها الكثير والمحقق لآمال الأمة في نظارة خابت
فيها مع المستر دانلوب كل الآمال

« فنحن لا نبتهج اليوم بتعيين سعادة سعد بك زغلول وزيراً للمعارف
إلا بأمل أن يكون كما كان على باشا مبارك والفلكي باشا وأمثالهما ممن خدموا
العلم في هذا القطر خدمات خالدة ، وكانت لهم في مناصبهم الكلمة النافذة
والرأى المتبع ، ونطالبه قبل مطالبتنا للاحتلال بأن يكون كذلك وأن
يكون في مستقبله كما هو في حاضره وكما كان في ماضيه ، الرجل المستقل الذي
لا يتخذه منصب ولا مال »

ولم تكتم التيمس غرض السياسة الجديدة من هذا التعيين فقال مراسلها
في القاهرة « إن الناظر الجديد الذي كانت له منزلة ممتازة في المحاماة والقضاء

هو من شيعة المرحوم محمد عبده الذين امتازوا بالارتقاء والتأديب ، وهم الذين ساهم اللورد كرومر فريق الجيروندي في النهضة الوطنية المصرية — إشارة إلى الحزب الجيروندي في الثورة الفرنسية — وهو مصري عريق في وطنيته أجمع الناس على إكرامه والاعجاب به نظراً لما اشتهر عنه من الاستقامة والاستقلال . أما تعيينه لمنصبه الحالي فسوف يعزز مركز الوزارة المصرية وهي تجربة جمعت بين الأقدام والتوسع ، ومن شأنها أن قد تدحض الانتقادات التي ترمى بها الحكومة من أنها مهملة للتعليم »

وقال الماركيز زتلاند Zetland الذي ألف كتاباً في تاريخ اللورد كرومر بصدد هذا التعيين .

« إن كرومر نفسه قد خطا في سبيل صبغ الحكومة بالصيغة الشعبية المحبوبة خطوة إلى الامام قبيل رحيله من مصر حين أوصى بتعيين مصري معروف بنزعة الوطنية وزيراً للمعارف ونعني به سعد زغلول ، وقد أوصى بهذا التعيين على أن يكون تجربة تلاحظ بالدقة الواجبة قبل تكرارها »

فما تقدم نرى أن تعيين سعد وزيراً للمعارف إنما كان تسليماً من الاحتلال للوطنية المصرية ولم يكن تسليماً من الوطنية المصرية للاحتلال كما زعم خصوم سعد بعد ذلك في لجج العداوة الحزبية المشوبة بالثرات الشخصية

وأنه لمن لغو القول أن يعزى تعيينه إلى مصاهرة رئيس الوزراء وهو الرجل الذي يعتد بنفسه ويعتد به الناس هذا الاعتداد ، ولم يشتهر بشيء في حياته كلها كما اشتهر بالشخصية المستقلة والارادة الحديدية ، فمثل هذا الرجل لا يقع عليه الاختيار حين يكون المقصود رعاية غيره أو إرضاء صهره ، وإنما يقع على رجل امعة لا خطر له ولا يذكر الا بالإضافة إلى أقربائه .

وقد كان منصبه يرشحه للوزارة بغير محاياة بعد أن أصبح في طليعة المستشارين بمحكمة الاستئناف ، تضاف إلى ذلك مزاياه الشخصية ، وتقدمه

بين شيعة الشيخ محمد عبده إمام المصلحين ، وتاريخه الماضى فى الحركة الوطنية ، وانتقاده سياسة التعليم قبيـل عرض الوزارة عليه ، والرغبة فى ترشيح وزير من عنصر الفلاحين يكون انتقاؤه ترضية متفقا عليها فانهمضة الوطنية ، فكل أولئك يخصصه ويكاد يسميه تسمية ولا يجعل له مزاحما واحدا بين زملائه ، عند البحث عن الوزير الذى يفتتح بوزارته عهد السياسة الجديدة .

وكل أولئك يدل على أن جلوس سعد على كرسى الوزارة كجلوسه بعد ذلك على كرسى الرئاسة إنما كان ترشيحا « قوميا » يراد به وجه الأمة المصرية ، وإنما كان خطة لازمة لم يجد الانجليز محيصا عن السير فيها ، إذعانا لمجرى الحوادث واعترافا بمشيئة الأمة

ذلك إجماع الحوادث والآراء السياسية من كل جانب على استحقاق سعد لذلك الاختيار والتميز ، وعلى مطابقة تعيينه لجميع الدواعى والمناسبات فى تلك الأيام . وما يلحق بهذا الباب أن نضيف إلى الإجماع المتقدم إجماع القضاة والمحامين الذين احتفلوا ابتوديعه يوم ترك القضاء لولاية الوزارة فالمسيو « دى هوالتز » الذى ناب عن المستشارين لأنه أكبرهم سنا يقول : « سألتزم الاختصار لأن المحكمة متتورة وهى تعلم مقدما ماسأقول ، لأنها فى هذا الموضوع متفقة معى فى الرأى والشعور ، ولا أطيل عليك يا عزيزى سعد فى تفصيل ما أنت عليه من صفات الكمال القلبية والعقلية . بل اكتفى بأن أقول : إنه ربما خطر ببالك عند ما تركت المحاماة إلى القضاء إن ذلك كان شرفا لك . نعم إنه كان شرفا ولكنه شرف لنا معشر القضاة . شعرنا به عقب وجودك بيننا إذ تمكنا من أن ننظر عن كسب إلى أخلاقك ومعارفك فنقدرك قدرك . إنك من بعض الوجوه قد تربيت فى حجر محكمة الاستئناف ، فهى تنظر اليك الآن وقد تركتها ودخلت فى عمل جديد

نظر آسفة على فراقك ، آمنة عليك ، لأنها على يقين من نجاحك فيه كل النجاح »
ومن المصادفات الطريفة أن القاضى الذى شهد له هذه الشهادة العالية
هو القاضى الذى حكم له بالبراءة فى شبابه على ما يذكرك القراء

أما المحامون فقد قال كبيرهم الأستاذ عمر لطفى بك بلسانهم « نحن
معشر المحامين قد تلقينا هذا النبأ بمزيد الفرح والسرور وبغير استغراب .
لأننا عرفناك محامياً وخبرناك قاضياً ، فكنت فى كلتا الحالتين محل ثقتنا
واحترامنا وإعجابنا ، وكل منا يعتقد أنك أهل لأن تسند اليك المناصب
السامية التى يصح أن يتولاها من امتاز بالفضل مثلكم . ولا حاجة بنا أيها
الزملاء الى أن نشرح مآثر المحتفل به لما كان محامياً فانكم تعلمون — أو يعلم
أكثركم كيف كان يدافع عن الحق بقدرة ونزاهة واستقلال ، مع ما كان
يلاقه المحامى الشريف من الصعوبات للذود عن مصالح موكله ، فى عصر
لم يكن نظام المحاكم الجديدة فيه مألوفاً لدى القضاة والمتقاضين

» وقد خبرناك ياسعادة « الناظر » قاضياً فكان لك من الخدمات
النافعة مثل ما كان لك فى المحاماة أو أكثر . وقد شهد بفضلك زملاؤك
القضاة يوم احتفالهم بك فلم يتركوا لنا مجالاً للقول ، إلا أننا لانستطيع أن
نغفل ما كان لك من الصبر والجلد فى جلسات المحاكم ، استقراراً للحقيقة
وحباً للعدل ، ولا ما كان لك من المشاركة فى تكوين الأحكام ذات
المبادئ القانونية الجليلة التى تشرف اليوم القضاء الاهلى ... »

وهو كلام موزون تدل عباراته على أن قائله يعنى ما يقول ولا يرسل
القول على عواهنه ، فاذا أردنا أن نلتفت إلى مزاعم الخصوم بعد ما تقدم
فإننا نلتفت إليها لأنها تستحق الالتفات لما فيها من العبرة التى هى أنفس
ما يستفاد من تراجم العظام . والعبرة هنا أن لا يحاول أحد من العاملين اتقاء
مزاعم الخصوم ، لأن الخصوم يحدون ما يقال حتى فى روجل اجتماع
له كل هذه الشهادات ، وحتى فى تعيين اجتماع له كل هذه المناسبات

سعد الوزير

من الواضح أن الواجب الأول على سعد حين دعى الى الوزارة أن يقبلها ولا يتردد في قبولها ، لأنه يطلب اصلاح التعليم وهذه فرصة سانحة لاصلاحه بيديه . ولأن المصريين يريدون ان يقرروا كفاءتهم لتدبير شؤونهم ولا وسيلة لهم الى ذلك غير الاضطلاع باعباء المناصب

الا ان المعارضين لسعد بعد ولايته الوزارة وجدوا لهم سببا كان يقضى عليه برفض الوزارة فيما زعموا ، وقالوا إنه تخلى عن اتمام الجامعة المصرية حبا للموظيفة ، وأن تخليه عنها كان وشيكا أن يميت الفكرة في مهدها ، وأوغلوا في الظن السيء حتى اشاعوا أن الانجليز وسعدا تواطئوا على اهمال «المشروع» وصرف الانظار عنه ، ولم يتخرجوا من دعوة الناس الى مقاطعة اللجنة القائمة به والكف عن التبرع للجامعة المنشودة ، واتخذوا من تبرع الحكومة لها بالمال حجة يستدلون بها على وجوب مقاطعتها ، ولم يشاءوا أن يعتبروا هذا التبرع أول خدمة نافعة خدم بها سعد مشروع الجامعة وهو وزير للمعارف ، ولعله لم يكن مستطيعا أن يخدمها هذه الخدمة أو غيرها لو لم يقبل الوزارة .

ولما كثر اللغظ في هذه الفرية المجحفة تعمدت أن أسأل سعداً عنها ليسمع الناس جوابه فيها . فقصدت اليه في شهر مايو من سنة ١٩٠٨ يوم كنت أكتب في صحيفة الدستور . وسألته عن شأن الجامعة وبعض الشؤون الأخرى فقال :

« إننا لم نبحث إذ ذاك في التفاصيل ولكن الذي كنا نرمي اليه من إنشاء الجامعة وأعلنناه للأمة أنها تعلم التلاميذ ما لا يتعلمونه في المدارس العالية ، وآداب اللغتين الانجليزية والفرنسية مما يدخل في هذا الباب . ولكن لجنة الجامعة لا تكفني بذلك إلا في أول الأمر ، وقد أشرت عليها

بإضافة آداب اللغة العربية إلى هاتين المادتين ؛ وهي تتناقش في ذلك الآن
» وقد علمت أن حضرات أعضاء اللجنة يبذلون كل الجهد في إبلاغ
هذه الجامعة أقصى ما تبلغ إليه . وكل من يعلم من هم أعضاء هذه اللجنة يشق
ثقة تامة بنجاح المشروع على أيديهم ، وأن من الغريب أن يكون في الناس
من يثبط همهم العاملين والمكتتبين لهذا العمل الجليل

» أن الهمم فاترة من طبيعتها فليست هي في حاجة إلى من يثبطها ولكن
هذه الأقوال ربما دفعت الخجول الذي تحمله الغيرة على الاقتداء بأمثاله
إلى قبض يده عن الاكتتاب ، فإن فيها مسوغاً يبرر عمله ويظهره في أعين
الناس بمظهر الوطني الغيور على مصلحة بلاده

» يقولون أن الجامعة وقعت في أيدي الموظفين فانتشلوها منهم ، ولكن
ألا يتدبرون في عاقبة ذلك ؟ من يقوم مقام رشدى باشا وزكى بك وعلوى
باشا والمسيو بيرو من غير الموظفين إذا عولنا على إنقاذ الجامعة من يد
هؤلاء وتسليمها إلى غيرهم ؟ لست أنكر أن الجامعة كما هي الآن ليست
كجامعات أوروبا ولكن الحالة الحاضرة تقضى علينا بالابتداء بالبداة لا بالغاية ،
فاذا كانت لنا اليوم جامعة صغيرة فغداً تكون كبيرة ، ولا يبعثنا كونها
كذلك على احتقارها ونفض أيدينا منها ، لأن في ذلك جناية كبرى ونحن
في حاجة إلى ما هو دون الجامعة بكثير

» أذكر أنه لما انشئت الجمعية الخيرية الإسلامية قام بعضهم واستضعف
شأنها لأنها نشأت صغيرة كما ستنشأ الجامعة ، فما هي الا سنوات قلائل حتى
اتسعت دائرتها وأخصب مواردها وكثر عدد مدارسها حتى بلغ ماتراء . ولو
أن القائمين بها جبنوا أمام الانتقادات لقبرت في المهد ولم تبلغ ما بلغته الآن
» وفضلاً عن ذلك ان المال الذي جمع الآن لا يفي بالحاجة ، لأن ستة
وعشرين ألف جنيه لا تكفى لإنشاء جامعة كبرى كجامعات أوروبا . هذا لو

دفع كل مكتب ما تبرع به ولم يقتصر الأمر على العشرة الآلاف التي دفعت حتى الآن . ولو قدرنا ما ينتجه هذا المبلغ بأجمعه في السنة لما زاد عن ألف جنيه مصرى وهو مالا يكفى للاتفاق على الجامعة في حالتها الحاضرة . كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون أنها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف مادفعه المتبرعون في أنحاء القطر المصرى بأجمعه ، وليس هذا كل ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس إلى الإقبال عليها إقبالا لا تظفر بمثله إذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل ، وربما لا ننسى أن بعض هؤلاء كان يطالب من الحكومة إعانة المشروع ماديا . فرفضهم الآن إشرافها عليه بعد أن أدت الحكومة ما طلبوه منها يعد من الغرابة بمكان ، ويدل على تناقض لا يمكن الجمع بين أطرافه

« وهب أن إشراف الحكومة على الجامعة مضر بها كما يقولون أفهذا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟ لا أظن ذلك . لأن أنقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها عما هي عليه الآن من امکانات وليس من المستحيلات ، وإنما يكون ممكنا بكثرة المال والمتبرعين ، فهى في هذه الحالة أحوج إلى المال منها وهى بعيدة من الحكومة ، ومهما يكن من محامرة اليأس للنفوس فلن يبلغ إلى درجة يحزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحكومة إلى الأبد . فن العيث على كل حال العمل على إسقاطها وحرمان البلاد منها

« أقول هذا وأنا على يقين أن الحكومة لا تقصد سوءا بهذه الجامعة ولم تفكر في إعاقة سيرها ، وان مراقبتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة قد لا تتيسر بغير ذلك . وأود لو نفيت كل ريبة بشأنها : فانها على أى صورة ظهرت معهد على يفيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجاجه »

هذا جواب سعد عن المسألة الوحيدة التي قال المعارضون إنها كانت

تقضى عليه برفض الوزارة . وأبلغ منه في الاقناع جواب الحوادث الواقعة كما ظهرت في ذلك العهد ثم ظهرت في السنوات التالية . فان الجامعة لم تمت بعمله وانما كانت تموت لو أحجمت الحكومة والشعب عن التبرع لها كما كانوا يريدون ، وأن الحكومة المصرية لم تحسر بولاية سعد منصب الوزارة فيها بل كانت وزارته أول خطوة عملية في طريق استقلالها وإثبات وجودها بعد انفراد المستشارين والمفتشين الانجليز بتصرف شؤونها وتوجيه سياستها . وفيما يلي بيان وجيز لما عمله سعد في هذا السبيل :

كانت الشريعة التي شرعها الاحتلال في سياسة الحكومة المصرية ، وجرى عليها بالعمل ، وأعلنها اللورد كرومر بالقول الصريح أن الانجليزى رئيس ولو كان مرؤسا ، وان المشورة منه أمر نافذ وان جاءت في قالب النصيحة .

وكان كل شيء في ذلك العهد يتفق — بل يتآمر — على اعتبار الحكومة المصرية « كما مهملا » وآلة مسخرة ، بلا استثناء الحكومة نفسها ولا الذين تقع عليهم قبل غيرهم مسبة الالهال والسخرة

وكانت وزارة المعارف خاصة عنوان « الحكم المهمل » والآلة المسخرة في وزارات الحكومة المصرية ، فلم تكن وزارة مستقلة بوزيرها بل كانت ذبلا ملحقاً بوزارة الأشغال العمومية يحضر اليها الوزير مرتين في الأسبوع ، يوم الاثنين ويوم الخميس ، لتوقيع الأوامر والمنشورات المجهزة التي يعرضها عليه المستشار في خلال ساعة أو أقل من ساعة فيمضيا بغير مراجعة ولا مناقشة ، فأصبح هذا المستشار سيد الديوان بغير منازع ، وكان رجلاً عنيداً ضيق الذهن شديد التعصب من أثر البيئة التي نشأ فيها ، لا يعرف من النظام إلا نظام الآلات ولا يرضى من المرموس إلا بالاسراع إلى الطاعة والتنفيذ ، ولا قيمة للتعليم عند — على فلة قيمته في ذلك العهد — إلى جانب النظام على الوجه الذى يفهمه ويرضاه ، والوجه الذى يفهمه ويرضاه ينحصر في سرعة

الحركة واتخاذ الطاعة العسكرية قدوة في التفكير والسلوك ، والاستعداد الدائم لظهور الموافقة والأذعان بلا كلام ولا تريث . وكلها أمور لا تعدو عنده الظواهر ، ولا عبرة فيها بالنتيجة بل العبرة كلها بالحركة المتعجلة والنشاط العقيم والنظافة السطحية !

زار مدرسة أسوان — وأنا بعد تلميذ بها — فما هو إلا أن نرى إلى المدرسة خبر قدومه حتى تأهب الناظر والمدرسون والفراشون غاية الأبهة ونشطوا لاستكمال كل نقص واستبعاد كل نقد ، وملاحظة كل ما يخافون أن يلاحظه المستشار المرهوب . فما تركوا زاوية في المدرسة ولا في الحديقة إلا تعقبوها يوماً بعد يوم بالتنظيف والتنظيم ، ثم وصل المستشار بعد طول الانتظار . فزار الفصول في خلال الدروس وسمع الأساتذة والتلاميذ ، وأبدى ملاحظاته وتعليماته فإذا لاحظ وماذا علم ؟ في الزيارة الأولى لاحظ موطيء القدم في مكتب أحد التلاميذ يعلوه غبار خفيف لمسحه المستشار بأصبعه فعلمت به مسحة منه . . . وفي الزيارة الثانية لاحظ أن الحيط الذي يمسك الخرائط الجغرافية لم يمنعها أن تنحرف بعض الانحراف وكان الوقت شتاء والهواء يتخلل الغرفة ، ولا بد أن يتخللها . وإلا حاق بالمدرسة سوء الجزاء !

جاس سعد في كرسي وزارة المعارف وهي في يدي هذا المستشار وفي أيدي أعوانه من الانجليز والفرنسيين ، ثم في أيدي صناع له من المصريين شبوا في كنفه وانطبعوا على غرارهِ ، وهابوه على القرب والبعث لأنهم علموا أنه يعزل من يشاء بكلمة ، ويرقى من يشاء بكلمة ، ويقضى في الديوان وفروعه بما يشاء ولا راد عندهم لقضائه

ومن لم يكن منهم صنيعة له فهو لا يرى أمامه سابقة واحدة توسوس له بان ينضوى إلى « الوزير » ولا ينضوى إلى المستشار ، بل يرى أمامه

سابقة لا تنسى ولا تحتاج إلى إعادة ، وهى أن أمير البلاد يومئذ خالف قائد الجيش ونقد النظام فى بعض الفرق فأوشك أن يفقد عرشه واضطر إلى أن يرجع فى كلامه ويسجل اعتذاره قبل أن يعود إلى عاصمة ملكه

ومن الموظفين المصريين من كان يسوءه أن يؤتى للوزارة التى نشأوا فيها وترقوا على درجاتها برجل غريب عنها . وانهم لأحق عند أنفسهم بالترقى إلى مكانه ، وأكفاً لأصلاحها من قاض لم يكابد صناعة التعليم فى حياته ؛

وعمل الموظفون الانجائز كل ما فى وسعهم لأقامة العراقيل حول الوزير الجديد وتأليب العناصر المتفرقة عليه ، ومن ورأهم دار الوكالة البريطانية تحميمهم وترحب ولا شك بفشل هذه « التجربة » وقيام الدليل من جديد على قصور الطبيعة المصرية وضرورة الوصاية البريطانية ، بعد ما كشف الساسة البريطان عن حسن نياتهم وسماحة نفوسهم واستعدادهم لأعانة المصريين على ولاية شئونهم II

وانكأ من هذا أن الوزراء الآخرين نعموا من سعد أن يكون معقد الرجاء ومثار الضجة وهم حاملون مزوبون فى مكاتب الدواوين ، وأحسوا أن هذا الطارئ الجديد يقتضيهم عنأ ويكلفهم ما لا يطيقون عمله ولا يطيقون تركه .

فعزى عليهم أن يستكينوا وبينهم زميل أصغر منهم يحفظ حقه ويبرم أمره ويسيطر على ديوانه

وعزى عليهم أن يتمردوا ولا قدرة لهم على التمرد ، وقد همأ ألفوا الاستكانة ووطنوا ضمائرهم على الاغضاء والمجازاة ، وليس من اليسير على وزير أن يستغنى عن مؤازرة زملائه ويشعر بخذلانهم لأعماله وآرائه فكان كل شىء فى يد المستشار العتيق ، ولم يكن شىء قط فى يد الوزير الجديد .

ومع هذا لم يمض اسبوعان حتى كانت كل ورقة من أوراق الوزارة الهامة

تعرض على الوزير ، وكل أمر من أمورها يظل معلقاً حتى يؤخذ فيه رأى الوزير . وكل موظف يعلم أن عهداً انتهى وعهداً بدأ ، وإن الوزير هو رئيس الديوان ، وأن المستشار مستشار يقول ما يعنّ له والرأى الأعلى فى قوله لرئيسه .

هذا يسير فى الكلام ولكنته فى العمل والانفاذ جد عسير

وما عمد سعد فى انفاذه إلا إلى وسيلة بسيطة قريبة . ولكنّها على بساطتها وقربها لا تفالج وحدها ولا غنى لها عن المهابة الشخصية والعارضة القوية لتفعل فعلها وتوحى إلى المعنيين بها أهم أمام حتم مطاع لا بد من نفاذه ، وأن من يعصيه يقع فى مخالفة صريحة لا يسوغها أحد ، ولا يحميه المستشار من مغبتها كائناً ما كان سلطانه وعناده ، ولا سيما وهو كما أسلفنا صاحب النظام وفارض الطاعة العمياء للأصول .

ذاك أن الناظر الجديد كان يستدعى اليه الموظف الصغير ، أو الكبير ، فيلقى اليه بالأمر فى سكينته الرئيس الذى لا ينتظر غير الطاعة ولا يشك فيها ... فإذا الموظف أطاع فذاك . وإن لم يطع فالعقاب أو الانذار بالعقاب فى حدود السلطان المخول للوزير بحكم القانون ، وكثيراً ما اعتمد فى العقوبة ما يهون ضرره ويشد ألمه وتشيع العبرة به فى وقته ، كالنقل أو تغيير العمل تغييراً يفيد معنى التأخير والغض من المكانة ، ولا يمتد أذاه إلى الرزق والمعيشة

ومن أمثلة ذلك أنه كان فى وزارة المعارف رجل فرنسى اسمه « برنار » منوط بتحضير الميزانية وتقييد « تعليمات » المستشار عن أبوابها وأقسامها فى خلال السنة ، وهو عمل جليل متغلغل فى جميع أعمال الوزارة ترتبط به الترقية والعلاوة والعقوبة والمثوبة ، ويجرى فى الخفاء والكتّان فلا يطلع عليه أحد غير المستشار ومن يرتضيه ، حتى يقر الرأى على طبع الميزانية وتوزيعها فيعلم بها الوزير بعد ذلك كما يعلم بها أصغر صغير !

فدعا سعد مسيو « برنار » — هذا وأمره أن يوافيه بجميع ما عنده من بيانات الميزانية وحساباتها ، وصرفه دون أن يزيد على ذلك كلمة

وخرج برنار وهو يعجب لهذا الأمر الذى لم يسمعه من أحد غير دنلوب ! ومضت أيام ولم يرجع للوزير بالبيانات والحسابات ، فأرسل إليه سعد ولم يمهله حتى يتكلم بل فاجأه بلهجة حازمة يقول له :

— اننى أمرتك يامسيو برنار أن توافيني بالبيانات والحسابات التى عندك من الميزانية ، فلماذا لم تصدع بالأمر ؟

فتلعثم الرجل ولم يدر بماذا يجيب انه فى محضر مهيب ، وبين يدي رئيس لا يستهان بكلامه ولا يجترأ على غضبه ، ومهما يكن من الأمر فليس فى وسعه أن يقول لمثل هذا الرئيس أن رغبته لا تطاع وأنه يطلب شيئاً لا يحق له طلبه ، فخار هنيئة ثم استمهل سعداً إلى أجل قريب . فلم يغير سعد لهجته فى خطابه وقال له بذلك الحزم الصارم :

— حسناً . انى أمهلك إلى ذلك الأجل ، ولكنى أعاقبك إن تأخرت عنه وخرج مسيو برنار مرة أخرى وهو لا يصدق أذنيه ، وذهب تواء إلى المستشار فقص عليه ما سمع فى الأولى والثانية ، وانتظر ما يقول المستشار فإذا به لا يمنعه أن يطيع ولا يطمعه فى حماية ، وإذا بالمسيو برنار يتسلل من الحجرة إلى مكتبه ثم يعود إلى سعد فى الأجل المضروب بجميع البيانات والحسابات ويقول فى ضراعة واعجاب .

« إليك يا مولاي ما طلبت ، وانى من الساعة رهين أمرك ، أعلم أن فى الديوان وزيراً مطاعاً بين مرءوسيه ، فان لم أكن علمت ذلك قبل اليوم فليس الذنب ذنبى ، وقد يكون لى بعض المَعذرة »

وعلى هذه الوتيرة سار سعد فى تقرير وجوده وتدعيم نفوذه واقتناع الموظفين بتغير العهد وتحول الأحوال ، سواء كانوا من الوجاهة المستسلمين

أو من المتصلفين المكابرين ، فهو لا يطلب من احدهم إلا ما يحق له طلبه
ويجب على الموظف تنفيذه . ومن ركب رأسه جهلاً أو عناداً أو استخفافاً
برئيسه إلا كبر فهو لا يغضى عن استخفافه ولا يعامله إلا بما فى يده من
حقوق الرأسة المسطورة فى قوانين الوظائف : تعززها الهبة الفطرية
والثقة بالنفس والمعرفة بأنجع الوسائل فى التنفيذ والتطويع ، ولا نجاء لمن
يأبى منهم أن يشعر بالتغير أو يروض نفسه على أدب العهد الجديد ، فإنه
ملاق جزاءه لا محالة ، ومكره على قبول الجزاء بقدر ما فى خلده من التحدى
والثقة بالحماية والنجاة من القصاص

حدث أن سيدة انجليزية كانت ناظرة لمدرسة البنات السنية ، خطر لها
أن تتحدى هذا الوزير المصرى الذى يأتى أن « يلزم حدوده » فأصرت على
فصل تلميذة لم تستحق الفصل ولم ير الوزير بعد البحث فى شكواها أنها
استوجبت هذه العقوبة . فلما أمر بإعادتها إلى المدرسة رفضتها الناظرة ثم
أعادتها مع حرمانها من دخول الفصول مع التلميذات ، وأمرت بحجزها فى
حجرة قريبة من باب المدرسة . تتناول فيها طعامها وتقرأ فيها دروسها
ولا تخرج منها إلا باذنها ، واتصل الخبر بالصحف المصرية فكتبت إحداها
مقالاً بعنوان (النفوذ الوهمى فى نظارة المعارف) شرحت فيه هذه المعاملة
ودعت الوزير إلى التحقق منها ليعلم — إن كان لا يعلم — أن أوامره لا تنفذ
فى مدارس القاهرة على مقربة من ديوان الوزارة !! فبكر سعد فى اليوم التالى
بالذهاب إلى المدرسة ، ورأى بنفسه صدق ما كتبت الصحيفة فى جميع
تفصيلاته . فأمر بوقف الناظرة وإحالتها إلى مجلس التأديب ، وأدخل التلميذة
فى الحال إلى الفصل مع سائر التلميذات

وعلم « الترف كلوب » نادى الموظفين الإنجليز بالقصة فتارت ثائرة
أعضائه ونسوا أن المسألة مسألة رئيس على الحق ومروسة مستخفة بحقه
علانية ولم يذكروا إلا أنها مسألة رجل صارم وسيدة من الجنس اللطيف . . .

وأخذت الصحف الانجليزية المحلية تحمل على الوزير ومن ورائها الجالية الانجليزية كلها تتوعد وتتألب وتسعى هنا وهناك لإلغاء الأمر باحالة الناظرة إلى مجلس التأديب ، وكان لابد لسعد من تنفيذ أمره أو الاستقالة ؛ فان لم يكن هذا ولا ذاك فالبقاء في المنصب كالرسم المعطل لا يملك رجوع تلميذة إلى مدرستها وهي لا تستحق الفصل ولا العقاب

والتفتت مصر كلها تنظر ماذا يكون من وراء هذا الصراع الغريب الذي لم يسبق له مثيل ، وخيل إلى « الترف كلوب » أنه روع هذا الوزير المجازف وجفله واضطره إلى الأحجام والتردد ، ولكنه لم يرع ولم يتجفل ومضى في قراره فأعلن موعد المحاكمة وانهقد المجلس واتفق على الأدانة . ولكن الضجة التي لم ترع سعداً راعت المجلس وضاعفت عناد الموظفين الانجليز — ومنهم كثرة الأعضاء — فصدر الحكم على الناظرة بجزاء طفيف لا يعدو لفت النظر والتحذير ، وهو جزاء على خفته كان فيه مخرج كاف من الورطة لوزير آخر ، أو كانت فيه ذريعة إلى طي هذه المسألة والاستراحة من ضوضائها ، ولكن الوزير المجازف كما كانوا يسمونه لم يشأ أن يختمها هذا الختام وأعقب ذلك الحكم الضعيف بنقل الناظرة من المدرسة السنية إلى مدرسة المعلمات الأولية في بولاق ، وهو أيضاً حق من حقوقه لاشك فيه . فكأنما صب النفط على شعلة الغضب الانجليزية في جميع الدواوين ، وسرى هذا الغضب إلى لندن فسأل أحد النواب في البرلمان « عن الاجرامات التي اتخذت ضد الوزير المصري الذي أهان الناظرة الانجليزية » . . . فلم يغن شيء من ذلك عن الناظرة المعاقبة ؛ لأن الوزير أصر على إبقائها في المدرسة التي نقلت اليها حتى اعتزلت خدمة الحكومة المصرية

وكان لدار الكتب الأميرية مدير ألماني له شأن خاص في العلاقات الدولية التي تدور حول مناصب الأجانب في الحكومة ، لأن الانجليز أحبوا أن يزدانوا إلى بعض الدول على أثر الاحتلال باحتكار بعض المناصب

المصرية لأبنائها . فتفاهموا على أن يحفظوا رأسه دار الكتب الألمان ،
وشامت سياسة الامبراطور غليوم أن يعظم من شأن هذا المنصب في عاصمة
الشرق العربي فاختر له عالما من صحبه المقربين الذين كان يعتمد عليهم في
ترويج الثقافة الألمانية بين العرب والمسلمين

ولم يكن عجيباً من رجل كهذا أن يعتز بشأنه ، ولا كان عسيراً عليه ان
يغلو في ذلك الاعتزاز الذي لا يكلفه مشقة ولا يعرضه لخسارة . فلما أراد
سعد أن يوجهه إلى نظام جديد في دار الكتب تهاون برأيه وأسرف في تهاونه
وتجاهل وجود هذا الوزير كما كان يتجاهل من قبله ، فلم يزد سعد على أن أمر
إدارة المستخدمين بارسال « إنذار » إليه كالنذر التي ترسل إلى صغار
الموظفين ، وهو يعلم أن الانذار سيقبضه ويقعده ويبلغ من نفسه ما يبلغه
العقاب الجسيم

وقد قام الرجل فعلا وقعد ، وقامت معه وقعدت دار الوكالة البريطانية ،
فخاطبت سعدا فيه ورجت منه أن يردف الإنذار بخطاب يمحو أثره
ويفسره على وجه يسوغ مذاقه ، فكان جواب سعد ان التفسير الوحيد الذي
عندى هو « أتى أنذرت هذا الموظف لأتى أنذرتة » وعليه هو أن يصدع
بالأمر أو يستقيل

وكان الدكتور كيتنج ناظر مدرسة الطب رجلا لا يقل في الصلف
والاندفاع عن مستر دنلوب المستشار . فدخل يوما على سعد دون أن
يستأذن ، فأبى سعد أن يصغى اليه فيما حضر من أجله قبل أن ينهم إلى خطئه
ووجوب الاعتذار منه ، فلم يجد الرجل مناصا من الاعتذار لأنه واجب
يفرضه عليه أدب اللياقة وأدب الوظيفة ، ولم يعد الى ذلك الخطأ مرة أخرى
ومن أعاجيب الدكتور كيتنج هذا ، بل من الدلائل على الغطرسة التي
كان يفرضها بعض الموظفين الانكليز يومئذ على الحكومة المصرية ، أنه كتب
تقريراً يسجل فيه على المصريين أنهم لا يصلحون لتدريس العلوم الطبية ..

لأن سعدا اقترح أن يوفد إلى أوروبا بعثة من الطلاب المصريين لدراسة هذه العلوم وتدريسها بعد عودتهم إلى مصر بدلا من الأساتذة الأجانب... وقد أراد من سعد أن يعدل عن اقتراحه عملا بذلك التقرير... فقال له سعد : ألم يخطر لك يادكتور كيتنج أن تبحث عن وزير « غير مصرى » يسجل على أبناء جلدته هذا العجز السرمدي ١٤ ، وبلغت المسألة إلى اللورد كرومر فلم يسعه إلا أن يوافق سعداً ويعترف بأنها غلطة !

وكما كان سعد يعتمد في تقرير وجوده على حقوق سلطته القانونية كذلك كان يعتمد فيما يطلبه أو يأمر به على نصوص الحجة ، والشجاعة في ابداء تلك الحجة لمن يخالفه كائناً ما كان شأنه . فمن ذاك أنه بحث في تحسين مرتبات الموظفين المصريين فلم تسعفه الميزانية في مبدأ الأمر ، فظل يتربص الفرصة حتى أذنت وزارة المالية لوزارة المعارف باعتماد مبلغ ألفاً وأربعمائة جنيه أو نحو ذلك ، فخصص منها أربعمائة للزيادة المطلوبة . وأبى دنلوب أن تجيء الزيادة لموظف في الوزارة من غير طريقه . فهرول إلى دار العميد يبالغ في وصف العواقب الوخيمة التي تنذر الوزارة من مغامرات سعد في شئونها المالية . وقال اللورد كرومر لسعد في أول لقاء بعد هذه الشكاية : « إنك ياسعد باشا تعرف القانون ولكنك لا تعرف الشؤون الاقتصادية ١١ . فأجابه سعد : إننى أعرف من هذه الشؤون ما يكفي للتصرف فيما نحن بصددده . أتنى أعرف اتنى إذا ملكت ثلاثة جنيهات وصرفت واحداً منها فأنا أول المقتصدين في العالم . وأعرف أن وزارة المالية لا يحق لها أن تدخل في حسابي إلا إذا طالبتها بمال من عندها . أما إذا هي قررت لي ألفاً وأربعمائة فصرفت منها أربعمائة فقط فلا حساب لها عندي »

قال لورد كرومر : أو هذه هي المسألة ؟ قال نعم . فقال اللورد : أنت على صواب ، وقد أخطأ دنلوب .

وبهذه الحجة الحاضرة وأمثالها كان ياقى مخالفيه فلا يجدون لهم مناصاً من موافقته أو من تسكينه أن يعمل الخطأ وهو عالم بخطئه ، وذلك ما لا

يستطيعه رجل مهذب يخاطب رجلاً مثل سعد في صراحته وشجاعته واقتداره على توضيح رأيه .

ومما يدل على مصدر نفوذه في وزارته وأنه كان يعتمد فيه على نفسه لا على صداقته للورد كرومر أو غيره أنه احتفظ بهذا النفوذ بعد أيام كرومر في عهد السيرالدون غورست الذي كان يجري على سياسة الوفاق مع الخديو عباس الثاني ، ولا يجهل أن سعداً لم يكن من أصحاب الخطوة عند سموه . ففي عهد غورست كان سعد يستقل برأيه حتى في تعيين الموظفين الذين توصى بهم دار العميدويوصى بهم غورست نفسه : كان في مصلحة المباني مفتش انجليزي لا يحسن الاشراف عليها ، وكانت المباني الحكومية تهدم أحياناً قبل استلامها . فاردوا إقصاء ذلك المفتش عنها والتخلص منه بنقله إلى وظيفة أخرى . فطلبوا من وزارة المعارف أن تعينه أستاذاً في مدرسة الهندسة فرفض سعد . وتحدث غورست إليه في هذه المسألة فقال له سعد : اننا نريد أناساً يعلمون الطلاب البناء ، ولا نريد أناساً يعلمونهم الهدم ! ومدرسة الهندسة مهجورة منسية . فليس من دواعي التشجيع على انتظام الطلاب فيها أن يعلمهم أستاذ كهذا الأستاذ «

قال غورست : ولكنه رجل طيب

فسأله سعد : لو كنت أنت في مركزى هل تعينه !

فلم يسع غورست إلا أن يقول « لا » ... ويعدل عن طلبه

وعلى هذا النحو استقامت لسعد السلطة التي تليق بوزير في ديوانه ، وشعر دنلوب أن العراق في هذا الميدان ليس بالسهل ولا بالمفيد . فأنحرف بالخلاف معه من الصراع إلى المراوغة ، ولجأ إلى خطة جديدة في تنفيذ ما يريده ويرفضه سعد أو يتوقع منه رفضه . وهي الانتظار إلى أن يسافر سعد بالاجازة الصيفية في أواخر السنة الدراسية ، وعندئذ يسرع إلى مطالبه المطوية

فيظهرها وإلى الوظائف التي يرشح لها أعوانه فيشغلها ، ويعود سعد وهو لا يملك تغييراً لما حدث ، إلا بعد جهد جهيد وانتظار قد يطول إلى زمن بعيد وقد تمت في زمن هذه الفترات مكيدة من المكائد التي كانت لها ضجة في ذلك الحين استغلها خصوم سعد في الحملة عليه وهم يعلمون أنه لم يحضرها ولم يكن يحجزها لو حدثت في حضوره . فقد سافر سعد للاصطياف في شهر مايو سنة ١٩٠٧ وناب عنه محمد عبّاش وزير الحرية ، فما هو إلا أن غادر الديوان حتى عمد دنلوب إلى ناظر مدرسة الحقوق الفرنسي الأستاذ لامبير — فتعنّت في مضايقته بالأعيب صليانية لا تخفى فيها نية الإحراج والسكاية . ثم ألغى أجازته بعد الترخيص له بها وأمره بالبقاء في المدرسة إلى أن تصدر له أوامر أخرى فعر على الرجل أن يخضع لهذا الإحراج فاستقال وغادر البلاد .

وكان دنلوب ينتظر هذه الاستقالة بفارغ الصبر فبادر إلى قبولها وتعيين مستر هل الإنجليزي في مكانه . ومن هنا ثارت الضجة التي أشرنا إليها واشتركت فيها الصحافة الفرنسية والمصرية بلسان واحد : لأن مستر هل لا يحمل من الشهادات غير شهادة الليسانس التي يحملها كل طالب يتخرج من المدرسة ، ولأنه أول ناظر إنجليزي لمدرسة تنتظم فيها الدراسة على أصول القوانين الفرنسية ، وتم ذلك كله في غياب سعد كما يتم السكين المختلس في جنح الظلام .

هذه الحادثة التي استغلها بعض الخصوم ليس فيها ما يعاب على سعد أو يغض من قدره ، بل هي تدل على أن الرجل قد أوفى على الغاية من القيام بواجبه والاحتفاظ بحقه ، ولم يدع للمستشار صاحب الحول والطول في الوزارات الأخرى إلا أن يتحين الفرص ويتربص أوقات غيابه ليعمل ما هو عاجز عنه في حضوره . وأي شهادة للوزير المصري أكبر من هذه الشهادة ؟ وأي دليل على قدرته الشخصية أكبر من بلوغه هذه القدرة وهو

يحارب المستشار الإنجليزي بغير سند من الحاشية الخديوية ؛ ولامن الصحافة التي تحمل عليه بالباطل ؟

إننا اذ نقول انه أدرك ما أدرك من تلك المكاثة في ديوانه بحسن التصرف وقوة الحجة لا نفسر السر كله بهذه الكلمة ؛ فهي لا تفسر إلا الظواهر العرضية ، وإنما تحيلنا الى قدرة كبرى لا يغنى حسن التصرف ولا قوة الحجة بغيرها . وهى القوة الكامنة التى يلوذ بها الرجل العظيم فى طوية نفسه . فالأسلوب الذى توسل به سعد إلى غرضه هو من أسهل الأساليب على المتصرف القادر عليه ؛ ولكنه من أصعبها وأعظمها على غير أهله ، فاذا أقدم عليه رجل مستباح الهيبة قليل الدراية فقد يتعثر به فى بداية الطريق أو يتراجع به دون الغاية .

ثم لا تكفى الهيبة والدراية وحدهما لضمان النجاح فى مثل ذلك التصرف ؛ إذ لابد معهما من شجاعة على احتمال التبعة ، وقلة المبالاة بما تجر اليه ، وفى مقدمته إعترال المنصب

ثم لا تكفى الشجاعة أيضاً حتى يكون الرجل الذى يشغل المنصب ذا قدرة يحسب حسابها وتخشى عواقبها إذا هو اتقى من الحكومة إلى الحياة العامة ، وينبغى أن يكون اعتزال المنصب خطراً يخشاه محرجوه أكثر مما يخشاه هو على نفسه ، وهذه هى القدرة التى إعتمهم بها سعد وتغلب بها على عقبات شتى ودسائس لا تحصى .



أقام سعد فى وزارة المعارف أربع سنوات عمل فيها كل ما فى الطاقة عمله مع هذه المعارك الدائمة التى كان لا يفرغ منها لتوطيد سلطته الوزارية ، بل لاختراع سلطة لا وجود لها من قبله . وكان عليه أن يدبر المال والمال فى وزارة أخرى بيد المستشار المالى الذى يقول وقوله الفصل فى جميع المصروفات ، وأن يدبر الانصاروهم قليلون فى ديوانه وفى الدواوين الأخرى وفى قصر الأمير

وفي دار العميد وفي الصحافة بل قليلون حتى بين الموظفين الذين كان يخدمهم ويسهر على مصالحهم ويناضل الأقوياء جميعاً لانصافهم وتحسين أحوالهم فمن عمله بين تلك المعارك والمحاولات انه وجه عنايته إلى تعليم الأخصائيين وتعليم الشعب في وقت واحد . فأعان الجامعة المصرية بما استطاع من مال وتضحية . ورأى أن انتظار ثمراتها يطول قبل أن تنفع البلاد منها بتخريج الأخصائيين المطلوبين في فروع الدراسة العالية ، فاستأنف إرسال البعثات إلى المعاهد الأوربية ، وأشرف بنفسه على إنتقاء الطلبة النجباء متحريراً في ذلك الأخلاق كما كان يتحرى الذكاء والكفاءة . . . ومن ملاحظاته في هذا الصدد أنه استعرض الطلبة المرشحين لأحدى البعثات يوماً فسأل أحدهم — وقد استكبر سنه — هل تزوجت ؟

قال الطالب : نعم

قال : وكيف تصنع بزواجك وأنت مقدم على سفر قد يعتاقلك في أوروبا بضع سنوات ؟

قال الطالب : إني طلقها ياسعادة الباشا !

فأمر بحذف اسمه وقال : مثل هذا لا يؤتمن على تعليم

أما تعليم الشعب لمحاربة الأمية — أو الوصمة الرائنة على سمعة مصر كما كان يسميها — فقد اتخذ عدة له بالا كشار من المكاتب في القرى الصغيرة ، وتولى بنفسه الطواف بالوجهين البحري والقبلي للحض على انشائها وتوسيعها وتشجيع الفقهاء والمعلمين على خدمتها ، وقد رفع الاعانة المخصصة لها إلى أكثر من ضعفها ، وزاد عدد المدارس التي يتخرج منها معلمو المكاتب لسد الحاجة إلى المعلمين المدرسين الذين يستلزمهم شيوع هذا النوع من التعليم ، ولم يسمع برجل له همّة ماضية في نشر هذه المكاتب إلا قربه وكافأه ولو كان في وزارة أخرى . فنقل القاضي عبد الرحيم أحمد بك من وزارة الحفانية إلى وزارة المعارف ، واتصل بالمديرين في الأقاليم يحضهم على تشجيع الفقهاء

والوجهاء على إنشاء المكاتب ويوصيهم أن يحتفلوا بتوزيع جوائزها احتفالاً
يغري الطامعين في جاه الحكومة والزلفى إليها . وعنى بإنشاء الأقسام الفيلية
للذين جاوزوا سن التعليم في المكاتب والمدارس : ليحارب الأمية بين
الكبار كما يحاربها بين الصغار بالمكاتب النهارية

وكان في بعض طوفاته بمكاتب الصعيد إذ التفت إلى تلميذ صغير حسن
الاجابة بين الذكاء ، فأمر لساعته بنقله إلى المدرسة الأميرية بغير
مصروفات ... وهنا قامت القيامة في ديوان الوزارة وغضب مستر دنلوب
غضبه العسكرية لمخالفة القوانين . ماذا ؟ أتلميذ بغير مصروفات وليس في
الميزانية باب للمجانبة ؟ إن النظام إذن في أشد الأخطار . وماذا يصنع مستر
دنلوب في الديوان إلا أن يحافظ على النظام ويضيع التعليم ؟ ... فلما عاد سعد
إلى القاهرة كان مستر دنلوب قد نفخ في المشكلة حتى أوشكت أن تنقلب إلى
أزمة وزارية ، وسمع لورد كرومر بالخلاف المستحكم فسأل سعداً فيه وقال
له : ألا تعترف أن تعليم هذا التلميذ بالمجان مخالف لنظام الوزارة ؟ فقال سعد
نعم هو مخالف ، ولكنه ليس بالمخالفة الوحيدة التي اقترفتها الوزارة فيما
سبق . وسرد له مسائل كثيرة كلها مخالف للقوانين وكلمها في غير مصلحة
التعليم . ثم قال : فلماذا لا نخالف القوانين مرة واحدة في مصلحة التعليم ؟

وأصر سعد على بقاء التلميذ في مكانه ، وسوغ بقاءه بما كان في أبواب
الميزانية من « الأوقاف » المحبوسة على تعليم الفقراء وقد أضيفت إلى وزارة
المعارف منذ عهد طويل ، ثم أصر على فتح باب المجانية ليكون تعليم الفقراء
بغير مصروفات مطابقاً للقوانين . وفتح باب المجانية فعلاً في المدارس الثانوية
فأصاب به غرضين : أحدهما تسهيل الدراسة على الفقير ، وثانيهما ترغيب
الطلاب في دخول مدرسة المعلمين ، لأنه اشترط على التلميذ الذي يتعلم
بالمجان في المدارس الثانوية أن يشتغل بالتدريس بضع سنوات

ومن المآثر التي تلحق بهذا الباب ولا يجوز « لأسوانى » أن ينساها
في ترجمة سعد أنه استكثر المصروفات المدرسية على أهل الصعيد الأعلى

فأمر بتنزيلها الى ثلاث جنبات في المدارس الابتدائية باسنا وادفو واسوان.

°°°

ومن أجل الأعمال التي قام بها سعد في وزارة المعارف وجازف من أجلها بمنصبه وبحسن العلاقة بينه وبين الأقوياء عملاق : أحدهما كان مغضباً للانجليز ، والآخر كان مغضباً للخديو وأتباعه من الشيوخ الأزهريين

نقل التعليم من اللغة الانجليزية إلى اللغة العربية فأغضب الانجليز أشد الغضب ، واحتاج إلى تدابير عقوبات أخرى غير عقوبات المقاومة السياسية ، وهي تحضير الكتب وتحضير المدرسين وتهيئة الجو للتدرج من نظام متغلغل متشعب مضت عليه خمس وعشرون سنة إلى نظام طارىء لا يزال في دور التميد ، محتاجاً إلى المعدات والمنقذين

وأنشأ مدرسة القضاء الشرعي وهي تغضب الخديو واناها يتبعونه من شيوخ الأزهر الذين كانوا يكرهون الإصلاح في معدهم ويحبون في الوقت نفسه أن يستأثروا وحدهم بمناصب القضاء الشرعي والمحاماة الشرعية وما إليها من المناصب . وكان إصلاح المحاكم الشرعية أمراً لا يدخل في برنامج وزارة المعارف العمومية ، فلا موجب لاهتمام سعد به ومغاضبة الخديو من أجله إلا اهتمامه بالإصلاح حيثما استطاع وجهد ما استطاع .

كان الخديو حريصاً على استبقاء الأزهر في قبضته لاطلاق يديه في اختيار القضاة الشرعيين والاشراف على المجالس الحسينية وما يعهد إليها من محاسبه الأوصياء على التركات والنظار على الأوقاف ، ولكنه كان يعارض في إصلاح الأزهر وتمكينه من اعداد القضاة والمعلمين والمحامين على الوجه المطلوب . وقد تعب الشيخ محمد عبده في علاج هذا الإصلاح العسير حتى نقض يديه آخر الأمر واضطر إلى اعتزال منصبه في مجلس الأزهر الأعلى . فلما تصدى سعد لهذه المعضلة العصية هاجمته الأغراض والسعايات والعراقيل من كل جانب ، فعزم عزيمته و « نكب عن ذكر العواقب جانباً » كعادته

حين يتصدى الأمر هو على يقين من صلاحه ومن وجه الحق فيه ، وجاء إلى مجلس الوزراء الذى سينظر فى المشروع وهو معول على أمر من أمرين : إما مدرسة القضاء ، وإما الاستقالة وهو غير آسف

قال سعد فى بعض أحاديثه لنا عما جرى فى تلك الجلسة بينه وبين الخديو : أن الأقاويل اختلفت فى المناقشة التى دارت بينى وبين الخديو فى ذلك اليوم . فقال أناس إننى ضربت على المنضدة بيدى وقلت فى وجه الخديو : دعنى أدافع عن مشروعى ! وإن الخديوى أجابنى حينذاك ساخراً : يظهر أن الباشا لم ينس بعد صناعته القديمة ... يعنى المحاماة ، وقال أناس غير ذلك مما يجرى مجراه ، والصحيح أننى لم أضرب على المنضدة بيدى ولم يعرض الخديو بسابق عملى فى المحاماة . وإنما شاهدت من سموه فى تلك الجلسة ميلاً ظاهراً إلى رفض المشروع بعد ما شجعتنى على المضى فيه ، ورأيت أنه يأنى على المناقشة . والشرح أمام زملائى الوزراء

قال رحمه الله بفكاهته المعهودة : وكنت قد انتقلت من القضاء إلى الوزارة « بعلى » . فدأبت على الشرح والاستدلال وقلت : اننى أفهم أن المناقشة حرة ، وأود أن أعرف المانع من تنفيذ المشروع . ولا أدرى أن هذا الكلام يغضب الخديو ويثقل وقعه على سمعه . فاحمر وجهه كلون طربوشه ، وسمع أصحابنا الوزراء منى هذه اللهجة فأيقنوا أننى لا أقدم عليها إلا وأنا مؤيد بقوة خفية ، ووهموا أن لورد كرومر يريد إنشاء المدرسة على الرغم من جميع العقبات ، فأجازوا المشروع بالاجماع وبقي الخديو وحده معارضا فيه ! والحقيقة أن لورد كرومر لم يفتحنى فى المسألة إلا بعد أن سمع بما دار بينى وبين الخديو من المستشار المالى ، وقد كان يحضر جلسات مجلس الوزراء .

وهكذا نشأت المدرسة التى قامت فى طريقها كل هذه العراقيل ، مدرسة لا ضرر فيها على أحد من الأزهريين الراغبين فى ولاية القضاء أو الاشتغال

بالمحاماة لأنها تختار منهم طلابها وخر يجيها ، وكل ما فيها أنها تعين على الاصلاح حين لم يكن في الأزهر سبيل إلى الاصلاح ، وأنها تجمع بين علوم الدين واللغة والعلوم العصرية ، ولا تخل بالمأثورات الصالحة ، فينتفع بها القضاء الشرعى وتنتفع بها الثقافة الشرقية

ولقد نظر سعد إلى موظفي الديوان كما نظر إلى المدارس والتعليم ، فأوسع للبصريين صدور الوظائف في التفتيش والادارة ، واختار منهم وكلاء للمدارس الثانوية تمهيداً لترقيتهم إلى وظائف النظارة وما فوقها . بعد أن كانت محرومة عليهم موقوفة على الإنجليز دون غيرهم الا فيما ندر ، وأعانهم على الظهور والعمل في مختلف النواحي كلها وجد موضعاً لأعانة

ونعتقد أن الفائدة التي أفادها التربية الوطنية بالقُدوة الشخصية كانت لا تقل عن فائده بأعماله وخططه ومشروعاته ، لأنه قد أشع حوله نوراً من الصراحة والاستقامة ، كان له أثر ناجع في جلاء النفوس التي ران عليها النفاق وسوء الطارية ، وفتح أبوابه للموظفين والطلاب يتقبلهم جميعاً ويستمع اليهم جميعاً ولا يتوانى عن إنصاف ذي حق ولو كان غريمه من أكبر الرؤساء ، وقد تلتطف السير الدون غورست مرة فأحب أن ينهيه من طرف خفي إلى وجوب المداراة في الانصاف لئلا يجترى الصغار على الكبار فقال له سعد : « انه مامن موظف يظلم آخر إلا وهو رئيسه وأكبر منه . ففتى نجهر بانصاف المظلوم إذن ؟ ولماذا نسمل الظلم على الظالم ليتماهى فيه ولا نسمل الانصاف على المظلوم ليجتري على طالبه وحفظ حقه ؟ »

جاءته يوماً شكوى صارخة من ظلم فادح أصاب موظفاً صغيراً في الوزارة ، فراعته ماقرأ فيها واستدعى صاحبها فقال له : « انك أزجعتني بشكواك . وقبل أن أشرع في تحقيقها أحب أن أفهمك انى سأنصفك من كائن من كان إذا تبين لي صدقك . ولكنى غير معفيك من الجزاء الصارم إذا تبين لي غير ذلك . فهل أنت على استعداد ؟ قال الرجل نعم . أنا راض

بحكم وزير اليوم قاضى الأمر «... فلما أسفر التحقيق عن صدق الرجل انصفه لساعته ، وقال له وهو يبلغه أمره بقبول شكواه وإنصافه : « احمدا الله ! إني ما كنت لأدعك تزعجنى ذلك الأزعاج بمثل تلك الشكوى الصارخة ثم تنجو من العقوبة لو كنت على باطل »

وكان يحب النظام والمحافضة عليه ولكنه يحب أن يحسب حساباً للعواطف الانسانية النبيلة ولا يفرضه نظاماً آلياً على آلات لا تفكر ولا تشعر . فلما خرج الطلاب من المدارس العليا والثانوية فى صبيحة اليوم الذى شيعت فيه جنازة مصطفى باشا كامل ومشوا فيها باعلام مدارسهم فى طليعة المشيعين غضب دتلوب غضباً شديداً واقترح إلغاء الامتحانات تلك السنة . وفصل بعض الطلاب الكبار مع حرمانهم من جميع الامتحانات المقبلة . فوقف له سعد وقفة لا يتزحزح عنها ، وقال : « إنها غاشية حزن أملت بالامة بأسرها ، فلا يعقل أن ينأى عنها شبان مصريون لمجرد كونهم طلاباً فى مدارس أميرية »

وإذا ذكرنا أن سعداً كان أول وزير مصرى تحدث إلى الصحف ، وأول وزير مصرى خرج من ديوانه للطواف فى الأقاليم ، وأول وزير أ بطل التحية العسكرية التى كان يقابل بها الوزراء على أبواب الدواوين . وأول وزير مصرى قرب إقفال المدارس للاحتفال برأس السنة الهجرية ، علمنا أنه قد أفاد التربية الوطنية حقاً بالقدوة الشخصية كما أفادها بالخطط والأعمال . فان لكل عمل خطير بداية صغيرة ، وان لبعض المراسم أثراً فى تبديل العادات الشعبية والايحاء إلى الضمائر لا يقل عن أثر الدساتير المكتوبة والحقوق المكتوبة ، ولا شك أن اتصال سعد بالرأى العام كان أول اعتراف بسلطة الأمة وحق الرأى العام فى الرقابة على الحكومة ، وأن خطوته الأولى التى خطاها فى اثبات وجود الوزير واخلاء الوظائف الكبيرة لأبناء البلاد كانت بداية استقلال الموظف المصرى فى جميع الوزارات

وزير الحقانية

في أواخر سنة ١٩٠٨ استقالت الوزارة الفهمية خلفتها الوزارة البطرسية ... وفي أوائل سنة ١٩١٠ قتل بطرس غالى باشا فاتفق الخديو والسيرالدون غورست على دعوة محمد سعيد باشا وزير الداخلية لرئاسة الوزارة الجديدة ، ولم يدع لها سعد مع أنه أقدم عهداً بالمنصب الوزارى من محمد سعيد ، لأنه لم يكن من أصحاب الخطوة عند الأدير ولا عند العميد ، وإنما كانا يَحْتَمِلان بقاءه فى الحكم احتمالاً ، لأنه أهون الأضرار

وكانت وزارة الحقانية من نصيب سعد فى الوزارة الجديدة ، وكان اختياره لها فى ظاهر الأمر من قبيل الترقية والترضية ، لأنها إحدى الوزارات الثلاث التى جرى العرف على اعتبارها وزارات الدرجة الأولى : وهى وزارة الداخلية ووزارة المالية ووزارة الحقانية ، ولما كانت وزارة الداخلية ورئاسة الوزارة عملاً واحداً كما جرى العرف الغالب فى مصر ولا يزال جارياً إلى الآن — فالوزارة التالية لها التى تصلح لرجل نشأ فى المحاماة والقضاء هى وزارة الحقانية

هذا فى الظاهر . أما فى حقيقة الأمر فقد كان الغرض من اسناد الحقانية إلى سعد تقييده واثقاء صدماته ، لأن الحقانية هى وزارة التشريع والقضاء ، والتشريع كما لا يخفى من عمل مجلس الوزراء كله لا من عمل وزير الحقانية وحده ، والقضاء عمل تتولاه المحاكم ولا دخل فيه للوزير إلا الرقابة من بعيد . فوجود سعد فى هذا المنصب هو أسلم الحلول فى تلك الحالة : أسلم من رأسته للوزارة ، وأسلم من خروجه ، وأسلم من بقاءه فى وزارة المعارف العمومية

وفى وسعنا بعد ما قدمناه من تاريخ سعد أن نعرف ماذا هو صانع فى

وزارته الجديدة ، بل في وسعنا أن نعرف ماذا هو صانع في كل مجال إذا نحن عرفنا ذلك المجال وعرفنا أعماله وحدوده ، فليست هذه الشخصية من الشخصيات الغامضة التي يكثر فيها التخمين والاستكشاف ، أو تكثر فيها الاغوار والسراديب ، ولكنها شخصية يصح أن توصف « بالحسائية » لأنها لا تدور الا على أمور معلومة المقادير مرسومة الغايات ... فأينما كانت فهناك كرامة وإصلاح وإنصاف مظلومين ، ولا يبقى عليك الا أن تعرف الأعمال التي تناولها هذه المقاصد الثلاثة لتعرف ما يعمل فيها

كرامة له وكرامة لغيره ، وذلك أول شرط من شروط الكرامة النبيلة أو الكرامة التي تقوم في أساسها على قوة صحيحة . فان النفس الكريمة حقاً ليؤذيها أن ترى الذل والصغار في غيرها لأنهما وضر تنفر منه الطبيعة القوية . أما أوائك المتكارمون الذين يقيسون عزتهم بالقدرة على إذلال غيرهم فأولئك لا يعافون منظر الذل ومن ثم لا يشعرون بحقيقة العزة ، وإنما يعيشون في عالم من ظواهر مصطنعة زائفة تروج في أرخص الأسواق

علمنا بما تقدم أن تسعداً كان يأبى على وزارة الحقانية وهو قاض أن تحاسب القضاة على أخطائهم بالمنشورات العلنية، وأنها عدلت بعض العدول عن هذه العادة إلى كتمان أسماء القضاة في المنشورات العلنية والأكتفاء بتوجيه النقد إلى القاضى المقصود في رسالة خاصة ، فلما تولى وزارة الحقانية كان العمل فيها جارياً على تنبيه القضاة إلى أخطائهم بكتاب يطلع عليه من يرسلونه من الوزارة ومن يتلقونه من الموظفين في المحاكم . وكان شفيح الوزارة في هذا المسلك أن أخطاء القضاة إنما تظهر على يدى لجنة المراقبة بعد اطلاعها على تقرير المفتش الذى تناط به مراجعة الأحكام والتعقيب عليها ، ولجنة المراقبة مؤلفة من المستشارين الملكيين ووكيل الوزارة والنائب العام ومفتشى الديوان القضائيين ، وكلهم من جهابذة القانون وأصحاب الرأسة على مئات الموظفين . فاذا صدر منهم تنبيه إلى

بعض القضاة فذلك أمر لا غرابة فيه ولا مخالفة لنظام الأعمال في الدواوين فلما عرض على سعد أول تنبيه من هذا القبيل أنكره وشعر بما فيه من الغضاضة على القاضى الذى سيرسل اليه ، وقال فيما رواه امين سره الأستاذ فؤاد كمال بك : « أنه يرى كفتى الميزان فى هذا التصرف غير متعادلتين ، فهو من الجهة الواحدة يرى أن الطرف الملموم هو قاض مثقل بأعباء العمل مكدود الذهن مشغول الوقت ، يمضى حكمه فى قضية من بين مئات القضايا التى يحكم فيها . ويرى من الجهة الأخرى الطرف اللائم هو أولاً مفتش الحقائق وثانياً أعضاء لجنة المراقبة ، وكلهم من أساطين القانون وجهابذة الفقه يتناولون هذا الحكم الذى أصدره القاضى فى زحمة العمل فيجعلونه محل البحث الدقيق فى فسحة من الوقت وصفاء البال وتمكن من الرجوع الى مختلف المراجع والمطولات . فاذا فرض جدلاً أن القاضى كان حقيقة قد أساء التصرف أو أخطأ وجه الصواب ، فإن لمن الظروف المحيطة به شفيهاً للمعذرة ، وإن لم يكن بد من لومه فلا يجوز بحال ما أن يوجه اليه اللوم فى خطاب رسمى يمر على مرؤسيه ويشهر أمره فى المحكمة ، فيأحق بهيبة القاضى من الأذى مالا تحمد عقباه . هذا على فرض أن القاضى كان فى الواقع مخطئاً ولكن قد يتفق -- وهو أمر سهل الاحتمال -- أن تكون المسألة مجرد خلاف فى وجهة النظر بين القاضى واللجنة ، كما قد يتفق أن يكون القاضى متأثراً فى حكمه باعتبارات داخلية لم يرأ ولم يستطع تفصيلها فى حكمه ، ولكنه إذا أبانها جعلت الحق فى جانبه . فكيف يصح اذن لومه قبل أن يسمع دفاعه ؟ »

قال الأستاذ كمال : « لهذه الاعتبارات كلها رفض سعد باشا أن يتبع ما كان يتبعه أسلافه وقال : أما أن أمضى خطاباً كهذا فلا ، ولكنى أدرس المسألة فاذا اقتنعت برأى اللجنة فأنى مع ذلك لا أسارع الى لوم القاضى ولا أعرضه للأهانة على مشهدين مرؤسيه ، ولكنى بصفى شيخ القضاة أستدعيه الى مكتبى وأسمع دفاعه ، فاذا أقتنى بصحة رأيه أعطيته الحق ، وإلا وجهت

إليه من اللوم الشفاهي ما يكون أبلغ وقعا ألف مرة من كل لوم كتابي مع
اتقاء محذوره ، وجرى الباشا فعلا على هذه الطريقة . وقد اتفق ان ظهر له
الحق في جانب القاضى فانصفه هـ (١)

ومن هذا المثل تبدو تلك الكرامة الحقيقية التى قلنا أنها لا توجد إلا فى
خلائق الرجل الكريم الحق ، فإنه يعار عليها فى غيره كما يغار عليها فى نفسه ،
ويسوءه أن يتعرض الآخرون لغضاضة مهينة كما يسوءه أن يتعرض هو لتلك
الغضاضة ، ويعاف الذل حيث كان ولو لم يمسه فى كبريائه ، وذلك هو
الفرق بين الكرامة المحمودة والخطاسة الذميمة ، فإن الخطاسة الذميمة هى
التى تستريح الى اذلال الآخرين ولا تغار على كرامة إنسان ، وهى التى
لا تميز بين الكبرياء بحق والكبرياء باطل ، ولا تلوم الناس لأنهم اعتدوا
عليها مبطلين بل تلومهم لأنهم عرفوا لأنفسهم كرامة ولو كانت صادقة وعلى
صواب ، ولهذا يستخذى المتعطرس حين تصدمه القوة فى سواه ، ولا يزداد
الكريم إلا انتصاراً لكرامته حين يمسه من يتناول عليه ، لأنه يقرن أنايته
بالحق ولا ينقاد للأنانية العمياء

واهتم سعد بكرامة المحامين كما اهتم بكرامة القضاة ، فأسس لهم نقابة
تحميهم وتصور حقوقهم ، وتجمعهم إلى هيئة واحدة ينشط بها الدفاع عن
سمعتهم وشرف صناعتهم ، ويشترك أناس منها فى محاكمتهم ومحاسبتهم ، بعد
أن كان أمرهم موكولا فى جميع ذلك إلى غيرهم ، وكانوا لا يملكون لأنفسهم
نصفة من قاض أو رئيس يعتدى عليهم ، وفارق الوزارة وهذه النقابة على
وشك التمام

إلا أن غيرته على القضاء أو المحاماة فضيلة لا تحتاج منه إلى غير خلافته
الشريفة وفطرته المستقيمة ، ولا تكلفه خصومة لأحد من الأقوياء
غير الجهد الذى لا بد منه لا قناع معارضيه فى رأيه . فلو اكتفى بها لكان فضله

فيها فضل النية الصالحة والخلق الشريف والجهد المأمون العواقب ؛ وهو على ذلك فضل ليس بقليل

لكنه لم يكتف بانصاف القضاة وانصاف المحاماة ؛ بل شغل نفسه بانصاف آخر يدخل في أعمال وزارة الحقانية ولا يقدم عليه كل وزير ، لأنه انصاف يصدم الأقوياء من أصحاب الجاه والثراء ؛ وهو انصاف القصر والمحجور عليهم من طغيان القيمين والأوصياء .

أخذ نفسه بانصاف كل مظلوم مهضوم الحق من هؤلاء القصر والمحجور عليهم الذين تعرض حساباتهم على المجالس الحسبية ؛ فلم يتراجع ولم يقف عند حد الحذر والمجاملة حينما عرضته قضية من قضاياها لمصادمة رهوبة جمعت عليه كل قوة في البلاد المصرية ؛ لأنها مصادمة المال ومصادمة اللورد كتشنر ومصادمة الأمير عباس الثاني ، وهما قابضان على زمام كل قوة فعلية أو شرعية في الحكومة .

وموجز القضية أن أميرة مصرية تزوجت من روسي مسيحي فصدر الأمر الخديوي بمحو اسمها من الأسرة وإحالة ملكها إلى قيم يديره ويقدم حسابها إلى وزارة الحقانية . وكان هذا القيم من رجال الخديو بطبيعة الحال وصديقاً للورد كتشنر يصاحبه في رحلاته وزياراته ويعينه على بعض شأنه . ويقال ان كتشنر كان يحسبه من عيونه على الخديوي وان الخديو كان يحسبه من عيونه على كتشنر ، فهذا وذاك يحظى بالرضى من الجانبين

فلما راجع سعد حسابها لاحظ عليه خللاً مستفيضاً وأشار بعزله من القوام . فلبجأ الرجل إلى كتشنر يشكو إليه ، وعز على كتشنر أن تجترى الوزارة على صديق من خاصة عثمائه ؛ وأن يقال انه عجز عن حماية الرجل الذي يرى أبداً معه في غدواته وروحاته . فطلب إلى سعد أن يبرز الوثائق من أوراق « الدائرة » مع بقاء القيم مسيطراً عليها يحميه كتشنر من جانب

ولا يخذله الخديو من الجانب الآخر . وإنما كان كتشتر في الحقيقة يتمحل
الأسباب للخلاص من سعد باشا وبحسب أنه قادر على المجازفة بأقصائه عن
الحكومة ، لأنه رجل عسكري تعود الطاعة والزلفى ولم يتعود من الوزراء
المصريين ولا من المرؤسين الانجليز أن يقابلوه بارادة كارادته وكرامة
لا تنحى أمام هيئته . فاتخذ من مسألة القيم المطعون فيه سببا لاجراج سعد
واعنائه ، وكتب إلى حكومته بلندن يطالعهما على مانواه وينتظر اقرارها
لرأيه . وفيما هو ينتظر الرد وقعت بينه وبين سعد فى دار الوكالة مشادة
عنيفة فخرج سعد مغضبا وكتب استقالته لأنه لم يستطع التوفيق بين ضميره
والسلطة الفعلية ، وكان من اليسير عليه أن يتحاشى هذه المصادمة لو كان
فى استطاعته الأعضاء عن باطل ، وهو مفتوح العينين

قالت دائرة المعارف البريطانية وهى تشير إلى هذه القضية : « لم تكن
أدلة زغلول كافية ولسكنها ، كما وقر فى الاذهان ... صحيحة فى أساسها »
ومن الواضح أن هذه القضية الكبيرة ليست على كل حال بالقضية الفريدة
التي نصر فيها قاصراً مظلوماً على وصى مقصر أو مجحف ، ولسكنها هى القضية
الفريدة التي انتهت بتلك النهاية . وهى بعد واحد من قضايا كثيرة صمد فيها
للظالمين كأنهم يظلمونه فى ماله ، وغار فيها على الضعفاء كأنه يغار على نفسه
وأهله . وانك لتعجب ما هذا الشغل الشاغل بحماية الضعيف ولو ساقته
حمايته إلى أخطر المتاعب والخصومات . أهى وراثة ؟ أهى قوة ؟ أهى رحمة ؟
هى ولا شك وراثته . لأننا لم نعرف من أسلاف سعد الا من كان
يغامر بحياته وماله لرعاية ضعيف أو فقير مغلوب

وهى ولا شك قوة . لأن الرجل الذى ينهض لكفاح الغاصبين لا يفعل
ذلك الا وفى أطواءة شعور بالقوة وانف من تسليم الخائف الجبان

وهى ولا شك رحمة . لأن الرجل قد يكون قويا ثم يجرب قوته فى

شىء غير نصره الضعفاء ورد الحقوق ، وربما جربها فى ظلم أولئك الضعفاء
واغتصاب تلك الحقوق

إن المناصب لتجور على المناقب الانسانية فى كثير من الوزراء ، وأن
أيامها لتحسب أحيانا من أفقر الأيام فى تواريخ العظماء ، فمن فضيلة سعد فى
المناصب أنه خرج بها عن تلك السنة فجعلها من أعمار أيامه وأجمل صفحاته ،
ولا نحسب أنه كان يقضى تلك الفترة من تاريخه فى خير مما قضاه فى سنواته
الست بين الوزارتين .

ملاحظات على سعد

في وزارتي المعارف والحقانية

لكل عامل في الحياة السياسية صفحة من الحسنات وصفحة من السيئات وليس الوزير الصالح هو الذي تخلو حياته السياسية من السيئات فهذا غير موجود ولن يوجد ، ولكنه هو الوزير الذي تربى حسناته على سيئاته وترجح فضائله على عيوبه . فاذا ثبت مع هذا أنه مختار في صوابه مضطر في خطئه ، وإن له عذراً سائفاً فيما أخطأ وما أساء فليس هو من الوزراء الصالحين وحسب ، بل هو من أصلح الوزراء الذين يرجون في عالم السياسة وقد كانت أخطاء سعد المحسوبة عليه من هذا القليل ، ولا سيما الخطأ الذي نسبوه إليه في صدور قانون المطبوعات .

لم يبرأ سعد من أخطائه هذه ولا حاول أن يسترها ، بل اعترف بها اعتراف الرجولة الجريئة والصراحة الواثقة غير مضطر ولا مسوق إلى الاعتراف . فقال في إحدى خطبه بالجمعية التشريعية : « اعترف أني — وأنا وزير — قد عملت بحسن نية واخلاص عملاً لو عرض على اليوم لكنت أول المعارضين فيه . فقد عرض على قانون المطبوعات فعارضت فيه أولاً ثم لم ألبث أن وافقت عليه واشتركت في تطبيقه لظروف بررتها في ذلك الوقت أمام نفسي ، وها أنا اليوم نادى على ما فعلت بالأمس »

وقال أيضاً : « كنت قاضياً وكنت وزيراً ، وها أنا اليوم عضو بينكم في الجمعية التشريعية وأحس في نفسي بأن شعوري كان يختلف باختلاف تلك المراكز جميعها ، وإني ربما كنت أرى الرأي في حالة ثم أرى غيره في حالة أخرى . ومع ذلك كنت حسن النية في جميع الحالات ، فلاتهولنكم أشخاص

الوزراء ولا الفضل الذي تعرفونه فيهم ، فقد تتغلب عليهم مراكرهم فيعملون بحسن نية ما يظنون أن فيه فائدة للأمة وليس هو كذلك »

وعلىنا نحن الذين نترجم لسعد أن نعرف له حقه أو نعرف ما له وما عليه من أخطائه ، ففي مسألة قانون المطبوعات يحسن بنا أن نذكر « أولا » أنه كان وزير المعارف ولم يكن وزيرا للحقانية عند صدور القانون ، فلم تكن له يد في تحضيره وابتعائه ، وإنما كان الأمر محصورا في بادئ الأمر بين الحكومة الانجليزية والخديو ورئيس الوزارة ، ثم اتصل بحسين رشدي باشا وزير الحقانية ومحمد سعيد باشا وزير الداخلية ومنهما اتصل بسعد باشا لأول مرة

ويحسن بنا أن نذكر « ثانيا » أن سعد باشا رفض الموافقة على القانون عند ما علم بنية إصداره . وقال ان الانجليز يعلنون أنهم تركوا للأمير البلاد الأمر في سياسة حكومته بعد عزل كرومر ، فإذا افتتحنا هذا العهد بتقييد الحرية قالوا إننا لا نطبق الحكومة الحرة ولا نصالح لها . . . ولا مسوغ - بعد - لهذا الاهتمام بالمشاغبين فهم فئة قليلة ليس يسمع لها صوت »

وأن نذكر « ثالثا » أن سعدا لم يعدل عن الرفض الا بشرط واحد لم يتحول عنه : وهو تعديل القانون وتلطيف بعض قيوده وأحكامه ، وقد تم هذا التعديل بعد معارضة من الأمير ومن الانجليز .

وأن نذكر « رابعا » أن الصحف كانت تكتب بعد صدور القانون بحرية أوسع جدا من الحرية التي كانت تتمناها في بعض العهود الدستورية الحديثة ، وهي العهود التي تولاهما خصوم سعد أو قابلوها بالتأييد والتأمين

وأن نذكر « خامسا » أن سعدا في تبريره لعمله لم يكن يعول على الأسباب التي يقبلها الوزير في المنصب ولا يقبلها الرجل المستقل البعيد من غوايات المناصب ومحظوراتها . . . فنحن من ألد أعداء الرقابة الادارية على الصحف ولا نعرف لأحد حقا في مراقبتها غير القضاء النزيه . ولكننا نعلم أن أناسا

كثيرين تتبعوا الأسباب التي أوجبت صدور قانون المطبوعات في تلك الفترة فعلوها أن تبريرها أمام الضمير أمر غير عسير على طلاب الحرية خارج المناصب . فضلاً عن الوزير الذي يريد لنفسه الحرية في عمل الخير كما يريد الكاتب حرية الانتقاد

سألت سعداً في مسألة قانون المطبوعات لأستوضح ما قاله بالجمعية التشريعية لا لأتني أرى لهذه المسألة خطراً يطول التفكير فيه . فقال لي : « اتنى من وجهة المبدأ أرى أن تقييد الكتابة غير جائز . أما الكتابة التي كانت حاصلة فعلاً في تلك الأيام فغير الجائز في نظري وفي نظر غيرى هو تركها تتدهور في الهاوية التي كانت تندفع إليها »

وكل من رجع إلى الكتابة التي كانت « حاصلة » في تلك الأيام جزم بأن سعداً كان على حق في حكمه عليها من وجهة نظره ومن وجهة أنظار كثيرة ولا نبعد بعيداً في نقل الأمثلة العديدة ، بل نقصر القول على موقف تلك الصحافة من الأمثلة التي نحن بصددتها في تاريخ سعد نفسه ، لأن الحكم عليها أيسر من شرح المسائل البعيدة التي لا يستحضرها القارىء ولا تدخل فيما رويناه لما انشئت مدرسة القضاء الشرعى كان الشيخ عبد العزيز جاويز مفتشاً بوزارة المعارف العمومية وكان يطمع في نظارتها . فاخلف سعد رجاءه وأسندها إلى زميل له في التفتيش هو عاطف بركات بك . فحنق الشيخ جاويز وأسرهما في نفسه ، إلى أن فوتخ في تحرير صحيفة اللواء بعد موت مصطفى كامل فخرج وهو لا يفكر في شيء غير التشهير بسعد والحيلة عليه

ولم ينتظر طويلاً حتى بدأ هذه الحملة المريبة التي لا تستند إلى شيء من الحقيقة ولا شيء من المروءة . ففي الوقت الذي كان سعد فيه يناضل دنلوب وأعوانه ونفوذ الاحتلال من وراءه لتحطيم القيود التي يقيد بها أيدي الوزراء المصريين كان الشيخ جاويز ينسى أدب الصحفي الشريف وما يقتضيه من تأييد هذه التجربة التي يتوقف عليها مصير الاستقلال ، ولا يبالي أن يفترى

الأ كاذيب وهو عالم بافتراءها ، ويزعم أن وزير المعارف آله في يد الانجليز
يسخرونه التسخير الأعمى بلا معارضة منه ولا سؤال ! وبلغ من سخفه في
تلفيق المزاعم أنه زعم أن دنلوب كان يكتب الخطب لسعد باللغة الانجليزية
وأنه هو — الشيخ جاويش ! — كان يندب مع غيره لترجمتها إلى العربية ..
ثم يلقبها سعد باسمه وهو صاغر مغمض العينين ... كان هذه الترجمة لا تعييه
كإعياب الالقاء ! وكأنما خطيب الشرق الذي لم يشهد خصومه بمقدرة فائقة كما
شهدوا له بمقدرة الفصاحة ومضاء الحجّة وقوة العارضة كان في حاجة إلى
خطبة يكتبها له مستشار لم يكن يحسن الكلام

ولما كان عاطف بركات ابناً لأخت سعد زغلول حاول الشيخ جاويش
أن يصرف هذا الاختيار إلى غرض واحد وهو إثارة القراية على الكفاءة .
وهو يعلم أن كفاءة عاطف قد نوهت به كثيراً قبل وزارة خاله ، ولو كان
سعد من أصحاب ذلك العدل الرخيص المزيف لظلم عاطفاً مخافة على سمعته
من أن يقال إنه ظالم ... ولكن عدل الرجل كان أصح وأكبر من أن يتقى
التهمة الكاذبة بالجنابة على كفاءة عاملة . فاختر عاطفاً وأنصف باختياره
إنصافاً مضاعفاً . لأن مدرسة القضاء الشرعي قد صارت على يديه في طليعة
المدارس العليا وإدارة وتعليماً وعناية بالثقافة والأخلاق ، وكانت قدرة عاطف
على إحياء المسكات وغرس الاستقلال في الضمائر قدرة مشهودة لا يجادل
فيها معاند . ولو أن سعداً أسند نظارة المدرسة إلى الشيخ جاويش لفشلت
كما فشلت جميع أعماله في التعليم والسياسة ، ولاستحق سعد الثناء من لسانه
وقلعه ، ولكنه كان يستحق الملام من جميع المنصفين

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن طريق سعد وجاويش في الوطنية طريقان
لا تلتقيان ولا تتجاوران . فسعد يعمل لاستقلال مصر بأيدي المصريين
تكون مصر للمصريين ، أما جاويش فتونسي مشمول بالحماية الفرنسية لم

يزل يستمسك بها إلى يوم محاكمته في قضية «الكاملين» .. وهو من دعاة
الخلافة العثمانية لا يريد لمصر إلا منزلة الولاية التابعة من السيد المتبوع ،
وقد كان من آماله في الحرب العظمى أن يتقلد فيها مشيخة الاسلام
بعد فتحها على أيدي الجنود التركية . فشقى بدعوته هذه ذلك الرجل
النيل الكريم محمد فريد رئيس الحزب الوطنى . فانه كان معه في الاستانة
وكان يدعو إلى استقلال مصر ويتخذ له شعاراً « مصر للمصريين » . . .
فكان لا يلقى من جاويز إلا المكيدة والسعاية والتآمر عليه مع ضباط
« تركيا الفتاة » الذين يستكثرون على مصر أن يعترفوا لها بالاستقلال ،
وينوون إدخالها في حوزة الدولة العثمانية ، بولاية الصدر الأعظم سعيد حلم
ولعلنا نتمم سيرته المجلدة بما انتهت اليه في أعقاب الحرب العظمى ، فقد
وصل إلى مصر خلسة بوسيلة مريبة . وكان وصوله إليها في إبان الحركة
الانتخابية للحملة على سعد وأصحابه من جديد ، ثم اتجهت اليه شبهة في حادث
الاعتداء على سعد لم تقم عليها الأدلة القاطعة فأخلى سبيله ، ثم شملته الرعاية
فانتظم في خدمة الحكومة ، وقضى بقية أيامه موظفاً بوزارة المعارف كسائر
الموظفين ، لا يمتاز بقدرة ولا بفضيلة استقلال . . . والمستور بعد ذلك من
أحواله أكثر من المشهور

خرج هذا الرجل من وظيفته بوزارة المعارف لينتقم لمطامعه ويقود
حملة الصحافة على وتيرة واحدة من التشهير والتلفيق ، فاذا استطاع سعد أن
يرر أمام ضميره تقييد كتابة كهذه الكتابة فهو لا يتعسف كثيراً ولا يحتاج
إلى غواية المنصب ليهتدى إلى ذلك التبرير

وليس من أخطاء سعد التي يهول بها خصومه بعد مسألة قانون المطبوعات
إلا مسألة واحدة يذكرونها بين مساوئه الكبار وهي عندنا من أجل ما أثره

في الوزارة ، إن لم تكن أجملها كلها في حسن الايثار وبراعة الحيلة . ونعني بها موقفه من مسألة قناة السويس ، وهذا تلخيص ذلك الموقف كما يعرفه ناقدوه ومحبذوه :

طلبت شركة قناة السويس الى الحكومة المصرية أن تمد لها أجل الامتياز أربعين سنة بعد مدته التي تنتهى في « ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ » على أن تقسم الأرباح مناصفة بين الحكومة والشركة ، وأن تدفع الشركة إلى الحكومة أربعة ملايين من الجنيهات على أربعة أقساط تبتدىء من سنة ١٩١٠ وتنتهى في سنة ١٩١٣ وتتجاوز الحكومة من أجل ذلك عن خمسة عشر في المائة من أرباحها ابتداء من الأجل الجديد .

فهذه الصفقة كانت خاسرة في رأى فريق كبير من الأمة ورايحة في رأى فريق آخر ، ولا زال أناس يعتقد برأيهم يعتقدون أن رفضها كان من الخطأ والتعجل ، لأنه من المحتمل أن تطلق الحرية لجميع السفن في عبور القناة بغير رسم ولا ضريبة ، بعد أمد غير بعيد

فلما عُرِض هذا الطلب على الوزارة البطرسية احتاجت إلى من يدافع عنه أمام « الجمعية العمومية » فلم تجد بين أعضائها من هو أقدر من سعد على هذه المهمة ، فلم يقبل الدفاع عنه إلا على شرط تتعهد به الحكومة ، وهو تخويل الجمعية العمومية الرأى القاطع في هذه المسألة تجيزها إن شاءت وترفضها إن شاءت دون أن تخالفها الحكومة في قرارها ، فقبلت الوزارة شرطه ونظرت الجمعية العمومية في المسألة فقررت رفض الطلب ، ونفذ القرار ، ولم تجدد الشركة طلبها بعد ذلك .

فاذا جاز لبعض الناقدين أن يحسبوا هذا الموقف من الأخطاء على فرض الجزم بخسارة الصفقة فهو في اعتقادنا ضرب من القداء قلما ترتقى اليه هم الفدائيين ، لأن الفدائي يخسر الراحة والمصلحة ولا يخسر العطف وحسن الأحدوثة ، فأما

أن يعرض نفسه للنفور والتشهير لیبوء غيره بالعطف وحسن الأحـدوثة .
فذلك فداء لا يطيقه إلا الأفذاذ من عظماء الرجال

ولهذا الشرط الذى اشترط سعد فضيلة أخرى فى ميدان الحركة
الدستورية ، اذ كان تخويل الجمعية العمومية رأياً قاطعاً فى هذه المسألة الخطيرة
أول خطوة ثابتة فى طريق الدستور الصحيح والرقابة القوية القومية ، فكان
من المتعذر بعد ذلك أن تنازع الأمة فى استحقاق الدستور .

فاذا كان موقف سعد فى مسألة القناة خطأ فهو خطأ لم تقع خسارته
على أحد غيره ، وأما المكسب كله فيها فقد كان من حظ الأمة وحظ
الجمعية العمومية

الحركة الدستورية

بدأت الحركة الدستورية في مصر على عهد الخديو اسماعيل وكان اسماعيل يشجعها ويحرض عليها ، لأنه كان في ضيق شديد من الرقابة الأوربية على خزانة الدولة بعد ما تورط فيه من الديون الكثيرة . فكان يرجو أن يستعيد لنفسه بعض السيطرة على الحكومة من طريق المجلس النيابي والوزارة الدستورية ، ثقة منه بأن المصريين يغيضون الرقابة الأجنبية ويساعدونه على تخلص البلاد من أوهاقها

وتجددت الحركة الدستورية بعد الاحتلال البريطاني في أيام الخديو عباس الثاني ، وكان للخديو ضلع في هذه الحركة أيضا . لأنه كان يشكو من رقابة اللورد كرومر وطغيان نفوذه في جميع أنحاء الحكومة . بحيث لم يترك له من الأمر الا الشكل الرسمي والعنوان الظاهر . فرحب بالحركة الدستورية وحض عليها لأنها تنقص من نفوذ كرومر ولا تنقص من نفوذه شيئا يحرص على بقاءه . ولعله كان يرجو كما رجا اسماعيل من قبله أن تفك عنه بعض القيود وتهيء له أسباب المداخلة بين قوة الاحتلال وقوة الأمة

وكان بعض أعوان الخديو عباس ظاهرين في هذه الحركة ، وقد أيقن الانجليز أن الخديو كان يوعز الى مصطفى كامل باشا صاحب اللواء والشيخ على يوسف صاحب المؤيد بانتقاد الاحتلال وكبار رجاله وشن الغارة على اللورد كرومر وأساليب حكمه . وسمع الانجليز كذلك أنه أعان مصطفى كاملا بالمال لاصدار الصحف الأفرنجية ونشر الدعاية في البلدان الأروبية ، فحبل إليهم من الحركة الأولى والحركة الأخيرة أن المضالبة بالدستور في مصر ليست إلا مناروة خديوية ينساق اليها الشعب بغير شعور منه بالحاجة إلى النظام النيابي والرقابة على الحكومة ، وأنهم اذا وافقوا عباسا على بعض

ميوله ورغباته قضوا على هذه الحركة وأمنوا انتشارها وامتدادها ولم يسمعوا
للأمة المصرية مطلباً بعد القضاء على البواعث التي تدفع بها إلى المطالبة

هذه الموافقة هي التي سموها يومئذ بسياسة الوفاق ، وهي التي لجأوا إليها
بعد إقالة اللورد كرومر عسى أن تضعف الدعوة الوطنية ، أو تقسم الأمة
والأمير إلى معسكرين متنازعين بدلاً من معسكر واحد متفق في الوسيلة والغاية .
فقوام سياسة الوفاق إذن هو توحيد قوى الحكومة وتشيت قوى الأمة

فارق اللورد كرومر دار الوكالة البريطانية في شهر مايو سنة ١٩٠٧ وخلفه
السير الدون غورست الذي شغل في مصر منصب المستشار الداخلي والمستشار
المالى بعد أن اشتغل بوظائف الحكومة المصرية منذ سنة ١٨٩٠

وكانت « فكرة » غورست عن دعوة مصر الوطنية هي فكرة الموظفين
الانجليز المحليين . ومنهم فريق يغفلون في محاربة الدعوات الوطنية جميعاً لأنهم
يعتبرون المطالبة بالاستقلال والمطالبة بالدستور إفتياتاً على سلطانهم وعلى
مصالحهم فضلاً عن سلطان الدولة البريطانية ومصالحها وينظرون إلى مطالب
المصريين من وراء هذه الميول والأغراض فلا يرونها إلا مشوهة منجرفة ،
ويعتقدون أن الشرق لا يستحق من أساليب الحكم إلا تلك الأساليب التي
إصطالحوها على تسميتها بالأساليب الشرقية ، ويعنون بها المراوغة والتلفيق ...
لجاء السير الدون غورست بهذه العقيدة وهو ينوى أن يستخدم « الأساليب
الشرقية » في تهذئة الخديو وتهذئة الأمة في وقت واحد .

على أن الحقيقة أن مطالبية المصريين أو فريق منهم بالدستور ليست بالمناورة
الخفية ولا بالدعوة المصطنعة ، لأن المطالبين به قد طالبوه وهو معارض لأهواء
الخديوين كما طالبوه وهو موافق لأهوائهم . فلم يكن الخديو توفيق موعزاً بطلبه
ولا راضياً عن دعائه ، ولكن الحركة الدستورية في أيامه كانت على أشد
معرفة به في تاريخها كله . ولم يكن الخديو عباس موعزاً بطلبه ولا راضياً عن
دعائه بعد عزل اللورد كرومر وإعلان سياسته الوفاق . ولكن الحركة

الدستورية اشتدت ولم تخمد بعد إعلان هذه السياسة ، وبلغت العرائض المقدمة إلى الخديو بطلب الدستور أضعاف أضعاف ما تقدم منها في عهد السياسة الكرومرية

ولم يكن سيكون الحركة الدستورية في السنوات الأولى بعد الاحتلال دليلاً على أنها مزيفة أو قريية الزوال . لأنها لم تسكن إلا من أثر الصدمة الأولى التي خبت الآمال وبابلت الأفكار ونفشت فيها نوافث الشك والحيرة عقب الثورة العرابية . ثم استمرت على سكونها لأن المصريين قد انصرفوا إلى مطالبة الإنجليز بالجللاء في أوائل أيام الاحتلال ، فلم يروا ضرورة للتعجيل بطلب الدستور مع انتظار الجللاء في أمد قريب ... ومن أجل هذا تضاعفت الحركة الدستورية بعد سنة ١٩٠٤ التي حدث فيها الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا على التراضي والتعاون في المسألتين المصرية والمراكشية ، فقد وضحت عزيمة الإنجليز على البقاء الدائم وضوحاً مسجلاً بالوثائق الرسمية ، وكان هذا الاتفاق الذي قصدوا به إطفاء جذوة الحمية الوطنية وتخيب رجاء المصريين في مساعدة الدول الأوروبية باعناً قوياً من نواحي النشاط واليقظة في عقيدة المصريين ، وبداية لاجتماع الآراء العامة على رأى واحد ، وتسديد الخطى إلى غاية واحدة قلنا أن السير الدون غورست جاء بعد كرومر لتهدئة الحركة الوطنية وتهدئة الخديو في وقت واحد ... فأما صنعته لتهدئة الحركة الدستورية فذلك إنه فكر في إصلاح المجالس المحلية ومجالس المديرية التي كانت مهمة إلى ذلك الحين . فوسع من حقوقها وأباحها بعض الرقابة على المديرين ، فلم تقنع الأمة بهذا القسط اليسير من المشاركة في الحكم . لأنها إنما طلبت الدستور في الحقيقة لتكبح به الاحتلال لا لتكبح به مديري الأقاليم

واتفق فيما حول ذلك من الوقت أن طرأ حادثان خارجيان كان لهما أثر عظيم في أذكاء الحمية الوطنية والدعوة الدستورية : أولهما - وقد بدأ قبل مجيء غورست - هو حرب اليابان وانتصارها وهي دولة شرقية مجهولة على دولة غربية

كبيرة ، فتجددت بذلك آمال النهضة العامة في قلوب الأمم الشرقية كافة والحادث الثاني هو فوز الشعوب العثمانية بالدستور في يوليو من سنة ١٩٠٨ ، أى بعد وصول السير الدون غورست إلى مصر بأشهر قليلة ، فقد أنال هذا الدستور جميع الأمم العربية الأخرى التي كانت تابعة للدولة العثمانية حقوق الانتخاب والانابة عنها في مجلس المبعوثين ، وبقيت مصر وهى فى طليعة هذه الأمم محرومة هذه الحقوق لغير سبب وجيه فى نظرها ؛ فزادها ذلك يقيناً بصواب رأيها وعسف الاحتلال البريطانى المعارض لها فى طلبها

أماماصنعه غورست لارضاء الخديو عباس الثانى فانه بدأ بإطلاق يده رويداً رويداً فى أعماله الخاصة ثم فى أعمال الحكومة ، فاستقالت وزارة مصطفى فهمى باشا (١٩٠٩) البغيضة الى عباس وقامت بعدها الوزارة البطرسية ، وسمح الانجليز له بترشيح بعض أنصاره للوزارة وهم محمد سعيد بك وأحمد حشمت باشا وحسين رشدى باشا ، فكانت أول وزارة استطاع أن يدخل فيها مثل هذا العدد من الأنصار

ثم قتل بطرس باشا فى فبراير سنة ١٩١٠ فجر مقتله إلى جدال وشقاق بين القبط والمسلمين . شغل بهما المصريون فيما بينهم برهة عن المطالبة بالدستور ، ولم تذكره دار الوكالة البريطانية هذا الشقاق المحزن لأنه يجرى مع ما قصده سياسة الوفاق من تشتيت قوى الأمة وتوحيد قوى الحكومة . وكانما كانت تنتظره من ترشيح بطرس باشا لرئاسة الوزارة ، فلما فاتها اغضبها المسلمون بتعيينه كما كانت تؤمل لم يسؤها ان يتفاقم الخلاف المحذور بعد الاعتداء عليه ، ولا سيما وقد لغطت أبواق الاحتلال على أثر قضية دنشواى بتهمة التعصب الدينى وسوغت بها قسوة الأحكام فى تلك القضية . ثم شرعت فى استغلال التهمة لا دعاء حماية المسيحيين من أجنبى ومصريين

ولم تمض فترة وجيزة على السير الدون غورست في دار الوكالة حتى ظهرت الحيرة على مشوراته التي كان يدونها في تقاريراته السنوية ، فجعل يوصي بالرأى وينقضه ويهم بالعمل ولا يجد في انجازه ، وعنده على كل حال أن الحركة الدستورية ان هي إلا نوبة عارضة في الطبقات العالية تعالج بالانتظار والمصابرة إلى أن تزول ، أما في الطبقات الجامعة فلا حاجة إلى علاجها بأكثر من الرقابة الساهرة وتقييد الخطابة والكتابة

ثم مرض السير الدون غورست ومات ولم تكذ تنقضي عليه في دار الوكالة ثلاث سنوات

فاخافته حكومته « في سبتمبر سنة ١٩١١ » باللورد كتشنر صاحب الأزمة القديمة التي وقعت بينه وبين الخديو عباس واشتهرت باسم أزمة الحدود . فكان مجرد تعيينه مؤذنا بتغيير جديد في السياسة واعتراف من جانب الساسة الانجليز بخطتهم في فهم الحركة الوطنية أو بخطتهم في عزوها كلها إلى مقاصد الخديو السابق وتحريضاته ، فبعد ان كان الغرض من تعيين السير الدون غورست ان يسترضى الخديو بالنزول له عن بعض النفوذ واطلاق يده هونا ما في أعماله وأعمال الحكومة أصبح الغرض الظاهر من تعيين اللورد كتشنر ان يعاد الخديو إلى حيزه المحدود ، وأن تجس المشكلة الوطنية من غير هذه الناحية

رأى اللورد كتشنر أن الحركة الدستورية حركة جدية صادقة لا مفر من الاكتراث لها وملاقاتها بما يرصيه أو يخفف من حدتها . فليست هي في الطبقات المسؤولة نوبة عارضة لا حاجة في علاجها إلى أكثر من الصبر عليها وليست هي في الطبقات الفقيرة صيحة جوفاء خلواً من كل معنى ، فالقلق بين صغار الفلاحين موجود لا شك فيه ، وغاية ما في الأمر أنه قد يرد إلى أسباب الأزمة الزراعية وقد يسهل تسكينه كثيراً أو قليلاً بتلطيف وقع

الآزمة عليهم وتأمينهم على أقواتهم ، ومن هنا نشأ قانون « خمسة الافدنة » محرما الحجز على هذا المقـدار من الأرض أو مادونه في سداد الديوان . وفكر اللورد كتشنر في إرضاء طلاب الدستور بإنشاء هيئة نيابية جديدة غير مجلس الشورى والجمعية العمومية . فصدر القانون النظامى بإنشاء الجمعية التشريعية فى أول يوليو سنة ١٩١٣ مشتملا على حقوق أوسع من حقوق المجلسين السابقين ، وان كانت فى جملتها أقرب إلى القشور منها إلى اللباب

الوزير المصرى

فى المعاش !

فى البلاد الدستورية يخرج الوزير من ديوان الحكم ويعود اليه مرات فى مدى حياته السياسية . وقد يخرج منه ويعود اليه أكثر من مرة واحدة فى السنة الواحدة ، تبعاً لاختلاف الآراء العامة واختلاف مواقف الأحزاب بين الصداقة والخصومة والتآلب والتفرق ، فى المناوشات البرلمانية . وقد يكون نفوذه وهو معارض أكبر من نفوذه وهو فى ديوانه ، مقيد بقيود الوظيفة ، مطالب برعاية المراسم الوزارية . فاذا اعتزل المنصب فترة من الزمن لم يزل مرجواً مخشياً محسوباً له حسابه ، ولم ييأس منه أصدقاؤه أو يستخف أعداؤه بشأنه . لأنه يظل حيث كان قادراً على عمل متأهباً لعودة قريبة إلى الحكم ، مرجحاً لهذا الجانب أو لذاك فى مواقف الأمة ومواقف النواب .

أما الوزير فى مصر قبل خمس وعشرين سنة فقد كان بين حالتين ليس بينها حالة وسطى . فهو إما وزير أو لا شئ... فاذا خرج من الحكم فلا رجاء فيه ولا ضرر منه . ولا أمل فى عودته إلى الحكومة أو مشاركته فى الحياة السياسية ، لأنه كان يرتقى الوزارة بعد أن يتقلب فى وظائف الحكومة من أصغرها إلى أكبرها ويستغرق فى خلال ذلك ما يستغرق من وقت لا يقل عن أربعين أو ثلاثين سنة . فمن معاون إلى مأمور إلى وكيل مديرية إلى مدير فى الدرجة الثالثة فالثانية فالأولى . إلى وكيل وزارة أو وزير يبلغ من العمر الخامسة والخمسين أو الستين ؛ لا يطلب منه عمل ولا يعتمد عليه فى سياسة عامة ، ولا سيما بعد أن أصبحت الوزارة رسماً معطلاً فى أيام الاحتلال ، وانتقل العمل والسياسة كلها إلى أيدي المستشارين البريطان ، ومن ورأيهم دار الوكالة البريطانية

يقضى الوزير ما يشاء له الحظ في منصبه ثم يخرج منه الى داره وهو شيخ قد جاوز الستين وخطا إلى السبعين . فذا يصنع في الأيام المعدودات الباقيات له من الحياة ؟ أنه لو كان شابا لما استطاع أن يعمل شيئا لأنه لم يخلق ليكون من أصحاب الأعمال . فاذا كان في تلك الشيخوخة الفانية فهو من باب أولى لا يقوى على عمل ولا يفكر فيه ، ولا يبقى منه ما يرجوه راج أو يخافه خائف . ان هو الا خارج من سجل الأحياء في الحقيقة لا من سجل الحياة الوزارية وحسب ، فهما لفظان مترادفان

ومن عادة النفس الانسانية أن تتخذ من الضرورة فضيلة كما يقولون . فالرجل الذى يعز عليه الخوض في الحياة العامة يعتبر الخوض في هذه الحياة مهانة لا تجمل بقدره ، ويعتبر العزوف عنها واجبا مفروضاً عليه . والوزير المصرى المحال إلى المعاش أقرب الناس إلى الايمان بهذا الوهم والتعزى بهذه الخديعة ، لأنه بلغ من المناصب والألقاب أرفعها فكل عمل بعد ذلك هو حط من قدره وابتذال لمقامه . ويزداد عزوفه عن العمل وجوبا في تلك الأيام التى غلبت فيها أبهة المنصب ولم تنتشر فيها الآداب الشعبية أو الديمقراطية . فلا جرم تصبح البطالة أدبا من آداب الوزراء المعزولين ، ويعود الاحتفاظ بالوقار على هذا النحو وهو هو العزاء الوحيد لمن قضى عليه منهم بالدخول في عالم الفناء !

من هذا نستطيع أن نعلم أن المجازفة بالاستقالة أمر ليس بالهين في عرف الوزراء المصريين قبل خمس وعشرين سنة ، ونستطيع أن نعلم مقدار الضربة التى ظن خصوم سعد أنهم أنزلوها به والنقمة التى صبوها عليه ، وهو كهل متين الأسر لم يبلغ من الشيخوخة ما يبلغه الوزراء الذين يروضون أنفسهم على أدب العزلة أو أدب البطالة الفانية

نعم إنهم تعودوا من الرجل أن يضع قواعده لنفسه ولا يجرى على قاعدة يقاد إليها برغمه . لكن ماذا عساه أن يصنع وهو مستهدف للغداء من

جانب الاحتلال ومن جانب الأمير؟ أيلجأ إلى الرأي العام ويستأنف ماضيه القديم من الحياة السياسية !

نعم ذلك كان أمراً محتملاً قبل خمس سنوات ، أو قبل أن تقع الجفوة ثم العداوة اللدود بين سعد والصحفيين الذين كانوا يسيطرون على الرأي العام في تلك الأيام . أما الآن وقد مضت على الصحافة الرائجة سنوات وهي لا تكتب عن سعد إلا ما يمثله للناس آلة من آلات الانجليز وعدوا من أعداء الحرية . فماذا بقي له عند الرأي العام ؟ وماذا بقي له من الرجاء إذا هو استأنف الحياة السياسية ؟

لم يبق إلا الفشل المحقق والتسليم بالقضاء والانزواء في « النرفانا » الوقور التي لا ترهب للنازليين بها صولة ولا تخاف لهم رجعة إلى عالم الدنيا . . وعلى هذا أوعز خصومه إلى بعض أتباعهم ليحملوا عليه في الصحف ويلغظوا في المجالس ويفتروا الأكاذيب عن أسباب استقالته ، غير عابئين بحقيقة ولا واقفين عند محذور ، وهم يحذرون والرجل الذي يهاجمونه بعيد من القوة الحكومية ، بعيد من رضى الأقوياء في الحكومة !

هنا صدموا بأول صدمة لم يتعودوها من ساكني « النرفانا » المستباحي الذمار ؛ وأيقنوا أنهم أمام معزول لا يشبه المعزولين . فان الرجل الذي ساقوه إلى لحده السياسي كما زعموا ، قد خرج عليهم بكلمة وجيزة لا لاجاجة فيها . كلمة الواثق بقدرته على كبح خصومه حين يريد وكما يريد : إنكم ياهؤلاء تنسون الحقيقة كأنكم لا تعرفونها . فان كنتم تجهلونها وتسركم معرفتها فما أنا ذا على استعداد ؛ ؛ أتسكتون إذن ؟ أم تقولون الحقيقة ؟ أم نسوقكم إلى حيث تقال ! وما هو إلا أن أذاعت الصحف هذا النذير حتى سكت السليط وتراجع المقدم ، واشتد الایعاز في طلب السكوت كما اشتد الایعاز قبل ذلك في طلب الكلام

لخالفه الذين أوجدوها في الحكومة بل أتى بها للطاعة ومجاراة الرغبات الصريحة أو المفهومة . ولكنها مع هذا لا تريد أن تقول للناس إنني آلة مسخرة تعمل ما يملئ عليها ولا تدري كيف تدافع عن أعمالها ، فإذا لم يكن في وسع الانتقاد المعقول المنظم أن يسقطها في وسعه أن يكشف عن دخيلاتها وعن تناقض ظاهرها وباطنها ، وأن يضعها كرها أو طوعا في موضوع مخجل يحرمها كل هبة ويشل فيها كل حركة . والمعول في وضع الوزارة هذا الموضوع العسير إنما هو على اليد التي تدير دفة المعارضة وتتصدى لأقامة الحججة من هنا وتفنيدها من هناك ، فإن يدا تملك هذه القدرة لتمكن زمام الموقف كله ولا يعز عليها إحراج الحكومة إحراجاً لا تنفعها فيه القوة المطلقة التي تسندها

وقد قال الشيخ المنفلوطي فيما أذكر لسعد يوماً من أيام جهاده في الجمعية التشريعية : « ما الذي تستفيد به يا مولاي من إجهاد نفسك في شئون قلبنا تنال فيها الأغلبية في الجمعية ؟ فأجابه جواب الرجل الذي يعرف أين هو من عمله ويعرف السلاح الذي يشحذه في نضاله : « سواء لدى نجحت أم لم أنجح فاني لا أخطب في الجمعية التشريعية وحدها بل في الأمة جميعها ، ولا أخطب الحاضر وحده بل أخطب المستقبل أيضاً »

فهم لم يدخل الجمعية التشريعية ليغلب فيها الوزارة بعدد الأصوات ومناورات الكثرة والقلة ، ولكن الوزارة برمتها لم يكن لها من النفوذ في سياسة البلد بمقدار ما كان لسعد النائب في الجمعية التشريعية ، بغير كثرة عديده ، وبغير حق كان لإحق الانتقاد والمناقشة

قال اللورد جورج لويد في الجزء الأول من كتابه « مصر منذ كرومر » عند الكلام على كتشنر والحديو :

« لو أن كتشنر عاد من إنجلترا في خريف سنة ١٩١٤ مفوضاً في إنذار الحديو أو خلعه عند الضرورة لبقى عليه أن يمارس الجمعية التشريعية التي خلقها هو بيديه . فقد كان زغلول في تلك الجمعية ومن ورائه صف أتباعه المتين -

قوة لامناص من حسابان حسابها ، لأنهم كانوا يملكون أن يشلوا عمل الوزارة إن لم يجعلوه مستحيلا ، وكان المرجح جداً أن يتبها المسرح بعد فترة غير طويلة لمعركة بين زغلول وكتشنر تكون المسبر الدقيق للمقدرة السياسية في كلا الرجلين ، ولم يكن من المحتمل أن يقع الوفاق بين رجلين من هذا الطراز »

ذلك رأى اللورد لويد فيما طواه الغيب ، وكان في وسعه أن يقول إن المعركة بدأت فعلا ، وأنها لم تكن لتنتهى إلا بتعجيل الدستور الصحيح وانتصار سعد في نضاله ، لأن إلغاء الهيئات النيابية إلغاء تاما مشكلة قد يلجأ اليها اللورد كتشنر إذا اضطر اليها ، ولكنه لا يحسب نفسه منتصرا في هذه الحال ، ولا يزيد على أن يحول النضال إلى ميدان آخر ، لن ينهزم فيه سعد زغلول .

في ميدان الانتخاب

صدر القانون النظامي الذي أنشئت بموجبه الجمعية التشريعية في أول يوليو سنة ١٩١٣ وجاء في مقدمته ما يأتي :

« لما كانت رغبتنا هي منح بلادنا نظام حكومة يكون موافقا للأفكار النيرة وكافلا لحسن الإدارة ولصيانة الحرية الشخصية وضامنا لاتساع نطاق التقدم والعمران وملائما لهذه البلاد بنوع خاص

» ولما كانت هذه الغاية لا يتسنى نيلها الا بتعاقد جميع الطبقات تعاظدا مبنيا على الولاء ، وبامتزاج جميع المرافق امتزاجا يؤدي الى ترقية نظام الحكومة بطريقة تجمع بين السكينة والتروى بحيث لا يكون هذا النظام عبارة عن مجرد تقليد ومحاكاة للأساليب الغربية ، بل يكون داعيا الى تمهيد السبيل لرفاهة الأمة المصرية واسعادها

« ولما كانت بغيتنا حينئذ هي تعديل القانون النظامي تعديلا يكون من ورائه تحسين الأسلوب التشريعي ، وذلك باستبدال القوانين النظامية الحالية بقوانين ترمى إلى ضم مجلس شورى القوانين مع الجمعية العمومية في هيئة واحدة وإلى تقرير طريقة للانتخاب تكون أوسع نطاقا وأكثر انطباقا على الحكمة وإلى ازدياد عدد الممثلين الذين يعهد اليهم بالمشاركة في أعمال السلطة التشريعية وإلى تخويل الهيئة الجديدة الاختصاصات الممنوحة الآن لكل من مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وإلى ترتيب طريقة يجرى عليها العمل في الاستشارة وفي اقتراح وضع القوانين لكي تزداد استفادة الحكومة عن ذي قبل من آراء هذه الهيئة الجديدة ومقترحاتها فيما يتعلق بإدارة الشؤون الداخلية ... فقد أمرنا بما هوآت الخ »

وتألفت هذه الهيئة كما جاء في المادة الثانية من قانونها النظامي : « من

أعضاء قانونيين وأعضاء منتخبيين وأعضاء معينين . والنظار أعضاء قانونيون . وعدد الأعضاء المنتخبين ستة وستون عضواً ينتخب أحدهم وكيلاً بمعرفة الجمعية ويكون انتخاب الأعضاء بالكيفية وبالشروط المقررة في قانون الانتخاب . وعدد الأعضاء المعيّنين سبعة عشر عضواً أحدهم رئيس والثاني وكيل والخمسة عشر الآخرون يعينون على نحو يكفل النيابة عن الاقليات والمصالح التي لم تنل نصيباً من الانتخاب »

وكانت الشروط المالية غالبة على جميع الشروط الأخرى في ترشيح الأعضاء . فكان مشروطاً في العضو بعد السن التي لا تقل عن خمس وثلاثين سنة أن يكون « قد دفع منذ سنتين مال أطيان سنوى قدره خمسون جنيهاً أو عوائد مبان قدرها عشرون جنيهاً في السنة أو خمسة وثلاثون جنيهاً مال أطيان وعوائد مبان معاً وينقص المال السنوى إلى خمسيه بالنسبة لمن كان حائزاً لشهادة من جهات القطر » وينتخب هؤلاء الأعضاء مندوبون خمسونيون يشترط فيهم ان لا يقل عمرهم عن الثلاثين

فوظيفة الجمعية كما تقدم محصورة في الاستشارة ، والنواب محصورون في نطاق ضيق من أصحاب الثروة والوجاهة ، والناخبون محدودون بالسن وبقيود الانتخاب من درجتين

وكانت في مصر ثلاثة أحزاب سياسية عند انشاء الجمعية التشريعية : الحزب الوطنى وهو يطلب الاستقلال في ظل السيادة العثمانية ليستعين بحقوقها الشرعية على محاربة الاحتلال الغاصب ، ومعظم أعضائه من الطلبة والشبان وخريجي المدارس العليا ، وقليل منهم من وجهاء الأقاليم المقربين إلى الحاشية الخديوية

وحزب الأمة ويطلب الاستقلال التام ويبغض السيادة التركية ، ومعظم أعضائه مغضوب عليهم من الخديو عباس الثانى ورجاله ، فكانوا من أجل ذلك على صلة بدار الوكالة البريطانية

وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية ، واسمه يدل على غرضه ، وهو
مداراة الاحتلال والاكتفاء بطلب التدرج على مبادئ الحكم النيابي ، وإنما
كان يدارى الاحتلال لأنه حزب القصر المعروف بانتهاؤه الى المراجع الخديوية ،
فلا يحب أن يجهر بمناوأة الانجليز ويعطيهم حجة مكشوفة تمكنهم من مقابلة
العداء بالعداء .

وكانت هذه الاحزاب سياسية ولكنها لم تكن برلمانية مستعدة للترشيح
في ميدان الانتخاب ، لأن الاحزاب البرلمانية التي لها فروع ولجان ودعاة
ومرشحون لا توجد إلا بعد وجود البرلمان وطول العهد بالمنافسات النيابية ،
وإنما كانت أحزاب مصر في تلك الفترة بمثابة اندية سياسية يجتمع
فيها بعض الأصدقاء والزملاء المتعارفين ، ولا تتعدى حدود القاهرة
والعواصم الكبرى

ومن أسباب عجز الأحزاب عن خوض معركة الانتخاب أنها كانت
قد ضعفت واضمحلت لأسباب عارضة أصابت كلا منها على حدة ، فالحزب
الوطني تفرق بعد موت مصطفى كامل وسجن محمد فريد وهجرته من البلاد ،
وحزب الأمة لم يقو على الثبات بعد رحيل كرومر وتتابع الضربات عليه في
أيام سياسة الوفاق ، وحزب الإصلاح على المبادئ الدستورية لم يكن شيئاً
مذكوراً من البداية ، ولم يبق له أثر بعد وفاة رئيسه الشيخ علي يوسف
صاحب المؤيد .

ومن أصعب الأشياء على أحزاب سياسية كاحزاب مصر في تلك الفترة
أن تجمع لها مرشحين في كل دائرة تتوافر فيهم الشروط المطلوبة من أعضاء
الجمعية التشريعية .

لهذا لم يتقدم أحد ببرنامج سياسي على أساس المنافسات الحزبية في تلك
الانتخابات

ولم يكن سعد عضواً في حزب من تلك الأحزاب ، ولكن أنصاره
المعجبين به من المثقفين في كل حزب غير قليلين .

فزل في ميدان الانتخاب مستقلاً عن جميع الأحزاب ، وجعل برنامجاً
موافقاً لما يطلب من الجمعية التي يرشح نفسه للنيابة فيها ، وخلاصته كما أفضى
به إلى بعض سائله :

« إذا شاء أهل وطني أن ينتخبوني نائباً عنهم فاني أعاهدكم على أن
أقف نفسي على خدمتهم وقضاء مصالحهم والسعي في تحقيق أمانهم وإزالة
شكاوهم وأذكر على سبيل الاستشهاد الأمور التالية :

(١) قرأت في الجرائد مقالات وفصولاً متعددة في انتقاد قوانين المحاكم
المصرية من جنائية ومدنية وغيرها ، وما فيها من وجوه النقص وما يشكو
المتقاضون منه من فداحة الرسوم القضائية وزيادة التطويل في سير القضايا
وما شاكل ذلك ، فإذا شاء أبناء وطني أن ينتخبوني نائباً عنهم فأنا أعدهم بأن
أجد في خدمتهم بالبحث عن كل العلال والأسباب التي يشكون منها وجمع
الشواهد وإيراد الأدلة والحجج التي أتوسل بها إلى إقناع زملائي في المجلس
حتى يؤيدوني فيما أقترحه على الحكومة من التعديل والتغيير لحير الأمة وإلى
إقناع الحكومة بصحة اقتراحنا واستمالتها إلى قبوله والعمل به حبا بخير الأمة
وزوال شكوى الأهالي .

(٢) إنني اختبرت أحوال المدارس والدرس والتدريس زماناً طويلاً
وعرفت حاجات الأمة الكثيرة إلى المعارف فإذا انتخبت عضواً في الجمعية
التشريعية فاني أعاهد الأمة على إفراغ الجهد في توسيع نطاق التعليم حتى يعم
جميع طبقات الأمة وحتى يتيسر لأبناء الفقراء أن ينفخوا كانباء الأغنياء .

(٣) إنني لأزال مقيماً على رأي المعلوم في إعطاء الصحافة الحرية اللازمة لزيادة
نجاحها وارتقاءها في خدمة الأمة . فإذا شاء أبناء وطني أن ينتخبوني فأنا أعاهدكم
أنني أدرس هذه المسألة درساً دقيقاً وأجمع الأدلة والحجج التي تقنع زملائي

وأتقنع الحكومة بوضع قانون تصان به حرية الصحافة من جهة ويصان به النظام العام من ضرر شططها من جهة أخرى

(٤) أقرأ في الجرائد عبارات الشكوى الدائمة من سكان العاصمة ولا سيما سكان الشوارع الوطنية ، تارة من قلة النور و تارة من قلة الكس والرش و تارة من قلة التنظيم والرصف فاذا انتخبت في الجمعية التشريعية فاني لأدخر وسعا في عمل ما أستطيع عمله ضمن الحدود القانونية لحمل الحكومة على إزالة شكوى الأهالي من هذا القليل .

(٥) إذا انتخبت في الجمعية التشريعية فاني أجعل حاجات معظم الأهالي نصب عيني وخصوصاً حاجات المزارعين فأسعى في تسهيل وسائط الزراعة والرى ومد السكك الحديدية والزراعية في البلاد وأدرس أسعار القطن درساً دقيقاً وأبذل جهدي في اتخاذ الوسائط التي تحمى بها مصالح المزارع ولا يذهب ربحه من قطنه طعاماً للتاجر وغيره من الذين يشترون قطنه بالثمن الرخيص ويبيعونه إياه محوكاً ومنسوجاً بالثمن الغالى .

وهذه بعض الأمور التي أسعى فيها لخدمة بلادى وقضاء مصلحة أهل وطنى وأعد أنى لا أدخر فى القيام بواجب الخدمة واستخدام الوسائل التي يبيحها لى قانون الجمعية التشريعية لإقناع الحكومة بعمل ما أرى عمله واجبا لخير الأمة »



هذه هى خلاصة الوعود التي تقدم بها سعد إلى ناخبيه ولم يتجاوزها إلى غيرها من وعود لا يملك إنجازها نائب فى هيئة كالجمعية التشريعية .
ولأول مرة فى تاريخ الانتخابات بمصر سمعت الخطب الانتخابية وتقرّب المرشحون إلى الناخبين ببيان الخطط التي ينوون اتباعها ، وجرى الانتخاب على النظام الحديث بعد أن كان لا يجرى إلا على المساومات والشفاعات ، والتوسل بجاه الحاكم تارة وبجاه العصبية تارات .

وانه ليكفى في الغالب أن يشترك الرجل « غير العادى » فى الشؤون العادية لتخرج الأمور عن مجراها الذى ألفه الناس منها ، وتستقيم على مجرى جديد لم يألفوه ولم يكونوا يبالغيه إلا فى السنين الطوال . وكذلك كان اشتراك سعد فى الانتخابات كافياً لاقتناع طائفة صالحة من نخبة المثقفين بدخولها والصبر على عيوبها مما كان يزهدهم فيها . فتقدم فى ميدان المنافسة العلماء وكبار الكتاب والمحامين ، وقلها كان يطرقة فى عهد مجلس الشورى والجمعية العمومية أحد غير أتباع الحكومة من جهلاء العمدة والوجهاء

وقد رشح سعد نفسه فى دائرتين من دوائر العاصمة لا عن دائرة واحدة :
أى عن نصف المدينة ، فنجح فى الدائرتين نجاحاً غاق كل تقدير .

ونعتقد نحن أن الغرابة كان لها شأن كبير فى هذا النجاح ، لأن نزول وزير سابق كسعد زغلول فى ميدان الانتخاب على غير المعبود كان مفاجأة غيرت كل حساب ، وكأنما كان ماضيه فى الحركة الوطنية وفى المحاماة والقضاء والوزارة مدخراً لهذا اليوم ، فاستعاد قوته كلها من أثر هذه المفاجأة وهزم كل ما أعدوه له من الموانع والعراقيل : هزم دعاية التشهير به خمس سنوات ، وهزم المقاومة الخفية التى تألبت فيها مساعى اللورد كيتشنر ومساعى الأمير ومساعى الوزارة القائمة ، وهزم المال وغواية الرشوة والرجاء ، وبلغ من حماسة الجماهير لانتخاب سعد أن الرجل الفقير من المندوبين كان ينتخبه وهو لا يعرفه ويرفض الجنيئات التى يعرضها عليه المنافسون المعروفون لديه ثمناً لصوته ، فى تلك السنوات العصيبة التى أقفرت فيها الأسواق ونضبت المكاسب ولم يسمع سعد برجل من هؤلاء المندوبين إلا بادر بالسؤال عنه وذهب إليه فى رهط من أصحابه البارزين ليعرب له عن شكره ويثنى على أمانته وشعمه ، ويحبه بين أبناء الحى الذين يجتمعون حول هؤلاء الزوار ، ويتحدثون بهذه الزيارة للكبار والصغار ، فكان مسلكه فى الحملة الانتخابية مسلك الزعيم الديمقراطى من جميع الوجوه

وظهرت نتيجة الانتخابات فظهرت من اللحظة الأولى قوة الحكومة وقوة المعارضة : كان للوزارة كثرة ظاهرة في الجمعية لأن الوزراء من أعضائها فضلا عن الأعضاء المعيّنين والأعضاء الذين لا يصطبغون بصبغة سياسية ولا يعرفون لهم واجبا غير مناصرة القوة حيث تكون . ومع هذا جرى الانتخاب للوكالة في الجلسة الأولى فانتخب سعدا خمسة وستون من الأعضاء ، وشذ خمسة عشر عضواً تفرقت أصواتهم بين خمسة من المرشحين فزعيم المعارضة هناله مكان في معسكر الحكومة نفسه لا تؤمن عقباة !

ولم تكن الجمعية مقسومة في مناصرة الحكومة أو معارضتها على حسب الآراء الحزبية المعروفة في المجالس النيابية ، وإنما كانت قسمين اثنين : أحدهما قسم أولئك النواب الذين يشايعون القوة حيث كانت وهم من الطراز القديم طراز الشروط المالية والمزايا المحلية ، والقسم الثاني - وهم القلة - من المتعلمين الذين دخلوا الجمعية بفكرة سياسية ، وفيهم أعضاء من الحزب الوطني وحزب الأمة وحزب الإصلاح ، وقد وضع منذ اللحظة الأولى أنهم جميعا حزب سعد في داخل الجمعية ، كما وضع من الجهة الأخرى أنه قد تبوأ مركز الزعامة القومية من يوم قيام تلك الهيئة النيابية . لأنه كان زعيما « للفكرة السياسية » حيث وجدت ، أو كان زعيما لكل من ناب عن الأمة وله رأى سياسى مستقل بآبائه فهذه المثابة نستطيع أن نصف الرجل الذى لا يؤيده أكثر من ثلث النواب بأنه كان مع هذا زعيما للأمة بأسرها ، لأنه كان ولا شك خليقا أن ينال تأييد الكثرة الغالبة لو لوحظت الفكرة السياسية في شروط الانتخاب ، ونستطيع أن نقول إن مستقبل الحركة الوطنية قد تقرر في ميدان الانتخاب ذلك العام ، على قلة ما توقعه الناس من خطره في تلك الأيام

الجمعية التشريعية

في خمسة أشهر

انعقدت الجمعية التشريعية من الثاني والعشرين في يناير سنة ١٩١٤ إلى
لسابع عشر في يونيو من السنة بعينها - أي زهاء خمسة أشهر
وقد نظرت خلالها في أعمال شتى انصرفت أول الأمر - ضرورة - إلى
تنظيم لجانها ومناقشاتها ، والتفاهم على قواعد المعاملة بين بعض الاعضاء
وبعض من جهة ، وبين الاعضاء والحكومة من جهة أخرى

ثم نظرت في قوانين مختلفة عن شركات التعاون الزراعية وردم
المستنقعات وقانون خمسة الافدنة وإصلاح الامتحانات وتعديل بعض
الاحكام القانونية وإنشاء مدرسة عالية للحاسبة والتجارية وغير ذلك من
الأعمال العادية ، وكان لسعد وحزبه رأى نافع في جميع هذه الأعمال ، أخذت
الحكومة ببعضه ، ورفضت ما رفضته وهي عاجزة عن تعليل رفضه

وتحقق من جميع المناقشات أن الرأي الراجح في جميع المسائل كان
رأى الطائفة المتعلمة لا رأى النواب الذين انتخبوا لمزاياهم المحلية وكفاءتهم
المالية . وحتى في مسائل الزرع والتجارة ومصالح الثروة التي يظن أنهم أبناء
بجديتها وأصحاب القول فيها ، والتي يتعلل بها واضعو الدساتير الضيقة للاكتثار
من القيود والشروط وإقامة السدود المعتسفة في وجوه المتعلمين والأذكياء .
وكل ما تحقق من فائدة هؤلاء الاعضاء أنهم كانوا مفيدين للوزارة في
تأييدها بالحق وبالباطل كلما احتاجت الى تأييد ، حتى حين تحتاج إلى هذا
التأييد في زيادة حقوقها ونقص حقوقهم وحقوق الجمعية ! فأما في مسائل
الإصلاح التي تعنيهم خاصة فقلما سمعت لهم فيها آراء مفيدة أو مقترحات

سديدة ، وإنما كانوا يتركونها للمتعلين ينتفضون فيها ويبرمون وينتظرون
هم ما يكون من رأى الحكومة فيتبعونه مغمضين

لهذا انحصر زمام المناقشات كلها فى يد سعد لأنه زعيم الطائفة المتعلمة ،
وهو فى الوقت نفسه مبجل مرعى المكانة بين الآخرين

ولسنا نقصدها أن نستقصى آراء سعد فى جميع المناقشات والمساجلات
التي دارت بينه وبين الأعضاء أو بينه وبين الحكومة فلا ضرورة
لهذا فيما نحن بصدده ، وإنما نجتزئ بالمهم من مواقفه ومناقشاته من الوجهة
السياسية أو البرلمانية ، وأهمها فيما نعتقد اصراره على عرض ميزانية الأوقاف
على الجمعية ، ومطالبته بحماية الشركات التعاونية من استبداد الحكومة ،
وتجريحه القاتل لقانون الخمسة الأفدنة الذى كان اللورد كيتشنر يعسزبه
ويحسبه من حسناته على الفلاح وجهوده الموفقة فى الإصلاح ، وأهم هذه
المواقف جميعاً من الوجهة البرلمانية موقفه فى مسألة الوكيلين ، لأنه
الموقف الذى حفظ للجمعية حقها فى وجه الحكومة ، وهى تملك الكثرة الغالبة
بغير نزاع .

استطاع فى مسألة ميزانية الأوقاف أن يحصل من رئيس الوزارة
« حسين رشدى باشا » على وعد صريح « بأن يكون السير فى نظرها مطابقة
للسير فى بحث ميزانية الحكومة » وهى رقابة طارئة كان الخديو عباس الثانى
يأبأها كل الآباء ، لاعتقاده أنه صاحب الحق المطلق فيما يرجع إلى الأوقاف
الأهلية والخيرية على السواء

أما شركات التعاون فكان سعد باشا يقترح أن يحال النظر فى حلها إلى
القضاء ولا يكتفى فيه برأى مجلس الوزراء . وحجته فى ذلك أن التحقيق
« الإدارى » خلو من الضمان اللازم لحماية هذه الشركات التي ترتبط بها
الاموال والمصالح العامة ، وأن تهديد الشركة بالحل لا يشجع أصحاب
الاموال على معاملتها بل يدعوهم إلى الحذر منها والشك فى دوامها . فلم ينجح

فيما أقترح لأنه لم يظفر بتأييد الكثرة من نواب « الفلاحين » . . . وانتهت المناقشة بإضافة قيد إلى الأمور السياسية التي تجيز حل الشركة ، فاشتراط فيها أن تكون أموراً سياسية « من شأنها الإخلال بالأمن العام »

أما قانون « خمسة الأفدنة » العزيز على اللورد كتشنر فقد جرحه سعد تجريحاً قاتلاً جعله من أبغض القوانين إلى الفلاحين الذين يسترضيهم به اللورد كتشنر ويظنه خدمة قيمة لصغارهم وحماية واقية لأرزاقهم . فقد أظهر سعد أن هذا القانون قد أضر بالفلاح الصغير بعد أن سلبه ثقة المقرضين . وإن المصلحة كل المصلحة فيه للمصارف الأجنبية دون الفلاحين المصريين سواء منهم الصغار والكبار . فالقانون يحرم الحجز على من يملك خمسة أفدنة أو مادونها ولكنه لا يحرم الحجز على الثروة الأرضية كلها إذا كانت فوق هذا المقدار . فنتيجة ذلك أن المصارف الأجنبية ضمنت ديونها كلها لأنها إنما تقرض كبار الفلاحين ولا تقرض الصغار الفقراء . أما هؤلاء الصغار الفقراء فالأغلب فيهم أنهم يستدينون من المصريين ولا يستدينون من أفراد الأجانب أو المصارف الأجنبية ، فإذا استوفى الدائن الأجنبي حقه فهو يحجز على كل ما يملكه الفلاح الكبير بغير استثناء ولا يترك له خمسة أفدنة ولا مادون ذلك ، وإذا استوفى الدائن المصري حقه حال القانون دون استنجاهه بتمامه ، وأصبح الدائن في حذر من أقراض من لا يكون نصاب السداد . فليس في القانون نفع للغنى الذي يؤدي كل ملهم عليه ، ولا للفقير الذي عجز من جرائه عن الاستدانة لتصريف شئونه

أما موقف سعد في مسألة الوكيلين فقد كان أول مواقفه وأهمها من الوجهة البرلمانية في الجمعية التشريعية ، لأنه الموقف الذي وزن قوة الحكومة بقوة المعارضة ، وحذر الحكومة من التهاون بالمعارضة ، وإن كانت لا تضمن في الجمعية إلا ثلث الأعضاء أو ما يزيد على الثلث بقليل

فالظاهر كما أسلفنا أن الذين وضعوا القانون النظامي لم ينتظروا من رجل

كسعد أن يرشح نفسه للنيابة في مجلس ضئيل كالجمعية التشريعية ، ولم ينتظروا — من ثم — أن يجيئهم فيها وكيلاً منتخباً يمثل ذلك التفوق الذي يقارب الاجتماع . فلما وقع ما لم ينتظروا اشفقوا أن يجلس مجلس الرئاسة عند غياب الرئيس المعين من الحكومة ولو جلسات قليلة . فاعزت الوزارة إلى أحد أنصارها أن يقترح — أثناء المناقشة في اللائحة الداخلية — البحث فيمن يتولى الرئاسة من الوكيلين إذا حضرا معاً عند غيبة الرئيس ، فأضيف ذلك الاقتراح إلى جدول الأعمال فجأة على غير الطريقة المتبعة في كتابة الجدول ، وقام رئيس الوزراء فقال : إن الحكومة تصرح بأن الرئاسة تكون حينئذ للوكيل المعين ، وتعتبر ذلك التصريح تفسيراً للقانون

فاعترض سعد على إثبات الاقتراح بتلك الصيغة ، وسحب صاحبه بعد أن صرحت الحكومة بما أراده من اقتراحه

وانتظر سعد حتى تم سحب الاقتراح ثم عقب على ذلك بقوله : « الآن وقد سحب الاقتراح أريد أن أعرف ما هي صفة كلام صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار ، أهو اقتراح أم ماذا ؟ وبعد أن أعرف هذه الصفة أحفظ انفسى الحق في الكلام »

ففى رئيس النظار أولاً عليه بالاقتراح قبل تقديمه ، ثم قال : « أما من جهة الوكيلين فكلما نصريح برأى الحكومة ، إذ من الضرورى وجود مادة في اللائحة الداخلية تبين من يكون له الرئاسة فى غياب الرئيس . وبصرف النظر عن الأشخاص فالمسألة مسألة تفسير للقانون ، وروح القانون تدل على أن الرئاسة لوكيل الحكومة كما كان يحصل من ثلاثين سنة إلى الآن فى مجلس الشورى . ولائحة مجلس شورى القوانين صريحة فى ذلك . فان لم تجبوا وضع مادة فى اللائحة بهذا الخصوص فليكن فى علم الجمعية أن الحكومة متمسكة بذلك . وستنفذه قانوناً »

فكان هذا البيان أو هذا الانذار فى الحقيقة صدمة صريحة للجمعية

لاموجب لها ، ولم يكن على الحكومة ضير من نحاشها ، ولكنها تدل على « شعور الاعتزاز » الذي كانت تجرى عليه الحكومة في مواجهة النواب ، وربما كان من المفيد في الدلالة على ذلك الشعور أن نذكر هنا أن عضواً من الأعضاء ناقش بعض الوزراء ، فعد الوزير اجترأه على مناقشته « وقاحة » وصاح بذلك في هيئة الجمعية . . . وهو لا يحسب أنه يخالف العرف أو يخرج عن حدوده ! لأن النيابة كانت من ضعف الشأن بالمنزلة التي تسول للوزير ذلك الترفع الشاخص وتلك اللهجة النابية

فلما أدلى رئيس النظار ببيانه السابق قال سعد : « لقد سألت صاحب العطوفة رئيس النظار عن الصفة التي قدم بها كلامه : أبصفة اقتراح أم بصفة أخرى ؟ ففهمنا الآن أنه ليس باقتراح لأن عطوفته قال ان كلامه تصريح من الحكومة . ونحن لا نعهد أن الحكومة تلزمنا بتصريح منها ، وإنما يلزمنا القانون لا تصريحاتها . وإنما تكون لتصریحات الحكومة قيمة عندنا إذا تنازلت بها عن حق من حقوقها كما حصل بشأن المادة السادسة عشرة من القانون النظامي ، ولكنها لا تملك أن تسلب بتصريحاتها حقاً من حقوق الجمعية قضى به القانون ، وإذا أرادت شيئاً من ذلك فيجب أن تتبع الطرق القانونية بشأنه فتعدل في القانون كما تشاء ، وليسمع لي صاحب العطوفة أن أقول عن هذا التصريح انه لا قيمة له هنا ، وان عطوفته يتناقض في كلامه ، فقد قال انه يفسر القانون ثم عاد وطلب أن نضع نصاً في اللائحة الداخلية . مع أن اللائحة ليس موضوعها تفسير القانون النظامي بل هي لتنظيم الأحكام التي وردت فيه مطلقاً . أما تفسير القانون النظامي فلا يرجع للحكومة وحدها بل لمحكمة منظمة بمقتضى القانون

» ويقول عطوفة الرئيس : إن كنتم لا تضعون هذا النص فالحكومة تنفذه . فبأي كيفية ياترى تجرى ؟ أبالقوة ؟ لقد أنكروها عطوفة الرئيس وقال لا نريد أن نلتجىء إلى القوة . إذن إلى أي شيء تريد أن تلتجىء ، يعطوفة

الرئيس ! نحن لا نسلم لك هذا الحق أبداً ولنا محكمة أعلى منا ومنكم تفصل في شأننا إن قام بيننا نزاع في تفسير القانون

على أن المسألة ليست مسألة تفسير . فقد ترك هذا الحق للهيئات النيابية فمجلس الشورى قال أن الرئاسة للوكيل المعين ، والجمعية العمومية قالت ان هذا الحق لأقدم الوكيلين ولم تعترض الحكومة على ذلك مع أنها كانت جزءاً متمماً للجمعية العمومية ، بل اشتركت في المداولات وقبلت أن يكون الوكيل المنتخب رئيساً للجلسة إذا كان أقدم الوكيلين . ولكنها تأتي لنا اليوم بتفسير جديد فيجب على الجمعية أن تقول اني أتهم اختياري ولا أثق به مطلقاً بل أثق بمن تعينه الحكومة ، وهذا ما تريد الحكومة منكم »

ثم قال : « وأرى أنه لا محل مطلقاً لأن ننظر في هذه المسألة الآن لأنها كما بينت لكم ليس لها فائدة عملية ، أما فيما يختص بسؤال الشيخ الدمرداش عن يرأس الجلسة في غياب الرئيس فأقول اني اقبل - شخصياً - أن يرأسها سعادة عدلي يكن باشا ، وهذا من شخصي لشخص عدلي باشا لا بصفة حق من حقوق الحكومة . بل هو علامة على الاتفاق بيني وبين زميلي وراحة لفضرة الشيخ الدمرداش ولضمير الحكومة »

انتهت المناقشة على هذا الحل في موضوع الوكيلين بجلسة ذلك اليوم « ٢٤ فبراير سنة ١٩١٤ » . وقال ناظر الحقانية : « يظهر ان الافكار الآن غير متجهة الى النظر في هذه المسئلة إلى ان تأتي مناسبة للبحث فيها عند غياب الرئيس ، حيث يضطر في هذه الحالة الى تفسير المادة ، ومادام الامر كذلك داعي للكلام في هذا الموضوع الآن »

ثم تقرر العمل باللائحة الداخلية من ذلك اليوم ولكن الحكومة كانت على ما ظهر بعد ذلك مدفوعة إلى تقرير نص يقضي بإبعاد سعد من كرسي الرئاسة ، وكان اللورد كيتشنر هو الموعز بذلك من غير شك ، لأن العضو صاحب الاقتراح الأول - وهو ابراهيم راجي بك

كان من ضباط الجيش المحالين إلى المعاش الذين اشتهروا بالتشيع للانجليز والورد كتشنر خاصة ، لأنه ترقى في عهد قيادته للجيش المصرى ، وهو الذى قال فى الجمعية معترفا بقوة الاحتلال : « إذا كانت الحكومة من حديد فالاحتلال من فولاذ ! » وكان تعيينه فى الجمعية بوصاية من الوكالة البريطانية ، وكذلك كان الشيخ الدمرداش زميله فى المناقشة مشهوراً بالزعة الانجليزية ، والتردد على الوكالة البريطانية حتى كان يحسب نفسه رجلاً من رجالها ، ويتقدم معهم لاستقبال المدعويين اليها !

ويؤكد لنا ان الايعاز انما صدر من جانب اللورد كتشنر ان الوزارة قنعت فى الجلسة بما انتهت إليه المناقشة كما رأها القراء ، بل قنعت به فى اللجنة التى تألفت لوضع اللائحة الداخلية قبل عرضها ، ولكنها عادت الى المسألة بعد الجلسة بثلاثة أسابيع ، فدفعت بعض أنصارها الى تقديم اقتراح موقع عليه من كثرة الجمعية ، يرمون به إلى تسجيل النصر المطلوب

لجأت الوزارة الى توقيع الاقتراح من كثرة الجمعية لتبطل فيه كل مناقشة فيما وهمت ، وكأنها كانت مضطرة أشد الاضطرار الى اثبات سيطرتها على الجمعية ، أو نفي تهمة العجز عنها ، وكأنها تشعر بأن بقاءها معالق على ما يكون من نتيجة الصراع بينها وبين المعارضة فى مسألة الوكيلين ، ولا شك أنها عرفت اهتمام اللورد كتشنر بنتيجة هذا الصراع لأنه لم يكن يخفيه فى أحاديثه مع الذين كانوا يلقونه فى تلك الفترة ، حتى بلغ من ذلك انه قال لعدلى يكن باشا : « إننا لانراك تتقدم لمعونة الوزارة فى الحملات التى يشنها سعد باشا عليها . . . فقال له عدلى باشا : « إننى لم أعود ان أكون تبعاً للوزارة . »

وكيفما كان الأمر فقد تصرفت الوزارة فى المسألة تصرف من يريد النجاح فى امتحان خطير ولو بنقل الأجوبة كما يقولون بلغة المدارس ! فعولت على أن تقهر المعارضة فى مسألة الوكيلين قهراً يصح أن يسمى مادياً أو آلياً لأنه لا يدع مجالاً للمناقشة والاقناع بالرأى من الجانبين ، فتقدم بالاقتراح

ثمانية وثلاثون . وهم عدد كاف لتأييده ، واغتنموا أول فرصة لاثارة الضوضاء على المعارضين ، ثم أسرعوا الى اقفال باب المناقشة ، ثم الاقتراح على الاستعجال في نظر الاقتراح ، وسلكوا من بداية الأمر مسلك من يمضي الى غاية مرسومة ، فلا يكلف نفسه بياناً ولا يصغى الى بيان

أحس سعد بالمناورة من اللحظة الاولى ، فتوسل بالوسائل القانونية للاعتراض على شكل الاقتراح ، وقال أولاً إن ادراجه في الجدول على الصفة التي هو بها غير مقبول شكلاً « لأنه مذكور به اقتراح من ٣٨ عضواً من غير ذكر الاسماء » فهذا ليس باقتراح .

فما شرع في كلامه حتى بدأت المقاطعة المنظمة ...

وصاح صائح من الأعضاء : إن الاسماء موجودة ، وقال منصور يوسف باشا — وهو من أعضاء الاسكندرية المعروفين بالاتصال الوثيق بمحمد سعيد باشا رئيس الوزارة الى ذلك الحين : « أنا وسعادة خالد لطفي باشا حضرنا وقدمنا الاقتراح لسعادة الرئيس »

فطلب سعد حفظ النظام وقال : « ليست المسألة بالضوضاء تؤخذ ولكن بالقانون ، وحكم القانون هو النافذ لا حكم الضوضاء »

« أقول ان ادراج الاقتراح في جدول الأعمال باطل شكلاً لأنه أدرج بغير ذكر اسماء مقدميه . فنحن لا نعرف الى الآن قانوناً من هم أولئك الأعضاء الذين قدموه ، والقانون يقضى والمبادئ تقضى كذلك بأن الاقتراح يدرج في الجدول بأسماء مقدميه . فان سلمنا جدلاً بأن الاقتراح ليس مرفوضاً شكلاً ، وانه مقبول ، فلا نسلم مطلقاً بتقديم هذا الاقتراح على مشروع اعادة النظر الذي بدأت المناقشة فيه ، ولو سلمنا جدلاً - أيضاً - أن يقدم الاقتراح في جدول الأعمال فلا نسلم مطلقاً بأن يكون نظره مستعجلاً »

ثم ناشد الأعضاء قائلاً : « لماذا يخشى إخواننا التأخير إن كانوا على حق .

فما قدموا ؟ الحق حق اليوم وغداً وبعد غد ، وهم إن كانوا ثابتين في أنفسهم غير متزلزلة قلوبهم لا يخشون شيئاً فلماذا يطلبون الاستعجال في نظر هذا الموضوع ويظهرون بمظهر لا يرضى كل محب لهم وكل محب لبلاده ؟ »

ثم تجدد اللغط وتكلم بعض الأعضاء ، وطلب الحكوميون افعال باب المناقشة ، وقال سعد « إن سعادة الرئيس له الحق — إذا رأى أن المناقشة وقيت — أن يعرض ذلك على الهيئة ، ولثلاثة من الأعضاء أن يعارضوا في استيفاء المناقشة ، وأنا أحدهم »

غير أن المناقشة أقفلت بعد أن تكلم بعض الأعضاء كلاماً لا يغنى في الموضوع . ثم عرض على الهيئة أخذ رأى في الاستعجال ، وكان لابد من الموافقة عليه بهذا الأسلوب ، وبهذا تفتح في الجمعية سنة مشئومة تبطل الغرض من اجتماعها وتغرى الحكومة باهمال وجودها ، والاكتفاء بتدبير أمثال هذه المناورات كلما رغبت في أمر تصر على تنفيذه

وهذا سلاح لامناص للمعارضة من كسره أو تنبيه الحكومة إلى خطر استخدامه ، أو تنبيهها على الأقل إلى إمكان مقاومته وأنه لا يصلح للمنازلة في كل حال ولا يمنع المعارضة أن تفله وتكف من غربه في بعض الأحوال ، وإلا أصبحت الحكومة هي الجمعية ، وأصبحت الجمعية هي الحكومة ، بلا اكتراث لما يقال

وسرعان ما ألقى سعد نظرة على الأعضاء الحاضرين فرأى أن عددهم لا يكفي لالتزام الجمعية قانوناً إذا انسحب المعارضون ، فلم يتردد في اغتنام هذه الفرصة لحماية الجمعية من خطر التمدد في تلك المناورات ، ولأكره الحكومة على التزام سبيل المناقشة والاقناع في تأييد المقترحات والمطالب ، بدلا من أن تعمل على السكينة التي لا فضل لها فيها ، وتستقيم إلى ذلك الأسلوب المادى أو الآلى . وتسترسل فيه ولا ريب اذا جربت نجاحه بغير كلفة ولا حرج

فانسحب سعد وانسحب معه المعارضون وعدتهم ثمانية وعشرون ،
وقوَّجت الوزارة بهذه الحركة لأنها كانت تظن الخطوة التي اعتمدت عليها
حين لجأت إلى تعبئة الكثرة على تلك الصورة خطة لا تقاوم . فلم تدر
ما تصنع ، وحاولت أن تتم العدد بالتوسل إلى هذا والتشبث بذلك فلم يجد
ذلك نفعا . وبطل إنعقاد الهيئة في ذلك اليوم فأرجئت إلى الغد ... وكان هذا
الأرجاء أشبه بنهاية الدورة بين متصارعين دخل أحدهما إلى الحلقة بكل
ما عنده من عدد الصراع وحيله ، ولكنه أدرك في اللحظة الأخيرة أنه نسي
حيلة واحدة يعتصم بها خصمه فتحو كل ما عنده من عدة وحيلة ، وأنه عول
فوق ما ينبغي على أساليب القوة البدنية . وفاته أن في المصارعة أسلوبا
لا تجدى فيه القوة مع رشاقة الحركة !

أحسن المعارضون من الوجهة النظامية ومن الوجهة القومية بانسحابهم
في ذلك اليوم .

لأن الجمعية لم يكن لها متسع من السلطات غير حرية المناقشة وإعلان الحجة ،
فاذا حيل بينها وبين ذلك بتعبئة الكثرة في الاقتراح ، ثم تعبئتها في المقاطعة
ثم تعبئتها في إقفال باب المناقشة ، ثم تعبئتها في جمع الأصوات ، فقد أصبح نظام
الهيئة لغوا لا يتكفل بشئ . غير الإذعان الأعمى لإرادة الحكومة وما يمكن
وراء الحكومة من سيطرة الاحتلال ، وأصبح قانون الهيئة خلوا من معنى
القانون ، لأنه قوة مادية لا تقول سبياً ولا تصغي إلى سبب مقول .

وأحسن المعارضون من الوجهة القومية لأن المعارضة كانت هي المنفذ
الوحيد الذي نفذت منه إرادة الأمة إلى هذه الهيئة النيابية ، بعد أن تخطت
إليها السدود الكثيرة من شروط الترشيح والانتخاب . فكل ما يثبت
وجود المعارضة ويصون حقها هو في الواقع إثبات لوجود الأمة وصيانة
لحقها جهود ما تستطيع .

ثم عاد المعارضون في الجلسة التالية لأنهم قصدوا القاء ذلك الدرس ولم يقصدوا تعطيل الجمعية أو منع القرار الذي تقدم به الاقتراح ، وقال سعد في مستهل الجلسة بعد أن تكلم بعض الأعضاء : « أردنا أن توضع في الاقتراح جميع المسائل التي دارت المناقشة فيها فحصل إباء ذلك علينا فرأينا أن هذه طريقة غير قانونية وانسحبنا ، ولنا الحق في ذلك .

» نحن نحترم الأغلبية وقراراتها ولا نقول في ذلك شيئاً . بل هذا هو أساس الهيئات النيابية ، ونحن لا قوة لنا إلا بالحق وباحترام القانون

» ولكن كل أمر يخل بحرية آرائنا وكل أمر يكون مخالفاً للقانون في كيفية أخذ الآراء لا نقبله مهما كان مصدره عالياً ومهما كان الأمر فيه .

» نحن انسحبنا لمخالفة القانون . أما الآن فانا نخضع للقانون في أخذ الآراء على حسب الترتيب الطبيعي الذي طلبناه . وهو الذي أشار إليه سعادة الرئيس ، ولذلك لاجل اليوم للمناقشة في شيء انتهت المناقشة فيه بالأمس » وعلى هذا سارت الجمعية في أعمالها على نظام مقبول وحدود مرعية بين الطرفين ، بقية الأيام المقدورة لها في عالم البقاء .

ولم يعسر على سعد — مع هذا الانقسام الحاسم بين الحكوميين والمعارضين — أن يجمع الكثرة حوله في مسائل شتى تناولتها الجمعية بالبحث واشتد عليها الخلاف بين الأعضاء ، لأنه كان يعارض بالحجة ويوافق بالحجة ، فلا يحجم عن تأييد الحكومة في مواد القوانين التي تعرضها إذا بدا له وجه الحق في تأييدها ، ولو جاء الاعتراض عليها من أقرب أنصاره ، ولا يحجم عن نقد الرأي ولو كان أصحابه من أعضاء المعارضة ، فتعود النواب أن يتخذوا من قوله في مواطن الخلاف قسطاساً للسداد والتنزه عن الهوى ، وآل إليه الفصل في المواقف المعضلة الملتبسة ، فاجتمع له من الوجهة الرسمية نفوذ أدنى لا يقل عن نفوذه من الوجهة القومية .

ومن الطرائف المستمالة أن توردها ما كانوا يتحدثون به في الجمعية يومئذ عن زعامة سعد وما كان سعد يرد به على تلك الأحاديث قبل خمس سنوات من ولايته الزعامة القومية باجماع النواب والأمة . فقد قال بعض الأعضاء المشايخين للوزارة أثناء البحث في شركات التعاون : « إنما يريد واحد منا أن يتولى زعامة مجموع . . . » واستطرد إلى كلام ينم على غرضه . فكان جواب سعد عليه : « يا حضرة العضو المحترم . إنها فكرة يسهل على اللسان - مع الأسف ترديدها - وقد تطوف ببعض الأذهان ، ولكنني أقرر لك أنها فكرة غير صحيحة وإني بعيد كل البعد عنها ، وها أنا موجود معك ومع غيرك في هذه الجمعية منذ زمن طويل ، فقل لي متى رجوتك مرة أن تنضم إلي رأى ، ومتى حاولت التأثير عليك لأجعلك تحت زعامتي ؟ إنك إن شئت أن تعرف حقيقة فاعلم أنني رجل قد وضعت تحت تصرف أمتي عقلي و ~~أفهامي~~ وبياني ، فإن استفادت الأمة من عملي فذاك ما يجعلني سعيداً . وإلا فهو واجب قد أخذته على نفسي فأنا أقوم به لأريح ضميري . أما الذي يسرني ويشرفني فهو أن أكون خادماً لكم لا زعيماً »

وكان هذا الأسلوب أسلوبه في الرد على من يسيئون إليه أو يعضون منه أو يعارضونه في رأيه ، لا يتجاوز الرد الذي يقوله العالم في مباحثة علمية بمعزل عن البواعث الشخصية ، ولا يزيد على الجواب المفيد في أناة تسكبح جماح العادي وتكسر حدة الغاضب وتثني عزيمة المسيء ، وتعود بالمناقشة إلى الجدل الذي لا فضول فيه

قال مرة في جلسة حمى فيها وطيس الجدل حول مسألة الوكيلين : « لست شتاً . بل أقر وأعترف أمامكم بأنني عاجز أمام كل شتيمة . ليس لي مطلقاً قوة في هذا الميدان تدفعني لأن أنازل فيه أضعف إنسان »

قال هذا لأنه كان يخاطب الأعضاء الثمانية والثلاثين أصحاب الاقتراح الذي أشرنا إليه فجاءت في خطبته كلمة الشهوة إذ يقول : « خافوا على سمعة

الجمعية أكثر من الشهوة التي تدفعكم إلى هذه المسألة » . . . فلم يفهم أحد الأعضاء معنى الكلمة وظنها تشير إلى معنى لا يليق بالشيوخ الشيب . فوقف وهو يمسك بشعره ويقول في حدة وغضب : « نحن أناس شباب رؤوسنا ١ » فأجابه سعد بما تقدم على سبيل الاعتذار بعد أن قال : « زملائي ، إنى لم أرد أن أجرح خواطركم ، وكلمة شهوة إذا كانت لم تنجبكم فرادى بها رغبتكم ، والشهوة هي الرغبة الشديدة ، فلا تحتدوا لأن المسائل لا تحل بالحدة بل بالتعقل والحكمة . أمامكم زمن طويل جداً للحدة والشدة إن رأيتم من صالحكم ومن الصالح العام استعمالها . ولكن أرجو أن لا تقولوا كلمتي بغير المراد منها »

فهو يريد من الجمعية أن تدخر « الحدة والشدة » لغرض آخر في زمن طويل جداً ينتظرها ولا تضعيها في مناقشات ومحاوراتها . . . وما أشبه هذا بالنبوءات التي تلهج الغيب من وراء حجاب ١

وكان يتكلم في أثناء عرض قانون التعاون ، فقاطعه رئيس الوزراء ، فجلس وهو يقول : « إذا كنتم تستمرون هكذا على مقاطعتي فاني لا أتكلم ، وها أنا أجلس حتى يستتب النظام » وكان يقول دائماً إن المقاطعة متعبة المتكلم والسامع . فلما جلس وثب الشيخ عبد الرحيم الدمرداش — وهو مشهور بخفته ودعابته — يصيح : « أريد أن أسأل سؤالاً » . . . فقال سعد : « أنا لم أنته من كلامي . وقد جلست حتى انتهى من مقاطعة صاحب العطوفة رئيس الوزراء ، فهل تريد حضرتك أن تزيد عليها مقاطعة أخرى ؟ »

فأجابه الشيخ بدعابته المعهودة : « إذا جلست سعادتك تقول لا تتكلموا وإذا وقفت تقول لا تتكلموا . فلا تدري متى تتكلم ؟ »

فقال سعد : لا لزوم لمثل هذا يا أستاذ ! وعاد الأستاذ يقول : أنا ما كنت أقصد المقاطعة ، ومع كل ما أجد « متعبنا » غير سعادتك ؟ »

فاقتصر سعد في جوابه على قوله : « إن كنت حقيقة تعتقد ما تقول فهذا

خيال قائم في ذهنك يا أستاذ . لأنى آخر من يتبعكم ، بل أنا موجه كل عنايتى ومجهوداتى إلى سبيل جلب الراحة اليكم . . . ثم عاد إلى الموضوع وبهذا الأسلوب من الجد « العلى » كان يرد على ملاحظات أصدقائه كما يرد على من يقاطعونه من مخالفيه .

أتى على عبد العزيز فهمى « بك » مرة فوقف عبد العزيز بك يقول : « لى الحق أن أطلب منع سعادة سعد باشا عن هذا الكلام لأنه يمس الشخصيات » فلم يزد سعد باشا على أن قال وهو ماض فى كلامه : « المنع يكون عند الطعن الشخصى لا عند المدح . وليس الأمر توزيع مزايا بل يجب علينا أن نكلف بالعمل من هو أكثر أهلية له ، ويجب أن نعطى لمن نكلفه بهذا العمل حق التصرف . . . »

وقد التزم سعد هذا الأسلوب الذى سميناه بأسلوب « الجد العلى » فى جميع مناقشاته بالجمعية التشريعية فلم يخرج عنه قط ولم يسترسل مرة مع فكاهته التى جبل عليها وتعودناها منه فى كثير من أحاديثه وخطبه ومساجلاته بعد قيامه بالزعامة القومية ، وإنك لتبحث عبثاً عن تلك الفكاهات التى لا تنقطع فى مناسباتها فلا تعثر بواحدة منها ، وإن كان قد مر به من المواقف كما رأينا ما يغير به بها ويدعوه إليها . . . لم ؟ إن الفكاهة لم تفارقه بطبيعة الحال فى أيام الجمعية التشريعية ، وليست الطبائع الأصيلة بالتى تتغير بين آونة وأخرى . فاذا كان قد أثر أن يلتزم « الجد العلى » فى مناقشات الجمعية ولم يؤثر ذلك فى خطب الزعامة ومساجلاتها فتلك بداهة من بداهات الزعامة التى تستلهم المواقف ما ينبغى لها من أسلوب فى كل معرض وفى كل لحظة . . . ففى الجمعية كان سعد « يوطد » للمعارضة هيئة مرعية وهى قلة لا تملك نفوذ الحكومة ولا نفوذ القوة الفعلية ، فليس ألزم لها من الجد وليس أخطر عليها من انطلاق الفكاهة ورفع الكلفة ومقابلة المثل بالمثل بين أناس مستعدين للاجترار على المعارضة والاستخفاف بها . أما الزعيم الذى تؤيده الأمة بأسرها فلا حاجة به

إلى شيء من ذلك ولا خطر عليه من إرسال النفس على السجية ، بل لعله يبلغ بسلاح الفكاهة ما لم يبلغه « بالجد العلى » الذى كان أحكم الأساليب وألزمها فى أيام الجمعية الأولى



بهذه الدراية الفطرية وهذه اليقظة الفكرية ، وهذه البداهة الحاضرة . استقامت المعارضة الصغيرة قوتها الكبيرة ، وأصبحت عاملا من عوامل السياسة المصرية كأنها كثرة غالبية فى برلمان معترف أنه يحق الرقابة . فاستطاعت فى مدى شهرين من افتتاح الجمعية التشريعية أن تعجل بسقوط الوزارة السعيدية . إذ استقال محمد سعيد باشا ولم يشأ كتشنر أن يحميه لأنه فى نظره « كان أداة تفرقة فى داخل الوزارة لعكوفه على الدسائس الملتوية ، وكان قليل الكياسة فى مسلكه مع الجمعية . . » كما قال اللورد جورج لويدي فى كتابه عن مصر فى عهد كرومر

وبلغ من عناية كتشنر بأرضاء سعد ومبالاته باتقاء حملاته أنه أشار على الخديو باستدعاء مصطفى فهمى باشا لتأليف الوزارة على الرغم من شيخوخته واعتلال صحته ، لأنه حمو سعد باشا . وفى قيامه على رأس الوزارة إخراج لسعد باشا أو إسكات له سواء دخل الوزارة أو بقى فى الجمعية التشريعية . ويقال إن الوزارة عرضت على سعد فى أيامها فرفضها ، كما يقال إن اسمه جرى أمام الخديو فى أثناء المفاوضة على ترشيح الوزراء فقال : « لا . دعوه فى الجمعية فهو هناك قوة لا تعوض »

ولما اعتذر مصطفى فهمى باشا من تأليف الوزارة لأنه لم يقبل من رشحهم اللورد كتشنر من أصدقائه لسوء ظنه بنزاهتهم وعزوف نفسه عن مزاملتهم ، لوحظت صداقة الجمعية التشريعية أو صداقة سعد فى اختيار الرئيس الجديد . فتألفت الوزارة برئاسة حسين رشدى باشا صديق المعارضين ، وكان أول ما جهر به من سياسته أنه قال بعد أن أقسم اليمين : « إن خير ما نفتتح به أعمالنا

أيها السادة أن نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا وإياكم لخدمة الوطن العزيز ،
وإننا لعاقدون النية على العمل معكم على خطة الصراحة والتفاهم والوئام ، في
أداء تلك المهمة التي ندبتنا إليها ثقة مولانا الخديو المعظم «
أى على خطة غير خطة الوزارة المستقيلة ا

انفضت جلسات الجمعية في السابع عشر من يونيو سنة ١٩١٤ على أن تعود
إلى الانعقاد في أول نوفمبر بحسب القانون النظامى . ولكننا لم تنعقد في ذلك
الموعد ولا في موعد بعده ، لنشوب الحرب العظمى أثناء الصيف ، وظلت
تؤجل من تاريخ الى تاريخ حتى صدر الأمر بتأجيل انعقادها إلى أجل غير
مسمى ، ثم حل محلها الدستور الجديد فلم يكتب لها من العمر أكثر من تلك
الأسهر الخمسة .

وجملة ما يقال من رأى فيها أنها حققت ما ينتظر منها في حدودها ، وان
الفترة الوجيزة التي قضتها تصالح للدقارنة بينها وبين فترات مثالم فى سجلات المجالس
النابية المعروفة . فانها خلال خمسة أشهر لا أكثر نظرت فى تأسيس نظامها
وإدارة جلساتها ، ونظرت فى الميزانية العامة ، ونظرت فى القوانين المختلفة التى
عرضتها عليها الحكومة وبسطت فيها من النقد والتعقيب ما هو جدير بالاصغاء
أو جدير بالاجابة ، وليس هذا بقليل على تلك الفترة الوجيزة ، إذا صرفنا
النظر صرفاً باتاً عن المسكاة التى أثبتتها لنفسها فى عالم السياسة المصرية ، بمحض
قوتها لا بقوة النصوص ولا بقوة التقاليد

أما اللورد كتشنر منشىء الجمعية فقد كان رأيه فيها هو الرأى اللائق
بها المسوغ لوجودها . لأن المستبد الذى ينشئ مجلساً نيائياً ثم يرضى عنه كل
الرضى يشهد لذلك المجلس أسوأ الشهادة ، ويدل على أن وجوده وعدمه فى
الرقابة على الحكومة سواء . ورأى اللورد كتشنر فى الجمعية لم يعد أن يكون
مثلاً صادقاً لأراء جميع المستبدين ولا سيما العسكريين . فان من خصائص

المستبدين العسكريين أن يحاسبوا الناس بما لا يحاسبون به أنفسهم ، وأن يعيوا الشيء الواحد في أعمال غيرهم ولا يعيبنونه في أعمالهم . فاذا كان للورد كتشنر هوى نفس في مسألة الوكيلين فمن الجائز له أن يعطل أعمال الجمعية وأن يعيدها إلى موضوع تركته وطوته واستغنت عن الاطالة فيه ! ولاضير أن يحرك اللورد كتشنر وزارة محمد سعيد باشا وكثرة النواب لتحقيق هواه وارضاء نزواته . هذا كله جائز لا غبار عليه ... أما إذا خطب النواب في مسألة الوكيلين أو في غيرها فعندئذ تكون الخطب والمجادلات ثروة محامين وتكون الجمعية حقيقة بالتهديد والالغاء ! ويشعر اللورد كتشنر بخيبة الرجاء ونكران الجميل .

على أن اللورد كتشنر قد عدل قبل سفره عن التفكير في حل الجمعية أو الغاء قانونها كما كان يتوعد ويحجر بوعيده لمن لقيهم في أيام الخلاف على وكالة سعد باشا ، لأنه سافر إلى لندن وهو مشغول بما هو أهم وأخطر : وهو التفكير في خلع الخديو عباس الثاني ؛ واعله من أجل هذا كان حريصا على محاسنة الجمعية ومحاسنة سعد في أيامه الأخيرة ، لكي لا يقدم على انتزاع حقوق الامارة ، وحقوق الشعب في وقت واحد .

قبيل الحرب العظمى

سافر كتشنر في تلك السنة على عزيمة السعي الحثيث عند حكومته لاقتناعها بخلع الخديو . وعلّة هذه النقمة هي في الحقيقة بقايا تلك الحفيظة القديمة التي تركت الرجلين عدوين لا يتصافان بعد أزمة الحدود . أما العلة الأخيرة ، أو العلة التي كان يتذرع بها لاقتناع حكومته فهي سكة حديد مريوط وما كان يشاع يومئذ من المفاوضات بين الخديو وإحدى الشركات الإيطالية لشراءها ومدّها إلى الحدود الغربية .

وقد سمع الخديو من مصادر شتى أن صنيعته ورئيس وزرائه محمد سعيد باشا يمشى بالوشاية بينه وبين كتشنر في هذه المسألة . فحنق عليه أشد الحنق ، وتناسى في سبيل إحراجه ما كان بينه وبين سعد من جفوة أو فتور . وأرسل إليه من يسفر بينهما في المصالحاة ، ويبلغه ثناءه على موقفه من الوزارة السعيدية في الجمعية التشريعية ، وعادت العلاقات بينهما إلى شيء من الاتصال .

وكأنما شعر الخديو بما اعتزمه كتشنر في سفرته تلك السنة فاستحسن أن يجعل رحلته الصيفيّة إلى الاستانة لا إلى أوروبا ، لأنه قدر أن تسعى الحكومة البريطانية عند « الباب العالي » في مسألة خلعه إذا اقتنعت برأى مندوبيها ، فأحب أن يكون على مقربة من الباب العالي ليستطلع الخبر ويحسن العلاقة بينه وبين رجال الحكومة التركية ، ويبدل ما في وسعه لاجباط سعى الانجليز ، وهو لا يجمل أنهم لا قون من الصدر الأعظم سعيد حليم أذنا صاغية في تلك الآونة ، لأنه كان يطمع في الخديوية .

وأحب قبل سفره من مصر أن يقيم الدليل على ولاء الشعب له والتفاف السراة ورؤساء العشائر حوله ، فطاف الأقاليم البحرية وزار حواضرها وقراها ، واغبط بما رآه من مظاهرات الشعب والموظفين ومن تسابق

الوجهاء والسواد إلى استقباله وإقامة الزينات في طريقه ، وكان عظيم الرغبة في نفي كل ما قيل عن الجفاء بينه وبين وكيل الجمعية التشريعية والبارزين من أعضائها ، فأرسل إلى سعد أنه يود لو يراه في بلدته أيبانه ، ثم لم ينس بعد وصوله إلى الاستانة أن يغتنم الفرصة الأولى للكتابة إليه بما يجدد الصلة ويكشف عن بعض النيات المقبلة ، فكتب إليه من برقية يعزیه بها في حمیه المرحوم مصطفى فهمی باشا أنه يرجو له طول البقاء : « لىخدم أميره وبلاده زمناً آخر طويلاً »

ونشبت الحرب العظمى وسعد في « فيشى » ينتجع المياه المعدنية التي تعود أن يقصد إليها في معظم الأعوام ، فركب منها سيارة سريعة إلى مارسيليا لازدحام السكك الحديدية بالجنود والمسافرين ، وأدرك بشق النفس مكاناً له ولأسرته في الباخرة لوتس التي كانت تهم بالاقلاع إلى الاسكندرية . فوصل إليها قبل إعلان الأحكام العسكرية بنحو شهرين

لم يسهل على السلطات الانجليزية عند اعلان أحكامها العسكرية أن تبت فيما تعامل به سعدا أثناء الحرب العظمى : أعتبره صديقاً ! إنه ليس بصديق وبينه وبين عميد الاحتلال وصاحب الكلمة النافذة في وزارة الحرية البريطانية إذ ذاك ما بينهما من صراع عنيف .

أم تعتبره عدواً تسمح مقتضيات الحرب باعتقاله والحجر على مقامه وانتقاله ؟ ذلك أدنى إلى هوى الانجليز في دار الوكالة البريطانية ، وإلى هوى كتشنر في وزارة الحرية . ولكن هل من المصلحة السياسية أن يسجل الانجليز على أنفسهم أن الاجراء الذي اتخذوه في مصر يضطرمهم إلى اعتقال رجل كسعد زغلول ؟ أو إلى اعتقال وكيل الهيئة النيابية وخلع الأمير في وقت واحد ؟ وهل من المصلحة السياسية أن يقطعوا بعداوة رجل مثله ولا يدعوا له إلا خطة واحدة بأزائمهم وهي خطة العداء الصريح ؟ وهل من المصلحة أن يغضبوا السلطان الجديد وهم يعلمون أنه لا يجد المعونة

بين المصريين إن لم يجدها في الكبراء الذين كان بينهم وبين الخديو محاذرة أو جفاء

وبعد قليل من التردد آثرت السلطات الانجليزية أن تفتح بينها وبينه باب المسالمة والحيدة ، وأن تراقبه على البعد لتقيد عليه حركاته وسكناته وتنتظر ما يكون ، فلا هو بصديق ولا عدو . ولكنه رجل يحسن انتظار صداقته ، ولا يحسن دفعه إلى العدا

في تلك السنة سافر من مصر الرجال الثلاثة الذين تقوم عليهم دعائم السياسة المصرية ، وكل منهم يفكر في المستقبل القريب كما يريد لمقاصده ويرسمه لنفسه : سافر كتشنر عميد الاحتلال وهو يفكر في خلع أمير البلاد ليستأثر وحده بالحكم في أرض الفراعنة ، وسافر أمير البلاد وهو يفكر في توطيد عرشه واتقاء حبائل عدوه ، وسافر سعد زغلول الوكيل المنتخب وهو يفكر فيما يعمل بعد عودته إلى الجمعية التشريعية ، ولو ارتفع حجاب الغيب خطوة واحدة لعلم كل منهم أن القدر سيغنيه عن التفكير فيما كان يفكر فيه ، فلا كتشنر عاد إلى مصر ، ولا الأمير عاد إلى عرشه ، ولا الجمعية التشريعية عادت إلى الانعقاد .

صدق المعرى : وتقدرتون فتضحك الأقدار !

الحرب العظمى

نشبت الحرب العظمى فى الرابع عشر من شهر يوليو ، ولم تدخلها بريطانيا العظمى إلا بعد ثلاثة أسابيع فى الرابع من أغسطس ، وظلت تتردد فى إعلان نياتها بمصر إلى أن أعلنت الأحكام العرفية بها فى ثانى نوفمبر ، ثم أعلنت قطع علاقاتها بالدولة العثمانية ، وأرسلت دار الوكالة البريطانية إلى حسين رشدى باشا القائم مقام الخديو تبليغه « إن السلاطة فيما يتعلق بالوسائل الحرية اللازمة للدفاع عن القطر المصرى وبالتدابير التى يستدعيها هذا الدفاع أصبحت منحصرة فى يد القائد العام وإن حضرات النظار لا يزال كل واحد منهم حافطاً للسلطة التى له فى الأمور الملكية الخاصة بنظارته »

وظل الوزراء بمعزل عما تنويه الدولة البريطانية وعما تعمله بعد إعلان الأحكام العرفية ، وإنما خوطبوا فى مسألة الحماية لما كان فى نية الانجليز من خلع الخديو عباس بعد إعلانها وإقامة عمه حسين كامل سلطاناً فى مكانه . ولا يستطاع اتمام ذلك والتمهيد له بغير اطلاع الوزارة

وفى الثامن عشر من ديسمبر أعلنت الحماية البريطانية ، ثم أعلن فى غده قيام السلطان حسين كامل على العرش ، وخاطبته وزارة الخارجية البريطانية — على يد مستر شيتهم — ببلاغ قالت فيه : —

« لما كان قد سبق للحكومة جلالته أنها أعلنت بلسان قائد جيوش جلالته فى بلاد مصر ، أنها أخذت على عاتقها وعهدا مسؤولية الدفاع عن القطر المصرى فى الحرب الحاضرة ، فقد أصبح من الضرورى الآن وضع شكل للحكومة التى ستحكم البلاد بعد تحريرها كما ذكر من حقوق السيادة وجميع الحقوق الأخرى التى كانت تدعيها الحكومة العثمانية . لحكومة جلالته الملك تعتبر وديعة تحت يدها لسكان القطر المصرى جميع الحقوق التى استعملتها فى البلاد مدة سنى الإصلاح الثلاثين الماضية »

ثم قالت بلسان مستر شيتهم : « وإني مكلف بأن أؤكد لسموكم صراحة عند عرضي على سموكم قبول عبء هذا المنصب أن بريطانيا العظمى أخذت على عاتقها وحدها كل المسؤولية في دفع أي تعد على الأراضي التي تحت حكم سموكم مهما كان مصدره . . . وبزوال السيادة العثمانية تزل أيضاً القيود التي كانت موضوعة بمقتضى انفرمانات العثمانية لعدد جيش سموكم وللحق الذي لسموكم في الانعام بالرتب والنياشين . أما فيما يخص بالعلاقات الخارجية فترى حكومة جلالتهم أن المسؤولية الحديثة التي أخذتها بريطانيا العظمى على نفسها تستدعي أن تكون المخبرات منذ الآن بين حكومة سموكم وبين وكلاء الدول الأجنبية بواسطة وكيل جلالتهم في مصر . وقد سبق لحكومة جلالتهم أنها صرحت مراراً بأن المعاهدات الدولية المعروفة بالامتيازات الأجنبية المقيدة بها حكومة سموكم لم تعد ملائمة لتقدم البلاد . ولكن من رأى حكومة جلالتهم أن يؤجل النظر في تعديل هذه المعاهدات الى ما بعد انتهاء الحرب . وفيما يخص بإدارة البلاد الداخلية على أن أذكر سموكم أن حكومة جلالتهم طبقاً لتقاليد السياسة البريطانية قد دأبت على الجد بالاتحاد مع حكومة البلاد وبواسطتها في ضمان الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وانماء مصادر ثروة البلاد الطبيعية والتدرج في اشتراك المحكومين في الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الأمة من الرقي السياسي . وفي عزم حكومة جلالتهم المحافظة على هذه التقاليد بل انها موقنة بأن تحديد مركز بريطانيا في هذه البلاد تحديداً صريحاً يؤدي إلى سرعة التقدم في سبيل الحكم الذاتي »

وتلقى السلطان حسين في اليوم الذي ارتقى فيه العرش برقية من ملك إنجلترا يقول فيها بعد الانتهاء : « إني على يقين أنه بمعاونة وزارتيكم وبحماية بريطانيا العظمى يتسنى لكم التغلب على كل المؤثرات التي يراد بها العبث باستقلال مصر وبرفاهية أهلها وحريتهم وسعادتهم »

وقد وجه السلطان الى رئيس الوزراء بياناً أوجز فيه ما كان . ثم قال :
« أما الهيئات النيابية في القطر فسيكون من أقصى أمانينا أن نزيد اشتراك
المحكومين في حكومة البلاد زيادة متوالية » وكلفه بعد ذلك تأليف الوزارة
وعرض أسماء الوزراء للتصديق

وينبغي أن نفهم وعد الحكومة البريطانية بالدفاع على مصر على جليلة
لنعلم حقيقة أثره في نفوس المصريين ، فنقول ان الحكومة البريطانية لم
تبادر ببلاغ المصريين هذا الوعد لانهم قوم يستثقلون أعباء الدفاع عن
بلادهم ويفرحون بالقاء هذا الواجب على غيرهم ، ولكنها بادرت ببلاغهم
إياه لانها دخلت في حرب مع خليفة المسلمين لمصلحتها السياسية ، فليس لها
أن توجب على المصريين معاومتها في حربها ، ونسيان شعورهم الديني لأجل
مصلحتها ، ولهذا يكون لاعفاء المصريين من الحرب معنى لا غضاضة فيه على
فضيلة الشجاعة ، ولا يفهم منه اغتباطهم ببشارة الحماية البريطانية

وقد قوبل السلطان حسين في بداية قيامه على العرش بالنفور الشديد
من جانب المصريين ، لأنهم حسبوه صنيعه من صنائع الانجليز ، وآلة من
آلاتهم في إعلان حمايتهم على البلاد ، ولكنه لم يلبث أن كسب محبتهم
وإعجابهم بما بدا من أريحيته ونبله ونخوته في المحافظة على حقه وغيرته على
مصالح قومه ، وانفته أن يذعن للقائمين بالأمر من القادة والمنسوبيين
الانجليز جهد مافي وسعه . وقد وقع الاعتداء على حياته مرتين فدعا عن
المعتدى في المرة الثانية واستبدل حكم السجن بحكم الاعدام ، لانه لم ير من
داع للشدة بعد استقرار ملكه وجلالة انفاشية الأولى عن مسلكه . فكانت
هذه الأريحية وما شابهها من سماحته وطيب طويته مما حبيبه إلى الناس وشملهم
بالحزن عليه يوم وفاته

وخلف السلطان حسين أخوه السلطان أحمد فؤاد في التاسع من اكتوبر

سنة ١٩١٧ بتبلغ قالت فيه الحكومة البريطانية : « لما كان نظام الوارثة على عرش السلطنة المصرية لم يوضع للآن وكنتم عظمتمكم بعد طبقة البنين الوراث الشرعى المتعين تبعاً لوراثه العرش فان حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض على عظمتمكم تبوء هذا العرش السامى »

واذا قوبل بين السلطان الجديد وأخيه فى الخصال العامة فأوجز ما يقال فى المقابلة بينهما إن الصفات النفسية أرجح فى حسين والصفات العقلية أرجح فى فؤاد ، ومن دلائل بعد نظره ورجاحة عقله أنه اقترح عند أول قيامه على العرش إدخال سعد فى الوزارة على سبيل الحيلة من موقفه المجهول فى المستقبل . لأنه عرف سعدا فى أيام اشتغالهما معا بالجامعة المصرية ، وعرف أن رجلا كهذا لا بد له من شأن مدخر فى قضية بلاده ، فأحب أن يكون معه لاعليه ، وأن يكون قبوله الوزارة قبولاً منه للتبعية المشتركة فى السياسة الحاضرة والمنتظرة . فكره الانجليز العمل بذلك الاقتراح ولم يفتح سعد فى الموضوع

لم تمض أشهر قليلة بعد إعلان الحماية حتى كانت السلطات الانجليزية قد نقضت كل ما عاهدت عليه الأمة المصرية ، فأطلقت أيديها فى دواوين الحكومة جميعاً إلا ما هى فى غنى عنه ولا قدرة لها على إدارته لقلة الموظفين الانجليز فى تلك الفترة ، وأمعنّت من جهة فى التضييق على أعداء الاحتلال واسترسلت من جهة أخرى فى الثقة بمن يوالونه ويخدمونه . وهم قوم لا خلاق لهم ولا ترجى منهم عفة ولا كرامة ، فأساءوا السيرة وانبسطت أيديهم بالانتقام من يجرأون على الشكاية ، ثم احتاجت إلى العمال فجمعت منهم نحو مليون ومائتى ألف من الفتيان الأشداء فرقهم فى ميادين القتال وأهملتهم أسوأ إهمال ، فكانوا يتساقطون كالذباب وتنقطع أخبارهم عن أهلهم فلا يسمع عنهم خبر بمرض أو وفاة ، واحتاجت إلى الزاد والعلفه

والماشية والدواب فأخذت منها ماشاءت أن تأخذ بلا اكتراث لحاجة الفلاح
الفقير الذى يعتمد عليها فى الزرع والمؤنة ، ولبت الرؤساء الانجليز يدفعون
الموظفين الى جمع العمال والارزاق ثم يكافئونهم بالترقية والحظوة على
ما جمعوا منهم ومنها ، وكانوا يرسلون اليهم المفتشين الانجليز يستحثونهم فى
الاقاليم ويتهمون منهم المقصرين والمتباطئين بسوء النية وقلة الاخلاص
للحكومة القائمة ، ومن كان من أهل البلاد موسراً أو مشهوراً بالثراء فرضوا
عليه « اعانة » قسرية للصليب الأحمر أو يظل عرضة للكيد وتعطيل المرافق
عند الحكومة ، وأيسر ما يخشاه فى ذلك الحين أن يعتقل زمناً طويلاً بلا
محاسبة ولا سؤال

واستعان الانجليز بالجيش المصرى فى جزيرة العرب كما استباحوا أموال
الخزانة العامة ، فأخذوا من الوزارة ثلاثة ملايين ونصف مليون جنيه باسم
الهدية ! وجعلوا ينفقون الملايين على حرب الترك ومدانسكة الحديد فى صحراء
سيناء ، وغير ذلك من التحضيرات الحربية التى تكفلوا بها عند إعلان
الأحكام العسكرية ، وقيدوا أسعار القطن فلم ينتفع الفلاح بخمس ثمنه الذى
كان يرجوه لولا القيود الجبرية ، وهذا عدا اصابات الأفراد التى كانت
تتكاثر على السراة والسوقة من جنود المستعمرات ، وهم على شئ كثير من
الغلظة والشكاسة والتمرد . حتى شق على رئيس الشرطة الانجليزى فى
القاهرة أن يكبحهم فى بعض جمعاتهم بغير إطلاق النار

وعلى الرغم من تكتم الأخبار وشدة الرقابة على الصحف والرسائل
تخللت مصر إشاعات مستفيضة عن إعلان استقلالها والاعتراف بسيادتها فى
الاستانة . وترددت أنباء الحملة التركية على قناة السويس فذاع من أقصى
الشمال إلى أقصى الصعيد أن الحديو السابق قادم وفى صحبته رهط من المصريين
على رأس جيش يطرد الانجليز ويعلن الاستقلال . أما الذى عليه الجمهور
بعد ذلك فهو أن شردمة من الجيش التركى همت أن تجتاز قناة السويس

واحدت بمدفعية هندية كانت عليه وأوشكت أن تفلاح في محاولتها لولا ضابط
مصرى صغير تصدى لها بفرقة من الجيش المصرى فأحبط هجمتها ، ثم
ضوعفت الحراسة والمعاقل على القناة

واقد كان شعور المصريين في أثناء الحرب العظمى هو الشعور الطبيعى
الذى لا غرابة فيه : استأثروا بطبيعة الحال من العسف الذى لحق بهم فى
استقلالهم وفى أنفسهم وفى أبنائهم وأموالهم وأرزاقهم ، ولم يشعروا بعزاء
البذل فى سبيل الاستقلال والحرية لأنهم لم يجدوا بين أيديهم غرضاً محققاً
لهذه الضحايا والخسائر غير المصالحة البريطانية والمطامع الاستعمارية . ولقد
كان فى مقدور مصر أن تؤدى قسطها فى الحرب العظمى دون أن تحقق
أو تشعر بالضميم والمهانة . وذلك أن تعترف بريطانيا العظمى باستقلالها بعد
الغناء السيادة العثمانية عليها وتعقد معها محالفة دفاعية هجومية ترضاهما الأمة
والحكومة التى تنوب عنها ، فيرجع العمل فى هذه الحالة إلى حكومة مستقلة
تباشر التجنيد والتكوين على الأساليب النظامية والقوانين المشروعة . فيقبلها
المصريون كما تقبل الأمم الحرة اعباء الدفاع عن حوزتها فى غير إكراه ولا
مذلة . ولكن الدولة البريطانية لم تفعل ذلك . بل فجعت المصريين فى استقلالهم
وحريتهم ونزعت منهم كل نصيب تطمع فيه ولم تدع لهم الا كل نصيب منبوذ
لا تريده ولا تقدر على أخذه . ثم رجعت منهم أن يحمدوا لها ما صنعت كأن
أحدًا من الناس يحمد هذا الصنيع غير المصريين ، أو كان أحدًا من الناس
ينتظر عليه الحمد إلا أن يكون جاهلاً بالطبائع الانسانية أو ذا أثره تحجب
عنه الحقائق وهى نهار

أما من كان من المصريين يرجو خيراً من الغزوة التركية فأنما كان
يرجوه لأنه سمع باعتراف الدولة العثمانية باستقلال البلاد ، ولأن فتح مصر
لم يكن على تقديره ليفضى إلى ضياع استقلالها ولولم تصح اشاعة الاعتراف
به فى الاستانة ، لأن الألمان لا يقدرّون على غصب مصر من الترك والترك

لا يقدرّون على قهرها بالقوة الدائمة . وقد كان قطع طريق الهند غرضاً كافياً لفتح مصر وتسليمها إلى أهلها ، والاستفادة منهم في أثناء الحرب بما يقدمونه من الجند والميرة والمال

والإفمن المضحك أن يتوهم أحد أن المصريين ودوا يومئذ لو يخرج الانجليز ليحل الألمان في محلهم ويسيطروا وحدهم أو مع الترك على حكومة بلادهم . فتلك سخافة لا يعقها عاقل ولا يقول بها قائل يزن كلامه . ولعل الفكاهة هنا تغنى في بيان شعور المصريين من هذه الناحية ما لا يغنيه الدليل والبرهان الذى لا حاجة اليه . . . لقد كان الشاعر الطريف حافظ ابراهيم يقول متظاهراً بالفرع : « الألمان يحتلون مصر ؟ من ذا الذى يرضى بهذا الاحتلال ؟ إن هؤلاء الناس ليعرفون العربية ويقلقون القاف كما يقلقها الأزهرى . فان جاءوا الينا فن أدرانا أنهم لا يملأون البلد بالمؤذنين والمأذونين والقضاة الشرعيين ؟ إن الانجليز لا ينظرون إلى غير وظائف الإدارة . أما الألمان فان لم يطمعوا في مشيخة الأزهر وافتاء الديار المصرية فهم قانعون رحماً ! »

وقس على ذلك شعور سائر المصريين جادين أو متفكرين

ومن المصادفات ما يخلق الاشاعات المتواترة التى تشبه الحقيقة وتسرى سراها واسكنها لا تقوى على احتمال سؤال واحد لو يتكلف سامعها مؤنة السؤال . . . فكثيراً ما سمعنا أن سعد زغلول كان ممن يتوقعون دخول الألمان القاهرة وأنه لهذا بدأ فى تعلم اللغة الألمانية واختار لإدارة بيته وصيفة ألمانية . . . فأما إنه تعلم الألمانية واختار الوصيفة فذلك صحيح ، وأما غير الصحيح فهو أنه فعل ذلك توقفاً لدخول الألمان القاهرة بعد انتصارهم فى الحرب العظمى ! فانه قد شرع فى تعلم تلك اللغة « بكارلسباد » قبل الحرب بأربع سنوات ، ليسهل عليه التفاهم مع أهل البلاد فى الأحاديث العامة حين يزور المصايف الألمانية فى أجازته ، وكانت الأنسة المهذبة « فريدا » تشرف

على إدارة منزله منذ سنة ١٩١١ أى قبل الحرب بثلاث سنوات ، ولا تزال إلى اليوم فى صحبة السيدة الجليلة صفيه زغلول

لا . لم يمكن شعور المصريين أثناء الحرب العظمى الا الشعور الطبيعى الذى تشعر به كل أمة فى موضعهم : استاءوا من الحماية البريطانية وانتظروا زوالها ولا غرابة فى هذا الاستياء ولا فى هذا الانتظار ، ولكنهم لم يستاءوا منها ليرحبوا بسيادة أخرى يضر بها عليهم الترك أو يضر بها عليهم الألمان . وإنما انتظروا مصير الحرب ليعرفوا مصيرهم ومصير حقوقهم ومن يطالبونه بتلك الحقوق . فإذا انتصرت إنجلترا طالبوها بالاستقلال ، وإذا لم تنتصر فليس بمعقول أن يقبلوا من الدول الأخرى ما لم يقبلوه من الدولة البريطانية .

تأليف الوفد المصرى

ليست الحقيقة وحدها هي التي يخدمها أصدقاؤها وأعداؤها على السواء .
فالعظمة أيضا كالحقيقة في هذه المزية . إذا صحت لانسان أصبح كالحقائق
الخالدة التي لا تزيد المناقشة والمجادلة إلا ثبوتاً وتوكيداً ، أو أصبح كالمعالم
الطبيعية التي لا تقبل الإنكار ولا تزال شاخصة للعيان . فلا يفلح المنكرون
في طمسها وإخفائها ولو جهدوا لها كل جهد وأعدوا لها كل عدة . وقصارى
ما يفلحون فيه أن يماروا في نوع العظمة أو في أغراضها وبواعثها ، فيضعوها
في صف غير صفها ويعزوا إليها نيات غير نياتها ، ويقولوا عن صاحبها أنه
يبتغي المنفعة لنفسه إذا كان يبتغي المنفعة لقومه ، وإنه يصدر عن بواعث الأثرة
إذا كان يصدر عن بواعث العدل والنبيل والعزة . أما أن يجعلوه صغيراً وهو
عظيم أو يجبروا قدرته بحجاب المراوغة والمرء فذلك مستحيل
أولئك أن تقول إن العظمة « الحقيقة » هي التي تنتفع بجهود الأصدقاء
والأعداء . لأنها حقيقة عظيمة ففيها من الحقيقة هذه القدرة على الثبوت
والوضوح .

وما من شيء هو أخرى أن يبين لنا أن الاستعمار مرض وييل من تضليله
المستعمرين عن النظر إلى بعض الحقائق واغرائهم بتحريفها وتشويهها ، حتى
لا يستطيعوا وصف عظيم من عظماء الأمم المغلوبة بوصفه المستقيم ، ولا يذكروا
خلاقاً من أخلاق تلك الأمم إلا ليسوغوا به الغضب والاستغلال . فإذا قرأت
تعليمهم لأعمال عظماء الشرق وبواعث نهضاتهم خيل إليك أن كل شيء في
الدنيا مفهوم معقول إلا كراهة الاستعباد ومعارضة الاستعمار ، وإن كل
سبب لحركاتهم ووثباتهم هو السبب الصحيح إلا أنهم عظماء يعملون كما ينبغي
أن يعمل العظماء . . . وماذا يصنع العظيم إذا خلق في أمة مغلوبة إلا أن

يحارب غالبها ويستنفر أبناءها لطلب الحرية ؟ ؛ ذلك هو الشيء الوحيد المفهوم المعقول ... ولكنه مع ذلك هو الشيء الوحيد غير المفهوم وغير المعقول عند المستعمرين . فلم نعرف قط أنهم شهدوا للزعيم من زعماء النهضة الوطنية بفضيلة مشكورة أو بغرض نبيل يجمع حوله القلوب ويحوطه بالاعجاب والثقة بين أبناء أمتة فضلا عن أبناء الأمم الغربية . وإنما يعمدون أول ما يعمدون إلى تشويه الأغراض وعكس الحقائق والبحث عن الريب والشبهات ليثبتوا بها مالا سبيل إلى ثبوته : وهو أن الاستعمار غير كريمة لذاته ! وأن الزعماء الذين يستنفرون أقوامهم لمحاربتهم لا يفعلون ذلك إلا لعدة مريية . ولهم في ذلك أعوان بين ضعفاء المغلوبين يحارونهم زلفا اليهم أو حسدا للعظيم من بني جنسهم ، فيعيدون ماسمعوا غير متورعين ولا ضائنين بكرامة يفقدونها ، أو نهضة يعوقونها . لأنهم في الأغلب الأعم مسلوبو الكرامة سرأ وعلانية بين الأمم التي يعيشون فيها وينتسبون إليها : ولعلمهم ينقمون منها أنها تعزف عنهم ولا تثق بهم كما تثق بأولئك العظماء

ومن حق سعد أن يتزود نصيبه من هذه القسمة المحتومة كما تزودها غيره ، فليس مما يشرف الزعيم الوطني أن يسلم من تهم المستعمرين ، لأنه لا يكون قد بلغ من مناوأة الاستعمار ما يستحق مشقة الاتهام !

فما هو إلا أن رفع الصوت بقضية قومه بعد الحرب العظمى حتى انطلقت الصحف الاستعمارية بالتهم المعبودة والشكوك المرصودة ... ماذا يريد سعد زغلول ؟ أيريد الأنصاف لقومه ؟ كلا . فلا حاجة بقومه إلى أنصاف !! ولكنه رجل متور حائق على الاحتلال والدولة المحتلة . ولولا ذلك لما خطر له أن ينكر الحماية البريطانية ، لأن الحماية البريطانية شيء لا ينكره إلا المتورون الحانقون !! ...

وتجاوز الأمر كتابة الصحف إلى كتابة التاريخ . فقالت دائرة المعارف

البريطانية مامعناه إن سعداً أصبح عدواً ظاهر العداءة للاحتلال بعد نزاعه مع اللورد كتشنر في قضية القوامه المشهوره ، وقال السير فالنتين شيرويل في كتاب تاريخ المؤرخين إن اللورد كتشنر نفر هذا الوطنى المعتدل ليستميل اليه الخديو عباس

وليس هذا صحيحاً كما يعلم العارفون بتلك القضية . لأن النزاع كان مع كتشنر نفسه قبل أن يكون مع الخديو عباس . وقد تعرض له سعد وهو يعلم أنه ينازع كتشنر ويستهدف لعواقب نزاعه في سبيل النزاهة والواجب . وليس بصحيح أن كتشنر كان يستميل الخديو ويتراضاه . بل الصحيح أنه كان يغاضبه ويتحداه ، ولهذا السبب وحده كان خليقاً أن يعارض الخديو ويؤيد سعداً في هذه القضية ، لولا أنه هو نفسه كان صاحب الهوى فيها ، وكان المؤيد للقيم ارضاء لهواه

على أن هذه الأقاويل لو كانت صحيحة كلها على الوجه الذى قصده السير فالنتين شيرويل ودائرة المعارف البريطانية لما كانت معناها إلا أن سعدا رجل عظيم قدير ، وأنه ليس بالمستوزر الذى يقبل الوزارة إلا كما يشاء فان المستوزر الذى لا عظمة عنده ولكنه يعظم بالمنصب ويعقد الرجاء كله عليه — لا ينازع اللورد كتشنر ولا يسمو إلى منزلة المنتقم منه ومن دولته وهى فى ساعة الظفر والخيلاء . . . لأن المستوزرين من هذا الطراز لا يجهلون أن القول ما قاله كتشنر فى الديار المصرية ، وانه صاحب الحول والطول فى الحكومة وفى خارج الحكومة : يؤيده جيش الاحتلال ويؤيده من وراء ذلك سلطان الدولة البريطانية التى تثق به وتنصره فى صوابه وخطئه ولا تود له إلا المهابة والمكانة . فهو يقضى بما يريد ويرفع من الوزراء والوزارات من يريد : من رفعه فهو سعيد بهذه الخطوة ومن وضعه فهو عاثر الجد خائب الرجاء ، لا حيلة له إلا أن ينزوى فى عقر داره ويتربص الساعة التى يستغفر فيها لذنبه ويلتمس الرضى والرحمة من السيد المستبد الغاضب عليه . وإن

يخطر له ببال أن يزج بنفسه في خصومة مع أمثال كتشنر أو من هو دونهم في السطوة والهيبة من أقطاب الاحتلال . فإذا ساقته الحوادث سوقا إلى تلك الخصومة فلن يخطر له ببال أن يقابل الاساءة بالاساءة ويرفع السلاح في وجه السلاح . وان خطر له ذلك في حق كتشنر فلن يخطر له ببال أن يصادم الدولة البريطانية حتى يكرهها على الاعتراف بوجوده والتكفير عن الاساءة اليه فأما أن يكون للرجل مندوحة واسعة عن خصومة كتشنر فيصر على منازعته واغضابه ، ثم يبرز له بروز الند للند غير حافل باسترضائه واتقاء عدائه ، ثم يبرز لدولته وهي في أوج العزة والنصر ليقول لها : « ها أنذا في ميدان الصراع أيتها الدولة المستخفة بما أستطيع » . . . ثم يصمد في هذا الميدان غير مأخوذ بالوعد والوعيد ولا متراجع حيث يتاح له الرجوع مع السلامة والقبوع — فإذا تسمى ذلك ان لم تسمه العظمة التي لا تقل عن عظمة الزعيم المجاهد في طلب الحرية ؟ . . . وبماذا تصف ذلك الا بالقدرة التي ترى لها في الحياة شأناً غير شأن المنصب والوزارة ، وقيمة غير التي يمنحها كتشنر أو تمنحها الدولة البريطانية ، وبأساً هو بأسها المستمد منها وليس بالأس المستعار من سيد مرهوب ، أو من جاء الحكومة ؟

فالكتاب الانجليز الذين يفسرون وثبة سعد على ذلك النحو من التفسير يثبتون له غاية مافي وسعهم من شهادة العظمة والزهد في الوظيفة المهيبة ، ويثبتون له ، من ثم ، غاية مافي وسع المادح والمعجب من الاعتراف بعلو الهمة ونبل المقصد وشرف الغاية . إذ العيب كل العيب في الوظيفة التي يذل المرء لها ويستخذي في طلبها والحرص عليهما ، ولا عيب في الوظيفة التي تحفظ الكرامة ويقوم فيها الانسان بالواجب كما يجب . بل هي فرض محتوم يلام على اجتنابه ، ويشرف هو كما تشرف أمته بأدائه

انما الحقيقة بعد كل هذه الأقاويل هي أن العمل الذي تصدى له سعد زغلول بعد إعلان الهدنة كان لا بد أن يعمل ، وانه لم يكن في مصر من يعمل غير سعد زغلول

ولم يكن هناك وقت لعمله غير الوقت الذي اختارته الحوادث وهياتها المقدمات . بحيث يحق لنا أن نقول ان هذه التهمة في حياة سعد كانت هي التهمة الفنية التي يتخيلها المتخيل كما كانت هي التهمة التاريخية التي قررتها الحوادث وشهدتها الأنظار . فالر أن تاريخ سعد قصة مختصرة وليس بواقعة مشهودة لما استطاع مؤلفها أن يختم فصولها غير ذلك الختام ، إذ ليس في وسع العقل أن يتخيل رجلاً مثله يمر به موقف الهدنة بعد الحرب العظمى وهو ساكت لا يفكر في عمل . وليس في وسع العقل أن يتخيل له تصرفاً في عمله وجهاده غير التصرف الذي هداه اليه طبعه ومنطق تفكيره ، وإذا كانت زعامته الوطنية تنمة منسوقة مع ماضيه من قبل الثورة العراقية فأعماله بعد الزعامة تنمة منسوقة مع ذلك الماضي المنطقي المتفق الأوائل والأواخر . تعرفه من قبل كما تعرف من أساس البناء المرسوم كيف تكمل فيه الذروة وتعلو فيه الجدران

لبث سعد في أيام الحرب العظمى يترقب ساعة العمل غير غافل ولا متعجل ، وكان من المفهوم عند الانجليز قبل غيرهم أنه لم يعترف بالحماية ولم يسكت الا في انتظار الفرصة التي يفيد فيها الكلام . ولو فهم الانجليز شيئاً غير ذلك لما سوفوا بعقد الجمعية التشريعية موعداً بعد موعداً حتى اتفقوا على تأجيلها إلى موعد غير معلوم ، بل لاسرعوا بعقدتها ليسمعوا منها الاعتراف الذي يعدون الضفر به من نواب مصر المنتخبين غاية ما يطمعون فيه من اقرار وتسجيل .

ولم يخف عليهم أن سعداً كان يستطيع أن يتكلم كما تكلم رئيس الجمعية التشريعية في المقابلات الرسمية ، فاذا أثر السكوت فانما يؤثره لأن له رأياً لا يقال ، ولا فائدة من أن يقال في تلك الأحوال

وظلت مقادير الحرب تتراوح بين المتحاربين زهاء ثلاث سنوات ، تشيل كفة النصر يوماً وتهبط يوماً في كل ميدان ، ولا يلوح من طوابع الحوادث في خلال ذلك ما يؤذن بانتهاء القتال وابتداء الهدنة والفصل في مصير

الشعوب . حتى شہرت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا ثم شہرتها على النمسا ثم تنابع وفود الجند منها فوجا بعد فوج إلى الميادين الأوربية عند أواخر سنة ١٩١٧ . ثم أذاع الرئيس ويلسون شروطه الأربعة عشر في أوائل السنة التالية ومنها انصاف الضعفاء وإيلائهم حق تقرير المصير . ثم انهزمت تركيا في الميادين المتاخمة لمصر وعولت على التسليم وتم التسليم في أواخر أكتوبر سنة ١٩١٨ . فأيقن العارفون في تلك الأيام باقتراب النهاية ، وانكشف العمل الذي تفرضه الحوادث على زعماء مصر أو أخذ يتكشف ويتجلى من أواسط العام . بعد أن كانوا لا يعرفون إلا أن هناك واجباً وطنياً ينبغي أن ينهضوا به وإن هناك فرصة آتية لا بد أن يغتنموها .

وكان من جلاء هذا الواجب أن خطر لأناس متفرقين في وقت واحد أو أوقات متقاربة . فلم يبق لمصر محيص من المطالبة بحقها ولم يبق للحلفاء محيص من تحقيق ما بشروا به من وعود الحرية والعدل والديمقراطية ، فالآن ينبغي أن تنجز بريطانيا العظمى وعودها وتلغى حمايتها وتسأل الأمة المصرية عن مصيرها ولا تساوم عليها مساومة السلعة التي تباع وتشترى . فتلک معاملة للشعوب الضعيفة طالما كانت بريطانيا العظمى تنعاهها على الجرمان وتقول انها حاربتهم من أجلها وحفرت العالم كله للقضاء عليها وتبديلها . فهل على المصريين إذن إلا أن يطالبوها بالانجاز وينتظروا منها الوفاء ؟ وإذا عمدت إلى المطال أو إلى الرفض والجحود فهل هناك حجة أو هن من حجتها وأظهر من حجة المصريين عليها ؟ وإذا حالت بين المصريين وبين اشهاد العالم على قضيتهم الواضحة فهل هناك دليل على سوء النية أصدق من هذا الدليل ؟ وهل يتاح لها بعد ذلك أن تصور نفسها للناس في صورة القاضى العادل الأمين ، وتمثل خصومها في صورة الجانى المستحق للعقاب !

هذا هو الواجب القومى الذى فرضته نهاية الحرب على الأمة المصرية ، وهو واجب لا بد له من هيئة تتولاه بالنيابة عن الأمة . فمن عسى أن تكون تلك الهيئة ؟

لقد كانت الجمعية التشريعية قائمة يومئذ لم تلغ ولم تسقط صفة النيابة عن أعضائها ، فاتجهت النية إلى اختيار الهيئة التي تتولى الكلام باسم الأمة من بين أعضاء الجمعية التشريعية ، أو اختيار هيئة يزيها هؤلاء الأعضاء ويحولونها صفة الوكالة العامة ، وفي هذا فكر سعد وأصحابه إلى ما قبل الهدنة بأيام قليلة . وغنى عن القول أن فكرة طبيعية كهذه الفكرة في قضية عامة كالقضية القومية لا يمكن أن تخطر لمصرى واحد أو مصريين قلائل ، ففي سبتمبر دعا سعد أصحابه محمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد « بك » وعبد العزيز فهمي « بك » إلى مسجد وصيف للتحدث فيما ينبغي عمله عندما تسنح الفرصة للبحث في المسألة المصرية بعد اعلان الهدنة . فأجاب الدعوة محمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك ، واعتذر عبد العزيز بك لمرضه .

ثم كشفوا بنيتهم بعض أصحابهم من أعضاء الجمعية التشريعية وغيرهم . ثم ذهب سعد إلى الاسكندرية في الثاني عشر من أكتوبر مدعواً إلى الوليمة التي أقامها رشدي باشا للاحتفال بعيد الجلوس . فقابل هناك الأمير عمر طوسن وسمع منه أنه يفكر في قيام طائفة من المصريين للمطالبة بحقوق مصر في مؤتمر الصلح فقال سعد كما كتب في مذكراته انها « فكرة جميلة قامت في بعض الروس من قبل » . وأفضى إلى الأمير بموافقة وارتياحه ، وتدبر معه فيما يحتاج اليه تنفيذ هذه الفكرة من المال الكثير .

وعاد سعد إلى القاهرة فلاقى عدلى يكن باشا وتكلم معه في تلك المسألة ورأيا توسط قنصل أمريكا في تسهيل السفر للمندوبين المصريين ، وفاتحه رشدي باشا في ذلك ، فلم يجد عنده استعداداً لتأييد المسعى .

وفي الثاني والعشرين من شهر أكتوبر ذهب سعد إلى الاسكندرية مرة أخرى مع كثير من الكبراء والوجهاء لحضور حفلة الشاي العمومية التي دعاهم إليها السير ريجنالد ونجت معتمد الدولة البريطانية ، فلاقى هناك « عدلى

ومدحت ورشدى ومحمد سعيد والأمير عمر وغيرهم « . . . قال سعد فى مذكراته : « وشملت من عدلى راتحة أن المشروع الذى عرضه علينا رشدى لم يكن من بنات أفكار الاثنين : وأنه لابد أن يكون مشتملا على سر تكشفه الأيام »

ويغلب على ظننا أن السر الذى أشار اليه سعد هو رأى السلطان « أحمد فؤاد » فى هذه المسألة . فان السلطان ~~عمر~~ كان قد أمر رشدى باشا بكتابة مذكرة إلى الحكومة البريطانية يطلب فيها حل القضية المصرية على وجه كفيل بالاستقرار والرضى من الأمة . ثم مرض السلطان حسين وأدركته الوفاة قبل تبليغ هذه المذكرة . فالذى يغلب على الظن أن السلطان فؤادا قد أرجأها إلى الوقت المناسب ، واختار تحريكها قبل الهدنة ، فأوعز إلى عدلى ورشدى باتباع الخطة التى تلائم الحوادث الأخيرة ، وفهم سعد ما فهم من الإيحاء على سبيل الترجيح

وفى يوم عقد الهدنة حضر الأمير عمر إلى مصر وزار سعدا فى بيته وأبدى رغبته فى عقد اجتماع « للمذاكرة فى حالة مصر وما يجب أن يقدم لها من الخدمة الآن » فوافقه سعد واتفق مع سموه على صيغة الدعوة وأسماء المدعويين ومكان الاجتماع بقصر الأمير فى شبرا . وسافر الأمير على أن يعود قبل الاجتماع بيومين . وسعد فى كل ذلك يميل إلى تقديمه فى هذا العمل ، لما له من المنزلة الرفيعة وما يحتاج اليه العمل من المسال الكثير إلا أن المعارضة فى رئاسة الأمير للوفد المطلوب كانت تقوى وتشتد فى جهات كثيرة ، ومنها القصر الملكى والوزارة ، ومنها أصحاب سعد جميعاً بغير استثناء

فقد كان السلطان فؤاد غير مستريح إلى ظهور الأمير على رأس هذه الحركة ودخول أعضاء البيت المالك فى مآزق سياسية تقضى مصالحتهم ومصلحة الملك أن يظلوا بمعزل عنها

وكان رشدي باشا يتوجس من نفوذ محمد سعيد باشا صديق الأمير الخميم ويشفق من عواقب تديره ، ولا يحب أن يمله حتى يقبض بيديه على زمام الموقف ويتحول به إلى حيث تهديه الحيلة والأساليب الملتوية التي اشتهر بها . وكان أصحاب سعد يريدونها كما قالوا (حركة شعب لا إمارة وحركة استقلال لا خلافة) ويعتقدون أن الأمير وصديقه محمد سعيد ينبغيان المحافظة على السيادة العثمانية إلى أن ينزل عنها الترك للمصريين في معاهدات الصلح ، وهو أمل مشكوك فيه .

لهذا أمرت الوزارة بالغاء الاجتماع الذي يدعو إليه ولما حضر الأمير إلى مصر مستفسرا أبلغه أمين يحيى باشا أن عظمة السلطان يرى له أن يتعد عن هذه الحركة ، وأن يبرح القاهرة إلى الإسكندرية في يومه . وقبل أن يتلقى هذا الأمر كان قد اجتمع بمحمد سعيد باشا واسماعيل صدقي باشا وبعض أعضاء الحزب الوطني وبحشوا في تأليف الوفد مستقلين للسفر إلى أوروبا . فاستحسنوا بعد طول المشاورة أن يشركوا سعدا ومن معه في هذه الهيئة ، وخاطب الأمير سعدا ليلقاه بفندق شبرد ، فاستأذن سعد أصحابه ليذهب إليه . وخشى هؤلاء الأصحاب إذا خوطب سعد في رئاسة الأمير للهيئة أن يقبلها كما علموا من رأيه السابق . فناشدوه بلسان محمد محمود باشا أن لا يقبل رئاسة بغير رأيهم ، لأنهم يختارونه هو للرئاسة ولا يقبلون رئاسة سواه .

ثم علم الأمير بأمر السلطان فؤاد فاطاعه وسافر إلى الإسكندرية ، وسرى نبأ الخلاف بين الوفدين إلى جمهرة الشعب ، فأسفوا وتذمروا وبدأت بوادر غضبهم في مطاردة الدعاة والرسل الذين كانوا يروجون لتوكيل الوفد الجديد فأثر الأمير لهذه الأسباب جميعا أن يعدل عن سعيه ، وأثر سعد وأصحابه أن يرأبوا الصدع بانتخاب بعض أنصار الأمير ، فاندجت الهيئتان هيئة واحدة وانحسم الخلاف .

في أثناء هذا الخلاف بين الوفد واشياع الأدمير عمر طوسون بدرت الكلمة التي اطلقت على بيت سعد اسمه الذي ينبغي له بعد تأليف الوفد واجتماع نواب الأمة فيه : بدرت من لسان خصم لا من لسان صديق ، وفي معرض الحاجة لا في معرض التودد والتعظيم . فقد كانت المناقشات بين سعد وبعض الشبان تتوالى كل يوم عن أغراض الوفد وبرنامجه واختيار أعضائه ، فاحدد واحد منهم وتمادى في مخاشنة الحاضرين . فقال سعد : (عجباً ! أتكدرنى وتكدر صحبى فى بيتى ؟) فقال الفتى : (ليس هو بيتك يا باشا . ولكنه بيت الأمة !) فشاعت الكلمة وأطلق الاسم على البيت من ذلك الحين .

وقد وضع الوفد بعد تمام تكوينه قانوناً للسير عليه جاء في المادة الأولى منه : (تألف وفد باسم الوفد المصرى من حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك وعبد اللطيف المكباتى بك ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك واسماعيل صدقى باشا وسينوت حنا بك وحمد الباسل باشا ، وجورج خياط بك ومحمود أبو النصر بك ومصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفى بك) .

وجاء في مادته الثانية أن (مهمة هذا الوفد هى السعى بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلاً فى استقلال مصر استقلالاً تاماً)

وفي المادة الثالثة أن (الوفد يستمد قوته من رغبة أهالى مصر التى يعبرون عنها رأساً أو بواسطة مندوبيهم بالهيئات النيابية) .

وفي المادة الخامسة (لا يسوغ للوفد أن يتصرف فى المهمة التى انتدب لها . فليس للوفد ولا لأحد من أعضائه أن يخرج فى طلباته عن حدود الوكالة التى يستمد منها قوته : وهى استقلال مصر استقلالاً تاماً وما يتبع ذلك من التفاصيل) . وفي المادة الأخيرة : « يعين الوفد لجنة تسمى باللجنة المركزية لجمع التبرعات ومراسلة الوفد بما يهم من شؤونه »

وفيما بين ذلك مواد أخرى في تفصيل نظامه وتقسيم أعماله بين ذوى الاختصاص فيه من رئيس أو كاتب سر أو أمين صندوق
ومما تقدم على وجه الاجمال يتبين لنا كيف نشأت فكرة الوفد الأولى وكيف انتقلت في أطوارها المختلفة الى تمام تكوينه . ولا نحب أن نطيل البحث فيمن سبق ومن لحق من المفكرين . فان الفكرة كانت تخطر لكل عامل في السياسة المصرية ، وكان من المستحيل أن لا تخطر في أوانها . وانما الأمر الجدير بالملاحظة عندنا أن أحدا لم يفكر في تأليف وفد الا فكر معه في سعد زغلول ، سواء السلطان أو الأمير طوسن أو الوزراء أو أعضاء الجمعية التشريعية أو المتطرفون أو المعتدلون ، ومن السهل أن يفكر الانسان في تأليف وفد . ولكن ليس من السهل أن يكون معقد الأمل ومناط العمل باجماع المفكرين .

بدء العمل

كان الوفد المصرى يترقب من يوم إلى يوم إعلان الهدنة لبدء عمله
بإبلاغ الدولة البريطانية بمطالب الأمة المصرية. فلما أعلنت الهدنة يوم الاثنين
(الحادى عشر من شهر نوفمبر سنة ١٩١٨) بأمر سعد وأصحابه إلى طلب
المقابلة من السير ريجنالد وتحت معتمد الدولة البريطانية أو نائب الملك كما
كانوا يسمونه فى عهد الحماية. فضرب لهم موعدا للمقابلة قبيل الظهر من يوم
الأربعاء التالى. فذهب إليه سعد وصاحبه على شعراوى باشا وعبد العزيز
فهى بك، ووقع الاختيار على هؤلاء الثلاثة لأنهم كانوا أول من اشترك فى
الوفد من أعضاء الجمعية التشريعية، وفهم الكفاية لتمثيل الوفد برئيسه وعضوين
يمثلان الأعيان وذوى الأعمال الفكرية

تلقاهم السير ريجنالد بعد التحية والتهنئة بعقد الهدنة بقوله :

« ان الصالح اقترب مواعده والعالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته
زمناً طويلاً ، وأن مصر سينالها خير كثير وان الله مع الصابرين . . . » إلى
آخر ما قال .

فرد عليه سعد قائلاً : « إن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق الا تنظيف
آثاره . وإنى أظن أنه لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد
والمطبوعات . والناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا
عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاهم أكثر من أربع سنين »
فوعدهم السير ريجنالد بالكتابة إلى حكومته فى هذه المسألة بعد الاتفاق مع
القائد العام ، وقال : « ويجب على المصريين أن يطمئئوا ويصبروا ويعلموا
أنه متى فرغت انكثرا من مؤتمر الصلح فانها تلتفت لمصر وما يلزمها ولكن لا
يكون الأمر إلا خيراً » فقال سعد : « ان الهدنة قد عقدت والمصريون لهم

حق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ، ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ماهو الخير الذى تريده انكثرا لهم »

قال السير ريجنالد : « يجب أن لاتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم . فان المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة »
فاستفسره سعد معنى كلامه قائلا : « إن هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد منها »

ففهم السير ريجنالد أن سعداً قد استاء لانه اعتقد أن الكلام موجه اليه وأراد أن يقول إنه لايعنى المصريين مثله وإنما يعنى رأى العام . . .
فاستدرك قائلا : « أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر » فأجابه سعد : « لا أستطيع الموافقة على ذلك . لأننى إن وافقت أنكرت صفتى . فانى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة ، وكان انتخابى بمحض إرادة رأى العام مع معارضة الحكومة واللورد كيتشنر فى انتخابى . وكذلك كان الأمر مع زميلى على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك »

وبعد مناقشة وجيزة قال شعراوى باشا : « انا نريد أن نكون أصدقاء الانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للسيد » . . . فصاح السير ريجنالد دهشاً : « إذن أتم تطلبون الاستقلال ؟ » . فأجابه سعد . « نعم . ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا ليكون لنا استقلال كباقى الأمم المستقلة ؟ » ثم قال بعد مناقشة طويلة فى كفاءة مصر للاستقلال : « متى ساعدتنا انجلترا على استقلالنا التام فانا نعطيها ضماناً معقولة عن عدم تمكين أى دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة انكثرا . فتعطيها ضماناً فى طريقها إلى الهند ، وهى قناة السويس ، بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء . بل نحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من الجنود » ثم قال شعراوى باشا : « يبقى أمر آخر وهو حقوق أرباب الديون الأجانب فيمكن بقاء المستشار

الانجليزى بحيث تكون سلطته هي سلطة صندوق الدين العمومى » ثم قال سعد : « نحن نعرف الآن أن انجلترا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية ، وأنا نعرف لها بالأعمال الجليلة التى باشرت بها فى مصر . فنطلب باسم هذه المبادئ أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر ، وإننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك مشخفاً لهذه الدولة العظيمة . وعند الاقتضاء نساافر للتكلم فى شأنها مع ولاية الأمور فى انجلترا . ولا نلتجىء هنا لسواك ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الانكليزية . ونطلب منك بصفتك عارفاً لمصر مطلعاً على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب

فترى السير رينجالد ونجت ثم قال : « قد سمعت أقوالكم ، وإنى أعتبر محادثتنا محادثة غير رسمية بل بصفة حبيه ، فإنى لا أعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد »

وانتهى الحديث على هذا فى تلك المقابلة ، وقد علم منه سعد وصاحباه رأى الحكومة البريطانية فى المسألة المصرية على الرغم من قول السير رينجالد أنه لا يعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد . فهذه الحكومة لا تفكر فى المسألة المصرية قبل عقد الصلح وفراغها من جميع المشكلات المتخلقة من الحرب العظمى ، وهى إذا فكرت فيها بعد ذلك فليس فى نيها أن تلغى الحماية وتعترف بالاستقلال . لأن السير رينجالد دهش حين فوجئ بكلمة الاستقلال كأنه يسمع التجديف ، فعلى مصر إذن أن تنتظر إلى غير أجل مسمى ، وليس لها بعد طول الانتظار أن تطمح إلى استقلال . فذلك عند الحكومة البريطانية خارج من كل حساب

واننا لنذكر مقدار الدهش الذى دهشه المعتمد البريطانى من ذكر الاستقلال إذا علمنا حقيقة المركز الذى هياه المحتلون لمصر وتفاهمت عليه الجالية البريطانية قبل انتهاء الحرب بأكثر من عام . فقد صدر الأمر فى شهر مارس سنة ١٩١٧ بتأليف لجنة تنظر فى إصلاح القضاء بعد الغاء الامتيازات

الأجنبية ، فتقدم إليها عشرة من المحامين الانجليز وطلبوا اعتبار اللغة الانجليزية لغة رسمية للمحاكم ، توضع بها القوانين وترجم منها الى اللغة العربية أو الفرنسية إذا دعى الأمر الى ذلك ، واستلزموا أن يسن القانون الأهلى على سنة الأصول الانجليزية والقانون الجنائى بصفة خاصة ، وأن يجلس قاضى انجليزى الى جانب القاضى المصرى للنظر فى المسائل الأهلية

أما قانون مصر النظامى الذى أعده المحتلون لتطبيقه بعد الحرب العظمى فقد وضعه السير ويليام برونيات وقضى فيه بإنشاء مجلسين أحدهما يسمى مجلس الأعيان ويتألف من الوزراء والمستشارين الانجليز وبعض الموظفين الانجليز ممن يساؤونهم فى الرتبة ، ومن خمسة عشر أجنبيا ينتخبهم الأجانب ، وثلاثين مصرىاً يجرى انتخابهم على قواعد محدودة كثيرة القيود والشروط ولا تجتمع منهم كثرة فى المجلس على كل حال . ويسمى المجلس الآخر مجلس النواب وليس له رأى قاطع فى عظيم ولا ضئيل من مصالح البلاد ، ويجوز أن تتخطاه الحكومة بارسال القوانين مباشرة الى مجلس الأعيان . ثم لا تعتمد القوانين التى تصدر من هذا المجلس أو من ذاك إلا بعد اقرارها فى وزارة الخارجية البريطانية

ويكنى أن يلم القارىء بخلاصة هذا القانون ليجزم بأنه قانون لا يوضع إلا للأصقاع الهمجية التى لا يحفل لأهلها بوجود ولا برأى فى تشريع أو سياسة . والغرض الأكبر منه إنما هو استدراج الأجانب الى الرضى بالغاء امتيازاتهم ريثما تنحصر السلطة كلها فى يد العميد البريطانى ، ولا تكون مصر فى خلال ذلك إلا مستعمرة بريطانية من مستعمرات المجاهل السحيقة التى لا حضارة لها ولا رجاء فى نوع من الاستقلال

وإذا كان ذكر الاستقلال قد أدهش العميد البريطانى فهذا القانون النظامى قد أدهش جميع من علموا به من المصريين فكان من الشرور التى

أعقبت الخير العظيم ، لأنه جمع المصريين كلهم حول راية الاستقلال ، وعصف بكل فارق بين التطرف في الوطنية والاعتدال

ومن الطبيعي بعد أن قال العميد البريطاني لسعد وزميليه أنه لا يعرف شيئاً عن أفكار حكومته أن يتذرع النواب المصريون بذلك إلى طلب السفر إلى العاصمة الانجليزية ، لاستطلاع أفكار تلك الحكومة والافصاح لها وللرأي العام في بلادها عن أفكار الأمة المصرية . فكتب سعد وأصحابه إلى رأسه الجيش الانجليزي يطالبون جواز السفر في وقت قريب ، وجددوا الطلب بعد أسبوع فجاءهم الرد في الثامن والعشرين من نوفمبر بارجاء الاذن لهم إلى أن تزول « الصعوبات التي تمنع سفرهم في الوقت الحاضر » فكتب سعد إلى السير رينالد ونجت في اليوم نفسه يبدى له أنه : « من الضروري أن يكون الوفد بلندن قبل الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر ، ويختم خطابه بقوله : « إنا معتمدون كثيراً على تقاليد بريطانيا العظمى التي مازالت تقدم للعالم كثيراً من الأمثلة على تمسكها بمبادئ الحرية الشخصية . اعتماداً يجعل لنا ثقة في أن طلب التصريح لنا بالسفر سيفصل فيه عاجلاً » لم يحبه السير رينالد بنفسه ولا باسم موظف كبير من رؤسياه في دار الحماية ، ولكنه أجابه باسم نائب كاتبه الخاص في خطاب يتحدث به عن رأي حكومته . فقال :

« كلفت من قبل نخامة المعتمد السامي البريطاني باحاطتكم علماً بوصول خطابكم المؤرخ في ٢٩ نوفمبر الماضي وبأخباركم بأن نخامته قد رأى بعد استشارة حكومة جلالة الملك أنه لا يستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية في هذا الموضوع . وأضيف إلى ذلك أنكم إذا كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم في مصر مما لا يخرج عن الخطة التي رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل ، فالأفضل أن مثل هذه الاقتراحات تقدم كتابة إلى نخامته ، وبهذه المناسبة ألفت نظركم إلى خطاب السير ميلن

شيتهم الذى أرسله بناء على أمر حكومة جلالة الملك إلى المرحوم السلطان حسين عند توليته عرش مصر »

فكان جواب سعد على هذا الخطاب الذى تشف عبارته واختيار كاتبه عن الاستخفاف وقلة الاكتراث « إنه ليس فى وسعى ولا فى وسع أى عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لا تكون مطابقة لارادة الأمة المصرية المعبر عنها فى التوكيلات التى أعطيت لنا ، وإنى أعرض على أنظاركم أن هذه التوكيلات قد أقبل على التوقيع عليها بشغف كثير من كبراء الأمة ومن بينهم أعضاء الجمعية التشريعية والهيئات الأخرى النيابية ، وكان من المنتظر أن يصل هذا الاقبال إلى الاجماع لولا تدخل الادارة فى منع تداولها ومصادرتها »

أما تقديم الاقتراحات إلى المندوب البريطانى فلم يسع الوفد قبوله لأنه لا يجدى شيئاً مع الشرط المتقدم ولا يجدى شيئاً إذا ألغى ذلك الشرط وأيسح الكلام فى مسألة الاستقلال . وقد أبان سعد حجة الوفد فى طلب السفر إلى انجلترا فقال : « ان سفرنا إلى انجلترا لا نريد منه إلا أن نكون على اتصال برجال السياسة الممثلين للأمة الانجليزية ، والاشخاص الذين يتولون توجيه رأى العام الانجليزى الذين لا شك فى تأثيرهم على القرارات الحكومية ، وسنغنى على الخصوص بان نجعل وجهتنا ذلك الرأى العام . ونحن واثقون بان نجاح قضيتنا يتوقف جزء كبير منه على العدالة والحرية وحماية حقوق الضعفاء التى امتاز بها الرأى العام الانجليزى . وتلاحظون سعادتك أنه فى هذه الظروف يكون من المستحيل علينا أن نصل إلى غايتنا بواسطة مخبرات بسيطة تعمل فى مصر وحسب ، فان القضية التى ندافع عنها يجب أن تعرض بادية ذى بدء على الرأى العام الانجليزى الذى لا شك فى أنه — للاستنارة فيها — فى حاجة إلى الحصول على تفصيلات لا يمكن أن يبدىها الا الممثلون الطبيعيون الموكلون من الأمة المصرية ذاتها »

وفي هذا الكلام بيان صريح للغرض من السفر إلى البلاد الانجليزية ،
فليس هو استجداء الحكومة هناك ولكنه الاقتناع والتأثير بالأساليب التي
تدعن لها الحكومة ورجالها الرسميون .

مر بالقارىء في خطاب سعداشارة إلى توكيلات الأمة ومصادرة الادارة
للتوقيع عليها في الاقاليم . فهذه التوكيلات هي الوسيلة التي لجأ اليها الوفد
بعد تأليفه لتعزيز نيابته عن الأمة في طلب الاستقلال ، بالإضافة إلى الصفة
المكتسبة من أعضاء الجمعية التشريعية الداخلين فيه

فقد كان في الوفد كما كان بين مؤيديه رجال نابهون من غير أعضاء الجمعية
التشريعية ، وكان من الميسور للانجليز ان يقدحوا في وكالة الجمعية عن قضية
الاستقلال وما اليها من المطالب القومية ، لانها انتخبت قبل فرض الحماية ولم
يكن ملحوظاً في انتخابها أن تنصدي لأمثال هذه المطالب . فمن سداد الرأي
أن يضيف الوفد دليلاً آخر على نيابته الصحيحة غير تأييد أعضائها . وإذا
تسنى له أن يحصل على توكيلات المصريين مباشرة في قضية الاستقلال بنصها
فلا محل إذن للاكتفاء بالوكالة المستمدة من انتخاب قديم ، في قضية ليست
بقضية الاستقلال

أسرع الوفد بطبع هذه التوكيلات غير منتظر تمام تأليفه ، فامضاهما
كل من عرضت عليه من ذوى الرأي والمكانة ، ولم يرفض امضاهما إلا
أفراد معدودون لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة . وراحت الألوف منها
تتفرق في الأقاليم وتعود منها كل يوم بعشرات الألوف من التوقيعات ،
ثم فطن المستشار الداخلى مستر هينز لها بعد انتشارها فأصدر أمره
إلى الموظفين بمنعها ومصادرتها . فمنعوها ما استطاعوا واقتحموا بيوت
الوجهاء ومكاتب المحامين يبحثون عنها في كل مكان ، وينتزعونها من حاملها
عنوة حيثما وجدوها ، ويتعللون لذلك بأنها منشورات مخلة بالأمن والنظام

أراد الوفد أن يعرض مافاته من تلك التوكيلات باثبات منعها ومصادرتها .
لان إثبات ذلك يقوم مقام التوكيل ويزيد عليه أن يثبت تصرف الانجليز
في حق « تقرير المصير » وهم لا يفرغون من النداء به في كل مجال . فكتب
سعد إلى رئيس الوزارة المصرية يحتج على هذا الخيف ويسجل هذه الوقائع ،
وقال في احتجاجه : « لا يخفى على دولتكم أنه على أثر فوز مبادئ الحرية
والعدل التي جاهدت بريطانيا العظمى وشركاؤها لتحقيقها ألفت مع جماعة من
ثقة الأمة ونوابها وأصحاب الرأي فيها وفدا لينوب عنها في التعبير عن
رأيها في مستقبلها تطبيقاً لتلك المبادئ الأساسية

لذلك شرعنا في جمع هذا الرأي بصيغة توكيل خاص فوق ما للكثير منا
من النيابة العامة ، فأقبل الناس على امضاء هذا التوكيل اقبالا عظيما مع السكينة
والهدوء ، وهذا أقل مظهر نعرفه من مظاهر الاعراب عن رأى الأمة في
مصيرها ، لكنه قد اتصل بنا أن وزارة الداخلية قد أمرت بالكف عن
امضاء هذه التوكيلات ، ونظراً إلى أن هذا التصرف يمنع ظهور الرأي العام في
مصر على حقيقته ، فيتعطل بذلك أجل مقصد من مقاصد بريطانيا العظمى
وشركائها وتحرم الأمة المصرية من الانتفاع بهذا المقصد الجليل — التمس
من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريتهم يتمون عملهم
المشروع ، وإذا كانت هناك ضرورة قصوى ألجأت الحكومة إلى هذا المنع
فاني أكون سعيداً لو كتبتم إلى بذلك حتى نكون على بصيرة من أمرنا ونساعد
الحكومة بما في وسعنا على الكف عن امضاء تلك التوكيلات ... »

وقبل أن يتلقى الوفد رداً من الوزارة ، عاد فكتب اليها في اليوم التالي
— ٢٥ نوفمبر — يخبرها « ان رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع
على التوكيلات بل تجاوزوه إلى مصادرة ماتم التوقيع عليه » وشفع ذلك بما
يثبت هذه المصادرة .

وظاهر من صيغة الكتاب الأول أن الاحتجاج متفق عليه بين الوفد

والوزارة لاعطاء وزير الداخلية فرصة يثبت فيها المنع ويبرىء الحكومة الوطنية من تبعاته ، فجاء الرد من الوزير يقول فيه : « إجابة على كتابكم المؤرخين ٢٣ و ٢٤ الجارى أتشرف باحاطتكم علماً أنه إن كانت صدرت أوامر من جناب مستشار الداخلية لمنع امضاء التوكيلات المشار اليها فى كتابكم المذكورين فانما كان ذلك لأن القطر لا يزال تحت الأحكام العرفية ، ولأن مثل هذه التوكيلات قد اعتبرت مما يدعو إلى الاخلال بالنظام العام ... » وفى هذا الرد اثبات للتوكيلات ، وإثبات للمنح ولصدور الأمر به من السلطة الانجليزية ، وإثبات للحجر على كل وسيلة من وسائل الاعراب عن الرأى فى تلك الآونة ، لأن امضاء عريضة مطبوعة هو أقل مظهر معروف من مظاهر الاعراب عن رأى الأمة فى مصيرها ، كما جاء فى خطاب سعد إلى الوزارة .

فحول الوفد جهوده إلى الوسائل التى بقيت له بعد هذا الحجر المطبق على الأمة من كل ناحية ، وهى اشهار الاحتجاج فى مصر كلها سنحت فرصة القول والخطابة فى مجتمع من المجتمعات ، ومخاطبة الدول الأجنبية من طريق وكلائها أو من طريق الرسائل البرقية والبريدية الى رؤسائها وكبرائها ، وهى على ذلك ليست بالوسائل الميسورة إلا على قدر محدود فى المناسبات المتباعدة ، لاشتداد الرقابة على الصحف وعلى المراسلات والمجتمعات ، والحجر على الصحافة أن تنشر خبراً عن الوفد وحركاته حتى الخبر بتأليفه أو الإشارة إلى اسمه وغرضه .

ففى أوائل ديسمبر أرسل الوفد احتجاجاً إلى رئيس الوزارة البريطانية ونداء إلى وكلاء الدول فى القاهرة يبلغهم فيه ما كان من عسف السلطة العسكرية ويحتج « لدى حضرات نواب الدول الصديقة التى يهمها أمر مصر على الخطه

التي صار اتخاذها معنا ؛ وعلى كل قرار بشأن مستقبل مصر بدون أخذ رأى الأمة المصرية فيه .

وفي الرابع عشر من ديسمبر وصل الرئيس ويلسون إلى باريس فأرسل إليه سعد احتجاجاً على منع مصر من إسماع صوتها والافضاء بمطالبها في مؤتمر الصلح يقول فيه : —

« نعم ان السلطات البريطانية طلبت الينا أن نبدي اقتراحات حكومية عن ادارة مصر بشرط أن لا تخرج عن دائرة الحماية التي رتبناها ، وانها بذلك تطلب منا المحال . لأن مصر لم تقبل مطلقاً هذه الحماية التي ليست الاعمال من الأعمال الحربية ، والتي مع كونها مناقضة لآمالنا في الاستقلال فهي مناقضة أيضاً للحقوق التي كسبناها من تركيا من زمان بعيد . فان هذه الحرب أبعد ما تكون من أن تضيق دائرة تلك الحقوق . بل على ضد ذلك توسع فيها إلى حد الاستقلال تطبيقاً للبيادى الجديدة التي تقضى باحترام الجنسيات » وأرسل اليه برقية ثانية عند وصوله إلى لندن في أواخر ديسمبر ، ثم أرسل اليه برقية أخرى يذكر فيها البرقيتين السابقتين . . . فلم يتلق جواباً على واحدة منها !

وفي العاشر من يناير أذاع نداء إلى الأوربيين يقفهم فيه على حقيقة الحركة السلمية التي أخذ الانجليز يشوهونها ويصبغونها بصبغة العداوة الجنسية فقال في بيان مقاصد تلك الحركة : « نبغى أن نستقل بشؤون بلادنا في شكل حكومة دستورية حتى نصلح من حالنا الاجتماعية ما يفسده عادة حكم الأجنبي عمداً ومن غير عمد ، وحتى نبلغ ما يؤهلنا اليه استعدادنا من درجات الكمال ، نبغى أن نظل كاسبين ثقة الأجانب نسهل لهم وسائل ما يزاولونه من الأعمال التجارية والصناعية في بلادنا ونرعى ما لهم فيها من الامتيازات خير رعاية . نبغى أن نبقي كما كنا في الماضى عارفين رسوخ قدمهم في المدنية الحديثة مستعدين لأن نستقدم كبار الفنيين منهم من عسانا نحتاج اليهم للمساعدة في

الأعمال العامة . ولكن لا على أن يكون مناخ الاختيار للاعتبارات الجنسية فقط كما هو حاصل الآن . بل الكفاءة حيثما وجدت بصرف النظر عن كل اعتبار آخر »

وختم النداء بقوله : « فباسم الوفد المصري أعلن إلى كل أجنبي في مصر من ذوى المصالح أن هذا الوفد يقرن بسعيه للاستقلال احترام المصريين لحقوق الأجانب كل الاحترام . كما أنى انتهز هذه الفرصة لأشهد كل رجل حر على المعاملات المنافية للحرية التي عومل بها الوفد المكلف باستماع مؤتمر الصلح صوت مصر وعرض مطالب أهلها ، ولأعلن أن كل حكم في مستقبل المصريين من غير أن تسمع أقوالهم مناقض لقواعد الحق والعدل التي جعلت أساساً لأحكام مؤتمر السلام »

وفي اليوم التالى أرسل إلى كليمنصو رئيس مؤتمر السلام رسالة برقية يقول فيها : « مهما يكن من الاتفاق المزعوم حصوله على المسألة المصرية فإن الحكم في مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا مناقض لما اتفق عليه جميع الحلفاء » ثم يقول « . . . باسم الانسانية التي تأبى أن تذكره الامم على أن تنتقل من يد الى يد أخرى كما تنتقل ملكية السلع ناديك من وراء البحر ان لا تتخذ سكوتنا الاكراهى الذى هو النتيجة الطبيعية لحبسنا فى حدود بلادنا دليلاً على رضانا بسيادة الغير علينا وأن لا تسمح بالحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا »

واتفق فى هذه الأثناء مرور الوفد السورى بمصر ذاهباً إلى فرنسا لتمثيل بعض البلاد السورية فى المؤتمر فكتب سعد إلى السير ريجنالد ونجحت يحدد احتجاجه لهذه المناسبة ، وكتب الى المستر لويد جورج فى هذا المعنى قائلاً : « لا تزال الحال كما كانت حتى ان الأمة المصرية بأسرها من أكبر وزير إلى أصغر فلاح محبوسون داخل بلادهم لا يسمح لأحد بالخروج من هذا الحصار

الشديد» ثم أعقب ذلك بقوله : « انتفعتم في هذه الحرب برجالها وأموالها — أي مصر — وصرحتم في مواطن شتى بأن ذلك كان من أكبر العوامل في احراز النصر في الشرق ، فبينما مصر المساعدة تنتظر أن تعامل بما يتفق مع حالها إذا هي تراكم غداة الهدنة قد قلبتم لها ظهر المجن ، وحبستم أهلها بين حدودها على الذل والهوان . بل هبوا هذه الأمة لامتددة ولا مساعدة فها عاملمتموها بما اتفقتم عليه مع الدكتور ولسن ؟ ... مسموح — على المبادئ القديمة — لرجل السياسة أن يكون استعمارياً . غير أنه لا يسلم أحد الى اليوم أن حب الاستعمار أجاز لدولة حصر أمة ليس بينها وبينها حرب ، وإذا كان حب الاستعمار لا يبيح للمستعمرين والمحافظين مثل هذا التصرف فكيف بالأحرار »

ولم يزل الوفد يوالى احتجاجه عند رجال الدول كلها وصل وفد من وفودها الى المؤتمر ، ويكتب حيناً الى رئيس مجلس النواب في إنجلترا وحيناً الى ذوى الشأن هنا وهناك ، ولا يعلم مصير هذه الرسائل ولم يخف على الوفد نصيب الأمم الضعيفة عند الساسة والوزراء الممثلين لحكوماتهم في مؤتمر الصلح . ولكنه اعتقد أن هذه النداءات كائنما ما كان مصيرها لها فضل محقق على الأقل وهو نفي الشبهة التي يسجلها على مصر السكوت في تلك الآونة ، وعساها لا تذهب عبثاً بين الدول المتنافسات على حل المشكلات وتوزيع المطامع . فان الانجليز لن يقدرُوا على التحكم في مشكلات الدول الأخرى باسم العدل والحرية وعندهم هذه المشكلة المصرية قائمة يصل الى أسماع الوزارة والساسة خبر عنها ما بين آونة وأخرى . فلا بد لهم عاجلاً أو آجلاً أن يصغوا لها ويبالوا بها ، وقد يكون ذلك أسهل عليهم من مساومة الدول عليها وإعادة المساومة كلها تجدد خلاف بينهم وبين الدول أو بينهم وبين الأمة المصرية

ثم عمد الوفد إلى الاجتماعات كلها تهيأ له سبيلها ، ففي الثالث عشر من شهر يناير أقام حمد الباسل باشا « حفلة شاي » في بيته حضرها من استطاع حضورها من أعضاء الوفد والوجوه والفضلاء . فألقى فيها سعد خطابه الأول في أول اجتماع وطني أقيم بعد الحرب العظمى ، وبدأه بشكر صاحب البيت والحاضرين ثم استطرد إلى إنكار الاحتلال وإنكار الحماية التي « هي أيضاً أمر باطل بطلاناً أصلياً أمام القانون الدولي ، ومخالف لمخالفة صريحة للمبادئ الجديدة التي خرجت بها الإنسانية من هذه الحرب الهائلة . فنحن أمام القانون الإنساني أحرار من كل حكم أجنبي ، فلا ينقصنا إلا أن يعترف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال . »

ثم قال عن هذه المبادئ الجديدة : « من الناس من يرون هذا المذهب السياسي الجديد أجمل من أن يتبع في هذه الحياة الدنيا : حياة المراحة على البقاء والمغالبة على المنافع نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه ممكن متى جد الدكتور ولسن في تطبيقه بحزمه المعروف ، وأنه لجاد . بل ارتقى إلى أن أقول إن تطبيقه سهل متى صححت نيات أكثرية الدول التي أقرته بالاجماع . ذلك لأن هذا المذهب غير مخالف لما ألفت الإنسان من الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الأخلاقية ، ثم هو متفق مع الأفق الذي وصلت إليه الإنسانية في تطورها الجديد . ألا ترون أن مبادئ الديمقراطية التي أوجدت هذا المذهب تنتشر على جميع صورها الممكنة في أرجاء البلاد المتمدنة بقوة هائلة وبسرعة لم يعهد لها نظير في تاريخ المبادئ الإنسانية »

ثم قال : « إن إيماننا بقواعد الحق والعدل هو عدتنا . وكفى بها عدة ، وإن اجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمة ، ولا ينقصنا إلا أن يسمع مؤتمر السلام صوت الأمة ، ولكن سيصله ولو من بعيد : يصله فينصت إليه على رغم ما يقال من أن مؤتمر السلام الذي يعقد اليوم أشبه ما يكون بما سبقه من المؤتمرات »

« هذا هو النحو الذى ننحوه فى قضيتنا وأما خطة مصر المستقلة فهى :
أولاً — تريد مصر أن تكون حكومتها دستورية ، وإن تراعى فى
تفاصيل النظام حالة البلد الخصوصية من جهة ما الأجانب فيها من المصالح ،
وإن تقوم بعمل إصلاحات اقتصادية وإدارية واجتماعية تستعين على تحقيقها
بدوى العلم من أهل البلاد الغربية . كما كانت تلك عاداتها فيما مضى

ثانياً — تعلن مصر أن امتيازات الأجانب فيها ستحترم بكل دقة ،
وإذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو الى تحويل اليق بمقتضيات الأحوال
فإنها تعرض ما يعن لها من وجوه التعديل التى من شأنها المساعدة على تقدم
البلاد مع صيانة المصالح المنظور فيها ، وتكون فيما تعرضه من ذلك واسعة
الصدر غاية فى الاخلاص والمجاملة

ثالثاً — تتعهد مصر بالبحث فى وضع طريقة للرقابة المالية لا تقل فى
أهميتها بالنسبة للبلاد الأجنبية ذوات المصلحة عما كان متبعاً قبل اتفاق سنة
١٩٠٤ ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى »

رابعاً — تكون مصر مستعدة لقبول كل ما تراه الدول من الاحتياطات
مفيداً للحفاظ على حياد قناة السويس

خامساً — تعتبر مصر نفسها حائزة لأكبر شرف لو وضع استقلالها تحت
ضمان جمعية الأمم ، وأن تشترك - بهذه المثابة - بقدر ما لديها من الوسائل
فى تحقيق مبادئ العدل والحق على النمط الحديث

وأن من الفضيلة أن نقرر بأن كل ما نقوله عن مصر ينسحب على
السودان لأن مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة ، بل هو كما قال المستشار
المالى فى تقريره سنة ١٩١٤ ألزم لمصر من الاسكندرية .

ثم اقترح فى ختام الخطبة إرسال نداء من الأمة إلى الرئيس ولئن تعرض
فيه « قضية مصر التى يتسلط عليها الأجنبي تسلطاً يأباه أهلها أجمعون » فوافق
الحاضرون بالإجماع

ثم دعا سعد مئات من وجوه البلاد إلى اجتماع يشهدونه في داره أصيل
اليوم الحادى والثلاثين من شهر يناير ، فعلمت القيادة العسكرية بهذه الدعوة
ومنعها ، وأبلغ سعد أمر هذا المنع إلى رئيس الحكومة البريطانية وجدد
الاحتجاج إلى رئيس المؤتمر وبعض رؤساء الوفود الدولية فيه
وبينما كانت القيادة العسكرية تمنع كل اجتماع وطنى يتصل بها خبره كان
مستر برسيغال القاضى الانجليزى يوالى محاضراته فى نادى « جماعة الاقتصاد
والاحصاء والتشريع » ليمهد الأذهان لابدال القوانين الانجليزية بالقوانين
المصرية وتخليد الحماية على مصر بأحكام الدستور والشرعية ، ويشهر بالجمعية
التشريعية وقلة صلاحها للتشريع أو لبحث القوانين . . . وكان السابع من شهر
فبراير موعد محاضرته الثانية ، فأراد سعد أن يستعير من دعاية الحماية دعاية
للاستقلال ! واغتنم فرصة اجتماع السامعين من أعضاء تلك الجماعة ومدعوها —
وهم نخبة من عليّة المصريين والأجانب — فذهب إلى ناديهما وابتدرا المنبر بعد
فراغ المستر برسيغال من محاضرته قائلا : « إن أمتنا المصرية ليست من قبيل
الأقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة . وأيما بلد كبلدنا له حياة
عريقة فى القوانين والشرائع فمن الخطر أن يعتمد إلى تغيير كلى فى شرعه
دون أن تدعو الضرورة لذلك أو تهدى اليه التجربة والاختبار » .

ثم قال : « وقد أشار حضرة المحاضر إلى أنه تحول على الجمعية التشريعية
مشروع يتضمن تعديلا فى نصوص القانون الخاصة بالضربات والجروح ولم
تفعل فيه شيئا . نعم ان هذا المشروع تحول على لجنة الحقانية التى أنا رئيسها
فرأت أنه يلزمها للاقتناع بضرورة التعديلات المعروفة ببيانات واحصاءات
طلبت من وزارة الحقانية تقديمها اليها وكررت هذا الطلب عدة مرات حتى
انتهى دور انعقاد الجمعية ولم ترد هذه البيانات

» رأيت من واجبى أن أبدى لحضراتكم ما قدمت من الملاحظات .
ولكن هناك أمر آخر هو أهم مايجب التنبيه اليه . فقد تكلم حضرة المحاضر

عن الباب الثانى من الكتاب الثانى فى المشروع وفى هذا الباب ما يتعلق بحالة سياسية لا وجود لها الآن .

إلى ان قال : « أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية . فهى حماية باطلة لا وجود لها قانوناً . بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » .

ولقد فوجئ الحاضرون بهذه الخطبة التى جاءتهم فى غير مكانها وفى غير أوانها لأنهم حضروا ليستمعوا إلى خطبة فى تسجيل الحماية لا إلى خطبة فى انكار الحماية وإعلان بطلانها ! فخرج بعض الموظفين الانجليز إلى النور يريد أن يطفئه لفض الاجتماع ، ومنعه آخرون لأنه عمل لا يليق فى جمع كذلك الجمع ، وغادر أفراد مكان الاجتماع وبقي الأكثرون متشرفين لما عسى أن يكون بعد هذه الصيحة الجريئة .

ترى ماذا يصنعون بالرجل الذى قام بين أساطين الاحتلال لينكر نظام الحكم فى وجهه مثليه ؟ ماذا يصنعون به والبلاد لا تزال فى قبضة القيادة العسكرية ؟ والقيادة العسكرية تملؤها خيلاء النصر والثقة العمياء بتوطيد آثاره ؟ أيعتقلونه ؟ أيتركونه ؟ أمست الدوائر العليا وهذا التساؤل حديثها ، وتسائرت الروايات فى أنحاء القطر باخبار الخطبة ، فكان الناس يتناسخون ما يصل اليهم منها ، ويضعونه الى ماتلقفوه من الخطب والنداءات قبلها . ويزدادون حرصاً على اقتنائه كلما ازداد الحرص على منعه . وقد كانوا يستهلون هذه الصيحات فى وجه الحماية على قدر ما كان يهولهم من طغيان القوة العسكرية وسهولة النفي والحجر والاعتقال والتعرض للمتاعب والأخطار لأيسر شبهة

إلى هنا أصبح بادياً لرجال دار الحماية ورجال القيادة العليا أن الحالة مع الوفد قد وصلت إلى درجة من الحرج تنذر بالتعب والمضايقة وتضطربهم إلى علاج أنجع من علاج الحصر والانعضاء ، وأن الاصطدام بينهم وبين الوفد آت لا ريب فيه ، وأن سعياً لا ينو أن يقصر جهده على الرسائل البرقية التي لا يجاب عليها ، والاجتماعات العامة التي يصدر الأمر بمنعها ، ولكنه ينو أن يتابع خطاه وأن يفتح الأبواب كلها أغلق في وجهه باب ، وأن يهجم حيث ينتظرون وحيث لا ينتظرون إذا كان لا بد من الهجوم ، فلا مناص لهم من تركه يمشى إلى حيث يعلمون أنه ماض لا محالة ، أو من معالجته بأسلوب في الردع والمحاصرة غير الأسلوب الذي قنعوا به إلى تلك اللحظة .

ولو كان هذا كل ما هنالك من الحرج لكان كافياً لمعاودة النظر في أساليب الردع والمحاصرة . ولكنه قد وصل من جانب آخر إلى حده الأقصى في دواوين الحكومة ، فاستقالت الوزارة الرشدية وأصرت على الاستقالة ، وتعذر اقناع أحد من الساسة والمستوزرين بقبول الوزارة قبل السماح لنواب المصريين بالسفر إلى مؤتمر السلام ، وتعطلت الأعمال الرسمية في العاصمة والجهات ، واعتبرت القيادة العسكرية أن الوفد المصري هو المسئول عن الأزمة من البداية إلى النهاية

ونعود قليلاً إلى ما بعد الهدنة لتعقب أطوار هذه الأزمة الوزارية ونستعرض أسبابها التي دفعت حسين رشدي باشا إلى الاستقالة ، ثم الإصرار عليها ، ثم إلى بقاء هذه الاستقالة معلقة بين الرضا والقبول ، وبقاء البلاد بغير رئيس وزارة أكثر من أربعة أشهر . إلى أن عاد حسين رشدي باشا نفسه إلى رئاسة الوزارة في التاسع من شهر إبريل

فبعد زيارة سعد وصاحبيه لدار الحماية ظن رشدي باشا أن الحكومة البريطانية لا تضمن عليه بالسفر كما ضنت به على الوفد المصري ، ولأنه لا يثق منه المحادثة في تنظيم الحماية كما أبت من سعد المحادثة في الاستقلال ، فرفع ملتمسه .

إلى صاحب العظمة السلطان مستأذناً في السفر مقترحاً أن يعهد عظمته إليه وإلى زميله عدلى باشا بهذه المهمة ، منبياً عنه اسماعيل سرى باشا في الرئاسة وعبدالحق ثروت باشا في الداخلية ، وأحمد زيور باشا عن عدلى باشا في وزارة المعارف .

ولكنه حين أبلغ طلبه هذا إلى الحكومة البريطانية جاءه الرد بما فحواه أنها غير مستعدة للقائه . لا اشتغال الوزراء بمؤتمر الصلح وغيابهم عن العاصمة وأنه لا ينتظر أن تفرغ الحكومة للبحث في شؤون مصر الداخلية إلا بعد وقت « متأخر جداً » .

فلم يسعه أمام هذه الصدمة إلا أن يستقيل ، ورفع استقالته هو وزميله عدلى باشا في الثالث من ديسمبر . فلم يقبل عظمة السلطان الاستقالة ، ووجد السير ريجنال ونجحت سعيه في طلب الاذن من حكومته بسفر الوزيرين فأصرت على رفضها ، ثم توالى رفض الاذن للوفد المصرى بالسفر إلى لندن أو مؤتمر الصلح بعد أن شايعته الوزارة في طلب سفره ، فعاد رشدى باشا في الثالث والعشرين من ديسمبر إلى تأييد استقالته الأولى ، وقال في خطابه الثانى إلى عظمة السلطان « . . . طلبت وفود مؤلفة من بعض أنظمتنا النيابية السفر إلى لندرة للدفاع عن قضية مصر . وقد أشرت بأن يؤذن لها بالسفر فلم تهمل مشورتى فقط بل رفض سماع آرائى فيما يحتمل أن يكون عليه نظام الحماية . وهكذا ستكون مصر البلد الوحيد الذى لم يسمع صوته فى الوقت الذى يسوى فى مصيره نهائياً »

لم يقبل عظمة السلطان هذه الاستقالة الثانية أيضاً ، ولبث الوزراء فى دواوينهم ما عدا الوزيرين المستقيلين . ثم أكد رشدى باشا استقالته مرة ثالثة فى الثلاثين من ديسمبر ، فجاء الاذن عندئذ بسفر الوزيرين مع الاصرار على رفض سفر الوفد أو بعض رجاله . فخار رشدى باشا فيما يصنع : إن سافر إلى لندن لتنظيم الحماية والوفد باق فى مصر يطلب الاستقلال ولا يقنع بما

دونه فليس لمسهاه عند الحكومة البريطانية مصير غير الفشل المحتوم ، وإن غير طلبية الأول وارتقى إلى طلب الاستقلال بعد تصريحاته الحديثة والقديمة بحمد الحماية والقنوع بتنظيمها فليس له أمل في النجاح ، فتشبت بسفر الوفد معه ، واتخذ من رفض سفره ذريعة إلى التنحي والاعتزال . فتنحى ومعه جميع الوزراء ، ونشرت الوقائع المصرية في أول مارس الارادة السلطانية التي صدرت بقبول الاستقالة .

استقالة
ماذا بقي بعد قبول الوزارة إلا أن تتألف وزارة جديدة ؟ وإذا تألفت وزارة جديدة الا يكون مجرد قيامها دليلا على انها تأتي بسفر الوفد ولا تأتي أن تطوى قضية الاستقلال ؟ لا بد إذن من احباط الوزارة المنظورة أو من قارعة تنوب عن سفر الوفد في اظهار شعور الأمة . ذلك كان رأى سعد الذى استقر عليه واضطلع به واسرع بالمضى فيه .

فبدأ بأبلاغ معتمدى الدول واحتجاجه على الحالة كلها والقاء التبعة على الانجليز المسؤولين عن أسبابها ، وطلب الاذن بلقاء صاحب العظمة السلطان فى الثالث من شهر مارس . . . وقد كتب هو وزملاؤه عريضة إلى عظمته لخصوا فيها موقف الوزارة الرشدية ثم قالوا :

« ولقد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين — لاعتبارات عائلية — أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذى خلا بانتقال أخيك المأفون له السلطان حسين إلى رحمة الله . ولكن الأمة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة ؛ رعاية لتلك الظروف العائلية ، ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم . غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرنا احترامهما لارادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جباكم عليه من حب الخير لبلادكم والاعتداد بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف انهم لم يلتفتوا إلى أن الأمة فى هذا الظرف العصيب إنما تطلب منكم — يا أرشداً أبناء محررها الكبير محمد على — أن تكونوا

العون الأول على نيل استقلالها مهما كلفكم ذلك ، فان همتكم أرفع من أن تحدها الظروف . كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجل مصرى ذى كرامة وطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟ « عفواً يامولانا . قد تكون مداخلتنا فى هذا الأمر ، وفى غير هذا الظرف ، غير لائقة . ولكن الأمر قد جل الآن على أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أتت خادمه الأمين

» أن لمولانا أكبر مقام فى البلاد . فعليه أكبر مسئولية عنها ، وفيه أكبر رجاء لها ، واثنا لا نكذبه النصيحة اذا تضرعت اليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قراراً نهائياً فى أمر الأزمات الحالية . فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد من رعاياه من أقصى البلاد إلى أقصاها إلا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبها مسئولية لم يتحرر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة

» لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا وإخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التى هى أشد ماتكون رجاء فى استقلالها وأخوف ماتكون من أن تلعب به أيدي حزب الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتتال بذلك غرضها ، وانه على ذلك قدير

» واثنا نتشرف بأن نرفع عبارات الاخلاص إلى مقام عظمتكم الكريم .

بهذا الرجاء الصارخ توجه سعد وأصحابه إلى ولى الأمر ليحول دون تأليف وزارة جديدة بعد استقالة الوزارة الرشدية ، وقيل انه رفع الى السلطان يعلم رشدى باشا وموافقته ، بل قيل إن رشدى باشا هو أول من أدلى بالرأى فى وجوب كتابته ، ولا خلاف على كلتا الحالتين فى أن سعدا هو المضطلع بالتبعة الأولى فى كتابته وتقديمه

ان الذين يكتبون ذلك الخطاب لم يكتبوه إلا وهم واثقون كل الثقة
انهم غير متروكين الا ريثما تتم التمهيدات العاجلة لاعتقالهم أو محاكمتهم في
وقت قريب . لان القيادة العسكرية لا تريد أن يجيب عظمة السلطان هذا
الطلب . فلا مندوحة لها إذن عن اعتقال الطالبين أو اعتقال ذوى النفوذ منهم
وكفهم عن مواصلة العمل لاحباط قيام الوزارات ، وهذه هي «القارعة»
التي كان يتمناها سعد لا بلاغ صوت مصر إلى إستماع العالم كله . مادام الانجليز
قد يبتوا أمرهم على خفق هذا الصوت وراء السدود والاعلاق

ولقد هالت هذه الخطوة الجريئة رجال دار الحماية كما انتظر سعد
وأصحابه ، فأبرق السير ملن شيتهم إلى حكومته يشرح لها الحالة ويقترح نفي
سعد الى جزيرة مالطة ، فجاء الرد السريع بالقبول

وقد كان الانجليز يفضلون أن يعتقلوا سعدا أو يحاكموه بحجة أخرى
غير حجة التمرد على الأحكام العسكرية واحباط تأليف الوزارة . فطلبوا من
صاحب العظمة السلطان أن يصرح بعصيان سعد وأصحابه وخروجهم على
واجب الولاء لعرشه ، ثم تجرى المحاكمة بعد هذا التصريح بهذه الحجة
فيقال في انحاء العالم إن الانجليز يحاكمون أناسا خارجين على عرش بلادهم ، ولا
يقال انهم يحاكمونهم لأنهم ينشدون حقوقهم ويستأذنون في السفر إلى حيث
تسافر وفود العالم أجمع ! او حاولوا الحصول على هذا التصريح يومين فلم
يقلحوا . لان السلطان نظر في العواقب فرفض ما طلبوا ، فعمد الانجليز
إلى الوسيلة الأخرى التي تذرعوا بها إلى اعتقال سعد ونفيه ، وهي انذاره
وهم يعلمون أنه لن يخضع للانذار ! فان خضع وكف عن الحركة والعمل
فذاك عندهم خير من تنفيذ ما أوعدوه

لا أجزم بصحة الراوية التي رويت لي عن طلب التصريح المشار اليه من
السلطان ورفضه محاكمة الوفد أو اعتقاله بحجة العصيان والخروج على عرشه
فاننى لم أسمع هذه الرواية قط من سعد أو من أحد في حياته ، وانما سمعتها بعد

موته من بعض أصدقائنا الكبار الذين لا أعهد فيهم الجزاف في القول ، فرجحتها لمصدرها الوثيق ولاعتقادي أنها تشبه المعروف من أخلاق الانجليز ومن أخلاق السلطان فؤاد في وقت واحد . فمن عادة الانجليز أن يحاكموا طلاب الحرية باسم الخروج على أولياء البلاد الشرعيين لا باسم الخروج على مطامع السياسة الانجليزية ، فلا عجب أن يفكروا في اتهام سعد وأصحابه بعصيان السلطان والخروج على عرش البلاد ، بدلا من اعتقالهم في تلك الأيام لانهم يجهرون بحقوق الأمة المصرية التي يقول الانجليز إنهم يرفعونها كما يرفعون حقوق الأمم العزلاء .

أما السلطان فؤاد فمن أخص صفاته التي اشتهر بها بعد النظر وحسن الموازنة بين الأمور . فلا جرم يرفض اقتراح القيادة البريطانية لان الرفض مأمون العواقب موافق لما تقدم من سياسة السلطان فؤاد . . . أما قبول الاقتراح فلا أمان فيه

فغاية ما في رفض الاقتراح أنه يغضب القيادة البريطانية ، وماذا تصنع القيادة البريطانية إذا غضبت في ذلك الموقف المشتبك الدقيق ؟ اتخلع سلطانا وتسقط وزارة وتعتقل نواب شعب وتقهّر شعباً كاملاً لانهم جميعا متفقون على المطالبة بحق تقرير المصير ؟

ذلك بعيد . . . ورفض الاقتراح إذن هو الرأي الذي تشير به الحكمة وحسن الموازنة بين عواقب الأمور ، وأقل ما في تلك العواقب أن لا يحفظ في سجلات العرش انه أعلن عصيان أناس لانهم يطلبون للبلاد الاستقلال

على أن السياسة التي سبقت من السلطان فؤاد قبل رفض الاقتراح المعروف عليه هي سياسة تشجيع الوفد على السفر لا سياسة الوقوف في طريقه ، لان العرش هو صاحب النصيب الا وفي فيما يسعى اليه الوفد من طلب الاستقلال ، أيا كان ميل السلطان الشخصي إلى سعد وأصحابه . وقد ظن سعد أن رشدي وعدلي لم يكونا مبتكرين لما عرضاه عليه من التفكير في

فتح باب القضية المصرية عند اعلان الهدنة وعرض المسائل القومية على مؤتمر الصلح ، وكأنه يشير تليحاً إلى سر هذه الفسكرة وبحسبها من إيجاء السلطان فؤاد . . . ثم جاءت استقالة رشدى باشا مر حجة لهذا الحسبان لأنها أعلنت أن التماسه السفر هو وعدلى باشا إنما كان باتفاق مع السلطان ، ثم جاء رفض السلطان الاستقالة مرتين زيادة فى الترجيح والدلالة ، وأكثر من ذلك فى الدلالة على الاتفاق بينه وبين رشدى باشا أنه عكف على قصر البستان طوال المدة التى قضتها الوزارة الرشدية وهى مستقيلة ، فلم يحضر قط خلال هذه المدة الى قصر عابدين

نعم ان السلطان فؤادا قبل استقالة رشدى باشا أخيراً واستعد على ما يظهر لتأليف وزارة جديدة ، ولكنه قبلها بعد ورود الاذن من الحكومة البريطانية إلى رشدى باشا وعدلى باشا بالسفر الى العاصمة الانجليزية ، ومن السهل على السلطان أن يظهر امام القيادة البريطانية بتأييد وزارته الرسمية فيما طلبت من التحدث فى حدود نظام الحكومة . ولكن ليس من السهل عليه أن يظهر أمامها بالايعاز إلى هيئة « غير رسمية » بمحاربة تلك القيادة ، أو يظهر التضامن معها فيما تعده الدولة البريطانية خروجاً على النظام

لهذا جميعه رجحنا صحة الرواية التى رويت لنا عن رفض تصريح العصيان ، وكيفما كانت الحقيقة فى تلك الرواية فالتأيت أن الانجليز قد اضطروا الى مواجهة الوفد بحجة غير تلك الحجة ، وهى أفضل لديهم لو وجدوا السبيل اليها

فى اليوم السادس من شهر مارس استدعى القائد العام الجنرال واطسون سعداً وتسعة من أصحابه إلى مركز القيادة العامة بفندق سفواى ، وفى الساعة الثالثة بعد الظهر خرج لهم من مكتبه ، وفى يده ورقة مكتوبة قرأ عليهم منها انذاراً باللغة الانجليزية يحذرهم فيه من وضع مسألة الحماية موضع المناقشة و « إقامة العقوبات فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى فى منع

تشكيل وزارة جديدة » ويهددهم — إن أقدموا على مخالفة ذلك — « بالمعاملة الشديدة بموجب الأحكام العرفية » ... ثم تليت عليهم ترجمة هذا الانذار بالفرنسية ، وأسرع القائد فقال : لا مناقشة ! وعاد من حيث أتى .

اجراء شكلى أو صيغة تنفيذية لا أكثر ولا أقل . فهما يكن من غرور العسكريين بقدرتهم على الارهاب والتخويف فلا نحسبهم كانوا يعتقدون جدا ان المسألة كلها تتوقف على انذار صارم ثم يختم الوفد اعماله ويفض جلساته ويحجم عن معارضة الحماية وطالب الاستقلال .

فالوفد الذى كتب ذلك الخطاب وصدم به القيادة العسكرية تلك الصدمة لم يكتبه لينخشى التهديد ويرتعد فرقا من تقطيب القائد العام وصرامته فى اللقاء النذير وقطع المناقشة ... ولكنه كتبه وهو يتحدى التهديد ويخرج للقاءه قبل أن يأتى اليه ...

وليس من المعقول ولا من المنتظر أن يقنع الوفد بشيء بعد تلك الخطوة الجريئة غير اجابة مطلبه البديهي العادل وهو السفر إلى حيث يشاء ، فاما الانذار على تلك الصورة فليس من الجدى شئ ، وانما هو دور من أدوار التمثيل أو صيغة تنفيذية لا يراد بها إلا شكلها المحفوظ كما أسلفنا

فى اللحظة التى فرغ فيها القائد العام من تهديده ، طلب سعد نسخة من الانذار للرد عليه . ولم تنقض إلا ساعات قلائل — وهى المدة الكافية لكتابة الرد وترجمته — حتى كان جوابه على الانذار عند رئيس الوزارة البريطانية ، يبلغه فيه ان الوفد يطلب الاستقلال التام ويرى الحماية غير مشروعة ، ولا يتأخر عن أداء واجبه مهما كلفه ذلك ، ويلقى التبعة فى بقاء البلاد بلا وزارة « على الذين وضعوا من هم أهل للوزارة فى مركز حرج أمام ضمائرهم وأمام مواطنيهم »

ولبت يترقب ما تهدده به القيادة العليا ... وما يتمناه !

القارعة

لا بد لنا من قارعة !

تلك هي الكلمة التي كان يرددوها سعد في الأسبوعين الأخيرين قبل تقيده ، لأنه كان يرى بحق أن السكوت يتبعه سكوت وان الحركة تتبعها حركة ، ولم يكن جازما بأن الثورة آتية بعد القارعة التي كان يتصدى لها ويستبطن وقوعها ، لأن المعسكرات والقلاع والمطارات في مصر كانت تعج بالجيش وتزدحم بالمدافع والدبابات والطائرات . والمصريون مجردون من كل سلاح حتى المراوات والمدى وبنادق الصيد . والخطب ممنوعة والصحف مراقبة والذهاب والإياب بمصر من الجواسيس والعيون . فاذا تعذرت الثورة على المصريين فغير عجيب أن تتعذر ، وغير لازم أن تتورأمة في هذه القيود ، وهي لا ترجو بالثورة العزلاء . أن تغلب الغالبين المزودين بكل سلاح

لم يكن جازما بأن الثورة آتية ، ولكنه كان جازما بأنها إذا أتت فإن يكون مجيئها الا بقارعة تشعل نيران الغضب في الأمة الواحدة المتحفزة . وفي وسعه هو أن يتصدى للقارعة المرجوة المرهوبة فليصد إذن لها ، وليعمل ما في وسعه . وعلى المقادير بقية التدبير

وعندنا أن سعدا لو كان جازما بالثورة جزما لا تردد فيه لكانت بطولته دون هذه البطولة ونصيبه من الاقدام دون هذا النصيب ، لأنه يقدم ولا يخشى أن يطول الخطر الذي يقدم عليه ، ويجازف ويعلم أن غضب الثورة يحميه . فأما أن يقدم وهو لا يبالي أن يستهدف للنكال دون أن يتبعه أحد أو يقفو ضربته ضارب فتلك هي البطولة العليا ، لأنها بطولة الواجب ، وهي أعلى وأقوم من بطولة الحساب والتقدير .

ومضى يوم ولم تأت القارعة فاستبطأها ، وكان من عادته أن يخرج من مكتبه ليشمى في الطريقة لحظة ثم يعود إليه ، ففي مساء اليوم التالى لارساله البرقية إلى رئيس الوزارة البرقية لقي عضوا من أعضاء الوفد في تلك الطريقة فقال له : إن الجماعة لم يأتوا بعد . أترام لا يأتون ؟ ثم قال : هذا ليس بنافع . انهم أما أن يدعونا نسافر أو يقبضوا علينا ، وإلا فهم يتركوننا نموت في مواضعنا .

بيد أن هذا القلق لم يطل أكثر من يوم آخر . لأن « الجماعة » المنتظرين أتوا في مساء اليوم التالى أى في اليوم الثامن من شهر أغسطس . فجاء إلى بيت الأمة — عند الساعة الخامسة — ضابط بريطاني برتبة صاغ ومعه ضابط آخر برتبة الملازم ومترجم مصرى ، ووقف على جانبي الباب الخارجى جنديان بريطانيان يحمل كل منهما بندقية في طرفها حربة ، وكان طالب من طلاب المدارس العليا قد دخل إلى بيت الأمة قبيل مجيئهم ممرولا فأبلغ الأستاذ فؤاد القصبجى (١) الذى كان يعمل يومئذ في قلم الكتاب والمترجمين الملحق بالوفد المصرى أنه رأى ضابطا بريطانيا يستوقف محمد محمود باشا في طريقه إلى بيت الأمة ويركبه سيارة من سيارات الجيش الانجليزى . فخرج الأستاذ فؤاد ليخبر سعد بما أبلغه الطالب ، واذا به أمام الضابط البريطانى على باب الحجرة ، فارتد هذا وبادره قائلا بالانجليزية : « انى أريد مقابلة سعد زغلول باشا فأين هو ؟ » فأجابه الأستاذ فؤاد بالفرنسية : « تفضل فانتظر في حجرة الاستقبال ريثما أخبر الباشا » وأشار إلى حجرة الاستقبال . فلم يفهم الضابط قوله وظن أن الباشا في الحجرة التى أشار إليها ، وعاد يقول : هل سعد باشا هنا في الحجرة ؟ فقال الأستاذ فؤاد : لا . وإنما أنا ذاهب لا بلاغه . فنظر إليه الضابط نظرة فاحصة وقال له : بل أنا أريد أن أراه بغير وساطتك ، فاعتذر الأستاذ وهتف به في شيء من الاستغراب : أن العرف هنا لا يبيح الزائر أن يقدم نفسه بنفسه ؟ ... قال الضابط متهمكا : « في هذه الزيارة لا بأس من المقابلة والتفديم في

(١) اعتمدنا على رواية الأستاذ فؤاد في تفصيلات ما حدث بيت الأمة في حضوره .

وقت واحد ! » والتفت إلى الأستاذ فؤاد فرآه واضعا يده اليمنى في جيبه نخيل اليه أنه يخرج منه سلاحا فناداه في لهجة عسكرية : « ارفع يديك » .
وأسرع الضابط الثانى إلى مسدسه يستعد لتجريدده .

وكان سعد فى مكتبه قد شعر بما يجرى على حجرة الاستقبال فخرج الى باب المكتب ، ولحقه الأستاذ فؤاد والضابط هناك فى وقت واحد . فقال الأستاذ للضابط : هاهو سعد باشا . فتركه الضابط واتجه إلى الباشا وهو يحية التحية العسكرية .

نظر الباشا الى الضابط مليا ثم دعاه الى المكتب ، فرفع قبعته ودخل معه ، ثم خرجا والباشا يتقدمه فى ثباته المعهود إلى درج السلم حيث وقف وقال له بالفرنسية : « لست أذهب معك على قدمي . سأرسل فى احضار مركبة » فلم يفهم الضابط قصد الباشا وردد قوله : « لدى أمر بالقبض على سماعتك » قال الباشا وهو يبتسم : « فهمت ذلك جيدا . ولكنى أريد احضار مركبة » ففهم الضابط عند ذلك بشئ من العناء ، وأشار الى حيث تقف السيارة العسكرية بالانتظار . وكانت آخر كلمة قالها سعد قبل مغادرته بيت الأمة « تشجعوا » ... قالها بالفرنسية وكررها مرات

ولما هم بالنزول التفت الضابط الى الواقفين الذين تجمعوا فى هذه الفترة وسأل أين اسماعيل صدقي باشا ؟ وكان صدقي باشا مع الواقفين فقال : أنا هو ؟ فقال الضابط : تفضل بالمحجى . معي ! فاجابه « حسنا . ولكن تسمح لى بالرجوع لحظة الى المكتب » فوضع الضابط يده على كتفه وقال : « لا . انى أخشى أن تذهب ! » قال صدقي باشا : لو كنت أريد الحرب لما أظهرت لك نفسى » ثم أفلت من يده ومضى إلى المكتب . فانتظره الضابط إلى أن عاد ... ثم سأل : أين منزل حمد الباسل باشا ؟ فلم يجبه أحد ، وبعد هنيهة أشار أحد الواقفين إلى المنزل ودل الضابط عليه .

ولم يذكر لى الأستاذ فؤاد قصبجى فيم كانت عودة صدقي باشا الى المكتب

تلك اللحظة ، ولكنى علمت بعد ذلك أنه عاد اليه ليقتضى بعض الأوراق الهامة مخافة أن تأخذها القيادة العسكرية أثناء التفتيش

ولما هم الضابط بالانصراف تقدم اليه عبد العزيز فهمى بك والاضطراب باد عليه وقال بالفرنسية : « إذا أردتم مرة أخرى استدعاء أحد منا فيمكنني أن تكتبوا اليه وهو يحضر اليكم » . . . واضطر إلى أن يكرر عبارته مرة أو مرتين لأن الضابط لم يفهما لأول مرة . فلما فهمها قال له « أشكرك » ومضى

وبعد نحو ساعة حضر الى بيت الأمة حمد الباسل باشا ، وكان قد علم بما حدث فغاطب مركز القيادة العليا بفندق سفواى سائلا : الى أين تريدونني أن آتيكم ؟ « فأحالوه إلى ثكنة قصر النيل ليسألها . . . وطلبت منه هذه الحضور على الاثر . فودع أصحابه وذهب الى الثكنة

وقد أدخل سعد وأصحابه فى الثكنة كل واحد منهم الى حجرة منفردة حتى المساء . ثم سمح لهم بالاجتماع ساعة العشاء

وقضوا الليلة فى الثكنة يتساملون عن مصيرهم ، وفى الصباح أبلغهم ضابط كبير أنهم قد سمح لهم باستحضار ثياب من منازلهم تكفيهم لمدة شهر ، وبخادم لكل منهم ، إذا شاء

وفى اليوم الثالث سئلوا : هل أتم على استعداد للمسير ؟ فأجابوا . على أتم استعداد . ونزلوا مع الحراس إلى فناء الثكنة فركبوا سيارتين تتبعهما سيارة بضاعة ، تحمل الاتباع والحقائب

وخرجت السيارات مسرعة إلى محطة العاصمة . فلما نزلوا منها أحاط بهم عشرون ضابطا انجليزيا ومعهم محمود صدقي باشا محافظ العاصمة ، وساروا بهم إلى الرصيف الذى يقف عليه قطار بور سعيد ، وأدخلوهم جميعا إلى ديوان واحد فى القطار ، ومعهم واحد من الضباط

لم يكن سعد وأصحابه يعلمون الوجهة التى يتجهون اليها ، فكانوا عند

خروجهم من ثكنة قصر النيل يحسبون أنهم منقولون إلى معسكر المعادي . . .
فلما اتجهت السيارة يسارا وبلغوا قطار بور سعيد ظنوا أنهم منقولون إلى
رفح أو إلى السويس ، ثم وصلوا إلى بور سعيد ووجدوا هناك ضابطا
بريطانيا بالانتظار . فأركبهم معه سيارة إلى الميناء ، وأصعدهم إلى نقالة بريطانية
تقل الفين من الجنود الانجليز في طريقهم إلى بلادهم ، وأخذ البحارة
في تدريبهم على وسائل النجاة عند الخطر ، لأن السفن كانت تصطدم بالألغام
كثيراً في بحر الروم

علموا أنهم منقولون إلى جزيرة مالطة حيث كانت القيادة العسكرية تأسر
المعتقلين من المصريين والترك والالمان ، ولكنهم لم يعلموا ذلك من ضباط
النقالة إلا بعد الخروج من الميناء . فقبل لهم في عرض البحر إنهم ذاهبون إلى
تلك الجزيرة ، ووصلوا إليها بعد ثلاثة أيام .

تساءل الكثيرون : على أي قاعدة جرت الحكومة الانجليزية باختيارها
أصحاب سعد الثلاثة في هذا الاعتقال ؟ وتعليل ذلك على ما نرى ان القيادة
العسكرية لاحظت التقاليد الرسمية في اختيار كبار الوفد الذين يعتقلون مع
رئيسه . فاسماعيل صدقي باشا وزير سابق ، ومحمد محمود باشا مدير سابق ،
وحمد الباسل باشا من غير الموظفين هو رئيس قبيلة بدوية كبيرة يعرفه
الانجليز من أيام الحرب الطرابلسية ، وجميعهم يحملون لقب الباشوية ،
فاختيارهم هو الاختيار الوحيد الصحيح من وجهة التقاليد الرسمية .

الثورة

سرى نبأ الاعتقال بطيئاً متناقضاً في اليوم الأول ، لأن القيادة العسكرية حظرت على الصحف نشره والتلويح اليه ، فعلم به أعضاء الوفد وأصدقائه وموظفوه في يومه ، وعلم به طلبة المدارس العليا في اليوم التالي لأنهم يجتمعون في أمكنة متقاربة وينتمى بعضهم إلى أعضاء الوفد وأصدقائه بصفة القرابة أو المعرفة ، وتسامعت به أحياء القاهرة شيئاً فشيئاً ، وانتقل منها إلى الأقاليم بمثل ذلك البطء والتناقض ، فلم يسر إلى القطر كله إلا بعد يومين أو ثلاثة .

أضرب طلاب المدارس العليا في صباح اليوم العاشر من شهر مارس عن تلقى الدروس ، وخرجوا من مدارسهم في مظاهرة كبيرة طافت بدور المعتمدين السياسيين للاحتجاج على اعتقال الزعماء وعلى كبت شعور الأمة وحرمانها الحق في ابداء مشيئتها ، وهى تسمع كل يوم دعوة الأمم كافة إلى بيان حقها وتقرير مصيرها

وأضرب عمال الترام بعد الظهر ، ثم أضرب الحوزية في اليوم الحادى عشر ، وأصبحت الدكاكين مغلقة فى معظم أنحاء المدينة إلا الدكاكين الأوربية ، وتجددت المظاهرات من ضلاب المدارس وطلاب الأزهر وطوائف شتى من الجمهور ، فقابلها الجنود البريطانيون بإطلاق المدافع الرشاشة غير مفرقين بين كبير وصغير ، ولا بين مشترك أو غير مشترك فى المظاهرة

وكانت نقابة المحامين قد اعلنت الاضراب فانقطع المحامون عن المحاكم إلا من كان يوفدهم المجلس إليها لطلب تأجيل القضايا ، واستثارت القسوة فى قمع المظاهرات غضب الناس وحنقهم فكثرت المظاهرات بدلا من أن تقل واضطربت وقدتها بدلا من أن تخمد . وطاش صواب الحراس العسكريين

من جراء هذه المفاجأة فأصبحوا لا يميزون بين جمع وجمع ولا يطيقون النظر إلى حشد من الناس ، ففي يوم الجمعة الرابع عشر من شهر مارس أطلقت السيارات المدرعة نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسيني فقتلت منهم بضعة عشر وجرحت خلقا كثيرين ، ولم يكونوا في مظاهرة ولا قصدوا إلى التظاهر ، ولكنهم كانوا خارجين من المسجد بعد أداء الصلاة ، وضابط الفرقة يجهل كل شيء إلا أنهم قوم متجمعون ، وعنده أمر صريح باطلاق النار على كل قوم متجمعين !

وتعددت المظاهرات في مدن القطر فقبولت بمثل ما قبولت به في القاهرة ، وشاع خبر القتل واطلاق الرصاص في أنحاء الأقاليم ، فانفجر كمين السخط الذي طال كظمه في الصدور ، وانفجرت الثورة في كل مكان ،

من الخطأ أن يقال إن المظاهرات كانت هي سبب الثورة الوحيد ، أو ان الثورة ما كانت لتنفجر في القطر لولا مظاهرات العاصمة ، فانما كانت المظاهرات كالشرر الأول يتطاير من فوهة بركان يغلي وهو يهيم بالانفجار ، فمن شهدت تلك الثورة الجارفة التي اندفعت في حينها اندفاعا يدل على عمق مكائدها وتأجيج وقودها أيقن أنها قوة لا تحبس طويلا ، وانها هي سبب المظاهرات وليست نتيجة المظاهرات

فقد صبر الناس زمناً على مظالم الحرب ومضائنها ، ثم انتظروا الفرج بعد الهدنة فاذا بهم يعالجون مرارة الخيبة ويوجسون من مخاوف المستقبل فوق ما أوجسوا من مخاوف السنوات الماضية ، وزاد في نكايتهم أنهم يعانون هذا الكظم كله في الوقت الذي تعمل فيه دعوة الانصاف وتتجاوب فيه الاصداء بالظفر والرجاء ، وأنهم يطلبون أمراً يسيراً هو حق الشكوى والاحتجاج فيجابون بالتهديد والاقصاء عن البلاد ، ثم يستذكرون هذا العنت الغاشم فيعاقبون باطلاق الرصاص ، ولا يراد منهم إلا أن يخنقوا وهم صامتون فلما شاع خبر اطلاق الرصاص على المتظاهرين ، وشاعت أخبار الموتى

والمختلين من الطلاب والشبان العزل المسلمين ، طغى الغضب بعد أن طم
وظهر بعد أن عم ، وكان ظهوره على نمط واحد في جميع البلاد بغير تدبير
ولا سبق اتفاق ، فبدأ انقطاع السكك الحديدية ما بين طنطا وتلا في اليوم
الثالث عشر من الشهر ، ثم انقطعت في جهات كثيرة دفعة واحدة ، وتناول
التحطيم والتخريب أسلاك التلغراف والتلفون وقضبان السكة الحديد حيثما
وصلت إليها أيدي الثائرين .

— ولم يخل هذا التحطيم من غرض تعمدته الثائرون بتدبير مقصود ، وهو
تعويق القطارات المسلحة والفرق الجواله عن الطواف بالمدن والقرى لجمع
السلاح وتفتيش المنازل وإيذاء الناس في أثناء ذلك التفتيش ، فقد أمعنت
السلطة العسكرية في جمع السلاح من بداية الحرب حتى جمعت المدى الكبيرة
والعصى الغليظة وكل ما يصلح للتسلح به في عراق أو مشجرة ، ثم لمحت بوادر
الثورة بعد اعتقال الزعماء فعادت إلى حملة أخرى من حملات التفتيش ،
وأوجس الناس من عواقب هذه الحملة شرا ، فخطر لبعضهم أن يعوقوها
بقطع المواصلات .

إلا أن الباعث الأكبر إلى التحطيم والتخريب كان اندفاعا جامحا بغير
قصد مرسوم : اندفاع الساخط يحار فيما يصنع وهو ساخط . . . كأنما هو في
هذه الفورة الجأحة صريع مكوم محبوس في بيت مغلق يريد أن تسمعه الدنيا
ولو بتدمير أثنائه وإحراق داره . فجاءت عوارض الثورة متفقة في كل مكان
لأن هذه العوارض هي كل ما استطاع في تلك الحالة . ولو كان باعث التحطيم
العدوان على الملك والنفس ولم يكن مجرد الاحتجاج وإبلاغ الصوت إلى العالم
لأتجه الثائرون إلى نهب خزائن الحكومة وأموال الأغنياء والمصارف ، وهو
ما لم يحدث قط في بلد من البلدان

وظل الانجليز مضللين في فهم شعور هذه الأمة يفسرون أعمالها
بأسباب المصالح ولا ينظرون إلى بواعثها النفسية ، كأنما البواعث النفسية عامل

لا يحسب له حساب في حركات الجماهير . فظنوا أن أعمال التائرين لا تتفق هذا الاتفاق إلا بتدبير مصطنع ودسياسة أجنبية . وربما طاب لرؤسائهم أن يفهموا ذلك لأنهم أبلغوا حكومتهم في لندن أن الأمة هادئة فائرة ، وأنها ضعيفة لا يخاف منها انتقاض

وان أناسا كثيرين — ومنهم بعض المصريين — ليعجبون إذا عرفوا الآن أن هذه الثورة المفاجئة لم يقع فيها تنظيم ولم تكن فيها رأسه مدبرة على الإطلاق . وأن مظاهرة الطلبة الأولى وقعت على غير علم سابق من الوفد بل على خلاف النصيحة التي سمعها الطلبة من بعض أعضائه الذين بقوا في القاهرة بعد اعتقال سعد وأصحابه الثلاثة

لكنها هي الحقيقة التي تؤكدتها بعد استقراءها من مصادر عديدة . فان الطلبة أصبحوا مضربين في مدارسهم يوم المظاهرة وهم مختلفون في الخروج أو البقاء ، ثم خطر لفريق منهم أن الخروج ربما خالف مشيئة الوفد وأفسد عليه رأيا يفكر فيه أو خطة يتوخاها ، فبعثوا إلى « بيت الأمة » أفراداً منهم يستفسرون ويعودون إليهم بما يقر عليه رأى الأعضاء ، وهناك التقوا بالاستاذ « عبد العزيز فهمي بك » فأفوضوا إليه بقصدهم وأبلغوه هياج الطلبة وتحفزهم للخروج والتظاهر في أحياء العاصمة ، فثار بهم الاستاذ . وانتهرهم انتهاراً شديداً وهو يقول لهم ما معناه : « ان المسألة ليست لعب أطفال . . دعونا نعمل في هدوء ولا تزيدوا نار الغضب اشتعالا عند القوم »

فتركوه وهموا بالانصراف متذمرين معتمين ، وإذا بالاستاذين محمود أبى النصر وعبد اللطيف المسكباتي يلحقان بهم ليخففا عنهم أثر الكدر الذي خامرهم من تأنيب عبد العزيز بك ، فتلطفا في التسمية عنهم والتصح لهم بالتزام السكون واجتناب المظاهرات ، وانصرف رسل الطلبة على أن يبلغوا زملائهم ما سمعوه وهم مترددون بين الاغضاء عنه أو الاصفاء إليه ، ولكن زملاءهم كانوا قد استبطأوهم وتهايجوا بما سمعوا من كلام خطبائهم

واستثارة دعائهم فخرجوا قبل أن يعود اليهم رسلهم بنتيجة سؤالهم ، وتمت
المظاهرة الأولى على هذا المنوال .

أما حوادث الأقاليم فقد تمت بغير إحياء ولا تدمير ، إذ لم يكن للوقد في
ذلك الحين لجان يحوز أن يقال إنها اتفقت على تنفيذ خطة مرسومة في جميع
الأقاليم ، ولم يكن خبر السكة التي قطعت بين طنطا وتلا قد شاع في القطر
حتى يقال إنه جاء في طليعة الحوادث بمثابة الإحياء والقدرة على عمد أو على
غير عمد ، وإنما نجمت الثورة من بديهة الأمة كلها لأنها كانت كلها على اتفاق
في الغضب المكظوم والتأفف الذي بلغ مداه

ولقد أخطأت السلطة العسكرية في كل تدمير فكانت تستفز الناس بكل
عمل تقصده به إلى البطش والارهاب ، وتدفعهم إلى نقيض ما تريد من الخوف
والطاعة ، وتثير النفوس إلى التحدي والمعاندة بدلا من الإذعان والسكينة :
« بالغت في قمع المظاهرات فزادت المظاهرات ، وأنذرت كل من يقطع
المواصلات » بالاعدام رمياً بالرصاص بمقتضى الأحكام العرفية « فكان
جواب هذا الانذار اضطراب عمال السكة الحديدية في اليوم التالي وخروجهم
من مصانعهم متظاهرين ، ثم اندفع الناس في قطع القضبان وأسلاك التلغراف
والتليفون غير مكترئين للعاقبة ، فانعزلت القاهرة والمدن الكبرى من جميع
الجوانب ، واضطرت السلطة إلى استخدام الجنود الانجليز في تسيير القطر
ونظيم المواصلات ، وبعد أن كانت تتوعد القرى التي تنقطع السكة على
مقربة منها بالغرامة عادت إلى نشر انذار تقول فيه إن كل حادث جديد من
حوادث التدمير « يعاقب عليه باحراق القرية التي هي أقرب من سواها من
مكان التدمير » . . . واستدعى القائد العام بعض الوزراء والسروات في اليوم
العشرين وحذرهم من دفع السلطة إلى « تدمير العمارات وتخريب القصور »
وطلب اليهم أن يبذلوا جهودهم في النصيح للشعب بالهدوء والاقلاع عن
« المشاغبات »

كل ذلك والثورة تتفاقم ، والجاهلير تقدم وتقدم ، ومنهم من أغاروا في بعض البلدان على مرا كز الشرطة فانتزعوا ما فيها من السلاح ، فاستخدمت السلطة الطيارات والبواخر النيلية لا يصلح المدد الى الجهات المعزولة ، وحدثت في اثناء ذلك مناوشات قتل فيها خلق كثير

على أن الثورة لم تكن فورة غضب بغير معنى كما أراد أعداؤها والتاقون منها أن يتخلوها ، فلو كانت كذلك لما ظهر فيها ما قد ظهر من نفحات النخوة القومية والأريحية الانسانية التي ترتفع اليها الشعوب كما يرتفع اليها الأفراد في ساعات السمر والاشراق والفداء . فان هذه النفحات لا تظهر في سورات الغضب الحيواني حين ينطلق على غير هدى وفي غير مطلب ، ولسكنها تظهر حين تكون الثورة إعراباً عن شعور مكتوم ونزعة مشبوبة الى السكال . وقد كانت الثورة المصرية كذلك فغلب فيها الروح القومي على كل عصبية وكل علاقة وكل فارق : مشى فيها علماء الأزهر يحملون بساط الرحمة في تشييع جنازات الشهداء ، ويرفعون الأعلام وعليها شارة الهلال والصليب ، وقام القسوس في المساجد يخطبون المسلمين ويؤدون ما يؤدى لها من الشعائر الدينية ، وخرج العقائل والأوانس من الخدور يسابقن الرجال والشبان الى المهالك والأخطار ويستهدفن للجند مسلحين متأهبين كأنهم في ميدان قتال . وغلبت فرائض الحمية الوطنية على كل فريضة وكل تقليد ، فكان الضباط يسرون الى جانب القضاة والمحامين وطلاب المدرسة الحربية يسرون الى جانب الطلاب في كل مدرسة ، وكانوا جميعاً يتادون باسم مصر ولا يذكرون إلا أنهم مصريون

وتجلت بساله التضحية على مثال رائع نبيل كأنبيل ما سطرت تواريخ الجهاد والفداء في وثبات الأمم . فمات أناس يحملون العلم أنفاً من الفرار أمام نيران المدافع وهم عزل من السلاح ، ويرى اخوانهم مصرعهم فيبادرون الى رفع العلم ليستقبلوا مصرعاً كه مصرعهم طائعين متنافسين ، في لحظة يطيقون فيها رؤية الجثث المطروحة لقي ولا يطيقون رؤية تعلم ملقى على التراب

وقد أحاطت بالمصريين في تلك الأيام موغرات كثيرة من قتلك وارهاب وخشونة واستفزاز ، في بعضها ما يشفع للناس لو طغت بهم مرارة النقمة وجمحت بهم لواعج الضغينة . لكنهم مع هذا لم يقترفوا سقطة واحدة تشين صاحبها في غضبه أو رضاه ، ولم ينسوا أدب المروءة في أشد أوقات الهياج والاضطراب . فلم يعتد أحد قط على طفل أو على شيخ عاجز أو على امرأة ، وشهد اللورد اللنبي للثورة المصرية بهذا الأدب في الكتاب الأبيض حيث قال بعد ثلاث سنوات : « كانت سيدة انجليزية مستقلة مركبة مفتوحة فهاجمها الرعاع وقذفوها بالحجارة يوم الجمعة في حي بولاق ، وقد نجت من الأذى البالغ بأن اتخذت من مظلتها نجياً فزقت الأحجار المظلة ، وهذه أول مرة اعتدى فيها على امرأة في كل السنوات الثلاث الماضية » . . . ولو ثبتت هذه الحادثة كل الشبوت لما كانت شيئاً يذكر لأنها لن تكون الا الندرة التي تؤكد القاعدة ولا تنفيها ، ولكن التحقيق لم يثبت بوجه من الوجوه أن السيدة كانت مقصودة بالاعتداء والاساءة . . . والا فها الذي كان يحمى سيدة منفردة لا تحمل معها الا مظلة من عدوان العشرات والمئات الذين يقصدونها بالأيذاء ؟ ان انفراد هذا الحادث في جميع سنوات الثورة لتحقيق وحده بالجزم بنفيه لا بمجرد التشكيك فيه ، وقد سبقته الحوادث الكثيرة المشهورة في أعنف أيام الهياج فكان الناثرون يتورعون فيها جميعاً عن المساس بالسيدات والأطفال ، ومنها حادثة « بهيج » المشهورة على الحدود الغربية التي شهدت فيها صحف الاستعمار بترفع الثوار المصريين عن هذه السقطات المرفولة ، وليست صحف الاستعمار بالتى تبرئ أمة نائرة على المستعمرين ، وفي وسعها أن تافق عليها التهم وتزور عليها العيوب

لقد حدث أن أفراداً من الأرم من أطلقوا الرصاص على المتظاهرين من نوافذ المنازل فلم يكن جزاء الثائرين لهم إلا بمقدار ما يقتضيه دفع العدوان ومنع تكراره ، وحدث أن الغوغاء في أثناء المظاهرات قذفوا زجاج الدكاكين بالحجارة فحسب بعض الأجانب أنهم مقصودون بالسخط والعداوة

والحقيقة أن القاء الحجارة على تلك الدكاكين لم يكن عن شعور العنصرية أو العداوة للأمم الأجنبية ، وإنما كان استنكارا لفتحها في أيام الاضراب ، واحساسا من الغوغاء بأن أصحابها يجبهون شعور الأمة ويستخفون بمطالبتها ويرفعون عن مجاملتها . فأصابوا دكاكين المصريين التي اتفق فتحها في تلك الآونة كما أصابوا دكاكين الأجانب . ورجحت كفة الأجانب في الخسارة لأن متاجرهم أكثر عددا في الأحياء الأفرنجية التي تطوف فيها المظاهرات . ومع هذا لم ينس الطلبة أن يعتذروا إلى «الضيوف» من عمل الغوغاء في بيان نشره في الصحف العربية والأفرنجية ، وعلقوه على وجهات الدكاكين ووعدوا باتقاء تكراره في المستقبل .

ولم يجد المستعمرون في الواقع حادثا يستغلونه في التشهير والتشويه غير حادث ديروط أو دير مواس الذي قتل فيه ثلاثة من الضباط وخمسة من صف الضباط الإنجليز ، وهو حادث على جسامته لا يذكر إلى جانب الفظائع التي نزلت بالمصريين في أثناء حملات التأديب والتفتيش ، ومنها فظائع العزيزية والبدرشين والشبانات التي ترك تفصيلها إلى غير هذا المقام . وسنضرب عنها صفحا في هذا الكتاب . ولا نذكر من فظائع قمع الثورة إلا مثلا صغيرا يغني بالدلالة عن الشرح والاسهاب ، وهذه خلاصته بعد التجاوز والتلطيف .

في أول سبتمبر سنة ١٩٣٤ نقلت إلينا الأنباء البرقية من لندن أن جنديا انجليزيا سيق إلى المحاكمة لاتهامه بقتل عشيقته ، فكان من المحاسن التي تشفع بها إلى المحكمة واعتقد أنه يستحق بها العفو والرحمة أن قال بغير سؤال ولا مناسبة أنه كان صولا بالجيش البريطاني بمصر سنة الثورة فقتل ثلاثة من المصريين ، وأنه بعد بضعة أسابيع كاد صديق له أن يقتل فقتل هو مصريا آخر ، ثم عمل في شركة للسيارات رئيسا للمهندسين وعمل في خدمة أمير مصري أربع سنوات . وقد لخص القاضي الدعوى فقال : « إنه مهما يكن ما فعل تافتي — اسم الرجل — فإن رؤسائه يومئذ لم يعدوا ما فعله جريمة »

فهذا جندي من قامعى الثورة يفاخر بما جنى بعد الثورة بخمس عشرة سنة !
وبعد أن أكل خبزه من خير أمير مصرى أربع سنوات ! وهو واحد من
عشرات الألوف لا يسألون عمن قتلوا ولا يحتاجون إذا سئلوا إلى عذر
أكثر من ادعاء الخطر والدفاع عن الحياة ، وكل من لديه ذرة من التصور
وذرة من الانصاف ليعلم بعد ذلك أن الفظائع التى نزلت بالمصريين فى ثورتهم
أكبر وأهول بما لا يقاس من فظيعة الاعتداء على فئة من الضباط والجنود
كلهم مسلحون ، ولا يعلم أحدكم قتلوا قبل أن يتكاثروا عليهم الجمهور الأعزل
من السلاح .

وندع فظائع الثورة جانبا ونسأل : لم كل هذا ؟ أكانت هذه الزوبعة الدامية
ضرورة لا محيد عنها ؟ أكانت حادثا لا يمكن اتقاؤه ؟ كلا ! لم تكن ضرورة
ولامصلحة . وكان ميسورا أن تجتنب اجتنابا وأن يحقق كل ما سال فيها من
دماء ويصان كل ما خرب فيها من عمار وضاع فيها من أموال لولا الأخطاء
المتلاحقة التى ارتطمت فيها السياسة الاستعمارية ، لقلة اكتراثها للعواقب ،
والقاء اعتمادها كله على العدد الحربية وأنها تضمن لها قمع الأمم الضعاف
إذا ضاقت الصدور عن الاحتمال

ففى أخطأت فى البداية بأعلان الحماية واغتصاب أرزاق المصريين
وأدوات معيشتهم فى إبان الحرب العظمى . وكان فى مقدورها أن تتفادى
من كل ذلك بأن ترد إلى المصريين استقلالهم وتكمل اليهم أن يدبروا بانفسهم
مايعنيهم من أمرالمعاونة فى الحرب بما يطيقون . فان لم يوافقها ذلك فماذا كان
يمنعها أن تعلن الاستقلال وترجىء النظر فى تفصيل قواعده إلى ما بعد
الفراغ من القتال ؟

ثم أخطأت فى حرمان زعماء المصريين ابتداء مطالبهم والبحث فى مستقبلهم ،
مع أنهم لم يقصروا فى المجاملة ولم يبدروا منهم فى مخاطبة رجالها هنا أو فى
انجلترا أثر من التحدى والاعنات .

ثم وقعت الأزمة الوزارية التي لا بد من وقوعها فالقت على الزعماء تبعتهما وألقى الزعماء التبعة عليهما . ولم يكن رد الزعماء من قبيل التراشق بالتهم والمجاوبة على الادعاء بمثله ، ولكنه كان هو الحقيقة بعينها في نظر المنصفين الواقفين على الحيدة لا في نظر الوفد المصرى وحده ... فالمسئول عن الأزمة الوزارية وعن صعوبة تأليف الوزارة المصرية هو السياسة الاستعمارية أو هو كما قال الوفد « أوائك الذين وضعوا من هم أهل للوزارة في مركز حرج أمام ضمائرهم وأمام مواطنهم » .

وإلا فإذا يقول الوزير المصرى لأبناء وطنه إذا فرضا أنه أراد فعلا أن يخدم السياسة الاستعمارية ولا يحفل بمصير وطنه ؟ أيقول لهم انى خائن لا أبالى بغير الوصول إلى المنصب ؟ أم يقول لهم اننى أتولى المنصب لأحول بينكم وبين المطالبة بالاستقلال أو السفر إلى حيث تشترون في تقرير مصيركم ؟ وهل يستطيع أن يقول لهم ذلك في الوقت الذى ينادى فيه ساسة الانجليز أنهم لا يمنعون أمة متقدمة أو متخلفة أن تشترك في تقرير مصيرها ؟

فاحجام الساسة المصريين عن قبول الوزارة حتم لاحيلة لأحذفيه ، اذ ليس يوجد في مصر ولا في غير مصر مرشح للوزارة يشتري المنصب بهذه الخيانة الصريحة ولو كان مدخول الضمير . لأنها خيانة سمجة مبتذلة لا تستر فيها ولا مغالطة ولا عذر لمن يشاء أن ينتحل الأعذار ، مادامت الأمة تطلب حقها والوزارة التي أذعنت للحماية قد تحركت للبحث فيها والعالم كله ينادى بحقوق الشعوب وتقرير المصير . ففي هذا العمل لو أقدم عليه المرشح للوزارة قضاء على حياته السياسية إن لم يكن فيه قضاء على الحياة .

اكن القيادة العسكرية شامت مع هذا أن تلقى التبعة على الوفد في هذا الموقف الذى لاحيلة فيه للوفد ولا لأحد من المصريين . فأخطأت خطأها العاشم واعتقلت رؤسائه جزاء على السيئة التي أساءتها هي ولم يسيئوها . ثم أخطأت بعد هذه السلسلة من الأخطاء في بطشها الدموى بمن غضبوا لذلك العسف المبين

عزلاً من السلاح ، ومن نادوا بما كان ينادى به أقطاب الحلفاء في مؤتمر السلام ، ولعلها لو فسحت لهم جو بلادهم ينادون فيه بما يشامون لما خرجت الثورة من طور الدعاية إلى طور التخريب والتخطيم .

وأكبر أخطاء السياسة الاستعمارية جميعاً ؛ بل هو الخطأ الذي يطوى فيه جميع الأخطاء — انها أساءت تقدير الموقف وأساءت تقدير العواقب وأساءت تقدير الشعور الذي كان يسور ويشور في نفوس المصريين قاطبة على تفاوت الطبقات والمشارب ، فليس في وسع انسان سياسى أو غير سياسى أن يحفل هذه الأمور كلها كما جهلها نائب المندوب البريطانى — السير ميلان شيتهم — قبل الثورة بأقل ثلاثة أسابيع ... فانه كتب إلى حكومته في الرابع والعشرين من فبراير يقول : « ان الوزيرين رشدى وعدلى فقدما الشهرة الموقوتة التي عادت عليهما من الاستقالة ، وأن زغلولاً لا يثق به أحد ، وأن هناك قلقاً يسيراً بين أفراد الطبقة العليا الذين يطمعون في تعظيم مكانتهم ببلوغ مرتبة من مراتب الحكومة الذاتية ، ولكن « الحالة لا تختلف في لبابها من الحالة التي طرأت في سنة ١٩١٤ عند ما رفض الأمير حسين وكبار الوزراء طويلاً أن يقبلوا الحماية مالم تكن مشفوعة ببعض المنح التي لم تكن على استعداد لاعطائها ، وان الحركة الحاضرة على كل حال ليست بالتضارع حركة مصطفى كامل أو بالتى يصح أن تؤثر في قرارات الحكومة البريطانية فيما يتعلق بالمسائل الدستورية والوضع الذي توضع فيه الحماية : » .

ولما بدت طلائع الثورة لم يجد هذا السياسى النادر ما يدارى به غفلته وعجزه عن سبر غور الحركة الوطنية إلا أن يعزوها إلى أسباب أجنبية غير وطنية فأبرق في التاسع من مارس يقول « ان الحركة معادية لبريطانيا معادية للعرش معادية للأجانب ، وفيها نزعات بلشفية تتجه إلى تخريب الأسلاك والمواصلات ، وهى منظمة مدبرة ولا بد أن تكون مأجورة »

وأذاعت الحكومة البريطانية مذكرتها عن الثورة بعد ذلك بشهر فجاء

فيها « ان هناك شواهد تثبت أن الخطة مدبرة منظمة باحكام » ومما يستحق الملاحظة أن الخطة التي نفذت تشابه البرنامج الذي رسمه الألمان والترك للغارة على مصر في خريف سنة ١٩١٤ وهو البرنامج الذي أفضى به إلى السلطات المصرية الجاسوس الألماني مورس المقبوض عليه في الاسكندرية وإذا حسبنا كل حساب للحالة العقلية أو لدواعي التذمر الناشئة بين الفلاحين المشار إليها آنفا فكل هذا لا يكفي لتعليل هذا الانفجار الخطير المنظم الذي تلوح فيه أصبح تركيا الفتاة كما قد تلوح فيه أصبح الألمان » .

إي والله ثورة تشمل أربعة عشر مليوناً يديرها الترك والألمان في الخارج أو في الداخل ولا تعثر فيها السلطات الانجليزية بدليل واحد على هذا التدبير غير التنجيم والتخمين ! وان الانسان لا يدرى أيضا أنك أم يحزن من هذا التفكير العجيب الذي يعطل ثورة مصرية تنفجر في شهر مارس بأنها دسيسة أجنبية دبرتها حكومات منهارة مضى على هزيمة رؤسائها وتفرقهم في البلاد وانقطاع الصلة بينهم وبين أتباعهم عدة شهور وادعى من هذا إلى الحيرة بين الحزن والسخر أن تكون الثورة من صنع الطبقات العليا ومن صنع البلشفية في وقت واحد !!

ولا نظن أن الغفلة وحدها هي سر هذه التعليلات المضحكة المبكية التي تعلق بها السياسة الاستعمارية في تلك الفترة ، ولكنها رأيت وكلامها قد وقعوا في الجهل الذي لا رجعة فيه فاستغلت جهلهم أحسن استغلال في استطاعتها ، لأنها وجدت لها فائدة من تشويه الحركة المصرية بنسبتها إلى جواسيس الترك والألمان ، ووجدت أنها قد تحول بهذا التشويه بين الدعاة المصريين ومسامع الحلفاء والأمة الانجليزية . فزجت بين الغفلة والذكاء هذا المزيج الجدير بأساليب الاستعمار !

ولقد ظل القوم يتخبطون في فهم الحركة وسبر أغوارها حتى بعد عزمها

وانتشارها ، وطفقت الحوادث تتلقاهم مرة بعد مرة بتكذيب ظنونهم وتقديراتهم
فلا تنجاب الغشاوة عن أبصارهم . ومن ذاك اعتقادهم بعد شوب الثورة في
البلاد أنها ضرب من الشغب الذى يفرقون فيه بين طائفة من الأمة وطائفة
أخرى كما كانوا يصنعون فى العهد السابق تارة بين الباشوات ولابسى الجلايب
الزرقاء ، وتارة بين الشيوخ والشبان ، وتارة بين طلاب الوظائف وأصحاب
المصالح الحقيقية ، وتارة بين المسلمين والمسيحيين . . . فآلى اللورد كرزون
بعد انفجار الثورة بنحو اسبوعين بياناً يثنى فيه على الموظفين المصريين لأنهم
ثابروا على أعمالهم فى إبان الهياج الذى غمر البلاد ، ويقول فيه انهم صفوة
المتعلمين من المصريين « فمسلكهم هذا يدل على أن عقلاء الأمة لم يشتركوا
فى الحركة الأخيرة . . » فكان جواب هذا الثناء المزرى أن أجمع الموظفون
فى الدواوين كلها على الاضراب ثلاثة أيام اعلناً للتنازر بينهم وبين طبقات
الأمة فى المطالب الوطنية ، وكتبوا عرائضهم بهذا المعنى الى صاحب العظمة
السلطان ، وأبلغوها الحكومة الانجليزية

لم تنقطع هذه الأخطاء ولا جرائرها فى أيام الثورة الباقية ولا بعد
انتهائها ، ولم يقع منها الضرر على أحد غير المظلومين فيها . ومن ذا الذى
يحاسب الأقوياء حين يخطئون فى حق الضعفاء ؟ ولماذا يشتهى الانسان القوة
ان لم تسول له الخطأ فى كل حين ؟ !

وهكذا يليق الخطأ ويليق التماذى فيه بالأقوياء لأنهم فى غنى عن حسيان
العواقب والمبالاة بالجرائر ! ويستأثر الضعفاء بسوء العاقبة وان جهدوا فى
اجتناب الاخطاء ، لأنهم ضعفاء !

من القاهرة الى مالطة

الى باريس

جلس سعد وأصحابه الثلاثة في طريقهم إلى المنفى يتساءلون ، وأول سؤال طبيعى يخطر لهم وهم مفارقون البلاد هو السؤال عما عسى أن يجرى فيها بعد إقصائهم عنها : هل تسمع بالخبر ؟ وهل تملك أسباب الثورة ؟ وهل تقوى القيادة العسكرية على كظم النفوس طويلا بعد هذه الضربة ؟ فأما سعد فكان رأيه أن الثورة عمل شاق على بلد أعزل مرهق بالاعباء مشحون بالجند والسلاح والأرصاء . ولكنها اذا كانت واقعة فشعور الناس بالاختناق والتماسهم المنفس للجهر بالآلامهم المكبوتة ، كاف لانفجارها والاستيئاس فيها وقريب من هذا رأى اسماعيل صدقى الى نزعة من شكوك الرجل الحديث أما حمد الباسل ومحمد محمود فقد كان رأيهما الرأى الطبيعى لزعيم قبيلة بدوية وصاحب عصية فى الصعيد . فأخبر شىء يطيب لزعيم القبيلة أن يفكر فيه أن قيئته لا تثور لأجله ولا تأخذ بثأره ، وكذلك صاحب العصية فى الصعيد ، فاتفقا على ترجيح الثورة وان لم يتفقا على النتيجة

ويظهر أنهم — سواء منهم من رجح الثورة العاجلة ومن لم يحزم بوقوعها العاجل — قد وطنوا النفس على البقاء زمنا ليس بالقصير فى جزيرة مالطة ، ولم يخطر لهم أن الافراج عنهم قريب . فبحث سعد عن منزل يستأجره وفكر فى استدعاء السيدة الجليلة قرينته الى الجزيرة ، لحاجته الى العناية الصحية التى لا يجدها هناك فى غير المنزل برعاية الزوجة الرئوم ، ولم يفكر صحبه الآخرون فى ذلك لأنهم شبان أصحاء بالقياس اليه

وصلوا الى مالطة بعد أن قضوا فى النقلة ثلاثة أيام . وقد كان سعد متعباً من مشقة الانتقال والدوار . وكان بين الشاطئ ، ومعتقل « بلفورستا » الذى اختاره حاكم الجزيرة لهم مسيرة نصف ساعة على القدم ، فبحثوا عن مركبات فى جوار الميناء فلم يجدوا إلا مركبة صغيرة يجرها حصان واحد . ركبها سعد وسار رفاقه وراهه على الأقدام ، ووصلوا الى المعتقل فوجدوا أن السلطة العسكرية قد أعدت لسكرل منهم حجرة للنوم وأخرى للاستقبال ، وثالثة للمائدة ومكانا للحمام

وأراد سعد أن يكون أول عمل له فى منفاه استئنافاً لعمله فى القاهرة ، وتحدياً للنفي والارهاب ، واستمراراً فى المطالبة بالاستقلال وإنكار الحماية . فلم يكدر يستريح من عناء سفره حتى كتب الرسالة البرقية الآتية إلى رئيس الوزارة الانجليزية يكرر فيها المطالب التى جاء من أجلها الى هذه الجزيرة : « إن شرف الممالك يقدر بمقدار احترام ساستها ورجالها للعاهدات السياسية التى يبرمونها والتصريحات الرسمية التى يفوه بها رجال تلك الحكومة الرسميون . ولما كانت إنجلترا فى معاهدة لندن عام ١٨٤٠ قد ضمنت استقلال مصر . كما أقسمت الملكة فكتوريا والبرلمان بالتاج والشرف عام ١٨٨٢ أن الاحتلال لن يكون إلا وقئياً وأعلن غلادستون عام ١٨٨٧ أن أوان الجلاء عن مصر قد آن . ولما كنتم جنابكم الرئيس الممثل لحكومة جلالة ملك بريطانيا والمدافع عن كرامة بلاده وشرف الأمة الانجليزية الحرة فأنى أطالب جناب الرئيس المبجل برفع الحماية التى أعلنتها حكومتكم على بلادنا قسراً لمقتضيات الحرب وجلاء الجنود البريطانية عن وادى النيل ، احتراماً للعاهدات والتصريحات التى ذكرناها وصيانة لشرف أمة أنت على رأس حكومتها ، وليأذن جناب الرئيس بأن أذكر إن سياسة العنف والارهاق التى اتبعت معنا لا تزيدنا نحن المصريين كافة إلا تمسكاً بمطالبنا ، وثباتاً فى

موقفنا ، وإنه خير لا نكثرا أن تكون لمصر صديقة ، وهناك نستطيع أن
نقطع على أنفسنا عهداً بأن نصون مصالحكم ونروج تجارتكم في بلادنا »

ولا شك أن آخر ما انتظرته الحكومة البريطانية - وهي تنفي زعيم مصر
الى جزيرة مالطة عقاباً له على طلب استقلالها - أن لا تفيد من ذلك إلا أن تصبح
الجزيرة ميداناً آخر من ميادين المطالبة بذلك الاستقلال !

نزلوا في المعتقل معزولين عن بقية الأسرى على خلاف السنة التي كانت
متبعة فيه قبل وصولهم ، ولم يؤذن لهم بالخروج للرياضة في الخلاء إلا
مرتين كل أسبوع بعد التوقيع على حلف كتابي يقسمون فيه بالشرف أن
لا يهربوا ولا يساعدوا أحداً على الهرب ولا يعطوا أحداً نقوداً ولا يعملوا
شيئاً فيه إيذاء لجنود جلالة الملك . . . وبعد كل هذا لم تكن السلطة الانجليزية
تسلمهم من مالههم إلا بمقدار ما يلزمهم أول فأول لضرورة المعيشة ، وكانوا
قد برحوا مصر وليس معهم من النقد إلا قليل ، فأرسلوا - بواسطة
السلطة - يطلبون مالا من ذويهم في مصر ، فجاءهم خمسمائة جنيه ليكل من
سعد وحمد ومحمد محمود ، ومائة جنيه لاسماعيل صدقي ، فأودعتها السلطة مصرف
الجزيرة وأباح لهم أن يشتروا ما يشاءون بتحويلات يقبضها البائع من
المصرف ، ورخصت لهم في استخدام طاه ألماني وإبقاء النور الكهربائي الى
ما قبل منتصف الليل بنصف ساعة ، فكانوا يقضون الوقت في التعاون على
تعلم اللغات التي يحسنها بعضهم ولا يحسنها الآخرون

ولم يسمعوا شيئاً عن مصر ولا عن ثورتها إلا حين زارهم الورد مثوين
حاكم الجزيرة وهو يقول لهم عرضاً : « أشعلتم النار في مصر وجئتم الى هنا » .
فعلبوا أن في مصر أحداثاً خطيرة ، وأدركوا أنها الثورة حين استطاع طاهمهم
الألماني أن يدس اليهم بعض القصاصات من صحيفة التيمس ، عرفوا منها قبساً من

مظاهرات الطلبة وثورة البدو في الفيوم ، ولكنهم لم يسمعوا بما يدهم على مداها وتفصيلات وقائعها

وبعد شهر في مالطة جاءهم النبأ بالافراج عنهم والسماح لزملائهم في القاهرة بالسفر إلى حيث يشاءون ، وانهم مأذون لهم في السفر على الباخرة « كاليدونيا » التي تقل أولئك الزملاء ، وستصل إلى الجزيرة صباح يوم الثلاثاء الموافق لنصف ابريل

فكان لذلك النبأ في نفوسهم وقع عظيم ، لأنه بشرهم بالحرية التي طالما تمنوها للسعى في قضية بلادهم ، وأثبت لهم أنهم يسعون في قضية تستحق عناهما ولا تخيب رجاء الساعين فيها .

فتفاهلوا بالافراج عنهم خيراً ، وفرحوا بما أولاهم من الثقة وتأكيدهم العزيمة . أضعاف فرحهم بالطلاق من الاعتقال ، وباتوا على شوق إلى صباح يوم الثلاثاء لينعموا بلقاء أولئك الزملاء الذين فارقوهم ولا يعلم منهم أحد متى يكون اللقاء . وليسمعوا منهم تفصيل الحوادث التي لحوا بصيصا منها في شذرات الصحف الانجليزية ، وهي لاتصل اليهم إلا بعد لآي في خلسة من الرقباء

ثم أذنت السلطة لهم بزيارة الأسرى من أبناء وطنهم ومن الترك والألمان ، فلبوا دعوة المصريين المعتقلين بالمعسكرات الأخرى ، فاستقبلهم الأسرى الأجانب معجبين ، واستقبلهم الأسرى المصريون نفورين ، وكان بعض القادة الترك يقولون لأصدقائهم المصريين : « اعتبرونا منكم فقد أحببنا بلادكم وأحببنا زعماءكم » ورحب بهم الأمير هو هنزلرن ابن عم غليوم ، ورفع لهم بعض الألمان راية بيضاء مكتوباً عليها بالمداد الأحمر تاريخ « ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ » وهو تاريخ جلاء الجنود الانجليز عن مصر عندما طمعوا في احتلالها للمرة الأولى ، وكان الأسرى الألمان قد أقاموا معرضاً فنياً لمصنوعاتهم التي استطاعوا أن يصنعوها بما لديهم من الأدوات القليلة تزجية لأوقات الفراغ ، فقدم أحدهم إلى سعد تمثالاً عسكرياً بالعدة

الحرية الكاملة للامبراطور غليوم ، مصنوعاً من الورق المقصود الذي تغلف به صناديق التبغ الصغيرة ، فحياء سعد وقال له : « إنه لتمثال عظيم يمثل عظيماً » ثم قال : « ولكننا لا نملك عدة الحرب ، وإنما نحن أمة سلام »

وقد رست الباخرة « كاليدونيا » في ميناء مالطة ضحى يوم الثلاثاء ، وعليها أعضاء الوفد القادمون من القاهرة وهم حسب ترتيب الحروف الهجائية : أحمد لطفي السيد بك ، وجورج خياط بك ، والدكتور حافظ عفيفي ، وحنين واصف باشا ، وسينوت حنا بك ، وعبد العزيز فهمي بك ، وعبد اللطيف المسكباني أفندي ، وعلي شعراوي باشا ، ومحمد علي بك ، ومحمود أبو النصر بك ، ومصطفى النحاس بك ، ومعهم مكتب الوفد وفيه كتابه و مترجموه ، ومنهم الأستاذ ويصا واصف الذي انتخب عضواً في الوفد بعد وصولهم إلى باريس .

ولما رست الباخرة على الميناء انتظر الأعضاء فيها قدوم اخوانهم المعتقلين فطال الانتظار ، واستحسن بعضهم النزول إلى الجزيرة للقاءهم فوجدوا الخدم قد سبقوا سعداً وأصحابه إلى الشاطئ بالحقائب وموثة السفر ، وماهي إلا هنيهة حتى أقبل سعد وأصحابه الثلاثة يمشي معهم ضابط انجليزى وضابط من أهل الجزيرة لم يفارقاهم إلا عند صعودهم إلى السفينة ، فكان للقاء الزعيم وأصحابه مشهد رائع لا ينسأ من رآه ، وامتزجت في لقاءهم معاني شتى من الشوق والايأس ، وشعور الظفر والثقة والأمل في النجاح .

أما كيف تحولت السلطة البريطانية في مصر من الحجر الشديد إلى السماح للوفد بالسفر حيث شاء فخلاصة القول فيه أنه تحول ضروري قضت به الثورة فلم يسع السلطة إلا أن تنقاد لحكمة في النهاية ، لأنها عجزت عن تسيير الأمور بأيديها ، وعجزت عن تأليف وزارة وطنية تقبل الحكم والوفد محبوب من عن السفر ، فلم تجد بداً من اطلاق سبيل الوفد عسى أن تفرج شيئاً من حرج

الموقف وتمحو شيئاً من الحفيظة التي أفعمت قلوب المصريين وزادتها الفظائع في ابان الثورة ألماً على ألم .

وقد أدركت القيادة العسكرية من اللحظة الأولى أنها أخطأت في التقدير و انتهت باعتقال الزعماء إلى عكس ما تريد ، لأن اعتقالهم لم يردع السيل المتجمع وراء السدود وإنما جاء بمدد جارف أطلقه ودفع به شوطاً وراء شوطه ، ورسم للمصريين طريق المقاومة ، فمن شاء منهم أن يرجع فلا حيلة له في الرجوع ، ومن خطر له أن يتردد فليس أمامه موضع للتردد . وإن أول من دعا الى الثبات والمثابرة لهم أول من أصيب باعتقال الزعماء وأول من هدد بهذا الاعتقال ، وأول من ظن بهم أنهم يتقهقرون ويوجلون : قرينة سعد وخلفاؤه المتروكون في القاهرة !

فالسيدة الجليلة قرينته لم تضيع لحظة واحدة في الحزن والجزع الذي لا يفيد . . . عادت من زيارة إحدى شقيقاتها حيث كانت ساعة الاعتقال فما هو إلا أن علمت بما حدث في غيابها حتى كان أول ما خطر لها أن أرسلت إلى شعراوي باشا تبلغه أن مكتب سعد مفتوح له ولزملائه في غياب سعد كما كان في حضوره وترجوه وزملائه أن يقبلوا دعوتها إلى العشاء في ذلك المساء ، وأن يعقدوا جلستهم الأولى في مكان انعقادها المألوف ، لكي لا يطرأ على سير الدعوة أقل تغيير بعد ذلك الحادث الذي أريد به القضاء عليها . فقرر الأعضاء أن يلبوا رجاها وأن يشكروها عليه ، واعتذروا من حضور العشاء لاشتغالهم بأعداد الاحتجاج الذي يقابلون به اعتقال الزعيم ، واتخاذ الخطة التي تلائم الموقف الجديد .

ولم يكن شعور الأعضاء بعد الاعتقال شعور فزع وارتداع كما قدرت السلطة البريطانية ، بل كان شعور استياء لا اعتبارهم دون من اعتقلتهم السلطة في الخطر والأثر ، وشعور رغبة في افهام السلطة البريطانية خطأها وتحديها واستفزازها باتيان العمل نفسه الذي من أجله اعتقلت سعداً وأصحابه . فكتب

شعراوى باشا احتجاجاً الى رئيس الحكومة البريطانية على اعتقالهم وأبلغه فيه ان الوفد مثابر على خطتهم ، ووجه مع زملائه فى اليوم التالى خطاباً الى صاحب العظمة السلطان يلقى فيه تبعة اعراض الكبراء عن تأليف الوزارة على السلطة العسكرية : « فانما هو النتيجة الطبيعية للخطا التى اتخذت فى مسألة سفر الوفد ، فان كل مصرى ذى كرامة لا يمكنه — حقيقة — أن يقبل الوزارة فى هذا الظرف من غير أن يستمين بمشيئة بلاده . » وختم الخطاب بقوله : « اليكم يا صاحب العظمة — وأتم تقبؤون أكبر مقام فى مصر ، وعليكم أكبر مسؤولية فيها — نرفع باسم الأمة أمر هذا التصرف القاسى ، فان شعبكم الآن يحق له أن يعتبر هذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله ، كما يحق له أن يكرر الضراعة لستكم العلية أن تقفوا فى صفه مدافعين عن قضيته العادلة »

أما الحكومة البريطانية فقد أحبت أن تئسس المصريين من كل أمل فى اللين والهوادة ، فعينت الماريشال اللنم، مندوباً سامياً بعد نشوب الثورة بنحو أسبوع ، بدلا من السير ريجنالد ويجت الذى كان من رأيه السماح بسفر الوزيرين المصريين ، وقد تعمدت بتعيينه غرضاً آخر هو اרחاب المصريين باسم القائد المنتصر فى أقرب الميادين اليهم وهو ميدان فلسطين . واذاغت فى الوقائع المصرية انه « منح السلطة العليا فى جميع الأمور المدنية والعسكرية وفى اتخاذ مايراه من الاجراءات صالحاً لاعادة النظام واحترام القوانين ... مع تثبيت حماية جلالة الملك فى مصر على أساس متين »

وقد بدأ الماريشال اللنم عمله بعد قدومه الى القاهرة باستدعاء الكبراء والسراة قائلاً لهم انه جاء الى مصر لينهى الاضطرابات ويتحرى أسباب الشكاية ، ويزيل منها مايقضى العدل بازالته ، وطلب اليهم أن ينصحوا للناس بالهدوء والسكينة .

فتكررت هذه النصائح التى يوعز بها الانجائز فى غير جدوى ، ولم يزل

متعذراً على « المستوزرين » أن يجترئوا على قبول الوزارة ، ولم يزل تسيير الادارة الحكومية في البلاد من أصعب الأمور .

ولجأ المارشال اللبني إلى أعضاء الوفد المصري ، فاستدعاهم إليه في السادس والعشرين من مارس وطلب اليهم أن يبسطوا أسباب الشكاية في تقرير يكتبونه ، فقدموا له التقرير بعد أربعة أيام وفيه تلخيص للمظلمة السياسية من بداية اعلان الحماية . وقالوا في ختامه : « غير أن السلطة العسكرية مع ذلك قد استدعتنا مرة أخرى في يوم ١٦ الجاري وأعلنت إلينا أننا مسئولون عن هذا الاضطراب ، وانا مسئولون عن ازالته ، ولكنها سمحت لنا هذه الدفعة أن نتناقش أمر المسئولية ، فأجبناها بأن هذا الاضطراب ليس نتيجة متوقعة لعملنا ولا يسوغه برنامجنا بحال من الأحوال . بل نحن نأسف له . وأما تسكين هذا الاضطراب فليس في يدنا وسيلة فاعلة فيه ، ونصحنا بأن أنجع الوسائل في تهدئة الخواطر بالطرق السلمية ، انما هو تأليف وزارة تعطى من الترضيات ما يرضى الشعب ، حتى تستطيع أن تقوم باعباء الظرف الحاضر » .

هذا رأى أعضاء الوفد الباقين بمصر في الثورة ، وهذا رأيهم في تفرجح الأزمة ، وهو رأى اتفقوا عليه مع كبار مصر الرسميين ومنهم علماء الأزهر وبطريق القبط الارثوذكس وبعض الوزراء والنواب والسروات . وكتب به هؤلاء جميعاً خطاباً إلى القائد العام في الرابع والعشرين من شهر مارس ، أى قبل استدعاء أعضاء الوفد إلى اللورد اللبني بيومين ، وكان تقديرهم أن الوزارة التي تولف تعمل لتهدئة الحال ، دون أن يشترطوا سلفاً لهذه التهدئة افراجاً عن معتقلين أو سماحاً لأحد بالسفر

ثم قال أعضاء الوفد : « وفي اليوم التالي وهو يوم ١٧ مارس قابلنا الوزراء الثلاثة رشدى باشا وعدلى باشا وثروت باشا وأقنعناهم بأن يظهروا استعدادهم للمفاوضة في تأليف وزارة تستطيع أن تقضى على هذه الحركة

الخيفة التي تخشى عواقبها المجهولة ، فاضربوا هذا الاستعداد لرجال دار الحماية ولكن الأمر لم يتم ، والاضطراب يأخذ نسباً واشكالا ليس الحكم على نتائجها في نفوس الناس بالشئ الميسور »

وبعد أيام حان موعد صدور الميزانية وليس في البلاد وزارة ولا نواب يناقشونها ، فلم ير المارشال النبي مخرجا من هذه الورطة إلا أن يعتمد الميزانية باسم السلطة العسكرية ، فأصدر بلاغا بذلك في أول ابريل ، ولكنه حل مشكلة وأثار مشاكل . فان هذا التحدى ألهم في النفوس جذوة الغضب وشحن فيها عزيمة المناجزة ، فعاد التجار إلى اغلاق حوانيتهم وأضرب بعض الموظفين ممن لم يكونوا مضرين ، وتمرد طلاب المدرسة الحربية ومدرسة الشرطة فخرجوا متظاهرين أمام قصر السلطان ودور السفارات ، وكانوا قبل ذلك يحتجزون عن المظاهرات ، واشتدت ثورة الأزهر وكثرت اجتماعاته حتى لجأت السلطة العسكرية إلى مخاطبة شيخ الأزهر في اغلاقه دفعة واحدة أو الاكتفاء باغلاقه في غير أوقات الصلاة فأبى ، واعتذر بأن الله ينهى المسلم عن اقفال مساجد الله

وفي السادس من الشهر وزع على الناس منشور من عظمة السلطان يقول فيه : « انى أنشر بين قومي هذه الكلمات التي كانت تحتلج بصدرى في الوقت الذي أخذت تتوارد إلى فيه ملامسات الأمانى القوية نحو مستقبل البلاد . وانى بالطبع لا أعنى بالبلاد إلا بلادنا المباركة : لا أعنى بالبلاد إلا وطننا العزيز : هذا الوطن الذي اقتضت حكمة الله أن يكون جدى الأكبر محمد على الكبير أكرم الله مشواه صاحب عرشه » وفي ختامه طالب عظمة السلطان أبناء المصريين بماله من حق الابوة عليهم أن يتناصحوا بعدم الاستمرار على المظاهرات التي كانت عواقبها غير محمودة في بعض الجهات »

وبعد أن جربت السلطة العسكرية كل وسيلة وفشلت في كل تجربة لم يسعها

إلا أن تجرب الوسيلة الوحيدة الباقية التي اقترحها المصريون من اللحظة الأولى ، وهي إطلاق الحرية للوفد المصرى ليسانفر حيث شاء ، فإن الحجر عليه هو سبب استقالة الوزارة وهو سبب الأحجام عن تأليف وزارة أخرى ، وهو سبب غليان النفوس وانفجارها ونشوب الثورة وانتشارها ، فأذاع المارشال اللبى فى أسايىع من الشهر بلاغا يعلن فيه أنه بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان « لم يبق حجر على السفروان جميع المصريين الذين يريدون مباحرة البلاد يكون لهم مطلق الحرية » وان « كلا من سعد زغلول باشا واسماعيل صدق باشا وحمد الباسل وباشا محمد محمود باشا يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر »

فسرت نشوة الظفر والرجاء فى نفوس الأمة قاطبة ، وقامت مظاهرات الابتهاج فى مكان مظاهرات الغضب والهباج ، واستولى على الناس شعور مقدس غسل حوبة النفوس ففى المجرم اجرامه والموصوم وصمته ، وشوهدت جموع النسوة الشقيات المتبذلات على مركبات النقل يحمين وطنهن ولا ينظر اليهن ناظر بعين المهانة أو الرية أو المجون الذى تثيره أمثال هذه الجموع فى غير تلك المظاهرات . وامتنعت حوادث السرقة على سهولتها فى ذلك اللجب اللاجب ، نخلت محاضر الأقسام من حوادث الطرارين واللصوص التى لم تكن تمتنع ساعة فى أيام الشح والضيق ووفرة المال فى جانب وندرته فى جانب آخر ، ومشى أعظم الناس وأصغرهم على السواء فى مظاهرات واحدة لا يتوقر عنها العالم الهرم ولا ينسى فيها الصغير دواعى الوقار ، ولم ينقص هذه المظاهرات إلا اعتداء بعض الأرمن عليها وشكاسة بعض الضباط والجنود البريطانيين الذين أطلقوا الرصاص على المتظاهرين المهتللين فى غير عداء ولا تنكر ، فقتلوا منهم أربعة وجرحوا كثيرين ، ولعل هذه الحادثة وحدها كافية لبيان مبلغ ما وصلت اليه فوضى القمع والارهاب ، فان هؤلاء الضباط والجنود تطوعوا لفعلتهم دون أن يدعوهم رؤسائهم اليها ، بل لقد

كانت القيادة العليا تستبشر بمظاهرات الفرح التي أعقبت الافراج عن الزعماء لأنها قد تلطف سورة الحنق والعداء وتهدئ جو السياسة للوفاق والمسالمة ، وتتيح للوزراء المصريين أن يقبلوا مناصب الحكومة ، ولكن القوضى أخرجت أولئك الضباط عن طورهم فأفسدوا هذه الدلائل وعكسوا الأمر على القيادة العليا حتى كادت أن تفشل في تأليف الوزارة التي كان يجري الكلام في تأليفها حينذاك ، مما اضطر المارشال اللبني إلى الاعتراف بخطأ الجنود ونشر بيان يقول فيه : « لقد تغيرت الحالة فجأة وأطلقت الحكومة البريطانية الزعماء المعتقلين في مالطة ، وأذنت للمصريين أن يرسلوا مندوبيهم إلى انكلترا ليعرضوا شكواهم . وقد سر المصريون لذلك بالبداية وسمح لهم أن يقيموا الاحتفالات كما يسمح لأبناء انكلترا بالاحتفال بأي نصر سياسي ، ومن سوء الحظ أن الجنود لا يفهمون هذا على ما يظهر ولذلك حدث مرة أو مرتين أن نفرا من الجنود قاموا بمظاهرات ضد المصريين الذين كانوا قد أقاموا احتفالا غير موجه ضد سلطنتنا بته . وقد أدى عمل هؤلاء الجنود إلى اضطرابات خطيرة وإلى خسارة في الأنفس من الجانبين . على أن المأمول الآن أن يلوذ الجنود بالهدوء ويلزموا السكينة ، ويتركوا القانون والنظام للقائد العام . وبما يجب أن يفهم أن كل عمل مستقل يقوم به الجنود يضاعف صعوبة مركزنا عشر مرات »

بقي سفر الوفد فعلا بعد السماح بالسفر قولا والظاهر أن السلطات الانجليزية سمحت بسفره من جهة لتعرقله من جهة أخرى . . . لأنها تعلمت بقله البواخر وزعمت أن الأماكن فيها محجوزة سلفا وأن الأماكن المطلوبة لا تيسر قبل ثلاثة أشهر . . . وعلم الوفد أن الانتظار إلى ذلك الموعد مضيع لفرصة الحضور أمام مؤتمر الصلح أو الوصول إلى باريس في ابان انعقاده ، فالتمس الاذن بالسفر على « يخت » صاحب العظمة السلطان المسمى بالمحروسة ، واتصل نبأ هذا الخبر بالانجليز فخشوا أن يجاب بعد قيام

الوزارة الرشدية التى يعلمون من سياستها الأولى أنها تشايع الوفد فى طلب السفر الى أوربا ، ورأوا أن وصول الوفد المصرى الى أوربا على اليخت السلطانى يخوله « مظهراً رسمياً » يتقونه ولا يحبون دلالة الواضحة عند أمم العالم . فدبروا أمر الأماكن المطلوبة على عجل ، وسرعان ما استطاعوا أن يحجزوا الأماكن كلها فى الباخرة « كاليدونيا » ومعها ستة أماكن أخرى لمن يشاء السفر من خصوم الوفد الى باريس !

برح أعضاء الوفد العاصمة فى الساعة الثامنة من صباح يوم « ١١ ابريل » فكان توديعهم الرائع بمثابة توكيل جديد من الأمة قاطبة ، فازدحمت الطرقات والميادين بعشرات الألوف من جميع الطوائف والطبقات ، ووزعت محافظة العاصمة أكثر من ألف تذكرة لعلية القوم ورؤساء الدين والسروات الذين رغبوا فى توديع الوفد على المحطة ، فلم تكف هذه التذاكر لتلبية جميع الرغبات ، وبلغ عدد المودعين أضعاف العدد المقدور ، وأوشك الناس ما بين العاصمة وبور سعيد أن ينتظموا موكباً واحداً للحفاوة بالوفد وتأييده وإظهار الابهاج بسفره ، وما كانوا يعلمون بالسفر فى يومها لصعوبة المواصلات وانقطاع أسلاك البرق فى بعض الجهات ، ولكنهم كانوا يرون القطار المزين بالرايات والأزهار وعليه التحيات التى كتبها المودعون فى محطة العاصمة فيعلمون الخبر ويتسامعون به فى لحظات معدودات ، ويهرولون الى لقائه داعين هاتفين . ولما وصل القطار الى بور سعيد خرجت المدينة تستقبله وترحب به وتصحبه الى الباخرة التى بات فيها ليلته ، وأضاءت بور سعيد كلها فى المساء وحفت بالباخرة عشرات الزوارق المضاءة الصادحة بالموسيقىات والهاقاقات الوطنية طول الليل ، واثالت الرسائل البرقية من المدينة ومن أنحاء كثيرة فى القطر تشيع الأعضاء بالرجاء والتأييد

وفى اليوم الذى أقلعت فيه الباخرة — وهو اليوم التالى — تألفت فى القاهرة لجنة مركزية كبرى تنوب عن الوفد فى غيابه وتمولى انشاء اللجان التى تنوب عنه فى الأقاليم .

تأليف الوفد الأول

الذين دخلوا الوفد غير من ذكرنا كثيرون ، والذين خرجوا منه كثيرون ، وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن تتبع أسماء أعضائه جميعاً في دخولهم وخروجهم إلا بمقدار ما يتصل ذلك بسياق الترجمة التي ندونها أو سياق الحوادث العامة التي نحن بصددھا . ونقتصر في هذا الباب على القاء نظرة مجملة في تكوين الوفد كما تألف في أوائل وجوده ، ليتسنى لنا أن نفهم نصيب سعد من الاختيار في تكوينه . وأن نعلم من أين نشأت العواقب المحزنة التي سيق إليها الوفد من جراء الحوادث أو من جراء ضعف الأعضاء لا يحتاج الانسان إلى انعام النظر طويلاً في بنية الوفد الأول ليعلم أن تأليفه لم يخل من ضرورة بل ضرورات شتى لوحظت في اختيار الأعضاء وتقرير البرنامج السياسي واتخاذ الخطة المثلى في تلك الأحوال التي كانت مفعمة بالموانع والعراقيل ومخاوف التردد والقنوط

ومن البديهي أن سعدا لم يكن في موقف الرجل الذي ينتقى أعضاء الوفد كما يحب ويتمنى . فيأخذ من يشاء ويدع من يشاء ، ويستجمع شروط المثل الأعلى لما ينبغي أن تكون عليه الوفود الوطنية ، وهو في غفلة عن الرقباء والمعارضين .

ولكنه كان يعمل لانه لا بد أن يعمل ، ثم كانت تعترضه إلى جانب ذلك رغبات شركائه في العمل ، وأحوال الحرب ، وأطوار الحوادث الداخلية والخارجية التي لا حيلة له في منعها ولا قدرة له ولا لأحد من الناس على اجتنابها .

فأول ما يلاحظ على تأليف الوفد المصري كما كان في بداية نشأته ان العدد الاكبر من أعضائه لم يكونوا من رجال العراك المفطورين على القيادة

القومية فى الأزمات ، الذين يفتنون بالالهام لبواعث حركات الامم ويوحون اليها من روح الاعجاب والثقة ما يذكى الحمية ويستجيش العزيمة ، ومن كان منهم قد وقف على طرف من آراء جوستاف لوبون فكأنما وقف عليها ليوم الجماهير ويعطيها درجات علمية فى الفهم والتفكير ، لا ليستعين بأخلاقيها وطبائعها على العمل والجهاد كما يستعين الملاح القادر على خوض البحار بما يعلم من مهاب الرياح ودوافع المد والجزر وطوارىء الأمواج والاعوار ، فبينما كان سعد الناشئ فى مهد الثورة العربية يتلمف على قارعة تبثت كوامن الأمة الوادعة كان بعض رفاقه الباقين بعد نفيه يهايون قلق الشعب ويحفلون من كل خلجة تختلج بها طوائفه الفتية ، وبلغ من جهل هؤلاء بأسرار القيادة القومية أن عبد العزيز فهمى « بك » زجر الطلاب زجراً عنيفاً حين أفضوا اليه بما يضطرم فى نفوسهم من سخط و ما يهيمون به من احتجاج ، وأن أصحابه الآخرين شاركوه فى هذا الشعور وان لم يشاركوه فى الزجر والهياج ، وكل ما كانوا يتوقنون اليه خلوة لا يكدرها ضجيج المتظاهرين ولا سورة الناقين . كأنما المسألة كلها مسألة مذكرة قانونية تكتب وتبوب وتوضع فيها النصوص والبنود وراء الأبواب المغلقة فى معزل عن الأصوات والاصداء ، ولو جرت الحركة الوطنية على هدى أمثال هؤلاء لكان حظهم هم النفي واللحاق بالمنفيين الآخرين ، ولكانت مصر الآن مستعمرة بريطانية لا فرق بينها وبين المستعمرات الهمجية فى أعماق القارة السوداء .

وقد رأينا قصارى ما طلبه الوفد بعد سفر سعد إلى مالطة يوم دعاه القائد العام ثم اللورد اللبني لشرح مطالبه وبيان علاجه لتسكين الحركة « الخيفة » كما وصفوها . فقصارى ما حسبوا أنهم مستفيدوه من تلك الحركة التى برزت فيها مصر بأقصى ما فى وسعها من مقاومة - ان تتألف وزارة يمنحها الانجليز بعض « الترضيات » . . . ! وأن يسعى الوزراء إلى دار الحماية ليعرضوا عليها استعدادهم لتأليف الوزارة على هذا الاساس

ولسنا نقول إن سعدا كان دائما في جانب التشدد وان الأعضاء كانوا دائما في جانب التسهل على هذا المنوال ، ولكننا نريد أن نقول إنهم حينما انفردوا لم يكونوا يشعرون بالقوة التي يشعرون بها وسعد في وسطهم وزمام المناقشة في يديه لا في أيديهم ، فانهم ليستمدون من وجوده بينهم قوة تسرى فيهم حتى حين يكونون هم المتشددون ويكون هو في جانب الهوادة واللين . لان الثقة قرينة القوة حيث كانت ، وهم لا يثقون بعضهم ببعض كما كانوا يثقون بسعد شاعرين أو غير شاعرين

ويلاحظ على تأليف الوفد أيضا أن الكثيرين من أعضائه كانوا من أصحاب مزاج الدعة الذين لا يتجشمون المشقة ولا يفهمون العناد والمثابرة في تذليل الصعوبة ، وأصحاب هذا المزاج يحسبون الدعة والوجهة حقاً لهم على الأمة ينتظرونه ويحاسبونها عليه ان أخلت بشروطه ، وعندما في قرارة نفوسهم أن الأمة تعمل كل شيء وتتكفل بكل شيء ، فإذا عملت ونهضت باعباء الكفالة فهي أمة مستحقة لما تطلب وما تنال ، وإذا لم تعمل فما ذنبهم هم وفيم يحشمون أنفسهم العناء من أجل أمة لا تتكفل لهم بالدعة والوجهة ؟ .. انهم اذن في حل من ابتغاء الدعة والوجهة من طريق غير هذه الطريق ، وإن يدرك أصحاب هذا المزاج أبدا ان انتظار ما تصنعه الأمة لا يصح أن يكون واجبا على الأفراد الاغمار فضلا عن الزعماء البارزين ، لان المرجع هنا إلى مزاجهم لا إلى رأيهم وتفكيرهم ، وكيف يكون المزاج مزاج راحة ووجهة وتكون العقيدة بعد ذلك عقيدة كفاح ومجازفة في محنة الفداء والحرمان ؟

وربما لحق بهذه الملاحظات أن معظم أعضاء الوفد كانوا لا يدركون معنى «المبدأ» الذي تنجح به الثورات وتقوم عليه الدعايات ، ولا يصدقون

في دخيلة أذهانهم أنه عدة حقيقية في وجه القوة الغالبة والمصلحة الشخصية ،
فهذا في رأيهم كلام جميل توصى به مكارم الأخلاق ، ولكنه لا يليق بالشيوخ
المحنكين والرجال العاملين

وقد يسمعون بأناس من قادة الثورات وزعماء الدعوات صبروا على
الشدائد سنوات بعد سنوات لأنهم يريدون شيئاً لا يعدلون عنه إلى سواء ،
فغاية ما يفهمونه من شأن هؤلاء أنهم أناس نظريون أو مثاليون يصلحون
لضرب الأمثال في الكتب ولا يصلحون لتدبير الأعمال في الحياة ، ويعسر
عليهم جداً أن يفهموا أن « المبدأ » عند أولئك القادة والدعاة إنما كان
« عنواناً » أو تلخيصاً للأعمال المنتظرة ولم يكن خيالا في الفضاء أو أملا
مثاليا من أحلام البطالة ، رسموه وقدروه وعولوا في تقديره على الممكنات
التي تتحقق بعد مغالبة الصعوبات ، إذ ليست الممكنات التي تتحقق بغير
صعوبات في حاجة إلى مبدأ أو ميثاق ، لأنها تأتي وحدها ولا يتجاوز عمل
الإنسان فيها أن يترقبها مع الأيام .

وقد كانت أكبر آفات هذا الفريق من أعضاء الوفد أنهم كانوا إذا
شعروا بالنقائص التي تعتور الثورة المصرية حسبوا أنها نقائص موقوفة
عليها وحدها وقد خلت منها الثورات الأخرى التي يقرءون عنها . ولم يخطر لهم أن
الثورات على البعد جميلة خلافة لا تبدو فيها إلا آيات البطولة ومفاخر الأقدام
والإشارة ، ولكنها على القرب مشحونة بالحماقات والشهوات على شبه واحد
بين جميع الأمم في هذه السمات ، وما جاءتهم هذه الآفة إلا من قلة درس
التاريخ النفسى للجماعات والأبطال ، ومن قلة الخيال الذي يترجم المقروءات
ويصورها للذهن كوقائع العيان ، أو الخيال الذي يقرب ما بين عالم التصور وعالم
الشهادة لأنه يعرف كيف تكون الصور المكتوبة حين تقع في البيئة الإنسانية
ويعرف كيف تكتب الوقائع حين تتجرد من التفاصيل وتنطوى في حيز
الاختصار والجمال . وهنا يبدو لنا كيف أن ملكة « الخيال » ملكة عملية

لاغنى عنها لأصحاب المجهودات الواقعية ، لأن صاحبها أقدر الناس على تصور الممكن فيما مضى والممكن فيما سيأتى مع الأيام ، فلا يخذعه الواقع المحسوس فينسى الشبه بينه وبين التاريخ الموصوف ، ولا يخذعه التاريخ الموصوف فيحسب أنه يخالف للواقع المحسوس

ومع هذه العيوب فى معظم أعضاء الوفد لم يكن بد من اختيارهم أو اختيار من يماثلهم فى هذه الصفات

لأن سعداً كان مقيداً بالصيغة الرسمية فى تمثيل الأمة ، فكان لا يسهل عليه الاستغناء عن شركاء من « الجمعية التشريعية » أو من الذين تؤيدهم هذه الجمعية ، وضاعف هذه الضرورة أن الحالة فى بدايتها كانت تستلزم العلاقة الحسنة بين الوفد والوزارة المصرية . حتى يتأتى لهذه أن تعترف بالوفد أمام الانجليز وتتكلم عنه باللغة الحكومية التى يتكلم بها الرجال الرسميون وقد نشأت فكرة الوفد فى إبان الحرب العظمى يوم كانت الرقابة الصارمة مفروضة على المقابلات والمشاورات السياسية ، فلم يكن من الميسور أن يتسع أفق الاختيار والمشاورة بين المرشحين لتمثيل الأمة فى جميع أنحاء البلاد ونحن نعلم الآن موضع هذه الصعوبة حين نعلم أن كثيراً من الأعضاء كانوا يسكنون فى شارع سعد أو فى الحى الذى يسكن فيه ، فليس بين منزله ومنازل حمد الباسل باشا وحسين واصف باشا ومحمود أبو النصر بك وعلى شعراوى باشا ومحمد محمود باشا وبعض الأعضاء الآخرين غير دقائق معدودات ولهذا العجلة فى تأليف الوفد صدرت التوكيلات الأولى وليس عليها من أسماء أعضائه غير سبعة أسماء ، ولم يتفق أن يكون بينها أحد من الممثلين للطائفة القبطية كما هو المقرر بين أعضائه ، فلاحظ ذلك وجهاء القبط وفضلاؤهم فى نادى رمسيس ، وأوفدوا الأستاذ ويصا واصف ومعه عضوان من أعضاء النادى لمفاتيحة سعد فى هذا الموضوع . وظنوا أن الوفد لم يفكر فى ضم أحد ممن يمثلون الطائفة القبطية إليه . وظن سعد حين فاتحوه فى الأمر أنهم يرشحون الأستاذ ويصا لهذه

الوكالة فرحب باختياره وأثنى عليه ، ولكن الأستاذ وىضا تنحى معتذرا واقترح أن تكون الوكالة لرجل مثل واصف غالى باشا سليل البيت المكين فى الطائفة القبطية ، فقبله سعد على الرحب والسعة

ولم تكن هذه أول مرة خطر له فيها تمثيل الطائفة فى الوفد المصرى الممثل لجميع الأمة ، ولكنه وزملاءه كانوا حريصين أول الأمر على اختيار الأعضاء من الجمعية التشريعية ، وكان جميع أعضائها القبط من المعينين لامن المنتخبين ، والمعينون لم تعينهم الحكومة بطبيعة الحال إلا لأنهم من أنصار الاحتلال أو أنصار الوزارة السعيدية التى تم فى عهدا تعيين الأعضاء . فأما أنصار الاحتلال فلا يصلحون لتمثيل الأمة فى هذه المهمة ، وأما أنصار الوزارة السعيدية فكانوا يميلون الى الوفد الآخر الذى كان يسعى محمد سعيد فى تأليفه كما تقدم . وسرعان ما علم سعد أن سينوت حنا بك يقبل الانضمام اليه حتى دعاها الى وفده ، وتوسعوا بعد ذلك فى التمثيل غير متقيدين بالجمعية التشريعية أو بغيرها من الهيئات النيابية ، ونحسب أن واصف غالى باشا لو كان يومئذ فى مصر ولم يكن فى باريس لانحلت هذه المشكلة من البداية

ومن المسائل التى لم يكن فى الطاقة أن يتجاهلها مؤلف الوفد مسألة التبرعات المالية ، فهى ضرورة لابد منها لهذا العمل الكبير فى مصر وأوربا وسائر الأقطار التى قد تدعو الحاجة الى زيارتها ونشر الدعوة بين شعوبها ، فاصحاب الثروة — كائناً ما كان نصيبهم من الرأى — عنصر لامناص من تمثيله فى الهيئة التى يتبرعون لها بالهبات الجسام

ولعل اختيار أناس من « المعتدلين » كان ضرورة أخرى لا محيد عنها ، لأن اشتراكهم فى الوفد دليل على إجماع الأمة واتفاق كلمتها على المطلب والخطة ، وقد ينزع اشتراكهم فيه دعوى الانجليز الذين تعودوا أن يفرقوا بين معتدلين من الأمة ومتطرفين ، كلما واجههم المصريون بطلب الاستقلال وفى هذا الاشتراك اتقاء للشر الذى ينجم عن ترك هؤلاء المعتدلين وراء

الصفوف بين الأمة والانجليز ، منفصلين عن الحركة أوجارجين عليها ، وقد طالما زعم الانجليز انهم يستنكرون الآمال المصرية لأنهم لا يدعون لمطلب يجيئهم من طريق اللدد والعناد . فاذا جاءتهم مطالب مصر من هيئة لم يستأثر بها المتطرفون ، فقد يميلون الى اجابتها وذلك خير ، وقد يعرضون عنها كما أعرضوا من قبل وذلك خير أيضا . لأنهم يطالعون الأمة على نياتهم ويدلون بها على أنهم يرفضون الاصغاء اليها لأنهم ينكرون حقوق جميع المصريين لا لأنهم ينكرون وسيلة حزب من الأحزاب

ومن العوامل التي كان لها شأن في تأليف الوفد الرغبة القوية في التوفيق بين الوفد الذي تالف برآسة سعد في القاهرة والوفد الذي تالف برآسة الأمير عمر طوسن في الاسكندرية ، فان سفر وفدين الى أوروبا لتمثيل الأمة المصرية كان خطرا على القضية المصرية ، يجب اتقاؤه بكل ما استطاع . لأنه يتم على انقسام في صفوف الأمة ، ويفتح باب الدسائس وانكار حق الفريقين على السواء

ولم يشأ أصحاب الرأي في تأليف الوفد أن يجعلوه مقصورا على «المعتدلين» أو من يسميهم الانجليز بالمعتدلين ، فكان اختيار مصطفى النحاس بك والدكتور حافظ عفيفي ومحمد علي بك وعبد اللطيف أفندي المكباتي مقصودا به تمثيل الحزب الوطني وعنصر الشبان العاملين في القضية الوطنية ، لأن هؤلاء الأعضاء كانوا من رجال ذلك الحزب أو من المعروفين بالميل اليه .

على أن الذين لاموا سعدا يومئذ على اختيار العنصر المعتدل في الوفد لا يستطيعون أن يلوموه على ذلك اليوم ، فلو أنه ملك الاختيار وحده وكانت له السيطرة القاهرة على الحوادث والناس فلم يدخل في الوفد إلا المتطرفين لما ضمن بذلك شدتهم في الحق وثباتهم على الطلب ، لأن المتطرفين كما نراهم الآن قبلوا كل ما قبله المعتدلون من المطالب المنقوصة ،

وسابقوهم في اغتنام الفرصة والاعتزاز بفتنة الوظائف ، وأسف بعضهم إلى استحقاق المكافأة من شر الوزارات وأعنفها في ارهاق الأمة المصرية والجور على حقوقها الدستورية ، حتى ذلك الفتى الذى كان يتوقد بالحماسة في خطاب سعد ولا يرضيه إلا أن يكون الأعضاء كلهم من الحزب الوطنى قد عاد فقبل الوظيفة من وزارة قاطعتها جميع البلاد . وانفض المتطرفون بعد ذلك من حول سعد كما انفض المعتدلون ، فلم يبق معه منهم إلا مصطفى النحاس الذى خلفه على رئاسة الوفد بعد وفاته ، وهو لم يكن مع هذا عضواً في الحزب الوطنى وإنما كان من أنصار مبادئه ومطالبه العامة ، والاسينوت حنا بك وهو لم يدخل الوفد ممثلاً للحزب الوطنى بل ممثلاً لوفد الأمير عمر طوسن وللطائفة القبطية كما تقدم ، فكانت عصمة الوفد الكبرى رئاسة سعد عليه وتأييد الأمة له وثقافته ، وتلك ذخيرة استمد منها زاد الأنصار والأعوان كلما احتاج اليهم فلم تبخل عليه بالمدد ، ولانخال أحدا يعرف ذخيرة أنفع منها للشعوب في جهاد الحرية .

فتقلب الأفراد مع النزوات والمنافع والأهواء النفسية آفة لا يسلم منها حزب سياسى ولا دعوة انسانية ، وزعامة قوية وعقيدة قومية هما العصمة الكبرى من شر هذه الآفة ، فاذا اجتمعتا كانت كل منهما الأخرى حافزة وهشجة لها ورقية عليها ، فتبث الزعامة من روحها في الأمة وثبت الأمة من روحها في الزعامة ، وفيهما الكفاية

موقف الوزارة الرشدية

كانت للوزارة الرشدية علاقة وثيقة برئيس الوفد وأعضائه . فمن اللازم الآن أن تحمل الكلام عن حالتها وحقيقة موقفها كما أجملناه عن حالة الوفد أثناء تأليفه الى اطلاق سبيله وسفره

فما لاشك فيه أن الوزارة الرشدية نفعت الوفد نفعا كبيرا بطلب سفره الى أوروبا واصرارها على الطلب عند رفضه ، ولكن هذا النفع — مهما يبلغ من أثره في بداية الحركة — لم يكن من شأنه أن يرفع من طريق الوفد تلك العقبات الجسام التي أقامتها أمامه وأمام الشعب المصري بما سلف من مسلكها في أوائل الحرب العظمى . فان هذا المسلك الذي خلا من الاقدام والحنكة قد أقنع الانجليز بسهولة الاغضاء عن مطالب المصريين العادلة ولا سيما مطالب الاستقلال والغاء الحماية ، وأقنعهم بسهولة سوق المصريين الى الحرب في غير مجاملة ولا مكافأة . وهو مسلك ضعيف هزيل أفرط في الضعف والهزال حتى عابه بعض الانجليز كما عابه جميع المصريين : فقال الكولنل الجود في كتابه الموجز عن التاريخ المصري : « لقد كانت لحظة محيرة لرشدي باشا رئيس الوزارة . فقد كان الخديو في الآستانة وكان زملاؤه متفرقين وليس أمامه ملجأ للاستشارة ، ومصلحة مصر تقضى بالحيدة ومصلحة بريطانيا تقضى بالاشتراك في الحرب . فانضوى رشدي باشا أمام تهديد المندوب البريطانى الى الثانية لا الى الأولى . ولو أن وزيراً أقوى من رشدي باشا في مكانه لعمد الى المساومة . ولكنه لم يشترط شيئاً وحاقت العاقبة بمصر من جرم هذا الاهمال ، وليس في وسع رشدي أن يقول كلمة تخفف من وقع تسليمه » .

قبل رشدي وأصحابه الحماية وقطع العلاقات بالدول الوسطى دون وعد

ولا شرط ولا مساومة ، ولم يكتفوا بهذا حتى يقال انهم أذعنوا للحماية مكرهين في انتظار التغيير أو الالغاء عند سئوح الفرصة . بل تجاوزوه الى التطوع بالأحاديث والتصريحات التي هلموا فيها للحماية واعتبروها أمنية من الأمان طال اشتياقهم الى تحقيقها . فقال رئيسهم رشدي باشا في حديث له مع مراسل الديلي كرونيكل عقب اعلان الحماية :

«... مادامت قناة السويس حلقة اتصال بين أجزاء الامبراطورية البريطانية ، وطريقاً لازماً لاجل انجلترا ، فمن الطبيعي أن تنعقد بين بريطانيا العظمى ومصر صلات الود المتينة ، وزد على ذلك اننا أمة ضعيفة نحتاج الى صديق قوى يصون بلادنا من كل اعتداء ويكون على جانب من الحرية والارتقاء ليتيسر لنا أن نسير بارشاده في معارج الحرية إلى ذلك المقام الذي يليق بنا في مصاف الدول . وهذه الشروط متوافرة في انجلترا ، فان لديها من القوة ما يمكنها من الدفاع عن قطرها ، ولها من معاملة البلاد التي تماثل القطر المصري تقاليد عطف وحرية ! »

الى أن قال : «... على أن مصر لا تنتظر الآن أن تقطع مسافات واسعة في وقت قصير بل تؤمل السير خطوة خطوة .. »

وتحدث في الثامن من شهر يناير سنة ١٩١٥ إلى مراسل التيمس فقال : « لقد حقق هذا التغيير ما أمليت طويلاً . إذ كان من رأي دائماً أن مصر كبيرة الشأن بالنظر إلى موقعها الجغرافي ، وانها تثير المطامع عند الدول الأخرى وهي ضعيفة لا يتأتى لها الدفاع عن نفسها ، فلكي تحافظ على وجودها ينبغي أن تكون تحت سيطرة دولة عظيمة وهي تصبو إلى بلوغ استقلالها الداخلي ، والأمة الوحيدة التي يتوافر فيها الشرطان اللذان هي بريطانيا العظمى ، لأنها قادرة على حماية مصر ، وتقاليدها الحرة خير ضامن لتحقيق آمالنا . أما استقلال مصر الداخلي لا أظن بلوغه ممكناً الآن فأرى انه قد يتسنى البدء فيه بتحويل المصريين رأياً نافذاً في المسائل المصرية البهتة التي لا علاقة

لها بمصالح الأجانب : مثل الأوقاف والمحاكم الشرعية والمجالس الحسينية « . الخ واستمر على هذه النعمة الهزيلة حتى بعد انتهاء الحرب العظمى وتحفز البلاد للمطالبة بالاستقلال ، فحصر الغرض من سفره إلى إنجلترا في تنظيم الحماية وذكر ذلك في كتاب استقالته حين قال : « وفي ذلك الوقت طلبت وفود مؤلفة من بعض هيئات النيابية السفر إلى لندن للدفاع عن قضية مصر . وقد أشرت بأن يؤذن لها بالسفر ، فلم تهمل مشورتي فقط بل رُفِضَ سماع آرائي فيما يحتمل أن يكون عليه نظام الحماية .. »

وبما لا خلاف فيه أن مسلماً كهذا لم يكن من شأنه أن يقنع الإنجليز بالاكتراث لمطالب الاستقلال والخلاص من « نعمة الحماية المشتهة » ... وإنما كان أثره الطبيعي أن يحنح بهم إلى إهمال المطالب الوطنية واتهام أنصار الاستقلال بالغلو والشطط والاجترار الذي لا يستحق من الدولة المسيطرة على البلاد أن تقابله بغير الاعتراض والقمع الحاسم . فالوزارة الرشدية والموظفون الإنجليز الجاهلون بحقيقة الحركة الوطنية مشتركون على السواء في تشجيع السياسة البريطانية على موقف الاستخفاف الذي وقفه بإزاء الشعب كله . ثم تشبثت به بعد نشوب الثورة بسنوات ، ولا تزال البلاد إلى هذه الساعة تعاني ماتعاني من جرائره وبقاياه .

لقد أدخلت أحاديث رشدي باشا في روع الإنجليز أنهم خلقاء أن يرفضوا الاستقلال ويرفضوا إلغاء الحماية ، وهم على ثقة من وجود مصريين يرضون بما دون ذلك ويحسبونه غنياً مقبولا ، ويجدون فيه تسوية لمسلكتهم السابق وتكفيراً عن أخطائهم الأولى وتحقيقاً للرأي والمصلحة في وقت واحد ، إذ يكونون هم ولاية الحكم وأصحاب الوزارة عند تنفيذ السياسة القائمة على دوام الحماية .

نعم قد نزلت الوزارة الرشدية عن ولاية الحكم حين رفض الإنجليز سفرها وسفر الوفد ، ولكن هل كان لها بد من ذلك بعد ما لحقها من الإهانة

وخفية الأمل بمنع سفرها وإغفال شأنها مع ما أسلفت من خدمة وأظهرت من قنوع باليسير ؟ وهل كان صدوقها عن الحكم إلا كصدوف المستوزرين الآخرين عنه في تلك الحالة ؟ فلو أنها قبلت الحكم وبقيت في المناصب لما كانت نهايتها إلا كنهاية الوزارات التي قامت على الرغم من اجماع الأمة فلم يقبل منها الانجليز ولا المصريون أن تبحث في القضية المصرية ، حتى اضطرت إلى انتحال وصف الوزارات « الادارية » لتبرئ نفسها من شبهة الاشتغال بالقضية السياسية في تلك « الظروف »

ونحن نعتقد أن حسين رشدي باشا كان رجلاً نزيهاً حسن المقصد فيما قال وعمل ، وكذلك كان زميله عدلى يكن باشا الذى كان موضع سره ومرجع رأيه . ولكن الآفة قد خامرتهما من حيث يشعران ولا يشعران ، لأنها آفة الضعف وقلة المراس على الجهاد فى دعوات الشعوب ... فهما من طينة لا تمتزج بالروح الشعبية ، ولا الروح الشعبية تمتزج بها ، ولعلمها ينظران بعين الخوف والتوجس إلى وثبات الأمم واعتلاج صدورهما بالقلق ودوافع الحياة . لأنها تلوح لهما كالمدارد الجاح لا يملكان إحضاره ، وإذا حضر لا يملكان توجيهه ولا صرفه

فليس الرجلان زعيمين قوميين ، ولكنهما من رجال الديوان وعشاق الانتظام فى الأعمال على الطريقة « الديوانية » التى تجمعهما مع الانجليز الحاكمين بجامعة النظام « وتوطيد الأمن العام » ... وربما نظرا فى دخيلة نفسيهما فلم يشعرا هنالك بالعضاضة الأليمة من بقاء المصريين محكومين لدولة أجنبية ، لأنهما قد نبتا فى بيئة الحكم ولم ينبتا فى بيئة الشعب المحكوم ، ولا يشعران كذلك بغضبة الاهانة المثيرة للنفوس إذا قيل إن المصريين لا يصلحون للحكومة المستقلة ، فانهما قد يتعزبان عن هذه التهمة بأنهما من سلالة جنس غير الجنس المصرى الصميم ، وهى السلالة التركية القديمة .

فليس لهما من طبيعة الثورة ولا من طينة الكفاح والجهاد ولا من غضبة

المرء لطائفته ولجنسه ما يضرم الشوق إلى الاستقلال ويهون المشقة عليهما في نشدانه ، وانهما لمخلصان في الهوادة والتسليم ولكن لا عذر لهما من ذلك إلا أنهما عاجزان عن الاخلاص في الغضب والمثابرة واليقين . . . وليس من يضعف وهو مخلص كمن يقوى وهو مخلص في زعامة الشعوب

ومن ثم كان مسلكهما في الدعوة الوطنية إلى جانب سعد زغلول المكافح بطبعه المصرى في صميمه ، كمسلك المحامى الذى يؤدى أمانة الصنعة إلى جانب صاحب القضية الذى يشعر بالاهانة في ذات نفسه ويشعر بالخسارة في ماله وحياته .

اننا لانحب أن نبخس ماصنعتة الوزارة في خدمة الوفد وتذليل عقباته ولكننا نقرر الحقيقة حين نقول ان الوفد كان وشيكا أن يفتح طريقه إلى أوروبا بغير هذه الخدمة ، فان الأمة قد ثارت لاعتقال سعد لا لاستقالة الوزارة الرشدية ، وكانت ثورتها هي مفتاح الطريق إلى أوروبا بعد إبعاد الانجليز إياه اغتراراً بمسلك الوزارة الرشدية وترحيبها بالحماية ، واستمرارها على طلب المفاوضة في تنظيم تلك الحماية ، ولولا اغترار الانجليز بهذا المسلك المعيب لما كانت هناك صعوبة كبيرة في الاذن للوفد بالسفر إلى حيث أراد ولا يفوتنا في هذا الصدد أن ننظر إلى الباعث الاكبر الذى حدا بالوزارة إلى السير في وجهة الحركة الوطنية وتذليل ماذلت من العقبات في طريق تلك الحركة . فقد كان رشدى باشا وعدلى باشا ينظران أبداً إلى ما يعمله سعد وما ينوى أن يعمله وما هو قادر على عمله ، وكانا يحسبان حساباً لليوم الذى يتولى فيه قيادة الأمة والوثوب بها إلى مقاومة الحماية ، ولهذا رجحا بما اقترحه السلطان فؤاد من اشراكه في الوزارة قبل انتهاء الحرب العظمى بأكثر من سنة ، عسى أن يشترك معهما في التبعة ويمضى معهما على خطة واحدة ؛ ولهذا رفضا السفر إلى إنجلترا حتى يسافر سعد فيقبل ما يقبلان أو يعجز عما يعجزان عنه ، ولهذا عادا بعد ذلك يقولان في حديثهما مع اللورد

ملتر أن إلغاء الحماية شرط لا بد منه للدخول في المفاوضة وهما اللذان قبلا الحماية على أنها بركة ونعمة مومومة ، وما تغير من الأمر في هذه الأثناء إلا أنهما يحسبان حساب سعد وما يقبله أو يرفضه في المفاوضة المصرية الانجليزية بل لهذا أيضا رفض عدلى بعد سنتين مقترحات اللورد كرزون وعرض عليه في الوقت نفسه أن ينفذها من جانب الانجليز بغير موافقة من جانب الوزارة كأنه يرضى تنفيذ تلك المقترحات ولكنه لا يجسر على توقيع اتفاق دون الذى يرضى سعد بتوقيعه .

وليس بنا أن نعرض لهذه الصفحة من تاريخ الثورة لولا أننا نتابع طريق المطالب الوطنية في تقلباتها إلى غاياتها . ولا يسعنا أن نتابع هذه الطريق على هدى من خطوات السالكين فيها ما لم نقف على دخائل أعمالهم والمقاصد التى تحيك فى نفوسهم ، وعلى أسبابهم فى مخالفة سعد ، وأسباب سعد فى مخالفتهم ، فهى صفحة لا بد منها لدراسة صفحات ، وليس من مصلحة التاريخ ولا من مصلحة الأمة المصرية أن تطوى لمصلحة أفراد

برنامج الوفد والامتيازات

تلك خلاصة الظروف والموانع التي قيدت ارادة سعد في اختياره لأعضاء الوفد وموقفه من الوزارة . وما كانت حريته في هذه الظروف بأ كبر من حريته في اختيار السياسة التي رسمتها لنا بياناته وخطبه الأولى . فمما يستوقف النظر في تلك البيانات والخطب أنه لم يجهر فيها بما يفيد الرغبة في إلغاء الامتيازات الأجنبية ، وهي سد يحول دون الاستقلال كما يحول دونه الاحتلال . فلماذا اختار هذه الخطة ولم يعول على طلب الغائها منذ اللحظة الأولى ؟

إذا أردنا أن نعرف السبب فلنسأل : هل كان في وسعه أن يختار الخطة الأخرى وهي المطالبة العاجلة بالإلغاء ؟ وإذا اختارها فماذا يستفيد لبلاده ؟ وماذا يصيب القضية التي نهض بأمانة الدفاع عنها بين الأمم الأوربية في إبان انعقاد المؤتمر ؟

إنه لن يصل إلى إلغاء الامتيازات والإلغاء الحماية في وقت واحد . ولن يستفيد شيئاً للقضية المصرية من الأوربيين ولا من الانجليز ، وكل ما هنالك أنه كان يجعل الأوربيين والانجليز صفاء واحداً في مقاومة الأمة المصرية ، وكان يمد يديه دليلاً للانجليز يحاولون أن يثبتوا به مازعموه من أن القضية المصرية إن هي إلا نزعة تعصب ولجاجة في كراهة الحضارة الأوربية وإنه لخير لسعد لو فده أن يلبشوا في مصر من أن يواجهوا الدول الأوربية بهذه العقيدة ، وهم شاخصون اليها ليعتمدوا على إقناعها وحسن عطفها في الخصومة بين مصر والدولة البريطانية .

ومن الأمور المحتملة أن يستنكر الأوربيون فرض الحماية البريطانية على

مصر إذا وثقوا من ضمان امتيازاتهم فيها . ولكن من المستحيل أن يستذكروا الحماية ويستذكروا امتيازاتهم في وقت واحد بغير ضمان . وقد كان المؤتمر يوم ذاك يفرض على الأوربيين المهزومين نوعا من الامتيازات أو نوعا من القيود والشروط . فمن غير المعقول أن ينزل المنتصرون عن امتيازاتهم بيننا طائعين ، ومن غير المعقول ولا المفيد أن نرغمهم على النزول عنها . كما نأمل عليهم وعلى الدولة البريطانية شروط المنتصرين

لقد كان أمل الانجليز من عهد كرومر وكتشنر إلى عهد المفاوضات مع ملتر وكيرزون أن يلغوا الامتيازات ويحصلوا من الدول على اعتراف لهم بحماية المصالح الاوربية بيننا ، فكل ما توقعه باثارة المسألة في أيام الصلح أن نهى لهم أمرا من أمرين : أما ابقاء الامتيازات وهم أصحاب الفضل في ابقائها أمام الدول الاوربية ونحن المتهمون بالعداء والمعارضة . وأما إلغاء الامتيازات واحلال بريطانيا العظمى محل الدول في حماية الأجانب أجمعين . . . وإذا أفلحت السياسة الانجليزية في هذا المسعى فذلك تسجيل للحماية على الرغم منا ، وليست هذه هي الغاية التي من أجلها تألف الوفد ، وسافر إلى باريس

أما إذا نجحت الدعوة إلى إلغاء الحماية البريطانية فإن تعديل الامتيازات أو إلغاؤها بالمساومة والحزم ليس بالمطلب العسير على السياسة المصرية ، فقد استطاعت تركيا وفارس والصين أن تعدل امتيازات الدول فيها أو تلغيها وهي ليست بالأمم القوية في العدد الحرية ، ولو كانت قوية لما استطاعت أن تعتمد على قوتها في حرب الدول الكبرى والصغرى مجتمعات ، فإذا عاجلنا نحن مسألة الامتيازات بمثل الوسائل التي عاجلتها بها ، بلغنا ما نريد مع الزمن ولم نفتح للاستعمار البريطاني باب الدسيسة بيننا وبين أصحاب الامتيازات

هذا أهم ما يلاحظ على المطالب الوطنية كما جاءت في برنامج الوفد المصري
أما خطة السير في المطالبة وهي مواجهة العميد البريطاني فرجال الدولة
البريطانية فالرأى العام في البلاد الانجليزية وفي بلاد العالم أجمع . فقد الفينا
أناساً من الخصوم الحزبيين يعيونها ولكننا لا نرى رجلاً منصفاً يوافقهم أو
ينصح برأى أحق منها بالاتباع . فمن الطبيعي أن تطلب إلغاء الحماية أول الأمر
من فرض الحماية وإن تسبب استعداد الدولة البريطانية قبل أن تقيم الحجة عليها ،
فإن كان استعداداً حسناً على أضعف احتمال فقد اختصرت الطريق ، وإن
كان سيئاً فلا خسارة عليك ، بل أنت تمنعها بعد ذاك أن تزعم أنها أحبت أن
تجيك وترضيك لولا أنك أغفلتها وأهنتها بالتشهير بها والقصد إلى غيرها
وهذه هي الخطة التي توخاها الوفد المصري وأحسن فيها : أبلغ العميد
البريطاني أن الأمة تطلب إلغاء الحماية ، ولما علم أن الحكومة البريطانية
لا تنظر بعد في طلب الاستقلال أبى أن يخاطبها في مطلب دونه ، واعتزم
أن يكون كلامه هذا إلى الرأى العام « حيثما وجد إليه سبيلاً » وقد كان
أقرب السبل إليه أن يبدأ دعايته إلى جانب مؤتمر الصلح قبل إرضاضه ،
وإلى شعوب العالم الحرة من حيثما اتصل بها تداؤه ، وهذه خطة لا غبار
عليها ولا يشير الخصوم الحزبيون بأصلح منها

الوفد في أوربا

عند ما طلع الرئيس ويلسون على العالم ببشارة السلام ومبادئ الحرية والانصاف صدقه كثيرون ورحب به كثيرون ، لانهم استبعدوا ان يخرج بنو الانسان من تلك الأهوال والمآثم بغير عبرة ، وأن يقدموا على تكرار المأساة الجهنمية وهم لا يزالون يكتبون بنارها ويتلوون من آلامها...

ولم يهزأ بدعوة ويلسون من أساسها الا طائفة من ثلاث طوائف : وهم المستعمرون الرجعيون ، لأن الدعوة لاتوافق سياستهم ولاتحقق لهم مطامع القهر والاستغلال

واليائسون من أخلاق بنى الانسان ، لانهم يهزأون بجميع المبادئ . ولايحسبون الانسان صادقا فى شىء غير المصالح القريية والشهوات الحيوانية . والاشتراكيون لانهم يرون أن العوامل الاقتصادية هى علة الدعوات الاجتماعية والمذاهب الاخلاقية ، فلا فائدة من احاديث المرومة والرحمة وتقرير المصير مادام نظام رأس المال هو النظام القائم فى المعاملات ، وهو الحافز الى الغارات والحروب والمنافسة بين المستغلين والمستعمرين

ولم يكن سعد مستعمرا رجعيا ولا يائسا من بنى الانسان ولا اشتراكيا ولا قارئا متبعيا لأراء الاشتراكيين ، ولكنه كان رجلا مطبوعا على نجدة الضعيف واغاثة المظلوم فلا غرابة عنده فى هذه العاطفة ، وكان قانونيا يقدر القوانين والشرائع فلا غرابة لديه فى التوسل بالتشريع وحقوق المعاهدات لفض المشاكل واصلاح الآفات

لذلك رحب بالدعوة الولسنية ولم يستبعد تحقيقها كما قال فى خطابه بمنزل حمد الباسل باشا : « من الناس من يرون هذا المذهب السياسى الجديد أجمل

من أن يتبع في هذه الحياة الدنيا : حياة المراحة على البقاء والمغالبة على المنافع... نعم مذهب جميل ، ولكن تطبيقه ممكن متى جد الدكتور ويلسون في تطبيقه بحزمه المعروف . وأنه لجاد . بل ارتقى الى أن أقول إن تطبيقه سهل متى صححت نيات أكثرية الدول التي اقترته بالاجماع . ذلك لأن هذا المذهب غير مخالف لما ألف الانسان في الوصايا الدينية وقواعد الفلسفة الاخلاقية ، ثم هو متفق مع الافق الذي وصلت اليه الانسانية في تطورها الجديد ... »

وعلى هذه العقيدة كان يرجو الخير الكثير من الدعوة الواسنية ، وأقل ما يحق له أن يرجوه أن لا تنقلب هذه الدعوة في إبان الصلح عونا للاقوياء على الضعفاء وعقبة في وجه المطالبين بالحقوق ؛ فكان أول ما فكر فيه ساعة وصول الباخرة « كلدونيا » الى مارسيليا أن أرسل الى الرئيس ويلسون يطلب منه الاذن في مقابلة خاصة للوفد المصري المطالب بحقوق الامة المصرية . فلم يجئه الرد المنتظر من رسول السلام وإنما جاءه رد لم يكن يخطر على بال متفائل ولا متشائم . فان الولايات المتحدة اعترفت بالحماية البريطانية على مصر في اليوم التاسع عشر من شهر ابريل ... أي بعد وصول الوفد المصري الى مارسيليا بيوم واحد !

يحار الانسان ولا يدري كيف استطاعت السياسة البريطانية أن تحمل ذلك الرسول المبشر بحقوق الضعفاء على نقض مبادئه رأسا على عقب ، واستياحة الفصل في قضية لم تعرض عليه من جوانبها المختلفة ؛ ولكن ساسة الانجليز على ما نظن قد ادخلوا في روعه أن المصريين أساءوا فهم دعوته وتشجعوا بها على الثورة وتهديد الحضارة والمصالح الاجنبية ، وأن كلمة منه تحقق السماء وتعيد الأمن الى قراره وتصون ارواح الاوربيين ومرافق العمران ، وأن ترك مصر عرضة للتنازع عليها بين الدول قد يجر العالم الى حرب كالحروب التي كان يتقيا ويبدش باجتنابها ، فبقاؤها في ظل الحماية أصون للسلام وأنفي للحروب ، وربما وعدوه أن ينصفوا المصريين متى ثابروا الى السكينة واستعدوا للاصغاء الى صوت الحكمة والنظام .

وقد اهتمت الحكومة البريطانية بنشر اعتراف الرئيس ويلسون في مصر من دار الوكالة الاميركية ، فاذاغت دار المنسكوب البريطاني بلاغا جاءها من همسون جارى وكيل الولايات المتحدة يقول فيه : « أتشرف بأن أقول إن حكومتى أمرتني أن أبلغكم أن رئيس الجمهورية يعترف بالحماية البريطانية على القطر المصرى وهى الحماية التى بسطتها حكومة جلالة الملك فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ . هذا وأن الرئيس باعترافه هذا يحفظ بالضرورة لنفسه حق البحث فيما بعد فى تفاصيل هذا الاعتراف ، مع مسئله تعديل حقوق الولايات المتحدة التعديل الذى يقتضيه هذا الأمر . وقد كلفت بهذا الصدد أن أقول أن رئيس الجمهورية والشعب الأمريكى يعطفان كل العطف على أمانى الشعب المصرى المشروعة للحصول على قسط آخر من الحكم الذاتى . ولكنهما ينظران بعين الأسف إلى كل مسعى لتحقيق هذه الامانى بالتجاء الى العنف »

وأن صيغة هذا التبليغ لتشف عن الغرض منه وعن المسعى الذى سعيته الحكومة البريطانية عند الرئيس ويلسون لاقتناعه بوجوبه . . . فباسم الامن وكرامه العنف ، وبعد الوعد بمنح المصريين قسطاً اخر من الاستقلال الداخلى ، ظفرت الحكومة البريطانية بذلك الاعتراف وبأدرت الى اذاعته فى مصر وأربا وتعمدت أن تصدم به الوفد ساعة وصوله الى أوروبا ليفت الخبر فى عضده ويزعزع عنده من ثقة وأمل ، ويريه خيبة المسعى فى معارضة القوة البريطانية حيث ذهب فكان تديرها فى الافراج عن الوفد ولقائه بتلك الصدمة كتدير السجن الذى يطلق أسيره ويرصد له على أبواب السجن من يدهمه ويغتاله ، ليحقق به الكيد فى ساعة الفرح والاستبشار

لم تبالغ السياسة البريطانية كثيراً فى وقع الصدمة المفاجئة على الوفد ساعة نزوله بالأرض الفرنسية واقترابه من محكمة العدل والحرية . فقد بدا لسعد أول وهلة أن العمل فى أوروبا لا يجدى ، وإن تركيز العمل فى مصر

أجدى والزم . ولم يكن هذا ضعفا ولا نكوصا عن الكفاح لأن مقاومة الانجليز في مصر تحت الأحكام العسكرية بعد الاعتراف بالحماية البريطانية أخطروا أعزل من مقاومتهم في أوروبا على العاملين الجادين في المقاومة ... ولكنه كان رأيا رآه فيما هو أصلح للقضية المصرية على حسب ما تبين في خطواته الأولى بالبلاد الأوربية

وقد لمس وقع الصدمة في نفوس فريق من زملائه فاذا هو أفدح وأقدح . فمنهم من كان قد دخل الوفد على تردد وريب في سلامة العاقبة ، ومنهم من كان يؤثر اللجوء الى الحكومة الانجليزية ويؤمن في قرارة نفسه باستحالة الغلبة عليها ، وقصارى ما طمعوا فيه من هوادتها أن تخشى بعض المعارضة أو بعض المنافسة من الدول الأخرى في مؤتمر الصلح فتغلق هذا الباب باستجابة بعض المطالب المصرية . فاذا بمؤتمر الصلح في قبضة يديها وعلى رأسه أكبر الدعاة إلى الحرية وأكبر القائلين بمشاورة الأمم المغصوبة في تقرير مصيرها فن البين إذن في رأيهم أن « مهمة الوفد » انتهت ولم يبق له ما يرجوه من المؤتمر ولا من الحكومات المشتركة فيه . وقد صرحوا برأيهم هذا وهموا بالعودة وأشاروا بها على زملائهم الآخرين

وقد أرادت الحكومة البريطانية أن تتبع هذه الضربة بضربة أخرى تعجل بعمل التفكير والانخزال في صفوف الوفد والأمة المصرية : فنشرت التيمس « اشاعة » ترجع فيها ارسال لجنة مستقلة الى القطر المصري للبحث عن أسباب الهياج واقتراح الاصلاحات الدستورية التي يتسع بها نطاق الحكومة الذاتية ، وتوقعت أن يصيب الخبر الوفد في سمعته وعزيمته أن لم يصبه في تكوينه ووحدة رأيه : فاذا عاد بعض رجاله الى مصر وبقي بعضهم في أوروبا فقد وقع الخلاف وهو بدء الانحلال : وإذا عاد الوفد جميعه فقد ملكته هي ورجعت به الى قبضة يديها وعرضته لسخرية أبناء وطنه ، وإذا بقي الوفد كله في أوروبا فعندها فسحة من الوقت لارسال اللجنة الى مصر وسؤال

المصريين عن مطالبهم وشكاياتهم بمعزل عن وفدهم الذى يدعى الوكالة عنهم ... فتلغى وكالاته وتلقى درسها الصادع على الوكيل ومن أوكلوه . وأى درس تشبه السياسة الاستعمارية وتلقيه على الدعاة الوطنيين انجمع وأوجع من أن تضرب الوفد المصرى وتعاقبه هذه العقوبة القاصمة بيد الامة المصرية ؟

ومهما يكن من حساب الحكومة البريطانية فالشىء الذى لم تحسب حسابه كما ينبغي هو أثر السخرية فى الطبيعة المصرية . فان المصرى ليتقى السخرية اشد من اتقائه الضرر والخسارة ، وقد يستسلم للفجعة ولكنه لا يستسلم للغفلة ، ولهذا كانت ضربتها للوفد المصرى باعتراف ويلسون ضربة قوية بارعة ولكنها كانت خليقة أن تفشل بعد الصدمة الاولى لأنها سخرية تعرضه لسخرية أخرى . ولو أنها ابطأت برهة ولم يكن فيها معنى الكمين المدبر والهزء المرتب فى لحظة الانتصار والتفاؤل لكان رجاء الحكومة البريطانية فى نجاحها أصدق وأسرع . ولكنها كانت بمثابة الاستدراج الى كمين مضحك أو « مقلب » مهين . . فجمعت لها الطبيعة المصرية كل ما عندها من الكراهة للسخرية ومقاومة الشهامة المضحكة : وهما فى الطبيعة المصرية قوة تعتصم بها فى أخرج الأوقات

ولم يلبث سعد وأصحابه بعد الخاطر الاول أن أعادوا النظر فى الأمر كله فوجدوا إن العمل فى مصر قد يكون أولى وأصوب ولكن العودة الى مصر بعد كل هذه القيامة التى أقامتها الامة لتمكين الوفد من السفر هى خيبة اليمّة لا تؤمن عقباها ، وقد تئس الامة من رجائها وتشككها فى دعايتها ، وتعمل بالفرقة بين صفوفها

ووجدوا كذلك ان البقاء فى أوروبا لا يمنع تركيز العمل فى مصر والاعتماد عليه فى الدعاية الاوربية . وقد تنفع الدعاية الاوربية فى تنبيه عزيمة الامة كلها احتاجت الى تنبيه .

ومن بداية الأمر لم يكن رجاء سعد كله معقوداً على الحكومات والوسائل

الحكومية : اذا جاء الرجاء من هذا الباب فذاك خير لواقرب سيلا ، وإن لم يجر .
فالشعوب من وراء الحكومات والطريق الى الشعوب مفتوح لمن يحسن
ولوجه ويقوى على صعبه ، وهو القائل ان الشعب فوق الحكومة ، وهو الذى
أبى أن يسلم المطالب المصرية الى المندوب البريطانى والوزراء البريطانيين
احتفاظا بالجانب الأهم منها « لاستنارة » رأى العام البريطانى الذى يخضع
له المندوب والوزراء . وهو الذى عرف ان النائب فى « الجمعية التشريعية »
التي لاحقوق لها ولا نفوذ لأحكامها يملك من سلاح الحجة والبيان ما يكافح به
الوزارة ويكافح به جبار قصر الدبارة . فماذا حدث الآن ؟ هل حبط الرجاء فى
مؤتمر الصلح وفى ويلسون وفى لويد جورج ؟ حسن . إن وراء هذه الاسماع
أسماء ووراء هذا المرجع مراجع : هناك الشعوب الأوربية ، وهناك شعب
ويلسون وشعب لويد جورج . . . ومن يدري ؟ فلعل شعب ويلسون قائل
غير ما قال وسامع غير ما سمع ، وبالع فى احراج السياسة البريطانية مالم
يلغى رئيسه المخدوع بتلك السياسة

يقول نيتشة : « كل مالم يقتلنى يزيدنى قوة » وهذه قوله تصدق على
كل رجل كبير الهمة مطبوع على الكفاح . فضربة الاعتراف بالحماية كانت
ضربة نافذة ولكنها لم تكن مميتة ، ومن ثم كانت ضربة حافزة للعناد مثيرة
للنخوة نافعة فى توطيد النفس على بعد الشقة

قال جورج لويد فى كتابه عن مصر منذ كرومر : « لم تنفع الصدمة إلا فى
اقناع زغلول اقناعاً جلياً بأن العراق خالق أن يجرى إلى مداه فى الحومة
المصرية . فوجه همه على الفور الى تلك الحومة ، وطفق يدير المعركة من
مقامه بباريس ويبعث إلى أتباعه بمشجعات موهبة (١٤) واسكنها أخاذة باهرة
بما تحدثهم عن الانصار الذين يستميلهم للقضية الوطنية ، والنجاح الذى
يصيبه رجاله »

وقد أدار سعد المعركة في باريس على أنهم وجه يستطيعه وفد من الوفود الشعبية ، فإن الوفد المصري على اعتباره غريباً عن الأجناس الأوروبية قد استطاع غاية ما استطاع من نشر الدعاية الى جانب مؤتمر الصلح . فكتب إلى المؤتمر يطالب استدعاه لسماع أقواله لأن « الغاء السيادة التركية يقتضى حتماً تغييراً في حالة مصر السياسية التي قررتها معاهدة سنة ١٨٤٠ ولا يصح إجراء هذا التغيير في غيبة المصريين » . واتصل الوفد بكل من تيسرت لهم مقابلاته من رجال المؤتمر وأعضاء وفوده وكبار موظفيه ، وأقام المآدب للسانسة والكتاب والصحفيين الأوربيين والأمريكيين ، لشرح لهم الحوادث التي كانت تهمها الصحف ويرىهم صور المظاهرات التي اشترك فيها السيدات ورجال الجيش وظهرت فيها الأعلام وعليها الصليب إلى جانب الهلال ، ويذكر لهم ما استفادته الحلفاء من أموال مصر ورجالها بما كانوا يجهلون ولا يعرفون خبراً عنه^٧ وأقنع الوفد بعض مشاهير الكتاب بكتابة رأيهم في قضية مصر وحقوق أبنائها ، ومنهم فكتور مرجريت وأناطول فرانس ، فأصدر الأول رسالة في موضوع القضية المصرية وقدمها الثاني بكلمات وجيزة على سبيل التزكية . واجتهد الوفد في اجتناب كل عمل يتيح للمستعمرين البريطانيين أن يتهموه كما فعلوا من قبل بمشايعة دول الوسط أو النزوع الى المذاهب القومية والاشتراكية . فلم يتصل بالمغتفر له محمد بك فريد حين تلقى خطابه من سويسرة ، لما كان معروفاً من مقام فريد بك في ألمانيا وتركيا أثناء الحرب وبعدها . ولكنه اتصل بجميع المصريين المقيمين بفرنسا ، ولا سيما أعضاء الجمعية المصرية في باريس ، وكان لفريق من هؤلاء أثر نافع في بث الدعاية وتعريف الفرنسيين من جميع المذاهب بالوفد ومطالبه وصعوباته .

ولانسهب في تفصيل المقابلات والخطب والولائم واحدة واحدة ، لأن التفصيل لا يزيد القارئ شيئاً على ما هو مفهوم بالاجمال ، وحسبنا أن نقول إن الوفد لم يدع في باريس ولا في مراكز الدعاية السياسية أحداً يؤبه

له إلا أبلغه مظلمة مصر ، وأوجز له الحالة التي مرت بالقارىء في صفحات هذا الكتاب .

وكان المصريون في لندن ، ومعظمهم من الطلاب ، يعاونون الوفد كما عاونهم زملاؤهم في العاصمة الفرنسية . فطبعوا الألوف من الرسائل وقابلوا النواب واستعانوا بالكتاب حتى ضاقت بهم الحكومة الانجليزية ذرعا فدمر الشرطة مكان اجتماعهم وصادروا الأوراق التي فيه وظنوا أنهم قضوا عليها ، وكانوا سيقضون عليها فعلا ، لولا أن الطلاب أخذوا بالحيلة فأعادوا طبع الأوراق مما كان مدخرا عندهم من المحفوظات في مكان أمين

وقد تجاهل الساسة الانجليز في باريس شأن الوفد المصرى ماوسعهم أن يتجاهلوه . ولكنهم لم يحسنوا كتمان حنقهم في بعض الأمور التي تقضى بها اللياقة ، فلم يأت منهم من يرد الزيارة لسعد باشا حين ترك بطاقته للمستر لويد جورج كما ردها بعض وزراء الدول الأخرى ، وتجاوزوا ذلك إلى عمل فيه من الصنيعة ما ليس يليق بكبار الرجال . فقد روى أحد أعضاء الوفد المصرى أنهم أرسلوا مرة « مذكرة إلى الوفد البريطانى في مؤتمر السلام فردت اليهم عزمة داخل غلاف وعليها عبارة قصيرة معناها : مثل هذه الأقوال لا تستحق الرد ... » (١)

وعلى الرغم من اعتراف الدول بالحماية فقد بدأت الحكومة البريطانية تشعر بالقلق بعد أن اتجهت أنظار الوفد إلى نشر الدعاية في الولايات المتحدة وظهرت دلائل الاهتمام بالقضية المصرية بين ذوى النفوذ من الشيوخ الأمريكيين ورجال الصحافة . . . حدث هذا دون أن يكون الرئيس ويلسون فضل فيه ، بل ربما كانت صدمته للوفد في باريس من أسباب اتجاه الوفد إلى الأمة الأمريكية رأسا ليشير في هيئتها الرسمية بهذه الوسيلة بعض العناية التي فاته من رئيس الجمهورية ومعاونيه في المؤتمر . فان أقصى مصادفه

(١) البلاغ ٩ مارس سنة ١٩٣٤ في بيان للاستاذ محمد على علوبة باشا

الوفد من النجاح عند رئيس الجمهورية الامريكية أنه تلقى منه رداً على خطاب كتبه سعد يطلب فيه المقابلة مرة أخرى ، فإذا هو يعتذر في رده لضيق الوقت ويرجو أن يتسع وقته في المستقبل للمقابلة المطلوبة !! وكان الوفد قد فهم أن استئثار « الرأي العام » في الولايات المتحدة لبحث القضية المصرية أمر مستطاع بعد ما أحسه من أثر الاخبار التي بعث بها المراسلون إلى صحف أمريكا ، وزاده أملاً في المزيد من الاهتمام أنه كان قد استخدم بعض الايرلنديين والامريكيين في أعماله الكتابية ، فالتقى هؤلاء بالساسة الامريكيين الذين حضروا إلى باريس للدفاع عن استقلال ايرلندة وعرفوا منهم الرغبة في تشديد التركيز على الاستعمار البريطاني بذكر المسألة المصرية إلى جانب المسألة الارلندية ، ومن هؤلاء الساسة مستر « والش » رئيس الوفد ومستر « ريان » ومستر « دن » مساعداه

وقد جرى الوفد المصري من قبل على ستة ارسال البيانات والاحتجاجات إلى المجالس النيابية مع ارسالها إلى الوزراء وممثلي الحكومات ، فوجدت بياناته واجتماعاته في مجلس الشيوخ الامريكي صدى أقوى وأصرح مما وجدته في المجالس النيابية الأوربية

ففي جلسة الحادى والعشرين من شهر يونية اقترح الشيخ « ماسون » الاعتراف بالجمهورية الارلندية فتصدى زميله مستر بوراء لفتح باب المسألة المصرية . وقال إن مصر تستحق الاستقلال كما تستحقه الأمم الشرقية والأوربية التي اعترف مؤتمر السلام باستقلالها ، فجددت هذه الحملة رجاء الوفد في تحريك قضيته من جانب الأمة الامريكية وشيوخها ، وأرسل يشكر المستر بوراه و يبلغه « إن المصريين ليعتمدون اعتماداً تاماً على مساعدة الشعب الامريكي محب الحرية في تحقيق الآمال القوية لشعب حكم عليه بالاستعباد من غير أن يسمع دفاعه »

وعاد المجلس إلى ذكر مصر بعد أيام فقام المستر « والش » واتهم الوفد

الامريكي في مؤتمر السلام بخيانة المبدأ الذي غامر الامر يكون بدخول الحرب من أجله ، وقال ان الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى إذا أرادتا أن تدلا على حسن النية فيجب عليهما أن تترك جزائر الفليبين لأهل الفليبين وأرلندة للارلنديين ، وهناك مستر « مكس كورك » وقال إن مصر أيضا يجب أن تكون لأبنائها ، وأيده مستر بوراه سائلا : لماذا يعترف مؤتمر الصلح بيولونيا ورومانيا ويغض عن أرلندة ولا يصغى إلى كوريا ومصر كما أصغى لغيرها ؟ فقال مستر شرمان « إن معاهدة الصلح إنما كتبت لخدمة المطامع البريطانية » كانت هذه الأقوال من أشد ما قيل وقعا في نفوس المستعمرين وفي نفوس المصريين على السواء ، فأما المستعمرون فقد أوجسوا من عواقبها في الولايات المتحدة وفي مصر نفسها ، وأما المصريون فقد شعروا بفضل الدعاية واستبشروا بما وراء ذلك من صدى الحملة في الدوائر السياسية الأمريكية والبريطانية ، وتبين الوفد أن الدعاية في تلك البلاد تستحق منه أن يضاعف العناية بها ويتابع اشهارها وترويجها ولا يتركها للبصادة والمناسبات العارضة ، فانهى بوساطة مستر « والش » إلى توكيل مستر جوزيف فولك في نشر الدعاية هناك ، وكان الاختيار موفقا لأن الرجل ممن سبقت لهم الوكالة في القضايا السياسية الكبرى وسبقت لهم ولاية المناصب وعلاج المشكلات ، فهو ذو منزلة مرعية بين النواب والرؤساء ، وله علاقة منتظمة برجال الدولة وأصحاب الكلمة المسموعة

وأوشكت الدعاية الخارجية لمصر أن تنحصر خلال تلك الفترة في الولايات المتحدة ، فعن لسعد أن يسافر اليها مع بعض الأعضاء . ثم استقر الرأي على ايفاد محمد محمود باشا في هذه المهمة لمعرفة الانجليزية ، وتردد الوفد هنيهة بين هذه الفكرة وفكرة أخرى كانت ترمى إلى سفر اثنين من الاعضاء إلى البلاد الانجليزية يدافعان عن مطالب المصريين وييسطان ما أصابهم من المظالم إما بالخطب أو بالنشرات إذا احجمت الصحافة عن

اذاعة ما يكتبان ، ويفعلان ذلك باسميهما لا باسم الوفد أو باسم رئيسه ، ويعولان على الدعاية الشعبية دون الرجوع إلى الهيئات الرسمية التي اعرضت عن الوفد وتجاهلت شأنه ، وكان الوفد يحرض على اجتناب الهيئات الرسمية في انجلترا حتى تجيء المفاتيحة من جانبها بعد أن قام هو بما يجب عليه من ايدانها بقصده ، ويقال إن رجال الحكومة الانجليزية وسطوا أناساً من سراة الأجانب المقيمين في مصر لتيسير مقابلة بين سعد ومستر بلفور الوزير الفيلسوف الانجليزي المعروف ، فلم تتم هذه المقابلة لرغبة الوفد عنها ما لم تكن الدعوة صريحة من جانب القوم ، وتغلبت فكرة السفر إلى الولايات المتحدة على هذه الفكرة .

ولم يستطع محمد محمود باشا أن يصل الى أمريكا إلا في منتصف اكتوبر بعد مشقة في الحصول على جواز السفر لم تذلل الا بمساعدة مستر فولك وبعض الأصدقاء الأوربيين

وقد كان مستر فولك في هذه الاثناء يوالى الكتابة الى الصحف ويبسط وجهة النظر المصرية بين يدي مجلس الشيوخ ولجانه المنوط بها بحث هذه الامور . وأهم ما أثمرته جهوده تصريح صرحت فيه لجنة الشؤون الخارجية « ان مصر تعد من الوجهة السياسية غير خاضعة لانجلترا ولا لتركيا وانما يجب أن تكون مستقلة وزمامها بيدها » وخطاب ضاف ألقاه مستر بوراه عن مركز مصر السياسي والأطوار التي مر بها قبل الاحتلال وبعده والفظائع التي أصابت أهلها في أثناء الحرب وبعد الهدنة ، على ما سلف من معوتهم للانجليز خاصة والخلفاء عامة .

فاهتمت المراجع البريطانية باخفاء ذلك جميعه عن المصريين وتهوين خطره عندهم ولا سيما تصريح لجنة الشؤون الخارجية ، فان خبره لم يصل إلى عصر الامن رسالة برقية أرسلها سعد من باريس إلى لجنة الوفد المركزية

فى التاسع والعشرين من أغسطس ، فكان له فيها ضجيج لم يفرح المصريين بمقدار ما أغضب الانجليز . وقد سعت المراجع الانجليزية سعيها حتى حملت الوكالة الأمريكية بالقاهرة على إذاعة تكذيب مبهم تقول فيه إن الخبر خطأ ولا تعقبه بتصحيح من جانبها ١١

هذا فى مصر ، أما فى الولايات المتحدة نفسها فقد أزعج السفارة البريطانية فيها ما أبصرته من أثر الدعاية المصرية واتساع نطاقه واشتماله على الكثيرين من المستمعين والأشباع ، فاضطر مستر روناك لندسى القائم بأعمال السفارة فى واشنطن — وقد كان بمصر أثناء الحرب العظمى — إلى مقابلة تلك الدعاية بكثير من المساعى الخفية والعنيفة ، ومنها رد مفصل على سؤال مدير كتبه إلى إحدى الصحف يفض فيه من معونة المصريين ويقول منه : « إن الحكومة البريطانية قد عنت بأن تتحاشى القضاء على السيادة المصرية ، وأن الجنود المصريين يعملون فى ظل العلم المصرى لا الانجليزى ، ولا ترفع الراية البريطانية إلا على دور السلطة العسكرية البريطانية وفيما عدا هذا ترفع الراية المصرية الخاصة . ولو أنى أردت أن أجيبك على سؤالك جوابا لا يخرج عن مدلول الألفاظ المحدودة لقلت إنه لم ينضو جندى مصرى تحت الألوية البريطانية ، ولكنه يكون بيانا ناقصا ولا مراا ، إذ أنه فى فبراير سنة ١٩١٥ عند هجوم الجيش التركى على مصر اشتركت فرقة من المدفعية المصرية مع القوات البريطانية فى الدفاع عن خط قناة السويس وكان هجوم العدو قبل هذه الفرقة التى أدارت مدافعها بمهارة وكفاءة فساعدت على رد العدو ، وفى اعتقادى أن الخسائر كانت اثنين من القتلى وستة من الجرحى . ولم تشترك فى العمل خلال الحرب أية قوة مصرية أخرى مسلحة ، ولكن فى الأدوار الأخيرة من الحرب قامت ثلاث فرق مصرية أو أربع بحراسة خطوط المواصلات فى سيناء بينما كان الجنرال اللبى يغزو سورية ، وحدث كذلك أن فصيلة مصرية كانت ببلاد الحجاز فى وقت من الأوقات ، لكن هذه

القوات جميعها لم تتعرض لنيران القتال . وفضلا عن ذلك قد ضم عدد كبير من المصريين إلى فرقة العمال والنقل الملحقه بالقوات البريطانية ، وكانوا يستخدمون لمدة قصيرة بين ثلاثة أشهر وستة ، وقد قاموا لقوات الجنرال اللنبي بالأعمال اليدوية التي لا تستدعي خبرة فنية ، وبهذه الصفة كان ما أدوم من الخدمات عظيم القيمة لأنهم أتاحوا لعدد من الجنود الانجليزية أن يكونوا في خط القتال ولولا ذلك لاستخدموا في ساقه الجيش ، ولست أستطيع أن أذكر عدد هؤلاء الرجال الذين ألحقوا بفرقة العمال ولكنهم بلغوا في بعض الأوقات من ثمانين إلى تسعين ألفاً ، وكان بعضهم يستهدفون للنار وهم يحفرون الخنادق وينقلون المؤن والذخائر بمقرية من خط القتال فأصابهم بعض الخسائر . وليس في وسعي أن أقول كم تبلغ هذه الخسائر على وجه التحقيق ولكني أعتقد أنها تبلغ في الجملة ألفاً وخمسمائة بين قتيل وجريح في خلال سنوات الحرب الأربع »

وعلى الرغم من محاولة السبك والدقة في ظاهر هذا البيان يرى القارىء أنه قابل لمخالفة الواقع في عدة مواضع ، لأن وصول العدد في الفوج الواحد من العمال إلى تسعين ألفاً لا يمنع أنهم يبلغون المليون ويتجاوزونه في جميع الأفواج ، ولأن إحصاء القتلى والجرحى بألف وخمسمائة على وجه غير « وجه التحقيق » قد يفتح الباب لبلوغهم أضعاف ذلك على وجه التحقيق

إلا أن مستر فولك لم يتوان في الرد على هذا البيان بعد مراجعة الوفد في باريس ، فكتب إلى وزير الخارجية بواشنطن خطاباً يلفت فيه النظر إلى العبارة التي وردت في سياق كلام المستر روناالدندسي عن تحاشي المساس بالسيادة المصرية لكي لا يشق على الحكومة الأمريكية الاعتراف باستقلال مصر عند بحث معاهدة الصلح في مجلس الأمة ، وكتب إلى رئيس لجنة الشؤون الخارجية خطاباً آخر ضمنه رد رئيس الوفد على بيان السفارة الانجليزية وفيه « أن مليوناً ومائتي ألف مصري جندوا لفرقة العمال وأن الجيش المصرى نفسه

قاتل على قناة السويس وفي شبه جزيرة سيناء وفي الحجاز وحارب على ابن دينار في السودان ، وأن خسائر عظيمة نزلت بفرقة العمال وعلى الأخص من فلك الأمراض »

واستند مستر فولك الى عبارة « السيادة المصرية » فطلب تأكيد الاخلاص في المقصود منها بتصريح رسمي من الحكومة البريطانية تعلن فيه موعد الجلاء وتفوض الى عصبة الأمم — بعد تأليفها — تقرير مركز مصر ، وتتخلى عن كل معارضة في تمثيل الدولة المصرية عند الدول الأجنبية ، وعن كل معارضة في سفر وكلاء الأمة المصرية إلى الولايات المتحدة

ولم تزل المسألة المصرية تتردد على ألسنة الأعضاء في مجلس الشيوخ تارة من حزب الحكومة وتارة من حزب المعارضة حتى التفت اليها كثيرون ممن كانوا لا يسمعون بها ، ووجدت الصحف مسوغاً لنشر الأخبار عنها وقبول المناقشة فيها ، وأيقنت الحكومة البريطانية أن اطراد الدعاية على هذا المنوال كاف لا قلائقها وتوقع المتاعب التي قد تضر بمصالحها كما تمس سمعتها ، وان لم تعقبها نتيجة حاسمة في موقف الحكومة الأمريكية

أما الدعاية في باريس فقد كانت تنقطع حيناً وتتصل حيناً ، ويثابر الوفد في أكثر الأحيان على خطة الدعاية الشعبية . لأنه علم أن النجاح فيها أقرب من النجاح في مخاطبة الحكومات والوزراء ، وطفق على الجملة يرسل المجالس النيابية وأقطاب الساسة وكبار الأدباء ويكتب إلى الصحف ويلقى من ذوى الكلمة المسموعة من يتيسر له لقاءه ، ويحدد الاحتجاج والبيان كلما تجددت لذلك مناسبة من توقيع اتفاق أو عرض معاهدة أو وصول وفد أو غير ذلك ، فجرى ذكر الحماية البريطانية على مصر في أكثر من مجلس من المجالس الأوربية على نحو لا يبلغ في القوة والافاضة ما جرى في الولايات المتحدة ، ولكنه مع ضعفه واقتضابه أفاق الحكومة البريطانية وزاد مخاوفها

من التماذى فيه إلى أن يدرك المصريون شأن الدعاية ونفاذ سلاحها تمام الإدراك . ولعل أكبر ما حدث من دعاية الوفد فى خلال هذه الفترة ولجته فى ثانى أغسطس فى فندق كلاردج بباريس ، وهى الوليمة التى خطب فيها وزير سابق للبحرية الفرنسية وحضرها الكاتب المشهور فكتور مرجرى ، وتليت فيها كلمة من أناتول فرانس ، وأجاب الدعوة إليها عدا هؤلاء بعض الشيوخ والنواب والصحفيين من أمم كثيرة

هذه الحركة التى كانت تؤذن بالاستفاضة والاتقان على تعاقب الأيام قد أفهمت الساسة الانجليز أن « التجاهل » سياسة لا تفيد إلى زمن بعيد ، وأنه لا بد من « شىء » عمله فى هذه الحالة غير الاستخفاف الظاهر وطول البال ، ولكنها لم تقصد إلى ارضاء المصريين بمقدار ما قصدت إلى الخلاص من الوفد وتفريق شمله بين الآراء المتضاربة والمذاهب المتعارضة ، فعجلت بإيفاد لجنة التحقيق برئاسة اللورد ملر إلى القطر المصرى لسؤال المصريين عن مطالبهم وتقرير نظام الحكم الذى يحكمون به فى ظل الحماية ، ودعاها إلى التعجيل بأرسالها غير ما تقدم سببان آخران : « أحدهما » أن رؤساء الوفد فى القاهرة أعلنوا العزم على مقاطعتها إذا هى حضرت فى تلك الظروف ، لأن اللجنة تريد المفاوضة على أساس الحماية وتستفى البلاد وهى فى قبضة الأحكام العرفية ، وتدعى لحكومتها الحق فى نظر الشكايات المصرية كأنها صاحبة السيادة على البلاد .

وقد شعر محمد سعيد باشا — رئيس الوزارة يومئذ — باجماع الأمة على مقاطعة اللجنة فنصح للورد اللبى بأرجاء ارسالها انتظاراً للقراع من عقد معاهدة الصلح مع الحكومة التركية ووضوح مركز مصر السياسى من حيث علاقتها بالدولة البريطانية ، فلم يشأ اللورد اللبى أن يصغى إلى هذه النصيحة مخافة أن يتهم بالضعف والتراجع أمام صيحة المقاطعة العامة من اللجان الوفدية والسبب الآخر الذى دعا إلى تعجيل الحكومة البريطانية بإيفاد اللجنة

فى تلك الآونة أنها علمت بىوادر التفكك التى أصابت بعض أعضاء الوفد فى باريس ، وقد عاد فعلا بعض هؤلاء الأعضاء الى الاسكندرية فى الثانى عشر من شهر أغسطس وهم اسماعيل صدقى باشا وحسين واصف باشا ومحمود أبو النصر بك ، واذاغت لجنة الوفد فى السادس والعشرين منه أن على شعراوى باشا قادم لأعمال خاصة بأذن من رئيس الوفد وزملائه ، وعاد قبل ذلك آخرون لأسباب من هذا القبيل . فحسبت الحكومة البريطانية أن الفرصة سانحة للفصل بين الوفد والأمة أو لتمزيق شمل الوفد وتشجيع المترددين من أعضائه على تركه ، ورجح عندها هذا الحسبان أنها علمت بما شاع عن آراء الأعضاء العائدين وأنهم يتشككون فى نجاح مسعى الوفد لاشفاقهم من مهاجمة الحكومة البريطانية بالدعاية الأجنبية وإيثارهم أن تكون الدعاية فى انجلترا وعلى رضى من رجالها الرسميين ، فطمعت فى توسيع مسافة الخلف ، وبث الغواية من طريق اللجنة الملنرية ، وما عسى أن تشير به من تحويل النظم والمناصب ، وتقريب الآمال والرغائب .

من سفر الوفد الى لجنة ملنر

استدعت الحكومة البريطانية السير ريجنالد ونجت توطئة لاقالته من منصبه في دار الحماية وهو الرجل الذي أحسن لها النصيحة في قبول سفر الوزيرين المصريين إلى العاصمة البريطانية وعادت هي إلى رأيه بعد فوات الاوان .

واستبدلت به المارشال اللنبي فاتح القدس لأنها حسبت أنها تروع المصريين بهيئته العسكرية ، وهو خطأ غريب في تقدير الحالة وجمود على أساليب التخويف الدارجة بغير معنى . لأن مظاهر الهيبة العسكرية والسطوة الحربية كانت كثيرة على مسمع ومبصر من المصريين أثناء الحرب العظمى ، لا يرون في بلادهم من الحكم الانجليزي الا المدافع والدبابات والجنود تغدو وتروح في الحواضر والقرى بعشرات الألوف ، فاذا كانوا قد ثاروا وهم على هذه الحالة وجاءت ثورتهم على اعقاب انتصار الدولة البريطانية في الحرب العظمى فما كانت الثورة اذن لأنهم كانوا في حاجة إلى مذكر بالهيبة العسكرية والسطوة الحربية ، وما كان اسم المارشال اللنبي عندهم إلا كاسم كل قائد في الميادين البعيدة أو القرية ، بل هم كانوا يسمعون بغيره من قادة الميادين البعيدة سنوات قبل أن يسمعوا به في غزوة فلسطين

جاء المارشال اللنبي إلى مصر وهو يقدر أن الرهبة من اسمه فوق كل كلام وتفكير ، وأنه لا خوف أذن من اتهمه بالضعف إذا هو تواضع إلى سماع الشكايات ومخاطبة الشعب بلسان رجاله ، فخطب المصريين باسم الشيوخ ورجال الدين كما خاطبهم باسم الوزراء والكبراء ، وصدرت النصيحة المطلوبة من هؤلاء وهؤلاء يحضونهم على السكينة والاستقرار وانتظار ما يقضى به ولاية الأمور ، فلم يكن لها من أثر كبير ولا صغير ، لأن الشعب لم يفهم من نصائحهم الا أنهم مضطرون أو أنهم متهمون في اخلاصهم إن لم يكونوا مضطرين .

وقد وقفنا بالقارىء من حوادث الثورة المصرية وأحوال الحكومة في مصر على استقالة الوزارة الرشدية لرفض الحكومة البريطانية سفر الوفد إلى أوربا

فلما سافر الوفد عادت الوزارة الرشدية في التاسع من ابريل ، ولكنها لم تلبث قليلا حتى استقالت لأنها شعرت بالخرج من مطالب الضباط والموظفين وهي معبرة عن مطالب المصريين أجمعين . فطلب الضباط الوطنيون أن تسند الحراسة اليهم ، لأن اسناد الحراسة في الميادين العامة إلى أناس لا يفقهون لغة البلاد ولا يعرفون عاداتها كثيراً ما جر الى ازهاق الأرواح بغير موجب حتى من وجهة النظر البريطانية . كما حدث حين أطلق الرصاص على المصلين الخارجين من المسجد أو على المتظاهرين ابتهاجاً بالاخراج عن الزعماء .

وألف الموظفون لجنة من اثنين وثلاثين عضواً لمخاطبة الوزارة في المطالب السياسية التي لا يتعرض لها الضباط ، وهي التصريح بصفة الوفد الرسمية وأن قبول الوزارة الحكم لا يفيد الاعتراف بالحماية ، والاخراج عن المعتقلين مع أبطال الأحكام العرفية

وجاءت الوفود تترى إلى ديوان الوزارة تعزز هذه المطالب وتلح في قبولها . وعم الاضراب الموظفين وأصحاب الأعمال الحرة انتظاراً لتحقيقها . فاستقالت الوزارة ولما ينقض عليها اسبوعان ، لتعذر التوفيق بين مطالب الشعب والموظفين واردة السلطة العسكرية

وقد انذر القائد العام الموظفين بالفصل إن لم يعودوا إلى دواوينهم وتوعدهم بالمحاكمة العسكرية إن حرضوا على الاضراب ، فعاد منهم فريق وقبضت السلطة العسكرية على زعمائهم الذين لم يعودوا في الموعد المحدود وفي الحادى والعشرين من إبريل ألف محمد سعيد باشا الوزارة وصرح لمدوبى الصحف يوم تأليفها « أنها وزارة إدارية » لا تبت في شئ له مساس بمركز مصر السياسى . . . وليست لها صبغة سياسية لأن المسألة المصرية لم يبت

فيها بعد في مؤتمر الصلح ، وأنها ستجتهد في استدعاء الجمعية التشريعية والغاء الأحكام الاستثنائية ، ومنها قانون المطبوعات

ولقد كان محمد سعيد باشا رئيس هذه الوزارة رجلاً داهياً يحب بما استطاع من دهائه أن يجمع بين قضاء أغراضه واستبقاء سمعة سياسية يلبس لها لبوسها في كل مجال وعند كل فرصة . وكانت العلاقة بينه وبين سعد باشا علاقة فتور وجفاء منذ كانا في الوزارة معاً ثم وقع بينهما ما وقع من الخلاف الشديد في الجمعية التشريعية ، ولهذا حاول سعيد كما تقدم أن يجمع وفداً ثانياً إلى جانب الوفد السعدي لينازعه قيادة الأمة والدفاع عن القضية ، معتمداً في بداية الأمر على الأمير عمر طوسون وأفراد من بقايا الحزب الوطني . ثم أحس نفور الأمة من هذا المسعى وصدود الأمير عمر عن متابعته فراجع وظل يرقب الأحوال إلى أن عرضت عليه الوزارة . فقبلها ، واخترع صيغة الوزارة الإدارية وحيلة تأجيل الوزارات السياسية إلى ما بعد عقد الصلح وإبرام معاهداته مع الدول المحاربة ومع الدولة التركية على الخصوص لأنه رأى في ذلك مخلصاً من جميع الجوانب

فهو — بهذه الحيلة — يريح نفسه من المطالب السياسية ولا يصادم الأمة في أمل من آمالها ، ثم هو يستبقى دعوة الحزب الوطني إلى وقت الحاجة لأنه الحزب الذي يعتمد على حقوق السيادة التركية في دعوته الوطنية ، ثم هو يدافع لجنة التحقيق البريطانية بهذه الحجة إلى أقصى أمد ميسور ، حتى إذا جاءت بعد اعتراف الدولة التركية بالحماية البريطانية كما كان منظوراً بين جميع العارفين استطاع أن يسوس الأمر بغير مشقة مع أمة أشرفت على اليأس ونقضت يديها من جميع الدول ، ووفد بدا فشله للأمة . . . وحزب وطني لم يبق له ما يعمل به من السيادة التركية ولكن بقي له من المنافسة للوفد ما يحفز له حربه ويطمعه في الغلبة عليه ، وقد ظهرت للأمة هزيمة وإخفاقه

وأقبل سعيد — بمثل هذا الدهاء — على علاج المشكلات التي خلفتها

الحماية والثورة لوزارته ، فاجتهد في إقناع الانجليز بتحويل قضايا الوطنيين من المحاكم العسكرية إلى المحاكم الأهلية ، فاقنعوا لأنهم يضمنون من صداقته لهم وإخلاصه في النصيح أنه على الأقل عدو الوفد المصرى ورئيسه

وآشفع في تخفيف بعض الأحكام الصارمة فقبلت شفاعته ، ورفع شيئاً من الضغط عن الصحافة والخطابة ، واستمال إليه الموظفين باغداق العلاوات عليهم وزيادة مرتباتهم حتى بلغت مثليها

غير أن الناس كانوا يستريبون بنياته وينظرون إلى هذه الأعمال كأنها مخدرات ترمى إلى تهدئة النفوس واضعاف الحركة الوطنية ، فأوغرت من صدور الناس عليه أكثر مما جذبتهم إليه ، وتقم الغلاة منه قبول الوزارة وتهيئة الخواطر للرضى بالحالة القائمة . فثار بعضهم عليه ورماد أحدهم بقنبلة لم تصبه ، وبلغ من كياسة الرجل أنه ذهب إلى المحكمة يؤدي شهادته فطلب الرحمة بالمعتدى عليه لأنه إنما اجترح فعلته بدافع من عقيدة خاطئة غلبته على صوابه

واستمرت العلاقات بينه وبين المارشال اللبني على وفاق إلى أن اختلفا في مسألة لجنة ملئر ذلك الاختلاف النموذجي لكل اختلاف بين تفكير العسكرى وتفكير الوزير المحنك من المدرسة التركية . فاللورد اللبني يرى أن امتعاض المصريين من قدوم اللجنة إلى بلادهم سبب كاف لتعجيل قدومها !! وإن اقناع المصريين بأن عواطفهم ومطالبهم لا حساب لها ولا أكثراث بها هو المقدمة الصالحة لمجيء اللجنة التى كانت مهمتها الأولى ارضاء تلك العواطف والبحث عن تلك المطالب ! فأكراه الناس على قبول الأوامر هو المهم فى السياسة العسكرية سواء نجحت اللجنة أو لم تنجح ، وعلى اللجنة وعلى المصريين بعد ذلك العفاء ورئيس الوزارة يرى كما علمنا مما سلف أن لا تحضر اللجنة قبل الفراغ من حل القضية المصرية بين الدولة العثمانية صاحبة السيادة والدولة البريطانية . . . وهو له رأى قيمته من الدهاء والحصافة ولكن لا قيمة له إلى جانب الأوامر

العسكرية ! وقد اختلف القائد والوزير فلا يحصى اذن من أن يستقيل الوزير

استقال سعيد باشا وخلفه يوسف وهبه باشا في الحادى والعشرين من نوفمبر فجرى على « السنة الادارية » التى استنها سلفه ، والتزم الحيدة مع اللجنة المقبلة فلم يتخذ له موقفا معها أو عليها . ولكنه لم يستطع أن يمنع بعض الرؤساء الانجليز من تكوين حزب مصطنع من المنبوذين وطلاب المنافع الذين لاخلاق لهم ، أسماء الحزب المستقل الحر وأعدده للقاء اللجنة ومداواة المقاطعة الاجتماعية التى ستلقاها . ولم يفلح فى هذه المحاولة على الرغم مما بذل فيها من المصروفات السرية والغوايات المختلفة

أما اللجنة التى تقام حولها هذا الخلاف فقد وصلت فى السابع من ديسمبر وهى محوطة بسوء الطالع من كل مطلع . وكانت ممثلة لجميع الاحزاب الانجليزية ومؤلفة من رجال قديرين مشهود لهم بمعرفة الشؤون المصرية والمسائل السياسية عامة ، وهم اللورد ملنز وزير المستعمرات ، والسير رنل رود سفير انجلترا السابق فى روما ، والقائد السير جون مكسويل الذى كان بمصر فى أوائل الحرب العظمى ، والسير اوين توماس الخبير بمسائل الرى ، والمستر سبندر الكاتب الصحفى المعروف ، والسير سسل هرست الحجة فى القانون الدولى ، ومعظمهم ممن عرفوا مصر بالخبرة والاطلاع

لكنهم حضروا والفشل يسبقهم ، والصدور موهرة بما توالى على الناس من دواعى الكراهية والنفور ، ووظيفة رئيسهم توحى إلى الناس أنه سيجعل مصر إحدى المستعمرات البريطانية

وقبل أن ينقضى على اللجنة أسبوعان أو نحو أسبوعين سرى فى مصر نبأ القرار الذى اعتمده نواب الولايات المتحدة وهو رفض المعاهدة التى وقعها الرئيس ويلسون . فبدلا من أن تجيء اللجنة وتركيا معترفة بالمعاهدات كما كان يريد محمد سعيد ، جاءت الولايات المتحدة — وهى قبلة أنظار العالم

فى ذلك العهد — تنقضها وتفتح الرجاء لأبطالها وتحقيق آمال الشعوب
المخذولة فيها .

وما استقرت اللجنة أياما حتى أحست أنها فى حصار محكم من المقاطعة
الاجتماعية لا يتخلله منفذ الى لقاء أحد يجديها لقاءه ؛ ورأى اللورد ملتر
من روح الوطنية المصرية غير ما كان يعهده فى أيامه السالفة بمصر كما قال
لبعض أصحابه . فليجأ الى الملاينة والمصانعة ، وحاول أن يفسر غرض
اللجنة تفسيراً يحافظ به على الحدود التى رسمتها الحكومة البريطانية ويحتجب
فى ظاهره الكلمات المثيرة التى تنفر المصريين واخصها ذكر الحماية ، فشر
على الناس فى التاسع والعشرين من ديسمبر بياناً قال فيه :

« أدهش اللجنة البريطانية الاعتقاد الشائع بأن الغرض من مجيئها هو
حرمان مصر من الحقوق التى كانت لها الى الآن ، ولا أساس على الاطلاق
لهذا الاعتقاد فان اللجنة أوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان
البريطانى لأجل التوفيق بين أمانى الأمة المصرية والمصالح الخاصة لبريطانيا
العظمى فى مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة التى لجميع الأجانب
القاطنين فى البلاد . ونحن على يقين من أنه يمكن الوصول الى هذا الغرض
مع توافر حسن النية بين الجانبين ، واللجنة ترغب رغبة صادقة فى أن تكون
العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر قائمة على اتفاق ودى يزيل أسباب
الاحتكاك ويمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شؤون
البلاد فى ظل أنظمة دستورية « Self Governing Institutionns » وتنفيذاً
لهذه المهمة تريد اللجنة أن تقف على كل الآراء ، سواء صدرت من هيئات
نيابية أو أشخاص يهتمون اهتماماً صادقا بخير بلادهم ، ويمكن ابداء كل رأى
بحرية وصراحة ، ولا رغبة للجنة فى تقييد حدود المناقشة كما أنه لا يخشى أى
فرد أن تعتبر مقابله للجنة تنازلاً منه عن معتقداته . فانه لا يعد متنازلاً عن
معتقداته بمفاوضة اللجنة الا كما تعد هى متنازلة بسماعها . وبغير الصراحة

الثامة في المناقشة يصعب وضع حد لسوء التفاهم والوصول الى الاتفاق »
ويلاحظ القارىء أن اللجنة ترجمت العبارة الانجليزية Self Governing
بالأنظمة الدستورية وهي ترجمة غير دقيقة ، صححناها في صحيفة الأهرام يومئذ
بترجمتها الحرفية وهي أنظمة « حكم ذاتى »

ولوحظ هذا الاختلاف في الترجمة فكان له شأن في اختلاف
الرأى بين خطة سعد وخطة عدلى وأصحابه بمصر حيال اللجنة . فقد قال عدلى
في خطاب له الى سعد مكتوب في التاسع والعشرين من يناير : « رأينا قبل
عمل أى شىء أن نعجل بالكتابة لتوضيح نقطة هامة كان لها بحق أثر كبير في
قراركم الذى اتخذتموه . وهذه النقطة هي ما فهمتموه من أن بلاغ اللجنة ضيق
الغاية من المناقشة فجعلنا (وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى) بما
جعلكم تعتقدون أنه مع هذا التحديد لا تنتقل المسألة المصرية من مركزها
فلا ترتفع به الحماية بل تتأكد . والواقع انه حصلت بيننا وبين اللورد ملر
مناقشة فى هذا الموضوع وأكد لنا أن النص الانكليزى ليس معناه الحكم
الذاتى الذى يعبر عنه بـ Self Government بل معناه الحكومة الدستورية
وان الغرض من ذكر هذه العبارة فى البلاغ بيان ان الحكومة الانكليزية
لا يصح أن ترتبط بمعاهدة حكومة لا تكون ذات نظام دستورى ، وكذلك
كانت الترجمة العربية الرسمية وفق هذا التفسير ، ولولا هذا لكانت أحاديثنا
مبنية على غير أساس ، ولما جاز لنا أن ننقلها اليكم ونستنتج منها ما استنتجناه »
والقرار الذى اتخذته سعد وأشار اليه عدلى فى الخطاب المتقدم هو
قراره الذى نشره فى بلاغ بعث به الى مصر عقب نشر اللجنة بيانها وقال
فيه مانصه : —

« يحاول الأقوياء بجميع الوسائل أن يأخذوا منكم رضاء بحمايتهم ليزدادوا
قوة ويزيدوكم ضعفاً ، فلا تتخذوا إذا وعدوكم ولا تخافوا إذا هددوكم ،
واثبتوا على التمسك بحقوقكم فى الاستقلال التام فهو أمضى سلاح فى أيديكم

وأقوى حجة لكم ، فإن لم تفعلوا — وليس في قوة إيمانكم الوطني ما يجعل احتمالاً لذلك — خذتم نصراءكم وأهنتم شهداءكم وحقرتم ماضيكم وأنكرتم حاضركم ومددتم للرق أعناقكم وحنيتم للذل ظهوركم وأنزاتكم بأممكم ذلاً لا يرفع منه عز ، وإن تفعلوا — كما هو أكبر ظني في عظيم إخلاصكم وميتين اتحادكم وقوة وطنيتكم — فقد استبقيتم لأنفسكم قوة الحق وأعدتكم لنصرتكم قوة العدل . فلا تذلوا وإن قهرتم ، ولا تخشوا وإن ظلمتم ، ولا بد من يوم يعلو فيه حقكم على باطل غيركم ، وينتصر فيه عدل الله على ظلم خصومكم ، وتحقق باذن الاله القدير آمالي وآمالكم في الاستقلال التام »

وصل هذا البلاغ الى مصر ونشر في صحفها عند منتصف يناير ، وكانت لجنة الوفد المركزية قد أعلنت بلاغاً في معناه عقيب صدور البيان المتقدم من لجنة ملتر ، وتعاقب على أثره صدور البلاغات في هذا المعنى من ذوى الشأن والرأى وفي مقدمتهم الأمراء والعلماء ، وأيقنت اللجنة — لجنة ملتر — أن لارجاء في الاتصال بينها وبين الأمة المصرية على قاعدة البيان الجديد ، لأن هذا البيان لم يغير من الأمر شيئاً ، ولأن الأمة لا ترى لها مصلحة في تجاهل وفدها النائب عنها في قضيتها كما ترى السياسة الانجائزية المصلحة في هذا التجاهل أو هذا التفريق بين الأمة ودعاتها ، فلم يعد للجنة مناص من السفر أو من القناعة بما عندها من وسيلة لاستطلاع الآراء هنا وهناك وزيارة بعض أعضائها لبعض أصحابهم الذين كانوا يعرفونهم من سرة المصريين في القاهرة أو الريف ، وشاع بين أبناء الريف أن أعضاء اللجنة الملترية يطوفون البلاد خفية فأصبحوا يستريبون بكل سؤال يلقيه عليهم أجني غير معروف ، ورويت في ذلك أحاديث شتى تدخل في باب الملح والطرائف ولكنها تدل في الوقت نفسه على الجدل في كراهة الحماية وحب الاستقلال والوفاء لزعيم

الوفد والحذر من حيل الاستعمار . فكان الفلاح الساذج اذا سأله أجنبي لا يعرفه : أين الطريق ؟ بدر الى ذهنه انه عضو من أعضاء اللجنة يتخفى لاختلاس الآراء والأجوبة بغير علم الوفد فأجابه على الفور : عليك بسعد في باريس يخبرك أين الطريق ؟ واذا سأله : هل لك أولاد ؟ أو سأله : كم أجرك في اليوم ؟ لم يزد على أن يحيله إلى سعد في باريس فهو أعلم بالجواب ! ولا يبعد أن يكون أعضاء اللجنة الذين اختلفوا الى الأقاليم قد صادفوا شيئاً من هذه الأجوبة وعرفوا من دلالتها السياسية ما هو أدل وأجلى مما كانوا يقصدونه بالتحقيق والسؤال

ولا ينبغي أن ننسى أن أناساً من الداعين الى مقاطعة اللجنة قد تشعبت بواعثهم ونياتهم فلم يكونوا جميعاً على نية الأمانة في تأييد الوفد ورعاية حق نيابته أو صون كرامته عن مهانة التجاهل الذي قصدهته الحكومة البريطانية ، فكان ممن اتخذوا المقاطعة اناس اتخذوها احباط لكل مفاوضة يجريها الوفد في الحاضر والمستقبل ، ومنهم خصوم له كانوا يرضون باليسير في حل القضية المصرية ولا يطمعون في استقلال تام ولا ناقص ، ولكنهم يصطنعون الغلو ويؤثرون التصعيب وتوسيع المسافة بين طرفي الاتفاق لاعتقادهم ان كل شرط يوضع للمفاوضة المقبلة انما هو عقبة في طريق الوفد دون غيره من الرجال الرسميين ، فان هؤلاء الرجال الرسميين لا يلقون اعتمادهم كله على الثقة القومية والمبادئ السياسية ، بل يلقون أكثر اعتمادهم على قوة الحكومة ، ومن ورائها قوة الاحتلال .

أما الوزراء الذين كانوا معروفين يومئذ باسم أصدقاء الوفد — وهم رشدي وعدلي وثروت — فقد أخذوا بالخيطة فلم يغضبوا الوفد ولم يغضبوا اللجنة ، وكتبوا في السابع من يناير خطاباً الى سعد يقترحون فيه عليه أن يعود هو وأصحابه إلى القاهرة لمفاوضة اللورد ملر بعد الوعود التي أفضى بها اليهم

ولا تخرج عن معنى البيان المتقدم ، فلها أجب الوفد بامتناع ذلك لأن بيان ملنر يحصر الغرض من المفاوضة في الحكم الذاتى أجابوه بما أسلفناه من تفسير كلمة « الحكم الذاتى » كما جاءت فى الصيغة الانجليزية وقالوا إن اللورد ملنر لا يرى مانعا من دخول الوفد المفاوضة على أساس الاستقلال التام ، وإن كان هو لا يستطيع الجهر بهذا الأساس ولا يزال يرجو بعد تمام المفاوضة أن يحسن « للرأى العام الانجليزى » قبول ما ليس يقبله الآن

وقد بسط سعد تفصيل رأيه فى بيان رد به على التقرير الذى جاءه من لجنة الوفد المركزية مع على ماهر بك ، وفيه يقول « بتاريخ الحادى والعشرين من يناير :

« . . . إننا لم نجد فى بلاغ ملنر شيئا يخالف التصريحات السابقة عليه إلا خلوه من لفظ الحماية وحسن أسلوبه . أما فى الجوهر فقد وجدناه متفقاً معها تمام الاتفاق إذ هو مثلها يعتبر مصر تابعة لانكلترا ، ولجنة ملنر لجنة تحقيق : موقف المصريين معها موقف المجيب من المستجوب ، وغاية أبحاثها الوصول إلى وضع نظام حكومى فى دائرة الحكم الذاتى . ونحن لا نعترف بشيء من ذلك ، فلا تبعية لانكلترا علينا ولا نعترف لهذه اللجنة سلطة التحقيق فى بلادنا ، والغاية التى نسعى إليها هى التمتع بجميع حقنا فى الاستقلال التام . نعم ان هذا البلاغ وسع مجال المناقشة ولكنه ضيق الغاية منها فجعلها وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى ، وبذلك هدم يده ما بناه باليد الأخرى ، وزاد ان اشترط عدم ترتيب الالتزام على هذا التوسيع فحفظ بهذا الاشتراط لنفسه حرية العمل وهو تحديد الغاية الذى لا ينقل المسئلة من مركزها ، فلا ترتفع به حماية بل تتأكد ، ولا يتم به استقلال بل يقل ، ولا يفيد إلا شيئا واحداً وهو تسهيل مأمورية التحقيق على اللجنة . وما كان المصريين أن يعرفوا لها هذه الصفة ولا أن يسهلوا لها هذه المأمورية . وأكبر ما تعطيه أو تشير باعطائه أقل من حقهم بكثير . زد على ذلك أنها جاءتهم رغم أنوفهم

و ضد اجماعهم بأن استعملت كل وسائل الشدة معهم تمهيداً لوصولها وشكلت
وزارة لم يرض الرأي العام بها .

» ان عودة الوفد أو بعض أعضائه على أثر هذا البلاغ لم يخطر ببالنا
للاعتبارات السالف ذكرها ، ولأن الانكليز لا يتأخرون ان يتخذوا منها
حجة على فوز سياستهم ويبنون عليها كثيراً من الأقوال التي ينشرونها لتضليل
الرأي العام في أوروبا عموماً وانكلترا خصوصاً . ربما كان يسهل علينا أن
نتعرض لمثل هذا الخطر ونعجل لهم ذلك الفوز لو أنهم وعدونا بشيء في
مقابلته وعداً صريحاً يصح الاعتماد عليه . ولكنهم لم يفعلوا ، وليس لنا أن
نتوهم أنهم سيفعلونه بعد عودتنا على غير وعد سابق . لو أنهم مع توسيع
مجال المناقشة أطلقوا الغاية منها لصح لنا أن نتعشم أن نقنعهم بالبرهان
الصادق والحجة الدامغة بصحة مطالبنا ، ولكنهم حددوها بمادون مانطلب
حتى في ذلك البلاغ الذي نشره بقصد استرضائنا . فكان مثلهم في ذلك مثل
بعض القوانين الألمانية القديمة التي كانت تقضى بسماع الشهود بعد الحكم في
الدعوى ، ولهذا رأينا أن العودة ارتكانا على البلاغ المذكور لا تكون إلا
عبثاً مقروناً بالخفة والمخاطرة . ويصح للانكليز وغيرهم أن يقولوا إنه كفى
أن يغير شكل التصريح وأن يؤتى ببعض العبارات الطلية في أن تغير الأمة
المصرية بتمامها خططها نحو اللجنة فتخرج من مقاطعتها إلى المفاوضة معها .
كلا ! إننا لم نبلغ إلى هذا الحد من البساطة والسذاجة : ان المسألة أكبر بكثير
من أن يكون لاختلاف الصور والاشكال تأثير فيها . إننا نقبل العودة
للمفاوضة على شرط أن تكون بين متعادلين في حقوق المناقشة وطرفين كل
منهما يمثل أمة ، وأن يكون الغرض منها الوصول إلى عقد معاهدة تضمن
لمصر استقلالها التام ولا نجلترا مصالحها التي لا تتعارض مع هذا
الاستقلال التام ، وأن تعترف الدول بهذه المعاهدة وتسجل في عصبة
الامم . فاذا صرح الانجليز بذلك رسمياً هنالك لا نتأخر عن العودة

لمباشرة المفاوضة متى ألغيت الأحكام العرفية وضمنت لنا العودة لمباشرة أعمالنا عند ما نريد . أما المفاوضة في أوروبا فنحن مستعدون لها مع لجنة ملنر أو غيرها ما دامت المناقشة لا يترتب على الدخول فيها التزام بشيء ما . وما دام أن العبرة بما يتم عليه الاتفاق في حدود التفويض لنا ، فإذا كان الانسكيز يرغبون حقيقة في ودنا وفي بناء علاقتهم على الاتفاق معنا فلا شيء أسهل عليهم من اتباع إحدى هاتين الطريقتين للوصول الى الغاية . وهم لابد أن يفهموا أن الأمة المصرية وصلت من اليقظة والانتباه ومعرفة حقوقها إلى درجة لا تترك معها إلى الأقوال ولا تعتمد فيها إلا على الأعمال ولا ترضى عن استقلالها التام بدليلا . نعم إن في قوتهم ارغامها على النظام الذي يريدون وضعه فيها ، وقد لا يبعد عليهم أن يحملوا كل الدول على الاعتراف بحمايتهم علينا . ولكن حقنا لا يضيع بهذا الارغام ولا بهذا الاعتراف . بل يبقى ثابتا حيا ونبقى مستمرين على المطالبة به والسعى للحصول عليه ، وإذا لم يكن في الحكومات الأجنبية الآن من يمد يد المساعدة إلينا ففي شعوبها كثير من الأحرار يعطفون علينا وينتصرون لقضيتنا بأقلامهم وخطبهم ، وما يدرينا أن يظهر غدا المساعد لنا ؟ وللزمان تقلبات تجعل الحليف عدواً والعدو حليفا . ولا يصح أن نسقط من حسابنا اتساع ملك بريطانيا وتباعد أطرافه واضطراب الأحوال في ممتلكاتها وجوارها وانتشار المبادئ الديمقراطية في العالم عموما وفيها خصوصا ، وتهديد حزب العمال لحكوماتها بالاستيلاء عليها وقربه من هذه الغاية يوما فيوما كما تؤيده الانتخابات الجزئية والاعتصابات التي كثر تواليها في هذه الأيام . كل هذا يجعلنا أن لانغامر بحقنا وأن نبقي متشددين في التمسك به ومقاطعين للجنة التي حضرت رغم أنوفنا لحملنا على الرضاء بانقاصه حتى تعود خائبة . فتعلم الانجليزية ويعلم العالم معنا أن مصر متحدة تمام الاتحاد على الوصول الى استقلالها التام ، وان إرادتها على ما تسكره مخالف لشرف الوعود التي بذلتها انكنازاً ومناقض للعمود التي

سجلتها وغير منطبق على المبادئ التي قبلتها ومكدر على الدوام لسلبها ومقلق لراحتها ، وان خير سياسة تتبعها هي أن تبر بوعودها وتتخذ من مصر حليقة صادقة لها لا تابعة نافرة منها تترقب الفرص دائماً للخروج عليها وتفضل الموت على الاستسلام لها ... »

هذا بيان مفصل برأى سعد في احتمالات الحالة من جميع أطرافها ، ومنه نعلم لماذا كان على خلاف رأى الوزراء — الأصدقاء — في العودة إلى القاهرة لمفاوضة ملتر ، ونعلم أنه لم يكن يرفض المفاوضة إذا جرت في أوروبا لأنها لا تكون هناك بمثابة تحقيق تجريه الدولة المتبوعة في بلاد رعاياها ، فضلاً عما فيها من اعتراف اللجنة بوكالة الوفد عن الشعب المصري ، وهي لا تجهل نصوص ذلك التوكيل ولا مطالب الشعب المحدودة فيه .

وبديه أن الوزراء — الأصدقاء — لم يكونوا لينتظروا لهم « دوراً » يقومون به قبل تمام المفاوضة بين الوفد ولجنة ملتر وانتهائها إلى صيغة محدودة يتفق عليها الطرفان أو يظهر منها على الأقل مبلغ استعداد الانجليز لاجابة المطالب الوطنية ، فأما قبل ذلك فليس في وسع الوزراء أن يفاوضوا اللجنة في تفصيلات الاتفاق بمعزل عن اجماع الأمة وموقف الوفد بباريس ولجنته المركزية بالقاهرة في وقت واحد ، ولو أنهم أقدموا على هذه المفاوضة العقيمة لحسروا الجانبين معا وفشلوا في تقرير الاتفاق المطلوب لا محالة ، ورجعوا وحدهم بتبعة الفشل امام الأمة وامام الانجليز ، فهم لم يخططوا في تقديرهم أن المفاوضة بين الوفد ولجنة ملتر لا بد أن تسبق كل « دور » يقومون به في هذه المرحلة ، ومن ثم اجتهدوا في اقناع سعد بالحضور إلى مصر أو ايفاد من ينوب عنه لمفاوضة اللجنة ، وكانوا متعجلين ولا شك فيما اقترحوه ، لأنه اقترح أقل ما فيه أن يدل اللجنة الملمنية على تهافت المصريين وتراميهم على هذه الفرصة المدخولة ترامي المناضل الذي استنفد موارده الأخيرة وقنع بالتعلل والمغالطة ، وليس في شيء من هذا ما يغري اللجنة

بالتوسع في اجابة المطالب المصرية أو يرجح عندها أن تتوقع رفضا لما تعرضه أياً كان الحل المعروض ، فلما تريت سعد ولم يقنعه تفسير العبارة الانجليزية ذلك التفسير الذى أسرع الوزراء إلى قبوله دار الكلام فى ايفاد رسول من قبل اللجنة الى باريس لتهديد المقابلة بينها وبين الوفد بعد عودتها من القاهرة

وقد دارت مناقشة بين عدلى وسعد فى تفسير العبارة الانجليزية وما احتوته من الاشارة المزعومة الى الأنظمة الدستورية فأعرب سعد عن شكوكه فى خطاب الحادى عشر من فبراير الى عدلى باشا إذ يقول : « ... نعم ان ترجمتكم عبارة « Self Governing Institution » بالحكومة الدستورية هى الأصح ولكن صحة هذه الترجمة فى نفسها لا تحمل على تعديل قرارنا لأن هناك أسبابا أخرى غيرها ، ولان ايرادها فى المكان الذى وردت فيه من البلاغ مع عدم اقتضاء المقام لها بعد التصريح فيه بأن مأمورية اللجنة هى التى صورتها الحكومة ووافق عليها البرلمان يوقع فى الذهن بأن المقصود بها هو المعنى الذى فهمناه . والقول بأن القصد منها إنما هو ألا يكون الاتفاق الا مع حكومة دستورية لا يتفق فى ظاهره مع كون هذه العبارة وردت على أنها نتيجة للتعاقد لا وسيلة له ، ومع ذلك فاذا كان القصد منها هو كما يؤكد جنابه من أن الحكومة الانكليزية لا يصح أن ترتبط بمعاهدة الا مع حكومة ذات نظام دستورى — لزم قبل كل شئ وضع هذا النظام لتشكيل حكومة دستورية تكون أهلا للتعاقد على تحديد العلاقات بين مصر وانكلترا »

ومن هذا الخطاب نفهم أن سعدا لم يأخذ بالتفسير كما جاء فى حديث مانر مع الوزراء ، ولكنه أراد أن يستفيد من مجازاة مانر والوزراء على تفسيرهم بأن يمهده لانشاء الحياة النيابية وقيام الحكومة الدستورية ، ويحس النبض لاستطلاع ما هنالك من النيات والخطط المرسومة ، فان جاء الدستور فذاك ، وإن لم يجرى لسبب من الأسباب فظهور ذلك السبب خير من كتمانها والمواربة فيه

قال سعد في خطابه المتقدم بعد ما أسلفناه : « ولا أخفى عليكم أن فكرة هذا النظام خطرت أول الأمر ببالنا على أنها الوسيلة القانونية لحل المسألة . لذلك نحن نوافق كل الموافقة عليها بل نحبذها ، والطريقة المثلى للوصول إلى هذه الغاية في رأينا هي أن يبدأ بتأليف وزارة من غير أعضاء الوفد موثوق بها ، ويكون البروجرام الذي تعلنه هذه الوزارة هو وضع ذلك النظام ثم المفاوضة مع الحكومة الانكليزية بغرض الوصول إلى وضع اتفاق يضمن استقلال مصر التام ومصالح انكلترا الخصوصية . ثم عرض ما تنتهي المفاوضة اليه على الهيئة النيابية التي تتألف بموجب ذلك النظام للتصديق . ومتى تم تشكيل الوزارة على هذا النحو وأعلنت بروجرامها على هذه الصيغة أو بما في معناها لا تردد نحن وزملائنا في العودة إلى مصر لمساعدتكم على القيام بمهمتكم لدى الأمة والسعى في أن تنتخب أعضاء لهذه الهيئة . إذا تم لكم أن تفعلوا ذلك خدمتم بلادكم أجل خدمة ، وخلصتم لكم في التاريخ أحسن الذكرى »

وزاد الموضوع تفصيلا بخطاب في اليوم التالي (١٢ فبراير) قال فيه : « إن الطريقة التي عرضناها فيما كتبناه لكم هي في اعتبارنا أمثل طريقة لحل العقدة الحاضرة ، لأنه من الطبيعي أن تجرى مفاوضة مع هيئة رسمية موثوق بها خصوصا من الأمة . وأن يصدق على ما تنتهي المفاوضة اليه من النواب الذين تختارهم لهذه الغاية ، وهي تقرب في ظننا من التي يظهر أن اللورد ماير يدلي بها في محادثاته معكم وفيما أكد لكم من المقصود بعبارة :

Sef Governing Institution التي أوردها في بلاغه . إن لم تكن هي بذاتها . ولهذا يغلب على ظننا أنه يهش لها ويعمل على تنفيذها ولا يصعب عليه أن يتضمن بروجرامكم عبارة الاستقلال التي أوضحناها فيما كتبناه لكم لأنها لا تربط غيركم . وهي فوق ذلك ضرورية جداً حتى لا تقابلكم الأمة بالنفور الذي تلاقى به كل وزارة لا يكون السعى إلى هذه الغاية أول قصدها

وأكبرهما ، نعم ان فيها مشقة عظيمة لكم ومسئولية كبرى عليكم ولكنها ليست فوق همّتكم . وأنتم أهل لتحمل كل هذه المسئولية في خدمة بلادكم ، والوفد مستعد لأن يعمل ما في وسعه لتسهيلها عليكم ، ولهذا يرى أن يكون أعضاؤه خارجين عن هيئتكم حتى لا يساء الظن في نزاهتهم وتبقى الثقة فيهم يستعينون بها في تأييدكم وتمهيد الطريق أمامكم . وبعد أن تتألف الهيئة الجديدة تحت رآستكم ، وتعلن بروجرائها لا يترددون في العودة ليكونوا قريبين منكم يعملون على تنوير الأفهام وصيانة الرأي العام من خطرات الأوهام ، التي لا يقصد ذور الأغراض الفاسدة من بثافيه وتسليطها عليه الا ترويحاً لمقاصدهم الفاسدة وتحصيلاً لمصالحهم الباطلة ، ولا يهمننا فيمن تختارونهم لمعاونتكم الا أن يكونوا محلاً لثقتكم وأهلاً لأن يتضامنوا معكم في تحمل تلك المسئولية الكبرى »

وقد أجاب عدلى ب خطاب في الخامس والعشرين من فبراير قال فيه : « نعم اننا على رأيكم من أن وجود هيئة وزارة تعمل على تحقيق الأمانى القومية وثق بها الأمة في ذلك من أهم الأمور . وربما كانت الوسيلة القانونية الوحيدة للحصول على الغاية التي ننشدها . ولكننا نرى أيضاً أنه لا يصح أن تستأثر هذه الهيئة بالمفاوضة وحدها وبوضع النظام الدستوري للبلاد ، بل يجب أن يكون هذا بالاشتراك مع الوفد ، وطريقة العمل في ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعى للوصول الى اتفاق يوفق بين استقلال مصر والمصالح الانكليزية والاجنبية ووضع مشروع نظام دستوري للبلاد ثم تعهد بالمفاوضة لهيئة تضم بعضاً من أعضاء الوزارة ، وبعضاً من أعضاء الوفد » .

بعد هذه الرسائل المتبادلة بين سعد وعدلى انجلت سياسة سعد وسياسة الوزراء « الأصدقاء » مع لجنة ملتر . . . بل انجلت سياسة كل من الفريقين مع

الفريق الآخر . وأصبح في وسع الناظر الى ما وراء الظواهر أن يلبس النيات التي توحى الى كل فريق بسياسته ومقترحاته

فسعد يريد حلاً للقضية المصرية لامغالطة فيه ، ويريد أن يترك للوزراء « الأصدقاء » ما هو للوزراء ، ويبقى للزعامة ما هو للزعامة . فليس عنده ما يمنع أن تفاوض الوزارة الصديقة الانجليز متى ضمن سلامة المفاوضات وعرض النتيجة على الأمة . وهو لا يريد أن تسيطر الحكومة على الرأي العام أو تعرض الوفد للانقسام . لأنها اذا أدت عملها مستقلة به بقي للوفد عمل آخر عند عرض النتيجة على الهيئة النيابية الممثلة للأمة ، ولا بأس في أن يقوم به يومئذ متفقاً مع الوزارة ، لأن المرجع في جميع ذلك الى ميدان الانتخاب الذي يجوز لأعضاء الوزارة كما يجوز لأعضاء الوفد أن ينزلوا اليه

أما سياسة عدلى فهي قبول الوزارة مع التزام الخطة التي جرى عليها هو وزملاؤه من بداية الحركة الوطنية ، وهي خطة الانتفاع بنفوذ سعد والاحتراس منه في وقت واحد . أو هي اشراك الوفد في التبعة حذراً من رقابته وتعقيبه إذا استقل الوزراء بالمفاوضة والاتفاق على القضية العامة ! وهذه سياسة هي أدنى إلى العداوة منها إلى الصداقة وخلوص النية . فهم لا يريدون أن يدعوا سعداً حراً في عمل واحد ، ولا يغنيهم إلا أن يشركوه معهم في التبعة ويسوقوه حيث انساقوا ويقطعوا عليه سبيل التعقيب والملاحظة ويقدموه أمامهم خطوة خطوة ليحموا ظهورهم ويحفظوا لانفسهم طريق الرجعة . وكلما استطاعوا أن يهونوا عليه قبول ما قبلوه أسرعوا إلى محاولة اقناعه لأنهم لا يخسرون شيئاً وإنما هو الخاسر عند الجمهور ان قبل !! بل لعلمهم يكسبون أن يقنعوا الناس كما أقنعوا انفسهم بأنهم كانوا على صواب في قبول الحماية ، وأن الأمة لن تنال بالثورة أو بغير الثورة وبالزعامة أو بغير الزعامة - أكثر مما قبلوه

فحسبوا لسعد أن يعود إلى مصر ويرضى بمغالطة نفسه ومغالطة الأمة في

الألفاظ التي لا تسمح بالمغالطة . ثم حسنوا له أن يشترك بفريق من أعضاء الوفد في هيئة المفاوضة ليدخلوه في التبعة وهم قابضون على زمام الحكومة ، ومن قبل ذلك رحبوا في أيام الحرب العظمى بدخوله معهم في الوزارة ليعترف بالخاية كما اعترفوا بها ، ونظروا في ذلك الى أنفسهم غير ناظرين الى البلد الذي كان يجوز أن يهيب بسعد أو يهيب سعد به الى بلوغ ما لم يبلغوا من استقلال وحرية ، وأبوا بعد الهدنة أن يسافروا إلا إذا سافر هو يوم جاءهم الاذن بالسفر الى العاصمة البريطانية ، وكل ما صنعوه بعد ذلك في مفاوضات ملنر وكرزون مطرد مع هذه النية ومنبعث من هذه النية ، وهي أن يقاسموا سعدا في كل ما يدركه وأن يشركوه معهم في كل ما وقعوا فيه ، وأن لا يتركوه حراً في فرصة من الفرص ليطلب فوق ما طلبوه وينال فوق ما عسى أن ينالوه وهي خطة حافظ الوزراء « الأصدقاء » عليها أدق محافظة ، ولن يتأتى لهم أن يتبعوها على نمط واحد بغير تفاهم وبمبالاة ، ولن يقع التفاهم عليها مع الصداقة وخلص انية ، وسواء حسنت نتائجها أو ساءت فهذا الذي قصده بما بذلوا من مساعدة أو نصيحة ، وعلى حسب هذا القصد يكال لهم العذر أو الملام

وقفت مسألة الوزارة التي دار الكلام عليها في الرسائل السابقة لأن اللورد ملنر لم يستحسنها عند ما فاتحه عدلى فيها ، وتعال بقوله « إن الفكرة لا بأس بها . ولكنى لا أرى من المصلحة تغيير الوزارة الآن ، لأنه إذا شكلت وزارة مهمتها المفاوضة فربما اعترض هذه صعوبات يكون من نتائجها سقوط الوزارة . على أن أعضاءها — وهم الذين سيكون عليهم المعول في إدارة البلاد — يجب أن لا يكونوا عرضة للتخلي عن خدمة البلاد بمجرد اشكال يمكن أن يحل فيما بعد »

فقال عدلى : « لم يبق إذن سوى حل واحد وهو أن تتفاوضوا مع الوفد »

وحوالى هذا الوقت ختمت لجنة ملنر أعمالها فى مصر وأصدرت فى السادس من شهر مارس بياناً رسمياً قالت فيه إنها أنجزت بحوثها وأجلت عملها الباقى إلى أن تجتمع بلندن بعد عيد الفصح لتحضير تقريرها ، وذهب رئيسها فى رحلة إلى فلسطين مكث فيها نحو أسبوعين ثم عاد إلى الاسكندرية فى السادس والعشرين ، وقفل منها إلى بلاده

أما الحالة فى الفترة التى قضتها اللجنة بمصر فخلاصتها أنها أسفرت عن فشل السياسة البريطانية فى التفرقة بين الوفد والأمة ، وعن نجاح الحركة الوطنية فى زعزعة الحماية التى كان الضعفاء يحسبونها قضاء مبرما لا يدفعه دافع ، ولاح من كلام الصحف المشهورة بنزعتها الاستعمارية عقب رجوع لجنة ملنر من مصر أن الحكومة البريطانية لم تجد بدا من التفكير فى إلغاء الحماية ، فصرح بعضها — ومنها الديلى ميل — بما يفيد تلك النية

ولقد ملست الأمة المصرية قوة اجماعها يديها فى أيام اللجنة الملنرية ، وشعرت باستقلالها حقيقة ماثلة فى ضميرها وان جحدته المظاهر الرسمية ، فصمدت على التفاؤل والاطمئنان إلى المستقبل غير حافلة بما بدا من ضعف الأعضاء الوفدين الذين تراجعوا على أثر ما اصطدموا به من اعتراف الدول جميعا بالحماية ، وأعان المصريين على تحدى هذا الاجماع أنهم رأوا مؤتمرا كال مؤتمر الأمريكى يرفض معاهدة فرسايلى ، فشعروا بان اجماع الدول على توقيعها ليس بالسد المنيع الذى يستعصى اختراقه ويحق عليهم اليأس من تداعيه يوماً بعد يوم كلما تبدلت أطوار الشعوب وعلاقات الحكومات وظل النفور مستحكماً بين الحكام العسكريين والأمة المصرية فى ابان زيارة اللجنة الملنرية . وكانما كان يهيم هؤلاء الحكام العسكريين أن يوقعوا فى اخلاص المصريين ان حضور اللجنة إلى هذا البلد لا يعنى أن الدولة البريطانية تبالى بشعورهم وتكثرت لرفضهم أرقبولهم . فدأبوا على الخطرسة والعناد

وعز عليهم أن يغيروا ما عودوا للـمجلس من سطوة وارهاب . ولولا قليل من الحرية في نشر بعض الآراء لظلت الحالة كما كانت عليه قبل حضور اللجنة بلا اختلاف

وزاد الجو اكفهراراً لجأج حكومة السودان في مشروعات الري والزراعة وهى المشروعات التى ترمى الى بناء خزان على النيل الأزرق وخزان آخر على النيل الأبيض واستدراج الحكومة المصرية الى القيام بتكاليف هذه المشروعات ، ليستفيد منها أصحاب الأموال فى انجلترا ، ويستعينوا بها على اصلاح الأرضين الواسعة وزرع القطن الذى يزاحم قطن مصر ولا ينتفع به أهل السودان . فبلغ الحنق من هذه المشروعات أقصاه ، وساء تأويل كل ما يقال وكل مايراد فى هذا الباب ، وتعرضت حياة وزيرين مصريين من رجال الهندسة والرى — وهما حسين سرى باشا ومحمد شفيق باشا — للخطر من جراء البحث فيها ، إذ ألقى بعض الشبان على كل منهما قنبلة فى طريقه ، واتفقت الحادثتان معا فى أثناء زيارة اللجنة الملمرية ، فدلنا على اكفهرار الجو أثناء زيارتها أيما اكفهرار

المفاوضة في لندن

بعداً أخذ ورد قبل عدلى باشا أن يقدم موعد سفره الى باريس إجابة لطلب سعد فى العشرين من شهر مارس

ولم تكن هذه الدعوة ابتغاء الوساطة فى لقاء بين الوفد واللجنة كما أشاع بعضهم فى تلك الأيام . فقد كان ملز فى الشرق حتى ذلك اليوم ، وكان محتملا أن يمر بباريس عند عودته خلال ذلك الأسبوع ، قبل ذهاب عدلى الى باريس على أى تقدير

وانما دعاه سعد لأنه أراد أن يعرف بالمحادثة ما لا يعرف بالمراسلة ، وأن يطلع على الحقيقة قبل أن يبت بالرأى الحاسم فى مسألة اللجنة ، عن يقين لا تشوبه الظنون .

وهنا بدرت من عدلى بادرة جديدة من البوادر التى لا تنى تدل على نيات الوزراء « الأصدقاء » فيما يتخذون من علاقة بسعد خاصة وبالوفد عامة ، فلما أبرق سعد الى عدلى يرجوه « تقديم موعد حضوره الى باريس بقدر المستطاع » كان هم عدلى الأول أن يتمسك على سعد وعلى الوفد بوثيقة مفصلة قبل أن يجيب هذه الدعوة ؛ .. فأبرق اليه يقول انه « قبل تعيين ميعاد السفر يكون سعيدا لو تسلم خطابا تفصيليا منكم » . . . وليس هذا مسلك تعاون خالص ولكنه مسلك تقييد بالأسانيد المكتوبة . . . قد يكون فيه مصلحة لعدلى ولكن لا مصلحة فيه للقضية المصرية ولا للساعى المنتظرة فى المستقبل . فان القضية المصرية لا تستفيد من وثيقة يبسط فيها الوفد أغراضه المفصلة قبل الاطلاع على فحوى الحالة كلها من محادثة عدلى والموازنة بين المعلومات الأخرى

لقد كان عدلى ينتظر من الوفد خطابا « مفصلا » يكشف فيه نياته نحو

اللجنة ونحو مستقبل المفاوضة ان كانت هناك مفاوضة . فأى مصلحة وطنية في كشف هذه النيات ؟ ولماذا هذا الحرص على تقييد الوفد بخطة مفصلة قبل تعيين موعد السفر ؟ ليس في ذلك الا أنه دليل على بواطن السرائر وعلى الفرق بين مسلك المعاونة الخالصة ومسلك التمسك بالوثائق والقيود كما يتمسك الخصوم

وغنى عن القول أن سعداً لم يجب هذا الطلب الغريب ، ولكنه كرر الرجاء على عدلى بالاسراع في السفر « لتبادل الآراء »

فبرح الاسكندرية في السادس عشر من أبريل ، ووصل الى باريس في الثانى والعشرين منه ، وفى هذا دليل على أن الغرض الأول من دعوته لم يكن هو السعى في تدير مقابلة أو تدير مصادقة للقاء بين الوفد وأعضاء اللجنة الملترية أثناء اجتيازهم بالعاصمة الفرنسية ، وإنما كان الغرض الأكبر منه استيفاء المعلومات التى ينبغى عليها رسم الخطوة التالية بعد تجربة اللجنة في البلاد المصرية

أما اللورد ملتر فقد عاد من مصر وهو يعتقد أن مفاوضة الوفد أمر لا يحىص منه قبل تقرير النظام الذى يوصى الحكومة البريطانية باتباعه ، لأنه اذا فرض نظامه فرضاً على الأمة المصرية قابلته لاحتالة بالنفور والمقاومة وضاعت المنح التى لعله يوصى بها هدراً في تيار هذه المقاومة ، فلا هو احتفظ بها للساومة والآخذ والعطاء ولا هو أرضى الأمة المصرية ، ولا هو جرى على سنة تقرير المصير التى يهم الدولة البريطانية أن تجرى عليها بعد شيوعها على الألسنة في أثناء مؤتمر الصلح ، والتحدث بمبادئ الرئيس ويلسون ، وقيام عصبة الأمم الجديدة بما لها من حق الاشراف على الوصاية والانتداب وما اليهما من العلاقات بين الدول القوية والأمم التى لا تملك استقلالها وسيادتها . وخير للحكومة البريطانية أن تعامل مصر على أساس التعاهد والاتفاق من أن تحسبها غنيمة مملوكة تدخل في حساب المقايضات والمنافسات بين الدول الاستعمارية . فان معاملة مصر على هذا الأساس تخرج بها من حساب

المقايضات والمنافسات وتحفظ لبريطانيا العظمى سمعة الديمقراطية وحسن العلاقة بينهما وبين الشعوب العزلاء المطالبة بحقوق الحرية

ورأى اللورد ملنر أنه لو أهمل الوفد المصرى كل الاهتمام ومضى فى وضع تقريره بغير اكترات به ولا رجوع اليه لأوجب على الوفد خطة المقاومة وعلى الأمة أن تجاريه فى هذه الخطة ، وقطع الرجاء فى أعضائه « المعتدلين » والمتطرفين على السواء فلا ينشط منهم أحد - بعد اهمالهم أجمعين - لترويج المقترحات المعروضة على الأمة وجلب الأنصار اليها ، ولو وافقته تلك المقترحات

ثم ما العمل فى الوزارة التى تبرم المعاهدة وتستغنى فيها الأمة ؟ أيولفها الانجليز من المنبوذين الذين لا مطمع لهم فى أنصار كثيرين أو قليلين ؟ ان فعلوا ذلك فرفض المعاهدة محقق بغير جدوى ، وقد يجر ذلك إلى مجافاة « الوزراء الأصدقاء » أيضا والجالهم مختارين أو غير مختارين إلى مسaire الوفد والاجماع ، والوقوف من المقترحات موقف المعارضة أو الاعراض . أما إن كان الانجليز يؤلفون الوزارة من عدلى ورشدى وأصحابهما فهل يرجو اللورد ملنر منهما أن يقبلا تأليفها بمعزل عن الوفد كله دون أن يطمعا فى تأييده أو تأييد فريق من أعضائه ؟ انهما لا يقدمان على ذلك كما يعلم اللورد ملنر ، وخير ما يرجوه منهما أن ينتظرا حتى تسكون هناك مفاوضات مع الوفد ويكون هناك أمل فى استمالة بعض الأعضاء الموافقين على المقترحات ، فهما يقدمان حينئذ على تأليف الوزارة بتأييد من أولئك الأعضاء .

فكل عمل كان يعمل ملنر قبل مفاوضة الوفد عيب

عيب أن يلقى إلى الأمة بمقترحات يقاطعها الوفد بالاجماع وهو معذور لديها ولدى جميع المنصفين

وعبث أن يسلم المقترحات إلى وزارة مبنوذة تجنى عليها من البداية
وعبث أن يطمع في قيام وزارة عدلية تناصب الوفد العداء ولا تعتمد
من أعضائه على أحد
فمفاوضة الوفد هي الطريق الوحيد الذي لا طريق غيره ، وعلى هذه
العزيمة عاد ملنر من القاهرة بغير جدال . فلا اعتداد بما قيل يومئذ عن وساطة
الوسطاء وكياسة الأكياس الذين جذبوا اللورد ملنر الى مفاوضة الوفد على
غير قصد منه ولا ارتياح ، ولا يزالون ينقذون سعداً من الورطات كلما احتاج
الأمر الى وساطة او كياسة !

غير أن اللورد ملنر يعلم أن سعداً يرفض المفاوضة مع لجنة يقال انها
لجنة تحقيق تبحث عن شكايات المصريين وتنظر في تنظيم الحماية ، ولكنه
يفاوضها على اعتباره وكيلا عن الأمة يطلب لها الاستقلال التام ويسعى
في الغاء الحماية . فلا بد من تمهيد يصحح الأمور وينفي عن المفاوضة صبغة
الاعتراف بالحماية والخروج عن حدود التوكيل ، ولهذا أوعزت الحكومة
البريطانية إلى أحد النواب أن يلقي سؤالاً في نحو منتصف شهر مايو يقول
فيه : « هل صحيح أن لجنة اللورد ملنر قد ذهبت الى مصر لتثبيت الحماية
البريطانية عليها ومن أجل ذلك كان معقولا أن يحفل المصريون منها ؟ »
فأجابه مستر بونارلو قائلاً : « كلاً لم يكن هناك شيء من ذلك ، ولكن اللجنة
قصدت الى مصر لتشير بأحسن النظم الصالحة لحكم البلاد »

وفي تلك الجلسة بعينها التى مستر كنورثي سؤالاً في هذا الموضوع فقال
مستر بونارلو جواباً عليه : « لو كان الممثلون المصريون على استعداد للمناقشة
في الضمانات المعقولة الكافية لصيانة المصالح البريطانية فيما يتعلق بقناة
السويس والمصالح التجارية والمالية مقابلة لوعده بريطانيا العظمى باحترام
استقلال مصر لكانوا اغتتموا فرصة بلاغ اللورد ملنر الذي نص على اطلاق
حدود المناقشة »

وقد سأل المستر كنورثي بعد ذلك : « هل من الممكن مع هذا أن يفتح باب المناقشة من جديد حتى يتيسر الوقوف على رأى هؤلاء السادة المصريين فى الاتفاق الذى سيعقد بين البلدين ؟ »

فقال مستر بونارلو : « اثنى على يقين من أن كل مناقشة يكون من ورائها نتيجة مرضية تقبل بلا ابطاء . ولكن يجب أن تقدر الحكومة فائدة هذه المناقشة والنتائج التى تنتظر من ورائها »

وقابل سعد هذه التصريحات بما يناسبها فقال لمراسل صحيفة الجورنال حين سأله فى هذا الصدد : « لا أنكر قيمة هذه التصريحات ولا أنكر أن فيها ما يقرب المسافة بين وجهة النظر الانجليزية ووجهة النظر المصرية على شريطة أن يصاحبها ما يجعلنا نترقب لها نتائج فعلية ، ومن الصعب مع هذا أن يعرف الآن ما تراه مصر فى هذه التصريحات . اذ يجب أن لا يعزب عن الذهن ان انجلترا عدلت أخيراً بمحض ارادتها وبغير استشارتنا نظام وراثه العرش بمصر ، وليس هذا بخير السبل للتقريب بين البلدين بأواصر الثقة والمودة وانما تكسب مودة المصريين وثقتهم بالاعتراف باستقلالهم والكف عن التعرض لخاصة شئونهم »

ثم قال سعد : « إنه لا يوافق مستر بونارلو على قوله إن المصريين ضيعوا فرصة المناقشة مع لورد مانر » وأضاف الى ذلك أنهم لم يتلقوا دعوة من لورد مانر للمفاوضة باعتبارهم ممثلين للأمة المصرية ، ثم سأله المراسل : هل هو على استعداد للمفاوضة على أساس اعطاء الضمانات المعقولة لمصالح انجلترا فى قناة السويس ومصالحها التجارية والمالية إذا هى وفّت بعهودها ؟ فقال : « اننا مستعدون لاعطاء كل الضمانات المعقولة للتوفيق بين مصالح انجلترا واستقلال مصر ، ولا نرفض الدخول فى المفاوضات اللازمة باعتبارنا وكلاء الأمة المصرية إذا كان من وراء ذلك الوصول الى هذه النتيجة »

وعقب ذلك بإيام وصل الى باريس مستّر سسل هيرست أحد زملاء

ملئنا دعوة الوفد الى الاجتماع باللجنة في لندن للمناقشة في قواعد الاتفاق بين مصر وبريطانيا العظمى ، ففضل الوفد — كما جاء في رسالة سعد الى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة — أن ينوب عنه محمد محمود باشا وعبد العزيز فهمى بك وعلى ماهر بك في السفر الى لندن لاستطلاع الحالة والتحقق من استعداد بريطانيا العظمى نحو استقلال مصر قبل الانتقال بهيئته السكاملة الى العاصمة الانجليزية . وقد لقي هؤلاء الأعضاء اللورد مائر فذكر لهم أن انجلترا تعترف باستقلال مصر التام إذا هي ضمننت مصالحها الخاصة وانتهت من المفاوضة الى هذه النتيجة ، فكتبوا الى سعد بما سمعوه وشفعوا ذلك باستحسان حضور الوفد كله الى لندن للبدء في المفاوضة ، فابى الدعوة وأبرق إلى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة يعلن الأمة اعتزام السفر في الخامس من شهر يونية عسى أن يصلوا بالمفاوضات إلى حل مرضى « مستمدين القوة من اتحاد الأمة وحكمة أبنائها ، والحجة من وضوح الحق والمعونة من الله ناصر الضعفاء »

ولسنا نعرف مبلغ ما كان يرجوه سعد للقضية المصرية من وراء هذه المفاوضة ، ولكنه لم يكن مستطيعا أن يرفضها دون أن يعرض الوفد لانشقاق والتنازع ويهيء للمغرضين أسباب اتهامه بتضييع الفرص وسوء السياسة ، والخوف من مواجهة الحقيقة التي اضطلع بها دون أن يعتمد على وسيلة أخرى مضمونة الفلاح والجدوى . وهولو رفض المفاوضة مكتفيا بنشر الدعوة بين الشعوب الأوربية لم يعد هتالك من يلقى عليه اللوم ويرى بريطانيا العظمى من التهمة ، لأنها مهدت له سبيل التفاهم والمناقشة الحرة فأعرض هو عنها وأشفق على نفسه وعلى أمته من مناقشتها ومساجلتها ! وفى وسعه أن يعود إلى نشر الدعوة متى احتاج اليها يوم ينجلي سوء النية من جانب السياسة البريطانية ، وينجلي عذر المصريين في رفض مفاوضاتها بعد الاستجابة اليها . ولكن ليس فى وسعه أن يقنع الناس جميعاً بفشل المفاوضة قبل الدخول فيها ، ولا أن يمنع الفتنة أن تدب ديبها بين أعضاء الوفد ، ومنهم من ود لو

رجع سعد الى القاهرة وقبل نصيحة « الوزراء الأصدقاء » حين زينوا له
مفاوضة اللجنة الملنرية قبل رجوعها الى بلادها ، فاذا رفض مقاضتها في
هذه المرة وأغلق باب المفاوضة اغلاقاً لارجعة فيه فماذا ينتظرون وعلام
يصبرون ؟

ومن العجز أن يتهم الانسان نفسه ويتهم قومه بالخوف من المناقشة
لاظهار حقهم واثبات مطالبهم . فاذا كان مقدوراً للوفد أن يختلف لامناس
تخير للأمة المصرية أن يختلف بعهد المفاوضة من أن يختلف قبلها ، لأن
الخلاف يومئذ يكون على أمور مذكورة مسطورة تظهر من ورائها النيات
والدعاوى ويسهل الدفاع عنها وبيان وجه القوة والضعف في جانبيها ، ولكن
الخلاف قبل المفاوضة إنما تقوم به حجة من يقبلونها وتسقط به حجة من
يرفضونها ، ويتاح لمن يشاء أن يتهم الراضين بالعبث والتعنت واهمال
الوسائل المعروضة ، لأسباب مبهمه أو لغير سبب على الاطلاق

وقد وزن سعد بين جميع الدواعي والموانع فاستقر رأيه على اجابة الدعوة
واعترزم السفر ووصل الى لندن في مساء الخامس من شهر يونية ومعه زملاؤه
فاستقبلهم المصريون هناك أحسن استقبال . وتمت المقابلة الأولى بينهم
وبين لجنة ملنر في اليوم السابع فقام بالتعريف بين الفريقين عدلى باشا الذى
كان قد سبق أعضاء الوفد الى العاصمة الانجليزية . وبدأت المفاوضة فى اليوم
التاسع ، فبسط اللورد ملنر عرض الحكومة البريطانية منها وهو عقد اتفاق
ودى بين الامتين الانجليزية والمصرية تعترف فيه باستقلال مصر وتطمئن
به الى الضمانات الضرورية لمصالحها ومصالح الأجانب واستقرار النظام
والسكينة ، ومن هذه الضمانات إقامة حامية عسكرية فى أما كن يقرر ها الخبراء
وابداء الرأى فى التشريع الذى يمس الأجانب الى أن ينزلوا لبريطانيا العظمى
عن امتيازاتهم التى تعوق استقلال البلاد ، وتوطيد حكومة ملكية دستورية
ينص عليها فى المعاهدة

ثم دارت المناقشة بجلسة أخرى في مسألة المستشارين الانجليز وغيرها من المسائل التي تلحق بها ، وكان وكلاء الوفد في جنسات المناقشة رئيسه ومحمد محمود باشا وأحمد لطفي السيد بك ، ووكلاء اللجنة الملمرية رئيسها ومستر رنل رود ، ويحضر عدلى باشا الاجتماعات برضى من الطرفين

ولانطيل في سرد التفاصيل ، فالحلاصة أن البحث انتهى منتصف شهر يوليو الى تدوين كلا الطرفين مذكراته بما فهمه كلاهما من نتائج المناقشات السابقة . فاشتملت مذكرة اللجنة الملمرية على ما يأتى :

« استبدال الحالة الحاضرة بمعاهدة تحالف دائم بين بريطانيا العظمى ومصر يشترط فيها :

« أولاً » تتعهد بريطانيا العظمى بضمان سلامة مصر واستقلالها باعتبارها دولة ملكية ذات أنظمة دستورية

« ثانياً » تتعهد مصر من جهتها بان لا تعقد معاهدة سياسية مالمع دولة أخرى بغير موافقة بريطانيا العظمى

« ثالثاً » نظراً للتبعية التي أخذتها بريطانيا العظمى على عاتقها في المادة السابقة ونظراً لما لبريطانيا العظمى من المصلحة الخاصة في حماية المواصلات في أملاكها بالشرق والشرق الأقصى تمنح مصر بريطانيا حق ابقاء قوة عسكرية على الارض المصرية واستخدام الموانئ والمطارات المصرية لضمان الدفاع عن مصر وحماية مواصلات بريطانيا العظمى مع تلك الاملاك . أما الموضع أو الموضع التي تعسكر فيها الجنود فتعين في المعاهدة

« رابعاً » توافق مصر على تعيين مستشار مالى بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك تعهد اليه جميع السلطات التي لأعضاء صندوق الدين الآن لحماية حملة الاسناد المصرية ، ويكون تحت تصرف الحكومة المصرية لاسكل أمر آخر ترغب في استشارته فيه .

« خامساً » تتعهد بريطانيا بمساعدة مصر في تحرير نفسها من القيود التي تقيد حريتها في التشريع والادارة بسبب الامتيازات والضمانات التي يتمتع بها الأجانب في مصر . وأن تساعد في إقامة نظام يكون من شأنه تطبيق القانون المصري على المصريين والأجانب على حد سواء

« سادساً » نظراً لتخلي الدول الأجنبية عن الامتيازات الخاصة التي يتمتع بها رعاياها حتى الآن ، ولضرورة تأمين تلك الدول على أن حقوق الأجانب المشروعة ستحترم مع هذا ، تمنح مصر بريطانيا العظمى حق التدخل بواسطة معتمدها في مصر لتوقف تنفيذ أي قانون يخالف حقوق الأجانب المشروعة أو يخالف المتبع في البلاد المتقدمة . وإذا ادعت الحكومة المصرية في حالة من الحالات أن حق التدخل هذا استخدم استخداماً لا ينطبق على العقل فيصح عرض الأمر على عصبة الأمم .

« سابعاً » يبقى نظام المحاكم المختطة أو أي نظام آخر مساو له يحل محله ويوسع بحيث يتناول القضايا الجنائية وجميع القضايا الأخرى التي تمس الأجانب في مصر .

« ثامناً » توافق مصر على تعيين موظف بريطاني في وزارة الحقاينة بالاتفاق مع حكومة جلالة الملك ، يكون له مركز وسلطة تكفي لتمكينه من ضمان تنفيذ القانون تنفيذاً عادلاً فيما له مساس بالأجانب .

« تاسعاً » ترضى حكومة جلالة الملك بأن تأخذ على عاتقها تمثيل مصر في أية دولة لا يعين فيها معتمد مصر ، ولكن مصر لا تعهد بتمثيلها على هذا النحو إلى أية دولة غير بريطانيا العظمى .

« عاشراً » تعترف الحكومة المصرية بأن لمركز المعتمد البريطاني في مصر صفة خاصة ؛ وأنه باعتباره يمثل دولة حليفة تكون له الأولوية على جميع المعتمدين الآخرين

« حادى عشر » يسوى مركز من عدا المذكور فى المواد السابقة من الموظفين البريطانيين والأجانب باتفاق خاص يعقد بين الحكومتين البريطانية والمصرية يعد جزءاً من الاتفاق الذى يعقد بينهما »

وظاهر من هذا المشروع أنه لم يخرج بمصر عن الحماية الصريحة فى أضيق حدودها ، وأن اللجنة لم تتقرب به خطوة واحدة الى موقف المصريين ولم تزد على أن جمعت فيه ما تريده بريطانيا العظمى بخذافيه إلى أقصى مداه ، وليس فيه شئ يصح أن يقال إنه كان موضع تفاهم واتفاق بين المندوبين الانجليز والمندوبين المصريين ، لأنه دون المطالب من جانب واحد ولم يتزحزح فيها قيد أنملة إلى جانب المطالب الأخرى

أما مذكرة الوفد التى أرسلها بعد وصول هذه المذكرة اليه بيوم واحد فقد لاحظ فيها الرغبة الصحيحة فى الاتفاق ولم ينس حدود وكالته التى يجب عليه التزامها . وقد صدرها بسعد بكتاب قال فيه :

« إنى أبادر فأعرض على نغامتكم طى هذا مشروع اتفاق يحوى النقط التى جرت المناقشة بشأنها فى أحاديثنا ، وهى النقط التى يلوح لى أنكم تقبلونها » . . .

« ونحن نعتقد أن هذا المشروع — بالصفة التى هو عليها — من شأنه أن يرضى الطرفين . فعلى هذه القواعد يمكننا أن نضع دعائم صداقة متينة ، وتعاون عماده الاخلاص بين الشعبين الانجليزى والمصرى . ومن المتفق عليه بيننا أن النقط التى لم تبحث بعد تكون موضوع اتفاق يعقد فيما بعد » ثم قال : « ولى الثقة التامة بأن أعمالنا التى توليتم رآستها بتلك الكياسة يمكن أن تنتهى قريباً بحيث يتيسر لى السفر إلى شاتل وفيشى قبل فصل الخريف للاستشفاء الذى لا بد منه لصحتى على ما يظهر »

وأتبع ذلك بالمذكرة وهذه ترجمتها :

« أولاً » تعترف بريطانيا العظمى باستقلال مصر . وتنتهى الحماية التى أعلنتها بريطانيا العظمى على مصر والاحتلال العسكرى البريطانى . وبهذا تسترد مصر كامل سيادتها الداخلية والخارجية وتؤلف دولة ملكية ذات نظام دستورى .

« ثانياً » تسحب بريطانيا العظمى جنودها من الأرض المصرية فى مدة . . . ابتداء من وقت نفاذ المعاهدة الحالية .

« ثالثاً » تتعهد الحكومة المصرية بأنها عند استخدام حقها فى الاستغناء عن خدمات الموظفين الانجليز تعامل هؤلاء الموظفين المعاملة الممتازة التالية : فيما عدا الاقالة لبلوغ نهاية سن الخدمة أو عدم القدرة على العمل أو الأحكام التأديبية أو انتهاء مدة التعاقد والاستخدام — يمنح الموظف الذى يقال من الخدمة تعويضاً إضافياً مقداره مرتب شهر عن كل سنة من سنى خدمته . وتتناول هذه المعاملة الممتازة الموظفين الذين يتركون خدمة الحكومة المصرية من تلقاء أنفسهم فى بحرسنة من نفاذ هذه المعاهدة .

« رابعاً » لتخفيف وطأة نظام الامتيازات الى حين إلغائها تقبل مصر أن تستخدم بريطانيا باسم الدول حقوق الامتيازات التى لهذه الدول الآن ويكون ذلك بالصفة الآتية :

« ١ » تكون الاضافات والتعديلات فى النظام القضائى المختلط معلقة على موافقة بريطانيا العظمى

« ب » جميع القوانين الأخرى التى لا يمكن أن تسرى الآن على الأجانب المتمتعين بالامتيازات إلا بعد موافقة الدول أو مداولة الجمعية التشريعية للمحكمة المختلطة أو جمعيتها العمومية تصير نافذة عليهم بموجب قرار يسن لذلك . إلا إذا عارضت الحكومة البريطانية فى ذلك ، وتبلغ هذه المعارضة

لوزير الخارجية المصرية في مدة من نشر القرار في الجريدة الرسمية .
ولا تكون المعارضة إلا فيما يحتويه القانون من أمور لا مثيل لها في أى
تشريع من تشريعات الدول المتمتعة بالامتيازات ، أو إذا كان القانون خاصاً
بضرائب وكان في هذه الضرائب اجحاف بالأجانب دون الوطنيين

وفي حالة اختلاف الحكومتين على أحقية هذه المعارضة يكون لمصر
أن تعرض المسئلة على عصبة الأمم للبت فيها

« خامساً » في حالة إلغاء محاكم القنصليات وأحوال النظر في الجرائم والجنح
التي يرتكبها الأجانب إلى المحاكم المختلطة توافق مصر على تعيين أحد رجال
القضاء البريطانيين في مركز النائب العام لدى المحاكم المختلطة

« سادساً » تقرر الحكومة البريطانية بأنها على استعداد لأن تنظر مع
الحكومة المصرية بعد خمس عشرة سنة في مسألة أبطال تقييد سيادة الحكومة
المصرية الداخلية الناشئ من الامتيازات التشريعية والقضائية التي للأجانب
وتحفظ مصر لنفسها الحق عند الاقتضاء في عرض هذه المسألة على عصبة
الأمم بعد مضي المدة المتقدمة »

« سابعاً » في حالة إلغاء لجنة الدين العمومي تعيين مصر موظفاً سامياً
تقترحه بريطانيا العظمى وتكون له الاختصاصات الحالية التي للجنة الدين .
ويكون الموظف السامي المذكور تحت تصرف الحكومة المصرية لكل
الاستشارات أو المهمات التي ترى تكليفه بها في المسائل المالية

« ثامناً » للحكومة البريطانية — إذا رأت ضرورة — أن تنشئ على
تفقها نقطة عسكرية على الضفة الاسيوية لقناة السويس للاشتراك في دفع
أى اعتداء أجنبي يحتمل حدوثه على القناة . وتعين حدود هذه النقطة فيما بعد
بواسطة لجنة من خبراء حربيين يعين كل فريق نصفهم . ومن المتفق عليه أن
إقامة هذه النقطة لا يخول بريطانيا أى حق للتدخل في شؤون مصر ولا يمكن
أن يمس بأية حالة من الحالات حقوق السيادة التي لمصر على المنطقة المذكورة

التي تبقى خاضعة لسلطة مصر بحكومة بقوانينها ، كما أن إقامة النقطة لا يقيد السلطات التي اعترف بها لمصر بموجب اتفاق الاستانة المعقود في سنة ١٨٨٨ خاصاً ببحرية قناة السويس . وبعد مضي عشر سنوات من تاريخ سريان المعاهدة الحالية يفحص الطرفان المتعاقدان مسألة ما إذا كان بقاء تلك النقطة لم يصبح غير ضروري ، وما إذا كان يصح أن يترك لمصر وحدها تولى حماية القناة ، وفي حالة الخلاف تعرض المسئلة على عصبة الأمم

« تاسعاً » في حالة ما إذا لم تجد مصر التي لها الحق المطلق في تعيين سفراء لها — ضرورة لتعيين ممثل سياسي مصري في أى بلد من البلدان تعهد بالمصالح المصرية في هذا البلد إلى ممثل بريطانيا العظمى الذي يتبع تعليمات وزير الخارجية المصرية

« عاشراً » يعقد الطرفان المتعاقدان بالعقد الحالي مخالفة دفاعية للغايات التالية : —

« ١ » تتعهد بريطانيا العظمى بالمساعدة على الدفاع عن الأرض المصرية ضد كل اعتداء تقوم به دولة أجنبية

« ب » في حالة وقوع اعتداء من دولة أوربية على الامبراطورية البريطانية تتعهد مصر — ولو لم تكن سلامة أرضها مهددة مباشرة — بأن تقدم لبريطانيا العظمى في أرضها تسهيلات المواصلات والنقل لحاجاتها الحربية ، ويحدد اتفاق خاص طرق هذه المساعدة

« حادى عشر » تتعهد مصر أيضاً بأن لا تعقد أية معاهدة تحالف مع دولة أخرى دون اتفاق سابق مع بريطانيا العظمى

« ثانى عشر » هذه المخالفة معقودة لمدة ثلاثين عاماً يمكن الطرفين المتعاقدين بعد انتهائها النظر في أمر تجديدها

« ثالث عشر » تكون مسألة السودان موضوع اتفاق خاص

« رابع عشر » جميع النصوص المخالفة للمواد الحالية والواردة في جميع المعاهدات الأخرى خاصة بمصر تعتبر ملغاة وكأنها لم تكن

« خامس عشر » تودع المعاهدة الحالية في مكتب عصبة الأمم لتسجيلها بها . وتقر الحكومة البريطانية من الآن بأنها توافق فيما يختص بها على دخول مصر عصبة الأمم دولة حرة مستقلة

« سادس عشر » تصير المعاهدة الحالية سارية المفعول بمجرد تبادل عقود ابرامها بين الطرفين المتعاقدين . ويكون ابرامها فيما يختص بمصر على أثر اقرارها بواسطة جمعية قومية تعقد الاقتراع على الدستور المصرى الجديد »

هذا هو مشروع الوفد كما لخصه في مذكرته ، وظاهر منه كما أسلفنا أنه مشروع أناس يحدون في طلب الوفاق ما استطاعوا ولا يلعبون بالالفاظ في التقريب بين حقوق الاستقلال ومصالح بريطانيا العظمى التي لا تفرضها على مصر وعلى العالم إلا بحكم القوة . وقد احتفظوا من معالم السيادة الوطنية بالقسط الضرورى الذى لا ترضى أمة تطلب الاستقلال بأقل منه ، فمن يطالبهم بالتبرع من تندهم بقبول قسط أقل من هذا فهو كأنما يطالب الأمة المصرية بالثورة والتضحية لغير نتيجة إلا أن تصحح مركز بريطانيا العظمى في مصر وتزودها بقوة النصوص المشروعة والموافقة الودية فوق ما لها من قوة السلاح والسطوة ! وهو أمر لا يعقل أن يكون موضع اتفاق ومفاوضة بين طرفين وفيه الربح كل الر . من جانب والخسارة كل الخسارة من الجانب الآخر ... وإنما المعقول المفهوم أن يكون ما قبله الوفد أقل ما يسعه قبوله مادام المرجع فيه إلى الاختيار والاتفاق ، فإذا تجاوز هذا الحد فهو يعطى بريطانيا العظمى كل مزايا الاتفاق الحر ويؤم — والأمة المصرية معه — بكل مساوىء الاكراه ، ومع هذا استغربوا في انجلترا « جراته » كما سموها

وقالوا إن سعداً يحسب أنه هزم الدولة البريطانية ويملي عليها شروطه أملاً .
الظافر في ميدان القتال !

توقفت المفاوضات . وقبل إنها تنقطع أو انقطعت لأن الوفد رفض
مذكرة اللجنة كما رفضت اللجنة مذكرة الوفد . ثم توسط عدلى يكن باشا في
الامر . فاضطر سعد إلى أرجاء السفر ريثما تتم هذه الوساطة ، وبقي في لندن
حتى تسلم مذكرة اللجنة الثانية في الخامس من شهر أغسطس فانفتح بها باب جديد
للمناقشة وجرى التعديل مرة أخرى في بعض العبارات ، وتعذر الاتفاق على
جميع المسائل فاستمر البحث فيها إلى منتصف أغسطس ، وهنا اختلفت آراء
الأعضاء بين القبول والرفض ومعظمهم إلى القبول . واقترح بعضهم عرض
المشروع الأخير على الأمة لتبدي ملاحظتها عليه ثم يعاد بحثه بين الوفد
واللجنة بعد الوقوف على جملة الآراء ومواضع الملاحظة والاستدراك .

ويغلب أن يكون هذا الاقتراح ايزيا في منشئه ، أو حاه إلى اللجنة ما كانت
تسمعه من سعد وزملائه من الاعتذار بوكالة الأمة وتعذر الخروج عن حدود
هذه الوكالة ، لأن الأمة ترفض كل ما يخرج على تلك الحدود لا محالة ولوقبله
الأعضاء . فكان أعضاء اللجنة يقولون انما الوكالة برنامجكم أتم وفي أيديكم أن
ترجعوا اليه بالتعديل والتجوير ان اقتنعتم بصواب ما تعرضونه على الأمة
التي أوكلتكم ، وكان من الطبيعي أن يخطر للجنة اقتراح الرجوع إلى الأمة
تخلصاً في هذا الاعتذار ، وسعياً وراء الخلاف ان لم يكن سعياً وراء الاقتناع

فتردد سعد في العمل بالاقتراح مخافة الانقسام والشتات . ولكنه رأى
بوادر الانقسام والشتات تبدو في داخل الوفد فاثّر أن يتداركها وأن
يرجيء ظهورها ما استطاع ، وهو يرجو أن يستعين بجملة رأى الأمة على معالجة
تلك البوادر أملاً في رأب الصدع وتوحيد الصفوف . فتقرر إيفاد أربعة من

الاعضاء إلى القاهرة وهم محمد محمود واحمد لطفي السيد وعبد اللطيف المكياني وعلى ماهر ينضم إليهم في القاهرة مصطفى النحاس ووريصا واصف وحافظ عفيفي لعرض الموضوع على طوائف الامة واستطلاع رأيهم فيه وتقييد ملاحظاتهم عليه ، والرجوع بها الى الوفد في النهاية لاستئناف البحث فيها جميعاً مع اللجنة الملترية ، وان كان رئيسها قد أعلن أن المشروع تضمن أقصى ماتوصى به اللجنة وتطمع في اقراره من لدن الحكومة البريطانية ، وأنها تشك في اقرارها لبعض ما فيه

وعلى هذا سافر سعد من لندن في السادس عشر من شهر أغسطس وتبعه الاعضاء في اليوم التالي وتبعهم عدلى في اليوم الذى بعده ، وهذه صيغة المذكرة التى تم الاتفاق على استطلاع رأى الامة فيها :

قواعد الاتفاق

(١) لأجل أن يبنى استقلال مصر على أساس متين دائم يلزم تحديد العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر تحديداً دقيقاً ، ويجب تعديل ما تتمتع به الدول ذوات الامتيازات في مصر من المزايا وجعلها أقل ضرراً بمصالح البلاد

(٢) ولا يمكن تحقيق هذين الغرضين بغير مفاوضات جديدة تحصل للغرض الأول بين ممثلين معتمدين من الحكومة البريطانية وآخرين من الحكومة المصرية . ومفاوضات تحصل للغرض الثانى بين الحكومات البريطانية وحكومات الدول ذوات الامتياز . وجميع هذه المفاوضات ترمى الى الوصول الى اتفاقات بنيت على القواعد الآتية :

(٣) أولاً: تعقد معاهدة بين مصر وبريطانيا العظمى تعترف بريطانيا العظمى بموجبها باستقلال مصر كدولة مملكية دستورية ذات هيئات نيابية وتمنح مصر بريطانيا العظمى الحقوق التى تلزم لصيانة مصالحها الخاصة ،

ولتمكينها من تقديم الضمانات التي يجب أن تعطى للدول الأجنبية لتحقيق
تخلي تلك الدول عن الحقوق المخولة لها بمقتضى الامتيازات

ثانياً : تبرم بموجب هذه المعاهدة نفسها مخالفة بين بريطانيا العظمى ومصر
تتعهد بمقتضاها بريطانيا العظمى أن تعضد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها.
وتتعهد مصر أنها في حالة الحرب ، حتى ولو لم يكن هناك مساس بسلامة
أرضها ، تقدم داخل حدود بلادها كل المساعدة التي في وسعها لبريطانيا
العظمى ومن ضمنها استعمال ما لها من الموانئ وميادين الطيران ووسائل
المواصلات للأغراض الحربية

(٤) تشمل هذه المعاهدة أحكام للأغراض الآتية :

أولاً : تتمتع مصر بحق التمثيل في البلاد الأجنبية ، وعند عدم وجود
مثل مصرى معتمد من حكومته تعهد الحكومة المصرية بمصالحها إلى الممثل
البريطاني ، وتعهد مصر بأن لا تتخذ في البلاد الأجنبية خطة لا تتفق مع
المخالفة أو توجد صعوبات لبريطانيا العظمى ، وتعهد كذلك بأن لا تعقد مع
دولة أجنبية أى اتفاق ضار بالمصالح البريطانية

ثانياً : تمنح مصر بريطانيا العظمى حق ابقاء قوة عسكرية في الأرض
المصرية لحماية مواصلات الامبراطورية . وتعين المعاهدة المكان الذي تعسكر
فيه هذه القوة ، وتسوى ما يستتبعه من المسائل التي تحتاج الى التسوية ،
ولا يعتبر وجود هذه القوة بأى وجه من الوجوه احتلالاً عسكرياً للبلاد ،
كما أنه لا يمس حقوق حكومة مصر

ثالثاً : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية مستشاراً يعهد اليه في
الوقت عينه بالاختصاصات التي لصندوق الدين ، ويكون تحت تصرف
الحكومة المصرية لاستشارته في جميع المسائل الأخرى التي قد ترغب في
استشارته فيها

رابعاً : تعين مصر بالاتفاق مع الحكومة البريطانية موظفاً في وزارة

الحقانية يتمتع بحق الدخول على الوزير ويجب احاطته علماً على الدوام بجميع المسائل المتعلقة بإدارة القضاء فيما له مساس بالأجانب ؛ ويكون أيضاً تحت تصرف الحكومة المصرية لاستشارته في أى أمر مرتبط بحفظ الأمن العام

خامساً : نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها إلى الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات إلى الحكومة البريطانية تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التدخل بواسطة ممثلها في مصر لتمنع أن يطبق على الأجانب أى قانون مصرى يستدعى الآن موافقة الدول الأجنبية . وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها ألا تستعمل هذا الحق إلا حيث يكون مفعول القانون جائراً على الأجانب

صيغة أخرى لهذه الفقرة

« نظراً لما في النية من نقل الحقوق التي تستعملها الآن الحكومات الأجنبية المختلفة بموجب نظام الامتيازات إلى الحكومة البريطانية ، تعترف مصر بحق بريطانيا العظمى في التدخل بواسطة ممثلها في مصر لتمنع أن ينفذ على الأجانب أى قانون مصرى يستدعى الآن موافقة الدول الأجنبية . وتتعهد بريطانيا العظمى من جانبها أن لا تستعمل هذا الحق إلا في حالة القوانين التي تتضمن تمييزاً جائراً في مادة فرض الضرائب أو لا توافق مبادئ التشريع المشتركة بين جميع الدول ذوات الامتيازات

سادساً : نظراً للعلاقات الخاصة التي تنشأ عن المحالفة بين بريطانيا العظمى ومصر يمنح الممثل البريطانى مركزاً استثنائياً في مصر ويخول حق التقدم على جميع الممثلين الآخرين

سابعاً : الضباط والموظفون الإداريون ، من بريطانيين وغيرهم من الأجانب الذين دخلوا خدمة الحكومة المصرية قبل العمل بالمعاهدة يجوز انتهاء خدمتهم بناء على رغبتهم أو رغبة الحكومة المصرية في أى وقت خلال

سنتين بعد العمل بالمعاهدة ، وتحديد المعاهدة المعاش أو التعويض الذى يمنح للوظفين الذين يتركون الخدمة بموجب هذا النص زيادة على ما هو مخول لهم بمقتضى القانون الحالى . وفى حالة عدم استعمال الحق المخول بهذا الاتفاق تبقى أحكام التوظيف الحالية بغير مساس

(٥) تعرض هذه المعاهدة على جمعية تأسيس . ولكن لا يعمل بها الا بعد انفاذ الاتفاقات مع الدول الأجنبية على ابطال محاكمها القنصلية وانفاذ الأوامر العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة

(٦) يعهد الى جمعية التأسيس فى وضع قانون نظامى جديد تسير حكومة مصر فى المستقبل بمقتضى أحكامه . ويتضمن هذا النظام أحكاماً تقتضى جعل الوزراء مسئولين أمام الهيئة التشريعية ، وتقتضى أيضاً باطلاق الحرية الدينية لجميع الأشخاص وبالحماية الواجبة لحقوق الأجانب

(٧) تحصل التعديلات اللازم ادخالها على نظام الامتيازات باتفاقات تعقد بين بريطانيا العظمى والدول المختلفة ذوات الامتيازات ، وتقتضى هذه الاتفاقات بابطال المحاكم القنصلية الأجنبية لكي يتيسر تعديل نظام المحاكم المختلطة وتوسيع اختصاصها وسريان التشريع الذى تسنه الهيئة التشريعية المصرية دونه التشريع الذى يفرض الضرائب على جميع الأجانب فى مصر

(٨) تنص هذه الاتفاقات على أن تنتقل الى الحكومة البريطانية الحقوق التى كانت تستعملها الحكومات الأجنبية المختلفة ، بمقتضى نظام الامتيازات .

وتشمل أيضاً أحكاماً تقتضى بما يأتى : —

أولاً : لايسوغ العمل على التمييز الجائر على رعايا أى دولة وافقت على إبطال محاكمها القنصلية ، ويتمتع هؤلاء الرعايا فى مصر بنفس المعاملة التى يتمتع بها الرعايا البريطانيون

ثانياً : يؤسس قانون الجنسية المصرية على قاعدة النسب فيتمتع الأولاد الذين يولدون في مصر لأجنبي بجنسية أبيهم ولا يحق اعتبارهم مصريين

ثالثاً : تخول مصر موظفي قنصليات الدول الأجنبية نفس النظام الذي يتمتع به القناصل الأجانب في إنجلترا

رابعاً : المعاهدات أو الاتفاقات الحالية التي اشتركت مصر في التعاقد عليها في مسائل التجارة والملاحة ومنها اتفاقات البريد والتلغراف تبقى نافذة المفعول . أما في المسائل التي ينالها مساس من جراء إبطال المحاكم القنصلية فتعمل مصر بالمعاهدات النافذة المفعول بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية صاحبة الشأن . مثل معاهدات تسليم المجرمين وتسليم البحارة الفارين ، وكذلك المعاهدات التي لها صفة سياسية سواء كانت معقودة بين أطراف عدة أو بين طرفين . مثال ذلك اتفاقات التحكيم والاتفاقات المختلفة المتعلقة بسير الحروب ، وذلك كله ريثما تعقد اتفاقات خاصة تكون مصر طرفاً فيها

خامساً : تضمن حرية إبقاء المدارس وتعليم لغة الدولة الأجنبية صاحبة الشأن على شرط أن تخضع هذه المدارس من جميع الوجوه للقوانين السارية بوجه عام على المدارس الأوربية بمصر

سادساً : تضمن أيضاً حرية إبقاء أو إنشاء معاهد دينية وخيرية كالمستشفيات الخ وتنص المعاهدة أيضاً على التغييرات اللازمة في صندوق الدين وعلى إبعاد العنصر الدولي عن مجلس الصحة في الاسكندرية

(٩) التشريع الذي تستلزمه الاتفاقات السالفة الذكر بين بريطانيا العظمى والدول الأجنبية يعمل به بمقتضى مراسيم تصدرها الحكومة المصرية وفي الوقت عينه يصدر مرسوم يقضى باعتبار جميع الاجراءات التشريعية والادارية والقضائية التي اتخذت بمقتضى الأحكام العرفية صحيحة

(١٠) تقضى المراسيم العالية المعدلة لنظام المحاكم المختلطة بتحويل هذه

المحاكم كل الاختصاص الذى كان مخولا إلى الآن للمحاكم القنصلية الأجنبية
ويترك اختصاص المحاكم الأهلية غير ممسوس

(١١) بعد العمل بالمعاهدة المشار إليها فى البند الثالث تبلغ بريطانيا
العظمى نصها إلى الدول الأوروبية الأجنبية ، وتعصد الطلب الذى تقدمه
مصر للدخول فى جمعية الأمم

مسألة السودان

أما مسألة السودان فلم تطرح تحت البحث ولكن الوفد قد حصل على
تأكيدات تضمن الطمأنينة على مياه النيل لرى الأرض المصرية المزروعة
الآن والقابلة للزراعة فى المستقبل .

وقد بين الأعضاء المندوبون مهمتهم فى هذه المرحلة بكلمة ذيلوا بها
المذكورة وقالوا فيها :

« أما مهمة أعضاء الوفد المندوبين فيانها أنه لما وصلت المفاوضات بين
الوفد ولجنة ملنر إلى أن قدمت اللجنة هذه القواعد على أنها نهائية فى الاساسات
التي بنيت عليها - رأى الوفد أخذا بالأحوط واستمساكاً برأى الوكالة على
إطلاقه - أن لا يبت فى الموضوع برفضه أو قبوله . بل رأى أن الحكمة تدعو
إلى عرض الأمر على البلاد . فاذا قالت البلاد أن هذه القواعد صالحة أساساً
للمعاهدة دخلت المسئلة فى دورها النهائى ووضعت معاهدة على القواعد
المذكورة وعرضت على الجمعية الوطنية التي هى صاحبة الرأى الأعلى فى الأمر
ولها دون غيرها الكلمة الأخيرة فى الموضوع . فبعد أن تدرس تفاصيل
المعاهدة وصيغتها تقرر قبولها أو رفضها »

وقد رأى سعد أن يحمل رأيه فى المشروع للأساتذة مصطفى النحاس
وويصاواصف وحافظ عفيفي لأنهم لم يحضروا البحوث فيه بالعاصمة الانجليزية

كما حضرها زملاؤهم القادمون من أوروبا . فكتب اليهم في الثاني والعشرين من أغسطس ما يأتى :

« أهديكم أطيب تحياتى . وبعد فانكم تجدون طى هذا بلاغا لنواب الأمة وأرباب الرأى فيها تعلمون مضمونه من تلاوته ، وأظنكم تستشفون منه انى لست من رأى المشروع الذى ستعرضونه على الأمة أتم والقادمون اليكم من اخوانكم ، وهذا موافق للحقيقة لأنه - وأريد أن يكون الأمر بينى وبينكم - مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به وباطنه الحماية وتقريرها . ففيه من خصائص الحماية ومميزاتها الشيء الكثير كالقوة العسكرية والتدخل فى التشريع للأجانب وفى القضاء المختص بهم والتدخل فى المالية وفى الحقانية بواسطة موظفين انكليز . وجعل المعتمد الانكليزى ذا مقام خاص وله التقدم على غيره من وكلاء الدول الأخرى ، وتقييد حرية مصر فى عقد المعاهدات وفى اختيار وكلائها السياسيين وفى التجاء هؤلاء لممثلى انكلترا وتولى انكلترا دون مصر عقد المعاهدات المتعلقة بالغاء الامتيازات مع الدول الأخرى . وفضلا عن ذلك فان ما اشترط من تعليق تنفيذه على قبول الدول لالغاء المحاكم القنصلية وصدور الدكرينات باعادة تنظيم المحاكم المختلطة بجعل الفوائد التى تعود منه على المصريين وهمية . إذ قد ينقضى الدهر ولا تقبل الدول ذلك الالغاء ولا تصدر الدكرينات بذلك التنظيم . ولكن . إخوانى لا يرون فيه رأى ، ولم أرد أن أظهر الخلاف بينى وبينهم حرصا على الوحدة التى هى قوتنا ، ولكى لا يشمت الأعداء بنا . ولو أن اخوانى أصغوا إلى قولى أولولم أكن أخشى على هذه الوحدة من الانقسام لفارقت لندرة فى يوم ٢٢ يونيه الماضى وهو اليوم الذى وردنا فيه خطاب من اللورد ملنر عن مشروع سابق وضعته لجنته ورفضناه لكونه كان يرمى إلى ما يخاف مبدأنا وتوكيلنا ، وكان رفضنا له بالاجماع . ومن الغريب أن المشروع الثانى جاء أبلغ فى باب الحماية لاشتماله على كثير من مميزاتها . ومع ذلك رأى الاخوان صلاحية عرضه

على نواب الأمة ، ولا أريد أن أشكو منهم اليكم لأنهم إنما رأوا ذلك لأسباب قامت عندهم وأقنعتهم بصحة آرائهم . أهمها تغير ظروف الحال وعدم وجود السند والنصير لنا في الخارج وانفراد الدولة الانكليزية بالعزة والسلطان وعدم قوة الأمة على متابعة المعارضة والمقاومة ؛ وإنى اعترف بأهمية هذه الأسباب ولكنها لا يمكن أن تقلب حقيقة المشروع من حماية إلى استقلال ولا أن تجعلنا نرضى بما نهضنا لمقاومته وقنا للبطالة ببطالته وما ضحت الأمة في سبيل النفور والقضاء عليه بدماء الكثير من أبنائها وحرية العدد العديد من شيوخها وفتيانها ، ولا يحملنا نحن دعاة الاستقلال وحملته ألويته والصائحين به في كل صقع وناد على أن تتحول إلى تأييد ما هو بعيد عنه في الواقع وإن كان قريبا منه في الظاهر ، أما إذا قبله غيرنا وكان الانجليز معهم فذلك شيء آخر لا تقع تبعته علينا ، ولهذا رأيت أن أكتب لكم بفكرى حتى تكونوا في مستوى واحد مع إخوانكم الذين ستشتركون معهم في عرض المشروع ، وأن يكون مركزكم إذا استحسنتم من الذين تستشيرونهم مركز الشارح للحقائق العارض للوقائع من غير تأويل ولا تفسير . لكي لا يجد خصومكم سبيلا للطعن عليكم ولا حسادكم حجة يقيمونها ضدكم ، وسوف تطلعون على جميع المكاتبات التي دارت بيننا وبين لجنة ملنر وعلى المشروعات الثلاثة التي ورد في البلاغ ذكرها . وتقفون من الاخوان على جميع المعلومات التي يهتمكم الوقوف عليها في هذا الشأن . وإنى على ثقة تامة بأنكم ستكونون في عرض هذا المشروع مثال الدقة والنزاهة والبعد عن مزالق القدم ، وإنى مستعد لأن أرسل اليكم كل ما تشاءون من الأوراق ؛ ولأن أجيبكم عن كل ما تشاءون الوقوف عليه من المسائل . والله يكون في عونكم ويقيمكم شر خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وبديه أن هذا الخطاب لم يعلن للأمة ولا لأحد غير الأعضاء الذين

خو طبوا به وأصدقائهم المقربين . ولكن الرئيس مهد لتقديم المذكرة إلى الأمة ببيان منه وصف به المشروع الوصف الذي ينبغي في هذا المقام . فقال فيه : « » وانتهت المناقشة بوضع ثلاثة مشروعات : أولها من لجنة ملز رفضناه بتاتا ، والثاني منا ورفضته هذه اللجنة كذلك ، والثالث منها وهو الأخير قد صرح رئيسها لنا عند البحث فيه أنه غير قابل للمناقشة في الأساسات التي بنى عليها وأنه يلزم أما أخذه كله أو رده كله . لأنه تضمن في اعتباره أقصى ما يمكن انكثرا الاتفاق مع مصر عليه ، بل زاد أن هناك شكاً في جواز التساهل في بعض ما اشتمل عليه ، ولكننا وجدناه مع ذلك معلقاً تنفيذه على غير إرادتنا وغير واف بمطالبنا . فلم يسعنا قبوله لخروجه عن حدود توكيلنا وأظهرنا للجنة ملز عدم رضائنا به . غير أنه — نظراً لاشتماله على مزايا لا يستهان بها ، ولتغير الظروف التي حصل التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المسافة التي بينه وبين أمانيتها — رأى إخواننا معنا خروجاً من كل عهدة وحرصاً على كل فائدة واستبقاء لكل فرصة الا يبيت فيه رسمياً بما يقتضيه توكيلهم قبل عرضه عليكم أتم نواب الأمة المسؤولين وأصحاب الرأي فيها »

ثم قال : « فاذا رفضتم أعلن الوفد رسمياً رفضه ، وإذا قبلتم دخلت المسألة في دورها النهائي ووضعت معاهدة على القواعد التي تضمنها وعرضت على الهيئة النيابية للتصديق عليها ووضع نظام دستوري للبلاد »

وهذه الخطة التي سلكها سعد في التوفيق بينه وبين أعضاء الوفد هي غاية ما كان في وسعه من الموافقة والمجاراة ، فلم يكن مستطیعاً أن يعلن استحسان المشروع وهو لا يستحسنه ولا يرى في ضميره أنه محقق لالغاء الحماية واقامة الاستقلال ، ولم يكن مستطیعاً أن يقدم المشروع بغير بيان ، ولا أن يقول

في البيان غير ما قال من وصف صادق لجميع نواحيه في جانبي المزايا والنقائص ،
مع اطلاق الرأى لمن يشاء فيما يشاء

ووصل الأعضاء المندوبون الى الاسكندرية في اليوم السابع من سبتمبر
بعد نشر البيان يومين ، فاحتفى بهم الشعب في الاسكندرية والقاهرة وعلى
طول الطريق بينهما ، وبدأ الاستفتاء بعد يومين . فعرض المشروع على المحامين
وأعضاء الجمعية التشريعية ورجال الدين ورجال القضاء وأعضاء مجالس الأقاليم
والمجالس المحلية ، وأجمعت الطوائف في جملتها — ما عدا أنصار « الوزراء
الأصدقاء » — على وجوب التعديل والتنقيح في بعض قواعده وتضمنيه
النص الصريح على إلغاء الحماية وحذف ما جاء فيه عن امتياز المندوب البريطانى
« بمركز استثنائى » غير مركز المندوبين الآخرين ، وطلب الأكثرون
تعيين حدوده المبهمة ومواعيده المرسله ، وإخلاءه من كل لبس واشتباه في
مسألة السيادة القومية ، وذكروا السودان ووجوب الاحتفاظ بحقه وحق
مصر فيه ، وذهب كثيرون إلى رفضه بتاتا وفي مقدمتهم فريق من الأمراء
نشروا على الملأ بلاغا قالوا فيه « إننا لا نبرر عقد أى اتفاق ينافى أو
ينقص استقلال مصر مع سودانها استقلالاً تاماً حقيقياً بلا قيد ولا شرط »
ثم فوضوا الأمر إلى الأمة صاحبة الرأى الأعلى

وبعد عشرين يوماً مضت في عرض المشروع والتعقيب عليه في الصحف
والمجالس اكتفى الأعضاء المندوبون بما اطلعوا عليه من الآراء وكتبوا يائناً
شكروا فيه الأمة على ما قابلتهم به من الحفاوة ونوهوا بالاستنارة التى « خلقت
فرصة جديدة ظهر فيها رشد الشعب وحسن تقديره لجميع الظروف السياسية
التي تحيط الآن بالفصل في مصيره »

وفي هذه العبارة ما لا يخفى من دلالة على نتيجة الاستفتاء عند المندوبين
وهى نتيجة يعتبرونها تمهيداً للقنوع والقبول لا تمهيداً للرفض أو التعديل .

في مصر أثناء المفاوضة

استقالت وزارة محمد سعيد باشا الادارية

وقد رأينا أن الرأي العام في مصر كان ينفر من قيام الوزارات المصرية في ظل الحماية والأحكام العسكرية، ويأبى التعاون على تثبيت هذا النوع من الحكومة ويعتبره تسهلاً للسيطرة الأجنبية وتمكينها من المضي في طريقها وقلة الاكثريات بمعارضة الأمة ، ولهذا شدد النكير على الوزارة الرشدية حتى استقالت وبرم بالوزارة السعيدية حين جاءت تتحلل الأعذار لقبولها الحكم في هذه الحالة ، ولم يشفع لها ما وعدت به من اجتناب المساس بالقضية الوطنية وما سعت إليه من تحويل بعض القضايا المنظورة أمام المحاكم الانجليزية إلى المحاكم الوطنية

فلما اضطر محمد سعيد إلى الاستقالة كان المنظور أن المرشحين لمنصب الرئاسة يرفضونه في هذه الحالة التي استعصى معها بقاء وزارة كالوزارة السعيدية ، ولكن عضواً من أعضائها — وهو يوسف وهبة باشا — رضى تأليف الوزارة دون أن يعلن رأياً في سبب قبولها ، وكان الرجل من الطراز العتيق لا يؤمن بشيء يسمى الديمقراطية ولا يحسب تدخل الناس في قيام الحكومات وسقوطها إلا فضولاً غير حميد ، وبدعة من بدع الزمن الحديث الذي يأتي بكل غريب معيب ، وبخاصة إذا كانت هذه الغرائب مما يقف في طريق الانسان إلى الرئاسة والألقاب ؛ ومن قال أن سعد باشا يستطيع أن يأبى الوزارة ويستطيع أن يفرض على الآخرين إياها حين يدعون إليها ؟ أليس هؤلاء الآخرون « باشوات » قد استحقوا الوزارة والرئاسة كما يستحقها سائر الباشوات الموقرين ؟ فلماذا تتغير الدنيا إذن ليصبح هناك باشوات أعلى من باشوات بحكم الجمهور الذي لا شأن له في هذه الأمور ؟ فما هو إلا أن استقال سعيد باشا حتى خلفه يوسف وهبة باشا دون أن يتقدم

إلى الجمهور بإيضاح أو اعتذار ، وأمعن في تجاهل الأمة حتى أوصد بابه في وجوه الكبراء الذين ذهبوا إليه يسألونه عما ينويه ويبتغون شيئاً من الطمأنينة والتفسير ، وزاد على ذلك قترك للسلطة العسكرية أن تعتقل من تشاء من ذوى رأى وتقصى من تشاء منهم إلى قرى الريف ، وتحظر عليهم الاشتغال بالسياسة وتستعيد إليها ذلك القسط القليل من الحق الذى نزلت عنه للحجاء كم المصرية فى عهد الوزارة السعيدية ، فأصبحت الوزارة المصرية فى أيامه لغوا لا وجود لها بمعزل عن السلطة العسكرية ، ولو من قبيل الإدارة والتمويه

وأكبر الظن أن الانجليز توقعوا من اختيار يوسف وهبة باشا — وهو مسيحي قبطى — أن يجر ذلك إلى إفساد المودة بين القبط والمسلمين وأثارة الملاحاة والجدل بين الفريقين ، أثارة تفتح الثغرة بينهما للدسيسة وتسويغ الدعاوى التى يدعيها الاستعمار للدخول بين أبناء البلد الواحد واحباط المطالب القومية التى يتفقون عليها ، فوقع فى إلهام الأمة أن تقابل هذه المسكيدة بما يبطلها وأجابات عليها باختيار رئيس لجنة الوفد المركزية ونقيب المحامين من أبناء الطائفة القبطية ، ولما اعتدى أحد الشبان من طلاب مدرسة الطب على رئيس الوزارة بالقاء القبلة عليه فى طريقه إلى الديوان كان من مصادفات الأقدار أن هذا الطالب لم يكن مسلماً بل كان مسيحياً قبطياً لا يؤل عمله بالتعصب الدينى أو الخصومة بين عنصرى الأمة ، كما كان وشيكا أن يقال لو جرت المصادفة بغير ذلك

وقد خاب أمل الانجليز فى هذه الوزارة فصبروا عليها إلى ما بعد سفر اللجنة الملترية ، وبالغوا فى اهمالها ثم تركوها تستقيل ولما تجاوز فى الحكم ستة شهور ، واختارت لاستقالتها السبب الوحيد الذى يليق بمثلها وهو طلب الراحة !

وقامت بعدها وزارة محمد توفيق نسيم باشا والانجليز يعلمون إنه كان ثانى

الاثنين اللذين سخطا على حركة التوكيلات للوفد المصرى وامتنعا من توقيعها دون غيرهما بين رجال القضاء الأعلى فى القطر كله . وقد كان هو أيضاً عضواً فى الوزارة السعيدية وعضوا فى الوزارة الوهية ثم قبل تأليف الوزارة لأنه لا يأخذ نفسه بيدعة البراجج الوزارية التى تعوق الانسان عن ولاية المناصب . . . وكان كسلفه فى النظر إلى الديمقراطية وفى إيثار الصمت والعزلة « الفاخرة » كما يقولون فى لغة السياسة الانجليزية . ولكنه أقدر واعلم بشأن الجمهور فى سياسة الوزارات . وقد أصابه من الاعتداء ما أصاب سلفه فاشتدت حفيظته على الدعوة الوطنية ، لأنه يحسب أنه لولاها لما نجحت حوادث الاعتداء على الوزراء

وفى عهد هذه الوزارة جرت محاكمة طائفة من الشبان الذين اتهموا بحوادث القتل السياسى ومعهم عبد الرحمن فهمى بك كاتب السر فى لجنة الوفد المركزية بالقاهرة . ومن عجيب أمر هذه القضية أنها كانت تماشى أطوار المفاوضات بين الوفد ولجنة ملتر كما أنها صلة مقصودة بينها وبين تلك المفاوضات . فى أوائل مايو قبضت السلطة العسكرية على أولئك الشبان وحظرت على الصحف نشر الخبر أياماً ، فلبثوا معتقلين زهاء شهر ونصف شهر بغير محاكمة . ثم صدر الأمر بالافراج عنهم فى أواسط شهر يونيو بعد اضرابهم عن الطعام ثلاثة أيام طلباً للتعجيل بالمحاكمة أو الافراج ثم قبض عليهم مرة أخرى فى أوائل يوليو ومعهم عبد الرحمن بك فى هذه المرة ، واستمرت محاكمتهم الى أكتوبر وكل يوم تبرز للعيان تلفيقات بعض الشهود ووجود أسمائهم فى سجل الخدمة السرية . ثم لبث المتهمون بعد انتهاء المحاكمة ينتظرون الحكم الى أواخر فبراير ، وهو الوقت الذى استحكم فيه الشقاق بين أعضاء الوفد وقر فيه القرار على السياسة الجديدة فى أمر المفاوضات الرسمية

أما مسلك السلطة العسكرية خلال هذه المدة فهو مسلك القهر والعنت

الذى التزمته من اللحظة الأولى ، والأمر الجدير بالملاحظة لدلالته البعيدة المدى أن الانجليز المحليين الذين كانوا بمصر يومئذ لم يعملوا عملاً واحداً للتقريب بين الأمتين ، وهم مطالبون قبل غيرهم باتباع سياسة التقريب والتماس الوسائل إليها لو كانوا يحبونها ويرغبون فيها . ولكنهم لا يحبونها ولا يرغبون فيها بل يكرهونها ويرغبون في احباطها ، ويصعب على الباحث أن يتخيل عملاً واحداً كانوا يقدرون عليه لاحباط سياسة التقريب بين الأمتين فلم يعملوه وسبب ذلك ظاهر لا يحتاج الى بحث طويل . فان حرية مصر لا تضير أحداً كما كانت تضير أصحاب النفوذ من أولئك الانجليز المحليين ، وقصارى أملهم أن يدوم لهم ذلك النفوذ الذى لا ينعم أكبر الانجليز في بلادهم بمثله ، إذ هم في أمان من الرقابة الدستورية من جانب الأمة الانجليزية والأمة المصرية على السواء ، وهم يعملون في بلاد لا تربطهم بها غيرة وطنية ولا محبة متبادلة تقاوم أغراء المصلحة الشخصية . مع أن الوزراء والوزراء من أبناء قومهم الذين هم أكبر منهم شأنًا وأرفع منهم قدرًا يعملون لمصلحة وطنهم فلا يتركون بغير رقابة نيابية أو رقابة شعبية في صميم بلادهم . فشعور أولئك الانجليز المحليين كلما رأوا المصريين يطالبون بحقوقهم ويتطلعون الى حكم أنفسهم إنما هو شعور الغضب والغليظ والخوف على المصلحة والنفوذ ، وكل ما في وسعهم أن يعملوه لابقاء نفوذهم في صعود وابقاء نفوذ الأمة في هبوط فالعهود فيهم أنهم يعملونه بغير تردد ولا هوادة . ولا سيما وهم مرجع الرأى في عرف حكومتهم لأنهم رجال المكان " The men on The spot " كما يقال عنهم . . . ففي أيديهم محاربة كل سياسى مصرى لا يحبونه واحباط كل سياسة مصرية لا يريدونها . وقد أطاعوا هذا الشعور لأنه شعور لا يمنعه أن يتبادوا فيه مانع من ارادتهم ولا من ارادة رؤسائهم ، فجعلوا ديدنهم أن يجرحوا الأمة في عزتها ويخلقوا الأسباب للتشنج منها كلما خالجتها أريحية ظفر أو عزة أو رجاء في بلوغ الحرية ، وتذرعوا بالقمع والذكاية تارة

وبتحضير القضايا التي يقحمون فيها اسم سعد وأصحابه تارة أخرى لأحباط كل سعى يلوح فيه الأصغاء الى المطالب الوطنية أو اجابة شيء منها ، وكان هذا موقفهم الطبيعي الذي صمدوا عليه في أثناء المفاوضات وابتدأوه باستعجال قدوم اللجنة المنزلية ، لا شيء إلا أن إرجاءها يعد نجاحاً للمصريين الذين أعلنوا النية على مقاطعتها

بعد عودة الأعضاء

عاد أعضاء الوفد المندوبون لاستفتاء الأمة الى باريس سابع اكتوبر وهم معولون على « انتهاء الحالة » بكل ماوسعهم من حيلة . فشكروا مظهر من « رشد الشعب و من تقديره لجميع الظروف السياسية التي تحيط بالفصل في مصيره » ووصفوا تعليقات المعلقين على المشروع « بالرجبات » تسهلا لاغفالها أو تأجيل النظر فيها . وأصبح الخلاف الجديد بين سعد وأصحاب هذا الرأي هل هذه التعليقات رجبات يستوى تقديمها وتأجيلها أو هي تحفظات يجب النظر فيها قبل اجراء المفاوضات الرسمية وأولها التحقق الخاص بالغاء الحماية وحذف الاشارة اليها في المعاهدات الدولية

واسكى لا يقال إن سعداً يتعمت في هذا الخلاف لم يشترط الغاء الحماية توأ قبل اجراء المفاوضات ، بل اكتفى بالوعد بالغائها في المعاهدة التي تسفر عنها المفاوضات بعد اجرائها . ولم يكن في وسعه أن يقبل مادون ذلك إلا إذا قبل أن تذهب الثورة المصرية كلها وتذهب ويالات الحرب من قبلها في سبيل الفاظ وعناوين لم تقدم ولم تؤخر في حقيقة الحماية ، ولم تنل منها الأمة حتى الغاء اسم الحماية في الشكل والصيغة

وأرسل اللورد ملنر الى الوفد بعد عودة أعضائه من القاهرة رسولا يدعوهم الى لندن للنظر في نتيجة الاستفتاء . فسافر عدلى وتبعه سعد في الحادى والعشرين من شهر اكتوبر ومعه ثلاثة من زملائه ، ثم لحق بهم بقية الأعضاء بعد بضعة أيام

وقد تبين من المقابلات الأولى مع اللورد ملنر أنه يأبى البحث في التحفظات والرجبات ويتشبت بقبول المشروع كله أو رفضه كله ، ويعارض

معارضة شديدة في تضمين المعاهدة نصاً يقرر إلغاء الحماية . ثم رضى بإثبات هذا النص في المعاهدة ولكنه تشبث بإبقاء الحالة على ما هي عليه في العلاقات الدولية . أى انه رضى بأن تكون الحماية ملغاة في نظر مصر وحدها قائمة في نظر الدول الأخرى ! فحقت الريبة وبطل الشك وامتنعت المغالطة في حقيقة المشروع ، وثبت أن الحماية باقية لم تتبدل وان المسألة كلها الفاظ في الفاظ ، وان الأمة لا تكسب بهذا المشروع إلا تصحيح مركز الانجليز في وادي النيل وانقاذ الاحتلال من حرج كان يعاينه ، وفي وسعها أن تنفذ المشروع كل النبد دون أن تعد خاسرة ، أو تكون خسارتها في الرفض أكبر من خسارتها في القبول .

واختلف الأعضاء فكانت القلة في جانب سعد والكثرة في جانب عدلى . . . وتعلل الأكثرون بفتور الثورة وانصراف النفوس عن القضية واستبعدوا أن تنال مصر أكثر مما نالته فجنحوا إلى التساهل والتسليم ، وخالفهم سعد وصحبه الأقلون مستكبرين أن يقنعوا من الثورة بهذا النصيب وهي فرصة لا تعود في كل جيل . فتمسكوا بإلغاء الحماية فعلاً ورسمياً وهم يعتقدون أن لا خسارة على مصر بهذا التمسك ولو ضعفت فيها المقاومة وقر فيها الاستعداد للثبارة . وأقل ما هنالك أن لا تسجل التفريط المحقق على نفسها وأن لا تترك إلى قعود الخيبة بعد انبعاث الرجاء ، ولا تزال متربصة لاستئناف الجهاد كلما قدرت عليه .

والفرق بين الفريقين إنما هو الفرق بين فئة يقودها زعيم مطبوع على قيادة الشعوب ، وفئة يقودها موظف لا شأن له بحياة الجماعات ، ولعله لا يكره أن تثبت الأيام صدق نظره وحسن تقديره يوم أن قبل الحماية ولم يعول على ثورة الجماعات . . . فهذه ثورة مصر قد مضت في طريقها وجاءت بغاية ما عندها ولم تنته إلى خير مما انتهى إليه بلا ثورة ولا زعامة ، ولا اعتماد على شيء غير الهوادة والمرونة .

وإذا لاحظنا أن أعضاء الوفد تحولوا من الرفض بالاجماع فى شهر يونيو الى التردد أو القبول فى شهر أغسطس والمشروع واحد والحالة واحدة لم يصعب علينا أن نفهم ماذا كان من أثر الوساطة التى قام بها عدلى فى خلال هذه الفترة وأوجبت عند الانجليز أن يكون هو المعتمد فى اجراء المفاوضات المقبلة وربما كان أخرج المواقف فى هذه الفترة المرهقة هو موقف اللورد ملنر صاحب المشروع الحريص على انجازه المشفق من الهزيمة بين معارضيه من الانجليز ومعارضيه من المصريين . فقد كان بعض زملائه فى الوزارة - وعلى رأسهم اللورد كرزون - يستكثرون المشروع على المصريين ويزعمون أنهم قادرون على اقناعهم بما دون ذلك مع الحزم والمطاولة والتدويخ . وكان ملنر نفسه قد وصل الى أقصى ما يريد وأقصى ما يستطيع ، فليس فى وسعه إن يطلب من الوزارة البريطانية مزيداً فوق ما طلب ولا فى وسعه أن طلب المزيد أن يطمع فى الإجابة . . . ولكن الفشل مع هذا مرير ثقيل ولا سيما فى أخريات الحياة وأخريات السيرة الوزارية . فالتقى الرجل كل اعتماده على اعتدال عدلى وأصحابه ، ونجاحهم فى اقناع زملائهم واقناع الأمة بعد ذلك بتأجيل الرغبات والتحفظات الى المفاوضات الرسمية ، وهى كفيلة بفضل « الاعتدال » ان تفض المشكلة على الوجه الذى يرضاه

وسرعان ما ظهر أن عدلى وملنر يعتبران أنهما صف واحد فى مراس العناد الذى يبدو من سعد زغلول ، وأن التفاهم بينهما على ذلك ينطلق مع فلتات اللسان بغير احتراس ولا مداراة فى بعض الاحيان ، فبينما كان سعد معهما فى احدى الجلسات الأخيرة اذا بملنر يلتفت الى عدلى ويقول له بالانجليزية . « الا يكف هذا الرجل عن عناده ؟ » أو قال ما هو أقصى من ذلك فى العبارة . . فرد عليه عدلى بالانجليزية أيضاً قائلاً : « لا فائدة ! » ونسيا أنها بمحضر من رجل ثالث وأن هذا الرجل الثالث هو موضوع الكلام . وموضوع « التفاهم » قبل الكلام !

ومهما يكن من معنى هذا التفاهم فإن « الدور » الذى قام به عدلى فى هذه المرحلة هو الدور الذى كان لازماً للسياسة البريطانية بغير مراعاة . فقد كان يعوزها رجل تتغلب به على نفوذ سعد زغلول أو على عناده وقوة مراسه وتستعين به على فض الكثير أو القليل من انصاره . وليقل القائلون ماشاءوا فى نيات عدلى وأعماله فليس فى مقدورهم أن يزعموا أنه كان يعمل وهو مغمض العينين مسوق الى الغاية التى ساقه اليها الموقف بغير قصده واعتماده . ولا أنه كان يجهل الغاية التى عمل لها من البداية ، وتأهب لها من يوم أن طالب سعداً بخطاب مفصل يتمسك به عليه ، قبل أن يقطع تذكرة السفر الى باريس ولا نظن سعداً كان يجهل ما فى طوايا هذا (الدور) من الاحتمالات والمحاولات أو كان يسترسل مع حسن الظن على الرغم من جميع الظنون والشبهات ، ولكنه على ما نرجح كان يأمل أن تتألف الوزارة العدلية لاجراء المفاوضات الرسمية مع بقاء الوفد محتفظاً بوحدة للاتخابات ، منتظراً اليوم الذى يدخل فيه الجمعية الوطنية للنظر فى نتيجة المفاوضات ، وكان هذا خيراً من شق الوفد على نفسه وخيراً من محاولة عدلى وأصحابه الخلط بين أعمال الوزارة وأعمال الزعامة والسيطرة على رأى العام .

وما عثم الفريقان — الفريق المصرى والفريق الانجليزى — ان فهما معا بعد قليل من المحاولة أن الاطالة فى البحث لا تفضى الى كبير طائل . فاتفقا على المقابلة الأخيرة بين الوفد واللجنة ، وحانت هذه المقابلة فى تاسع نوفمبر فذهب الوفد بجملته الى مكان الاجتماع ، وحضر اللورد ملتر وهو بادى الاضطراب فحيا الحاضرين وتناول ورقة تلا منها ما يأتى وهو لا يملك صوته : « ترمى من المرغوب فيه عقد هذا الاجتماع قبل سفر النواب المصريين بقصد ايضاح الحالة وترك الباب مفتوحاً للعمل بالاشتراك بينهم وبين اللجنة فى المستقبل »

الى أن قال : « إن اللجنة مجمعة رأياً على أنه لا فائدة من زيادة المناقشة

في مسائل تفصيلية في الدور الحاضر « واستطرد قائلا : « أما ما يتعلق ببلادنا نحن فانتا نرجو ان تقرير اللجنة الذي نحن مهتمون باتمامه في أقرب ما استطاع سيكون من وراء تقديمه الوصول الى هذه الغاية ، ولكن من المهم أيضا ان يحدث مثل هذا الأثر في مصر بفضل مساعيكم . وانا نعترف بما قمتم به من العمل في هذا السبيل ونحمدكم عليه . ولكن من البديهي انه مازالت هناك معارضة يلزم التغلب عليها . إذ يوجد بين المصريين عدد عظيم لم يشربوا روح الاتفاق يكرهون — لسبب ما — حسن التفاهم بين إنجلترا ومصر . هؤلاء يتشككون في نيات بلادنا أو يظهرون أنفسهم بمظهر المتشككين ، ولا يقدرّون ما يخامر بريطانيا العظمى من العواطف الكريمة التي تجعلها على استعداد حسن لقبول مطالب الشعب المصري . فأتم بمقدار ما تستطيعون من تبديد هذه الظنون السيئة ، ومن ازالة سوء التفاهم ومن تقوية الشعور الحسن — تكونون قد قطعتم في سبيل التسوية التي يشغف بها كلانا ، شوطا لا يقطع بوسيلة أخرى »

فرد عليه سعد بكلمة مرتجلة قال فيها: « انه راغب — ك رغبة اللجنة — في إيجاد حالة موافقة للتسوية . ولكن مساعيه في هذا السبيل تضعف جداً إذا لم يستطع أن يعد المصريين شيئا من جهة التحفظات التي طلبوها . وخاصة اذا هو عاجز عن التصريح لهم بأن بريطانيا العظمى ألغت الحماية الغاءاً نهائياً . ثم طلب نسخة من الخطبة التي القاها اللورد ملر ليرد عليها كتابة ، فرد عليها بما لا يخرج في خواه عما تقدم وأضاف اليها كلمة عن القوانين الاستثنائية التي لم تزل نافذة في البلاد فقال : « إن هناك من جهة أخرى تلك القوانين الاستثنائية التي تطبق في مصر منذ سنين عدة . وكذلك المحاكم العسكرية وغيرها من الوسائل والأعمال التي لا تتمشى مع روح الاتفاق ولا مع الرغبة الصادقة التي أظهرتموها في القاء مقاليد حكم البلاد إلى أبنائها . . . »

وأرسل سعد في تلك الأيام خطاباً إلى أحد أخصائه (١) مؤرخاً في سابع نوفمبر يقول فيه : « . . . انا نعاني اليوم صعوبات كثيرة في عرض أمانى الأمة التى اعتبرناها تحفظات رغم ما وصفت به عندكم ، ويراد عدم فتح باب المناقشة فيها واحالتها على المفاوضات الرسمية توهماً بأن الأمة تقبل المشروع بدونها وأن الحكومة التى ستتولى أمر هذه المفاوضات تتمكن من اقناعها بوسائل التأثير المعروفة بقبول المشروع ، ولكنى مصمم كل التصميم على عدم النزول عن التحفظات المهمة لأن المشروع بدونها لا يكون إلاحية فى ثوب الاستقلال أو استقلالاً فى معنى الحماية . . . »

وغادر الوفد لندن إلى باريس فى عاشر نوفمبر فأرسل منها نداء إلى الأمة قال فيه . . . « جاءت نتيجة الاستنارة برأيكم فى مشروع الاتفاق مثبتة أن الاستقلال ليس فى نظركم كلمة تردد فى الفضاء بغير معنى . بل أنتم تريدون استقلالاً حقيقياً خليقاً بكم وبمستقبلكم الذى سيرسل غداً أشعته الوضاءة على مصر الحرة . وهذا الاستقلال سنحصل عليه باتحادنا وبروح التضحية والايمان بانفسنا ، وبعدالة قضيتنا المقدسة إيماناً هادئاً صادقاً »

وظاهر أن أعضاء الوفد المخالفين وافقوا سعداً فى موقفه من اللجنة المنيرية مكرهين وسكتوا عن خطته هذه لأنهم أيقنوا بانتهاء المناقشة فى هذا الدور واقتراب المفاوضات الرسمية التى ستجرى على أيدي الوزارة العادلة ، فتركوا سعداً يمشى فى خطته لئلا يكشفوا تساهلهم وقلة ثباتهم فيضيعوا رجاءهم فى ضم الأمة إليهم وينهبوها إلى الحذر منهم . ومن يدري ؟ فلعل اللورد ملنر كان يتوهم — وهو يفتح الباب لمناقشة أخرى بين الوفد ولجنته — أن الأعضاء المخالفين قادرين على انتزاع القيادة من سعد أو اخضاعه هو لمشيئتهم ، وقد يلوح أن الأعضاء أنفسهم كانوا ينوون هذه النية ويحاولون

(١) ظاهر افندى اللوزى والخطاب منقول من رسالة « اذكروا سعداً » للاستاذ عبدالواحد حرزى صاحب

صحيفة البلاغ مع الخطابات التالية .

هذه المحاولة . فكثرت الخلافات بينهم وبين سعد بعد عودتهم إلى باريس وتعذر الاتفاق على الصغائر التي كانت لا تستحق الخلاف لولا تشعب الرأي في المسألة الكبرى ، وطفقوا يحاسبونه على رسائله وبياناته ويتشددون في احراجهم ومراجعة أعماله . وهو يصف ذلك ويذكر عزم المخالفين على مغادرة باريس والعودة إلى القاهرة في خطابين أحدهما قبل سفر الأعضاء مؤرخ في الثامن عشر من يناير سنة ١٩٢١ والثاني في آخر يناير من تلك السنة ، وفي الخطاب الأول يقول : « . . . يسوؤني أن أخبرك بأن الخلاف اشتد في الوفد اشتداداً تعذر تلافيه مع ما بذلت من جهد وما وسعت من صدر وما ضيعت من حق وضحيت من شعور . ونقطة الخلاف الأخيرة تنحصر في أن المخالفين يريدون تأييد عدلي في خطته وأريد القضاء عليها لأنها مضرّة كل الضرر بالبلاد ولا يترتب على اتباعها إلا تأييد الحماية وضياع الاستقلال . وقد عزم المخالفون على العودة بعد أن أعيأهم الجهد في حملي على اعلان الثقة بعدلي ، وذلك لكي يقوموا هم بهذا التأييد علناً ان مكنتهم أحوال الامة منه أو سراً إذا لم تساعد هذه الاحوال . أما أنا فتأبى في موقفى مصر على البقاء فيه ولو تخلى عنى جميع قومى ، لأنه خير لى أن يتخلوا عنى من أن أخونهم بالجرى على خطة أراها مضرّة كل الضرر بهم ، وعلى الله التكالى ومنه أستمد معونتى »

والخطاب الآخر أصرح من هذا وأكثر تفصيلاً وفيه يقول : « . . . اعترض المخالفون بعدد هم ، وأعجبهم كثرتهم ، فشمخنت أنوفهم ، واستطالوا على وحدتنا فقسموها ، وعلى حقنا فهضموه ، فنقضوا في اجتماع خاص بهم ما كان قرره الوفد في اجتماع عام باشتراكهم : رفضوا مبلغاً اذنا بصرفه ، وصرفوا مبالغ لم نأذن بها ، وأبوا أن يسلموا أمانة الصندوق لمن عيناه من غيرهم ، وقدروا للصرف مدة غيابهم مبلغاً لم يأخذوا في تقديره رأينا مكنتين بتقديرهم . كأنهم من أمرائنا وكاننا من أتباعهم : قرروا عودتهم

بدون علمنا ، وأخبروا اللجنة المركزية من عندهم ، وأعلنوا بذلك للبلاد انقسامنا وخلافهم . ظنوا الأمة هوى الضعف بروحها ، ولوى اليأس بعزمها ، واستعدت للاستسلام ، فسارعوا إليها لالكي يقوموا ضعفها بل ليستميلوها إلى الثقة بمن شكت في إخلاصه ليحسن تسليمها ، وإلى الشك فيمن وثقت بهم ليمتنعوا عن عونها . متوهمين أنها ستحشد الحشود للقائهم وترفع البنود للاحتفاء بهم ، فلم يكن من الكثير إلا أن أمسكوا عن مقابلتهم ، ومن غيرهم إلا أن واجهوهم بما يكرهون وطالبوهم أن يعلنوا في الخلاف رأيهم فلم يسعهم إلا أن نشروه . معترفين بما أنكروه ومنكرين ما أعلنوه . ولا أدري أن كانت نفوس القوم طابت بما أعلنوه أو رضيت بما نشروا مع سكوته عن موافقتهم . ولكن يظهر أنها لم ترض به تمام الرضاء لأن بعضهم طلب مني أن أنشر بلاغا أنني فيه ذلك الخلاف وأؤكد تمام الاتفاق وعدم انقطاعه فلم استحسن طلبهم لأن فيه تغريراً بالأمة ومناقضة للحقيقة التي عمل المخالفون أنفسهم على إعلانها وأيدوها بقولهم وفعلهم حتى تغنت بها الجرائد الانجليزية وتغنت بهم وباعتدالهم . ولأن هذا الخلاف لا يرجع لأسباب شخصية حتى يهون احتمالته ويرجى زواله ولا يضر خفاؤه ولكن يرجع إلى الاختلاف في الغاية والشعور . فهم ملوا العمل وقطعوا الأمل ، وقليل ما أعطينا كثير في نظرهم . وقريب ما نرجو بعيد في اعتبارهم والمشروع عندهم يهدى مصر استقلالاً ويوئها أشرف مركز بين الأمم ، ونرى فيه حماية ولا ييوىء من المراكز إلا أتعسها ، ولا يفيد الإضياع الاستقلال . فكيف يمكن التوفيق بين هذين الرأيين وهاتين الغايتين ؟ ولو كان أمره منحصرًا بيننا ولم يشعر به خصمنا لتساعشنا ما أمكننا . لكنه علم به على وجه يرفع كل طمأنينة ويضعف كل ثقة ، ومتى انعدمت الثقة بين جماعة تعذر انتظام العمل بين العاملين . فقد كتب اللورد ملن خطاباً لبعض أصدقائه ويبدأ نسخة منه جاء فيه مانصه : « إن أصحاب زغلول باشا بمن يطلبون نفس

مطالبه قد بذلوا آخر ما في وسعهم لا قناعه بالقبول فلم يقتنع « .. فن أين علم لورد ملنر هذا المسعى ؟ انه لم يكن منى بالطبيعة . ولا شك عندي في أن علم اللورد ملنر بهذا الخلاف على هذا الوجه كان له تأثير كبير جدا فيها أبداه من التشدد معنا خصوصا فيما يتعلق بقبول التحفظات

» تعلمون أن عدلى باشا قبل المشروع وسعى بواسطة أصدقائه في الوفد وخارجه في ترويجه وحمل الأمة على قبوله . ومع ذلك اراد أصحابه في الوفد أخيرا أن أعلن للأمة ثقتي به واعتمادى عليه في المفاوضات الرسمية ليتحصل على قبول التحفظات فرفضت رفضا باتا . اذ كيف يمكن لى أن أثق هذه الثقة بعد كل ما عندي من المعلومات ، وأن أعول على رجل في تعديل مشروع هو يراه مقبولا بدون هذه التحفظات مهما كان عنده من سلامة النية وحسن القصد ؟ .. ومن عجب أن هؤلاء الذين يريدون أن يسلّموا لمثل هذا الرجل أمور البلاد يديرها برأيه وبمساعدة من تعرفون لا يسمحون لى أن أرسل تلغرافا أو كتابا يحمل شكرا على عمل من الأعمال بدون اطلاعهم ، ويعدون انفرادى بمثل هذا العمل جارحاهم وماسا بكرامتهم . حتى كان منهم أن أرسلوا الى خطابا يحتجون به على هذا الانفراد في عبارات جافة لا يوجهها متبوع لتابع ... أتظن أن جماعة ضعفت الثقة بينهم الى هذا الحد يمكنهم أن يشتركوا في عمل ويمكن أن يقدر لهذا العمل نجاح ؟ كلا ! انهم لم يتظاهروا بموافقتنا الا اتقاء سخط الأمة وتلطيفا لغضبها ، وإلا فانهم سيعملون في السر على بث أفكارهم وترويج مقاصدهم والدعوة الى تأييد سيدهم الذى رأوا فيه المعين على الوصول الى غايتهم التى ينشدونها كما تعلمون . ولقد رأيناهم يقابلون بوجهه هشة بسامة كل خبر يدل على ضعف النهضة الوطنية وفتور الهمم وانحلال القوى ويعبسون للاخبار التى تدل على قوة روحها وكال يقينها في حسن الاستقبال . إن نفوسا هذه حالها يضر وجودها في الافراد فما بالك في القواد ؟

» أنى كثيرا ما ضغطت شعورى الشخصى ، وتساحت في حقوقى الذاتية .

بل لم أحسب حساباً لهذه الحقوق . ولكنى لا املك أن أتساهل فى حق عام عاهدت الأمة على الاحتفاظ به ، فلا أستطيع أن أفرط فيه لعدو ولا لولى ولكنى أسكت اذا لم يضر السكوت به أما اذا رأيت منه خطراً فواجبى يدفعنى الى الجهر بالحق . والله ولى العاقبة

« لا بد أن تكونوا علمتم بأن اسم مكباتى بك كان من بين العائدين ولكنى لم يعد . أنه من صفهم وعلى رأيهم ، ولم يكن مسافراً معهم . بل فى عزمه اللحاق بهم وانما كتبوا اسمه مع اسمائهم تفخيماً لشأنهم ولكنى يعتزوا باضافة لون آخر الى لونهم ؛ حتى لا يقال إن حزب الأمة عاد الى بدايته وانتهى الى غايته . ان الله لا يصالح عمل المفسدين »

وقد تسربت أنباء الخلاف إلى مجالس القاهرة ، وأخذ أنصار عدلى — أو أنصار الوزارة المقبلة — يروجون لفسكتهم فى حذر وتكتم تمهيداً لقيام الوزارة ومقابلة الأمة إياها بالتأييد والتفاؤل ، وعلم الخاصة والعامة أن الوفد لم يكن على رأى واحد فى مسألة التحفظات ولا على خطة واحدة فى موضوع المفاوضات الرسمية ، وازدادوا علماً بذلك من رسالة برقية أرسلها سعد قبل وصول الأعضاء العائدين إلى القاهرة ونشرت فى صحيفة الاخبار ذكر فيها ما صرح به للجنة الملترية من أنه « لا يمكنه ولا يمكن أى انسان للأمة ثقة به أن يدخل المفاوضات على أساس هذا المشروع قبل تعديله بالتحفظات » ثم قال : « غير أن فكرة نبتت الآن فى بعض النفوس ترمى إلى أن الوفد مع تمسكه بهذه الخطة فى خاصة نفسه لا يمنع الغير من الدخول فى المفاوضات على خلاف هذا الشرط ، بل يلزمه أن يؤيده ويعلن ثقته به متى كان من أصدقائه . وهى فكرة أقل ما فيها أنها غير مفهومة ولا يترتب على العمل بها الا افساد خطة الوفد نفسه . لأن تعديل المشروع بالتحفظات قبل الدخول فى المفاوضات إما أن يكون فى اشتراطه مصلحة أولاً . فان كان فيه مصلحة فلا يصح تأييد

من يخالفه . وان لم يكن فيه مصلحة فلا معنى لاشتراطه ، كما لا معنى لأن يؤيد الوفد عملاً منع نفسه منه سوى أن يسعى لتأييد خطة منافية لخطة وأن يتحمل مسؤوليته أمام الأمة عن عمل لا دخل له فيه ، ولا هو متفق مع مبادئه . لهذا أظهرت لجميع أبناء وطني أنني لا أوافق على هذه الفكرة أصلاً وأحذرهم منها ومن تصديق أى قول لم يصدر مني بقبولها ، أو تعديل الخطة التي كررت بيانها الأمة ، وهى أنني لا أدخل فى أى مفاوضة على أساس مشروع ملتر قبل تعديله بالتحفظات ، ولا أؤيد من يدخل فيها بدون هذه الشروط مهما كانت علاقته بشخصى ومهما كانت ثقتى به .

جاء هذا البيان قرينة جديدة على وجود الخلاف وإيماء موجزا إلى موضوعه ودواعيه فلما عاد من عاد من أعضاء الوفد عقيب هذا البيان — وهم محمد محمود باشا وحمد الباسل باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على بك ولطفى السيد بك — خامرت الناس الظنون فيما يقصدون ووقر فى الأذهان أنهم هم أصحاب الفكرة التي نبتت فى بعض النفوس . . . وسارع اليهم من يسألهم عن الحقيقة فكاشفوا بعض السائلين وكتبوا الأمر عن الآخرين ، وأحسوا بعد قليل من مقامهم فى مصر أن التيار أقوى من المصادمة والمجازفة فلجأوا الى التقية ورضوا أن يكتبوا إلى سعد مع بقية أعضاء الوفد المقيمين فى القاهرة رسالة برقية يعربون فيها عن الثقة به « وتأييده فى خطته الوطنية الحكيمة »

واستمرت مساعى التوفيق على هذا النحو ولكن على غير جدوى . لأن النفور قد استحکم حتى أو شك أن يمنع الألفة النفسية ولو اتفقت الآراء والأغراض . فكيف بها وهى على أبعد خلاف ؟

وساعدت الحوادث سعداً فازداد مخالفوه أحجاماً وحذراً من الظهور وازدادوا بغضاً ونقمة مع شعورهم بتعاضد نفوذ وخوفهم من الهجوم عليه .

فقد استقال ملنر وقام في مكانه مستر شرشل المعروف بالغلو في مطاعم الاستعمار ، ولم تمض عليه أيام في وزارة المستعمرات حتى خطب في مأدبة لتوديع حاكم الهند فأدخل مصر « في دائرة الامبراطورية المرة » ... وأثار بذلك ثائرة المصريين فرأى « المعتدلون » أنهم مطالبون قبل الآخرين بإنكار هذه السياسة التي يظن في مصر أن الحكومة الانجليزية تعتمد عليهم في تنفيذها وترويض الشعب المصري لقبولها . إذلم يكن معقولا أنها تعتمد على « المتطرفين » الذين لم يقبلوا ملنر وهو أهون من شرشل كل على حال . فكتب حسين رشدي وعدلى يكن وبضعة من رؤساء الدين والوزراء احتجاجا على كلام شرشل أعلنوا فيه أنهم « يرون من الواجب أن يؤكدوا أن الحل الصحيح للمسئلة المصرية لا يكون إلا باتفاق ترضاه الأمة المصرية ، أساسه محالفة لاتدع محلا للشك في استقلال مصر »

وقد لاح من استقالة ملنر وحدها أنها دليل على استعظام الانجليز ما « منحه » المصريين من شروط في مشروعه المرفوض من الجانبين . فاذا كانت الوزارة البريطانية لا ترضى بمشروع ملنر فكيف ترضى بما هو فوقه ؟ وإذا كانت هذه تصريحات خليفته فكيف يرجى منه انصاف أو سماحة في التفاهم على مواضع النزاع ؟ وماذا بقي للمعتدين المصريين غير الحبوط ؟ وماذا بقي للأمة غير الحذر من عواقب هذا الاعتدال ؟ وزاد الطين بلة أن اللورد ملنر كان قد تحدث في رابع فبراير حينما جهر فيه باعتماده على المعتدلين وقال انه « لا يظن أن قوى الفئة المتطرفة تتغلب على نفوذ المعتدلين الذين هم الكثرة بين العناصر المعـدودة في مصر ، وهو مقتنع بأن المعتدلين يدركون ما للعلاقات الجديدة المقترحة بين بريطانيا العظمى ومصر من القيمة والشأن من وجهة الوطنية المصرية »

وليس من طبيعة المعتدلين - بحكم كونهم معتدلين - أن يقتحموا مثل هذه العقبات أو يستهينوا بمثل هذه العوارض . فوجب تذليل الصعاب في طريقهم

قبل أن يجتروا على خطوة أخرى في سبيل المفاوضات الرسمية ، وقد أراد اللورد اللبني أن يدلل الصعاب أمامهم ويقدم لهم المعونة اللازمة بتصريح يعد فيه باسم حكومته أنها تستبدل علاقة أخرى بعلاقة الحماية . فأبلغ « صاحب العظمة » السلطان قرار حكومته الذي جاء فيه أنها « تستتج أن نظام الحماية لا يكون علاقة مرضية تبقى فيها مصر تجاه بريطانيا العظمى . ومع أن حكومة جلالته لم تصل بعد إلى قرارات نهائية فيما يختص باقتراحات اللورد ملترفانها ترغب في الشروع في تبادل الآراء في هذه الاقتراحات مع وفد يعينه عظمة السلطان للوصول — إذا أمكن — إلى ابدال الحماية بعلاقة تضمن المصالح الخصوصية التي لبريطانيا العظمى وتمكنها من تقديم الضمانات الكافية للدول الأجنبية وتطابق الأمانى المشروعة لمصر والشعب المصرى »

وهذا قرار قد خلا من كل وعد قاطع ترتبط به الحكومة البريطانية ، وقيد الوعد المبهم الذى فيه بالامكان وبانتظار التوفيق بين العلاقة الجديدة - التى لا يعرف أحدهما - وبين مصالح بريطانيا العظمى ومصالح الدول الأجنبية كما تراها السياسة البريطانية ، ولكنه مع هذا قد سهل مهمة الوزارة المنتظرة وقابله الوفد فى باريس بالتزام الحيدة ومراقبة الأحوال ريثما يتم التمهيد الضرورى للمفاوضات الرسمية ، وأرسل سعد فى طلب الأعضاء المقيمين بمصر لموافاته فى باريس ، فاجتمعوا واتفقوا على السفر بعد أسبوع

وانهم لى انتظار الحوادث اذا بالوزارة النسيمية التى كانت يومئذ فى الحكم تستقيل واذا بعدلى باشا يدعى إلى تأليف الوزارة . فعدل الأعضاء عن السفر ونمت إلى سعد أبناء من القاهرة عدلت به هو أيضا عن البقاء فى باريس ، فاعتزم الاياب الى مصر على عجل ، وقال لمندوب شركة روتر إنه يعود للمباحثة فى التعاون مع الوزارة فى المفاوضات الرسمية على أثر التصريحات البريطانية والمصرية الحديثة ، وانه عازم على الوصول بالبرنامج الوطنى الى نتيجة مقرونة بالنجاح . وكذلك التحفظات التى طلبها المصريون فى مشروع الاتفاق بين الوفد واللجنة الملنرية »

الوزارة العدلية

في ظاهر الأمر كانت الوزارة العدلية هي الوزارة المراقبة دون غيرها لاجراء المفاوضات الرسمية أو حل القضية المصرية . ولكن السياسة في مصر لا تستقر على شيء محقق إلى زمن طويل . ففي الوقت الذي كان فيه المطلعون على الشؤون الوزارية يترقبون وزارة عدلى بعد استقالة الوزارة النسيمية كانت البواطن وشيكة أن تكذب الظواهر بين آونة وأخرى ، وكان الانجليز كعادتهم يتركون الباب مفتوحاً لتجربة أخرى من تجاربهم الكثيرة التي لا يسمونها ، وكانوا يترددون في اختيار عدلى دون غيره . وبخاصة لأن الأعضاء الوفديين لم يجهروا بانشقاقهم على سعد كما كان الأمل في مساعيه .

قال اللورد جورج لويد في أوائل الجزء الثانى من كتابه مصر منذ عهد كرومر : « أصبح عدلى باشا في هذه الآونة وهو محور كل تركيبة ملائمة ، وألقى عليه البريطانيون رجاءهم على وجه الخصوص ، فقد كان الزعيم المعتدل الوحيد الذى كان على صلة حميمة برؤساء الزغلوليين وكان له النفوذ الأعم بين الطوائف المختلفة من غير الزغلوليين . وهناك رئيس الوزارة لا بد أن يعطى منزلته واتصان له كرامته ، وهناك محمد سعيد باشا وأصدقائه الأقوياء من أمراء البيت المالكة ، وهناك رشدى باشا وثروت باشا ومظلوم باشا الذين لا ينبغي اغفالهم والتهاون بأمرهم ، وهناك بعد ذلك كله جماعة المستقبل النيابية التي لا بد من ضمان موافقتها على نحو من الأنحاء . أما زغلول فالشائع أنه لا يقبل الخدمة وأن زملاءه لن يغادروه كائنا ما كان الاشتراك بينهم وبين عدلى باشا في الفكرة وقد تنحى مظلوم باشا الذى أراد السلطان رئيساً لوفد المفاوضات فوجب من ثم ان ترسم خطة جديدة . وكانت النتيجة قيام الوزارة العدلية »

ثم قال : « أن عدلى باشا لم يكن يقبل العمل برأسه توفيق نسيم باشا رئيس الوزارة يومذاك ، ولم يكن السلطان يرضى أن يتبوأ عدلى مكانة كبرى . ومن مشيريه في ذلك محمد سعيد باشا الذى كان مفهوما أنه يعارض سياسة المعاهدة برمتها ولا ينى يدس الدسائس لاجباطها . ولم يسع المندوب السامى فى نهاية الأمر إلا أن يتدخل لوقف هذه الدسائس العقيمة ، فقامت الوزارة العدلية والسلطان لا يودها ولكنها على كل حال خير ما يتسنى الوصول اليه لهذه الغاية »

وهكذا قامت الوزارة العدلية والجمهور لا يعلم شيئا عن دخائل الأحوال التى أحاطت بقيامها من ناحية الوفد أو من ناحية الانجليز أو من ناحية السلطان . فاستقبلتها الأمة بشيء من الترحيب لم تستقبل به وزارة قبلها بعد الحرب العظمى ، وكان معظم المحتفلين بها أنصار الحكومات وطلاب المصالح عندها ممن كانوا يتحاشون تأييد الوزارات المكروهة مخافة سوء السمعة . فلما وجدوا وزارة لا حرج من تأييدها تفاقموا عليها وشجعهم ما رأوه من حفاوة أصـدقائها الوفدين ووقوف زملائهم الآخرين منها موقفا لا عدا في ولا مهاجمة ، وتوالت عليها وفود المهنيين ورسائل التهنئة من مجالس المديریات والمجالس المحلية وسائر الهيئات التمثيلية . أما الجمهور فكان معظم ترحيبه بها فى الحقيقة ترحيباً بزوال الوزارة النسيمية التى اشتد بغضه إياها لما أصابه فى عهدها من جور السلطة العسكرية ومغاشم الأحكام الاستثنائية ، وكان قريب عهد بصدور الأحكام الصارمة فى قضية عبد الرحمن فهمى بك وأصحابه وهو كاتم السر فى لجنة الوفد المركزية ، والجمهور يعتقد أن توفيق نسيم باشا كان ينطوى له على ضغن خاص لأسباب سياسية وغير سياسية ، ومما كان يذكره الجمهور لنسيم باشا أنه كان أحد رجائين اثنين فى محكمة استئناف رفضا التوقيع على توكيلات الوفد الأولى ، وأضاف إلى

ورفضه أنه حمد الله على برئه من حمى الوطنية ! فلما انتهت وزارته شعر الجمهور بالفرج وتفاؤل بقرب انتهاء القضايا والمصادرات والتهم السياسية ومظالم السعاية والجاوسية . وتهيأت الفرصة من جهات شتى للوزارة العدلية فنشأت في جورائق وطمعت في مساعفة الآمال

وعدلى يكن رجل مشهور النزاهة موفور الكرامة يقصد الخير ويؤمن فيما ارتضى لمصر من مصير بأن ليس في الامكان خير مما كان . ولكنه إذا أصبحت المسألة مسألة جماهير وطبقة حاكمة فهو ولا ريب في جانب الطبقة الحاكمة بسليقته وموروثاته ونشأته الهائلة ونفوره من الحركات الشعبية ولا سيما إذا كانت من شعب لا يمتزج به امتزاج الدم والسلالة . ولعل فاصل الطبقة أوسع من فاصل الجنس والسلالة في هذه المسألة . فلو كان عدلى باشا في البلاد التركية — لا في مصر — لما اطمأنت نفسه إلى حركات الجماهير هناك ولا نسى الفارق بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة ولو امتلأت جوانحه بالنخوة الوطنية والنعرة الجنسية ، وهو عدا ذلك قليل الطموح قليل الجلد على الكفاح ، فلا جرم يقنع بأيسر الأمور ولا يشعر مع ذلك بأن ما قنع به شيء يسير بالقياس إلى جماهير المصريين

وفي وسعنا أن نعرف من خطابه إلى السلطان القصد الذي يرمى إليه بتأليف الوزارة بعد الخلاف بين أصحابه وأصحاب سعد من الأعضاء الوفديين . فهو يقول في ذلك الخطاب بتاريخ السابع عشر من شهر مارس أن الوزارة « ستجعل نصب عينيها في المهمة السياسية التي ستقوم بها لتحديد العلاقات الجديدة بين بريطانيا العظمى وبين مصر الوصول إلى اتفاق لا يجعل محلا للشك في استقلال مصر . وستجرى في هذه المهمة متشعبة بما تتوق إليه البلاد ومسترشدة بما رسمته إرادة الأمة وستدعو الوفد المصرى الذى يرأسه سعد زغلول باشا إلى الاشتراك في العمل لتحقيق هذا النرض . وبما يوجب الارتياح أن تصریح الحكومة البريطانية بأن المفاوضات ستجرى على أساس

الغاء الحماية من شأنه أن يسهل مهمة الوزارة من هذه الوجهة . فإن ذلك التصريح الذي يدل على حسن استعداد بريطانيا العظمى مما يدعو إلى الأمل بأن المفاوضات التي ستحصل بهذه الروح ستفضي إلى اتفاق يحقق للأمانى الوطنية ، ويكون فاتحة عصر جديد بين البلدين شعاره المودة وتبادل الثقة . وسيكون للأمة على لسان الممثلين لها في الجمعية الوطنية القول الفصل في هذا الاتفاق « وبما أن هذه الجمعية ستكون أيضاً بمثابة جمعية تأسيسية فإن الوزارة ستأخذ على عاتقها تحضير مشروع دستور موافق للمبادئ الحديثة والأنظمة الدستورية . وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضمانات التي تكفل تمام حريتها وتنظم بكيفية تحقق تمثيل رأى الأمة تمثيلاً صحيحاً »

« وفي هذا المقام تعرب الوزارة عن اعتقادها بأن الظروف الحاضرة تبرر الإسراع في الرجوع إلى النظام العادى وبأنها ستتمكن — بفضل نفوذ عظمتكم — من رفع الأحكام العسكرية والغاء الرقابة في القريب العاجل . وإنا نعتد على حكمة الأمة في تسهيل هذا العمل الذى يحقق نجاحه أعز أمانى الوزارة »

هذا هو البرنامج السياسى الذى أثبتته عدلى باشا في خطابه إلى السلطان . وفى وسعنا كما قلنا أن نعرف وسيلة إلى تحقيق هذا البرنامج مع الاستعانة بالوفد لأنها لا تحتمل أكثر من وجه واحد : يدعو الوفد إلى الاشتراك في المفاوضات ، وتصل الدعوة إلى الوفد والكثرة فيه من أنصار الوزارة العدلية وطلاب « إنهاء الحالة » بكل حيلة ، ويجرى البحث بين أعضاء الوفد في اختيار من يمثلهم في المفاوضات الرسمية فيقع الاختيار على اثنين أو ثلاثة من أنصار الوزارة وموافقيها في الخطة والغاية ، وهم قلة في الوفد الوزارى الذى يتولى المفاوضات الرسمية لا يقدمون ولا يؤخرون ، ولكنهم لو كانوا كثرة لما عاقوا الوزارة عن خطتها وغايتها لأنهم جميعاً على تفاهم في السياسة منذ تمت المفاوضات الملترية . ويسافر الوفد الوزارى لامضاء المعاهدة

كائنة ما كانت والتبعة فيها من نصيب زغلول والحل فيها من شأن عدلى وهو المستفيد من اشتراك الوفد — الذى يرأسه سعد زغلول باشا — فى التبعة والمفاوضة والامضاء

يجرى هذا وسعد فى باريس ، والجو فى مصر خال للوزارة تهيوه لقبول ما تأتى به من العاصمة الانجليزية ، والاقبال على الانتخابات والترشيحات يتيح لها كسب الاعوان والاتباع والمرشحين والناخبين ، ويساعدها على نجاح هذا التدبير كله أنها تعمل ولا منازع لها فى الظاهر ولا محاربة بينها وبين الوفد تبيح له أن يأخذ لنفسه العدة وأن يتقى هذه الغارة الخفية ، فلا يشعر سعد إلا وهو والامة معه فى قبضة الوزارة العدلية تملى عليه ما تشاء ، فيستوى منه الاذعان والاباء

إن سكن سعد إلى هذا التدبير فذاك ، وإن تهرم به فالكثرة من أنصاره يخذلونه ، وجاه هؤلاء الأنصار فى البلاد وجاه الوزارة يتعاونان على إخضاعه وفض الاشياء والمعجبين من حوله . ويكمل الامر كله يوم يعود الوفد الرسمى بالغاء الحماية فى يد والمعاهدة فى اليد الأخرى ، ولا معارض هناك ولا من يحفل بالمعارضة بين سواد المصريين ونخبة الساسة المتألمين .

وتكاد تبدو هذه النية من خلال ذلك الخطاب الذى وعدت فيه الوزارة بدعوة الوفد إلى المعاونة . ففيه تقول الوزارة عن الانتخابات الدستورية : « وستحاط الانتخابات لهذه الجمعية بكل الضمانات التى تمكفل تمام حريتها وتنظم بكيفية تحقق تمثيل الأمة تمثيلاً صحيحاً .. فما الحاجة إلى وعد الوزارة باجتئاب الضغط فى الانتخابات إذا كانت تضمّر فى نيتها بقاء الصداقة بينها وبين الوفد وجمهرة الأمة ؟

ما حاجة الوزارة إلى ذلك الوعد إذا كانت ستنزل إلى ميدان الانتخابات وهى لا تحسب حساباً لمعارضة تخشاهما وتوقع أن تجيئها فى الجمعية التأسيسية

بكثرة تناوئها؟ إنما هذا كلام من بيت النية على نزول الميدان لحسابه ، وتوقع المعارضة القوية من غيره ، وإنما تنطق البديهة هنا من وراء اللسان

ترامت الأنباء تترى إلى سعد في باريس ، وسمع من قبلها بأسماء الوزراء وفيهم من بينهم وبينه جفاء شديد ولاأمان لهم في علاج القضايا الوطنية ، ولم يكن عدلى قد أطلععه على الأسماء ولو من قبيل المجاملة والابلاغ . فعلم سعد أن الحالة تستدعى المراقبة عن كثب ، وأزمع المبادرة بالعود الى البلاد .

العودة

ملك سعد ناصية الموقف من ساعة وصوله الى شاطئ الاسكندرية ، وثبت في عالم العيان لمن كان في شك من الأمر إن هذا الرجل أقوى قوة في سياسة مصر القومية ، وإن كل اتفاق بين مصر وإنجلترا يتم على الرغم من هذا الرجل أو مع اغفال شأنه وتهوين خطره مستحيل

لقد كان اليوم الرابع من ابريل — يوم وصوله الى الاسكندرية — يوم الجليل بأسره في العالم بأسره ، ولك أن تقول وأنت آمن من الغلو ان استقبال سعد في ذلك اليوم وفي اليوم الذي بعده كان أنخم استقبال لرجل من الرجال في أوائل القرن العشرين . فقد انتظمت مصر موكبا واحداً للحفاوة به من شاطئ البحر ، بل من مدخل الميناء ، الى عاصمة الديار المصرية . وارتفعت الزينات وأقواس النصر من سلم الباخرة الى حجرته في فندق « كلارديج » الذي نزل فيه ، وكان الناظر لا يرى في كل مكان إلا صورة سعد ولا يسمع إلا الهتاف باسمه وأناشيد المترنمين بذكره . وانقضى أسبوع قبل وصوله والوفود تتزاحم على الاسكندرية من أقصى القطر الى أقصاه ، حتى تعذر المبيت في الفنادق ولجأ الناس الى البيوت يسألون أصحابها أن يؤوهم الى مكان يسكنون اليه ريثما يحين اليوم الموعود . ولم تبق شرفة في الطريق إلا غالى المستأجرون بثمن الوقفة فيها بضع ساعات حتى نيفت أجرة الشرفة على أجرة البيت ، وضائق الطرقات عن مسير المركبات وأوشكت أن تضيق عن مسير الأقدام من مجاز الى مجاز ، ولما استقل القطار من الاسكندرية الى القاهرة تلاحقت الجموع على طول الطريق تأبى إلا أن تستوقفه مرات في غير مواضع الوقوف ، ومنهم من كانوا يترامون على القضبان في بعض القرى الصغيرة ليغتنموا لحظة

من الوقت يقف فيها القطار ويطل فيها الزعيم على المستقبلين . وخرج كل
مستطيع الخروج في مدينة القاهرة الى الطريق ما بين باب الحديد إلى بيت
الامة يترقبون من الصباح ساعة قدوم الرئيس في نحو الخامسة من المساء .
فلما لاح لهم في سيارته نسوا أنفسهم أفراداً وذكروا أنفسهم قوماً واحداً
لا اختلاف فيه بين صوت وصوت ولا بين دعاء ودعاء ، وبلغ من نسيان
النفس وغلبة الوجدان على الارادة أن أناسا كانوا يتسلقون الأشجار والأسوار
أرسلوا أيديهم ليصفقوا وهم لا يدرون أنهم معصمون بتلك الأيدي من
خطر الوقوع . . . ولا خطر في الحقيقة من الوقوع ، حيث لا أرض في طول
الطريق الا وقد غشاها ألوف الواقفين .

وتمشت السيارة الهوينا وهي تكاد تزحف من بطء المشية بين الصفوف ،
وسعد واقف عليها بقامته المديدة وطلعته المهيبة ومحضره المأنوس يحكي الحنين
بكتا يديه وتسترسل الدموع من عينيه . وتلك طبيعة فيه إذا جاشت نفسه
بالشعور واهتزت أريحته بهزة الجمهور .

ولا نطيل في سرد أسماء المستقبلين ووصف معالم الاستقبال فانما أردنا
الأثر الطبيعي المفاجيء الذي كان لاستقبال سعد في ضمير الامة مما له دلالة
قومية . ولم نرد المراسم والأشكال التي قد تتكرر في كل يوم بغير دلالة . ويكفي
أن نقول إن مصر لم تتمثل تمثلاً في موكب الاحتفال بعودة زعيمها الراجع
اليها ولكنها كانت كلها موكب احتفال واحد لم يتخلف عنه مصرى واحد
قادر على حضوره أو المشاركة فيه ، وانقضى يوم الوصول الى الاسكندرية
ويوم الوصول الى القاهرة ولم يحدث في المدينتين الحافلتين بألوف الألوف
من أهلهما والوافدين اليهما ولا في طول الطريق بينهما حادث واحد مما يسجله
الموكون بالامن في سائر الأيام . كأنما غاب الأفراد في غمار « أمة واحدة »
فلم يبق بينهم ما يكون بين الأفراد من نزاع واعتداء

وعند الساسة المترفين والحكام الذين يتحذلقون باحتقار الجماهير ماذا

يكون ذلك كله الا « زفة » كبيرة تتفرق في ساعات كما تجمعت في ساعات ثم لا أثر بعد ذلك لتفرق ولا اجتماع ؟ لكن الخطأ في هذا التقدير إنما هو خطأ الساسة المترفعين والحكام المتحذلقين . فليس كل اجتماع للجماهير زفة تستحق التأفف والتحقير ، وان اجتماع ذينك اليومين اعلى وجه التخصيص لم يكن فيه ما يترفع عنه السائس الحقيق بشرف السياسة ولا الحكيم الحقيق بمعنى الحكمة . فلم يخرج الشعب لفرجة ولا كان ذلك الرجل المائل أمام عينيه موضوع تلك الفرجة ، ولكنها قوة أحسها الشعب فانبعث بها إلى حيث تتلاقى أفواجه وتزخر أمواجه ، وذلك الرجل هو عنوان تلك القوة أو لسان تلك القوة أو مناط الأمل المرجو من تلك القوة ، وإذا وجدت الشعوب نفوسها وأهتدت الى سريرتها فانما تجدها وتهتدى اليها في لحظة من لحظات النشوة الوطنية كتلك اللحظة التي استثارها فيها حب الزعيم والشوق إلى مرآه . فزعامة سمعد حقيقة لا طلاء ، وتأيد الشعب لتلك الزعامة حقيقة لا طلاء . وأين يكون الزيف أو البهرج في ذلك الشعور المتجاوب الذي التقت فيه قوة الشعب وقوة الزعيم ؟ ومتى يكون اجتماع الجماهير معدناً قوياً لا بهرج فيه إن لم يكن ذاك الاجتماع الذي أنشأته الطبيعة من قراراتها وأخلته من كل اصطناع يعيها ؟ للشعوب لا شك ساعة اشراق تنكشف لها فيها أغوارها وما طراً عليها من جديد أطوارها ، كاشراق الصوفي في يقظة الروح وإشراق الطفل في يقظة الشباب ، وذلك الاجتماع ولا شك كان من خير يقظات الاشراق في الشعوب

ومن حفاوة الجماهير ما هو عادة تخرج إلى حد البلادة . ولكن الذين شهدوا تلك الحفاوة ما شعروا قط أنهم يشهدون شيئاً مرسوماً بتدبير أو بارادة الجماهير ، وإنما شعروا أنهم بين يدي مفاجأة لدنية كل من فيها مدفوع إلى مجال لم يألفه قبل ذاك ، ولم يكن حديث الجماهير صباح يوم الاستقبال تعالوا نرى كيت وكيت واهلوا نسمع كيت وكيت مما هو محفوظ وموعود

في حفاوات العرف والعادة والتدبير ، وإنما كانوا يرتجلون كل شئ ، ويستقبلون في كل شئ مصادفة الارتجال : ارتجال شعورهم ، وارتجال مسيرهم ، وارتجال وقوفهم وعبورهم ، وارتجال زهوهم وسرورهم ، وارتجال ما هتفوا وما سمعوا وما أبصروا وما انتظروا ، لأنهم لم يحضروا يوماً كذلك اليوم ولم يعلموا إلا أنه سيكون يوماً معدوداً في الأيام لأنه غريب بين هذه الأيام ، وهذا سر التكراف له والتشوف اليه

ومن المحقق أن تسعين في كل مائة ممن حضروا ذلك الاستقبال لم يروا سعدا قبل ذلك رأى العين ولم يتعودوا أن يجالسوه في المنازل أو في الحفول ولم يعرفوا ملامحه إلا من الصور الشمسية ومعظمها قديم ، لأنه لم يخاطب الجموع يوم كان في الوزارة ولم يخاطبهم يوم كان في الجمعية التشريعية ، ولم يكذب يشرع في مخاطبتهم بعد الهدنة حتى حيل بينه وبينهم بالاعتقال العاجل ، وقد مضت ثمانى سنوات على رؤية من رأوه في إبان الانتخاب للجمعية التشريعية وهم غير كثيرين . فالذين أقبلوا للحفاوة به يوم عودته إليهم أقبلوا كالذين يتشوفون إلى ذات من ذوات الغيب تتجلى لهم فجأة في عالم الشهادة . وقد لبثوا يأملون في الحرية ويمزجون أملهم بحب سعد زغلول ، ويتوقون إلى النجاح ويمزجون توقائهم بحب سعد زغلول ، ويغضبون لحرمانهم ويمزجون غضبهم بحب سعد زغلول ، ويفرحون بالنصر ويمزجون فرحهم بحب سعد زغلول ، ويمزجون على شهدائهم ويمزجون حزنهم بحب سعد زغلول ، وها هو ذا سعد زغلول حاضر بينهم لمن يراه ويسمعه فهم إذن يبصرون كل ما خامر نفوسهم من خوالج الحياة القومية ماثلاً للعيان ، أو هم إذن يستعيدون ما أحسوه جميعاً ويعيدونه صورة حية كصورة المعاني التي لا تزال في حاجة إلى عنوان شاخص ، وإذا العنوان الشاخص بطل من الأبطال ملء النفس والبصر ، لا رمز صامت ولا تمثال وليس الشعب على خطأ فيما أولى سعدا من حفاوة و إعجاب يميزان الفكر والتقدير ودع عنك ميزان الوجدان والشعور ، فإنه قد أوفى بشرط

الزعامة وأدى أمانة القيادة . وأين هي الأمة المغلوبة التي لا تشرفها زعامة كزعامة سعد في سماته أو في مناقبه أو في أعماله ؟ وماذا تأمل الأمة المغلوبة من قائدها أكثر من أن ينال لها اعتراف الخصم بوجودها واعترافه بحقها ؟ وهذه الحماية التي كان المعتدلون يحسبونها قضاء مبرما لا كلام فيه ولا رجاء في الغائه أو الوعد بالغائه ألم تصدق فيها عزيمة سعد وتكذب فيها روية « الاعتدال » ومرونة المعتدلين ؟ فإذا كان هنالك استقلال لم يتحقق بعدها الوعد فالرجاء فيه معقود بعزيمة سعد والخوف عليه محذور من أولئك المعتدلين

وبينما كان الشعب يستقبل زعيمه ذلك الاستقبال كان للبقابلات الرسمية دورها الذي لا بد أن يجري في مجراه . فقد كان أول من استقبل سعداً في ميناء الاسكندرية صاحبه القديم محمد سعيد الذي ذهب يحدد المودة له لأن مزاحمته الحاضرة لعدلى ورشدى وثروت أشد من جفائه السالف للزميل القديم ، وكان أول سؤال القاه عليه : ماذا أنت صانع بزيارة السلطان ؟ فذكر له سعد دسائس المغرضين الذين نقلوا إلى القصر السلطاني أنه يطمع في رئاسة الجمهورية ويتحدث بما زعموه في هذا الصدد من حديث مكذوب . ثم قال إنه سيذهب لزيارة القصر وتقييد اسمه في سجل التشريفات ، ولكنه يرجو أن يسبق ذلك دليل من السلطان على الرضى والاعراض عن دسائس المغرضين ، وإن زيارته لتقديم واجب الولاء لا تقابل بالعزوف والاهمال . فأسرع سعيد باشا إلى التليفون يخاطب ديوان التشريفات ويرجو أن يذهب من لدنه من يلقي سعداً عند وصوله إلى محطة العاصمة ، ولم ينكشف للناس مما حدث بعد ذلك إلا أن سعداً لم يذهب إلى ديوان التشريفات

أما دار الحماية فلم يزرها كما جرى العرف بين الوزراء والساسة المصريين في ذلك الحين ، لأنه لم يشأ أن يعترف بالحماية وهو ناهض لالغاء الحماية ، وأما الوزراء فقد قابله منهم عدلى يكن باشا ورشدى باشا على المحطة مقابلة الأصدقاء ، ولكنها كانت كمصافحة الانداد قبل بداية الصراع

الخلاف على المفاوضة

استهل سعد جهوده في مصر ببلاغ شكر فيه الأمة على ثقتها وحفاوتها وأقسم فيه أن لا يدخر شيئاً من وسعه لتحقيق هذه الثقة الغالية وأن لا يتحول لحظة واحدة عن الغرض الذي وضعه نصب عينه . ثم قال : « إننا لم نعد إلا لنقوى بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ونشد ازربنا باتحادهم المتين ، ونتمتع بمرآهم بعد طول هذه الغيبة ، وتؤكد من أن الاشتراك في المفاوضات الرسمية الذي دعته الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التي وضعتها الأمة وعاهدناها على احترامها ، ومع الخطوة التي رسمتها وتعهدها بمتابعتها ، ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن تسترشد بإرادة الأمة ، وعاملة على تحقيق غايتها السياسية »

وهو كلام فيه مافيه من وعد وحذر وتأهب للحوادث .

ولم يلبث أياماً في القاهرة حتى ثبت له أن الوزارة تريد أن تستعين به ولا تريد أن تعينه ، وإن غاية ما عندها من الرغبة في معاونته أن تنال منه كل ما لديه من التأييد وتلقى عليه كل ما اضطلع به من التبعة ، دون أن تكون له في المفاوضة الرسمية مشاركة راجحة .

وفي أبان الولايم التي كانت تقيمها طوائف الأمة طائفة تأييدا له وإعلاناً للثقة برأيه وعمله كان البحث يجري بينه وبين الوزارة بغير انقطاع في شروط المفاوضة وتأليف الوفد الرسمي الذي يتولاها . ولما ان كثر اللغط في هذه الشروط وتضاربت فيها أقاويل الوزراء والسعديين صرح سعد في حديث له مع أحد الصحفيين بأن الوزارة والوفد لم يتفقا بعد على شرط العمل المشترك بينهما ، وفصل هذه الشروط التي ينبغي النص عليها في المرسوم السلطاني وهي :
أولا — الوصول إلى إلغاء الحماية الغاء تاماً صريحاً أي إلغاء الحماية

التي وضعت على مصر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ والتي وردت في معاهدة فرساي ومعاهدات الصلح الأخرى التالية لها .

، ثانياً — الاعتراف باستقلال مصر استقلالاً دولياً عاماً سواء كان في الداخل أم في الخارج مع مراعاة ارادة الأمة التي أبدتها بالتحفظات المدخلة على مشروع اللورد ملنر عند ما عرض عليها قبل الدخول في المفاوضات .

، ثالثاً — إلغاء الأحكام العرفية والمراقبة الصحفية قبل الدخول في المفاوضات .

، رابعاً — أن تكون « غالبية » المفوضين الرسميين للوفد وأن تكون رئاسة المفاوضات من الوفد .

ثم أضاف إلى ذلك : أما أن الوزارة قبلت هذه الشروط ما عدا الشرط الأخير منها فهو قول في غير محله .

وكان قد شاع على لسان الوزراء أن الوزارة تأبى السماح بالشرط الأخير لأن التقاليد المصطلح عليها في المفاوضات الدولية تقضى بأن يتولى رئيس الحكومة رئاسة المفاوضات . وهو قول تناقضه الحقيقة كما هو معلوم . . . فقال سعد في بيان وجهة نظره في هذه المسألة : « ان الوفد يرى أهمية كبرى لرئاسة المفوضين . لأن الوفد هو المسؤول أمام الأمة عن المفاوضات ونتيجتها . ويجب حتماً أن تكون بيده ادارتها حتى يتصرف فيها بأبداء كل ما يراه صالحاً ويوصلها ويقطعها على حسب الأحوال ، ولا يمكن أن يتمكن من ذلك إذا كانت الرئاسة بيد غيره . أما القول بأن هذا ليس منطبقاً على التقاليد المرعية فأى تقاليد يريدون ؟ أن لكل بلد تقاليده الخاصة به ، ولم يقع لمصر حادث كالحوادث الذي نحن بصدده حتى يكون لنا فيه تقاليد سابقة يرجع إليها ويقال بالتمسك بها »

إلى أن قال : « ان حادثنا نادرة في بابها ، ولصاحب السلطان أن يجري فيها طبقاً لما تقتضيه المصلحة . وما دامت سلطة المفوضين تمنح من السلطان

والأمة فما هو المانع الذى يمنع عظمة السلطان من أن يعهد بهذه الرئاسة لمن كملت ثقة الأمة به ؟ فإذا منحتها عظمة السلطان للوفد فمن ذا الذى يتضرر من ذلك وينتقده ؟ أم الانجليز وليس لهم فى ذلك شأن كما صرحوا ؟ أم هى الأمة المصرية وهى تود بل تحتم أن تكون الرئاسة فى الوفد لنائبها ومحل ثقتها ؟ فمن يكون له بعد ذلك الحق فى الشكوى ؟ »

وقال : « انى لم أسع ولن أسعى فى أن أكون مفاوضاً ولكن الحكومة رأت ضرورة اشتراك الوفد فى المفاوضات فرأى أنه لا يمكنه قبول الاشتراك بدون تلك الشروط »

وختم حديثه قائلاً : « أما مسلك الوفد بإزاء الوزارة إذا انفردت بتولى المفاوضات - أى إذا فاوضت الوزارة على غير شريطة الوفد وبعبارة أخرى بغير مرسوم سلطانى تتعين فيه مهمتها تعييناً دقيقاً كما بينت ذلك فيما تقدم - فإن الوفد لا يؤيدها . بل لا يمكنه تأييدها أيضاً إذا عين للمفاوضة من لا يكون حائزاً لثقة الأمة حيازة تامة »

أما الوزارة فقد قالت عن إلغاء الأحكام العرفية والرقابة الصحفية إنها صرحت فى برنامجها « أن ذلك من أعز أمانها . وهى قد مضت فى تحقيق هذه الأمنية ومهدت السبيل للرجوع إلى القوانين العامة فيما يتعلق بحفظ النظام . وقالت عن رئاسة المفاوضات : « إن التقاليد السياسية فى جميع البلاد لا تسمح بحال من الأحوال أن يدخل رئيس حكومة فى مفاوضة سياسية ولا يكون رئيس الهيئة الرسمية التى تتولاها من قبل بلاده »

وكلام الوزارة فى هذا الصدد قد يصح إذا كان واجباً محتوماً أن يشترك رئيس الحكومة فى وفد المفاوضات ؛ ولكن الوزارة كان فيها نائب رئيس هو حسين رشدى باشا وكان من الجائز أن يشترك هو فى الوفد دون رئيسها . وكان من الجائز أيضاً أن ينوب سعد عن الحكومة المصرية فى هذه المهمة . إلا إذا كانت الحكومة تراه صالحاً للتأييد واحتمال التبعة ولا تراه صالحاً للاعتماد عليه فى المفاوضات .

وكيفما كان الأمر ففي رأى المنصفين أن سعداً لم يعد حقه في رفض ما عرضته عليه الوزارة ، لأنها كانت تريد وفداً رسمياً تكون لها رأسته وكثرة أعضائه ولا يكون فيه من الوفد المصرى إلا قلة معروفة من شيعتها الذين يمالئونها ويقصدون قصدها . وماذا يملك سعد من رأى بهذه المشاركة ؟ وماذا يضيره أو يضير الأمة إذا هو رفضها ؟ وأى تبعة أعظم من تبعته في قبول هذه المفاوضات ؟ وأى حق أقل من حقه في توجيهها والإشراف عليها ؟

قد يقال إنه كان عليه أن يقبل المفاوضات ثم يعتزل الوفد الرسمى إذا رضى بمعاودة لا يرتضيها . ولكن ماذا يفيد القضية من ذلك إلا تأجيل الخلاف شهراً أو شهرين بعد بذل التأييد للوزارة في غير حيلة ولا دراية ؟ وإذا بقي سعد مؤيداً للوزارة إلى أن تعرض المعاهدة على الهيئة النيابية المنظورة أفلا نرجع إذن إلى الرفض والخلاف وكل ما جناه سعد من الانتظار أن يضعف قدرته على الرفض والخلاف ؟

الحقيقة أن الانجليز لم ينصروا عدلى يكن ولم يحتموا قيام وزارته إلا لأنهم يرجون أن يقبل منهم ما ليس يقبله سعد زغول . وليس من واجب سعد أن يذلل الطريق لهذا المقصد المريب .

أما ان كان الانجليز يسمحون لعدلى بما لا يسمحون به لسعد فهم لا يفعلون ذلك إلا ليلقوا على الأمة المصرية درساً تتعظ بعقابه ، وهو أنها اعتمدت على رجل من رجالها في مناوأة الانجليز ولن يفوز رجل يناوىء الانجليز من أجل حقوق المصريين ..

ومتى ذكرنا أن سعداً لم يشاكس الانجليز في المطالبة ولم يقصر في محاملتهم عند عرض المطالب المصرية بعد يوم الهدنة وأثناء المفاوضات الملمرية فقد علمنا أن الذنب الذى يحسبه الانجليز على الزعماء الوطنيين هو طلب الحق بأية وسيلة ، وأن الدرس الذى يملونه عليهم هو وجوب التسليم والمجاراة

والتماس الخطوة والزاني ، وهو درس لا يجمل أن يعمل به سعد ولا يجمل أن يعمل به المصريون .

وندع الوجهة العامة وننظر إلى الوجهة الشخصية الخاصة ، فترى ثمة غضاضة لا تعدلها على النفس غضاضة وإن كانت من نفوس الأنبياء والقديسين فلو أن سعداً خضع لما ساموه وتنحى يوم نحوه لصدق عليه قول الترك : « إن الفلاح » لا يصلح إلا للخدمة والتسخير ، وإنما للسادة « الترك » بعد ذلك شرف الظفر واجتناء الثمار وهم قاعدون وادعون . فلعدلى ورشدى أن يخدم الحاية ولهما أيضاً أن يجنيا ثمار الاستقلال حين يتصدى لغرسها فلاح من الفلاحين إن الفطرة الانسانية كلها لتثور في وجه هذه المهانة التي لا يدين لها طالب حرية ، وهو عندما يثور عليها لا يكون ثائراً لكرامته بمقدار ما يكون ثائراً لكرامة وطنه وكرامة العدل بين بنى الانسان .

ومع هذا هل كان سعد زغلول ينازع عدلى يكن في الوزارة ؟ الانجليز أنفسهم يقولون إنه لم يكن يطلب الوزارة أو لم يكن « يقبل الخدمة » إنما كان يطلب رئاسة المفاوضات لأنه كان يطالب ضمان التبعة التي تصدى لها واضطلع بامانة الوكالة من أجلها . ولا نكران لهذا الحق ولا ملام عليه .

ولم ينحصر الخلاف على الرئاسة وحدها بل تعداها الى الاحكام العرفية والرقابة الصحفية ، فان هذه الاحكام قد بقيت في مصر ولا معنى لبقائها الا اكره المعارضين على قبول ما لا يقبلونه أو اكرههم على السكوت وإضعافهم عن المقاومة ، وفيما حدث قبل المفاوضات العدلية وفي أثنائها وبعد اخفاقها دليل على المقصود ببقاء هذه الاحكام

وأدهى من ذلك أن الوزارة لم تكن خالصة النية فيما وعدت من سعيها في الغاء الرقابة الصحفية . فاللورد جورج لويد يقول في الجزء الثاني من كتابه بعد ايمانه الى مفاتحة عدلى للمندوب البريطانى بصدر الاحكام العرفية : « أليس ثمة شيء يتيسر عمله لموافقة بعض مطالب زغلول عن الاحكام العرفية ؟ كلا

لسوء الحظ . فان قانون التضمينات ضرورى ولا يجدى قانون كهذا مالم تنته
المفاوضات ويتقرر الدستور الجديد . ألا يستطيع الغاء الرقابة على الصحافة ؟ ؟
نعم يستطيع اذا كان عدلى يستغنى عنه وهو لا يستغنى ! »

فبقاء الرقابة على الصحافة المصرية كان اذن بموافقة من الوزارة العدلية ،
وسلوك هذه الوزارة والوزارة الثروتية من بعدها فى اغلاق الصحف والحجر
عليها كان سلوك الراغب فى دوام هذا السلاح المفرط فى شحذه واستخدامه ،
وسيرى القارىء أن الوزارة قد استفادت على الأقل من بقاء الأحكام العسكرية
وامعانها فى التنكيل والتشهير ، ونقول على الأقل لأن كثيرا من الناس -
والحوادث تؤيدهم - يقولون إن بعض الوزراء قد هياؤا لتلك الأحكام
حجة البقاء بما جرى من مذابح الأسكندرية التى حدثت قبل سفر الوفد
الرسمى الى العاصمة الانجليزية

القطيعة بين سعد والوزارة

وقع الخلاف المتوقع . وتمت القطيعة بين سعد والوزارة على أثر مقابلة عاصفة بين رشدي وسعد اشتد فيها رشدي كدأبه في الغضب وجابه سعداً بجابهة غليظة ثم تركه وهو يقول : « هذا آخر ما عندنا . فاصنع ما أنت صانع ! »

وذهب سعد ليخطب في حفل أقيم لتكريمه في ضاحية شبرا فجهر بحقيقة هذا الموقف بينه وبين الوزارة ونادى هناك بكلمته المشهورة : إن المفاوضة على يد وفد تعينه الوزارة وحدها في بلد خاضع للحماية والأحكام العرفية معناها أن « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس » . وقال في هذا المعنى : إذا طلبنا الرأسة فأنما نطلبها ليكون الرئيس حراً مرتكزاً على قوة لانتهاج شيئاً في المطالبة بحقوقها وهي قوة الأمة . لا أن يكون مرتكزاً على قوة مستمدة من الحكومة الانكليزية لأن ذلك يجعل المفاوضات بين الأصل وفرعه ... أي بين الحكومة الانكليزية والحكومة الانكليزية أيضاً . وليست هذه أول مرة ذكرت فيها هذا المعنى الذي تشرفت بعرضه الآن لكم ولكني رفعت الصوت به في وزارة المستعمرات الانكليزية . فقلت للجنة ملتر في جلسة ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٠ : من ذا الذي يعين المفاوضين المصريين ؟ فأجاب : الحكومة المصرية ! فقلت إذن جورج الخامس يفاوض جورج الخامس «

وقد اختلف أعضاء الوفد المصري على مسألة الرأسة ، فتمهم من أيد سعدا ومنهم من استقال ومنهم من أعلن الثقة بالوزارة العادلة . فأعلن سعد أنه سيمضي ومن معه في طريقه . وعيب عليه ذلك لأنه - كما قيل يومئذ - يخالف للروح الدستوري الذي يقضي بتغليب رأى الكثرة ، ولكن دستور الوفد

الواقع هو نصوص الوكالة التي لا يجوز الخروج عليها ، والروح الدستورية — بعد — لا يمنع القلة في لجنة من اللجان أو هيئة من الهيئات أن تعمل وحدها على حسب رأيها إذا انفصلت عن السكثرة أو انفصلت السكثرة عنها ، ولو كان الوفد مجلساً نيابياً وأجمع على رأى من الآراء لجازحله لاستفتاء الأمة والأتان بمجلس نيابى فى مكانه ، وفتوى الأمة يومئذ هى تغليب رأى سعد وتجديد الوكالة له على مبادئ التوكيل التى لم يخرج عنها ، وكانت هذه الفتوى أظهر من أن تحتاج إلى اظهار ، أو كانت على الأقل تسمح له بالعمل وحده والاعتماد فى العمل على من يشايعه ويطمئن اليه

وقد تطوع كثيرون للوساطة بين الوزارة وسعد من جهة وبين سعد وأعضاء الوفد المنشقين من جهة أخرى فلم تسفر الوساطة عن فائدة ، وكان معظم هذه الوساطات فى دخيلتها من قبيل النكايه والزام الحجة ، يقوم بها اناس يريدون الرغبة فى الصلح والوثام ويبطنون كراهة هذا الفريق أو ذاك ومثال ذلك اقتراح الصلح الذى اقترحه بعض رجال الدين ومشايخ الطرق الصوفية ، وخواه أن ينتظر سعد وعدلى حتى يصدر المرسوم السلطانى بتعيين رئيس المفاوضين فمن صدر باسمه المرسوم فهو الرئيس ولا اعتراض عليه .. وهذا كلام يراد به الاحراج والزام الحجة ولا يراد به فض الاشكال وعلاج الخلاف ، وأصحابه لا يجهلون كيف كان تعيين عدلى باشا رئيساً للوزارة بغير ارادة السلطان ، وكيف يكون تعيينه رئيساً لوفد المفاوضة على هذا المنوال وقد كان عدلى باشا بين أن يستقيل أو يعجل باجراء المفاوضة ليخرج من هذا المأزق على حالة من الحالات

فأما الأمل فى نتيجة المفاوضة فضعيف ، لأن الانجليز لا يجهلون أن معاهدة يمضيها عدلى قلباً تظفر من الأمة بالامضاء ، ولأن كيرزون الذى كان سيتولى المفاوضة من الجانب الانجليزى معروف باستعظام مشروعه ملتر على المصريين والسعى الحثيث لانتقاصه والحد من أطرافه ، ولأن الانجليز

أنفسهم كانوا يستعملون الوزارة المصرية في تلك الآونة ويفضلون ارجاء
الأمركله الى فرصة أخرى . ولكن الوزارة رأت أن الخروج من المأزق بغير
اجراء المفاوضة أمر عسير . فهي اذا استقالت فتلك هزيمة واعتراف لزغلول
بالغلبة ، ولكنها اذا استقالت بعد الفشل في المفاوضة فقد تجمع في ذلك بين
الخروج من المأزق وادخاض ماترمى به من التساهل والضعف والتفريط ،
لانها رفضت المعاهدة التي رفضها زغلول . وربما كان الانجليز يطلبون تسوية
مركزهم بالصورة الشرعية ولا يشترطون في المعاهدة أكثر من أن توقعها
حكومة لها ظاهر التأييد القومي كأننا ماكان حظها من تأييد الأمة في الحقيقة ،
ففي هذه الحالة تستطيع الوزارة أن تسخر أعوانها من حكام الاقاليم
في جمع التوقيعات ممن يريدون ولا يريدون ، ويستطيع أنصارها من أعضاء
الوفد المنشقين ووجهاء الريف والحضر الذين ينضوون في الغالب الى كل
وزارة قائمة أن يجمعوا توقيعات الأشياع والخدم والأتباع ، فيقال إن وكالة
الوزارة نسخت وكالة سعد ومشايخه ، ويعتمد الانجليز على ذلك وعلى الانتخابات
النيابية التي تجرى بامثال هذه الوسائل ، فيعقدون المعاهدة المنشودة ويعود
عدلى ووفده الرسمى من العاصمة الانجليزية وهم لا يخافون حرجا من المعارضين
ولقد بدأت التوقيعات المصطنعة فعلا قبل انتهاء المفاوضة ، فكانت وصمة
من أشنع الوصمات في تاريخ الادارة الحكومية ، لأنها رفعت شأن المزورين
المجرمين المستخفين بالقوانين والحقوق من الموظفين وحكام الاقاليم وانزلت
العقاب بالامناء المجدين الذين انفوا من تزوير الأوراق والعدوان على الابرياء
وساءت العبرة بعد ذلك فاصبحت النذالة نعمة على الموظف الفاجر أو على
صاحب الخاق الوضيع من غير الموظفين ، وأصبحت الامانة نكبة على الموظف
الصادق الأمين أو صاحب الخاق المتين . وراجت سوق الضمائر والمنافع
وشاعت المصروفات السرية بين الكتاب والدعاة ، فابتليت مصر بآلة لا يعوضها
منها استقلال ولا دستور ، إلا بعد جهد جهيد .

وانفجرت المظاهرات فقمعتها الوزارة باقسي ما في طاقتها من القسوة والصرامة . وسالت الدماء في طنطا بعد صلاة الجمعة فقتل ثلاثة وجرح كثيرون ، وأخذت الضراوة ضابطاً مصرياً من صنائع الانجليز فجعل يعدو بجواده في طرقات القاهرة ويلحق المتظاهرين وغير المتظاهرين في البيوت ، ويطلق رصاصه على الكبير والصغير والجالس في القهوة والمطل من نافذة المنزل ، ويقود المقبوض عليهم مربوطين الى أذنان الخيل ، ويأمر رجاله بأن يطعنوا بالحرايب كل من صادفوه من « التلاميذ » وهم راكضون على غير هدى في أحياء العاصمة ، كأنما هي نقمة مجنون أو ثورة وحش مسعور ، وقد اصطنعه بعض رؤساء الانجليز واعتدوا جرائمه التي تظاهروا بالسخط عليها والتأفف منها فضيلة له تضمن له دوام الرزق وتحميه من العدل والعقاب ، وظل مكفول المعيشة في كنفهم حتى فصلته الحكومة الدستورية بعد سنوات ، فأخذوه بعد ذلك الى السودان في وظيفة من الوظائف العالية لتلايندم رجل مثله على ذلك الصنيع ! وأخبرت ما جرى في تلك الفترة المشهورة مذابح الاسكندرية التي قتل فيها ثلاثون مصرياً وجرح مائة وثلاثون ، وقتل من الأجانب أربعة عشر وجرح ستة وتسعون

وحدثت هذه المذابح عقب زيارات ومقابلات حامت حولها الشبهات وأومات اليها الصحف في ذلك الحين . ولا نحب أن نقول فيها كل ما قيل يومئذ على ألسنة المطلعين وغير المطلعين ، ولكننا نلاحظ أن مظاهرات المصريين واجتماعاتهم لم تلوث قط بسفك الدم ما لم يتعرض لها المدسوسون من الشرطة الظاهرين أو المستورين ، وإن أحداً من شرار الأجانب الذين عاثوا في هذه المظاهرات لم يحكم عليه في المحاكم العسكرية الانجليزية التي حكمت على عشرات من المصريين بالموت والسجن وهي باسم السلطات العسكرية تستطيع أن تدين الأجانب كما تدين الوطنيين ، وإن أحداً من المسؤولين عن الأمن لم ينزل به العقاب بعد هذه الحوادث كأن اتخذ الحيلة لمنعها كان من المستحيل أو كأنها لا تدخل في أعمالهم التي يستحقون عليها المكافأة والعقاب ،

وان الحكوميين في مصر وانجلترا معاً لم يقصروا في الاستفادة من هذه المذايح جهد ماوسعهم من فائدة . فاعتذروا بها لتأجيل الغاء الأحكام العسكرية ! واعتذروا بها لبقاء الاحتلال الانجليزي وحماية المصالح الأجنبية ! واعتذروا بها لبقاء الامتيازات والمحاكم المختلطة الى أن تخلفها محاكم أخرى غير المحاكم المصرية ، وليس من المصادفات أن لا تحصل هذه المذايح إلا في الوقت الذي يستفيد منها فيه من يطعمون في حقوق البلاد ... كما حدثت مذبحه الاسكندرية المشهورة قبل الاحتلال وكوفي . « رجال الأمن » في عهدها أجل المكافآت !

بين هذه الزوابع التي لا تفاؤل فيها ألف عدلى باشا وفده الرسمى للسفر الى العاصمة الانجليزية من حسين رشدى باشا نائب الرئيس في مجلس الوزراء واسماعيل صدقى باشا وزير المالية ، ومحمد شفيق باشا وزير الأشغال ، وأحمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية ، ويوسف سليمان باشا الوزير السابق . يعاونهم مستشارون فنيون وكتاب يعينهم مجلس الوزراء . أما الوفد المصرى فلم يشترك أحد منه في هذا الوفد وقال عدلى باشا في خطابه الى عظمة السلطان : « . . . الواقع أن امتناع الوفد عن الاشتراك مع الوزارة يرجع عند عدد كبير من أعضائه — لا إلى اختلاف معها — بل الى التزام خطة سبق لهم أن رسموها لأنفسهم وليس فيها ما ينافي الثقة بعمل الوزارة مادامت هي ترمى الى تحقيق ارادة الأمة »

وسافر الوفد الرسمى تحميه الحراب البريطانية ، لاستخلاص الحقوق المصرية من البريطان ولم يفت المتكلمين من المصريين أن يشيعوه في سفره بهذه السخرية وهم مطبوعون على التهمك ، ولكنه تهمك تمازجه مرارة أليمة ومقت شديد .

ولقد كانت الوزارة ترجو أن تفض الأمة من حول سعد فاذا هي كل يوم تفقد الانصار من حيث يكسب هو الانصار ، واذا بانصاره كل يوم يزدادون حباً له وإيماناً بحقه ، وإذا بانصارها كل يوم يتخاذلون من ورأها وبحارون في الدفاع عنها واقناع الناس بصوابها

فشل المفاوضات الرسمية

انصرفت هموم الوزارة كلها بعد سفر الوفد الرسمى الى غرض واحد هو تزييف الثقة بالوزارة ونزع الثقة قهراً من سعد زغلول . وتكفل بهذا الأمر عبد الخالق ثروت باشا وزير الداخلية الذى تركز اليه الوزارة فى أمثال هذه الأعمال ، وهو رجل شعاره « إن كل مفعول جائز » مع التستر بالحجج والظواهر : حذر ولكنه اذا اعتمد على قوة تسنده ذهب فى الصلف الى أقصى حدوده ، وما كر ولكنه صاحب مكر أقرب الى الكيد منه الى اصالة الرأى وسعة الحيلة . وقد تمادى فى تزييف الثقة حتى خرج بها من الجدالى الهزل ومن النفع الى الانتقام . سأل نائب من العمال الانجليز وزير الخارجية البريطانية قائلاً : —

« هل يعلم وزير الخارجية أن مليونين وربع مليون من سكان القطر المصرى وثلاثة آلاف ومائة وستة وخمسين من أعضاء الهيئات العامة التى يبلغ عددها ثلاثة آلاف واربعمائة وستين قد وقعوا عرائض التأييد لسعد زغلول باشا ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل تصر الحكومة على مفاوضة الوفد الذى يرؤسه عدلى باشا ؟ »

فاجابه وكيل الوزارة بأنه لم يتلق معلومات من هذا القبيل ، وانه يعلم أن عضواً من أعضاء الجمعية التشريعية قد نشر فى الصحف المصرية انه على حين أن سكان القطر المصرى لا يزيدون على أربعة عشر مليوناً فان عدد الذين قيل انهم وقعوا التأييد لهذا الفريق أو ذاك قد بلغ سبعة عشر مليوناً من الذكور ! »

وقد يكون هذا البيان فكاهة مقصودة ولكنه فكاهة لا تبعد كثيراً من
(٢٤)

الواقع . فقد كان إرسال الوفود وكتابة العرائض مقياس الكفاءة التي يتطلع
بها الموظف الى الترقى وزيادة المرتب ، وكان بعض الموظفين يسابقون
بعضهم في الاكثار من أسماء المؤيدين ، فيكتبون أسماء الأطفال أو الموتي أو
الاسماء الملفقة التي ليس لأصحابها وجود . واستمر هذا أشهراً بلا كل ولا
انقطاع . فليس بعجيب أن يرى عدد المؤيدين المزعومين على عدد المصريين
أجمعين . . .

ومن هؤلاء المؤيدين من كان يؤيد الوزارة باختياره ورأيه : بعضهم
عن اعتقاد في صواب الوزارة ونفع الخطة التي سارت عليها ، وبعضهم عن
رغبة في جاه الوزارة ومنافعها وطمع في النيابة حين يأتي دور الانتخاب على
الأسلوب الذي تجتمع به أسماء المؤيدين المزعومين : ومتى كان هذا هو أسلوب
الانتخاب — كما هو ظاهر — فالنجاح فيه بغير ارضاء الوزارة مطالب عسير
وكان هؤلاء وهؤلاء بين مخلص وطالب منفعة ينتمون إلى طبقة واحدة
هي الطبقة التي تشملها العلاقات الحكومية بين وظيفة أو شفاعنة أو نيابة أو
صداقة شخصية أو آصرة من أواصر القرابة ، وهم أناس لهم خطرهم في
الشؤون الحكومية وما يتصل بها من المرافق اليومية . ولكنهم جميعاً قلباً
يقدمون أو يؤخرون في توجيه أمة أو خالق زعامة أو اقتحام خطة قومية ،
وهم أضعف ما يكونون عن ذلك في إبان الفورات الاجتماعية التي تعمل فيها
هبة الزعيم القدير أضعاف ما تعمل المصالح المحدودة بين طائفة معدودة ،
وهي لا تصمد للتيار الزاخر ولا ترغب في الصمود على نضال

وقد غالى ثروت باشا بجمع العرائض والتوقعات لأنه ظن أن الحكومة
البريطانية تريد « حجة » تسوغ بها اتفاقها كيفما كان الاتفاق ولا تحسب
حساباً لما وراء ذلك من التقلبات ، وانخدع في هذا الظن بما كان يراه من
تشجيع الانجليز المحليين واملأهم له في خطله العقيم . وفاته أن يضع نفسه في
موضع الحكومة البريطانية ليرى أنها تخشى أن تعطى « الوفد الرسمي » قليلاً

فتعطى زغولوا الحجة التي يتعاضم بها نفوذهم ، وتخشى أن تعطى « الوفد الرسمي » كثيراً فيصبح ما أعطته هو الحد الأدنى الذي يقبله المصريون ، ثم تعود المطالبة على أيدي المتطرفين فلا يقنعون إلا بالزيادة ، ولا يقبلون ذلك الحد الأدنى ولو كانوا قابلين

ولكنه اندفع واندفع ولم يترفق أو يتورع ، وانحنى على قوة المعارضة في مصر قبل أن يأخذ شيئاً من الانجليز ، وأطمع هؤلاء في ضرب المصريين بعضهم ببعض ، وأفسد الوظائف والاخلاق في غير مصلحة مضمونة ولا عاقبة مأمونة ، وهو لو كان وزيراً انجليزياً لما استطاع أن يصنع أكثر مما صنع في مصلحة السياسة الانجليزية ، فليس هذا الدور الذي تطوع له بالدور الذي يؤديه الوزراء المصريون . وليست الخسارة في تركه على مصر بل هي خسارة على خصومها بغير مرأى

ومن الطبيعي أن يقابل سعد هذه الخطة بما ينقضها ويهتم باظهار الحالة في مصر على حقيقتها ، لكي لا يدع لاحد عذرا من جهل هذه الحقيقة أو الاغترار بما يشاع عنها في انجلترا وفي البلاد الأوروبية ، وليفسد كل مؤامرة سياسية تؤدي الى حل القضية المصرية بالتزييف والتضليل

ومن وسائله إلى ذلك نشر الدعاية في انجلترا والسعى في استقدام لجنة من نواب حزب العمال والأحرار الانجليز لزيارة مصر ووصف ما يشهدون بين أهلها من حقيقة شعورهم ودخيلة الدعاوى التي تدعيها عليهم صحف الاستعمار أو أصحاب المآرب من أجنب ومصريين . وقد حضرت هذه اللجنة إلى مصر فكان مجرد حضورها وطوافها ببعض الأقاليم كافياً لاستطلاع الحالة من أول وهلة . فان عقيدة المصريين في زعامة سعد كانت أظهر من أن تحتاج في إظهارها إلى انتظار طويل

ومن وسائله في اظهار حالة مصر على حقيقتها أنه قام برحلة نيابية من القاهرة إلى أسوان ، فاستباحث فيها الادارة الانجليزية المصرية كل ما عندها من أساليب الاباحية السياسية في محاربة الخصوم . فكان مدير الامن العام

والمفتش الانجليزى يطوفان الاقاليم لتحريرى كل من يأنسون فيه معارضة
لسعد على المقاومة والاستعداد للهاجمة . وفى أسيوط أعدت « الادارة »
مئات من الخفراء لابسين الملابس الاهلية مزودين بسلاح الحكومة ، وأرصدت
فى دار على مقربة من مرسى السفينة أناساً من أتباع السراة المذشقين عن الوفد
المصرى يتبعونهم للخدمة والعصية لا للرأى السياسى والعقيدة . ومن هؤلاء
الخفراء المنتهكين واحد قتل فى أثناء الملاحمة التى اشتبك فيها جمهور
الأسيوطيين وهذه الشراذم المسلحة ، ثم تقدم قاتله إلى المحقق معترفاً على نفسه
بالقتل طالباً سماع الشهود من الفريقين فأبى المحقق أن يثبت كلامه وجاهد فى
طى « المحضر » و « حفظ. » الأوراق

وبينما كانت جماهير القرى تلقى بأنفسها فى غمار النيل وتستهدف للضرب
والقتل والغرق لتسبح إلى الباخرة وتسمع سعداً هتافها ودعاءها كان المديرون
والموظفون فى كل مكان يحولون بين سعد والنزول إلى البر مخافة من الجماهير
ومحافظة على حياته من الأعداء السياسيين ١

ولم لا ؟ ؟ ؟ ! فلعل عدواً من هؤلاء الأعداء كان مستعداً فى غمار المجتمعين
باسيوط لاطلاق الرصاص على سعد والنجاة بحياته بين الخفراء المشغولين
بالمحافظة على النظام والجماهير المشغولة بالدفاع عن نفسها ! أو المذهولة من
هول الحادث الشنيع . وكان هذا أيسر شئ . يخطر على البال بين ذلك الخليط
المانح من المستقبلين لولا أن فرقة الجيش المصرى التى كانت معسكرة على
الشاطئ ، حولت مرسى السفينة إلى اتجاه المعسكر فتعذر على المتجمعين
الاقتراب ، ولولا أن الألوف التى كانت فى استقبال السفينة كانت أكثر
عدداً وأرهب حماسة من أن يطمع المجرم فى الافلات من بينها ناجياً بحياته ،
ولولا أن الباعث الذى كان عسياً أن يبعث ذلك المجرم المنتظر على اقتراف
جريمته ضعيف لا يعدو الطمع فى ارضاء سيد أو رئيس ، وقد يكون فى
قرارة ضميره من السعديين

ولم ير سعد وسيلة لتسجيل هذه الحوادث أبلغ من رفع الأمر إلى صاحب العظمة السلطان الذي تجب الشكاية إليه في هذه الحالة دون الوزارة ودار الحماية . فكتب إلى عظمته عريضة يقول فيها وصفا لما حدث في أسيوط : « . . . لهذا عمدت أخيراً إلى أخطر الوسائل وأشرها سلباً للطمأنينة وضرراً بالنظام . ذلك أنها أباحت لبعض المنتهين للوزارة أن يستأجر بعض الأشرار ويأويهم بأسلحتهم وعصيهم في أسيوط لاجداث الشغب عند قدومنا . وفعلاً أحدثوه بأن هدموا الزينات التي كانت منصوبة ، وضربوا المحتفلين وأغرقوا بعضهم . وأسألوهم الآخرين ، وتأكدنا أن الإشارة التي أعطيت لارتكاب هذا الشغب كانت من أحد المكلفين بحفظ النظام ، وعوض القبض على المشاغبين السفاكين أمر مراقب الامن العام بمنع من النزول إلى المدينة ، وكتب الى بذلك . ولم أرد معارضته منعاً للفتنة وضناً بأيام ملككم أن تخضب بالدماء فبارحنا أسيوط إلى جرجا . غير أننا علمنا في أثناء الطريق من مصادر موثوق بها أن مدير جرجا أخبر مراقب الامن العام بأنه سيحدث في سوهاج عند قدومنا إليها أشد مما حدث في أسيوط ، وأنه أمر مأموري المراكز أن يرسلوا المتشردين والمشبهين مع الأسلحة إلى سوهاج كما أنه جمع فيها أغلب عساكر بلاد المديرية وأكثر خفرائها في زى الأهالي وكلف كل عمدة أن يستحضر من ناحيته عدداً من الأنفار ببنائيتهم ، وتنقل في المراكز أمس وعقد عدة اجتماعات حث الناس فيها على أن يعارضوا بالقوة زيارتي لمدينة سوهاج »

وليس ما جاء في هذه العريضة إلا تلخيصاً مجملاً هو دون ما حدث في تلك الرحلة بكثير . فان المؤامرة تلاحقت على هذا النمط من القاهرة إلى اسوان حتى عاد سعد في أواخر اكتوبر ، وكل ذلك والمفاوضات تجري لحل القضية الوطنية برأى الأمة المصرية !

هذا في مصر . أما في أوروبا وانجلترا فقد ظهر نفور المصريين من الوفد

الرسمى كما ظهر فى البلاد المصرية . فمئذ سافر الوفد الرسمى من الاسكندرية فى أول يوليو إلى أن نزل بالعاصمة الانجليزية فى الحادى عشر منه وهو لا يمر بمدينة فى الطريق إلا قابله الطلبة المصريون فيها هاتفين لسعد صائحين فى وجه الوفد بصيحات العداء والاستنكار . ولم يبق له من أمل فى باطن الأمر عند الانجليز إلا أن يتشفع اليهم بما لقيه فى سبيل معاهدتهم من سخط المصريين وارتياهم فى نيته ونيات رجاله ، وهى شفاعاة لا تنفق عند اللورد كرزون وأمثاله إلا إذا عرفوا أن الوزارة تساعدهم على نجاحهم وليست هى المحتاجة فى كل شىء إلى مساعدتهم على نجاحها . وهذا ما لم يعرفه كرزون وزملاؤه من غلاة المستعمرين . فتجهم للوفد وأساء معاملته واسترسل فى الغطرساة والصلف حتى قال له رشدى باشا مرة وهو نائرا الأعصاب محتدم الغيظ : « ان جوك يخنقنى » ... ورائت الخيبة على الرجل وهو الذى قبل الحماية البريطانية ورحب بها وحسب أن الانجليز يدخرون له هذا الصنيع وينصرونه على خصومه فى معترك الخصومة ، ففالج ولزم الفراش أسابيع .

وكان عدلى يستنجد بأنصاره فى القاهرة ليثبت للانجليز مكاتته بين ذوى الراى وتأييدهم إياه فى مفاوضاته ، فوافقهم معظم أعضاء الجمعية التشريعية وهم نحو الأربعين . وكتبوا إلى سعد يصفون سياسته بعد عودته من أوروبا « بأنها سلسلة أغلاط سياسية » ويعربون عن ثقتهم بالوفد الرسمى واعتقادهم المصلحة فى تأييده . وسأل مندوب روتر سعداً فى ذلك فقال : « ان هؤلاء لا يعدون أعضاء بالجمعية التشريعية الآن لانتهاا مدة انتخابهم ، ولو عملت انتخابات جديدة لما انتخب واحد منهم »

وما هو إلا قليل حتى ازداد عدلى شعوراً بالمازق الحرج الذى دفعته الحوادث اليه : كرزون ينقص من مشروع ملئ والأمة المصرية لا تقنع بهذا المشروع على أحسن أوضاعه ، ويوشك أن لا تقنع بالتحفظات التى أضيفت إليها لما اضرم نفوسها من الغيظ والألم بعد سفك الدماء وطول

التحدى والازدراء ، وخنق الحرية واللجاجة فى انكار وكلائها واتخاذ الركلاء عنها على الرغم منها ، فاندفعت إلى حالة من العناد تقابل فيه التحدى بمثله وتعز فيها مصالحتها بالكثير الحق فضلا عن القليل الباطل . فماذا يصنع عدلى بين هذين النقيضين ؟ أطال التأجيل والتسويق على غير طائل ، ثم قطع المفاوضات فى التاسع عشر من نوفمبر بعد لقاء وجيز مع اللورد كرزون وهو يتسأل : لماذا لا تعطى الحكومة البريطانية ماتريد اعطاه بغير معاهدة أو اقرار من المصريين ؟ وهنا ظهر مرة أخرى أن عدلى باشا يقنع بما دون المطلب الذى يطلبه سعد زغلول ، ولعله يرى المصلحة فى هذا القنوع . ولكنه يرفض ما يرفضه لأنه يحسب حساباً للمعارضة من قبل سعد ، ويترسم خطاه وهو يصادقه أو يعاديه .

ثم عاد عدلى إلى القاهرة فاستقبله على المحطة مندوب من قبل صاحب العظمة السلطان ، وجمع من أنصاره الموظفين وغير الموظفين . أما سواد الشعب فقد احتجب فى المنازل اضراباً عن المشاركة فى هذا الاستقبال أو هذا الاحتفال .

وعرف من اللحظة الأولى أن عدلى باشا ينوى الاستقالة عقب وصوله فاخذ الناس يتسائلون عما يتويبه الانجليز بعد اخفاق هذه التجربة الجديدة . ولكن الجو السياسى كله كان يوحى إلى الخاطر أن السياسة المقبلة ستكون سياسة تهديد واعتساف وتكشير عن الأنياب . وقبل أن يطول التساؤل عن المستقبل بادرت الحكومة البريطانية إلى ابراز « تجربتها المقبلة » فى خطاب وجهته إلى صاحب العظمة السلطان على يدى نائب الملك — اللورد اللبى — قالت فيه بعد استهلال وجيز : « أنها — أى الحكومة البريطانية — تعتبر اقتراحاتها هذه سخية فى جوهرها واسعة النطاق فى نتائجها ، وأنها لا يمكنها أن تبقى محلا لأى أمل فى إعادة النظر فى المبدأ الذى بنيت عليه تلك الاقتراحات »

ثم خلصت من ذلك الى الوقيعة بين عظمة السلطان ومن ستمتهم المتطرفين في الحركة الوطنية فقالت : « هناك علامات على أنه لا يبعد على المتطرفين في الحركة الوطنية أن يزجوا بمصر ثانية في الهوة التي لم يطل العهد على انقاذها منها » وهي تعنى الحركة العرابية التي سبقت الاشارة اليها في هذا التبليغ وقالت عن السياسة التي تتبعها في الحاضر أنها « لا يمكنها تنفيذ اقتراحاتها بدون رضا الأمة المصرية واشتراكها . ولكن حكومة جلالته تحافظ على الرغبة التي كانت لديها على الدوام وهي العمل على انهاء مواهب المصريين بزيادة عدد الموظفين منهم في كل نوع ولا سيما في الفروع الادارية العالية التي كثر فيها عدد الموظفين الأوربيين . وحكومة جلالته مستعدة لأن تواصل بمشاورة حكومة عظمتكم - المفاوضات مع الدول الاجنبية لأجل الغاء الامتيازات لكي يكون موقف الدول جلياً عندما يحين وقت اصدار التشريع المصرى الذى سيحل محل تلك الامتيازات . وكذلك ترجو حكومة جلالته أن السلطة التي يباشرها الآن القائد العام تحت القانون العسكرى تباشرها الحكومة المصرية وحدها بمقتضى القوانين المدنية المصرية . وهي تسر برفع الأحكام العسكرية حالما يصدر قانون التضمنات ويعمل به في كل المحاكم المدنية والجنائية في مصر »

ثم خلصت من ذلك الى التهديد الصريح فقالت : « اذا كان الشعب المصرى يستسلم الى امانية الوطنية مهما كانت هذه الأمانى صحيحة ومشروعة في ذاتها دون أن يكثرث أكثرأناً كافياً للحقائق التي تستحكم في الحياة الدولية - فان تقدمه في سبيل تحقيق مطمحه الاسمى لا يصيبه التأخر فقط بل يتعرض للخطر تعرضاً تاماً . اذ ليس من فائدة ترجى من وراء التصغير من شأن ما على الامم من الواجبات وتعظيم مالها من الحقوق . وأن الزعماء المتطرفين الذين يدعون الى هذا لا يعملون على نهوض مصر بل يهددون رقيها . وهم بما كان لهم من الأثر في مجرى الحوادث قد تحدوا مرة بعد مرة الدول الأجنبية في مصالحها

وأثاروا مخاوفها ، وكذلك عملوا في الأسابيع الأخيرة على التأثير في مسير المفاوضات بندايات مهيجة استشاروا بها جمل العامة وشهواتهم . وأن حكومة جلالة الملك لا تعتبر أنها تخدم مصالح مصر بتساهلها ازاء تهيج من هذا القبيل وإن يمكن مصر أن تسير في سبيل الرقي إلا متى أظهر قادتها المسؤولون من الحزم والعزيمة ما يكفل قمع هذا التهيج . لأن العالم يتالم الآن من جهات عديدة من الاندفاع في نوع من الوطنية المتعصبة المضطربة ، وحكومة جلالة الملك تقاوم هذا النوع من الوطنية بكل شدة سواء في مصر أو في غيرها ، وأن أولئك الذين يستسلمون لتلك النزعات إنما يعملون على جعل القيود الأجنبية التي يطلبون الخلاص منها أشد لزوماً وبذلك يطيلون أجلها « وإذ الامر كذلك فإن حكومة جلالة الملك - مراعاة لمصلحة مصر ومصلحتها الخاصة أيضا - ستستمر بلا تردد على مواصلة غرضها كمرشدة لمصر وأمنية على مصالحها »

وهذا كلام يبدو لقائله معقولا جداً ويخيل إليه أن فيه من المنطق ما يكفي لاقتناع المصريين بالسيادة الأجنبية . ولكنه ليس بأقرب إلى العقل والمنطق من نصيحة القاصر بالبقاء في كنف الطفولة لأنها أسعد من الرجولة وأهون اعباء من تكاليف الرشد وتجارب الأيام ، وكفى أن تكون كذلك لتكون خلواً من المنطق والعقل كأخلى ما يكون الكلام !

ومن الزعماء المتطرفون المقصودون في هذا التبليغ ؟ ... انهم معروفون لا يخفى أمرهم على أحد من الكاتبين ولا المخاطبين . فإهم غير زعيم واحد هو سعد زغلول . وقد سمع هذا الزعيم ما قصدوه به من التهديد فكان جوابه وهو يقرأه : « أيهددونا بنصب المشائق ؟ أيكن ... نحن مستعدون ! » ... ونشر نداء ناشد فيه الأمة وهو يتكلم بلسانها : —

« نفرع الى اتحادنا فقويه ، والى صفوفنا فنجمعها ، والى قوانا فنوجهها جميعا الى دفع ذلك الخطر العظيم . نزع الشهوات الدنيئة من نفوسنا ونستل

الأحقاد الممقوتة من صدورنا ، وتتجرد عن الهوى وتكون الكلمة السواء
بيننا ألا يطيب العيش لنا حتى ينطلق الوطن السجين ويتمتع باستقلاله التام
ولا نعتبر خصماً لنا إلا الذين أرادوا امتلاكنا ، ونحصر همنا في دفع بلائهم
وإحباط أعمالهم »

وختم النداء بهذه الكلمة التي حفظها كثيرون عن ظهر قلب : « إنكم
أنبل الوارثين لأقدم مدنية في العالم ، وقد حُلِّقتم أن تعيشوا أحراراً أو تموتوا
كراماً . فلا تدعوا التاريخ يقول يوماً فيكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم .
فلنشق إذاً بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس مملؤها استبشار بالاستقلال التام
أو الموت الزؤام »

النفى

أكثر ما كان يوغر المندوبين البريطان على سعد انما كان يرجع إلى أسباب
« شخصية » لا علاقة لها بالسياسة العامة

وأكثر هذه الأسباب الشخصية انما يرجع الى استعلاء هؤلاء المندوبين
على أبناء البلاد الشرقية التي « يحكمونها » حكم الملوك المتفردين بالطغيان ،
ولا يطيقون أن يروا فيها رجلا يقابلهم مقابلة الند الند ، ويعاملهم معاملة
المثيل للمثيل .

تعودوا أن ينظروا الى الكبراء من طبقة الوزراء نظرتهم الى أناس من
طلاب « الوظائف » يتلفون اليهم ويتبعون الرضى منهم ومن أصحاب الخطوة
عندهم ، ويتمنون أن يظفروا على أبواب صاحب الامر والنهى فى قصر الدوبارة
بكلمة أو اشارة تدل على ارتياح وتبشر برجاء . وتعودوا أن تتجه الانظار
الى قباتهم دون كل قبلة ، وأن يوصدوا على الطامحين كل مجاز للأمل غير هذا
المجاز . فاذا بدا لهم فوق الغمار رجل « شرقى » من هذه الطبقة له رأس فوق
تلك الرؤوس وطموح فوق تلك الطموح ومجاز غير ذلك المجاز فهو شذوذ
فى أنماط النظام المألوف يصدمهم فى كبرياتهم صدمة العدوان ولا عدوان
هناك أو صدمة الاهانة ولا اهانة الا فيما توهموه

واذا علموا بالمراس أن شذوذ ذلك الرجل حق وليس بدعوى وقوة وليس
بمظهر ، وشئ يحسونه فى أعماق ضمائرهم وبجامع شعورهم فوق أحساسهم
به فى مجال السياسة ومعاملات الوظيفة فهو اذن عبء لا يطاق وعقبة
لا يستريحون أو يجلوها عن الطريق . لأن الهوادة فى أمرها انما هى نزول
عن الكبرياء مع فرد واحد يتبعه النزول عن الكبرياء مع أفراد آخرين
وقد يتغاضى المندوب البريطانى عن عظيم وطنى من طراز غاندى فى

الهند لأن عظمة القداسة الروحية شئ لا يدعيه الحكام والمندوبون ، ولكنه لا يتغاضى عن عظمة تصدمه في دعواه وتنافس في ميدانه ، وتساوله مصاولة الأنداد والنظراء . وقد يشعر هو في قرارة نفسه أنهم أكبر من الأنداد والنظراء وأكثر ما كان ينقمه المندوبون البريطان على سعد إنما هو هذا « الشذوذ » عما ألفوه بين طبقة الوزراء والكبراء ، فاللورد كتشنر كان يتمتع من طريقة سعد في مخاطبته ويستكثر منه أن يضع رجلا على رجل وهو جالس في حضرته ! واللورد اللنبى كان لا يفهم كيف يرجع سعد من أوروبا دون أن يزوره في دار الحماية ! وقد أرسل إليه من ينبه إلى هذه « الهفوة » من طرف خفي وهو يذكره بتخلفه عن زيارة القصر السلطاني بعد رجوعه . . . فقال سعد لرسوله : « لك أن تبلغ اللورد إذا شئت اتنى أعلم واجباتى نحو القصر . واتنى ان فاتنى شئ منها لا أحب أن أتعبه من دار الحماية ! » فكانت هذه « الهفوة » بعد « هفوة » الاحجام عن الزيارة فوق ما تتسع له صدور الغفران !

ان اللورد اللنبى قد تمحل الأسباب لنفى سعد بعد فشل المفاوضات الرسمية وعودة عدلى إلى القاهرة . ولكنه في الحقيقة كان ينوى هذا النفى قبل سفر الوفد الرسمى وقبل البدء فى المفاوضات . ويلوح ذلك جليا من البرقية التى أرسلها إلى اللورد كرزون فى ثامن ابريل يقول فيها : « اتنى أعتقد أن زغلولا الآن فى حالة من الزهو والترفع لا يبعد عليه معها أن يهم بضربة كضربة عرابى باشا »

وهذه مقدمة لا شك فيما وراءها ولا خفاء بالنية التى دفعت اليها . وقد ظلت كامنة فى ذهن اللورد اللنبى إلى الثالث والعشرين من شهر ديسمبر حين ألقى القبض على سعد وأصحابه وكتب إلى اللورد كرزون يقترح عليه إبعاده هو وشركاؤه ويقول : « ان سيلان أوفق مكان لأنها مقرونة فى الأذهان باعتقال عرابى . فمن شأن اسمها أن يحدث تأثيراً عظيماً »

ولقد تعال اللورد اللنبى لضرورة النفى بما يعاينه من مشقة فى تأليف
وزارة بعد الوزارة العدلية . ولكنه لولقى السهولة بدل المشقة فى هذا المسعى
لتعال بتذليل العقبات وإخلاء الجو للوزارة المأمولة أو التجربة الجديدة .
إذ كان المقصود هو إنجاز « النفى » على كل حال وإرضاء الكبرياء التى تنبغى
لحاكم وادى النيل من شاطئ بحر الروم إلى أقاصى السودان .

وكان على اللورد اللنبى أن ينتحل المناسبة الموقوتة التى يتذرع بها إلى النفى
المقصود . وليس أصلح لذلك من أمر يعلم أنه لا يطاع ثم القاء القبض على
أثر الامتناع . فكتب هذا الأمر فى الثانى والعشرين من ديسمبر بلسان
مستشار الداخلية . وهذه ترجمته الرسمية :

إلى صاحب المعالى سعد زغلول باشا بالقاهرة

أتشرف بأن أبلغكم أنى تلقيت من انقيلد مارشال القائد العام تعليمات
بأن أبلغ معاليكم الأمر التالى وهو :

« يحظر على سعد زغلول باشا بموجب الحكم العرفى أن يخطب فى الناس
أو أن يشهد اجتماعاً عمومياً أو أن يستقبل الوفود أو أن يكتب إلى الصحف
أو يقوم بعمل من الأعمال السياسية . وعليه أن يغادر القاهرة بلا إبطاء
ويقيم فى منزله فى الريف تحت مراقبة المدير (١)

وأتشرف بأن أكون خادماً معاليكم المطيع

وكأنما كان اللورد اللنبى يملئ جواب هذا الخطاب حين كتبه بهذه

(١) قال اللورد اللنبى فى برقية المؤرخة (٢٥ ديسمبر) إلى الماركيز كرزون

(هذا بيان الامتنة الموجود بها التهمة الأشخاص الذين أمرتهم بالكف عن الأعمال السياسية

(ستة منهم الآن فى السويس ينتظرون الإبحار من السويس على باخرة نقل فى ٢٨ ديسمبر

وثلاثة هم « صادق حنين وأمين عز العرب وجعفر غزى أطاعوا أمرى وهم تحت مراقبة البوليس »

أما الستة الاولون فهم سعد وأصحابه فتح الله بركات بالما وعاطف بركات « بك » ومصطفى النحاس

(بك) وسينوت حنا بك والاستاذ مكرم عبيد

الصيغة إلى سعد زغلول ، فما هي إلا ساعات حتى عاد إليه الرد في الصيغة الآتية :

جناب الجنرال كلين مستشار وزارة الداخلية :

أتشرف باخباركم انى استلمت خطابكم بتاريخ اليوم الذى تباغوتنى فيه امر جناب الفيلد مارشال اللبى بمنعنى من الاشتغال بالسياسة والزامى بالسفر إلى عزيتى بلا تأخير للقيام بها تحت مراقبة المدير . وهو أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتى إذ ليس هناك ما يبرره

وبما انى موكل من قبل الأمة للسعى فى استقلالها فليس لغيرها سلطة تخلىنى من القيام بهذا الواجب المقدس

لهذا سأتبى فى مركزى مخلصاً لواجى . وللقوة أن تفعل بنا ما نشاء أفراداً وجماعات ، فانا جميعاً مستعدون للقاء ما تأتى به بجنان ثابت وضمير هادى . علماً بأن كل عنف تستعمله ضد مساعينا المشروعة إنما يساعد البلاد على تحقيق أمانها فى الاستقلال التام

سعد زغلول

رئيس الوفد المصرى

قال الأستاذ عبد القادر حمزة صاحب صحيفة « البلاغ » وكان حاضراً المجلس الذى كتب فيه رد سعد على هذا الانذار :

(ولم يحدث بعد هذا غير أننى استوقفت الرئيس عند قوله : « وهو أمر ظالم أحتج عليه بكل قوتى إذ ليس هناك ما يبرره » وسألت : ألا يحسن الاستغناء عن كلمة ظالم اكتفاء بالكلمات التى تليها ؟ فنظر الرئيس وقال بشمم : كلا . وأيده كل الحاضرين فى إباته)

وما كان سعد ليشك هنية فيما سيحدث بعد هذا الاحتجاج ، لأنه كان

يتحدث إلى زوجه الكريمة بأن النفي بعد هذا أقرب قريب ، وكان جوابه لكل من سألوه من أقربائه أنه يعتقد أن الانذار إنما هو المقدمة التي يتبعها النفي لا محالة في يوم أو يومين

والنفي شيء هين عند قتي في مستقبل العمر قد يطمع في العودة إلى وطنه بعد جلاء الغاشية وهدوء القلاقل وفراغ الحكومة البريطانية مما تسعى إليه ، ولكنه هو الموت بعينه يواجهه الشيخ وهو عامد عالم بما يلقاه ، بل هو الموت والعذاب للشيخ الذي تثقله سقام كالتى كانت تثقل سعدا في تلك الأيام ، ومنها الربو ومرض السكر وتصلب الشرايين . فاذا هو نسي نفسه وشيخوخته وسقامه ومصيره في تلك اللحظة فذلك هو المثل الأعلى في عرفان الواجب والكرامة ، وتقرير ما ينبغي أن يكون دون المبالاة بالعواقب التى تناله في صحته وحياته ، ما دامت هذه العواقب مأمونة على مصير البلاد

سويغات قليلة وطار الخبر في أحياء القاهرة كل مطار . فاجت المدينة بمجموع من هنا وهناك كانت تتلاقى على غير اتفاق سابق ولا غرض معلوم ، وكانت تتجه بوحى البدهاة إلى « بيت الأمة » فتطاردوا الشرطة وتتعبها باطلاق الرصاص على غير هدى وفي غير حساب . وقد سقط جريحان على مقربة من البيت فحملهما الناس إلى فناءه وخرجت السيدة الجليلة قرينة سعد تضمند الجروح وتبادر الى الاسعاف ، ثم تكاثر الجرحى في شارع سعد زغلول وسعد فى مكتبه يسمع طلقات الرصاص ويسأل عن المصابين ويأسف لما يسمعه ويراه : مصريون يمعنون فى قتل مصريين لتحقيق ما آرب الانجليز ؛ قال سعد لمن حوله : « أرايتم إلى أى شىء أدت الخطة التى اتبعتها الوزارة فى الأشهر الماضية ؟ لقد كنا حتى اليوم وجهنا لوجه مع أعدائنا الانجليز . فكان هؤلاء هم الذين يصادموننا ونصادمهم . أما اليوم فالانجليز يعملون وجنود من المصريين هم الذين يسفكون دماء المصريين .

حقاً أن هذا فوز للسياسة الانجليزية لا يسأل عنه إلا الذين مهدوا له السبيل» (١)

وأُمسّت المدينة في تلك الليلة وهي في ظلام دامس لتحطيم المصاييح واغلاق المساهر والملاهي في أكثر الأحياء . ورابط مئات من الشبان في شارع سعد زغلول وفي الشوارع التي حوله من وراء المتاريس يترقبون أن يدفعوا عن سعد بأرواحهم وأبدانهم ما عسى أن يناله في تلك الليلة من أيدي الانجليز . وقد خيل إليهم في تلك الرجة العصبية الجائحة أنهم قادرون على الوقوف في وجه المدافع والدبابات . وهم عزل من كل سلاح خطير

وقضى سعد سهرته إلى منتصف الليل يتحدث إلى زائريه ويؤكد لهم إيمانه بغلبة الحق على الباطل واستعداده للقاء كل ماتضرره له القوة من إرهاب أو انتقام ، وكان يتبسط في أحاديثه كمادته في بعض الأحيان حين يتحدث به الخطوب ، كأنما الفكاهة في نفسه الكبيرة فيض القوة التي يتدرع بها لكل خطب يغشاه . فمن رآه ثمة قد ينسى أنه في موقف وداع مجهول اللقاء ، وأنه لا يدري متى يرى هذا الزعيم في جلسته تلك مرة أخرى ، وقد لا تمضي ساعات حتى يكون في غير ذلك المكان ، ولا تمضي أيام حتى يكون في بلد غير البلد وقارة غير القارة ، ويحال بين ديار مصر والرجل الذي آثرته على كل إنسان

ثم صعد سعد إلى حجرته لينام عند منتصف الليل . فلم يلبث أن تهيأ للنوم حتى قيل له إن فناء الدار قد امتلأ بالشبان يريدون المبيت هناك إلى الصباح في حراسة الرئيس . فنزل إليهم يرجوهم أن ينصرفوا إلى بيوتهم وأن يدعوه في حراسة المقادير . فلم ينصرفوا ولم يهتموا بالانصراف . فأقسم لبيتين معهم حيث هم قائمون تحت سماء الشتاء المكفهرة إن لم يستمعوا لقوله . فانصرفوا مكرهين

(١) من رسالة اذكروا سعدا ، للأستاذ عبد القادر حمزة

وأصبح الصباح في اليوم التالي غائماً مطيراً قارس الهواء من تلك الأيام التي توحى إلى النفس الوجوم والانقباض ولولم يكن ثمة داع للوجوم والانقباض، وتندر بالشر ولولم يكن ثمة نذير معروف

واستيقظت السيدة الجارية قرينة سعد قبيل الساعة السابعة فایقظته وسألته هل يريد أن ينهض من فراشه؟ فقال إنه يفضل الاستراحة هنيهة ولا موجب للاستعجال. ولم تحن الساعة الثامنة حتى جاءت الخادمة تنبئها أن ضابطین انجليزیین یقفان عند باب الحرم وأن الجند یحیطون بالبيت من كل جانب فأسرعت إلى سعد وهي تقول في لهجة التهكم التي تعودت أن تسمعها من زوجها العظيم في أمثال هذه الساعات :

« ان الذين تنتظرهم قد جاؤك » وذهبت إلى غرفتها ترتدى ثيابها وتنبأ لصاحبه إلى حيث ينوون أن يأخذوه كما اتفقا منذ تلقى الانذار وأرسل جوابه عليه . فوجدت عند أعلى السلم وعند أسفله جنديین شاهرين سلاحهما یحمیان الطريق ، ونزلت إلى الحديقة فوجدت فيها بضعة عشر جندياً یهزلون ویضحكون . ثم تقدم إليها انجليزى فى الملابس المدنية یسألها بالفرنسية : أين سعد باشا ؟ فقالت أنه یلبس وسینزل . وسأكون أنا فى صحبته حيث سار : فقال : لا أدرى هل تسمح القيادة العليا بذلك أولاً تسمح . فطلبت إليه أن یسأل رؤسائه . وذهب ضابط یرافقه إلى التليفون ثم عاد یقول : ليس فى وسعنا أن نجيبك إلى طلبك : وعاد یسأل وهو يتأفف : لقد أبطأ سعد باشا . فلماذا لم یزل إلى الآن ؟

ولم ینتظر غیر لحظة واندفع إلى السلم ومعه ضابط آخر إلى حجرة الرئيس ففتحها عليه وأراد أن يأخذه قبل أن یفرغ من لبس ثيابه ، فأبى فى غضب واشتمئزاز . وكان عند الضابطین من الأدب ما یكفى لاحترام هذا الشعور المعقول . فتمهلا قليلاً حتى فرغ من ثيابه ونزل إلى الحديقة ، فأحاط الجند به وبالسيدة التي سارت إلى جانبه وتركب معه السيارة العسكرية حيث كانت واقفة

على الباب . فلما بلغتْه أنبأها الضابط أنه لا يستطيع السماح لها بالركوب ؛ فاصرت في سورة الحزن والغضب على أن تترك ، وهم بعض الجند أن يمنعها بالقوة ، فالتفت إليها سعد وهو يقول : يا صفيه ! أرجوك ! أرجوك ! « ماتهدلنیش » ... فقالت : لا عاش من « يبهلك » يا سعد . وثابت الى عزيمتها المعهودة في لمحّة عين ، ووقفت حيث هي لا يبدو عليها جزع ولا بكاء . بل التفتت إلى الباكين من حولها تزجرهم وتوصيهم بالجلد والسكون

وهنا ندع للأستاذ عبد القادر حمزة وصف ما شاهده في ذلك الصباح ، فقد رآه بعينه ووصفه وصفاً دقيقاً في رسالته التي كتبها قبل سفر الرئيس من البلاد بعنوان اذكروا سعداً وصحبه المعتقلين :

« سرت فلم أمش غير خطوات أوصلتني إلى ميدان الأزهار ، ثم ثار الجو وانهمل المطر كأفواه القرب ودوى الرعد ولمع البرق فالتجأت إلى قهوة هناك أحتسى فيها ، وإذ انقطع المطر عاودت المسير فما هو إلا أن انخرطت في شارع الفلّسكى حتى لاح لى عن بعد شبح أصفر يسد الطريق عند بيت الامة ، فرصدته بنظري أتبينته كلما دنوت منه فبان لى صليب كبير على جانبه ، ثم وضع جميعه فاذا هو اتومبيل بجانبها ضابط بريطانى

» هنا تكشف لى الأمر كله ، ولم يبق عندى ريب فى حقيقة ما هو واقع ... نعم لم يبق ريب فى أن ما كان منتظراً منذ الامس يقع فى هذه الساعة ، وإن انجلترا ذات القوة التى لا تدانيها قوة فى العالم ، أرسلت جنودها لا ليحاربوا سعداً فى معركة ولكن ليأخذوه فى « جنح » الصباح من بيته بعد أن انهزمت أمامه فى معركة الحق وأعيتهما الحيلة فى مغالبته

» واصلت المسير فوصلت إلى الاوتومبيل فى شارع الداخلية فرأيت خلفها اثنتين مثلها ، والضابط يروح ويغدو ، والجنود من حوله يترقبون رافعين البنادق . وفى كل اتومبيل سائقها جالس ويده على المفتاح . كأنهم جميعاً لا ينتظرون غير أن تقع الغنيمة فى أيديهم ليأخذوها ويطيروا

« وكان هناك جماعة قائلون من عامة الشعب فزعوا أن أباهم سعداً سيؤخذ فوققوا . ولولا أنهم رجال وانهم يرون خصمهم أمامهم ويكرهون أن يشمت فيهم لأرسلوا الدموع . ولم تكن بي حاجة لأن أجرب دخول بيت الأمة ، لأن الجنود كانوا يضربون نطاقاً حوله ونطاقاً على بابه ونطاقاً في حديقته ، وفي أيديهم البنادق كأنهم يتأهبون لمعركة حامية

» وما مضت دقيقتان أو ثلاث حتى ضج فجأة كل الذين حولي فنظرت فإذا سعد مقبل وأمامه ضابطان ومن خلفه حاجبه وخادم . وهم جميعاً يمشون في نطاق من الجنود . رأيته يمشى بعد أن نزع من أهله وبيته وأحيط بالجنود والسلاح وفتح أمامه باب التوضيحية على مصراعيه مجهول الأول مجهول الآخر فأقسم مارأيت فيه وفي مشيته الإبطالا على الرأس مطمئن النظرات . ولوددت أن رآه معي في تلك الساعة كل أبناء مصر . إذن لرأوا سعداً أسداً هو أثبت ما يكون حين تنازله الحادثات

« كان يمشى هادئاً منبسط الجبين ليس في خطوه إسراع ولا تثاقل . ولا في نظراته ولا في حركات جسمه أثر واحد يدل على قلق أو اضطراب . ويده اليسرى في جيب معطفه ويده اليمنى تحرك عصاه حركة عادية منتظمة كأنه لا يرى لكل ما هو واقع ولا لكل الذين هم محتاطون به وجوداً أكثر من العدم .

« وما رأيته تلفت يمينا أو شمالا ، ولا وقفت عينه عند واحد من الذين يرافقونه مسلحين ، ولكنه لما رانا نحن واقفين مد نظره إلينا وسرحه فينا وحينئذ لم يملك بعضنا أنفسهم وسمعت في الحال قائلاً يقول والبكاء يغالبه : « إلى أين ياسعد ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟ » ثم غلبه البكاء فانتحب وانتحب السكل معه .

« إنتحبوا وضجوا لأن تصبرهم كان قد بلغ الغاية وزيادة . ولقد كانوا إلى ما قبل هذه اللحظة حائقين يابون أن يرى الخصم فيهم ضعفاً ولكنهم لما

شاهدوا بأعينهم سعدهم يؤخذ هذا الأخذ إلى حيث لا يعلم ولا يعلمون تهدم
عزمهم كله ولم يبق فيهم جلد

« وما كان انتخاب هؤلاء المنتخبين بأبغ من عمل صبية رأوا بأعينهم
مارأوا ومع ذلك صمموا على أن يخاطروا بأنفسهم فجروا خلف سعد عشرين
أو ثلاثين كأنهم يهجمون صفاً متسانداً في معركة منظمة . فلما رآهم الجنود
حولوا وجوههم إليهم وصوبوا البنادق نحوهم يهددونهم بالموت إن هم تقدموا
ومازال الجنود كذلك وهم يشنون بظهورهم ، حتى وصلوا إلى الاتومبيلات
وركبوا .

« ركب سعد وركب الضابطان وركب الجنود كلهم . ثم تحركت
الاتومبيلات ، فلا والله ما رأيت في حياتي ساعة كذلك هلعت فيها القلوب
وارتجفت الأقدام ، واشتد البكاء وعلت الأصوات تنادى وتقطعها الزفرات
« سعد . ياسعد . . . إلى أين ياسعد ؟ » وامتدت الأيدي نحو الاتومبيلات
كأنها تستعطفها وتسألها أن تقف ، ولكن الاتومبيلات كأنها البرق الخاطف
وتركت الناس في مكانهم يصيحون ويهتفون »

ذلك وصف الأستاذ عبد القادر لما رآه . وتدع لسعد أن يقص لنا رحلة
المنفى كما وصفها في خطبه ورسائله من حيث تركناها هنا إلى حيث استقر به
المقام في جزائر سيشل . ولا ضير أن نسبق الحوادث بعض السبق إلى ما بعد
المرحلة التي انتهينا إليها من تاريخ الزعيم

قال في خطبة ألقاها في الثالث والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٣
بعد عودته من جبل طارق :

« . . . في مثل هذا اليوم من عامين سطت القوة الغاشمة في عنفها على
الحق في مآمنه . أحاطت منزلي من كل جوانبه بعساكر مدججين بالسلاح ،

وأدخات جانباً منهم فيه فملأوا قاعاته وطبقاته وأقاموا منهم أربطة على أبوابه ومنافذه ، وصعد بعضهم إلى مخدعي فازعجونى من نومى ، وأرادوا أن يقبضوا على قبل أن ألبس ثيابى فلم أمكنهم حتى لبستها . ثم أنزلونى وهم يحيطون بى وحرمنى من خلقي تريد مزاملتى فمنعوها ، وأركبونى فى عربة من عربات الأسعاف تتقدمها سيارات أخرى يملأها جماعة من الضباط والعساكر وبأيديهم البنادق مصوبة من خلفنا لاطلاقها على كل من يتبع خطواتنا : فعلوا ذلك بغير حكم أعلنوه ولا قرار تلوه ولا كتابة أطلعونى عليها ولا تعيين للجهة التى وجهونى إليها . وساروا بنا الى السويس فى طريق غير ممد بلاماء ولا زاد إلا قليلا من الخبز تكرم علينا بعض الضباط بقطعة منه على شئ من الجبن فتبلغت بها ، وما زال السير يجد بنا فى هذا الطريق العاثر يحطنا تارة ويرفعنا تارة أخرى من الساعة التاسعة صباحا إلى الساعة الخامسة بعد الظهر حيث أدخلونى إلى معسكر الهنود ، وتلقانى بعض الضباط وأنزانى فى خيمة تعصف الرياح من خروقتها بعد أن قدموا الى شيئا من الطعام ، فأكلت ونمت بملاسى إذ لم يسمحوا لى بأخذ شئ معى . ولكنى بحمد الله لم أشعر بتعب مع أنى كنت أتعب من سير ساعة واحدة بالسيارة فى الطريق المعبد . فقد أمدنى الله بقوته وجعلنى أتحمل كل هذه المشقات من غير أن أشعر بشدتها . وفى الليلة التالية اتصل بى صحبى الذين قبضوا عليهم من بعدى فأنست بلباقهم وسررنى ما رأيتهم عليه من رباطة الجأش ومقابلة هذه الشدة بالثغور الباسمة والنفوس المطمئنة ، ومكثنا فى هذا المعسكر إلى ٢٩ ديسمبر حيث أمرنا فى آخر العشاء بالاستعداد للسفر فى ظرف نصف ساعة . فدهشنا لهذه المفاجأة وانصرف كل منا يحزم متاعه . ثم أركبونا فى سيارة مغلقة الى المرفأ وكانت السفينة المعدة لركوبنا خارج الميناء فأنزلونا الى زورق فيه بعض الوطنيين الذين بكوا للقائنا فى تلك الساعة بكاء مرأفكنا نطمئن خواطرهم بالإشارة تارة وبالكلمات تارة أخرى

« وصل بنا الزورق الى السفينة واذا بها مملوءة بالجنود الهندية ، ونزل كل منا في الحجرة المعدة له ، وعلينا حينئذ بأن وجهتنا عدن التي وصلناها في مساء يوم الأربعاء ٤ يناير . ثم بعد أن أقمنا بها إلى ٢٨ فبراير نقلونا إلى سيشل ثم نقلوني إلى جبل طارق حيث أقيمت من ٣ سبتمبر إلى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٣ ثم أفرج عني في ذلك التاريخ . . . »

هذا ما جاء في الخطبة عن طريق سعد إلى المنفى . ويتممه ما كتبه فتح الله باشا عن سفرهم من عدن إلى سيشل كما جاء في مذكراته وهو كما يأتي :

« الأربعاء أول مارس سنة ١٩٢٢ »

« تأخرنا في تناول طعام الافطار على خلاف العادة ، وبينما نحن نتناوله في الساعة ٩ صباحاً إذ حضر الكبتن استل ومعه المايجور رايلي المساعـد الأول للمقيم في عدن فسلم وجلس بجانب الرئيس ، وتكلم بالانجليزية داعياً إياه لتناول الافطار ، فشكره ، وقال إنه أفطر قبل أن يحضر ، فقال الرئيس بالانجليزية أيضاً :

— إننا متأخرون في الافطار اليوم على خلاف العادة ، فإن عادتنا أن نتناوله في منتصف الساعة التاسعة

« فدهش الرجل لكلام الرئيس بالانجليزية وقال :

— إني لما جئت في المرة الأولى كنت لا أستطيع الكلام بالانجليزية فأجابه الرئيس ضاحكاً :

— إن الفضل في ذلك السجين . . . »

قال المايجور عقب ذلك :

« جئت لأتفق معك على ترتيب السفر

« فسأل الرئيس : « ومتى يكون السفر ؟ » فقال : « اليوم . . »

« وهنا تكلم بالفرنسية ، واستمر قائلاً :
— إن بارجة حربية منتظرة في الميناء لأخذك إلى سيشل ، وأما رفاقك ،
فيلحقون بك في السفينة القادمة ..
» فسأله الرئيس :

— ولماذا الفصل بيننا ؟ الأولى أن نكون معاً !
— يظهر أن السبب عدم توافر المحال للجميع في السفينة القادمة ، وإنه
لذلك عمل الترتيب لتسافر اليوم على البارجة الحربية ، ومعك خادمك ..
» فقلت : — أنسافر معه على البارجة الحربية ؟
» فقال : — إنها صغيرة ، وليس فيها محال ...
» فقلنا : — أن توافر المحال لايهمنا ، فلنسافر معاً ويكفي أن يكون
بها المحل الخاص بالرئيس . وأما نحن فنسافر معه على أية حال ، وأنا مستعدون
جميعاً لأن ننام على ظهر الباخرة أو في أى مكان آخر ..
» فقال الماجور رايلي : — إن الأمر صدر لنا صباح اليوم بهذا
الترتيب من مصر ، ولست إلا منفذاً ..

» فقال الرئيس : — نعلم أنك منفذ وأن الأمر صدر من السلطة
المختصة وأنا موضوع هذا الأمر . ولذلك فاني أبدى لك ملاحظتي لتبلغها
إلى السلطة التي أمرت ، فانتا كننا أبلغنا أن السفر في ١٦ مارس . ولذلك لم نأخذ
إستعداداتنا ، فالأمر بالسفر اليوم مفاجأة ، والسفر على بارجة حربية من شأنه
أن يتعبني خصوصاً وإنني لا أرى موجباً للتفريق بيني وبين أصحابي ..
» فقال : — إني سأبلغ طلبكم ، ولسكني أخشى ألا يكون من السفر
مفر ..

فقال الرئيس بشجاعة تفوق الوصف :
— إن لم يكن بد من السفر فاني مستعد له من الآن ، سواء أكان إلى
سيشل أم إلى أسوأ منها ، ومتى يكون القيام ؟

قال : — سيكون الرفاص جاهزاً هنا في منتصف الساعة ١١ . وأما البارجة فتسافر بعد الظهر

» قال الرئيس : — حسن

» أما نحن فقد بلغ التأثير منا مبلغه وقلنا « إن الرئيس كبير السن ضعيف الصحة وبعيد عن حرمة » ونحن جميعاً نخدمه ، وهو في حاجة لعنايتنا ، ولا نفهم معنى لهذه المعاملة إلا إذا كان المراد تعذيبه تعذيباً أليماً »

» ومع اعتراضاتنا الشديدة المتكررة ، فإن الرجل لم يخرج عن الجواب بوعده أن يبلغ عن رغبتنا جميعاً . ثم نهض الرئيس إلى غرفته ليرتدى ملابسه بينما عبد الله يرتب العفش ويحزمه . وانصرف الماجور رايلي والكبتن استل إلى الدور الأسفل ، وبقينا نحن في غليان ، ثم أجمعنا أمرنا نحن الخمسة على أن نطلب ثانياً من الميجر رايلي بكل تحديد وإيضاح أن تسافر اليوم مع الرئيس في البارجة . ولا عبرة بتوافر محال لنا فيها أو عدم توافرها ، بل نقضى السفر على ظهر السفينة أو في الصالون أو في أية حجرة . . وفي الحال استدعينا الماجور وأخبرناه بما قر عليه رأينا ، وأن ذلك مراعاة لصحة الرئيس وخشية عليه من هذا السفر وحده ، فقد يقع عليه تأثير في صحته وهو بعيد عنا وعن حرمة لدرجة لا تحمد عقباها ، ولا يمكننا أن نفهم ان الحكومة الانجليزية ، وهي خصمه السياسي ، تقصد هذا السوء به ، وأعدنا له أن هذه المعاملة لا تخرج عن كونها من نوع التعذيب ، فقال إنه سيبلغ ما طلبنا إلى جهة الاختصاص ، ثم سأل :

وماذا يكون الحال إذا سمح بأن يرافقه البعض كواحد أو اثنين أو ثلاثة ؟

» فقلنا :

إذا صح السماح للبعض ، فلا معنى لعدم السماح للآخرين . ومع ذلك

فهذه رغبتنا ، فان لم يجب إلا بعضها ، نخير من عدم اجابتها كلها ، وليس لنا إلا الرضوخ للقوة

» وأفهمناه أننا على استعداد لمرافقة الرئيس في نفس الساعة المحددة له وهي عشرة ونصف صباحاً . فقال انه سيبلغ الأمر ، ويخبرنا بالنتيجة ، وانصرف

» وما أسرع ما وجدنا الرئيس بينما مرتديا ملابسه ومستعدا للرحيل ، وهو ثابت الجأش قوى الجنان . . وحدثنا بثباته المدهش في هذه الظروف العصيبة فقال إنه مسافر إلى سيشل هادى البال ، وأنه يظن أننا سنسافر إلى مصر فنقرى عائلته واخواننا المصريين جميعا السلام ونوصيهم بالثبات ، وأنه معتقد بأنه سيلحق بنا قريبا ان شاء الله ، وأخذ هو يسلي حزننا - ذلك الذى كان المفهوم أن يكون هو في حاجة لأن نسليه نحن ، ولكن هو الرجل العظيم وكفى . .

» انسحبنا بعيدا واتفقنا أن نحرر خطاب احتجاج على هذه المعاملة ، وهذا التعذيب . ونضمنه معنى ما قلناه شفهيّا للباحور رايلي ، ونسليه للضابط قبل قيام الرئيس ، وفعلا أخذ مكرم في تحريره باللغة الانجليزية ، وبينما يحمره أحطنا الرئيس علماً بقصدنا ، فعارض فيه معارضة شديدة مسببا معارضته على أن هذا الاحتجاج ليس من حقنا ولا فائدة فيه وربما جلب علينا ضرراً . أما كونه ليس من حقنا فلأننا منفيون جميعا ولم نتمكن معه لخدمته ولا للعناية بصحته وأما كونه لا فائدة فيه فلأنه لا يترتب عليه تغيير القوم القرار الذى اتخذوه بازائه . وأما كونه ربما يجلب علينا ضرراً . فلأنه يعتقد عودتنا الى مصر ، وربما يعيق الاحتجاج عودتنا . ولم يقبل سماع صيغة الاحتجاج وشد في منعنا عن هذا الاحتجاج الكتابي تشديداً بلغ حد الغضب وأفهمنا أن في احتجاجنا الشفهي الكفاية

» ولكننا خالفناه ولم نتبع مشورته ، لأننا اعتقدنا أن أساس معارضته

الاشفاق علينا ، ثم اقررنا الاحتجاج وأعضينا وحفظناه لتسليمه للضابط
الذى يحضر لأخذ الرئيس ونصه :

« عدن فى أول مارس سنة ١٩٢٢ »

« الى سعادة المقيم بـعدن »

« سيدى . نحن أصحاب حضرة صاحب المعالى سعد زغلول باشا وكيل
الشعب المصرى وأنصاره الأمانة : نرجو أن تتكرموا بأن تبلغوا السلطات
المختصة أشد احتجاجنا على التصرف الأخير الذى أجرى ضد معاليه ، فانا
نعتبر أن نقله يدونا وبغير امهال وبلا مراعاة لشيخوخته وضعف صحته
إنما هو - فضلا عن قسوته - عمل من أعمال التعذيب فى القرون الوسطى ،
ويظهر أن فهم النفى على هذه الصورة مقصور على حالتنا وحدها ، إذ لا يمكننا
أن نعقل لماذا نمنع من السفر معه فى سفينة واحدة كما طلبنا ذلك المرة بعد المرة .

« وعلى أى حال فليكن معلوماً علماً نهائياً أنه مهما اتخذ من الإجراءات
القاسية التى لا مبرر لها ، فان ذلك لا يضعف من ايمانه ولا من ايماننا بعدالة
قضيتنا - قضية مصر المستقلة . وتفضلوا بقبول فائق احتراماتنا

« سينوت حنا . مصطفى النحاس . مكرم عبيد . عاطف بركات . فتح الله

بركات »

« ثم بقينا منتظرين حضور الضابط ، وأخذ الرئيس يلاطفنا ويهون
علينا بما أسأل عبراتنا وأدى أفئدتنا ، فقد ظهو بمظهره الحقيقى : مظهر
العظمة والجلال ، مظهر الشجاعة القوية الهائلة التى يعرفها عنه اخوانه فى
ساعات الخطر ، كنا باكين وهو مطمئن ، جزعين وهو ثابت ، محتجين
وهو قانع . وما أروع تلك الكلمات الحكيمة التى أظهرت لنا قلب سعد فى
أجل مظاهره .

« حقاً أن الشجاع الحقيقى هو الذى يحذر الخطر قبل وقوعه . فاذا

عما وقع لا يخشاه بل يقتحمه مرفوع الرأس ثابت الجنان قوى الايمان وهكذا كان سعد .

فقد اعتقد كما اعتقدنا — أنه قد اختص المنفى إلى سيشل ، وأنه سيحرم من مرافقتنا التي كانت أكبر سلوى له . وان بقاءه وحيداً في سيشل سيؤلمه في أقدم مشاعره وأقربها إلى قلبه ، فان زوجته أن بقيت بعيداً عنه وهي عالمة بوحدته ووحشته كان في ذلك جرح لقلبها ، وان أتت إليه ورافقتة في مصيبتة كان في ذلك جرح لقلبه ، كل ذلك كان يحول بخاطره وبخاطرنا ، ولكنه كعادته ضحى براحة الشخصية فكان يوصينا ويكرر علينا الوصية أن نهتم بتطمين زوجته وتعزيتها حتى لا تأتى إليه وتتحمل آلام المنفى في تلك البلاد القصية الموحشة ، ثم انتقل إلى حالنا وطيب خاطرنا قائلاً إن غيابه قد لا يطول ، وأن مصر ستنتفع على أى حال من مجهوداتنا نحن في أثناء غيابه ، وان وصيته الوحيدة لنا أن نقول لمصر : « اثبتى واثبتى ، ولا تكلى من الثبات ... » وأن ايمانه في استقلال مصر لم يتزعزع ، بل على العكس من ذلك ، فقد زاده ذلك التصرف الأخير ايماناً بأن مصر ستحصل على استقلالها ان لم يكن عاجلاً فآجلاً ، ثم أخذ في تطمين كل منا على حدة باسمًا ضاحكاً شفوفاً رموفاً ، فكنا نرد عليه بأصوات متهذجة ، فاذا تحتم البكاء تركناه لننفرد بأحزاننا وينفرد الحزن بنا

« وليس في امكاننا أن نذكر أو نصف ذلك الموقف الذي ودع الرئيس أنصاره ، والقائد جنوده ، والولد أولاده من منفاه إلى منفى أشقى وأبعد ، فالوصف يقصر عن تصوير ما كنا فيه ، وما كان في نفوسنا ، ولم نجد حيلة إلا البكاء للتفريج عن وطنيتنا المجروحة ، وصدائقنا التي انتهكوا حرمتها . أما سعد ، فكان فصيحاً نثراً ونظماً ، لفظاً وقلباً — بارك الله فيه وفي حياته وقوة جنانه وإيمانه

« وقبل حلول الميعاد أحضرنا إليه نقوداً دفعاً للحاجة في أثناء نفيه (مبلغ

مائتي جنيه) . وفي الساعة العاشرة والنصف حضر الضابط استل ومعه الشيا لون
فنقلوا الصناديق ، ونزلنا مع الرئيس بعد الاستئذان والتصریح لنا إلى مرعى
الرفاص البخارى بعد أن سلمنا الاحتجاج إلى الضابط استل ، وكان الرئيس
فى الطريق لا ینفك عن تعزيتنا وتسلیتنا وتوصیتنا بمصر وأهلها ، وقال :
— لا تأسوا ولا تمنوا :

فقد یجمع الله الشیعتین بعد ما یظنان کل الظن ألا تلاقیا
» ثم اقتربنا إلى الرفاص وجاءت ساعة الوداع المشؤمة ، فاستودعنا الله
مقبلین یده باکین ، وكان هو یقبل کلاً منا فى خده مکرراً کلمات الوداع
والتشجیع . واستقل الرفاص ، وكانت آخر کلماته :
« لتحى مصر ! »

» فرددنا صدی ذلك النداء المقدس . . ودعونا له ولها بالحياة قائلین :
« لیحى سعد ! لتحى مصر ! لتحى التضحية »
وكان وداعاً حاراً ممزوجاً بدموعنا الحارة

» ثم سار المركب یقل الرئيس ومعه خادمه (عبده) الذى ودعنا وداع
الزمیل ، وصاحفنا مصافحة الصدیق ، وكان یلوح لنا بمندیله ونحن نفعل كذلك
إلى أن غاب عن أنظارنا ولم یغب عن قلوبنا ، ورجعنا كاسفین حزانی دون
أن ینبس أحدنا بینت شفة . وبقینا فى هم وجزع طول الیوم نذكر الرئيس
فى کل مجال طالبین له السعادة والحياة ، فى حیاته حیاة مصر وأبنائها ، فلیحى
سعد ، ولتحى مصر . . .

» وفى حوالى الساعة الثانية بعد الظهر جاءنا الضابط « النایتشى » وأخبرنا
أن الکبتن استل قد کلمه بالتلفون لیخبرنا أن الرئيس قد وصل إلى المركب
بخیر ، ولقى فیہ ضابطین كانا قابلاًه فى السویس ، وان الماحور راىلى قد بلغ
رغباتنا إلى مصر بالتلغراف

« وعند الساعة السادسة حضر استل مظهر الأسف ، وطمأننا على صحة الرئيس وأبلغنا سلامه ، وإنه لم يكن مهتماً بأمر نفسه كاهتمامه بمصيرنا ، وسأله عنا ، فأكد له أننا سنلحق به في سيشل ، ثم قال إن طلبنا بمرافقته قد أرسل بالتلغراف المستعجل بعد أن فتحت له خطوط التلغراف ، وإن البارجة لن تبارح عدن حتى يصل الرد ، وزاد على ذلك أنه إن بقيت البارجة للصباح فسيستأذن لنا في مقابلة الرئيس ، ويقيدنا تليفونيا حول الساعة السادسة صباحاً ، ثم قال : إنه دفع إلى الرئيس مبلغ ٩٥ جنيهًا كانت قد وردت من مصر لدفع أثمان بعض المشتريات . ولما سألناه عما إذا كان الرئيس سيسافر حقيقة إلى سيشل ، وعن سبب فصله عنا أجاب بتأكيد سفره إلى سيشل ، وإنه شخصياً يرى أن سبب فصله عمل سياسى ، فسرنا هذا التأكيد الذى من شأنه أن يجمعنا به في منفاه فلا نعود قبله إلى مصر ، ثم انتظرنا إلى ظهر اليوم التالى ولم يصلنا أى خبر من استل فاعتقدنا أن البارجة سافرت ، فانه قال إن عياد سفرها في الساعة الرابعة بعد نصف الليل ، وإن طلبنا لم يجب

« بهذا قضت الأيام ما بين أهلها فأونة قرب وآونة بعد »

انتهى ما كتبه فتح الله باشا في مذكراته

وقد وصف سعد منفاه بجزيرة سيشل في خطاب كتبه من جبل طارق في الخامس من سبتمبر إلى الدكتور حامد محمود بالعاصمة الانجليزية . وهو من الوثائق التاريخية التى تثبتنا هنا لأنها تغنى ما لا تغنيه وثيقة أخرى في وصف تلك الجزائر ووصف عودته منها إلى جبل طارق . قال بعد دياجة وجيزة :
« هي جزيرة ملتوية صاعدة نازلة ، ومساكنها ضيقة خالية من الترتيب والنظام وأسباب الراحة ومفروشاتها غير وثيرة خصوصاً الأسرة ولوازمها ، مأكولاتها محدودة فالغنم لا وجود لها والبقر نادر ، ولكن الفراخ كثيرة ،

وأكثر منها السمك . ولكن أغلب أنواعه غير جيد . أما الفواكه فقليلة ، وأقل منها الخضروات التي مع قليلها لا طعم لها في الغالب .
« ليس بسيلان سوق للأماكولات وإنما تباع مفرقة على يد أفراد يطوفون بها من حين لآخر ، وأغلب ما يحتاج إليه الإنسان من الأقمشة والأغطية غير موجود وإنما يجاب إليها من الخارج بحسب الطلب تقريبا ، ولا وجود لأكثر الصناعات بها فلا تجد فيها مثلاً دكاناً للنظارات ولا للساعات ولا حدادا ولا خياطاً . وليس بجزائر سيلان كلها إلا طبيب واحد حامل لشهادة قانونية وأصله جراح ولكنه يتعاضى الطب الباطني أيضا يساعده اثنان لا شهادة عندهما فيما يقال . وليس بهما أطباء للعيون أصلاً وكل من ابتلى بمرض فيها لزمه أن يرحل عنها للاستشفاء خارجاً منها أن كان غنياً ، والا فأمره إلى الله كما أنه ليس بها اختصاصي في طب الأسنان بل فيها موظف في البوستان أضيف إليه أخيراً وظيفة قاضي صالح يتعاضى معاملة الأسنان لا عن علم بل « بالعافية » .
« احتاج الأستاذ مكرم لحشو سنة من أسنانه فخشاها له بالاسمنت ولم تلبث قليلاً حتى سقط حشوها ، وانكسرت سنة في طقم أسنان عاطف بك فضع له أخرى ولكنها سقطت بعد قليل ، وحاول أن يصنع لهذا البيك طقم أسنان آخر فتعذر الأمر عليه وتركته مرتبكاً فيه .

« فتح الله باشا بركات مصاب بمرض في اللثة يشتد به أحياناً حتى لينعه عن الأكل وكل من بحثه من الأطباء قبل سيلان رأى خلع أسنانه خطر بقائها ولكنه لم يمكنه بعد تلك الأمثلة أن يعرض نفسه على ذلك المتطبيب ليخلعها له ويبدلها بغيرها وتركته وهو في أشد أحوال الألم .

« لا بد أن تكون علمت بما أصاب الأستاذ مكرم في عدن من حمى الملاريا . . . هذه الحمى اضعفته كثيراً وولدت عنده ضعفاً في القلب والأمعاء . فكثيراً ماتت نوبة اسهال وخفقان ودوخة ويعالجه رئيس الأطباء ، ولكن تركته بدون أن تظهر نتيجة لهذه المعالجة .

» بعيون مصطفى بك النحاس حبيب يحتاج للمس ولا من يعرف في سيشل طريقة المس فاكتفى بأن يمس له الطبيب الجراح

» بسينوت بك حنا ضعف في الامعاء والمعدة فالشهية عنده ضعيفة في أغلب الأحيان ويعتريه كثيرا الاسهال والامساك ويعالجه ذلك الطبيب بدون فائدة ظاهرة لغاية سفرى

» ليس بسيشلز صيدلى قانونى ولكن الطبيب الاول هو الذى يباشر في الاغلب تحضير الأدوية ، وبعض ما هو ضرورى منها كالاسبرين لا يوجد إلا نادراً

» لما اشتد الحال بنا من الجو وورداه ته وعدم توفر اللوازم الطبية والأطباء واعتلت صحتى خصوصاً كبر الامر على اخوانى فكتبوا من غير اشتراكى خطابا شرحوا فيه سوء حالتنا وطلبوا نقلنا الى جهة أخرى تتوفر فيها اللوازم الصحية ولا تكون حياتنا معرضة فيها للخطر كما طلبوا أن يبلغ طلبهم بالتلغراف الى جهة الاختصاص . وكان ذلك فى ٩ يونيو . فكتب الحاكم اليهم جوابا بأنه سيبلغ ذلك الى مصر ولندن

» وكتبوا اليك تلغرافا بهذا المضمون ولكن الحاكم لم يسمح بارساله اذ المراسلات فى سيشلز لم تكن حرة بل تحت المراقبة . فالجوابات والتلغرافات التى تصدر منا يجب تسليمها لشخص معين وهو يتصرف فيها تحت اشراف الحاكم بما يراه من حرج أو تعديل أو إرسال ، والى ترد الينا لا تسلم إلا بهذه الطريقة . ولهذا كانت التلغرافات التى تصل باسمنا لا تسلم الينا الا بعد زمان من يوم أو يومين فصاعدا ، ولا أذكر أن تلغرافات تسلم الينا يوم وصوله إلا مرة أو مرتين بالأكثر . وكثير من الجوابات التى تصدر منا لم تكن تصل إلى جهاتها وأكثر العوائق كانت فيما يختص بالمراسلات التى تشتمل على الكلام فى الجو والصحة والنقود . وقد بلغ من أمرهم أن كتب الحاكم الينا ينهانا عن الطعن فى الجو ويشير إلى أنه يرسل من أخبار الصحة ما يراه موافقاً

« تطبيقاً لهذا رفض أن يرسل تلغرافاً أعددتاه جواباً لسؤالهم عن صحتنا
ورغب أن نعدل فيه بعض النقاط فلم نقبل لمخالفة التعديل المطلوب للحقيقة
ثم حررنا صورة أخرى وأرسلناها إليه وقيل لنا بعد ذلك إن إحدى الصورتين
أرسلت ولكن لا ندرى إلى الآن ما هي هذه الصورة

« تخصص لكل واحد من إخواني في الشهر « ثلاثين » جنيهاً تقريباً ولى
خمسون . فلاحظت قلة ذلك بالنسبة لما يناسب حالتنا فأكدوا الى المرة بعد
المرة أنهم يصرفون لى من مالى كل مبلغ طلبته زيادة عن هذا المخصص .
ولسكنى لما احتجت إلى مبلغ « مائتين » جنيهه أبوا أن يصرفوا منه إلا خمسين
متعللين بأن مصر لم ترسل لهم نقوداً . وبعد شهرين سمحوا أن يصرفوا لى
مبلغ مائة جنيه

« وصلت سيشلز فى ٥ مارس وما وجدت مسكناً معداً لاقامتنا فأنزلونى
بجزيرة تدعى جزيرة لونج بعيدة عن العاصمة ، وأخبرونى بأن المسكن الذى
أعدلى به بعض تصاريحات تنتهى بعد قليل ، فطلبت أن أراه وأرى المفروشات
التي أعدت لى فلم يسمحوا لى إلا بعد بضعة أيام . أخيراً سمحوا لى بزيارته
فوجدته يبعد عن المدينة خمسة أميال تقريباً ولا يمكن أن ينتهى تصاريحه قبل
شهر من الزمان إذا بذلت عناية كبرى ، وهو مع ذلك ضيق وغرفة صغيرة
ولا يسع اثنين يسكنان فيه إلا بكل ضيق . فلاحظت ذلك لمن تعين لمصاحبتى
وأخبرته بعدم إمكان السكن فيه خصوصاً لشدة حاجتنا إلى الأطباء الذين
يسكنون بالبعد عنه بعدة أميال وليس هناك عربات ولا أوتوموبيلات ،
وأضفت إلى ذلك أنه إذا كانت الحكومة ارتبطت لمالك هذا المنزل بشيء
فإننا مستعدون لتعويضه . ورغبت من ذلك الشخص أن يعرض هذه
الملحوظات على الحاكم فعرضها عليه فطلب مقابلتى وانتهى الحال بالعدول
عن هذا المنزل وسكنانا فى منزلين آخرين بالمدينة . ولسكنهم لم يسمحوا
لى برؤية المفروشات إلا فى يوم ١٨ مارس فرأيت كلها قديماً وأغلبها بال

وكثير منها لا نفع فيه . فاخبرونا بأن هذا كل ما أمكن الحصول عليه في
سيشل كما أخبرونا بأن الحكومة خصصت مبلغاً للتأثيث ولكنهم لم يعرفونا
إلى الآن بمقدار هذا المبلغ . ومن عهد العدول عن المنزل الأول لم يذكروا
لنا عنه شيئاً لافياً يختص بإيجاره ولا بمدة إيجاره ولا بمقدار أجرته ولا غير
ذلك مما يتعلق به . بل تناسوه الى ما قبل حضوري بقليل حيث طلبوا منا أجرته
مدة خمسة أشهر وخصموها فعلاً من مرتباتنا يوم سفرى

» وبالجملة كانت المعاملة في سيشل غير مناسبة ، ومع اضافتها لحالة الجو
لا يستغرب أن يترتب عليها ضعف الصحة

» ولقد كنا ننتظر من المساعي الجلييلة التي بذلت في مصر وفي لندن بقصد
تغيير هذه الحالة نقلنا جميعاً إلى جهة أوفق بالصحة ، ولكن خاب انتظارنا
بالنسبة لبقية إخواني ، إذ ورد على في يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٢٢ خطاب
من الحاكم العام بسيشل يخبرني فيه بأنه تقرر نقلي لجهة أخرى على سفينة
حرية تصل غداً فيلزمني الاستعداد للسفر الذي ستكون مدته حوالي ثلاثة
أسابيع وأن يكون معي خادمي . وأن هذا النقل نظراً لصحتي . فطلب إخواني
أن يصحبوني كلهم أو بعضهم نظراً لمرضي واحتياجي لعنايتهم فلم يجب طلبهم
إلا بالرفض وتصرح فقط للطباخ بالسفر معي وأبوا أن يعرفوني بالجهة التي
تقرر نقلي إليها زاعمين أنهم غير عالمين بها

» قبل يوم ١٧ أغسطس المذكور بثلاثة أو أربعة أيام تقرر وضع جميع
المراسلات الخاصة بسيشل تحت المراقبة ، وذاعت الاشاعة بأن ذلك بسببنا
ولكننا لم نكن نصدق ذلك حتى تأكدناه من بعض الأفواه الرسمية ، واستنتجنا
منه أن الغرض من هذه المراقبة منع وصول خبر نقلنا إلى مصر ، وأن النقل
هو إلى جهة بعد قنال السويس . ولم ينقلونا للسفينة الحرية إلا ليلاً الساعة
٩ من مساء يوم ١٨ أغسطس ، ولم يؤذن لأحد من إخواني بمصاحبتني إليها .
وكانت أمتعتي سبق إرسالها ولم يسلبوها للسفينة إلا بعد تفتيشها ، كما فتشوا

خادمى الذى كان معنا تفتيشاً دقيقاً . ولما وصلت إلى السفينة استقبلنى
كومندانها على السلم استقبالا حسناً وسألنى عما إذا كان معى خطابات فأجبت
بالتى طبعاً . وقدم الى ضابطاً يصحبنى الى القمرة التى أعدت لى فوصلنا ووجدتها
لا بأس بها وإن لم تكن من أحسن قمرات السفينة

« وهناك فتشنى هذا الضابط وسلمنى ورقة بها تعليمات تتضمن انى لا أجلس
إلا فى قمرتى أو فى المحل الخاص الذى عين على ظهر السفينة الأعلى لجلوسى
به وأن ألزم القمرة عند مسيس الحاجة ، وألا آكل إلا فى أحد هذين المكانين
وأن آخذ الحمام ما بين الساعة السادسة والسادسة والنصف ، وأن صف ضابط
تعين لخدمتى وأمر بعدم مفارقتى وألا أرسله بعيداً عنى ، كما تعين واحد يلاحظ
الأكلى ، وألا اتصل بأى واحد من السفينة غير من تعين للملاحظة ، وألا
أستعمل أداة للكتابة إلا باذن الكومندان وأن أسلمه كل شئ أكتبه وأن
أبلغ إليه طلباتى بواسطة الضابط المعين ، وأنه يمكن تعديل هذه التعليمات بعد
مضى القسم الأول من السفر

« تسلمت إلى هذه التعليمات مكتوبة وطلب منى امضاؤها فكتبت بالعربية
عليها انى علمت مضمونها وأمضيت ما كتبت . أما هذه التعليمات فقد تنفذت
بكل دقة . وما كان الحارس الذى كان يتغير فى كل حصّة من الزمن يفارقنى
لحظة حتى عند قضاء الحاجة ويمضى الليل كله ساهراً يباب القمرة

« بعد يومين من سفرنا سألت القمندان عن جهة قصدنا قال أخبرك بها
بعد مفارقة عدن . فارقناها وسألته فقال بعد مفارقة مصر ، وكان يتلطف
معى فى كثير من الأحيان ويخبرنى أنه يبذل كل جهده فى راحتى . أما الحكيم
ورتبته كما قيل لى فى السفينة مساوية لرتبة القمندان ، فكان يزورنى صبيحة
كل يوم ويحتهد فى ارضائى ، وحل البول مرتين عقب القيام من سيشل مرة
ومرة قبل الوصول إلى هنا . وقبل الوصول إلى السويس يوم خفضت
السفينة من سيرها فنقص من ١٤ عقدة فى الساعة إلى احدى عشرة . وكان

الأكل في السفينة رديئاً وكاه من المحفوظ ولا وجود للخضارات فيها فتكلمت في هذا الشأن مع القمندان فارسلي بالتغراف اللاسلكي الى السويس لمقابلتنا باللازم منها . ولما صرنا من هذه المدينة على بعد ساعة قابلتنا مدمرة حربية حاملة لجانب عظيم من هذه الأشياء ، ثم سارت السفينة فوصلت الى القنال في الساعة ٥ ونصف تقريباً مساء . وقبل الوصول أمرت بملازمة القمرة بعد أن قفلت نوافذها زجاجاً وحديداً ، ووضع الحرس على اتباعي ومنعوا من الحركة في السفينة . ومرت هذه في القنال بسرعة بلغت في كثير من الأماكن عشرين عقدة في الساعة حتى لم تستغرق في اجتيازه إلا ثماني ساعات تقريباً . ولم تقف الباخرة لا على السويس ولا على بورسعيد

» بعد اجتيازه في الساعة الحادية عشر ، أخبرني القمندان بأنني منقول إلى هنا ولم يعدل من تلك التعليمات شيئاً ولكنه سمح لي بأن أجلس على ظهر السفينة الأدنى الذي كان يجلس الضباط فيه أغلب الأوقات

» لما رست السفينة هنا صبيحة يوم الأحد ٣ الجاري استقبلني بها كل من سكرتير الحاكم العام والحكيم ورئيس أركان حرب وبلغوني سلام الحاكم » انفراد الأول بي فبلغني أنهم أعدوا منزلاً لسكنائي ويتعشم أن أجده موافقاً لي وأنهم أعدوا كل ما يلزم لضيافتي وإني أعتبر نفسي ضيفاً لاسجينة . وكانوا قد أعدوا اتوموبيلين لي وللاتباع . وعند ما نزلت من السفينة ودعني القمندان والحكيم وبقية الضباط في مدخل السلم وداعاً حسناً ، وركبت الاتوموبيل وعلى يساري السكرتير وأمامنا رئيس أركان حرب ، وصرنا الى المنزل فوجدته في وسط الحارة الانجليزية وهو منزل واسع وغرفته كبيرة وبه حديقة ويظهر انه كان مهجوراً من مدة ثم أعدوه أخيراً . وكانت رائحة البوية تتطاير منه

» ورأيت فيه رئيس البوليس الذي شرع في الحال أن يسلمني القرار المرفق بهذا . فأخذ السكرتير ووضعني الى جانبه وقال إن هذا أمر شكلي

لأهمية له وأنت حرق في هذه الجهة ولك أن تتحرك كيف تشاء وتذهب حيث تريد ما دمت لا تخرج عن الأرض الانجليزية . وبعد يومين أخبرني السكرتير بأن المنزل وأنواره وحديقته على مصاريف الحكومة والباقي على مصاريفك وأنه ترتب لي في الشهر خمسون جنيهًا فاستقلت هذا المبلغ الذي كان مرتبًا مثله لي في سيشل لأن العيشة هنا أغلا منها هناك بكثير جدا وكنا ستة أشخاص في معيشة واحدة . وكان مع ذلك مأذونا لي في أن أصرف ما يلزم من زيادة عن ذلك المرتب من أموال . ففهمت منه أن هذا المبلغ تقدر لي باعتبار كونه أكثر مما كان مرتبًا في سيشل فافهمته أنه إذا كان مأذونا لي باستجلاب نقود من مصر فاني لا أطلب زيادة المرتب المذكور . فصرح بأنني حرق في استجلاب ما أريد من أموال من غير أن تعارض حكومة هنا في أي مبلغ يرد منها

« يزورني كل يوم طبيب من الحكومة ويصرف وقتا ليس بقليل في الاستفهام عن الأحوال الصحية والوقوف على حقيقتها ووجدت فيه رجلا مهذبا وديعا هشا ذا خبرة فيما يظهر لمثلي . وقد حلل البول مرتين فكانت النتيجة في الأولى ٩ جرام في الألف والأخرى ١٢ جرام في الألف ولكنها لم تكن من محصول ٢٤ ساعة كالأولى بل محصول مرة واحدة . وستحلل غدا وفي كل أسبوع . وظهر في التحليل أثر خفيف للزلال ولكن هذا ليس حديثا إذ كان يوجد شيء منه في مصر . وقد كنت أتناول على الأكل بيرة استوت فاستحسن استبدالها بقليل من الوسكي واستحضر من لندن عيشا ودقيقا لأن أتناول منه وسأبدأ في التعاطي من الليلة

« أشعر الآن بشيء من القوة واعتدال الصحة وجودة الشهية وأخذت أنام أحسن من ذي قبل

« المراسلات حرة والتلغرافات ترد الى وتصدر عني في أوقاتها ولا يستغرق المصادر منها والوارد إلا مسافة الطريق . وأيد هذه الحرية عندي وصول خطابي اليك

« أنا حر في الذهب والمجىء على الأرض الانجليزية ولكن على باب المنزل حرس من البوليس السرى ليلاً ونهاراً يتبعنى من بعيد حيثما سرت »
« كنت أحسب أن زيارتى غير ممنوعة ولكنى قرأت في الجرائد اليوم أن الجنرال الذى نشر فى مصر ما يفيد منعها إلا باذن من الحكومة الانجليزية لا تعطيه إلا فى أحوال استثنائية ، ومن هنا فهمت مقدار الصعوبات التى تلاقيتها فى سبيل الحصول على هذا الاذن ، وإذا لم توفق للحصول عليه مع توفر هذه الأحوال الاستثنائية بالنسبة لمرضى ولكونكم من الحكماء الذين سبقت لهم معالجتى فلا أمل فى أن يحصل عليه غيركم . وإنى أستقبل هذه الشدائد بكل صبر واثقاً بالله فى حسن العاقبة . أرجوكم كلما وقفت على شىء فى الجرائد الانجليزية يختص بى أو بمصر أن ترسلوا قطعة الى »
« وفى الختام اشكركم على جميل مساعيكم العامة والخاصة وأرجوكم أن تبلغوا فائق تحياتى الى جميع اخوانكم المصريين . »

كذلك أجمل سعد أحوال المعيشة التى لقيها فى منفاه بجزائر سيشل اجمالاً يغنى عن المزيد . ولم يتجاوز أن ترك الوقائع تتكلم فى غير هوى ولا مرارة كما يتكلم العالم المحقق الذى يراقب الأمور للدرس والتدوين ولا تعنيه منها شكاية أو نكايه . وإلى جانب هذه الأحوال أمور شتى لم يعرض لها فى خطابه لأنها لا تنتظم فى موضوع هذا الخطاب ، ونحن مشيرون إليها بالايجاز على مقدار ما يقتضيه المقام

نزل سعد وأصحابه فى قلعة عدن فلم يلبسوا قليلاً حتى جاءهم رسول من مصر هو موظف سورى كبير كان يعمل فى دار الحماية فاستأذن فى لقاء سعد على انفراد وخرج معه فى مركبة للرياضة ، وافتتح معه حديثاً وجيزاً عن المفاوضات والحلول المعروضة ثم فاجأه بكلمة مقتضبة لا علاقة لها بجديته السابق قائلاً : « ستكون ملكاً على مصر . . . » فدهش سعد لهذه المفاجأة

وأجابه في حدة واستغراب : ما لنا ولهذا ؟ وما شأنى أنا والمملك ولست إلا واحداً من الرعايا ؟ فعاد الرجل الى الكلمة يكررها وأضاف إليها : « أنك زعيم الأمة الذى لا ترتضى سواه ، ولو قبلت ما يعرضه الانكليز عليك وعلى الأمة لما خالفك أحد . فاختصر سعد هذه المحادثة وقال للرجل : « انتى افضل أن أكون فرداً من الافراد فى أمة مستقلة على أن أكون ملكاً لبلاد مستعبدة فى ظل حماية أجنبية » ولزم الصمت فى عودته الى القلعة بعد أن قال له على ما أذكر : « انتى احسب انتى لم أسمع شيئاً مما تقول ، ولا أود أن اسمعه مرة أخرى منك أو من سواك »

هذه حادثة محققة لا شك فيها رواية سعد نفسه . اما قصد السياسة الانجليزية منها فلا ندرية على التحقيق . فقد تكون المسألة جداً وقد تكون احدى المناورات ، ولم نسمع من سعد ما يدل على رأيه فى ترجيح أحد الوجهين

وقد لبث سعد وأصحابه فى عدن الى أن تم الاتفاق على مشروع ٢٨ فبراير الذى سيأتى الكلام عنه فى الفصل التالى . ثم صدر الأمر بنقله الى جزائر سيشل ، ثم كان الاحتجاج الذى أسفر عن الاذن بسفر واحد من رفاقه معه وهو الاستاذ مكرم عبيد لانه أصغرهم سناً ويعرف اللغة الانكليزية .

قال سعد فى وصف الرحلة من عدن الى سيشل من خطبة له بعد رجوعه الى مصر : « جاءوا فى الساعة التاسعة وكنا فى قلعة عدن مسجونين وقالوا : يجب أن تنزل فى الساعة العاشرة والنصف فى مركب حربى تنتظرك ليتوجه بك الى سيشل وأمامك نصف ساعة تحزم متاعك فيها وتركونى وتوليننا حزم متاعنا فى هذا الوقت القصير . ونزلنا فى مركب حربى حمولته ٩٠٠ طن كزورق ولكننا لم نساfer فى هذا اليوم الاربعاء بل مكثنا فيه الأربعاء والخميس وسافرنا يوم الجمعة مساءً

« انزلنا فى يوم الأربعاء لسكى نساfer الى سيشل ، ولكننا لم نساfer إلا يوم الجمعة لاجل ان يقال أن زغلولاً نزل فى البحر وهو فى طريقه الى سيشل .

فعلوا ذلك في اليوم الذي اعلنوا فيه تصريح ٢٨ فبراير وان مصر استقلت
والغيت الحماية التي ضربت عليها

« أخذونا في ذلك اليوم وقد كان في المقرر ان نسافر جميعا
بعد خمسة ايام ولكنهم ما انتظروا بنا حتى يأتي هذا اليوم ، وما انتظروا
بل عجلوا بسفري مع مكرم ومع خادمي وسرنا في هذه السفينة مسافة ستة
ايام كدت أشرف فيها على الهلاك

» أخيرا وصلنا إلى جزيرة سيشل ولا أحدثك عن حرارتها ورطوبتها
وبعدها وكانوا يشددون علينا تشديداً كبيراً الى حد أنهم حرموا
علينا أن نتكلم في الصحة وان نكتب في الهواء وحجروا علينا هذا فكان لا ينبغي
لنا ان نقول بان صحتنا غير جيدة ولا يصح لنا أن نقول ان هواء سيشل غير
مناسب ، لأنه معتبر ان هذا التكلم في الصحة ضد النظام !!

ولا حاجة الى الخيال الواسع في ادراك الحالة التي يكون عليها شيخ
مصاب بالربو في جزيرة معرضة للحرارة والرطوبة ومختلف التيارات الهوائية
في وقت واحد . فقد كان هذا الجو يشغل عليه حتى يصاب بالاختناق في بعض
الأيام ويعجز عن الكلام الا بالايحاء وساءت حاله وهو كما تقدم ممنوع من
الاشارة الى هذا الوصب الذي يعاينه

واحتال سعد على علاج الوقت وازجاء الفراغ بتعلم اللغة الانجليزية
على الأستاذين مكرم عبيد وعاطف بركات ، فكان يقضي في اليوم ساعات في
القراءة والدراسة واستظهار الكلمات : يستيقظ نحو السادسة فيرتدى
ثيابه ويجلس في شرفة الدار لبدأ القراءة في الصباح الباكر الى ان يوافيه أحد
الأستاذين فيقرأ عليه ما يحتاج الى مداولة ومساعدة ، وقد يواصل الدرس
وهو في فراشه بعد الغداء وقبل الرقاد في المساء ، وكان قليل الخروج من الدار
لأنه كان يكره النظر الى الحراس ويبقى كثيراً من التعب في الصعود والنزول ،
ولا يألف الرياضة هناك إلا على شاطئ البحر حيث يروق الجو ويطيب

الهواء . وقد يلعب « السيجة » بأصداف البحر مع بعض الزملاء على رمال الشاطئ . البيضاء ، وهي اللعبة الريفية التي يحذقها الفلاحون ويشعر زعيم مصر وهو يلعبها انه فلاح ابن فلاح قبل كل شيء ، وكان أحب القراءات اليه بعد دراسة اللغة الانجليزية قصائد البارودي التي قالها في منفاه : يقرأها ويرتلها على سبيل التأسى أو الإعجاب ، ويستطرد من ذكرها أحيانا إلى ذكريات الثورة العراقية وأحاديث زعمائها في الأدب والسياسة ، ومنهم البارودي ومحمد عبده وعبدالله النديم ، ويمزج أحاديثه في تاريخ هذه الثورة ببعض الفكاهات والأغاليط التي كان أناس من زعماء الثورة يقومون فيها عن جهل أو اضطرار ولما برح سيشل اتفقوا على طريقة للتفاهم يتحللون بها قليلا من قيود الرقابة ، وهي اتخاذ « صفر » من الاسماء التي ترد في الرسائل البرقية حسب المجهود في كل واحد من أصحابها . فاذا أرسلت بتوقيع « سينوت حنا » فمعناها إنهم في حاجة إلى النقود لاشتغال سينوت بك بالمسائل المالية ، وإذا أرسلت بعنوان « مصطفى النحاس » فمعناها إن الحماسة في مصر شديدة لاستحسان مزاجه ، وإذا كانت بعنوان مكرم عبيد فمعناها إن الدعاية في انجائنا ناشطة لأنه قام بهذه الدعاية قبل ذاك ، وإذا كانت بتوقيع زغلول فالأخبار عادية أو بتوقيع « سعد » فذلك بشير الافراج

تصريح ٢٨ فبراير

أرسل المركز كرزون في الثالث والعشرين من ديسمبر البرقية الآتية إلى الفيكونت اللنبي كما جاء نص ترجمتها في الكتاب الأبيض : —

« ليس ثمة اعتراض من جانب وزارة المستعمرات على إبعادك زغولاً وأنصاره إلى سيلان في أول فرصة كما اقترحت في تلغرافك المؤرخ في ٢٣ ديسمبر . والتعليمات مرسله إلى حاكم سيلان طبقاً لذلك . ولكن إذا ظهر أنه من غير المرغوب فيه حجزهم هناك لاعتبارات محلية ، فإن في الوسع إرسالهم إلى سيشل . ومعلوم لدينا أن الاستعداد اللازم لهم يمكن توفيره في سيشل . وينبغي الإبراق إلى حاكم سيلان مباشرة بالتفاصيل الوافية عن تاريخ البحار من السويس وعن تأليف القوم المبعدين »

فاستطير الفيكونت اللنبي فرحاً بهذه الموافقة كما بدا من برقيته التي بادر بارسالها لشكر المركز كرزون كثيراً وانتظر إبعاد زغول وأصحابه إلى سيلان ليوقع اليأس في قلوبهم وقلوب المصريين من كل مستقبل مرجو لهؤلاء القوم المبعدين في عالم السياسة المصرية . ولأمر ما — لا يعنيننا بحثه هنا — تغير المنفى واستبدلت جزائر سيشل بجزيرة سيلان ، وليث سعد وأصحابه في انتظار النقل إلى المكان المقدور ، حتى أعلن تصريح ٢٨ فبراير في مصر فكان يوم إعلانه — إعلان الاستقلال ! — هو يوم انتقال « القوم المبعدين » من عدن إلى منقاهم السحيق

ولولا الحرص الشديد على الانتقام من سعد والتشفي منه ومن أنصاره لكان التمهيد بنفيهم لتأسيس النظام الجديد من أعجب ما يخطر على العقول ، لكان رجاء النجاح بعد ذلك التمهيد من أغرب الأحلام التي يحلم بها الساسة العمليون ، وهي أغرب من مخترعات الخيال

فان النفي ليصلح عنواناً لكل شيء إلا أن يكون عنواناً للحرية والاستقلال
ودليلاً على أن البلاد قد ظفرت بحكم نفسها وتحقيق مشيئتها ، وإن بدأ
يضيق بزعمائه في يوم إعلان حريته واستقلاله لأعجوبة من أعاجيب النقائص
والاضداد . وما كان بدعاً من المصريين أن يتشاءموا بتصريح يمهده ذلك
التمهيد ، ولا أن يسمعوا في يوم واحد بنفي سعد إلى سيشل وباستقلالهم هم
في وطنهم بما يرومون ومن يرومون فلا يستطيعون التوفيق بين الأمرين
ولا يجدون بداً من الشك في إحدى الروايتين . وإنما البدع أن تؤكد لهم
النفي والاستقلال في وقت واحد وأن لا تتركهم ينسون نبأ النفي في ذلك اليوم
خاصة ثم تطمع منهم في اعتقاد غير ما اعتقدوه ويقين غير ما يقنوه ، وتريدهم
على أن يستبشروا بالتصريح وبالعهد الذي يليه

ولو كان التصريح استقلالاً حقاً لما عيب على المصريين أن يتشاءموا به
ويوجسوا منه ويعرضوا عنه وعن دعائه ومروجه ، لأن نسيان الأعزاء
المنكوبين والانتصار لخصومهم الظافرين اغتباطاً بغنيمة سياسية أو منفعة
وزارية أمر قد يفهمه الساسة ويحمدونه في حساب المساومات والمعاملات ،
ولكن النخوة في الشعوب أولى بالتقدير والاعجاب من جميع المنافع والغنائم
التي تنطوي في النظم والدساتير ، لانك إذا بحثت عن النخوة في سواد الأمة
فوجدتها عندهم فليس يضيرك أن لا تجد فيهم موازين الساسة المحنكين ، وإذا
بحثت عنها فلم تجدها فهناك الضير كل الضير والوخامة شر الوخامة والاسفاف
الذي لا تغنى فيه حنكة ولا نظم ولا وزارات

ان المصريين لم يشعروا بتصريح ٢٨ فبراير الا كما ينبغي أن يكون شعورهم
به سواء في ذلك من حمدوه ومن أنكروه ومن دقوا له الطبول ومن حثوا
على وجهه التراب . . واطرف ما يروى في هذا الباب ما رواه البارون « فان
دن بوش » الباجيكي في كتابه « عشرين سنة بمصر » نقلاً عن مذكراته التي
وصف بها الاحتفال بالاستقلال في محافظة الاسكندرية . فقد روى كيف

خطبوا يوم ذاك وكيف هلّوا بالعهد الجديد. ثم قال : « إلا أن رجلاً قصيراً
على رأسه طربوشه المنحرف تقدم في مشية إبليسية ورفع يده في وقار وعيناه
تلمعان ثم نادى : ليحي الاستقلال التام ! فهبطت كلماته في وسط سكوت
مكروب... »

أين الاستقلال ؟ لا أحد يصدق أنه الاستقلال حتى المتهجين يوم
الاستقلال !!

وكان من الميسور أن يتنبأ الفيكونت اللبني وأصدقاؤه الوزراء المصريون
بما يوشك أن يلقاه التصريح الذي مهدوا له ذلك التمهيد ، ولكنهم بلغوا
بالتمهيد غاية فيها الكفاية : وهى الخلاص من زغلول والغلبة عليه . وهى غاية
مقصودة لذاتها ولو لم تعقبها نتيجة مرموقة من النتائج السياسية . وقيل ان
بعض أولئك الوزراء قد لجأت به الضغينة على سعد حتى اقترح محاكمته
واعدامه بتهمة الثورة والخيانة العظمى ، وقيل ان الفيكونت اللبني لم يرفض
ذلك الاقتراح ولم يحجم عن الرجوع به الى الحكومة البريطانية ، وأنها هى
التي ساومت في الصفقة المعروضة الى ان قنع من الاعدام بالابعاد !

وبما يعزز أن اللورد اللبني نفسه طالب لزعماء الوفد جميعاً الاعدام في هذه
المناسبة أو غيرها مارواه السفير الأمريكى الدكتور مورتون هول عن مقابلة
اللورد اللبني ومستر أسكويث بعيد مقتل السردار حيث قال في كتابه مصر
« ماضياً وحاضراً ومستقبلاً » : « عند ما لقيته قدمنى الى مستر أسكويث
وكنا جميعاً واجمين واللورد اللبني بصفة خاصة مهتاج الشعور ، وكان يقول
ان الأطباء الآن يفحصون حالة الحاكم العام وانه يخشى أن تكون الإصابة
قاتلة . ثم قال إن زغلولاً باشا رئيس الوزراء حضر قبيل ذلك ليعرب عن
أسفه لهذه الفعلة الشنيعة ولكنه لم يجد متسعاً من الوقت ولا من الكلام
لهذه المقابلة . ثم ختم كلامه عن هذه المسألة بقوله : اننى قد أردت أن أشق
جميع هؤلاء الناس في وقت قبل هذا فلم توافق الحكومة ، وكأنه يعنى كما فهمت

ساعتئذ أنه لو أجيب إلى طلبه وترك رأيه لما وقعت هذه الفاجعة »
فالاتقام من زغلول ومن — هؤلاء الناس — كان إذن غرضاً يراد
لذاته أو كان هو الغرض الأول من قضية التصريح والاستقلال المزعوم ...
لعله بعد نفي زغلول يعين على نسيانه وإهماله

وبعد الفراغ من هذا الغرض الأول تفرغ اللورد اللبني والوزراء المصريون
أصدقاءه لما بقي لهم من الغرض الآخر الذي لا يهم النجاح فيه كما يهم النيل
من زغلول والغض من مكائده وكبريائه ، ونعني بالغرض الآخر ارضاء مصر
بالتسوية الجديدة من طريق اقناع المعتدلين وإجبار المتطرفين على الاعتدال ،
فلم تطل الايام حتى وجدوا ان « التصريح » كان عبثاً باطلاً وجهداً ضائعاً
من حيث تحقيق هذا الغرض الآخر ... لانهم قد اضطروا الى اتباع الخطة
التي كانوا مضطرين الى اتباعها لو لم يوجد هذا التصريح ؛ وهى خطة القمع
والتجسس والمحاكمات العسكرية تقابلها من الجانب المصرى المظاهرات
والهياج وسلسلة من حوادث القتل السياسى لم تكن معروفة قبل ذلك فى
تاريخ الثورة المصرية ، لأن الانجليز الذين أصيبوا قبل تصريح ٢٨ فبراير
إنما كانوا يصابون فى أثناء المظاهرات أو فى أثناء الصدام والمقاومة وكانوا
جميعاً من الجنود ، ولكن حوادث الاعتداء بعد ذلك التصريح كانت تصيب
الجنود والموظفين وغير الموظفين ، وكان القائمون بها أناس يتآمرون
ويدبرون ويقدمون عليها للحفيظة والانتقام

وانقلب العداء إلى عناد والعناد إلى مناجزة يبذل فيها كل فريق قصارى
ما عنده لتحدى الفريق الآخر وإحباط مسعاها ، فاذا منعت الحكومة
الاجتماعات والمظاهرات التى تهتف بحياة سعد زغلول نابت عنها الاغاني
الشعبية فى الشوارع والأزقة والحواضر والقرى وكل مكان يتسع فيه الفضاء
للغناء والترنم والانشاد ، وإذا حظرت الحكومة على الصحف أن تذكر سعداً
أو تشير إلى اسمه أو اسم الجزيرة التى هو منبئ فيها استورد الناس الآنية الخزفية

من أوروبا وعليها رسمه ، وكتبوا اسمه على الجدران وعلى ورق النقد الذى كانت تتداوله الأيدى بمئات الألوف فى تلك الأيام لانتشار الأوراق الصغيرة من جميع الفئات ، وإذا اعتقلت الحكومة أعضاء من الوفد قام فى مكانهم على الأثر أعضاء غيرهم يعرضون أنفسهم للاعتقال والجزاء وهم مستبشرون ، فأصبحت العلاقة بين الفريقين علاقة غالب أو مغلوب ومنتصر أو منهزم ، وهذا كل ماظفر به التصريح من «التقريب» و «تسوية» العلاقات بين البلدين

وقد ظهر من سفر اللورد اللنبى إلى لندن أيام المفاوضات فى التصريح — كما ظهر بعد ذلك من الوثائق الرسمية — أن الوزارة البريطانية لم تخل من أناس يعارضونه معارضة شديدة ويستكثرونه على مصر كأنه غنيمة لا ينبغي لها أن تطمح اليها . وراق الوزراء المصرين أن يحسبوه كذلك من الغنائم التى لا تنال إلا بالدهاء «والمرونة» ولطف المدخل على عقول الانجليز ، بل راقهم وراق اتباعهم أن يحسبوا أنفسهم خادعين ويحسبوا الفيكونت اللنبى ومستشاريه الانجليز مخدوعين فى هذه المساومة التى ما كانت لتفلح فى زعمهم لولا ماوهبهه من قدرة على طرق الأبواب وتذليل الصعاب ، ومن الطبيعى ان يكون هذا رأيهم أو زعمهم فى تعظيم ماعملوه وتسويغ مافعلوه ، ومن الطبيعى كذلك أن تمنع الحكومة البريطانية فى المبادرة باعلان التصريح ما دامت تستطيع أن تمنع وتساهم وتعطى بالثمن الكبير ماهى خليفة أن تعطيه بالحجان ، ولكن الحقيقة أن الدولة البريطانية كانت وشيكة أن تفرض ذلك التصريح أو ماشابهه على مصر بغير جهد من الفيكونت اللنبى ولا مخادعة من الوزراء المصريين . لأنها اتبعت هذه السنة فى كل أمة شرقية غير مصر بعد الحرب العظمى وبعد رواج المبادئ الواسنية التى استغلتها بريطانيا العظمى فى سياستها الاستعمارية ، كدأبها فى جميع المبادئ والدعوات الصالحة للاستغلال . فاعترفت بمملكة الحجاز ومملكة العراق وخولتهما مظاهر الملك وألقابه وحقوق الدول والعروش دون أن يزعم زاعم ان وزيراً بارعاً أو غير بارع

ضحك من عقول الأنجائز هناك فساقمهم بدهائه ولباقته الى التسليم بالاستقلال من حيث لا يدرون ولا يشعرون . وعمم الأنجليز هذه السياسة حتى اعترفوا بالحكومات الوطنية في مستعمرات افريقيا التي لا نصيب لها من الحضارة . فهناك اليوم امراء وطنيون ومحاكم وطنية ورؤساء وطنيون ومراسم من هذا الطراز تخدع من يعبرون بالبلاد عبور السائح ولا ينفذون فيها الى بواطن الأمور . ولم تخسر بريطانيا العظمى كثيراً ولا قليلاً بهذه البدعة الطريفة من بدع الحرب العظمى بل استفادت كل ما تبغيه وفوق ما تبغيه من السطوة والمصلحة والدعاية . لأنها كسبت سمعة الحرية والأنصاف بين أمم العالم على أثر الدعوة الولسنية ، وكسبت ايقاع الفتنة بين الوطنيين وتدوينهم بالمنازعات الداخلية بدلاً من الاتفاق بينهم على السيطرة الأجنبية ، وكسبت القاء التبعة عن كاهلها والقائها على كواهل الوطنيين لتعود في يوم من الأيام فتتخذ من سوء الإدارة الذي لا بد منه في جو المنازعات والدسائس وتغليب المفسدين وطلاب الفرص والمغانم حجة لها على أولئك الوطنيين ، وكسبت إرضاء الأغرار وذوى الأغراض الذين ترضيهم المظاهر والصور الخلابية فيحسبون أنهم مستقلون لأنهم يوصفون بأوصاف المستقلين . ونجحت هذه السياسة نجاحاً أغرى الدول الاستعمارية باقتباسها والحدو على مثالها فاقتدت بها فرنسا في سورية والبلاد المغربية واليابان في الأقطار التي اقتطعتها من الصين ومعلوم أن بريطانيا العظمى احتفظت لنفسها في تصريح ٢٨ فبراير بشروط أربعة هي : (١) تأمين مواصلات الامبراطورية في مصر و (٢) الدفاع عن مصر في كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة و (٣) حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات و (٤) مسألة السودان ، وهي لو لم تحتفظ بهذه الشروط الأربعة لكان في جيشها المقيم بالبلاد الكفاية لتحقيق كل دعوى تدعيها وتضييع كل استقلال تعتصم به البلاد المحتلة ، فاذا أضيفت الى القوة العسكرية هذه الشروط أو هذه الحقوق كما تريدها

الحكومة البريطانية فالذى يبقى من الاستقلال لا يساوى عناه ، والذى يبقى من الحماية أو من الضم الصريح هو الجوهر الصميم الذى ليس يعنى القوم شىء سواه

تحدث سعد بعد عودته من المنفى عن تصريح ٢٨ فبراير فقال على أسلوبه فى سرد الأمثال : هو ناقة البدوى التى تباع بمائة درهم وتباع التيمة التى فى رقبتها ألف ، ولكن لا تباع الناقة بغير التيمة . . . فما أملحها من صفقة « لولا الملعونة فى رقبتها » !!

من المنفى الى الوزارة

كان عدلى هو الذى قطع المفاوضات مع كرزون
وكان سعد هو الذى نفى إلى سيشل بعد قطع هذه المفاوضات !
وليس هذا كل ما هنالك ، بل كان اللورد اللنبى حريصاً على بقاء الوزارة
العدلية فى الحكم ، ولما استقالت وأكدت استقالتها مرة أخرى كان حريصاً
على « اقناع أعضاء من حزب عدلى بالانضمام إلى الحكومة » لأنه يشعر
كما قال فى برقية العشرين من ديسمبر الى حكومته « بأن هذا الحزب لا محالة
ممزق ما لم يتقدم الآن »

وهذا تصرف من جانب الانجليز لامعنى له إلا أنهم يعتقدون ان
المعارضة التى أحبطت المفاوضات هى معارضة زغلول وان ماعداها إنما هو
معارضة « المظاهر » والمراسم ومقتضيات الأحوال

وقد اجتمعت المعارضة الحقيقية ومعارضة المظاهر بعد نفي زغلول
وأصحابه فى صف واحد ، فاجترفت كل مادبرته السياسة الانجليزية وخيبت
رجاءها فى كل ما قدرته من تخويف للمصريين بتهديد اللورد كرزون فى كتابه
إلى السلطان ، وشعلت المعارضة السياسيين وغير السياسيين فاشترك فيها كبار
القضاة والمحامين والأطباء ، و « حزب » عدلى كما يسميه اللورد اللنبى وسائر
الأحزاب التى تنضوى الى هذا الجانب أو ذاك ، أو تقف بين بين فى انتظار
الطوارئ والتقلبات

استقال عدلى وأكدت استقالته مرة أخرى بعد اعتقال سعد وأصحابه لى
لا ينسب إليه الاشتراك فى هذا التصرف ، وأسرع إلى اللورد اللنبى « يؤكد
له أنه شخصياً سيظل مؤيداً لحكومة السلطان ولقوى القانون والنظام » أى

تأحكام العسكرية البريطانية بطبيعة الحال ، لأنها هي القوى التي تدعى حفظ القانون والنظام فيما عدا حكومة السلطان !

واستحال تأليف وزارة جديدة بعد المعارضة الاجماعية من جميع الطبقات للسياسة التي رسمها اللورد كرزون في كتابه .

وبعد مفاوضات بين ثروت واللنبي أعلن في الثامن والعشرين من فبراير التصريح المنسوب إلى هذا التاريخ لأن أحداً لم يستطع أن يسميه تصريح الغاء الحماية أو تصريح الاستقلال ، أو ما إلى ذلك من الصفات ، لافرق بين أنصاره المرشحين به ، وخصومه المعارضين عليه !

تألفت الوزارة الثروتية عقب هذا التصريح ، وأرسلت وزارة الخارجية المنشأة حديثاً منشوراً في منتصف شهر مارس إلى وكالات الدول السياسية تبلغها النطق الملكي المعلن استقلال مصر واتخاذ ولي الأمر فيها لقب صاحب الجلالة ملك مصر

وفي الوقت نفسه أعلنت الحكومة البريطانية الدول أن كل معاملة بينها وبين مصر على غير الخطط التي رسمتها لاستقلالها تنظر إليها بريطانيا العظمى كأنها عمل من أعمال العداء

وبقيت الأحكام العسكرية وبقى اللورد اللنبي صاحب السلطان الأكبر في مصر المستقلة . وبمقتضى هذه الأحكام العسكرية كانت تغلق الصحف وتمنع الاجتماعات وتصادر الحريات في كل صباح ومساء . بل بمقتضى هذه الأحكام العسكرية حوكم سبعة من أعضاء الوفد بعد إعلان الاستقلال بنصف سنة لأنهم أصدروا منشوراً فيه إغراء وتحريض ضد نظام الحكم الحاضر . . . أى ضد الاستقلال ! فوقف حمد الباسل باشا (١) وكيل الوفد إذ ذاك يتلو على المحكمة الكلمة الوحيدة التي قبلوا أن يلفظوا بها في هذه المحاكمة . ومنها

(١) لائحة الآخرون هم : مرقص حنا بك وواصف غالى بك وعلوى الجزار بك ومراد الشريبي بك والامناذ ووصاف

قولهم : « لو أن المحكمة تأخذ بتصريح حكومتها أو تعتبره تصريحاً جدياً وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة لكان حقاً عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا . لكم أن تحكموا علينا ولكن ليس لكم أن تحكمونا . نحن لا نعرف مهيمناً علينا غير ضئنا وتوكيل الأمة التي شرفتنا وقوانين بلادنا ومحاكمتنا فهما تمكن العقوبة التي يروكم أن تشرفونا بها فاتنا سنقابلهما بالسرور والفخار ، لأنها خطوة إلى الأمام في طريق المجد الذي تسير فيه مصر إلى مصيرها الخالد »

وقد حكمت المحكمة العسكرية عليهم بالاعدام . ثم عدل الحكم إلى سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه على كل منهم وأبلغوا حكم الاعدام أولاً فمتقوا « لتحي مصر » قبل أن يسمعوها ما وراء ذلك . ثم تليت عليهم تنمة الحكم وفيها ذلك التعديل ، فكررنا الهتاف لمصر بالحياة

أما الوفد بعد اعتقال سعد فقد عاد إليه بعض أعضائه المنفصلين ، ثم تركوه بعد أيام لسبب ظاهره أنهم اختلفوا على اختيار عضو من الأعضاء الجدد ، وباطنه أنهم عرفوا السياسة التي رسمت للمستقبل وهي سياسة « حزب عدلى » كما سماه اللورد اللبى ، فرجعوا إلى تأييد هذه السياسة

وقد أصدر الأعضاء الباقون منشوراً مفصلاً ببرناج المقاطعة ، وسياسة عدم التعاون مع الانجليز فى الحكومة وخارج الحكومة ، فقبض عليهم ثم أفرج عنهم ، وعادوا فأصدروا منشوراً حمضوا فيه الأمة على بذل ما فى الطاقة لاعادة سعد وأصحابه من منقاهم ، فقبض عليهم فى الرابع والعشرين من شهر يوليو وحوكموا فى التاسع من شهر أغسطس . وانتهت المحاكمة بعد ثلاث جلسات وجيزة ، لأن الأعضاء رفضوا بتاتاً أن يجيبوا على أى سؤال

أما الوزارة الثروتية فاهم ما صادفها من العقبات — غير مقاومة الأمة — احتجاج الحكومة البريطانية على كثرة الجرائم السياسية التى كانت تقع على

الموظفين وغير الموظفين الانجليز ، ومنها ما كان يقع نهراً في أعمر الأحياء بالسكان . وقد قالت الحكومة البريطانية في احتجاجها :

« إن عدم الاهتداء إلى مرتكبي تلك الجرائم وبقاءهم بعيداً عن طائلة العقاب يدل أوضح الدلالة على عدم كفاية التدابير التي اتخذت لمنع وقوع تلك الاعتداءات ، وإن الحكومة البريطانية تجد نفسها تلقاء هذه الحالة مضطرة لأن تعتبر الحكومة المصرية مسؤولة عن تعويض من يقع به اعتداء من الأجانب أو تعويض ورثته إن أدركته الوفاة ، كما أنها تحتفظ بحق تقدير ما إذا كان التعويض الذي تمنحه الحكومة المصرية كافياً أو غير كاف »

وفيما عدا ذلك الاحتجاج الرسمي كانت العلاقات بين الانجليز والوزارة الثروتية علاقة مودة وتأيد متبادل ، وكانت العقبة الكبرى التي تلقاها الوزارة إنما هي الخلاف المتعاضم بينها وبين الملك فؤاد على مسألة الدستور

وخلاصة المسألة الدستورية أن الوزارة أنشأت برأيها ورأى أصدقائها لجنة مؤلفة من ثلاثين عضواً برئاسة « حسين رشدي باشا » لوضع الدستور الجديد ، تمهيداً لانتخاب الهيئة التي تبرم الاتفاق بين مصر وانجلترا على القضية المصرية . ودعت الوزارة عضوين أو ثلاثة من الوفد المصري إلى الاشتراك في اللجنة فلم يجيبوا الدعوة لأن تمثيل الوفد بهذا العدد القليل بين ثلاثين من أنصار الوزارة المعادية للوفد ورئيسه عبث لا يناله منه إلا التبعة وتصحيح مركز الوزارة تصحيحاً يقويها ويضعفه ويفل سلاحه ، ولأنه كان من ناحية أخرى يقترح انتخاب جمعية تأسيسية لوضع الدستور برأى نواب البلاد لا برأى الوزارة ومن يشايعها ، ولأنه كان يستريب بمقاصد عبد الخالق ثروت ويناصبه العداء مقابلة لعدائه بمثله وتطبيقاً لسياسة عدم التعاون التي أعلنها بعد اعتقال سعد وأصحابه

وارتسمت الخطة التي كان ينويها ثروت باشا وأصدقائه ويطمشون إلى جريان الأمور في مجراها إلى الغاية المنشودة : وهي تنفيذ الاتفاق بينهم وبين الانجليز باسم النواب المنتخبين وضمان الحكم على القواعد الدستورية فبعد وأصحابه في المنفى ، والبقية الباقية من أعضاء الوفد البارزين في السجون أو المعتقلات ، والانتخابات تجري على الأسلوب الذي يحسنه ثروت باشا وجرى عليه في جمع التوقيعات ، وهو وأصدقائه من « حزب عدلى » ينزلون إلى ميدان الانتخاب بغير منازل أو يقهرون منازلهم بمعونة الحكومة وما عندها من وسائل التهريب والترغيب وقضاء المصالح من هنا ومنعها من هناك . ولا يبقى إلا النجاح والاستئثار بالامر إلى زمن طويل

ولهذا كانت الوزارة وأنصارها يقررون المبادئ التي تلائمهم في الدستور وهي مبادئ التبعية الوزارية والاعتراف بالأمة وحدها مصدراً للسلطات ، بدلاً من حصر السلطة الدستورية في أيدي الملك وهو الجانب الذي كانوا لا يأمنونه ولا يرجون منه المساعدة على نجاح الخطة المرسومة وجريانها في ذلك المنحرج المعلوم . وكان يشايعهم الخالصون من أعضاء اللجنة الذين لا ينظرون إلى المآرب الحزبية ويؤثرون المبادئ الديمقراطية في الدستور على مبادئ الاستبداد

فاستفاد الدستور كثيراً من حيطة الوزارة وإخلاص المخلصين ، وجاء على الجملة دستوراً لا بأس به في القواعد والنصوص

لكن الملك قوَّاداً كان يريد الدستور على غير هذه القواعد فيما يرجع إلى التبعية الوزارية ومصدر السلطات ، وبجمل ما يريده في هذا الباب أن تكون الوزارة مسئولة بين يديه وأن لا ينص في الدستور على أن الأمة مصدر السلطات جميعاً . فتوترت العلاقات بين القصر والوزارة الثروتية ، ولاح في الأفق أن الملك قوَّاداً يترقب الفرصة التي يتلخص فيها من تلك الوزارة دون أن يفتح للانجليز باب التدخل في الموضوع ، وقد سنحت

هذه الفرصة بعد زمن وجيز بما نقله محمد سعيد باشا الى الملك من حديث رواه حسن صبرى « بك » المحامى عن الحديوى السابق ، وخواه أن الحديوى يعتبر ثروت باشا من رجاله ولا يخشى منه أن يقيم الصعوبات فى تسوية ماله من المسائل المالية . . . وواجه الملك ثروت باشا بهذه الرواية فلم يبق للرجل الا أن يستقيل بعد قيام هذه الشبهة ، ثم قضى على ترده فى نية الاستقالة أنه دعى للصلاة مع الملك فى الجامع الازهر وسمع من المصادر المختلفة أن مظاهرة كبرى ستلقاه فى داخل المسجد وخارجه بما يكره من هتافات التشهير والالتهام على مسمع ومشهد من ولى الأمر والحاشية الملكية ، فعجل بالاستقالة ولم يذكر فيها من أسبابها إلا أنه قال فى ختامها : « وقد كنت أرجو أن أمضى مع زملائى فى تنفيذ برنامجنا حتى تنامه ولكن أرى أن أترك الأمر لغيرى »

فجاء الأمر الملكى بقبول الاستقالة بعد نصف ساعة من رفعها ، وكان ذلك فى التاسع والعشرين من نوفمبر

وفى اليوم التالى قامت الوزارة النسيمية وغرضها الأول تعديل الدستور وتوسيع حقوق الملك فى التبعية الوزارية وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ

أما وسيلتها الى هذه الغاية فهى التقرب من الوفد واسترضائه بما يحنج به الى السكوت عن التعديل المقصود ، فلا يرى الانجليز وجها للاعتراض مع موافقة الملك والشعب على المبادئ الدستورية التى يستقر عليها القرار

ولهذا أكثر من دعوة الوفد الى القصر الملكى والى الصلاة فى المساجد التى يحضرها الملك أيام الجمعة . وكتب رداً على مذكرة اللورد اللنبى التى يحتج فيها على حوادث الاعتداء السياسى قال فيه إن « تكرارها المؤلم منذ نحو سنة يحمل على الاستنتاج أن هناك رد فعل ضد سياسة لا تراعى عواطف الاكثرية من الأهلين المراعاة الكافية ، وهو رد فعل يؤسف له كما أنه صادر عن قلة روية من قبل بعض العناصر المتهوسة غير المسؤولة ، كما يوجد لسوء

الحظ في كل بلد . والذي يزيد في ترجيح هذا الاقتراض أمر يستوقف النظر وهو أنه في كل المدة التي كان يؤمل فيها الوصول الى اتفاق ودى بين لسان حال تلك الاكثرية والحكومة البريطانية ليس فقط لم ترتكب جريمة من تلك الجرائم بل أن العلاقات بين المصريين والانكليز لم تكن قط أكثر ثقة وأوفر ولاء مما كانت في تلك الفترة . مع أن الأمر صار على العكس من ذلك من يوم ما أصبحت الحكومة البريطانية غير متصلة بممثلي الاكثرية المصرية بسبب المفاوضات غير الرسمية أو لا ثم بسبب تدابير العنف التي تلت قطع المفاوضات الرسمية ، وأخيراً بسبب التدابير التي صاحبت الاتفاق مع أقلية لا تأثير لها حقيقة في الأمة فزادت الحالة تحرجا والعواطف تألماً مما جعل الاتفاق المرغوب فيه أكثر صعوبة »

يبد أن هذا التقرب الى « الاكثرية » لم ينفع الوزارة النسيمية طويلاً في تخدير الأمة وتهيئة الجو لتعديل الدستور ذلك التعديل الذي يضيق من حدوده ويكاد ينقضه من أساسه ، وهو الاعتراف بسلطة الأمة والتبعية الوزارية فقد كانت الأمة أيقظ من أن تؤخذ بهذه الأساليب أو تستمع فيها الى رأى أحد ، وزادها يقظة وحذراً أن الوزارة لم تصنع شيئاً في مسألة المنفيين والمعتقلين كما كان منتظراً منها ، ولم تصنع شيئاً لتمثيل مصر في مؤتمر لوزان الذي كان منعقدا للنظر في مسائل الشرق وتنقيح المعاهدات بين الحلفاء والدول التركية صاحبة السيادة القديمة على مصر ، فاذاغ الوفد المصرى ياناً في العشرين من يناير قال فيه : « ما زالت الوزارة ملتزمة خطة الصمت وما زالت مصالح البلاد معطلة ، فلا مثلت مصر في مؤتمر لوزان تمثيلاً شعبياً ولا ألغيت الأحكام العرفية ولا احترام حق الأمة في أن يكون الدستور وليد ارادتها ، ولا عاد الوكلاء المنفيون ولا أطلق سراح الزعماء المسجونين ، وهذا سر ما استولى على النفوس من الحيرة والقلق » ثم قال : « والاخبار متواترة أيضاً على وقوع أمور خطيرة بشأن مشروع الدستور ، فانهم يؤكدون أن هناك أخذاً ورداً بين

الوزارة والانكليز متعلقين بالنص الخاص بالسودان ، وإن الوزارة قد ادخلت من جهتها تعديلا جديداً على نص المشروع يقضى بزيادة عدد الاعضاء المعينين في مجلس الشيوخ الى النصف و تقرير مسؤولية الوزارة أمامه »

واتبع هذا البيان بيانات أخرى في معناه

ثم استقالت الوزارة التسميمية لأن الانجليز تخطوها ووجهوا الى الملك انذاراً يطلبون فيه حذف النص الخاص بالسودان من الدستور والاكتفاء فيه بلقب « ملك مصر » بدلا « من ملك مصر والسودان » . . . فقبل نسيم باشا هذا الطلب واستقال بعد قبوله وتنفيذه !

وهنا يجب أن نلخص الحالة كلها من حيث المناورات الوزارية لنفهم حقيقة الموقف الذي وقفه سعد باشا من هذه الوزارة ، لأنه موقف في حاجة إلى التوضيح

وذاك انه لما أحس رؤساء الوزارات والمرشحون لرئاسة الوزارة ان زشدى وعدلى وثروت وأصحابهم قد احتكروا الميدان في السياسة المصرية تألبوا حزبا واحدا على مقاومة هذا الفريق ، وأصبحوا فريقا آخر يرأسهم محمد سعيد واحمد مظلوم وتوفيق نسيم ويوسف وهبه واخوان هذا الطراز ، وأصبح في مصر على هذا التقسيم فريق وزارى يصح أن يسمى بالمدرسة المتفرنجة وهم عدلى وأصحابه ، وفريق آخر يصح أن يسمى بالمدرسة التركية وهم محمد سعيد وأصحابه

وبحكم العداء بين الفريقين أصبح لزاما على « المدرسة التركية » أن تخطب ود الوفد وتتقرب إليه ، وتلوذ بالقصر الملكى لتستند اليه في وجه المعاونة المكشوفة من الانجليز لعدلى وأصحابه

وهذا سر الصداقة التى كان يديها محمد سعيد وتوفيق نسيم واحمد مظلوم لسعد زغلول بعد أن كانوا جميعا يحاربونه أو لا يتقدمون إلى مساعدته بعمل من الأعمال . فسعى محمد سعيد في إنشاء وفد غير الوفد السعدى ، وأبى توفيق

نسيم أن يوقع التوكيلات القومية ، ولبت احمد مظلوم على صداقته للاثنين فلما جاء توفيق نسيم عقب عبد الخالق ثروت المجاهر بعداء سعد وانصاره ، وأتبع سياسة التقرب إلى الوفد ، وكتب مذكرته يطالب فيها الاعتراف بالكثرة القومية ، واستقال قبل أن ينسخ الدستور وتنكشف أغراضه الخفية بلغ ذلك كله الى سعد في جبل طارق وهو بعيد من مجرى الحوادث ووسائل الاستقصاء الوافية فكتب إليه البرقية التي يقول فيها « انكم بعمالكم الشريف المنعم بالوطنية والحكمة استحققتكم تقدير الوطن » ونظر الى الموقف في جملة بين أن ينصر حزب ثروت أو ينصر حزب نسيم ، فاختر ما اختاره بعد هذه الموازنة المجمل ، وحدا به الى حسن الظن بالرجل وعدم استغراب سياسته الجديدة انه كان صهراً له اذ كانت شقيقة نسيم زوجا لشقيق سعد المرحوم احمد فتحي زغلول

ولسنا نقول هذا لتسويغ ذلك التقدير فائنا لا نسوغه الآن كما لم نسوغه في حينه ، ولسكتنا نقوله لتبين الأسباب التي باعدت بين حكم سعد على الوزارة النسيمية وما تستحقه هذه الوزارة بما عملته وبما تنويه

بعد سقوط الوزارة النسيمية اتجهت الانظار الى عدلى يكن باشا لاستئناف الخطة التي اقتضت على ثروت باشا قبل تمامها ، وكان عدلى باشا قد أنشأ حزباً ينزل به الى ميدان الانتخاب وسماه من أجل ذلك حزب « الاحرار الدستوريين »

ولكن الملك كان لا يرغب في استيزاره ولا يزال يرجو أن تقوم وزارة من رجاله تعيد النظر في الدستور على المبادئ التي يريدها ، وتعاضمت المصاعب أمام عدلى بين مقاومة الوفد ومقاومة القصر وكثرة الجرائم السياسية في أيام ترشيحه وصعوبة اصلاح الخطأ الذي وقعت فيه الوزارة النسيمية وانجاز الوعود التي لم تنجزها ، فاعتذر من تأليف الوزارة وأصر

على اعتذاره ، وأنتهى الأمر فى منتصف شهر مارس (١٩٢٣) باستنادها الى يحيى ابراهيم باشا وهو قاض نزيه ولكنه رجل ضعيف كان يخشى كثيراً أن يتم تعديل الدستور المطلوب على يديه ، وضاعف هذه الخشية قوله فى اليوم التالى لتأليفه الوزارة : « إن كان الناس قد تكلموا كثيراً عن التعديل الذى أدخل على الدستور وتساملوا عما إذا كانت وزارتنا تسلم بالتعديل الذى قد أدخلته الوزارة النسيجية فتصدرة الدستور كما عدلته أم ترجعه إلى أصله كما وضعتة اللجنة فإن ما وضعناه نصب عيوننا هو أن يحقق الدستور رغبات الأمة كل التحقيق »

وهذا كلام ليس فيه من نفي التعديل بقدر ما فيه من ترجيحه . فاسترابت الاحزاب بما وراء هذه الفاتحة ، وكتب انوفد المصرى بياناً يقول فيه : « أن ما نشر عن رئيسهم - رئيس الوزراء - كله تنصل وإيهام . . . فى الدستور لم تكن سيادة الأمة وارايتها موضع عناية بل انه أقر من سبقه على اغتصاب حق الأمة فى وضعه ورفع الأحكام العرفية ليس لديه الا مجرد أمل من الآمال ، واصدار قانون التضمنيات بالقيود التى يود الانجليز أن يقيدوا بها سيادة البلاد وحرية أبنائها قضاء محتوم لا يرجو فيه كما قال سوى لطف خفامة اللورد والتخفيف . أما مسألة السودان على أهميتها فقد اكتفى بأنها ستكون موضع مباحثاته مع زملائه »

واحتج حزب الأحرار الدستوريين على التعديلات التى قيل إنها أدخلت على الدستور فى عهد الوزارة النسيجية ، وأبلغ الوزارة الجديدة مطالبه فى السياسة العامة وأهمها العمل على اتباع سياسة الاتحاد والوثام ، لأنه أيقن أن بجمالة المكثرة خير من مجافاتها ، ومن ثم طلب رفع الأحكام العرفية فى الحال وفك المعتقلين والافراج عن المبعدين والمسجونين السياسيين ، كما طلب إصدار الدستور كاملاً شاملاً للنبادى التى قررتة لجنة الدستور

ونشر الاستاذ عبد العزيز فهمى بك خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الوزارة

سرد له فيه المبادئ التي لا يستغنى عنها في الدستور وقيل إنها مست بالتعديل في عهد الوزارة النسيمية ، وهي سلطة الأمة ، واشترك الوزارة في الانعام بالرتب والنياشين ، واقتصار حق الحل على مجلس النواب دون مجلس الشيوخ ، وبقاء عدد الشيوخ المعينين دون عدد المنتخبين ، واشترك مجلس الشيوخ في تعيين رئيسه ، وعدم اصدار مراسيم اثناء دور انعقاد البرلمان قبل عرضها عليه ، وعرض معاهدات التجارة والملاحة على البرلمان ، واشراف الوزارة على المعاهد الدينية ، وترك القيود التي قيد بها تنقيح الدستور على ما هي عليه

أمام هذا الاجماع من الأحزاب المختلفة تراجعت الوزارة ، وأفضى وزير الحقانية في الوزارتين النسيمية والابراهيمية بحديث إلى الصحف اعترف فيه بحذف المادة التي تنص على أن الأمة مصدر السلطات وقال فيه عن عدد الشيوخ : « أؤكد لكم أننا قبل أن نخطر لنا فكرة الاستقالة عدلنا عن تعديل كنا عدلناه في المادة الخاصة بمجلس الشيوخ بالنسبة إلى عددهم ، لأن اللجنة الاستشارية افقت نظرنا إليها ولم تزل هذه المسألة باقية تحت البحث كغيرها من المسائل »

ثم سرت الحملة في مسألة الدستور من مصر إلى الصحافة الانجليزية فقالت النيمس بالعبارة الصريحة أن الملك فؤاد هو المعطل لصدور الدستور ، وساندتها صحف أخرى من صحف الأحرار والمحافظين ، وتماوج الرأي العام في مصر حول هذه المسألة فثبت للوزارة أن التعديل على المبادئ التي يريدتها القصر عسير غير مأمون العواقب ، وصدر الدستور بغير تعديل ذي بال في التاسع عشر من شهر ابريل

وفي خامس يوليو صدر قانون التضمنيات ، وهو وقانون تعويضات الموظفين الاجانب اهم ما أصدرته الوزارة الابراهيمية بعد الدستور ، وقد أفرغ في قالب اتفاق بين مصر وانجلترا ليمتنع تعديله على البرلمان ، واعترف بالحالة الفعلية فيما يتعلق بالأرض التي استولت عليها الحكومة

البريطانية ، وعهد بالأشخاص المحكوم عليهم من المحاكم العسكرية إلى لجنة يسود فيها رأى الانجليز دون رأى المصريين ، ولم تقبل الحكومة الانجليزية فيه أن تحمل التبعة فيما اتخذته من التدابير أيام الحرب وما بعدها بل اكتفت بوعدهم « أن تكون مستعدة على الدوام للاتفاق مع الحكومة المصرية على الحل الذى تقتضيه الحالة بروح العدل والانصاف » إذا حدثت حالة من الأحوال التى تعود فيها الخسارة من جراء التدابير الانجليزية وبصدور هذا القانون تم التمهيد لالغاء الأحكام العرفية الانجليزية فالغيت « مع استمرار السلطات العسكرية على مباشرة الحقوق التى خولتها إياها الاعلانات المختصة بتنفيذ معاهدات الصلح فيما عدا الحقوق الجنائية ، وذلك إلى أن تتم التدابير المقررة فى تلك الاعلانات ، وتبقى القضية المنظورة أمام المحاكم العسكرية إلى أن يحكم فيها »

ومن القوانين التى أصدرتها الوزارة الابراهيمية ولا تقل عن هذا القانون فى الخطورة قانون تعويضات الموظفين الانجليز ، وهو الوثيقة التى تعهدت مصر بموجبها بأداء مالا يقل عن عشرة ملايين من الجنيهات لتعويض الموظفين الأجانب ، ثمنا لحريتها فى الاستغناء عنهم واختيار غيرهم ، وهى لا تملك إلى الساعة هذه الحرية !

قبل صدور قانون التضمينات بثلاثة أشهر أفرجت الحكومة البريطانية عن سعد فى جبل طارق وقالت فى بلاغها أن الطبيب المعالج لزغلول باشا قرر « أن تغيير نظام الحياة والاستحمام بالمياه المعدنية فى أوروبا ضرورىان لصحة الباشا . ولهذا الأسباب قررت الحكومة بعد استشارة المندوب السامى أن تفرج عن زغلول باشا من جبل طارق »

وكانت الأسباب الصحية فى الواقع من أقوى الأسباب التى حملت الحكومة البريطانية على هذا القرار ، لأن الدكتور موريسون الذى زار

سعدا في الثاني والعشرين من أكتوبر رأى أن الحالة الصحية على جملتها مقلقة معرضة للمفاجآت على الرغم من أنه لم يجد عنده أثراً للسكر أو الزلال أو الاسيتون ، وأخفى الخبر عن سعد فلم يطلعه على تقريره المفصل بعد كتابته . تفادياً من ازعاجه

وكان في النية التعجيل بالافراج عنه عقيب ذلك ، ولكن اللورد اللنبي ظل يعارض أمر الافراج ويتوعد بالاستقالة ، وصرح مستر بونارلو بذلك لأحد النواب المهتمين بالسؤال عن حالة سعد وقرار الحكومة بشأنه في السابع عشر من شهر ديسمبر ، فقال للنائب : « تريدون الافراج عنه ! حسن . ولكن ذلك معناه اقالة اللورد اللنبي على الأثر »

إلا أن الأسباب الصحية لم تكن هي كل الباعث الى شروع الحكومة البريطانية في اطلاق سعد زغلول . ففي مقدمة الأسباب الأخرى اقتناعها بفشل اللورد اللنبي في المقاصد التي كان يرمى إليها باعتقاله وتأيد ثروت وأشياعه ، فقد سامت العلاقات بين المصريين والانجليز أشد ما يتاح لها من سوء ، وبلغت من الحرج ما لم تبلغه قط في وقت من الأوقات ، وتعاقبت أعمال القمع والقضايا العسكرية من جهة ، وحوادث الاعتداء ومظاهرات الاحتجاج من جهة حتى أصبحت مصر المستقلة المطلوب منها الرضى والاستقرار كأنها ميدان حرب دائمة بين عدوين متناحرين ، وليس هذا هو المقصود بسياسة التصريح ولا يمكن أن يكون مقصوداً بسياسة أخرى في بلد من البلدان

ولما سقط ثروت وأخفق عدلى في تأليف وزارة بعد الوزارة النسيجية وصار الوزراء والاحزاب يقدمون طلب الافراج عن سعد وسائر المنفيين والمعتقلين على كل طلب آخر في البرامج الوزارية والحزبية ، شعرت الحكومة البريطانية بأن نجاح كل سياسة في مصر مستحيل مع بقاء هذه الحال أو بقاء سعد في منفاه ، وشعرت قبلها — أو بإيعاز منها — صحف الاحرار والعمال وبعض صحف المحافظين بخطل السياسة التي سار عليها اللورد اللنبي

فانحت باللائمة عليه ، واجتمعت كلها على وجوب النظر من جديد في عواقب تلك السياسة الخرقاء

ومن الأسباب التي دعت إلى الافراج عن سعد تلك القضية التي رفعها وكيل سعد في إنجلترا طالبا الحكم فيها ببطالان أمر اعتقاله لأنه سجن بغير محاكمة ولا تهمة معروفة

نعم ان الحكم من المجلس الأعلى قد صدر برفض هذه الدعوى ولكنه لم يصدر إلا بعد جهد شديد من النائب العام السير دجلال هوج « اللورد هيلشام الآن » لاقتناع الأعضاء باجتناب هذه السابقة الخطيرة في معاملة الثائرين على الامبراطورية ، ويغلب ^{على} الظن أن أعضاء المحكمة كانوا يفهمون بالايحاء أن الافراج حاصل عما قريب فلا ضرورة لتسجيل المبدأ الخطير من أجل تحصيل الحاصل . وقد نمت إلى بعض المطلعين أن الوزارة البريطانية قررت الافراج في أول فبراير وارجائه إلى أن ينتهي الفصل في القضية وقد انتهى في التاسع من شهر مارس ، وليس معنى ذلك أن القضية لم تفعل فعلها في تقرير الافراج ، بل معناه أن الوزارة اهتمت بها واهتمت في الوقت نفسه بحسن التخلص منها ومن مثيلاتها ، لئلا يقال إن الحكم هو الذي أكرهها على اتخاذ ذلك القرار

وربما كان أهم الأسباب جميعا — إلى جانب سبب الصحة — تلك الحركة التي أحسن توجيهها الدكتور حامد محمود بين فريق كبير من نواب الاحرار والعمال بلغت عدتهم تسعة وتسعين . فقد كثرت الكلام في الدوائر البرلمانية عن فشل السياسة الانجليزية المصرية وعن وصمة العار التي تصم الدولة البريطانية باعتقالها ذلك الشيخ العظيم وتعريضه للموت في منفاه ، فترددوا على الوزارة سائلين ملحين في وجوب الافراج ، وأجمعوا آخر الأمر على كتابة عريضتهم المشهورة فقددوها في التاسع والعشرين من شهر مارس وأذيع الأمر بالافراج بعدها يومين

يضاف إلى ذلك أن قانون التضمينات سيصدر ، وإن الأحكام العسكرية ستلغى ، وإن الانتخابات ستجرى ، ولا بد أن تسفر عن انتخاب نواب مجمعين على المطالبة بعودة سعد إلى بلاده ، لأن خصومه وأصدقائه كانوا يعلمون علم اليقين أن رضا الشعب بغير هذه الوسيلة من وراء كل رجاء ، ولا معنى لإلغاء الأحكام العسكرية في مصر وإجراء الانتخاب فيها وزعيم النواب المنظورين خاضع للأحكام العسكرية في منفاه

ولقد كان الرجاء قوياً في تحضير الانتخابات على الوجه الذي يهواه اللورد اللبني أيام ثروت وأشيائه ، ولكن أى رجاء هناك في هذه النتيجة بعد سقوط ثروت وإحجام عدلى عن تأليف الوزارة وصعوبة المضى في هذه السياسة من جميع الانحاء ؟

فالإفراج عن سعد كان كجميع الحوادث التاريخية متعددة الأسباب غير محصور في سبب واحد . وإنما كانت المسئلة مسألة الزمن ، أو الانتظار حتى تتفق جميع هذه الأسباب

فغادر سعد جبل طارق بعد خمسة أيام من إعلان الإفراج عنه إلى طولون ومعه السيدة الجليلة صفية زغلول وكانت قد وافته في منفاه لما اشتد عناؤه من الوحدة مع انحراف الصحة والحاجة إلى حسن الرعاية .

فقلقه الطلبة المصريون في عرض البحر بالترحيب والتهليل ، ومنهم مندوبون عن زملائهم في جامعات فرنسا وسويسرا حضروا خصيصاً لتحيته وتحديد عهده . وخطبوا يذكرون مآثره ، وخطب فيهم راجياً أن ينسوه في تلك اللحظة ليفكروا في الذين لا يزالون يرسفون في قيود السجن والاعتقال ثم قال : إن مصدر قوتي هو إني لست إلا معبراً عن شعور الأمة وآرائها معرباً عن تصميمها على أن تعيش حرة مستقلة »

ثم توالى الإفراج عن المعتقلين في مصر فأفرج أولاً عن أعضاء الوفد الذين كانوا معتقلين بقصر النيل ، ثم أفرج في الرابع عشر من شهر مايو عن

المعتقلين في صحراء الماظة وهم حمد الباسل باشا وأصحابه الذين كتبوا منشور المقاطعة والاستبسال في رد سعد الى وطنه ، ثم افرج في آخر مايو عن المنفيين الى سيشل ، ثم سمح بزيارة بيت الامة بعد اغلاقه برهة مع منع الاجتماعات فيه ، ثم نشرت الحكومة المصرية بلاغا في العشرين من شهر يوليو صرحت فيه « بامكان عودة جميع المبعدين » ومنهم سعد باشا لأنه كان الى ما قبل صدور قانون التضمنيات ممنوعا من العودة الى بلاده

وفي الثالث عشر من سبتمبر أبحر سعد من مرسيليا فوصل الى الاسكندرية في السابع عشر منه ، ووصل الى القاهرة في غده ، وتكررت مظاهر الحفاوة الكبرى التي قوبل بها في العودة الأولى ، وزاد عليها في هذه المرة اشتراك الأجانب في الاستقبال بما كانوا ينثرون عليه من الأزهار والرياحين بأيدي السيدات والأطفال ، حتى امتلأت بها السيارة .

وقد انحلت مشكلة الاستقبالات الرسمية في هذه المرة لأن القصر الملكي لم يعد مقاطعاً الوفد كما كان في العودة الأولى ، ودار المندوب البريطاني لم تعد دار الحماية بعد الغائها ، فزار سعد القصر وزار دار المندوب .

ونشطت مساعي التوفيق بين القصر وسعد على يدى توفيق نسيم ومحمد سعيد وأحمد مظلوم ، فتمت المقابلة الأولى بين الملك فؤاد وسعد في تاسع نوفمبر بعد ظهور نتيجة الانتخابات الثلاثية ، وتحقيق النجاح للوفدين فيها ، وكان المظنون يومئذ أن سعداً لا يشكل الوزارة وانه قد يعهد بها الى توفيق نسيم أو أحمد مظلوم على الأرجح أو الى محمد سعيد على احتمال بعيد ، وكان هو لا ييوح بنياته لمن يسألونه في هذا الموضوع ، والى ذلك أشارت صحيفة التيمس في بعض مقالاتها فزعمت أن سعداً لا يقدم على تأليف الوزارة لأنها « مقبرة الشهرة » . . ولا يبعد أن يكون هذا الاحتمال ملحوظا في مساعي التوفيق

وقد جرت الانتخابات الثلاثونية في السابع والعشرين من سبتمبر لأن الانتخاب كان على درجتين لاعلى درجة واحدة ، وجرت الانتخابات لمجلس

النواب في الثاني عشر من يناير (١٩٢٤) فأسفرت عن نجاح مائة ونيف وتسعين نائباً وفدياً من مائتين وأربعة عشر عدة الأعضاء في مجلس النواب ، ومن حسنات الوزارة الإبراهيمية أن رئيسها كان قاضياً نزيهاً في مباشرة الانتخاب كما كان قاضياً نزيهاً في المحاكم ، فأدار المعركة الانتخابية بالحيدة الواجبة ، وشهد الكثيرون من رجال الأحزاب المختلفة أن الانتخابات في عهده كانت انزه الانتخابات في جميع العهود ، حتى لقد أخفق هو نفسه في دائرته ولم يظفر بالنيابة التي كان يبتغيها

بقيت انتخابات الشيوخ وتعيين الخمسين من الأعضاء الذين تعينهم الوزارة القائمة فلم يبق مناص من تأليف الوزارة الدستورية لمباشرة هذا التعيين ، وعلى هذا أعرب سعد لمكاتب روتر عن رأيه حين سأله فقال : « إذا اتبعت القواعد الدستورية وجب على يحيى إبراهيم باشا أن يستقبل أمام حقيقتين كبيرتين : الأولى أن البلاد أوضحت رأيها بشكل لا يمكن الشك فيه ، والثانية أن رئيس الوزارة قد هزم في الانتخابات »

وبدا من هذا جلياً أن سعداً زعيم الكثرة البرلمانية لا يؤيد بقاء الوزارة إلى أن تتولى اختيار الشيوخ المعينين ، فاستقال يحيى إبراهيم باشا في السابع عشر من يناير ، وتأجل النظر في قبول استقالته إلى أن يعود الملك من السويس ، فلم تقبل إلا بعد عشرة أيام

وقبل اعلان قبولها يومين أدب النواب لسعد مأدبة كبرى في فندق شبرد خطب فيها مظلوم باشا وسعيد باشا راجياً ان يقبل سعد رآسة الوزارة اذا عرضت عليه ، فنهض سعد وتلا خطاباً مكتوباً لم يشرفه إلى شيء في قبول الوزارة ولكنه لم يشرفه كذلك إلى رفضها ، وعرض على السامعين ما يصح أن يسمى برنامجاً وزارياً يسير عليه

وفي اليوم التالي لقبول استقالة الوزارة الإبراهيمية دعى سعد إلى القصر الملكي فسكث في حضرة الملك نحو نصف ساعة ثم خرج وتلا على الجموع

المختشدة في بيت الأمة نص الأمر الملكي الصادر بتأليف الوزارة وإسناد
رتبة الرئاسة إليه

وفي ذلك اليوم كتب سعد بيانه الوزاري وهذا نصه :-

مولاي صاحب الجلالة

إن الرعاية السامية التي قابلت بها جلالتهكم ثقة الأمة ونوابها بشخصي
الضعيف توجب على والبلاد داخلة في نظام نيابي يقضى باحترام ارادتها ،
وارتكان حكومتها على ثقة وكلائها أن لا أتحنى عن مسؤولية الحكم التي طالما
تهيئتها في ظروف أخرى ، وأن أشكل الوزارة التي شاءت جلالتهكم تكليفني
بتشكيلها ، من غير أن يعتبر قبولى لتحمل أعبائها اعترافاً بأية حالة أو حق
استنكره الوفد المصرى الذى لا أزال متشرفاً برأسته

« إن الانتخابات لأعضاء مجلس النواب أظهرت بكل جلاء اجماع الأمة
على تمسكها بمبادئ الوفد التي ترمى إلى ضرورة تمتع البلاد بحقها الطبيعي في
الاستقلال التام لمصر والسودان ، مع احترام المصالح الأجنبية التي لا تتعارض
مع هذا الاستقلال . كما أظهرت شدة ميلها للعفو عن المحكوم عليهم سياسياً
ونفورها من كثير من التعهدات والقوانين التي صدرت بعد ايقاف الجمعية
التشريعية وأنقصت من حقوق البلاد ، وحددت من حرية أفرادها ، وشكواها
من سوء التصرفات المالية والإدارية ومن عدم الاهتمام بتعميم التعليم وحفظ
الأمن وتحسين الأحوال الصحية والاقتصادية وغير ذلك من وسائل التقدم
والعمران ، فكان حقاً على الوزارة التي هي وليدة تلك الانتخابات وعهدها
مسئولا منها أن توجه عنايتها إلى هذه المسائل الأهم فالمهم منها ، وتحصر أكبر
همها في البحث عن أحكم الطرق وأقربها إلى تحقيق رغبات الأمة فيها وإزالة
أسباب الشكوى منها وتلافي ما هناك من الأضرار مع تحديد المسؤوليات عنها
وتعيين المسؤولين فيها ، وكل ذلك لا يتم على الوجه المرغوب إلا بمساعدة
البرلمان . ولهذا يكون من أول واجبات هذه الوزارة الاهتمام بأعداد

ما يلزم لانعقاده في القريب العاجل وتحضير ما يحتاج الأمر إليه من المواد والمعلومات لتمكينه من القيام بمهمة خطيرة الشأن

« ولقد لبثت الأمة زمناً طويلاً وهي تنظر إلى الحكومة نظر الطير للصائد لا الجيش للقائد ، وترى فيها خصماً قديراً يدبر الكيد لها لا وكيلاً أميناً يسعى لخيرها ، وتولد من هذا الشعور سوء تفاهم أثر تأثيراً سيئاً في إدارة البلاد وعاقب كثيراً من تقدمها . فكان على الوزارة الجديدة أن تعمل على استبدال سوء هذا الظن بحسن الثقة في الحكومة ، وعلى اقناع الكافة بأنها ليست إلا قسماً من الأمة تخصص لقيادتها والدفاع عنها وتدير شؤونها بحسب ما يقتضيه صالحها العام . ولذلك يلزمها أن تعمل ما في وسعها لتقليل أسباب النزاع بين الأفراد وبين العائلات واحلال الوئام محل الخصام بين جميع السكان على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، كما يلزم أن تبث الروح الدستورية في جميع المصالح وتعود الكل على احترام الدستور والخضوع لأحكامه ، وذلك إنما يكون بالقدوة الحسنة وعدم السماح لأى كان بالاستخفاف بها والاخلال بما تقتضيه » هذا هو بروجرام وزارتي وضعته طبقاً لما أراه وتريده الأمة شاعراً كل الشعور بأن القيام بتنفيذه ليس من الهبات الهيئات خصوصاً مع ضعف قوتى واعتلال صحتى ، ودخول البلاد تحت نظام حرمت منه زمناً طويلاً . ولكنى أعتمد فى نجاحه على عناية الله وعطف جلالته وتأييد البرلمان ومعاونة الموظفين وجميع أهالى البلاد ونزلائها

« فأرجو إذا صادف استحسان جلالتهكم أن يصدر المرسوم السامى بتشكيل الوزارة على الوجه الآتى مع تقليدى وزارة الداخلية :

« محمد سعيد باشا لوزارة المعارف العمومية ، وأحمد مظلوم باشا لوزارة الأوقاف ، ومحمد فتح الله بركات باشا لوزارة الزراعة ، ومصطفى النحاس بك لوزارة المواصلات ، ومحمد نجيب الغرابي أفندى لوزارة الحقانية ، ومحمد توفيق نسيم باشا لوزارة المالية ، وحسن حسيب باشا لوزارة الحرية والبحرية

ومر قص حنا بك لوزارة الأشغال العمومية ، وواصف بطرس غالى أفندى
لوزارة الخارجية

« وإني على الدوام شاكر نعمتكم وخادم سدتكم »
ومن الملاحظات التي وردت على هذا البيان ما لوحظ في القصر الملكي
وهو أن رئيس الوزارة ذكر « الرعاية السامية التي قابل بها جلالة الملك ثقة
الأمة ونوابها » فجعل الأصل في ولاية الوزارة ثقة الناخبين
وإنه قال : « شاكر نعمتكم وخادم سدتكم » ولم يقل كما جرت العادة
« عبدكم الخاضع أو خادمكم المطيع »

ولوحظ في الدوائر القضائية تعيين الأستاذ الغرابي لوزارة الحفانية
وفيها قدماء المستشارين وكبار الموظفين من رجال القانون ، وقد كان
لهذه الملاحظة صداها فنقل الأستاذ إلى وزارة الأوقاف ، كما لوحظ في
الصحف والدوائر السياسية تعيين سعيد باشا لوزارة المعارف ، وهو رئيس
وزارة قديم وهي من الوزارات التي لا تعد في الصف الأول بين وزارات
الحكومة ، وفهم من ذلك أن اشتراك سعيد وصاحبيه مظلوم ونسيم في الوزارة
إنما كان في مقابلة الدور الذي داروا به لمعاونة الوفد على خصومه والتقريب
بين الوفد والقصر بعد سقوط الوزارة الثروتيه ، وليس اشتراكهم فيها عن
تجانس أصيل في الميول والأفكار

ومن قبل ذلك لاحظ بعض الناقدين أن دخول سعد في ميدان الانتخاب
يعد اعترافاً بتصرييح ٢٨ فبراير الذي أنكره واحتج عليه ، وهي ملاحظة
لا محل لها من الاعتبار ، لأن تمثيل المصريين في الحكومة حق لا نزاع فيه ،
فاذا اعترف به الانجليز فليس ذلك سبباً داعياً لصاحب الحق إلى النزول عنه
وإسقاطه بيديه ، وقد دخلت جميع الأحزاب المصرية ميدان الانتخاب حتى
ما كان منها منكرًا للمفاوضات والمعاهدات مع الحكومة الانجليزية ، فلا
موجب إذن لانفراد الوفد بمقاطعة الانتخاب ، وهو لو قاطعه لما كان لذلك

من نتيجة إلا تمكين خصومه من ادعاء النيابة عن الأمة ، وأن يبرموا باسمها ما ياباه الوفد وتأباه

ولاحظ بعض الناقدين أن سعداً قبل الوزارة وكان عليه أن لا يقبلها ، وأن يعهد بها الى أحد أنصاره وحلفائه ، لئلا يضطر وهو في الوزارة أن يجيز مالا يجيزه الزعيم الوطنى فى حل القضية المصرية ، وفات هؤلاء أن مجرد التنحى عن رئاسة الوزارة لهذا الغرض معناه اعلان الاستعداد للرضى بما دون المطالب الوطنية ، واتخاذ المناورات المصطنعة لتسهيل النزول عن تلك المطالب ، ثم ماذا يكون إذا تطالب الأمر موافقة النواب وسعد رئيس النواب ؟ فليس هنا من ضرر يتقى باجتناب سعد رئاسة الوزارة عقب الانتخابات الأولى ، ولكن الضرر كل الضرر فى ذلك الاجتناب . إنما ينبغى للزعيم الوطنى أن يتنحى عن الانتخاب أو يتنحى عن رئاسة الوزارة إذا حبطت وسيلة الدستور لتحقيق المصالح العامة والمطالب القومية وذلك تقدير لا يطالب سعد بافتراضه فى ذلك الحين ، ولو كان يعلم الغيب العلم القاطع الذى لا مرأ فيه لوجب عليه أن يقنع الجماهير بما هو مقتنع به ، وأن يضع أيديهم على الحقيقة بتجربة لا تحتتمل الجدل

وخير مقياس نقيس به خطة من الخطط أن ننظر الى الخطة التى تناقضا ونذهب معها الى جميع نتائجها لكى نوازن بين النتائج فى الحالتين ، ونليس فى نتائج رفض الانتخاب ورفض الوزارة فى ذلك الحين ما هو أجدى وأحق بالاطمئنان من نتائج القبول على أسوأ الفروض

ومن ثم نحن من المعتقدين أن سعداً أصاب فى قبول الوزارة هذه المرة وأنه كان يخطئ لو رفضها بعذر من تلك الأعذار ، وليس منها ما يستحق المبالاة

فى أثناء وضع الدستور كان الملك فؤاد ينوى أن يجعل نصف مجلس

الشيوخ من المعينين وأن يكل إلى هذا المجلس حق النظر في الثقة بالوزارة وبعد الانتخاب كان يأمر باستدعاء النواب الناجحين إلى القصر واحداً بعد واحد ، لينشئ بينه وبينهم الصلة التي يتال بها من السلطان النيابي ما لم ينله بنصوص الدستور

فلما استقر حكم الدستور على تعيين الخمسين من أعضاء مجلس الشيوخ وحرمان هذا المجلس حق الاقتراع على الثقة بالوزارة كان من رأى الملك بداهة أن يتولى هو حق اختيار الأعضاء ولا يكون للوزارة إلا التنفيذ ، وهكذا نجح أول خلاف بين الملك فؤاد وسعد في عهد الدستور ، وانحسم الخلاف في حينه بتقرير المبدأ الذى يخول الوزارة حق الاختيار ، واجابة الرغبة الملكية فى ترشيح فئة من الأعضاء

ثم جاءت أزمة أخرى من أزمات المراسم والأشكال ، ولكنها تلبس الخلاف بين الوفد وخصومه فى صميم المبادئ الأصلية ، ساقها التقويم السنوى فى ركابه ولم يسبقها أحد باختياره .

وذلك أن اليوم الخامس عشر من شهر مارس يقترب والحكومة القائمة وفدية والبرلمان وفدى وتصريح ٢٨ فبراير نظام بغض الجميع هؤلاء . فكيف يحتفلون بهذا اليوم ؟ لقد احتفلوا به فى السنة الماضية لأنه عيد الاستقلال ، والرأى الغالب بين المصريين أن الاستقلال لم يترتب وإن يترتب على ذلك التصريح ، فهل يحتفلون به هذه السنة على هذا المعنى أو يهملونه مع ما يرتبط به من تبليغات مصر الى الدول واعلان لقب صاحب الجلالة ؟ مشكلة بحق من مشاكل الأيام . وقد حلها سعد باختيار ذلك اليوم لافتتاح البرلمان . فاذا تعطلت فيه دواوين الحكومة فلن شاء أن يفهم انها تتعطل احتفالاً بعيد الدستور ، وافتتاح الهيئة النيابية الأولى فى البلاد !

وهكذا كان ، وخرج سعد فى ذلك اليوم الى جانب الملك يفتتحان البرلمان

الأول ، وتلاحت الجماهير والجند بين قصر عابدين ودار النيابة . وسمع لأول مرة هتاف الجماهير بحياة الملك وسعد في صوت واحد ، وكان شعار ذلك الموكب « يعيش الملك ويحيى سعد » وهي كلمة لم تسمع قبل ذلك في أنحاء وادى النيل ؛ إذ كان الحجاب كثيفاً بين القصر والرعية ، ولم يزل كذلك إلى أن عاد سعد من منفاه ، فعود الجماهير كلما هتفوا بحياته أن يجيبهم قائلاً بل نادوا : « لتحي مصر . وليحي الملك » فكانوا يجيبون عليه موفقين بين الأمرين : « يعيش الملك ويحيى سعد » ... وكذلك كان هتافهم يوم اجتمع الملك وسعد في موكب واحد ، ومن عجائب التقادير ان هذه البدعة الناشئة لم تقع من المسامع الملكية موقع الاستحسان .

في رئاسة الوزارة

كان «— بعد باشا يقول إذا ذكرت وزارة الشعب الأولى وأزماتها ومعضلاتها : « أن عيبتنا إلا كبر في تلك الوزارة أننا أخذناها جداً وصدقنا أننا مستقلون !! »

وهذا عيب من وجهة النظر الانجليزية لاشك فيه ، لأن الذي كان مطلوباً من سعد — على ما يظهر — هو أن يصدق أنه رئيس حكومة مستقلة ولكن بمقدار ما يؤدي ثمن الاستقلال ويحمل ما فيه من المغارم والتكاليف ، ثم ينسى الاستقلال كلما كان للسياسة البريطانية مطلب تبتيغيه ، وهو شأنه بعد ذلك في تمثيل هذا الدور ذي الوجهين

لكنه لم يخلق تمثيل دور ذي وجهين في رواية طويلة كرواية الاستقلال ، فاكتمى بتمثيل الدور من جانب واحد وهو جانب الاستقلال الصحيح ، ومضى في وزارته كما يمضى كل رئيس حكومة في أمة مستقلة ، وترك للسياسة البريطانية أن تقنع بهذا الدور الصريح أو تعلن أغراضها الخفية من وراء الظواهر والمراسم ، فتقوم هي بتمثيل الدور ذي الوجهين

بدأ وزارته بالافراج عن جميع السجناء السياسيين وألغى نفقات جيش الاحتلال الإنجليزي التي كانت تدرج في الميزانية المصرية ، كأن بقاء الاحتلال مطلب من مطالب البلاد !

ورجع بالموظفين الانجليز إلى حدودهم القانونية التي ترسمها لهم صفتهم الرسمية ، وهي صفة المستشارين والخبراء الفنيين ، الذين هم موظفون يخدمون الحكومة المصرية لا الحكومة الانجليزية ، يسألون فيجيبون بما يعلمون ، ويتركون الرأي الأخير للوزير المسئول

وأصبح هؤلاء الموظفون خاضعين للقوانين بعد أن كانت إرادتهم وحدها هي القانون . فلما ظهر الخلل في أعمال بعضهم بوزارة المالية ووزارة المواصلات أمر بتحقيق التهم المنسوبة إليهم وقدم واحداً منهم إلى مجلس التأديب ، وأصر على تقديمه للدحاكمة على الرغم من احتجاج دار المندوب وكان على الحكومة المصرية أن تلتقي الأوامر من كل انجليزى له مصلحة أو هوى في السيطرة عليها ولو لم يكن من الموظفين ، فكان مستر كارتر يعمل — مثلاً — في تنظيف مقبرة « توت عنخ آمون » ويستبد بفتحها وإغلاقها حين يشاء ولمن يشاء ولا يبالي بما تقرره مصلحة الآثار من مواعيد الفتح والاعلاق . وكل حقه في المقبرة أنه رجل مرخص له في التنقيب عن الآثار بالشروط التي تسمح بها الحكومة لجميع المنقبين . فلما نبهته الحكومة إلى خطئه لم يكثر لها وأرسل إلى سعد باشا برقية ينذره فيها « بأفعال المدفن ومقاضاة الحكومة المصرية » . . . وهو ينتظر في هذه الحالة ما ينتظر من كل حكومة مصرية ينتهى إليها تهديد واحد من السادة المحتلين كيفما كان ، لأن المرجع في الوزارات لمستشار أو مفتش انجليزى ، وهو لا يقبل من المصريين أن يسمعوا هذا التهديد ولا يسرعوا إلى الخوف والأذعان ، فلما وصل الانذار إلى سعد كتب إليه يقول : « لكم الحرية في أن تقاضوا الحكومة ، ولكن الحكومة تريد أن تكون مواعيد الزيارات مصنوعة ومحترمة ، وأما ما يتعلق باغلاق المدفن كما تقولون ، فانه يشق على أن اضطر إلى تذكيركم بأن المدفن ليس ملكاً لكم ، وأن العلم الذى تدعونه بحق لا يمكن أن يسلم باقدامكم مع زملائكم — من أجل أمر خاص بزيارة أفراد تريدون تمييزهم ، على ترك التنقيبات العلمية ، التى لا تهتم بها مصر وحدها أعظم إهتمام ، بل يهتم بها العالم كله أيضاً »

إنه جواب لا يعدو حدود الانصاف ولا حقوق الحكومة ، ولكنه قوبل بالاستياء بين الجالية الانجليزية . لأنه يخالف ما تعودوه ، لا لأنه يخالف الانصاف

ولما نعى إلى سعد أن السودان سيمثل رسمياً في معرض « ويمبلى » مع المستعمرات البريطانية كتب إلى حاكم السودان يسأله : « على أى قاعدة دعى السودان للاشتراك في هذا المعرض الخاص بالمستعمرات ؟ وكيف قيامهم أن تشاركوا فيه من غير إذن الحكومة المصرية ؟ »

فجاءه الرد من دار المندوب البريطانى بأن حاكم السودان أبلغه نبأ تلك البرقية وأنه كتب إلى حكومته يستفسر عن المسألة ، وسيكتب إلى الحكومة المصرية بفحوى جوابها

فكتب سعد مرة أخرى إلى حاكم السودان يسأله ما سبب تأخير رده ؟ ويقول له « إن المسائل التى كلفتموها من شأنكم دون سواكم لتعلقها بأعمال هى من خصائصكم . وإنى ما زلت فى إنتظار الرد منكم ، وأرجو أن لا يتأخر الرد زيادة عما مضى »

وأبرق إلى وزير مصر المفوض بالعاصمة الانجليزية ليبلغ حكومتها احتجاج مصر على دعوة السودان إلى معرض خاص بالمستعمرات البريطانية بدون علم الحكومة المصرية ، وعلى قبول حاكم السودان الدعوة بغير إذن من تلك الحكومة ، وفى كلا الأمرين إعتداء على حقوق مصر وعمل غير ودى . ووجه للحكومة المصرية «

وقد جاءه الرد من الحاكم العام بالاعتذار من التأخير لأنه أبلغ المعلومات المطلوبة إلى المندوب السامى الذى هو الطريق المعتاد للخطابة بين الحكومة المصرية وحكومة السودان عملاً بالاجراءات المتبعة »

وجاءه الرد بهذا المعنى من اللورد اللبى مشفوعاً ببيان عن دعوة السودان إلى المعرض يقول فيه : « ان الحكومة البريطانية لم يكن ليخطر لها أن تطلب أخذ رأيها إذا وجهت الحكومة المصرية دعوة لحكومة السودان لتشارك في معرض تجارى شبيه بهذا يعقد فى مصر . وقد سبق أن قبلت حكومة السودان مباشرة ودون رجوع إلى دار المندوب السامى أو الحكومة البريطانية

معرضته الحكومة المصرية من تخصيص حجرة لمعروضات السودان في المكتبة المصرية للتجارة والصناعة بالقاهرة وذلك في يونيه سنة ١٩٢٠ . ومن جهة أخرى فإن معرض ويمبلى ليس وقتاً على الامبراطورية البريطانية بل إن فيه أشياء أخرى متنوعة ذات فائدة عامة ، مثل صورة لمسجد فارسي ونماذج لشلالات نياجرا ومعرض من التبت ، والسودان موصوف في الخرائط والفهارس المعروضة في القسم الخاص بأفريقيا الشرقية باسم السودان الانجائيزى المصرى ، ولذلك لا محل لتساءل الزائرين للمعرض عن اشتراك السودان فيه »

وقد أجاب سعد ب خطاب الى اللورد اللبى يقول فيه : « يتضح جلياً من نص المادة الثالثة من الاتفاق المذكور — اتفاق سنة ١٨٩٩ — أن حاكم السودان العام موظف يمينه ملك مصر ويستمد سلطته من هذا التعمين ذاته ، وتنص المادة الرابعة صراحة على أن كل إعلان للقوانين والأوامر واللوائح يجب أن يبلغ في الحال الى المعتمد البريطانى فى القاهرة والى رئيس مجلس نظار سمو الحديو المعظم ، وبناء عليه يكون الطريق الطبيعى الوحيد للتخاطب بين الحكومة المصرية وحاكم السودان العام إنما هو الطريق المباشر وهذا ما قصده واضعو اتفاق سنة ١٨٩٩ . وفعلًا كانت الحكومة المصرية وحاكم السودان العام يتخاطبان مباشرة فى غضون المدة التى تلت توقيع الاتفاق ... »

ثم قال : « أما من جهة تمثيل السودان بمعرض ويمبلى فقد بينت انه بالنظر الى الظروف التى حدث فيها لا يمكن أن يبرره الحكم الشائى فى ادارة السودان الداخلية ، كما أوضحتم انه ما كان يوجد لدى الحكومة المصرية أى اعتراض على أن يمثل السودان فى معرض صناعى أو تجارى بحت ، وليس هذا حال معرض ويمبلى ، ولذلك احتججت على تمثيل السودان فى معرض المستعمرات البريطانية . ولا شك أنه كان يسرنى الا يكون تمثيل السودان فى هذا المعرض الا فى نفس الموضع الذى وضع فيه تمثيل العجم والولايات

المتحدة وتبنت في المعرض المذكور . ولست في حاجة لأن أزيد على ما تقدم
انى آسف لأن الحادث وقع ونحن على أبواب المفاوضات . نعم ان مسألة
السودان كلها سيدور البحث عليها بيني وبين المستر مكدونالد ولكن من
واجبى أن أحتج على كل عمل اعتبره ماساً بحقوق مصر »

ولما حان موعد المفاوضات بين سعد ومكدونالد كان الاستقلال هو الحق
الأول الذى بنى عليه المفاوضات وجعله مبتدأ الحديث فيها ، ليكون ملحوظاً
بعد ذلك فى كل دعوى أو مطلب عن المصالح البريطانية ، وفى ذلك يقول
مستر مكدونالد من الكتاب الأبيض الذى صدر فى سابع اكتوبر :
« أثناء محادثاتي مع رئيس الوزارة المصرية أوضح لى زغلول باشا
ما هى التعديلات التى لا يرى بداً من ادخالها فى الحالة الحاضرة فى مصر . فاذا
كنت قد فهمته حق الفهم فهذه التعديلات هى كما يأتى :

أولاً — سحب جميع القوات البريطانية من الأراضى المصرية

ثانياً — سحب المستشار المالى والمستشار القضائى

ثالثاً — زوال كل سيطرة بريطانية على الحكومة المصرية ، ولا سيما فى
العلاقات الخارجية التى ادعى زغلول باشا انها تعرقل بالذاكرة التى أرسلتها
الحكومة البريطانية إلى الدول الأجنبية فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ . قائلة ان
الحكومة البريطانية تعد كل سعى من دولة أخرى للتدخل فى شئون مصر
عملاً غير ودى .

رابعاً — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها حماية الأجانب
والأقليات فى مصر

خامساً — عدول الحكومة البريطانية عن دعواها لاشتراك بأية طريقة
كانت فى حماية قناة السويس

أما فى شأن السودان فأتنى لفت النظر إلى بعض البيانات التى فاه بها

زغول باشا باعتباره رئيس مجلس الوزراء أمام البرلمان المصرى فى الصيف
فى ١٧ مايو. ويؤخذ مما علمته فى هذا الصدد أن زغول باشا قال: « إن وجود
قيادة الجيش المصرى العامة فى يد ضابط أجنبى وإبقاء ضباط بريطانيين فى
هذا الجيش ، لا يتفق مع كرامة مصر المستقلة » فأبداء مثل هذا الشعور فى
بيانات رسمية من رئيس الحكومة المصرية المسئول لم يقتصر على وضع
السردار السرى ستاك باشا فى مركز صعب بل وضع جميع الضباط البريطانيين
الملحقين بالجيش المصرى أيضاً فى هذا المركز

« ولم يفتنى أيضاً انه قد نقل الى أن زغول باشا ادعى لمصر فى شهر يونيو
عاصمة الماضى حقوق ملكية السودان العامة ، ووصف الحكومة البريطانية بأنها
« فلما حدثت زغول باشا فى ذلك قال لى إن الأقوال السابقة التى قالها
لم يكن مردداً فيها صدق رأى البرلمان المصرى فقط ، بل رأى الأمة المصرية
أيضاً ... »

وبعد العودة من المفاوضات أوشكت مدة المستشار القضائى أن تنتهى
فرفض سعد إبقاء هذه الوظيفة وأبى تجديد العقد لمن كان يشغلها ، وكان ذلك
فى الثانى عشر من شهر نوفمبر لذلك العام ، لأنه لم يذهب إلى المفاوضات ليكون
كل ما كسبه منها أن يعود متطوعاً لتنفيذ السياسة الانجليزية ، قانعاً من قضيته
بطلبات لا تحجب

لا جرم صدق سعد أننا مستقلون وعمل بما صدق !! لكننا نسأل هل
كان فى وسعه أن لا يصدق ؟ وهل كان ينفعه عند الانجليز — فضلاً عن
المصريين — أن يمثل الدور على وجهين ؟

إن الكثيرين ليفهمون أنه لم يفعل بمسلكه هذا فى الوزارة الا ما ينبغى
لزعيم ينادى بقضية وطنية ، ولكنهم لو نظروا إلى الموقف من جميع جوانبه

لفهموا كذلك انه فعل ما ينبغي للسياسى الذى يلبس الواقع ويحذر
العواقب ، ولا يفرض فى شىء قل أو أكثر من أجل « لاشىء »

ولا حاجة إلى القول بأن سعداً لم يكن بطمع من المفاوضات فى الوصول
إلى كل ما جاء فى الكتاب الأبيض من المطالب ، وهو نزول الانجليز دفعة
واحدة عن كل دعوى يدعونها وتهاونهم فى كل مصلحة يرومونها . ولكنه
كان مسئولاً أن يقر الأمور فى نصائبها ويضع القضية المصرية فى موضعها .
وليس فى استطاعته أن يأمل النجاح من مفاوضة يكون الأساس فيها أن مصر
هى المطالبة وانجلترا هى صاحبة الحق فى المنع والاعطاء ، وإنما الأساس
الصالح للمفاوضة أن مصر هى صاحبة الحق فى بلادها . وانها إذا قبلت أن
تراعى بعض المصالح البريطانية فذلك من حسن نيتها ورغبتها فى السلام
والصداقة . وقد سأل مستر مكندالد سعداً فى بداية المفاوضة : ماذا تطلبون ؟
فكان الجواب الطبيعى اننا لا نطلب من انجلترا سخاءً ولا مبرة . وإنما شأن
البلاد المستقلة أن تكون على الصفة التى تقدمت فى الكتاب الأبيض : لا
احتلال ولا سيطرة على الحكومة فى سياستها الداخلية والخارجية ، وكل
ما نقص من ذلك فهو عطاء من مصر ، ودليل على الهوادة والرغبة فى الوفاق

هذا من جهة . ومن جهة أخرى يعلم سعد أن الانجليز لم يخالوا بينه وبين
الوزارة ليمكنوا له فى الحكم ويثبتوا مركزه من الزعامة ، ولكنهم أخلوا
بينه وبين الوزارة عسى أن تكبحه أعباء الحكم ومطامعه وتكف من غيرته
وشنآنه ، فيسمعوا من سعد الحاكم غير ما سمعوا من سعد الزعيم ، ولا يلبث
المصريون أن يروا زعيمهم على حال غير الذى عهدوه وضعف غير الذى
توقعوه . فيقال لهم إن الزعامة الوطنية ليست إلا جمعة فى الخلاء يلفظ بها
غير المسئولين طمعاً فى المناصب ومنافسة على المآرب ، ثم يصبح الزعماء
وغير الزعماء سواء فيما يقبأون ويرفضون ، وفيما يعملون ويقولون ، ويذهب
عناء الأهم وجهادها مع الريح !

وعلى كون هذه النية واضحة من سوابق الانجليز مع سعد وازدادت وضوحاً في أيام الحكم وبعد تلك الأيام — لم يقتصر الأمر فيها على الظن والاستقراء بل فاه بها اللورد اللنبي فعلاً في السودان بعد قيام الوزارة السعدية ، حيث راح يقول لمن يلقاه من رؤساء الانجليز الناقين على تلك الوزارة : لقد وضعت زغلولاً في قفص وسنرى كيف يخرج منه أو يبقى فيه ولعله كان يقول ذلك ليحفظ مهابته ويدخل في روع رؤسائه إنه لم يهنزم ولم يكن رجوع زغلول إلى مصر ثم إلى الوزارة على كره منه وبغير تدبير مقصود على حسب رأيه ، ولكنه لم يقل في الحقيقة غير ما ينويه ، وينويه معه رجال دوننج ستريت

ولا شك أن مستر مكدونالد كان يود — بل كان يتمنى — أن ينجح في حل القضية المصرية وإبرام الاتفاق بصددتها مع سعد زغلول ، إلا أنه كان يود ذلك لنجاحه هو في توطيد وزارته المتداعية وإرضاء المحافظين والأحرار عن بقائه ، والحل الذي يرضى المحافظين عن وزارة عمال متداعية يريدون إسقاطها ان يكون نجاحاً لسعد ولا نجاحاً للقضية المصرية

ولقد دلت الطوائع من أحاديث مكدونالد وتصريحاته على العواقب التي يرجى أو يخشى أن تؤدي إليها ، فان مكدونالد كان يعلم أن سعداً لا يقر تصريح ٢٨ فبراير وان هذا التصريح لم ييسر إعلانه في مصر إلا بعد أن يهد بنفيه إلى سيشل ، وإنه إذا جرت مفاوضات مع سعد فليس بالمعقول أن يقبل دخولها على أساس هذا التصريح ، ومع هذا كان مكدونالد لا يفتأ يعلن مرة بعد مرة أن التصريح هو أساس ما يدعو إليه من مفاوضات ، وأن السياسة البريطانية لا تتحول في هذا الموضوع ، ولو أنه قال ان المفاوضات حرة من كل قيد لما اعتبر ذلك نزولاً من الحكومة البريطانية عن تصريحها ، ولكنه كان ييسر للزعيم المصري دخول المفاوضات على ذلك الأساس . فكأنما كان المقصود هو اضطرار سعد عاجلاً إلى الاعتراف بما لم يكن

يعترف به قبل الوزارة ، وهو يقدم على مفاوضات لا يضمن فيها النجاح ، وقد يكون كل ما يصيبه منها أن ينقض موقفه بيديه وأن يقيم الحجة عليه الخصومه ، وأن يسجل على نفسه الثقل من أجل المناصب الحكومية بين النقيض إلى النقيض

وما جاءت هذه المفاوضات إلا بعد مطاولة في المواعيد وتقاذف بالخطب والتصريحات وحوادث مدبرة في مصر والسودان ، وعزى في أثناء ذلك إلى مستر مكدونالد حديث جاء فيه أنه « حدثت في الوقت نفسه حوادث يؤسف لها في السودان ، تقع المسؤولية في حدوثها على الحكومة المصرية بلا جدال . وإنى معتقد تمام الاعتقاد أن القلاقل الحديثة دبرها بعض أعضاء الحكومة المصرية ، وأن دولة زغلول باشا غض الطرف عن أعمال المتطرفين »

ثم انتهى الحديث بوعيد جاء فيه أنه « لا يمكن بحال ما أن يكون هناك محل للكلام في جلاء الجنود البريطانية عن مصر أو إبعاد القوات البريطانية عن منطقة القناة وفي استطاعتي أن أقول إننا أعدنا العدة التامة لجميع الطوارئ » فاغضى سعد عن هذا الوعيد ، واكتفى بأن صرح في حديث مع مراسل الديلي اكسبرس بأنه أخذ تذكرة العودة إلى مصر في يوم ١٧ سبتمبر — وكان يومئذ في باريس — ثم قال : إنه ظل ينتظر أن تعين الحكومة البريطانية الزمان والمكان للاجتماع ولكنه لا يرغب أن ينتظر أكثر من ذلك الآن وبعد أن صرح مستر مكدونالد بأن مواعيده المقبلة لا تسمح له بترتيب موعد قريب للمقابلة «

فيكان لهذا التصريح أثره ، وكذب مستر مكدونالد الحديث المعزى إليه قائلا : « إنه دهش أشد الدهش لسماع ما عزى إليه . . . ووصف أقوال المراسل بأنها مناورة خبيثة مما يسمونه صحافة » ١

وكتب مستر مكدونالد إلى سعد قائلا : « إنه يرغب رغبة شديدة في

الاشتراك في إعادة حسن التفاهم في العلاقات بين البلدين ، وانه يكون مسروراً لمقابلاته بلندن في أواخر هذا الشهر

وعلى ذلك سافر سعد إلى لندن ، فكان من المصادفات التي لها دلالتها أن وفد السودان الذي استقدمته الحكومة الانجليزية لتمثيل السودان في معرض ويمبلي كان بين المستقبلين على المحطة عند وصول سعد إلى العاصمة الانجليزية وكان أشد المهاتفين هتافاً لاستقلال وادي النيل ، وشارك السودانيون رهط من أبناء الهند وفارس فجعلوا يهتفون بلغاتهم وباللغة الانجليزية لزعم الشرق الكبير ، وكذبوا بذلك ما يقال من أن هذه المظاهرات لا تحصل حيث حصلت إلا بتدبير وتحضير

أنذرت الطواهر بالفشل من أول لقاء ، وكان مستر مكدونالد لم يكفه ما هنالك من النذر والعلامات فعمد إلى « مناورة » صيدانية لا خير فيها غير التكدير والاساءة والاغراء بالتشام والعداء . فبعد أن استقبل سعداً في حجرة بيته معتذراً بالمرض والاعياء ، جاءت رسالة على حين غرة فوثب مهرولاً إلى الديوان ونسى مرضه وإعياءه ، وخرج يعتذر في غير اكتراث وكأنه يقول : هناك مسائل لحجرة البيت ومسائل للديوان ١١ ولعله استكثر من رئيس وزارة مصرية أن يأتيه من مطاولة المواعيد ويستوثق من أساس المفاوضات قبل البدء فيها كما فعل سعد . فأراد أن يريه بهذه المناورة الصيدانية مبلغ ما تستحقه قضية مصر عند رئيس وزارة بريطانيا العظمى من لاحتفال والاهتمام . وانقطعت المفاوضات في أوائل أكتوبر ولم تكبد تستغرق الأسبوع .

وقال سعد لمراسلي الصحف الانجليزية : « ... لاحظت مع ذلك أن وزارة مكدونالد ترتطم الآن بصعاب عديدة جعلتها مهددة بالسقوط وقال لي مستر مكدونالد بالرغم من كثرة شواغله انه على استعداد للمناقشة وإيائي ، ولكنني أختار المناقشة مع رجل أكثر حرية وأقل مشغلة منه ، وهو محاط بالشواغل من كل جانب

ولايظن ظان أنني أتيت إلى لوندرا لأوقع على اتفاق يمس حقوق مصر !
فمن ظن هذا وقع في الخطأ . إنني أتيت لأكسب لا لأخسر . فإذا كنت لم
أكسب شيئاً فأنى لم أخسر شيئاً »

وقال في حديث مع الماتان بعد عودته من باريس : « إن المحادثات
فشلت نظراً للتمسك بحفظ قوات بريطانية على قناة السويس . . . وإنما إذا
كانت حماية القطر المصرى للقناة تلوح غير كافية فقد يقبل المصريون أن
يضعوا القناة تحت حماية عصبة الأمم . وإن مصر لا يسعها أن تتخلى عن
السودان »

وقال في حديث مع البتي باريزيان : « إنى قبل الدخول فى المحادثة
اشتطت أن الشروع فى المباحثات لا يمكن على أى وجه من الوجوه أن يمس
حقوق مصر أو يضر بها . ثم إن هناك أمراً تم التسليم به ، وهوانه إذا أفضت
المحادثات الى مفاوضات ، فإن هذه المفاوضات تجرى على حد المساواة التامة ،
أو تكون مفاوضة الند للند »

فيرى من جميع ما تقدم أن سعداً الزعيم لم يسلك فى الوزارة إلا كما ينبغي
أن يسلك الوزير المحنك الخبير بعواقب الأمور . إنهم كانوا يسوقونه الى
شرك لا مفر له من الوقوع فيه أو النجاة منه ، وقد اختار هو النجاة واختار
لها آمن طريق ، وليس فى مقدور ناقد أن يدلّه على طريق آمن ولا أجدى
عليه وعلى القضية الوطنية مما توخاه

نعم كان فى الوسع تأجيل المفاوضات إلى موعد آخر . ولكن ماذا عسى
أن يفيد هذا التأجيل ؟ إن مستر مكدونالد إذا سقط فايس الذى يليه بأسهل
قياداً منه ولا أقرب إلى إجابة المصريين ، فالدخول فى المحادثات كان ضربة
لازب . وكان ضربة لازب أن تفشل ، وكان ضربة لازب مع هذا التقدير

أن يسلك سعد في مفاوضاته وفي علاقاته بالسياسة البريطانية مسلك الزعيم ،
وهو بعينه مسلك الوزير القدير والسياسي الخبير

على ان المتاعب قد صادمت الوزارة السعدية من اللحظة الأولى ولاسيما
في مسألة السودان . فلما أراد أن ينص في خطاب العرش على الاستقلال
التام لمصر والسودان حال بينه وبين ذلك عبرة الانذار الذي وجهته بريطانيا
العظمى الى جلالة الملك مباشرة — في عهد الوزارة النسيمية — لاشتغال
الدستور على اسم « ملك مصر والسودان » . ولم يشأ صاحب العرش أن
يستهدف لازمة أخرى من ذلك القبيل . فاستغنى سعد عن عبارة تحقيق
الاستقلال التام لمصر والسودان بعبارة « تحقيق الأمانى القومية بالنسبة
لمصر والسودان »

وهى العبارة التى أوشكت أن تدفع بسعد الى الاستقالة ، حين تعرض
النواب لها بالتعديل والتفسير ، وقد اتبعها فى بعض أحاديثه بتفسير
يقول فيه إن الآمال القومية هى الاستقلال التام

وما زالت مسألة السودان مثار السؤال والجدال والاحراج والتعننت من
خصوم سعد الانجليز والمصريين فى وقت واحد ، كلا الفريقين يريد أن
ينقلب المنصب الوزارى على سعد شركاً مردياً ، وكلاهما يريد أن يرى كيف
يعجز ويفشل ، ولا يريد أن يرى كيف يقدر وينجو بكرامة الزعامة
وكرامة القضية .

فالمعارضون فى مجلس النواب يطالبونه بعرض ميزانية السودان كما كانت
تعرض على مجلس الشورى ، وهى أخرى أن تعرض على أول برلمان
والموظفون الانجليز فى السودان يجمعون الأذنان والأتباع ليعلنوا
ولاهم للحكومة البريطانية دون غيرها ، واستمسا بهم بالتبعية والاخلاص
لنلك الحكومة العادلة المحبوبة تعريضاً بحكومة المصريين

وإذا قوبلت هذه المظاهرة بمظاهرة من السودانيين المتعلقين بوحدة
وادی النيل حل بهم البطش الشديد وحق بهم العذاب الالیم

فاذا شكوا الى الحكومة السعدية ، وليس لهم من يشكون اليه غيرها ،
نقصوم سعد الانجائز يمعنون في إحراجه بزيادة البطش والتعذيب وخصومه
المصريون يمعنون في إحراجه بطلب الافراج عن المعاقبين وتعجيل الحساب
والعقاب للوظفين المسؤولين ، وكان من هذا وذاك أنه استقال ولم يكده
يمضى على الوزارة ثلاثة أشهر

استقال بعد تصريح اللورد بارمور باسم الحكومة البريطانية —
حكومة العمال — « بأن الحكومة البريطانية لن تترك السودان بأى
معنى كان » .

فأجاب سعد على هذا التصريح بتصريح مثله فى مجلس النواب والشيوخ
جاء فيه : —

« إننى بالنيابة عن الشعب المصرى جميعه ، وفى حضر تكلم الموقرة ،
أصرح بأن الأمة المصرية لن تنازل عن السودان ما حيت وما عاشت ...
إن حقوق الأمم لا تضيع بمجرد أن يقول الغاصب إنى أريد أن أتمتع بها
دون أصحابها نعم أيها السادة لا يمكننا مطلقاً أن تنازل عن السودان ،
لا لأنه مستعمرة ، بل لأنه جزء من كياننا ، بل لأنه منبع حياتنا ، بل لأنه
لا يمكن لمصر أن تعيش بدون السودان أصلاً »

وربما ظنت الحكومة البريطانية أنها تبيح نفسها مثل ذلك التصريح دون
أن يحسر سعد على اباحة مثله لنفسه ، لأنه قائم فى منصب الوزارة ، فيسمعه
ويغضى عنه ويذهب الى المفاوضة وهو مسلم به سكو تأقبل أن يسلم به مقالاً ؛
فكانت اجابته على التصريح بمثله حتماً ، وكان حتماً معها أن يعرب عن زهده
فى الوزارة التى يحسبونها قيداً له يجبره على الاغضاء ، وقد استقال فرفض

الملك قبول استقالته ، وأبدى له كما أبدى الشيوخ والنواب إن فيما صرح به
الكفاية تلورد على التصريحات الانجليزية

لم يكن المقصود إذن أن يرى خصومه الانجليز والمصريون كيف يعمل
في الوزارة بل كان المقصود أن يروا كيف يعجز عن العمل وكيف يتغير في
الوزارة ويخل بأمانة الزعامة فلا هو وزير ولا زعيم ، وليس له وهو مخاط
بهذه التيات المدخولة أن يصنع غير ما صنع وأن يعالج الشرك المنسوب بغير
ما عالج به من ثبات ومراس ، هما في وقت واحد إقدام الزعامة وحيلة السياسة ،
وإخلاص المجاهد وحيطة الأريب

ولقد أصيبت وزارة سعد بالأجرام كما أصيبت بالأحراج ، ف وقعت في عهدها
جنايتان وبيلتان ، أحدهما موجهة إلى حياته والأخرى موجهة إلى وزارته ،
وكلتاهما لها مساس بالمفاوضات ، وكلتاهما في اعتقاد سعد من تدبير واحد
أما الجناية الأولى فهي حادثة الاعتداء عليه في محطة العاصمة حين كان
ينوى السفر إلى الاسكندرية لحضور تشريفات عيد الأضحى (١٢ يولييه
سنة ١٩٢٤)

اعتدى عليه شاب مفتون من أعداء المفاوضات لأنها في رأيهم تصد الأمانة
عن سبيل الجهاد الناجع ، وقال في التحقيق انه تعمد ارهاب سعد لأنه يرغب
في المفاوضات ، ولأنه قال إن الانجليز خصوم شرفاء معقولون ه
وقد أصابته الرصاصة في الساعد الأيمن ثم في صدره ، وحاول الجاني
أن يطلق غيرها فتكاثرت عليه الجماهير ، وهموا بتمزيقه لولا رجال الشرطة
الذين أحاطوا به فأنقذوه ، ومن غرائب ما حدث في هذا الاعتداء أن
المسدس الذي كان مع الجاني اختفى عقب الاعتداء فلم يعثر له على أثر ،
وشهد محام كان على مقربة من الجاني انه رأى ضابطا انجليزيا من ضباط الشرطة
يخفيه في جيبه ، وأنكر الضابط ذلك واعترف بأنه أخفى شيئا في جيبه ولكنه
كان مقبض المنشة التي كان يحملها وانكسرت في الزحام

وأشرف على التحقيق بعض الوزراء ، واستمر على الاشراف عليه حسن
نشأت باشا وكيل وزارة الأوقاف يومذاك ، وبعد بحث طويل أحيل
الجاني إلى الكشف الطبي فقرر الدكتور ددجن كبير الأطباء العقليين انه
مجنون وتقرر اعتقاله في مستشفى المجاذيب ، وهو المعتدى الوحيد على الوزراء
الذى صار إلى هذا المصير

لقد تبينت شجاعة سعد منذ صباه في شذات السجين والنفي والاضطهاد
كما تبينت شجاعته بالجهر برأيه وامضاء عزمه ولو تصدى لاغصاب أقوى
الأقوياء . ففي هذه الجناية تبينت منه شجاعة أخرى قد لا يتاح ظهورها كثيرا
في حياة الابطال المجاهدين بسلاح الحججة والايمان لا بسلاح النار والحديد ،
وتلك هي شجاعة الرجل في وجه الموت الداهم وهو منه على يقين . فتعد
نفذت الرصاصة إلى صدره وهو مصاب بشتى الامراض التى لا تؤمن معها
الجراح إذا نجح صاحبها من الموت بفتك الرصاص ، فما وجم ولا تردد ولا
فكر لحظة فيما أصابه ، واثبت كأنه ينظر إلى مصاب أحد لا يعنيه ، والتفت
إلى الوزراء الباكين حوله يقول لهم : « لا تحزنوا .. ولا تبتئسوا ... إذا مات
سعد فبدأ سعد باق لا يموت . اعملوا من بعدى وثابروا على تحقيق سعي »
ولما قال بعض الوزراء : إن الله أرحم بمصر من أن تصاب بسوء ، عاد
يقول : وماذا فى ذلك ؟ نحن ميتون . فلنمت نحن وليح الوطن

ونظر إلى جماهير الطلبة والشبان وهى تتدفع على باب الحجرة التى نقل
إليها ، فوثب على قدميه وجرحه لا يزال ينزف ، وناداهم بصوت جهوري
يضمم الحية فى النفوس « لا تكسبوا ولا تهتموا . إلى الامام . دائما إلى
الامام ! ثم قالها بالفرنسية En Avant ...! En Avant

أما الجناية الثانية — وهى التى اعتبرها سعد مواجهة « ضده » كما قال عند
سماع خبرها — فهى حادثة الاعتداء على « السردار » لى ستاك باشا بعد عودته
من المفاوضات بنحو شهر واحد

فقد عاد سعد من المفاوضات فوجد خصومه مجدين في محاربته بالشغب تارة والدسيسة تارة أخرى ، وسعى هؤلاء الخصوم بالوقعة عند الأزهرين لأنهم يعلمون من ماضى سعد أنه هو صاحب رأى قديما فى إنشاء مدرسة القضاء الشرعى التى تخرج القضاة الشرعيين ، وأن الأزهريين كانوا ينقمون من نشأة هذه المدرسة لأنهم يطلبون أن تنحصر فيهم وظائف القضاء وما إليها من وظائف التعليم الدينى وتعليم اللغة العربية قبل السماح باجراء الإصلاح فى برامج التعليم الأزهرية ، وكانوا قد عرضوا على الوزارة السعدية مطالب لتحسين أحوالهم فألفت الوزارة لجنة خاصة لدرسها والاشارة بما تراه فيها ، وعاد سعد من المفاوضات فاستثارهم خصومه مدخاين فى روعهم أن مدرسة القضاء عائدة وأن مطالبهم غير مجابة . فخرجوا فى الطرقات يتظاهرون ويهتفون ويعرضون بسعد فى هتافهم مهددين متوعدين ، ونسوا أو نسى صغارهم أن أمر المعاهد الدينية بيد الملك لا بيد الوزارة ، فاذا تأخرت اجابة المطالب فليست الوزارة صاحبة الرأى الفصل فى التأخير او فى الرفض والقبول

ثم تعاقبت أمثال هذه الدسائس والسعايات واجترأ بعض الموظفين على الخوض فيها والخض عليها لاعتقادهم أن الملك فؤاداً من جهة وأن الانجليز من جهة أخرى يرحبون باضعاف الوزارة السعدية وتنفير الناس منها ولا سيما رجال الدين والموظفين

وكان يساعد على سريان التذمر بين طبقة الموظفين أن الوزارة فكرت فى إصلاح نظام الدرجات والترقية والتعيين ، فخشى جمهرة منهم أن يتبع ذلك نقص المرتبات أو الاستغناء عن بعض الوظائف ، واستقال أحد الوزراء وهو محمد توفيق نسيم باشا المعروف بعلاقاته بالقصر الملكى فكان هذا وأشباهه من دواعى الظن بقرب أيام الوزارة وسهولة الخروج عليها والاساءة اليها

وهكذا توالى الأزمات والمشكلات والمساعي الظاهرة والخفية ، فبرم سعد بما يلقاه من كل ذلك وقدم استقالته إلى جلالة الملك في منتصف شهر نوفمبر ميينا لجلالته الأسباب الصريحة التي تدعوه إلى الاستقالة ، وفيها أن أناساً من كبار الموظفين المنسوبين إلى القصر يستخدمون اسم جلالته لمحاربة الوزارة في الخفاء . . . فقال له جلالته أنه يثق به ويعتمد عليه ، ورغب في عدوله عن عزمه ، فاعتذر بأنه قد فرغ من التفكير في هذا الموضوع

فقال الملك لنبق المسألة إذن إلى غد . وحدث في هذه الاثناء أن الشيوخ والنواب أوفدوا إلى جلالة الملك من يتوسل إليه أن لا يقبل الاستقالة ، وأوفدوا إلى سعد من يرجوه العدول عنها . فقبل أخيراً أن يستعفى من الاستعفاء كما قال . ولكنه طلب إلى جلالة الملك تأكيداً للثقة وقطعاً لدسائس الدسائسين أن تدخل مسائل الأزهر والمعاهد الدينية ومناصب السلك السيامي ومناصب القصر والرتب والنياشين في اختصاص مجلس الوزراء . ولكل طلبية من هذه الطلبات سبب من الحوادث التي مرت بالوزارة السعدية وبخاصة في الأيام الأخيرة

فهو يريد أن تنظر الوزارة في مسائل الأزهر ليكون مسئولاً حقاً عن الإصلاح لا ليخرجه المخرجون بطلب الإصلاح ويمنعوه عمداً مبالغة في الإحراج ، وهم يتظاهرون بصداقة الأزهريين

ويريد أن تنظر الوزارة في مناصب السلك السياسي لئلا يتهاذى الوزراء المقوضون والسفراء في إحراجها مع الدول — كما حدث من بعضهم في أوائل قيام البرلمان — وهم آمنون ما يستحقون من جزاء

ويريد أن تنظر الوزارة في مناصب القصر والانعام بالرتب والنياشين لأنه طلب اقضاء حسن نشأت باشا من وكالة الأوقاف فنقل إلى القصر وجاء على أثر ذلك إلى شرفات مجاس النواب وهو يتشجع بالوشاح الأكبر من نوط النيل ، وقد أنعم به عليه بغير رأى الوزارة

فأجاب الملك سعداً إلى هذه الطلبات ، ووعد أنه تضاف إلى صلب الدستور ، وأن يشرع في ذلك عقب رد الاستقالة إذا شاء .

هذا في اليوم السادس عشر من نوفمبر ، وفي اليوم السابع عشر أعلن سعد في مجلس النواب والشيوخ أنه « تشرف أمس بمقابلة جلالة الملك فأعرب له أنه متفق تمام الاتفاق مع الأمة ومجلس الشيوخ والنواب في الثقة بالوزارة ، وإنه أمام هذا الإجماع لا يسعه قبول استعفاء الوزارة ، وبناء على هذا وعلى التصريحات التي لطفت من عبء العمل عليه ومن عنائه ، لم يبدأ من سحب الاستقالة والعود إلى العمل في حدود صحته »

سبق إلى بعض الظنون أن الوزارة سوف تستريح برهة بعد عودتها إلى العمل لتتفرغ لشئون الإصلاح التي شغلها عنها الأزمات السياسية ، ولكن لم يمض يوم واحد حتى وقع الاعتداء على حياة السردار « لى ستاك باشا » وهو خارج من وزارة الحرية ، ولسوء الحظ كان الرجل على نية السفر إلى السودان قبل ذلك بيوم ، ثم أرجأ سفره لحضور مأدبة أقيمت له في القاهرة ، فصادفته المنية على أيدي أولئك الجناة

ولو شامت السياسة البريطانية لعلمت أن جناية كهذه قد وقعت في العاصمة الانجليزية — وهي قتل المارشال ولسون — فلم يقل أحد إنها دليل على خلال الحكومة أو سوء النية أو التقصير في حفظ الأمن والنظام

ولو شامت لعلمت أن سعداً خليق أن يكره وقوع هذا الاعتداء أشد من كراهة الحكومة البريطانية ، لأنه اعتداء يصيبه هو ويصيب وزارته ويصيب الحكومة النيابية التي يمثلها ، ولا ينفعه في شيء بل ينفع خصومه من الانجليز والمصريين

ولو شامت لعلمت أنه قد أصيب باعتداء على حيانه من جراء المفاوضات قبل أن ينزع الجناة إلى إصابة حاكم السودان
ولو شامت لعلمت أن حاكم السودان هو قائد الجيش المصرى ولا مانع

يمنعه من « تقدير الظروف » وحماية حياته بما لديه من الحراس والجنود ، وليس بالانصاف ولا بالميسور أن تطالب الوزارة السعدية بعناية أكبر من عناية الرجل بنفسه ، وفي البلاد « إدارة أوربية » للأمن والاستعلامات لا يفوتها الانتباه والتحذير

ولكن السياسة البريطانية لم تشأ أن تعلم شيئاً من ذلك وهو معلوم غير مجهول ، وكل ما شاءته أنها اغتصمت الفرصة كأنها كانت في انتظارها أو كانت تشفق أن تضيع منها ، وهي قد كانت حقاً في انتظار فرصة تزعج بها الوزارة السعدية جهد ما استطاعت من إزعاج

قال اللورد جورج لويدي في الجزء الثاني من كتابه « مصر منذ عهد كرومر » :
« تخلت وزارة مستر رامزي مكدونالد عن الحكم في نهاية أكتوبر وخلفتها وزارة محافظة تولى فيها مستر أوستن شمبرلن وزارة الخارجية . وكان مستر مكدونالد يفكر — بمعاونة المندوب البريطانى — فى توجيه تبليغ إلى الحكومة المصرية يسرد لها المخالفات المكررة التى خالفت بها النظام المتبع أو الحالة الواقعة . فواصل مستر شمبرلن بحثه مع القاهرة فى الصيغة التى يفرغ فيها هذا التبليغ ، وكانت هذه المخالفات تزداد أثناء ذلك وآخرها رفض زغلول فى الثامن عشر من نوفمبر بقاء وظيفة المستشار القضائى وامتناعه من تجديد العقد للسرم . إيموس الذى كان يشغلها إذ ذاك »

سُنحت الفرصة إذن فنبغى أن لا تضيع ، وبلغ من التهاوت على انتهازها أنهم لم يكلفوا أنفسهم مشقة إخفاء النية المبيتة وراءها ، فجاء فى الانذار البريطانى أنهم يطلبون من الحكومة المصرية « أن تبلغ المصلحة المختصة أن حكومة السودان ستزيد مساحة الاطيان التى تزرع فى الجزيرة ، فبدلاً من أن تكون ثلثمائة ألف فدان تكون غير معينة المقدار على نسبة ما تقتضيه الحاجة » . . . وجاء فى ملحق الانذار « ان القوانين والشروط الخاصة بخدمة الموظفين الأجانب الذين لا يزالون فى خدمة الحكومة المصرية

وتأديهم وخروجهم من الخدمة ، يجب أن يعاد النظر فيها وتنقح طبقاً لرغبة الحكومة البريطانية » وإنه « إلى أن يتم الاتفاق بين الحكومتين على موضوع حماية مصالح الأجانب في مصر تحافظ الحكومة المصرية على مركز المستشار المالي ومركز المستشار القضائي ، وتحترم سلطتهما وإمتهما كما نص عليهما عند إلغاء الحماية ، وتحترم بالمثل مركز المكتب الأوروبي في وزارة الداخلية ، ودهام المالية كما حددت بالقرار الوزاري ، وتأخذ بعين الاعتبار المشورة التي يقدمها مديره العام في الأمور الداخلة في اختصاصه »

أما الطالبات الأخرى فمنها الاعتذار الوافي الكافي ، وقع كل مظاهرة شعبية سياسية ، ودفع نصف مليون جنيه ، وإصدار الأوامر برفع الضباط المصريين والوحدات المصرية البعثة في الجيش المصري من السودان خلال أربع وعشرين ساعة . . . ومهد لهذه الطلبات بعبارة جاء فيها ان حكومة جلالة الملك « ترى أن هذا الاغتيال — الذي يعرض مصر بالحالة التي تحكم بها الآن إلى إزدراء الشعوب المتمدينة — هو النتيجة الطبيعية لثمة عدوانية على حقوق بريطانيا العظمى وعلى الرعايا البريطانيين في مصر والسودان » وعلم اللورد اللنبي أن أمنيته المرقوبة قد حانت آخر الأمر فاحتفى ماشاء بمظاهر التخويف والتشفي والارهاب ، وذهب في ركب يتقدمه مئات من حاملي الرماح إلى مجلس الوزراء ، وأعلن وصوله بنفخ الأبواق وقعقة السلاح ، فلم يتمالك سعد كعادته أن يلمح الجانب المضحك من هذه المبالغة في استغلال فاجعة النية ، وقال واللورد اللنبي يدخل عليه : « ماذا ؟ هل أعلنت الحرب ؟ ! »

أما جواب الحكومة المصرية على الانذار فقد قبلت فيه ماله علاقة بالجريمة كالاعتذار ودفع التعويض واقتفاء أثر الجناة ومنع المظاهرات الخلة بالنظام ، ولم تقبل ما عدا ذلك من المطالب التي لا علاقة لها بسبب الانذار ، فها هي إلا ساعات حتى أخذت البلاغات تتعاقب من اللورد اللنبي بأنه أمر

حكومة السودان أن تسرح الضباط المصريين وأن تطلق يدها في زراعة الجزيرة ، وانه سيستخدم ماشاء لحماية الأجانب ، وأنه سيحتل الجمارك ويتبع ذلك بضروب أخرى من النذر والقوارع

وكانت الوزارة قد رفعت استقالتها إلى جلالة الملك فلما تعاقبت هذه التبليغات كتبت إلى جلالتة عريضة تقول فيها انها « ازاء هذه التعديلات المتتالية المضرة بالبلاد لا يسع الوزارة إلا أن تلج على جلالتكم بأن تتفضل بالأسراع في قبول الاستقالة ، لأنه ربما كان في هذه الاستقالة وفي ثبوتها ما يقي شر الأضرار المتوالية » فقبل جلالتة الاستقالة وأعان سعد في المجلسين قبولها ، وعقب على ذلك بقوله : « كذلك أصرح لكم أنا وزملائي بأننا مستعدون بكل إخلاص لأن نؤيد في مجلس النواب الذي نحن أعضاء فيه كل وزارة تشغل لمصلحة البلاد ، ليس فيها عاطفة معارضة إلا فيما يختص بالمصلحة العامة ، فاننا نخدم هذه المصلحة ونؤيد كل من يؤيد هذه المصلحة » وبذلك تم للسياسة البريطانية ما أرادته من إقصاء سعد ، وان لم يتم لهما ما هو أفضل لديها من الاستقالة العاجلة ، وهو قبول المطالب ثم معاودة الإخراج لإقصائه بعد حين

وان الانسان لا يدري بعد ذلك هل تعتبر السياسة الاستعمارية هذه لحوادث من المصادفات السعيدة أو من الفواجع المخزورة ! فمقتل غردون في الخرطوم — وإنما قتل لأن الانجليز القابضين على الحكومة المصرية لم يبادروا إلى إنقاذه — قد أ كسب السياسة الاستعمارية نصف السودان وهو القطر الذي يعدل القارات في الاتساع وخصوبة الموارد ولا تنال الدول مثله إلا بسفك دماء العشرات من القواد وعشرات الألوف من الجنود

وقالت السياسة الاستعمارية يومئذ أنها لا تشارك مصرأ في السودان

لأنها تدعى حقاً في ملكه أو السيادة عليه ، ولما كنهم تريد هذه الشركة توسلا بها إلى منع سريان الامتيازات الأجنبية عليه ، وهي تسرى على كل قطر تابع للدولة العثمانية ، وقد يكون في سريانها على السودان تعطيل لاصلاحه وتقييد لحرية المصريين في حكمه ... وفيما عدا ذلك لا مطمع للدولة البريطانية في الحكم ولا في الاستغلال

وباسم مصر وحقها احتجت إنجلترا على فرنسا حين احتل القائد مرشان فاشودة لأن التعليمات قد صدرت « بتوطيد السلطة المصرية على ذلك الاقليم »

وباسم مصر وحقها دفعت الخزانة المصرية أكثر من عشرين مليوناً من الجنيهات لتعمير السودان وحراسته وتحصينه وتسديد العجز في موارده ! ثم جاء مقتل لى ستاك بعد مقتل غردون بنحو أربعين سنة فضيع على مصر كل ما بذلته من مالها ودمها في العصور القديمة والحديثة ، ونقل ذلك حللاً لا زلا لاسائغاً إلى أيدي السياسة الاستعمارية تتخذة ذريعة إلى زرع ما تشاء من الأرض ، واقصاء جميع الموظفين المصريين ، وطرد الجيش المصرى كله ، مع تكليف الخزانة المصرية سبعمائة وخمسين ألف جنيه للدفاع عن السودان ! إن السياسة الاستعمارية لو راجعت نفسها لحارت كما نحار نحن فلم تدر هل هذه الحوادث من المصادفات السعيدة أو من البلاء المخدور !

ونعود إلى مصاعب الوزارة السعدية فنقول إن الشواغل والازمات لم تكن موقوفة على العلاقات المصرية الانجليزية وحدها وما يتفرع عليها . فان الوزارة السعدية لم تقم في الحكم أياماً حتى قابلتها مشكلة عسيرة مع الحكومة الإيطالية ، وهي الحاج هذه الحكومة في تسليم عشرة من اللاجئين السياسيين من أهل طرابلس قدموا إلى مصر واعتقلتهم الوزارة ابراهيمية قبل قيام الوزارة السعدية . وكانت حكومة موسليني تأبى أن تقنع بما دون

التسليم ، وثارت ثائرة الأمة المصرية لهذه المطاردة العنيفة لأناس لم يقترفوا من وزر إلا الدفاع عن حرية بلادهم كما يحق لكل انسان ، بل كما يجب على كل انسان . واحتدمت النفوس غيظاً من هذا اللدد الغريب في ملاحقة اللاجئين بالعقاب بعد أن هجروا ديارهم وألقوا سلاحهم وذاقوا مرارة الخيبة والهزيمة ، كأنما هم الواترون وايطاليا هي الموتورة المعتدى عليها التي لا ينبغي لها أن تنسى جزاء الوتر والعدوان

والطرابلسيون بعد جيران المصريين واخوانهم في اللغة والدين وفي قضية الحرية والاستقلال ، والوزارة السعدية لا تشعر إلا بهذا الشعور ولا يحمل بها وعلى رأسها زعيم المجاهدين الوطنيين في الشرق العربي أن تسلم يديها أولئك الغرباء المساكين للموت والبلاء . فرفضت تسليمهم وأصرت على الرفض كل الاصرار ، وخشيت في الوقت نفسه أن يتفاقم الخلاف بينها وبين الحكومة الايطالية تفاقماً يجر الى دخول الحكومة البريطانية في القضية ... لأنها مسئولة — كما تدعى — عن حماية الأجانب وعن علاقات مصر الخارجية حيث يؤذن الخلاف بتعريض مصر لاعتداء أو تهديد من إحدى الدول القوية ! فتوسط سعد في فض هذه المشكلة بحل لا يسخط الحكومة الايطالية كل السخط وإن كان لا يرضى المصريين كل الرضا ، واكتفى باطلاق اللاجئين المعتقلين ليروحوا القطر إلى حيث يشاءون

ولم ينته الخلاف مع ايطاليا بهذه المشكلة بل نشبت بعدها مشكلة أخرى لا كراء الحكومة المصرية على ضم واحة جغبوب إلى البلاد الطرابلسية ، وقد استغرب الناس هذا التحرش بالوزارة السعدية من الحكومة الايطالية حتى بدر إلى ظنهم انها مغرارة بذلك من أناس يتصلون بها ويجوز أن يحرضوها على خلق الأزمات لاجراج سعد وتكبير المصاعب عليه ، وطال الأخذ والرد في هذه المشكلة ، حتى انتهت بالاتفاق بين قائد السلوم ومنسوبة الحكومة الايطالية على حد موقوف بين مصر وطرابلس تدخل به جغبوب

والسلم في الأرض المصرية ، وسرعان ما عادت الحكومة الإيطالية وحدها الى تغيير هذا الحد بغير مشاورة ولا استئذان !

يضاف الى هذه المشاكل كلها شواغل البرلمان الأول التي لا بد منها ، فقد كان على الوزارة البرلمانية الأولى أن تعرض عليه جميع القوانين والمعاهدات التي حدثت بعد فض الجمعية التشريعية ، وكان عليها وعلى البرلمان أن يشتركا في ترتيب نظامه الداخلي وعلاقته بالوزارة ومصالح الحكومة ، وأن يشتركا في تعديل قانون الانتخاب على الوجه الذي يرضاه السعديون ، وهم لا يرضون عن قانون الدرجتين

والبرلمان هل كان يخلو من صعوباته ؟ وهل كانت الوزارة السعدية لا تحسب حسابه الا لتستعين به على خصومها في جميع قراراته ومناقشاته ؟ كلا ! فقد كانت لأبي الديمقراطية المصرية صعوباته ومساجلاته أيضاً مع البرلمان بمجلسيه من نواب وشيوخ ، وكان يحتاج أحيانا إلى قوته كلها ليروض بها قوة هذا البرلمان . ولا نعني المعارضة وحسب فانها لم تكن تتجاوز عشر المجلسين في عدة الأعضاء ، ولكننا نعني الأعضاء الوفديين وهم أنصار سعد وأبناءؤه ومريدوه ، وكانت تتألف منهم الهيئة الوفدية التي اكتمل تأليفها بعد انعقاد البرلمان بنحو شهرين لتنظيم المناقشات ومنع الاحتكاك بينها وبين الوزارة ، وقال سعد في خطابه لأعضائها من مجلس النواب : « النظام يتطلب من كل منكم أن ينزل عن جزء يسير من حريته حتى تجتمع الحرية كاملة من هذه الأجزاء للهيئة التي قبلتم العمل تحت لوائها ، والحرية متوافرة من قبل في اختيار الهيئة التي تتضامنون معها واختيار النظام الذي تسرون عليه فلا معنى للقول بأن الحرية تنعدم مع النظام . ان الحكومة منكم وأنتم عضد الحكومة ، فيجب أن تكون هيئتكم منظمة ليتمكن أن يكون سير الحكومة منظما »

ومع هذا لم تخل جلسات الشيوخ والنواب من معارضة للحكومة في أمور

أصرت فيها الحكومة على رأيها وأصروا فيها على رأيهم ، فلم يرجعوا عنه بعد طول المساجلة والجدال

أودعت الحكومة القوانين التي صدرت قبل اجتماع البرلمان مكتب مجلس النواب وفيها قانون الاجتماعات المنظم لحق الاجتماع المباح بحكم الدستور في حدود القانون ، فنظر مجلس النواب هذا القانون في غيبة الوزارة دون أن يكون مدرجا بجدول الأعمال ، وقرر الغاءه باتأبلا تقييد ولا تعديل ... فجاء سعد في الجلسة التالية (٢ يوليو) ولاحظ على مبدأ نظر القوانين في غيبة الحكومة المصرية قائلا أن : « المسألة التي أريد عرضها على حضراتكم هي انكم نظرتم قانون الاجتماعات مع انه غير وارد بجدول الأعمال ، ولم تكن الحكومة حاضرة فهل يجوز أن يتخذ مثل هذا القرار في غيبة الحكومة ؟ هذا ما أردت طرحه على حضراتكم لابتداء الرأي فيه »

فقال أحد الأعضاء : « المجلس صاحب الحق المطلق في جدول أعماله فموضوع البحث هو : هل للمجلس إذ لم تكن الحكومة ممثلة أن يغير جدول أعماله قبل أن يخطر بها بذلك أم لا . فيجب أن نقرر أولا أن الحكومة تعمل على تمثيل نفسها دائما في المجلس لتتولى مثل هذه المسائل ، والذي أفهمه أن مكتب المجلس كان يجدر به أن يخطر للحكومة من باب المجاملة ... »

فقال سعد : « ليست المسألة مسألة مجاملة . انى لا أقبل المجاملة في هذا ! ومحل ذلك في المسائل الشخصية . ولكنى اعرض المسألة الآن رسميا ، وليس هذا حق الحكومة فقط بل حق كل عضو علم بجدول الأعمال ولم يحضر الجلسة ثم عدل جدول الأعمال ، فله أن يعترف . وأولى بالحكومة ان تعترض على ذلك باعتبارها الطرف الآخر « طرفا مهما » ... وان مصلحة المجلس تقضى باعلانها ، لانها اذا كانت لا تقبل قرارا صدر في غيبتها فلها أن ترده للمجلس لا من باب المجاملة بل من باب الالتزام »

واحتدت المناقشة طويلا ثم اصرت الحكومة على رأيها وأصر المجلس

على رأيه ، وغاية ما سمح به ان تنتظر الحكومة الفرصة التي تسنح عند إعادة القانون في مجلس الشيوخ اذا اعاده الى مجلس النواب ، او تتقدم الى مجلس النواب بقانون اجتماعات جديد ، اما الالغاء فلا رجوع فيه

وعرض القانون على مجلس الشيوخ فعدل بعض أحكامه ولا سيما في العقوبات ، وعلم وكيل الداخلية أن الحكومة ستنهزم في المناقشة فاستنجد بوزير الداخلية محمد توفيق نسيم باشا ، ووجد هذا أن لا قبل له بصد التيار فأرسل في طلب سعد باشا ، ودارت المناقشة بعد حضوره كأشد ماتكون بين خصمين متناجرين ، ثم سأل رئيس المجلس : ماهو رأى الحكومة النهائي في هذه التعديلات ؟

فقال سعد باشا : إن الحكومة لا تزال عند رأيها وأخذت الأصوات فاذا المجلس يؤيد التعديلات ويخذل الحكومة ، ولم يكن سعد يتوقع هذا ولكنه اغتبط به بعد ذهاب سورة المناقشة وحده الله « أن في مصر نواباً وشيوخاً لا يقولون نعم نعم ولا لا كلما قالها الحاكم أو الزعيم »

هذه الصعوبات البرلمانية كانت تتعب الوزارة في بعض الأحيان ، فاصطلحت فيها الوزارة والبرلمان على حد سواء بين الفريقين : فأما المسائل التي يتأزم بها مركز الوزارة والبرلمان معاً فقد كان سعد يعتصم فيها بالثقة وكان البرلمان يجاريه فيها لأنه يعلم أن ليس وراء قدرة الوزارة فيها قدرة قصرت في استخدامها . كذلك حدث في مسألة خطبة العرش وتفسير الأمانى القومية ، وكذلك حدث في مسألة الجزية التركية التي رأى سعد أن يبطل التزام مصر بها ويودعها في الوقت نفسه احد المصارف انتظاراً للفصل فيها محافظة على سمعة البلاد المالية ، ورأى المجلس غير ذلك ثم تاب إلى رأى سعد في ختام المناقشة ، وان لم يعرض سعد مسألة الثقة في هذه الجلسة .

وأما المسائل الأخرى فقد كان موقف سعد فيها كموقفه في قانون

الاجتماعات يدلى برأيه ويصغى إلى رأى النواب والشيوخ، ويعمل بما يقرون

وبعد هذه الشواغل جميعها لا عجب اذا كان وقت الوزارة لم يتسع لانجاز اعمال الاصلاح التى كانت فى نيتها وفى مقدورها . وهى لم تلبث فى الحكم الا تسعة شهور تحسب منها أيام البطالة وایام السفر وایام الاستشفاء والعلاج . فحسبها مع هذا جميعه انها استطاعت ان تحقق معنى الحكومة الأول وهو اطلاق الحرية للمحكومين فى أوسع الحدود . فقد كان المصرى يستمتع فى عهد الوزارة السعدية بحرية واسعة لا يستمتع الانجليزى ولا الفرنسى بأوسع منها ، وكان الانصار والمعارضون فى هذه الحرية على حد سواء . فمن قرأ ما كانت تكتبه صحف المعارضين عن سعد وآل سعد ووزارة سعد علم ان الحرية المنشودة لا تتسع فى بلد فى البلدان لا كبر من هذه الحقوق فى النقد والمعارضة ، بل فى المهاجمة والتجريح

واستطاعت الوزارة السعدية أن تشرع فى إصلاح ميناء السويس وفى مد السكك الحديد بالوجه البحرى والتمهيد لتوسيعها بين الأقصر وأسوان وفى إنشاء الطرق الهامة بالقاهرة كطريق الأزهر وطريق الأمير فاروق وما شابه ذلك من أعمال العمران ، وان تشرع فى تعميم التعليم الاجبارى حسبما تنهيا له موارد الدولة ، ولم تحجم عن تشييد الجامعة المصرية إلا لأنها كانت تفهم من معنى الجامعة ان تجعلها شيئاً غير اجتماع المدارس العليا فى صعيد واحد ، كما قال سعد فى حديثه مع كاتب هذه السطور عند ما كان ناظراً للمعارف العمومية ، أو كما قال وهو رئيس للوزارة « إن الذى أفهمه أن الجامعة — بمعنى اجتماع المدارس العليا — موجودة الآن وهى وزارة المعارف ! » وهو يعنى أن الجامعة التى يريد انشاؤها — وقد وضع حجرها الأول يوم كان قاضياً بمحكمة الاستئناف — هى الجامعة التى تعلم الطلاب

الاستقلال بالبحث والتوسع في الاختصاص ، ولا تكتفى بالبرامج المدهودة في
المدارس العالية قبل إنشائها

ترى ماذا كان شعور سعد بسلطان الحكم الذي جلب عليه جميع هذه
المتاعب وحمله جميع هذه الأعباء وأحاطه بجميع هذه الدسائس والنكبات ؟
أسرور ؟ نعم لاشك أنه تقبل سلطان الحكم في بادىء الأمر بشيء غير قليل
من السرور والرجاء . ولكنه سرور غير سرور الضعيف المزهو بمرتبة رفعة
أو ارتفع هو لها بين سائلها والمتطلعين اليها ، وإنما هو سرور الانتصار على
الذين حسبوا أنهم حائلون بينه وبين هذا المكان عنوة وقهراً فإذا هو يدركه
بحوله وقدرته ولا يحتاج فيه إلى شفاعة شافع أو معونة معين . فهو شعور
الظافر في الميدان والراجح في الرهان ، لاشعور الكسب أو المتعة بالعطاء ؛
ولكنه سرعان ما فقد حتى هذا السرور قبل أن يستقيل بيضعة أيام ،
ففي الليلة التي استرد فيها استقلاله كنت أتناول العشاء على مائدته مع بعض
المدعوين ، وكانت الطرقات حول « بيت الأمة » تموج بالهاتفين والمهتئين ،
وهو في موقف خلق أن يحسبه انتصاراً على الخصوم ونجاحاً فيما طلب وفاتحة
لعهد جديد . فتحولنا بالحديث الى الحكم ومتاعب الحكام الدستوريين
والمستبدين على السواء فقال رحمه الله وهو يزم شفتيه في امتعاض
وأسف : إن أردتم الحقيقة ... أنا غير ملذوذ ؛ « وهكذا حوافز
الحياة : أقوى ما فيها من عزاء للأقوياء العاملين انهم قادرون على التهوض بها
وقادرون على احتمال صدماتها وعقاييلها ، ولولا ذلك لما تابروا على رجائها
ولا تابروا على عنائها والعودة اليها ، اما سرورها فهباء لا فرق فيه بين الأقوياء
العاملين والضعفاء الخاملين

الملك فؤاد وسعد

كان ميدان السياسة المصرية من لدن استقالة سعد الى عودة الحياة النيابية بعد أكثر من عام ميدان الملك احمد فؤاد وحده ، يعمل برأيه في توجيه السياسة العليا وتدير المسائل العامة دون مشارك من أحد ، إلا ما اقتضى تدخلا في بعض المسائل من ناحية الانجليز

والملك فؤاد أقوى شخصية ملكية ظهرت على عرش مصر بعد جده محمد علي الكبير . واسع الاطلاع عظيم الخبرة نافذ التفكير في شئون السياسة ، تولى الملك وهو في أوائل الشيخوخة فقطى ست سنوات أو سبعا لا تبدو منه حركة ولا يشعر الناس له بسيطرة في الحكومة أو في الحياة الشعبية ، فأخطأ الكثيرون فهم هذا السكوت أو هذا الانتظار وحسبوه ضعفاً ونمولا وقناعة بما وصل اليه من الملك بعد أن كان الوصول اليه في رأيه ورأى الآخرين حلماً من الأحلام

لكنه في الحقيقة لم يكن ضعفاً ولا نمولا وإنما كان تديراً مقدراً وتأهباً مدخراً الى حين ، لأن السنوات الست أو السبع الأولى من حكمه كانت بين حرب عظمى يترقب نهايتها إلى أى حال تصير ، وبين صراع قائم على القضية المصرية لا تؤمن فيه عاقبة المصادمة مع هذا الفريق أو ذاك ، قبل أن تنجلي الغاشية وتطمئن الأمور

فلبث الملك احمد فؤاد يترقب ويتأهب في هذه السنوات ، وطفق يجمع المعلومات ويستميل الأنصار في فترة سكونه الطويل ، فلم تنقض تلك السنوات حتى كان قد أحاط بكل كبيرة وصغيرة من دخائل الكبراء والسراة ورؤساء الحكومة ، وعرف من أين يستمالون ومن أين يرجون ويخافون ، وعرف

من هو صالح منهم للاستعانة به وفي أى مناسبة من المناسبات تجدى معونته وتستجاب الإشارة اليه ، فلما أعلن الاستقلال وجاء دور الدستور ، أصبحت هناك « سلطة » يريدان من وراء ذلك الصراع الذى لم يجهر بالاشتراك فيه ، وأصبح كامل الأبهة لاغتنام تلك السلطة بما جمع من معلومات واستمال من أنصار ، فقلب الوزارة الثروتية بتلك الضربة الماضية وهى تهم بإنشاء الحياة النيابية وتحفز للقبض على ناصية السياسة المصرية بتعديل الدستور وتقريب الكثرة وتوجيه الانتخابات الى حيث يريد . فحال بينه وبين ذلك أن الكثرة لم تستدرج على حسب المرام ، وإن الانجليز لم ينسوا له الاقدام على اسقاط الوزارة الثروتية وهى وزارة التصريح وما يرتبط به من مجرى السياسة المقبلة الى تمام الغرض المقصود . فعجلوا بأزمة الوزارة النسيجية وأفهموه جيداً أنهم لا يريدون له السلطة المطلقة ولا يزالون يستمسكون بقيود الدستور ، كراهة منهم للمزاحمة فى النفوذ لا حباً للشعب المصرى وحقوقه ، وأملا منهم فى أن يجحدوا من البرلمان قوة يقابلون بها قوة العرش عند الضرورة ، ومن العرش قوة يقابلون بها قوة البرلمان . فعاد الى سكونه الأول يترقب الفرصة الى أن تحين

والآن قد حانت الفرصة واستقال سعد وهو الرجل الوحيد الذى يحول بينه وبين الانفراد بسلطان الدستور ، واتفقت رغبته ورغبة الدولة البريطانية ورغبة اللورد اللبى فى صد هذه القوة الكبيرة التى تشق طريقها بارادتها ولا تنتظر الأقوياء حتى يشقوا لها الطريق لتمضى فيه مضى الاتباع ، فقبض الملك فؤاد بيديه على أعنة السياسة المصرية ووطن العزم على الاستئثار بسلطان الحكومة ، وتحقيق الغاية التى تأهب لها منذ سنوات

ولكن ما العمل فى الدستور ؟ إن الشعب يقدس —هــ ، ولم ير له سيئات تسوّل له الزهد فيه ، وإن الانجليز يأبون الغاءه ولا يسمحون للملك بالسلطان المطلق فى الحكومة . فما العمل إذن فى هذا الدستور ؟ وما العمل مع بقائه فى البرلمان والوزارة المسئولة أمام الشيوخ والنواب ؟

يبقى الدستور حتى لا يتذمر الشعب ولا يتنمر الانجليز ، ويكون النواب والشيوخ من أتباع الحاشية المختارين ، ومن أجل ذلك ينشأ في البلاد حزب اسمه حزب الاتحاد ، يدخل فيه كل من يريد الخطوة والجاه ويخشى الغضب والاعراض

ولم حزب الاتحاد ؟ لم يسمى بهذا الاسم دون سائر الأسماء ؟ نعم . لأن « الاتحاد » يجمع الأحزاب والهيئات المتفرقات ، فالمقصود إذن أن تفي في حزب الاتحاد جميع الأحزاب المصرية ، ولا يعود في البرلمان بعد فترة قصيرة أو طويلة نواب أو شيوخ من غير الاتحاديين المقربين ، ولا بأس في هذه الحالة بأن يدوم الدستور وأن تتسع حقوق مجلس الوزراء ويتقرر نظام التبعية الوزارية أمام البرلمان .

وأخذ حسن نشأت باشا وكيل الديوان الملكي يعمل مع الوزارة الجديدة ، على هذه الوثيرة . فلم تض أسابيع حتى اضطرت عشرات من النواب والشيوخ المقيدين بمصالح الحكومة الى اعتزال الوفد توطئة لدخول الحزب الجديد لأنهم كما كانوا يقولون يخلصون للعرش ويتهمون اخلاص سعد للسدة الملكية ، وانهاالت على الوفد دعاية التنفير والتشهير بكل مافي وسع الصحافة والخطابة والصنائع والاتباع

وكان أناس يتساءلون فيم كل هذه الكراهية لسعد زغلول وهو صاحب اليد التي لا تنكر في تحسين مركز البلاد ومركز العرش كائناً ما كان مدى ذلك التحسين ؟ وفيم كل هذه الكراهية وهو أول رجل عود الجماهير أن تهتف باسم الملك فؤاد ؟

لا يقول الانصار طبعاً إن هذا الرجل مكروه لأنه يمثل قوة الدستور ، ولكنهم يقولون تارة إنه طامع في الجمهورية ، وتارة أخرى إنه على صلة بالخديو عباس ، إلى أشباه ذلك من الأسباب

فأما إن سعداً كان طامعاً في الجمهورية ، فذلك ما لم يظهر منه بكلام ولا

أيحاء إلى أحد من المصريين أو الانجليز ، ثم لماذا يكون طمع سعد في الجمهورية مسوغاً للحكم بغير دستور والعمل لتحقيق ذلك منذ زمن طويل في حياة سعد وبعد ثمانه بسنوات ؟

وأما إن سعدا كان على صلة بالخديو السابق ، فالعلاقة بين الرجلين لا تسمح بهذا الفرض ولو من باب التخمين ، وما مصلحة سعد في تحويل الملك من فؤاد الى عباس وهو تحويل لا هوى له ولا فائدة فيه ؟ لقد عرض عليه الاتصال بالخديو السابق مرات ، فكان جوابه ما يعمله أعضاء الوفد والوسطاء والمطلعون ممن لا يزالون على قيد الحياة

ولسنا نعتمد هنا على النفي القاطع الذى سمعناه من سعد وحسب وفيه الكفاية كل الكفاية ، ولكننا نعتمد على لسان الحال الذى هو كما قيل أصدق من لسان المقال .

فكثيراً ما كنا نشاهد الاستغراب من سعد كلما سمع نبأ من أنباء الكراهية التى تنصب عليه وعلى أتباعه ، ومن ذلك أنه قال يوماً وقد بدا عليه الاستغراب الشديد : لعل مولانا يكرهنى بالتوكيل لا بالاصالة ! وهو يعنى بذلك أن الكراهية الأصلية إنما هى من حق الانجليز والانسان لا يستغرب هذا الاستغراب أن يعنى بالكراهية إذا كان قد أسلف من الاساءة ما يستحق العداء والبغضاء.

على أن سعداً لم يكن منفرداً بالكراهية والغضب عند الملك فؤاد ولكنه كان صاحب النصيب الأوفى منه على قدر نصيبه من تمثيل قوة الدستور ، ولكل رجل غيره من رجال السياسة المصرية الذين يوافقون سياسة الملك فؤاد نصيب على قدره من الجفاء والاعراض ، فعلى ورشدى وثروت ومحمد محمود وزكى أبو السعود وغيرهم من الوزراء والكبراء لم يكونوا محبوبين ولا مقربين فى كثير من الأحيان ، لأنهم ليسوا من الرجال الذين يعتمد عليهم فى توجيه الدستور وتحريك دواليب الحكومة الى حيث يريد

والحق أن رجلين قويين عنيدين كنفؤاد وسعد ما كان من الميسور أن يعيشا في عصر واحد ويحتمعا في ميدان واحد دون أن ينشب بينهما النزاع على نحو من الأنحاء ، ولو جاء فؤاد الى الملك بعد توطيد الدستور لكان من الجائز أن يحتمل الزعماء الأقوياء والوزراء المقتدرين العاملين معه في نطاق الحكومة النيابية . ولكنه جاء قبل استقرار الدستور بل قبل إنشائه فكان من العسير عليه النزول عن سلطانه ، وهو ما هو من دراية وكفاءة واعتداد بالذات بالنفس واستعلام على من لا يساوونه — في رأيه — في حق القدرة أو حق السلطان روى أميل لدفع في كتابه عن أحاديث موسليني انه قال للملك فؤاد مرة إن الدكتاتورين يخافون . أما الملوك فيحبون

فأسرع الملك فؤاد قائلا : لكم وددت أن أكون الدكتاتور !

وحدثني أميل لدفع حين لقيته في القاهرة بعد لقائه للملك فؤاد ، فسألني ما رأيك فيمن يغلب غداً على مسرح السياسة المصرية ؟ قلت المستقبل للحرية بعد عراك طويل . قال : أرجو أن يكون ذلك ، وما أظن لكم خيراً عند هندرسون . أما الملك فؤاد فهو بحكم تربيته وماضيه لا يستريح إلى قيود الدستور وقيل إن شعار الملك فؤاد كان كلمة « الصبر » يضعها أمامه في اطار جميل مكتوبة وحدها بغير تعقيب ولا زيادة

وانها في الواقع لعنوان طبيعته كلها ، وأن أول معانيها هو الصبر على من يكره وما يكره وعلاجهم بالمجاملة والمداراة مع الدأب ، وانتهاز الفرص والعرفان بمواضع التجارب والمحاولات ومواقع الاقدام والاحجام

ونحن إذ نعرف ما عنده من القدرة والعزيمة ، والرغبة في الحكم ، والصبر على تحقيق الغاية لانتحاج الى مشقة كبيرة في تعليل الجفاء الذي كان بينه وبين سعد زغلول

لم يكن طموح فؤاد مقصوراً على ميدان السياسة المصرية في حدودها الداخلية ، بل كان يطمح الى إنشاء دولة كبرى تمتد الى الاقطار العربية ويحمل وهو على عرشها لقب الخلافة الاسلامية ، ويعتقد أن الانجليز لا ينفرون من قيام الخلافة في دولة كالدولة المصرية . لأنهم يحالفونها وتحالفهم على سياسة شرقية فيها النفع والمبادلة الصالحة للفريقين

ولو طال عمره لمضى في تحقيق هذا الأمل الى شوط بعيد ، ولعله كان يطمح أول الامر في الجلاء بعض الممالك العربية التي تستمد العون من أموال مصر وخيراتها الى مبايعته بالخلافة والاعتراف له بها قبل الآخرين ، ويأتي بعدهم من الممالك من تقنعه الدولة البريطانية باتباع هذا السبيل

لهذه المطامح كلها جمع المال واستكثر منه وبلغت ثروته بضعة عشر مليوناً من الجنيهات ، وقلما يعنى هذه العناية بجمع المال من خلا ذهنه من طموح بعيد إلا أن الحساب الذي كان يختل أبداً في ميزان الملك فؤاد الدقيق انما هو حساب العاطفة وما لها من الأثر القهار في أطوار الجماعات والأفراد ، فلو كانت العلاقات السياسية والدوافع الشعبية قائمة كلها على العقول والمصالح والمساومات لما اختل حساب الملك فؤاد قيد شعرة في جليل ولا دقيق من الأمور ، ولكن العقول والمصالح والمساومات ليست كل شيء في كل ما يجري على مسرح السياسة وإن كان شاغله من الشيوخ المحنكين والعقلاء المدربين . . . ولهذا طرأ الاختلاف على بعض التقديرات التي عول عليها الملك فؤاداً كبير تعويل وكانما كان الملك الراحل طياراً ماهراً يحسب حساب الآلات والوقت والمسافة أدق حساب ، ولكنه لا يعطى عوارض الأجواء حقها من الحسبان والاهتمام ، فتقف به الطيارة دون الغاية كلما تغيرت الأجواء والأهواء

كان أناس يزعمون أن الملك فؤاداً كان يمضى مع نفوذ هذا ، ويتأثر بدسياسة ذاك ، وهم فيما زعموا مخطئون جد مخطئين ، لأن هؤلاء الذين كانوا يذكرونهم بأسمائهم لم يكونوا مع الملك فؤاد إلا كالتلاميذ المقتدين الذين يتدربون على يديه ويستفيدون من ارشاده ، وأقصى ما يذهبون اليه أن يفهموا

بعض المرامي البعيدة التي كان يرمى اليها الأستاذ الكبير ، وإن ما يحيط به هو في يوم واحد لا يحيطون به هم في سنين

والفضل في هذه القدرة العقلية البالغة هو قبل كل شيء فضل الملك المطبوعة والفطرة الموروثة ، ثم يضاف اليها تعليم جيد ودراسة واسعة وتجربة سياسية وافية ، تارة في مصر وتارة في تركيا وتارة في ايطاليا والنمسا ، وهي تجربة شملت البيئات الشعبية كما شملت بيئات الملك والامارة ، وانتفعت بمعارف العسكريين كما انتفعت بمعارف الوزراء

وقد جاء وقت كان سعد يعتقد فيه أنه كسب المودة من قلب فؤاد وازال ما بنفسه من الموجدة عليه ، وذلك في الأسابيع القليلة بعد قيامه في الوزارة . وكان يغتبط بطول الجلسات التي يقضيها في الحديث معه بقصر عابدين ، وأخرج الساعة مرة وهو عائد من هناك فقال : لقد طال الحديث خمسين دقيقة !

في تلك الأيام كان الملك فؤاد ينزل من قصر القبة خصيصاً إلى قصر عابدين لئلا يجشم سعدا مشقة الصعود بقدميه حيث لا مصعد هناك ، وأمر بإنشاء مصعد في القصر لتخفيف هذه المشقة عليه . ثم عاد سعد بعد تلك الأيام يقول : « لقد طرأني الرجل ! وأنه لتقدير »

ومن الصعب أن نحكم على طبيعة العلاقات بين الملك فؤاد وسعد من النظر إلى المواقف الرسمية أو المواقف الشخصية على انفراد . فانهما ليتناقضان أشد التناقض في الآونة الواحدة ، فيبلغ من وثام المواقف الرسمية أن يقول الملك فؤاد في رسالته البرقية إلى سعد عقب الاعتداء عليه : « ان صحتك أعز شيء في الدولة » ويبلغ من جفاء المواقف الشخصية أن يشاع أن الملك فؤادا أمر بوقف التشريفات في العيد بعد حادث الاعتداء إذا عاش سعد . وأمر بإجرائها حسب المعتاد إذا مات

وأوجز ما يقال أن العلاقات بينهما على السواء في أيام المقاطعة وأيام الجمالة كانت علاقات ضرورة لا اختيار فيها لواحد من الاثنين

من رئاسة الوزراء

إلى رئاسة النواب

فكر سعد في بقاء الدستور بعد ذهاب الوزارة فأعلن في خطابه الذي ألقاه على النواب تبليغا للمجلس باستقالة الوزارة : « أنه مستعد مع أصدقائه الكرام من أعضاء هذا المجلس لأن يؤيدوا كل وزارة تشغل لمصلحة البلاد »

وأعلن مثل ذلك في ندائه إلى الأمة باعتباره رئيسا للوفد ، وفي خطاب ألقاه على الجموع الذين وفدوا إلى بيت الأمة بعد استقالته حيث قال : « أتى مستعد لتأييد كل وزارة تأتي وتكون حائزة للرضاء العام ، عاملة على تحقيق أمانى البلاد ، فان الموقف دقيق جدا وأنا واثق من أنى وأنا خارج الوزارة سأستطيع خدمة البلاد أكثر ألف مرة مما لو كنت داخلها . وتأكدوا أن الله معنا ، ولا بد أن تفوز الأمة في النهاية إن شاء الله »

ولكن الغرض الأكبر في تلك الأيام لم يكن هو الخلاص من حادث السردار بوسيلة من الوسائل المرضية ، بل هو استغلال ذلك الحادث لتحطيم سعد ومن يواليه ، ولا سبيل إلى هذا التحطيم مع بقاء البرلمان وسريان أحكام الدستور

وقد احتج البرلمان بمجلسيه إلى عصبة الأمم على استغلال الحكومة البريطانية لحادث السردار في اهتضام السودان وتمزيق الاستقلال المصرى ، فلم يجد هذا الاحتجاج صدى له بين أعضاء العصبة الامندوبى إيران والسويد وارجواى الأمريكية ، وتعلل مندوبو الدول الكبرى بان الاحتجاج لم يعرض على العصبة من قبل حكومة قائمة ، لأن الوزارة السعدية كانت قد استقالت

والوزارة الزبورية التى تلتها لا تحب أن تحتج على شىء من مطالب الانجليز ، ولا ترى للمسألة حلاً مستطاعاً عندها الا الاذعان لما طلبوه

واذعنت الوزارة الزبورية فعلاً لجميع المطالب البريطانية ، وأرسلت من مصر رسولا إلى الضباط المصريين فى السودان تأمرهم بالجلأ والعودة إلى بلادهم ، لأنهم كانوا قد امتنعوا عن العودة وتسليم السلاح حين بلغهم نائب الحاكم العام أمره باسم الحكومة البريطانية ، وردوا عليه بأنهم لا يطيعون غير ملك مصر وأوامر حكومتها ، فجاءهم هذا الأمر من الوزارة مع رسول فى طيارة بريطانية ، فأطاعوا راغمين وتمسكوا بالعودة حاملين السلاح والأعلام ، غير مخفوريين بالجنود الانجليزية فى طريقهم إلى الحدود وقد ترك زيور باشا رئيس الوزارة كل شىء للانجليز من جانب ولحسن نشأت باشا وكيل القصر الملكى من جانب ولاسما عيل صدق باشا وزير الداخلية فيما بقى له من شئون الوزارة ، فلا رأى له ولا برنامج ولا إرادة ، وسلمت الوزارة للانجليز فى مسألة جنجوب بالصحراء الغربية ومسألة نهر الجاش فى السودان ، وهما الهديتان اللتان ساومت عليهما بريطانيا العظمى صديقتها إيطاليا على حساب الحقوق المصرية والسودانية ، وسلمت على الاجمال فى كل ما أراده الانجليز واستباحوا به نصوص الدستور والقانون التى لا تقبل التأويل ، ومنها القبض على النواب وهم فى كنف الحصانة البرلمانية قبل أن يعرض الأمر على مجلس النواب ، وجعلت شكوى النواب من عدوانها على الدستور والقانون وتفريطها فى حقوق البلاد ذريعة إلى حل المجلس وتعطيل البرلمان قبل أن تتقدم اليه

ولم تعارض فى مطلب من المطالب الانجليزية إلا التوسع فى زراعة القطن بالسودان ، لأنه المطلب الذى فضح المناورة الاستعمارية وأحست الحكومة البريطانية أن اللورد اللبى أخطأ خطأ فاحشاً فى تضمينه اذاره النهائى إلى سعد زغلول ، وكان له دخل كبير فى اقالة اللورد اللبى بعد ذاك بشهور ،

فاهتمت بمداراته واصلاحه وأوعزت إلى أحمد زيور باشا بالمراجعة فيه ،
ولولا ذلك لما تحرك هو لمراجعة أو استدراك ، لأنه رجل أشهر ما اشتهر
به قلة الاكثرات وفلسفة المعيشة الرخية وعلى الدنيا بعد ذلك السلام . فما
كلف نفسه قط قراءة الصحف المعارضة أو الموالية ، وأعجب من ذلك أنه
لم يكلف نفسه قراءة الدستور . . . فاذا عرضت عليه حملة في إحدى الصحف
على الوزارة قال : اغلقوها : اغلقوها . ونسى أن الدستور يمنع اغلاق
الصحف بالوسائل الادارية ، وأن اغلاقها بهذه الوسائل مما تضيق عنه دائرة
الاحتياط على النصوص ويعرض الحكومة للبطالة بالتعويضات ، وكلما
كرروا له التنبيه كرر هو النسيان !

ولم يكتمل لوزارته في الحكم شهران حتى كان « حزب الاتحاد » قد
ظهر في عالم الوجود وظهرت له صحيفة عربية وصحيفة فرنسية بأموال ليست
من أمواله على كل حال . وأصبح معيار الترقية عند عمال الادارة عند
الأعضاء الذين ينضمون على أيديهم إلى حزب الاتحاد وينفضون من الهيئة
الوفدية ، وأيسح لهم في ذلك كل ما يباح ، وتمادى بعضهم في حرب الدعاية
لهذا الحزب ولغيره تمادياً يزرى بشرف الانسان فضلاً عن شرف الموظف
الأمين ، ومن أمثلة ما استباحوه في اضطهاد الوفديين فظائع الدقهلية التي
عرفت بفظائع اخطاب وضجت منها أرجاء البلاد وألهبت في صدور المصريين
كافة ذحولا لا ينطفئ لها أوار ولا يرجى معها فلاح للحكومة من الحكومات ،
وصدر فيها حكم القضاء على ملاحظ البوليس بالسجن خمس سنوات جزاء
له على ما ثبت من جناياته وهو أيسر ما اتهم به ونسب اليه ، ومنه اجهاض
الحوامل وقص شوارب الفلاحين بمقصات الحير ، واكراههم على التسمي
بأسماء النساء ، واهراق الماء على الأرض وتمريغ أنفسهم بأنفسهم في الوحل
الذي صنعوه .

أما الانتخابات فقد كان الواجب أن تتم في ميعاد لا يتجاوز الشهرين
على حسب نص الدستور ، وأن ينعقد المجلس الجديد في خلال الأيام العشرة

التالية ليوم الانتخاب ، ولكن الوزارة عملت بتعديل قانون الانتخاب وتنقيح الجداول للمطابقة في هذه المدة ، فلم تحصل الانتخابات إلا في اليوم الثاني عشر من شهر مارس ولم ينعقد المجلس إلا في الثالث والعشرين منه ، ويكفي لبيان الأساليب التي جرت عليها الانتخابات أن يعرف أن سعد زغلول أخفق في الانتخابات الثلاثية ولم يظفر بخمسة عشر صوتاً يجعله مندوباً ثلاثينياً في الحى الذى هو فيه ! وعلى هذه الطريقة جرت الوزارة في تقسيم الدوائر حسبها يروق مرشحها وكتابة أسماء الناخبين وحذفها كما يلى أولئك المرشحون ، واقامة الحراس في الطرقات ليصدوا أناساً عن الصناديق ويدفعوا اليها بأناس آخرين ، وبعد هذا كله ظهرت النتيجة فإذا بسعد قد فاز بمائة وأحد عشر صوتاً في اليوم الأول ولا تزال في الدوائر بقية لم تظهر لها نتيجة . ثم أدب النواب السعديون مآذبة لزعيمهم في فندق سميراميس فحضرها مائة وثلاثة عشر نائباً واعتذر ثلاثة بمرضهم مع تأييدهم للزعيم ، وفي هؤلاء وحدهم الكثرة اللازمة لاسقاط الوزارة المهزومة .

إلا أن الوزارة زعمت أنها هي الفائزة بالكثرة المطلقة وحسبت من أصواتها أصوات جميع الأحزاب الأخرى وهي حزب الأحرار الدستوريين وحزب الاتحاد والحزب الوطنى مضافاً اليهم المستقلون وهم بطبيعة الحال لا يرجحون فريقاً على فريق إلا بعد اجتماع البرلمان والاقتراع على الثقة ، وهذه الدعوى استقالت الوزارة لتتألف مرة أخرى من جميع الأحزاب وفاقالما ظهر لها من نتيجة الانتخاب ، وقال زيور باشا في خطابه إلى جلالة الملك : « لما كان البرلمان قد أوشك أن ينعقد فإن الوزارة ستعلن خططها السياسية عند تقديمها إليه . وانى أنشرف بأن أعرض على سدتكم أسماء حضرات الوزراء الذين قبلوا معاوتى في هذه المهمة محتفظاً لنفسى بمنصب وزارة الخارجية ، وهم يحيى ابراهيم باشا لوزارة المالية واسماعيل صدقي باشا لوزارة الداخلية وموسى فؤاد باشا لوزارة الحربية ، وعبد العزيز فهمى بك لوزارة الحقانية وتوفيق

دوس بك لوزارة الزراعة ، واسماعيل سرى باشا لوزارة الأشغال العمومية
ويوسف قطاوى باشا لوزارة المواصلات وعلى ماهر بك لوزارة المعارف
العمومية ومحمد على بك لوزارة الأوقاف »

ومن هؤلاء الوزراء أربعة من الأحرار الدستوريين ، وأربعة من
الاتحاديين والبقية من المستقلين ، واحتفظ زيور باشا لنفسه بوزارة الخارجية
خلافًا للعرف الذى اطرد بالجمع بين رئاسة الوزارة ووزارة الداخلية ، ودليلاً
على أن وزير الداخلية لا يزال فى هذه الوزارة منوطاً بمهمة خاصة فى
الإشراف على الانتخابات ، وتسخير الإدارة فى ضم الأنصار وتشيت
الخصوم ، لا يضطلع بها كل وزير ولا يضطلع بها زيور باشا من باب أولى
وألحت الوزارة فى دعواها إلى أن كان يوم انعقاد البرلمان وانتخاب
رئيس مجلس النواب ، فلم يظفر مرشح الحكومة عبد الخالق ثروت باشا
بأكثر من خمسة وثمانين صوتاً وبلغت أصوات سعد مائة وثلاثة وعشرين
صوتاً عدا صوته ، لأنه انصرف قبل الاقتراع لانتخاب الرئيس

وتأجلت الجلسة إلى المساء لاتمام انتخاب المكتب والوزارة فى هذه
الأيام تعد المرسوم بحل مجلس النواب ، للسبب الأول الذى حلته من
أجله فى السنة الماضية وهو الإصرار على تلك السياسة التى كانت سبباً لتلك
النكبات التى لم تنته البلاد من معالجتها . . . وهو مناقض لنص الدستور
الذى يحرم حله مرتين بسبب واحد .

وجاء المساء فدخل زيور باشا ومعه ثلة من الجنود وقرأ المرسوم
وانصرف ، وكان يلتفت قبل تلاوته إلى منصة الرئاسة ليرى سعداً عليها وينعم
هو وشركاؤه بما رتبوه من رؤيته نازلاً من المنصة بعد انتصار الصباح ،
ولكنه كان قد سمع بالناورة قبل إنجازها بيضع دقائق فترك المنصة إلى حجرة
الرئاسة ولم يعد إلا فى أثناء تلاوة المرسوم

غاية ما يقال فى تلخيص الحرب الانتخابية فى هذه المرة أنها كانت حرباً

بين من استفادوا بحادثة السردار ، ومن أصيبوا بهذه الحادثة ومنهم الأمة بحذافيرها ، فلا جرم أن تكون الأمة في الجانب الذي ينبغي أن تكون فيه ولا يعقل أن تنحاز إلى غيره . ومن خطأ اللورد اللنبى وحلفائه أنهم قدروا للانتخابات المصرية ما لا غير هذا المآل

ويظهر أن إقالة اللورد اللنبى عقب الخطأ الفاحش الذى ارتكبه في الانذار النهائى كانت أمراً مبتوتاً فيه منذ أوائل العام ، ولكنهم أجلوه في الوزارة البريطانية ريثما تنجلي المعركة الانتخابية عن مصيرها ، خوفاً على أصدقائه الوزراء المصريين من الفشل والهزيمة من جراء تلك الإقالة أو الاستقالة ، وأملوا في الظفر من وراء الانتخابات بمجالس نيابى يساعده ويتوج سياسة التصريح — تصريح ٢٨ فبراير — بالنجاح . ولكن الانتخابات أسفرت عن خيبة جديدة وتقويض لسياسة الرجل لا أمل بعده في الترميم والتلفيق . فعادت الصحف الانجليزية تتحدث باستقالاته وهوينفياها في القاهرة ويوعز إلى الصحف الاحتمالية بتكذيبها . وتحققت الاشاعة بعد أسابيع ، فأبلغها اللورد اللنبى إلى جلالة الملك في التاسع عشر من شهر مايو ، وغادر البلاد بعد أيام .

* * *

إن السياسة المصرية — على التخصيص بين السياسات العالمية — لا تتغير لسبب واحد . ولكننا إذا أردنا أن نعرف لها قاعدة واحدة تتكرر في جميع التغيرات الهامة فالأغلب أن الانجليز يشرعون في التغيير كلما انحصر النفوذ في ناحية واحدة سواء أكانت ناحية القصر أم ناحية الأمة . وعلى هذا غيروا سياسة الوفاق بعد ما تبين لهم في عهد السير الدون غورست أن نفوذ الحديوى عباس ينبسط في أنحاء الأمة والحكومة ، وغيروا سياسة الحكم الدستورى بعد ما تبين لهم أنه يقوى سعداً ولا يضعفه كما كانوا يقدررون . وأنشأوا حكومة زيور وهم يظنون أنها حكومة متزنة يتعارض فيها نفوذ القصر

ونفوذ الأحرار الدستوريين . وأن هؤلاء جميعا يسلطون نفوذهم على سعد زغلول . فلا يرجح جانب على جانب من نفوذ الأمة أو نفوذ القصر أو نفوذ الوزارة . . . فسرعان ما ظهر لهم أن تعطيل الدستور قد حصر النفوذ بأيدي القصر وهياً له أن يستبقه بين يديه في غياب الدستور وفي وجود الدستور . وانكشف لهم ما وراء إنشاء حزب الاتحاد من المقاصد والتدبيرات . . . ان الانتخاب الأول بعد استقالة سعد قد اشترك فيه الاتحاديون والدستوريون من جماعة الوزراء . أما الانتخاب الثاني فلن يتسع لحزب غير الاتحاديين لأنهم سيوحدون فيهم جميع الأحزاب !!

وبرزت هذه النية بعد تشكيل الوزارة الزبورية الثانية وانطلاق حسن نشأت باشا وكيل القصر الملكي في السيطرة على دواوين القاهرة وفروع الأقاليم . فكانت أوامره تصدر إلى المأمورين في المراكز مباشرة بغير وساطة الوزير أو المدير ، وكانت أوامر الوزراء تلغى ولا تطاع ، ولم يلبث الاشتراك أن أفضى إلى الاحتكاك بين الأحزاب وبين أشخاص الوزراء ، ثم سنحت الفرصة أخيراً للخلاص من الدستوريين بضربة واحدة ترمى إلى هدفين . فقد ألف الأستاذ على عبدالرزاق — وهو عالم ذنب من أبناء بيوتهم الكبيرة — رسالة في الاسلام وأصول الحكم أدهض بها القول القائل بوجوب الخلافة في الاسلام ، فاهتم الاتحاديون بتجريد هذا العالم من صفة العالمية لأن تجريده يرضى القصر بما يقتص من رجل يعوق مسعاه إلى الخلافة ، ويرضيه من طرف آخر بما يخرج الأحرار الدستوريين ويضطرهم إلى اعتزال الحكومة . فتم هذا التجريد واستقال الوزراء من الأحرار الدستوريين ، واستعد الاتحاديون لخوض معركة الانتخاب منفردين

فلما وصل السير — اللورد جورج لويدي خلف اللورد اللنبى — إلى مصر وصل وله وجهة مرسومة في السياسة المصرية لا يطول فيها التردد والاضطراب . نفوذ القصر يجب أن يقف عند حد محدود . والحياة النيابية

يجب أن تعود ، ولكن هل تعود الحياة النيابية ليعود سعد زغلول إلى نفوذه
الحكومي القديم ؟ كلا . بل تعود الحياة النيابية في برلمان مؤلف من جميع
الأحزاب . فيحول البرلمان دون انفراد القصر بالسلطان ، ويحول الائتلاف
دون انفراد سعد بالوزارة والبرلمان . ولا ينحصر النفوذ في يد واحدة
من أيدي المصريين ...

وفي الوقت الذي كانت فيه السياسة البريطانية تتجه إلى هذا الاتجاه
كانت الأحزاب المصرية تشعر بالخطر الواحد يهددها جميعاً وتعلم أن لا نجاة
لها بغير الائتلاف . فتحدث رجالها في توحيد الصفوف وتزاوروا لتقريب
ما بينهم من شقة الخلاف ، وأزف موعد انعقاد البرلمان بحكم الدستور في
السبت الثالث من شهر نوفمبر ، فعول الأعضاء على الاجتماع مدعوين أو غير
مدعوين ، وأعلنت الوزارة أنها تمنع بالقوة كل اجتماع داخل البرلمان أو في
مكان آخر واحتلت دار النيابة بنحو ألفين من الجنود . ولكن النواب
والشيوخ اجتمعوا في فندق الكنتنتال وباتوا من أجل ذلك في الفندق لسكى
لا يحال بينهم وبين دخوله في الصباح . ومن ظرائف زيور باشا أنه — وهو
يسكن ذلك الفندق — لم يدر بما كان يجري فيه واستغرب هذه الضجة هناك
على خلاف المؤلف ١

وافتتحت الجلسة قبل الظهر فانتخب سعد رئيساً ثم أصدر المجلس
قراراً بالاحتجاج على تصرفات الوزارة وعلى منع الأعضاء من الاجتماع في
دار البرلمان بقوة السلاح ، وباعتبار دور الانعقاد موجوداً قانوناً واستمرار
اجتماعات المجلس في المواعيد والأمكنة التي يتفق عليها الأعضاء ٥

ثم ندب الحاضرون وفداً من حضرات فتح الله بركات باشا ومحمد
محمود باشا وعبد الحميد سعيد أفندي لرفع القرار إلى جلالة الملك وتبليغه
إلى الوزارة .

أما الوزارة فقد كان كل ما وسعها بعد هذا الاجتماع أنها كتبت إلى

مفتش الجيش العام تافته إلى مسلك الضباط والجند الذين أدوا التحية العسكرية لسعد وهو يمر بمجلس النواب في طريقه من بيت الأمة إلى فندق الكنتنتال . !

وقد اجتمع أصحاب السمو الأمراء بعد اجتماع البرلمان واتفقوا على كتابة عريضة إلى جلالة الملك يؤيدون فيها إعادة الحياة النيابية اجابة لقرار الشيوخ والنواب .

وبين هذه المآزق التي لا تعيش معها وزارة في بلد مستقل لم ينقطع رجاء الوزارة الزبورية في التعمير وحكم البلاد بالدستور أو بغير الدستور بل راحت تشرع القوانين لفض الأحزاب وتمحو وثبتت في قانون الانتخاب ، وعندها أنها بخير ما دامت لا تسمع من الانجليز شرا ولا تحس منهم نفورا ، والانجليز لم يسمعوها الشر ولم يشعروها النفور لأنهم كانوا ينتظرون منها الخدمة الأخيرة وهي تسليم جغبوب الى الحكومة الإيطالية ، فسلمتها ووقعت المعاهدة في سادس ديسمبر ، وظنت أنها قد اشترت البقاء من الانجليز بهذا الثمن الفادح ، ولم تدر أنها قد ختمت يديها على كتاب موتها وكتبت وصيتها حين كتبت تلك الوثيقة

ففي اليوم السادس أمضيت المعاهدة وفي اليوم الثامن قابل اللورد جورج لويد جلالة الملك وطلب إلى جلالته اقضاء حسن نشأت باشا عن القصر ، متذرا بما حام حول اسمه من الأقاويل في قضية مقتل السردار ، فأجيب إلى طلبه بعد مانعة قصيرة الأجل ، وأقصى نشأت باشا إلى وظيفة في السلك السياسي لم تكن مما يرتضيه

وقد استمر التحدي والنضال بين الوزارة والأحزاب فاجمعت الأحزاب على تجاهل قوانينها وأضرب العمدة عن تنفيذ قانون الانتخاب وحكم القضاء ببراءتهم حين أحيلوا اليه بتهمة عصيان القوانين ومخالفة الأوامر . وازداد التقارب بين الأحزاب بهذه الوحدة بينها في محاربة الوزارة فكان أقوى مظاهرها

مأدبة النادي السعدي التي أديها سعد للنواب والشيوخ على اختلاف أحزابهم
« ليتم التعارف بينهم ويزول ما يكون في نفوس بعضهم لبعض من نفرة وجفاء
ويحل مكانهما ما تقتضى به روح التسامح من عطف وولاء »

ثم أعلنت الأحزاب في أوائل السنة الجديدة (١٩٢٦) اجتماعها على
مقاطعة الانتخابات على غير القانون الذي تريده ، وخطا الزعماء خطوة أخرى
في سبيل الوفاق فزار معظمهم بيت الأمة ورد لهم سعد الزيارة في بيوتهم ،
واتفقوا على الدعوة إلى مؤتمر وطني يجمع الوزراء السابقين والشيوخ
والنواب ورجال الأحزاب وأعضاء مجالس المديريات والمجالس المحلية وسائر
الجماعات التمثيلية في القطر كله ، ليقنعوا الوزارة باجماع المرشحين على مقاطعة
الانتخابات حسب قانونها الجديد . فعجبت الوزارة قبل انعقاد المؤتمر باجابة
طلب الأحزاب (في ١٨ فبراير) وبلغته إلى المؤتمرين ، وقالت في بلاغها إنه
« توخينا لخطوة الاتفاق التي سلكتها الحكومة الحاضرة في أعمالها على الدوام
وابتغاء التعجيل باجتماع البرلمان قرر مجلس الوزراء في مساء هذا اليوم أن
يعرض مشروع مرسوم على حضرة صاحب الجلالة الملك للتصديق على
إيقاف العمل بقانون الانتخابات الصادر في ١٨ ديسمبر سنة ١٩٢٥ واجراء
الانتخابات على مقتضى القانون نمرة ٤ لسنة ١٩٢٤ »

أما المؤتمر الوطني فقد التأم في اليوم التالي بمنزل محمد محمود باشا، وجلس
سعد على منصة الخطابة وعلى يمينه عدلي وعلى يساره ثروت . ثم تكلم في الحالة
العامة فليخصها تلخيصا سريعا منذ استقالت وزارته إلى قبول الوزارة الزبورية
قانون الانتخاب المباشر الذي يرضاه الوفديون ولا يرضاه الأحزاب الأخرى...
وأشار إلى أن الوزارة عجبت بقبوله لتوقع الشقاق بين الأحزاب قبل انعقاد
المؤتمر ، فقال في ختام خطابه ليقضى على رجائها هذا : « اذاعوا بأن الانتخاب
على أساس ذلك القانون أريد به إيقاع الشقاق بين الأحزاب المؤتلفة لتتحل

رابطتهم وتنقسم وحدتهم ، ولكنهم واهمون في زعمهم لأن الاتحاد متين بين هذه الأحزاب »

ثم دارت مناقشة طويلة في دخول الانتخابات أو عدم دخولها اعتماداً على أن المجلس القديم قائم والحل باطل ، فاتفق الحاضرون على دخولها ما عدا أربعة ، وتلى عليهم اقتراح فخواه المطالبة بإقامة وزارة موثوق بها للإشراف عليها . ثم انفضت جلسة المؤتمر بعد تأليف لجنة من الأحزاب المختلفة لانفاذ القرارات وبحث المقترحات

على أن الوزارة لم تستقل ولم يصر المؤتمر على استقالتها لعلمهم بعجزها عن مقاومة الأحزاب المؤتلفة في المعركة الانتخابية ، واكتفوا باستعجال يوم الانتخاب فصدر المرسوم بدعوة الناخبين في اليوم الثاني والعشرين من شهر مايو لانتخاب أعضاء مجلس النواب ... وليس في المرسوم موعداً لانعقاد البرلمان ١

وكانت الأحزاب قد تفاهمت مع الوفد المصري على الدوائر التي يتركها لها ولا يرشح فيها أحداً من أنصاره . فلما كان يوم الانتخاب أسفرت النتيجة عن انتخاب مائة وخمسة وستين وفدياً وتسعة وعشرين حرادستورياً وخمسة من الحزب الوطني وستة من المستقلين وخمسة من الاتحاديين الخ

على هذا وجب أن يدعى سعد باشا لتأليف الوزارة الدستورية . ولكن الوزارة الزبورية لم تستقل ، وهي لم تعلن من قبل ذلك موعداً لانعقاد البرلمان ... فهل قصدت اغفاله لأنه كان من الجائز عندها — أو عند من أوعزوا إليها — أن يحصل الانتخاب ولا يحصل الانعقاد أو يحصل ولكن بشروط ؟؟

تداولت الألسن أن زيور باشا فاتح اللورد جورج لويدي في أمر الاستقالة بعد الانتخاب توافستهم له بضعة أيام ريثما يتم الاتفاق على اختيار الخلف ، وتحقق أن الانجليز يريدون عدلي يكن ولا يريدون سعد زغلول في رئاسة

الوزارة ، وتقابل سعد وجورج لويد في هذه الأثناء فسأله جورج لويد : هل ينضم عدلى إلى وزارتك إذا ألفتها ؟ قال سعد . أعتقد ذلك . فقال جورج لويد : « ولكن الاحساس الذى عندى لا يسمح لى بهذا الاعتقاد ! »

غير أن سعدا هو زعيم الكثرة الغالبة على الرغم من تجاوزه عن بعض الدوائر فى الانتخابات ، فكيف السبيل إلى منعه بمشيئة حكومة اجنبية أن يلى الوزارة الدستورية ؟

لأسبيل إلى ذلك لو جرت الأمور فى حدود الصراحة ، ولكن قضية الاغتيالات السياسية باقية ، ولا تزال فيها بقية صالحة للاستغلال . فلتكن هذه القضية إذن وسيلة امتناعه من تأليف الوزارة ، كما كانت قضية مثلها بالأمس وسيلة اعتزاله الوزارة وهو قائم فيها

أصدرت محكمة الجنايات حكما فى قضية الاغتيالات السياسية اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو (١٩٢٦) فقضت « بالنسبة لمحمود أفندى عثمان مصطفى والحاج احمد جاد الله ، والدكتور احمد ماهر ، والأستاذ محمود فهمى النقراشى ، والأستاذ حسن كامل الشيشينى ، وعبد الحليم الببلى بك ببراءتهم من التهمة التى نسبت إليهم وبالإفراج عنهم فورا إلا إذا كانوا محبوسين رهن قضايا أخرى »

وعلى ذلك يكون اتهم الوفد بتدبير هذه الجنايات باطلا بحكم القضاء كما بطل من قبل ذلك اتهمه بتدبير مقتل السردار ، لأن الرجلين البارزين من رجال الوفد اللذين كانا بين المتهمين — وهما الأستاذان ماهر والنقراشى — قد برئا من التهمة ، ولم تعد للوفد صلة بهذه القضايا على جميع الاعتبارات .

إلا أن ما يبطل بحكم العقل أو يبطل بحكم القضاء قد تشاء السياسة أن لا تبطله فيكون لها الحكم النافذ متى كان من ورائها الجيوش والأساطيل فبعد أسبوع من صدور الحكم — أى بعد قيام مشكلة الوزارة —

كتب مستر كرشو أحد القضاة الثلاثة الذين كانوا في محكمة الجنايات خطاباً إلى وزير الحقانية استمهله بقوله :

« آسف لاضطراري إلى إبلاغ معاليكم أنني — بعد مداولة مع زميلي دامت خمسة أيام — أجدني لا أستطيع الموافقة على الحكم الصادر في قضية محمد فهمي على وآخرين إلا فيما يتعلق بمحمد فهمي على المحكوم بإعدامه ، ومحمود فهمي النقراشي المحكوم ببراءته وعبد الحليم البيلي المحكوم ببراءته . فان الأدلة على الاثنين الآخرين كانت غير كافية ، أما باقي الحكم فهو لزميلي وعندى أن حكم البراءة في تهمة محمود عثمان مصطفى والحاج أحمد جاد الله وأحمد ماهر وحسن كامل الشيشيني يناقض وزن الأدلة إلى حد الإخلال بتنفيذ العدالة . وقد بلغت خطورة هذا الإخلال في رأيي وخطورة النتائج التي تنجم عنه حدا جعلني أعتبر أن من واجبي الخروج في هذه الحالة على مبدأ المحافظة على سر المداولة وتوجهت بعد إصدار الحكم إلى دار المندوب السامي فأطلعت نخامته على رأيي باعتباره حامياً للأجانب »

ويرى من هذا الخطاب أن مستر كرشو خالف أمانة القضاء ، وأنه قاض واحد من ثلاثة قضاة ، وأنه نسي أنه قاض مصري لأشأن له بدعوى المندوب السامي في المسائل السياسية ، ومع هذا كان من رأي الحكومة البريطانية أن حكمه وحده هو الحكم الصحيح وأن ماعداه لغو لا يجوز الاستناد إليه . فكتب اللورد جورج لويد إلى زيور باشا بلاغا يعلنه فيه : « بأن حكومته حسب النصيحة المقدمة إليها في الوقت الحاضر ترفض أن تعتبر الحكم دليلاً على براءة الأربعة المذكورين كائنه ما كانت الأسباب التي بناه عليها القاضيان المصريان »

وسيلة صالحة — سواء كانت حسنة أو غير حسنة — لاستغلال القضايا في الأزمات السياسية . فإذا أُلِفَ سعد الوزارة فهناك هذا البلاغ كفيل يخلق المشكلات وإكراه الوزارة على الاعتزال العاجل ، لأنه قد يؤدي إلى قبض

السلطة البريطانية على « الأربعة المذكورين » وإعنات الحكومة الجديدة
إعناتا لا حيلة فيه إلا أن تطلق أوائك السجناء وهي لا قوة لها على إطلاقهم ،
أو تستقيل

هذا إذ ألف سعد الوزارة . أما إذا ألفها غيره فلا ضرورة لاتخاذ عمل
من الأعمال ولا خطر من الاخلال بتنفيذ العدالة وتبرئة الجناة !

وهكذا كان . فان سعدا تنحى عن الوزارة وعدلى يكن ألفها ، فلم يسمع
أحد بعد ذلك بخبر لذلك البلاغ ، أو ذلك الانذار ، ونفعت قضايا الاغتيال
سياسة الاستعمار نفعا السريع في إقصاء سعد زغلول عن الحكومة

والواقع أن سعدا لم يكن يأبى أن يتولى عدلى تأليف الوزارة ، وأنه
صرح بذلك لبعض أصحابه قبل الانتخابات وبعد الانتخابات ، ولكنه بعد
الأنباء التي نشرتها الصحف الانجليزية وصحف القصر في مصر بأنه مرغم
على ذلك وأنه لن يتولى الوزارة أبد الآبدين لأن حزبه متهم في مقتل السردار
وغیره من الانجليز أحب أن يكشف الرياء حول هذه المسألة كلها ، ولا سيما
وقد صدر الحكم ببرامة الاستاذين ماهر والنقراشى من كل تهمة ، فاذا شاء
الانجليز أن يقصوه عن الحكم فليظهروا بعد ذلك بالسبب الصحيح من
مقاصدهم السياسية المكشوفة ، لا بما يتعللون به من التعلات

فلما حدثت الأزمة وانكشفت الحيلة كلها تنحى عن الوزارة ورجع
إلى رأى الذى ارتضاه أولا وصارح به أصحابه وهو إسناد الوزارة إلى
عدلى باشا واختيار أعضائها من النواب والشيوخ المؤتلفين .

والرأى عندنا فى موقف سعد من تأليف الوزارة فى هذه المرحلة أن
ولايته الوزارة لم تكن ضرورة لازمة ولم يكن فيها كذلك ضرر محذور على
المصالح الوطنية لولا تلك الأزمة التى خلقتها اللورد جورج لويدي فى آخر لحظة ،
وعلى هذا لا ملامة عليه فى طلبها ولا فى التنحى عنها .

أما تأليف الوزارة العدلية الجديدة فكان على النحو الآتي :

عدلى يكن باشا للرئاسة والداخلية . وعبد الخالق ثروت باشا للخارجية
ومحمد فتح بركات باشا للزراعة ، ومحمد الغرابي باشا للاوقاف وأحمد محمد خشبة بك
للحربية والبحرية ، ومحمد محمود باشا للمواصلات ، وأحمد زكي أبو السعود
باشا للحقانية ، ومرقس حنا باشا للمالية ، وعلى الشمسي أفندي للمعارف
العمومية ، وعثمان محرم بك للأشغال العمومية

ومن تأليفها على هذا النحو يبدو لنا مقدار التساهل الذي ارتضاه سعد
لرعاية الائتلاف ، إذ لم يكن في هذه الوزارة أكثر من خمسة وزراء على اتصال
صحيح بالوفد ، والباقون كلهم من غير الوفديين . ولم يعهد بوزارة هامة إلى
أحد من وزراء حزب الكثرة ، وهم أكثر من ثلاثة أرباع النواب

وقد وصف سعد هذه الوزارة بأنها وزارة « اندماج » Amalgamation
لا وزارة ائتلاف Coalition . كما شاع اسمها في الصحف وأروقة البرلمان ،
فدل بذلك على نظره البعيد وتفريقه الدقيق بين الأوضاع البرلمانية ، فان وزارة
الائتلاف قد أقيمت أقالة بعد بضعة عشر شهراً لخروج حزب القلة منها ،
وليس خروج القلة بالعدر الصالح لأقالة الوزارة لو كانت وزارة اندماج في
حزب الكثرة النيابية

رأيت سعداً في أوقات كثيرة منذ قيامه بالدعوة الوطنية ، فما أعرف
وقتا تسرب فيه السأم والتعب إلى بنيته وإلى نفسه كما كان يتسرب أحياناً
خلال الفترة من مقتل السردار إلى عودة الحياة النيابية .

كانت هذه الفترة أقل أوقاته حركة ولهذا كانت أكثرها سأمًا وتعباً ،
وكان قصارى ما اهتدى إليه خصومه من محاربه أن يحاصروه في بيت الأمة
بالجند والسلاح ويمنعوا وفود الناس إليه ، فكان يراقب الحالة على بعد
ولا يملك النهوض لها بجهد من جهوده . . . وكان يؤلمه في الوقت نفسه أن

يستطيع الموظفون الإداريون كل ما اجتروحه من ارهاق الناس واستفزازهم دون أن ينالهم جزاؤهم الذى يستحقونه ، وفى أكثر الأيام كان يسأل : ما الذى يوغر صدور هؤلاء الموظفين على الأمة ؟ وما الذى ييغضهم فى أيام الوزارة الشعبية ؟ وقد قلت له يوماً أنهم تعودوا أن يكونوا طول حياتهم مأمورين وأمرين . ووزارة الشعب فرضت لهم حرية وفرضت للناس حرية فلاهم مأمورون ولاهم أمرون . ولو عرفوا أنها دائمة لخافوها وعلقوا رجاءهم برضاها . ولكنهم لا يحسبونها تدوم قال لا يبعد أن يكون كذلك . فقد كنا نعامل هؤلاء الموظفين معاملة الشركاء فى الحكومة ولا نعاملهم معاملة الآلات ، وكنا ننتظر منهم غيرة وطنية ولا ننتظر منهم طاعة عمياء . فوجدوا منا غير ما تعودوه

و ذات ليلة كان يسأل : ما الذى يبعث القوة فى الشعب ؟ وكنا ثلاثة على مائدته : محامياً معروفاً والأستاذ عبد القادر حمزة وكاتب هذه السطور . فقال المحامى وظن أنه يرضيه بما قال :
يا باشا كلمة منك تبعث فيه القوة ... كلمة منك تبث فيه الحياة الفتية ...
واسترسل فى مثل هذا الكلام

ف نظر اليه سعد هنيئة ثم قال : ما هذا ؟ أتريد أن تخطب ؟ أتريد أن تتحمس ؟ طيب : تفضل اخطب وتحمس . وانتظر من يسمع
و كانت نفسه برمة جداً بمن يعيشون بهذا الموضوع لأنه كان مهموماً به لا يطيق الهزل فيه . بل كثيراً ما سمعته يتضجر فى تلك الأيام من حب النكتة فى الطبيعة المصرية ويقول : لولا إن المصريين يضحكون من زبور وغرائبه لما احتملوه هذا الزمن الطويل

وفى أوائل هذه الفترة زرته بـ « ميناهوس » وكان يأوى إليه أحياناً أيام الشتاء . فرأيت كثيراً التفكير كما يكون حين يلتبس عليه وجه العمل وطريق الحركة : وسألنى وهو ينظر الى الصحف على مقربة منه : ماذا يقولون ؟

قلت : وماذا غير قولتهم المعهودة ! إن سعداً ترك الميدان واستقال !!
قال لو بقيت في الحكم لقالوا إنه يخرب البلد تشبثاً بالمنصب
هؤلاء لا يعتد لهم بكلام

ثم نشط كعادته حين ينبعث الكلام في موضوع نضال بينه وبين خصومه
ومضى يقول : وهذه الصحف الانجليزية ما بالها تسمى وتصبح وهي تلغظ
بزغلول ؟ ... إن زغلولاً يدبر ... ! إن زغلولاً يتربص ... زغلول .
زغلول . نعم ياهؤلاء انكم ان تستريحوا من زغلول

وهكذا كان في هذه الفترة يسأم ويتعب ويخيل الى من رآه انه يهم بان
ينفض يديه . ثم يتحداه متحد فاذا هو واقف على قدميه لا يسره أن يستريح
منه الخصوم .

رئاسة مجلس النواب

كانت رئاسة مظلوم باشا لمجلس النواب الأول مشهورة بضرب الجرس لحفظ النظام . بحيث يصح أن يقال ان الجلسات — مالم يحضرها رئيس الوزارة أو تحتمل فيها المناقشة لأمر يشغل النواب — كانت مقسومة بين لغط الرئيس بدق الجرس ولغط النواب بالكلام

وأذكر أن زميلنا الأستاذ محمود عزمي حرّمه مجلس النواب تذكّره التي يحضر بها المجلس لما كان يكتبه عنه من القوارص والغمزات . فانتقل الى مجلس الشيوخ واستمر على نشر أخبار مجلس النواب وهو يزعم انه يتلقى تلك الاخبار من طريق المكاشفة والتتويم ! فلقيته يوماً بمجلس الشيوخ وسألته أن يرينا معجزة من معجزاته على سبيل المداعبة . . . فيذكر لنا ما يجري الساعة في المجلس الآخر ، فهام بنظره قليلا كأنما كان يستطلع الغيب وقال : مظلوم باشا يدق الجرس . . . قلنا جميعاً : آمنا لك بالمكاشفة . . . ما في ذلك جدال ! ففي عهد رئاسة سعد للمجلس بطل دق الجرس أوكاد . ولاحظ المختلفون الى المجلس في العهدين ان الجرس قد أصبح من الأدوات النيابية الملغاة . وكان الأجانب والمصريون على السواء يقولون : ليس هنا مجلس ورئيس ، ولكنه معلم محبوب بين تلاميذ مطيعين .

ولم يكن سعد يستعين في حفظ النظام بنصوص القانون ولا بحق الرئاسة في منع الكلام وفض المناقشات . انما كان يستعين بسلطان هو أشد رهبة من جميع النصوص والحقوق وهو سلطان العارضة القوية والفكاهة الحاضرة ، فكان العضو من الأعضاء يقول قولاً سيديداً أو يصمت . لأنه يخشى إذا أطلق لسانه بغير السداد أن يستهدف على الأثر لجواب مفحم أو نكتة لاذعة من منصة الرئاسة

حدث لما ذهب ثروت باشا إلى لندن لمصاحبة جلالة الملك والتماس الفرصة الملائمة لفتح باب المفاوضة في القضية المصرية أن عضواً من الأعضاء الذين يخالفون مبدأ المفاوضة من أساسه وجه استجواباً إلى نائب رئيس الوزارة يستوضح فيه موقف ثروت باشا في لندن ويخرج الوزارة احراجاً لا تملك الجواب فيه، لأن المفاوضة لم تكن هي الغرض الرسمي لسفر ثروت باشا وإنما كانت بغية متفقاً عليها بين ولاية الأمر يرجى أن تتاح لها الفرصة الملائمة بعد جس النبض واستطلاع الأحوال . فاذا قالت الوزارة — رداً على الاستجواب — إنها ستفاوض أو أنها لا تفاوض فليس في ذلك تسهيل لما كانت تنويه

وألح كثير من الأعضاء على صاحب الاستجواب أن يلغى استجوابه فلم يفعل ولم يستمع وجنح إلى الاحراج والعناد . وأشار الوزراء بالمطالبة والمرادغة في عرض الاستجواب فأبى عليهم سعد أن يخالف نظام المجلس ، وقال لهم : بل يعرض الاستجواب ، ونعالجه بما يستحقه الاحراج والعناد وجاء الموعد المحدود وتلى الاستجواب ، وانتظر العضو المحترم جواب الوزارة وهو موقن بأنه قد وضعها في الفخ الذي لا خلاص منه بغير احباط المفاوضات . ولكنه لم يكمد يتهياً لسماع الجواب المأمول حتى فاجأه وزير الحرية — باتفاق سابق مع سعد — قائلاً : إن هذا الاستجواب موجه إلى شخص غير موجود

وقال سعد : ما قول حضرة العضو المحترم في ذلك ؟ في الواقع أنه لانايب لجلالة الملك ولا لرئيس مجلس الوزراء ، فسأل صاحب الاستجواب : أيؤخذ من ذلك أن الحكومة لا تريد أن تجيب ؟ فقال سعد : ليست المسألة مسألة ارادة أو عدم ارادة . وإنما ألفت حضرة العضو فضلاً عما ذكرته الى أن الاستجواب يحتاج إلى ثمانية أيام حتى لو كان مستوفياً جميع الشروط ، والدورة البرلمانية على وشك الانتهاء . فهل لا يرى العضو المحترم أن تأجيله أولى ؟

أما سر الغلظة في شكل الاستجواب فهو كما رأى القارىء انه كان موجهاً إلى « نائب رئيس الوزراء » ولم يصدر عند سفر ثروت باشا أمر رسمي بانابة أحد عنه في رئاسة الوزارة ! اكتفاء بأن يؤدي عمله في وزارة الداخلية أقدم الوزراء الموجودين عهداً بالمناصب الوزارية

قال صاحبنا : كيف ؟ أليس هنا فلان باشا ؟

فقال سعد : نعم . ولكنه ليس بنائب رئيس الوزراء !

فتردد صاحبنا وصاح مذهولاً : إذن من نسأل ؟

قال سعد : اسأل محامياً !

وقعد الرجل بين القهوة والضجيج ، وتأجل الاستجواب الى موعد غير مسمى بموافقة العضو المحترم !

وتناقش المجلس في قانون خلط الأقطان ، وفيه عقوبة مفروضة على من يخاطون صنفاً منها بصنف . فنهض أحد الأعضاء وقال :

ولكن ألا يتفق أن يسهو أحد فيحصل الخلط على غير قصد منه ؟

فضحك سعد ضحكته المعروفة وقال : نعم يا حضرة العضو المحترم ! يتفق ! ولكن أتقدر حضرتك أن تقول لنا : كم كيساً من القطن تملأه وأنت ساه عن نفسك ؟ !

وبهذه الأجوبة الحاسمة وهذه الفكاهة السريعة ، كان يحفظ النظام في المجلس ويحفظ الألسنة في الأفواه فلا تنطق إلا بما يفيد

واستطاع من ثم أن يقف في ميدان الفصل بين جميع السلطات وجميع الهيئات ، فيفصل بين الأعضاء من أنصاره ومعارضيه ، ويفصل بين المجلس والوزارة ، ويفصل بين الوزارة والانجليز ، ويمشي بالوثام بين القصر والنواب والوزراء ، يأخذ من كل لسلح حسبما تتجه الحوادث ، وتبديل الأحوال .

ومن أخطار الأزمات التي وقعت في أثناء رئاسته لمجلس النواب وعالجها بماله من النفوذ والحنكة أزمة الوزارة العدلية ، وأزمة ميزانية الأزهر ، والمخصصات الملكية ، وأزمة الجيش التي أثارها اللورد جورج لويد عقب الحملة التي حمى عليها مجلس النواب

فأما أزمة الوزارة العدلية فقد نجمت من اقتراح اقترحه بعض النواب لشكر الوزارة على مساعدتها بنك مصر ثم قيل في الرد على هذا الاقتراح إن الشكر غير لازم لأنه من قبيل تحصيل الحاصل . فاعتنم عدلى باشا هذه المناسبة واستقال لأنه كان على ضجر وامتناع من مطالب اللورد جورج لويد التي لا تجرى على قانون ولا اتفاق ، وفي مقدمتها مطالبته الدائمة بتعيين موظفين من الانجليز

وبذل سعد باشا زغلول جهده في اقامة وزارة أخرى — هي الوزارة الثروتية — قبل أن يتسع الاتفاق للدسائس والمناورات التي لا تنقطع في السياسة المصرية

والذى نعتقده نحن أن أزمة الوزارة العدلية وافقت رضى من سعد فى تلك الآونة لانه لم يستحسن من عدلى تهديده بالاستقالة اذا تعرض المجلس لتصرفه فى مسألة كتاب « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين ولم يكل اليه الرأى كله فى هذا التصرف . وقد كان على الشمسى باشا وزير المعارف من قبل الوفد وكان رأيه كراى عدلى باشا فى هذه المسألة على خلاف المظنون والمقدور ، فكان نصيبه أيضا من المجلس تجريح قوانينه التى عرضها لتعديل برامج الدراسة وافهامه من ثم أن اضطرار وزير الى الاستقالة أمر غير عسير ، ولودخل فى حماية رئيس الوزراء وحسب له حسابا قبل حسابه لرعيه

وسلك سعد فى مسألة ميزانية الأزهر ومسألة المخصصات الملكية مسلك الجمالة للقصر مع المحافظة على نص الدستور . فقد كان كثير من النواب يلحون فى وجوب عرض الميزانية الأزهرية على المجلس وكان المجلس يكاد أن

يتخذ قراراً بتأييد هذا الطلب . قد كرر لهم سعد أن الدستور ينص على أن المعاهد الدينية تنظم بقانون . فالاقتراح سابق لأوانه قبل وضع ذلك القانون وفي مسألة المخصصات الملكية كان بعض الأعضاء ينسى الدستور ويطالب الحكومة بنقصها في الميزانية وهو مالا يجوز لأنه مخالف للمادة المائة والحادية والستين من الدستور ، فكان سعد يسمح للأعضاء بالمناقشة في هذه المسألة ويمنع الشطط فيها ، ويكتفى بتوجيه المجلس إلى التماس تعديل المخصصات من جلالة الملك رعاية للاقتصاد . ويصيح احترام النصوص التي لا يحيص عنها بصيغة المجاملة على هذا المنوال

أما أزمة الجيش فهي أعجب الأزمات وأدناها على الغنت الذي يلقاه الساسة المصريون من ألعيب السياسة البريطانية حيث تعتمد الى خلق الأزمات . فكل ما حدث من أسباب هذه الأزمة أن لجنة الحرية في مجلس النواب اقترحت زيادة عدد الجيش وتحسين سلاحه ، وهو اقتراح قديم عرضه سبنكس باشا نفسه في عطلة الدستور وليس فيه خروج على حدود النيابة ولا سوابق الاتفاق بين الحكومتين المصرية والبريطانية .

إلا أن المندوب السامي كان موتوراً من المجلس ومن الشعب لأنهم استنكروا منه أن يباشر عمله دون أن يقدم أوراقه كسائر السفراء والوزراء المفوضين ، كما استنكروا رحلاته في الأقاليم واستقباله الأعيان والوجهاء والموظفين كأنه ملك يستقبل رعاياه . وليس للمجلس بد من هذا الاستنكار لأن سكوته عنه أمر غير مفهوم إلا على معنى الاقرار والتفريط في أماته الوطنية وأماته الدستورية ، ولكن اللورد جورج لويد لا يعرف عذراً لأحد في معارضة أهوائه وبدواته ، ولا يرى للمصريين - حكومة ونواباً وشعباً ومتطرفين ومعتدلين - إلا أن يذعنوا لتلك الأهواء والبدوات ... فكظمها في صدره حتى سنحت مناسبة كأنها لا مناسبة على الإطلاق ... وراح يطر الحكومة المصرية باحتجاجاته الشفوية والكتاتبية ، ويطلب منها مالا طاقة للحكومة في الدنيا بقبوله وهو

مد خدمة سبنكس باشا ثلاث سنوات ومنحه رتبة الفريق وتخويله السيطرة على الضباط في الترقية والتعيين واتصاله المباشر بجلالة الملك وتعيين وكيل له ووكيل للوكيل من الانجليز ١ وغير ذلك من المطالب التي أفلقت الحكومة والمجلس وأضاعت عليهما الوقت في غير طائل : فان خضعت الحكومة لهذا والا فالبورج البريطانية على شواطئ الاسكندرية . وأرواح الأجانب في خطر داهم وأن قالوا هم ونادى بعض سفرائهم بأنهم في أمان يعيشون بين المصريين معيشة الاخوان

وقام وزير الخارجية البريطانية السير أوستن شامبرلن بمجلس النواب البريطاني فقال في بيان أسباب الأزمة « أن أنظار فريق من رجال السياسة في مصر اتجهت إلى الجيش منذ زمن وهم يرمون «أولا» إلى زيادة الجيش الحالي ، و «ثانياً» إلى اتخاذه سلاحاً في يد حزب سياسي . ولا ريب أن هذه المساعي من المسائل التي تهم الحكومة البريطانية مباشرة ، لأن الدفاع عن القناة من المصالح الجوهرية ، وحماية الأجانب من العهود التي قطعناها على أنفسنا »

الى أن قال : « والحكومة البريطانية على استعداد للشروع توأ في فتح باب المفاوضات للوصول إلى هذه الغاية - وهي الاتفاق على المسائل المختلف عليها ولكن علينا الى أن يتم ذلك الاتفاق أن نصر على بقاء الضمانات التي دلت الخبرة الماضية على أنها فعالة ١ » . نعم ... وعلى المصريين طبعاً أن يفهموا أنه لا سلامة من هذه الأزمات حتى يساقوا سوقاً إلى المفاوضات ١

وبعد محال وجدال استقر الرأي على اجابة بعض المطالب وهي ترقية سبنكس باشا ومد خدمته وتعيين وكيل له ، وانهت أزمة من تلك الأزمات التي تخلق منها الهباء ويضاع فيها الوقت على سياسة المصريين ثم لا يسلبون بعدها من اللوم والالتهام بالتقصير في أعمال الانشاء والاصلاح ١ وقد بذل سعد من الجهد في تهدئة النواب والجمهور ما ليس يقدر على بذله سواء، وكان

موضع الملاحظة عليه من بعض أنصاره - ومنهم كاتب هذه السطور - أنه يشترى الدستور بأعلى من ثمنه ويطيل المسألة حيث لا يرجى أن تقابل بمثلها أو يكف عن العدوان

وكنت في أمثال هذه المناسبات أقول وأكتب في تأكيد هذا المعنى كما قلت في أواخر مايو سنة ١٩٢٦ من مقال في صحيفة البلاغ :

« ويلوحون لنا بعهد كرومر والغاء الدستور وما عهد كرومر بشر من دستور كهذا لا ينال المصريون منه إلا التبعات الجسام ، ولا يجنون منه إلا الأباطيل والأوهام . فأما أن نسلم للانجليز بكل زعم يزعمونه وكل مطلب يدعونه وإما أن ينسخوا الدستور ويعبثوا بالعلاقات بين الشعب والعرش والبرلمان . ثم ماذا تأخذ نحن من هذا الدستور الذى يسوموننا فيه هذا السوم الغشوم ؟ لا شيء على الاطلاق . نعم لا شيء الا الضرر والمحال مشفوعاً بالفرقة والانقسام »

وانما ذكرت هذه الملاحظات لأذكركم رد سعد عليها وحجته في ردها ، فقد كنت إذا حدثته فيما يلاحظ من فرط الحرص على الدستور أمام التهديد والوعيد يقول لى : « لينذهب الدستور حيث يذهب هذا حسن . ولكن يجب أن نذكر أن الانجليز قادرون على تضییع جهودنا كلها في طلب الدستور ، وانهم لولا رغبتهم فيه لضاع علينا ما سلف من جهود . يا فلان ! إن في صلب الدستور كلمات لا تزال مكتوبة بخط موظف انجليزى في دار المنادوب »

وحجته في موقفه من أزمة الجيش خاصة ان تضییع الدستور من أجلها عجلة لا تقضى بها الضرورة . ومتى كان القوم يشيرون الى المقايضة بالسان وزيرهم فلا ضرر من ارجاء الخلاف كله بضعة أشهر الى أن تتفق على قرار أو يذهب الدستور الى حيث يذهب كما تقول

وعلى ضيق الوقت وغلبة الشواغل السياسية والأزمات المصطنعة قد اتسع المجال لأعمال شتى ومقترحات صالحة كإلغاء السخرة وتعميم التعاون بين الفلاحين وفتح الطرق ودرس مشكلة العمال ، وما الى ذلك من مطالب الإصلاح الاجتماعية .

غير أننا لا نريد هنا أن نسرّد سجلاً للأعمال والمقترحات التي أشرف عليها سعد في أثناء رئاسته لمجلس النواب ، فإن هذه الأعمال والمقترحات قد يشرف عليها كثيرون من رؤساء المجالس النيابية ثم لا يمتازون بقدرة غير معهودة في الرؤساء عامة . إلا أن الغاية التي مابعدّها غاية في هذه الصناعة أن يستوى المرء فيها على مستوى الواجب كما يتخيله المتخيل ويصبو اليه المتأمل .

والمثل الأعلى في الرئاسة هو الرئيس الذي يملك القدرة على القصد في أوقات المجلس والقصد في جهوده ، ويملك القدرة على حفظ نظامه بغير حاجة الى زواجه وقوانينه ، ويملك القدرة على تعليم أعضائه وهدايتهم الى أكبر ما يستطيعون من صواب وأقل ما يتعرضون له من خطأ ، ويكون معصيته لحقوق مجلسه قائماً بالقسط بينه وبين جوانب الحكومة الأخرى ، مانعاً للصدام بينه وبين ما يحيط به من القوى والعراقيل ، فهذه القدرة استحققت رئاسة سعد أن تحسب مزية من مزاياه وصفحة من صفحاته ، لا أن يكون مبلغها من الذكر استقصاء جزء من تاريخه والالمام بعام أو عامين من حياته

زعامتة وأثرها

يقول لنا علماء التوحيد إن المعجزة الكبرى لنبي من الأنبياء هي المعجزة التي تطابق خلايق الأمة المبعوث فيها . فهو سى بعث بالعصا الساحرة في أمة السحر والكهانة ، وعيسى بعث بآية الشفاء في أمة المصابين والضعفاء ، ومحمد بعث بالقرآن في أمة الفصاحة والبيان ، فكل منهم معجزة تطابق أحوال قومه وتستمد الاقتناع من معدنه وأصله

فما أصدق ما يقول العلماء فيما رأيناه في عصرنا من سير الزعماء ! فغاندى كان خير زعيم في الهند لأنه ناسك من أمة النساءك ، ومصطفى كمال باشا كان خير زعيم في الترك لأنه جندي من أمة الجنود ، وسعد كان خير زعيم في مصر لأنه فلاح من أمة الفلاحين . وحسبك أن تعتمد الى نموذج الفلاح المصرى فتضاعف ما فيه من خلائقه وعاداته وخصائص بيئته لترى أمامك سعدا ماثلا في عظمتة المصرية ، قائما على مرتقى المثل الأعلى لتلك الخصائص القومية ، وليست آية أفصح من هذه الآية على صدق النهضة السعدية وجريلانها مع طبائع الأمور

وقد اجتمعت لسعد من مزاياه الشخصية ومن توفيقات العصر في حياته صفة الزعامة الواجبة على المصريين ، أو الزعامة الملائمة لأطوار النهضة الأخيرة في هذه الأمة

فهو لأنه كان فلاحا من أصحاب المراتب العالية قد استطاع أن يجمع حوله السواد والعلية من أبناء الفلاحين ، وهم قوام الأمة المصرية ولأنه كان صديقا لقاسم أمين على رأيه في تهذيب المرأة قد استطاع أن يقود النهضة الأولى التي اشترك فيها الرجال والنساء وشملت الأمة كلها لأنها شملت البيت كله

ولأنه كان يطلب الاستقلال من الترك كما يطلبه من الانجليز قد استطاع أن يمحو الفوارق الدينية والعصبية المذهبية في الحركة الوطنية ، لأن المسيحيين والاسرائيليين قد علموا أنهم شركاء في دعوة واحدة ، وليسوا مسوقين في حركة دينية يطلب دعائها سيادة الترك لأنهم مسلمون ، وإنما الحق أن يطلبوا السيادة المستقلة لأنهم مصريون

ولأنه كان حاضر الفتوة وافر الحماسة في الشباب والمكولة والشيخوخة قد استطاع أن يقود الشبان المتلهبين كما يقود الشيوخ المحنكين ، أو استطاع أن يجمع الجيلين في ثورة واحدة ، وقلمًا يجتمعان

قالت صحيفة التيمس في رثائه : « بما عهد في الزعماء الشرقيين أنهم يعتزلون العمل قبل زملائهم الغربيين . إلا زغلولا ، فانه احتفظ بنشاطه الغزير الى النهاية ، وليس بين الثائرين المتطرفين في التاريخ الا عدد قليل بقيت له عقيدته السياسية في شدتها وعنفوانها بعد الخمسين ، ولكنه هو بلغ أقوى ما بلغ من السلطان على الجماهير عند ما ناهز الستين ، وكأما كان تقدمه في السن يزيد من حماسة الشباب ونزواته ا على أن مفاجآت طبيعته وأطوار حياته وتقلبه في تحصيل العلم بين الفقهاء العرب والاساتذة الفرنسيين ، ومضاء عزيمته وفصاحته وما كان من الأثر على تربية ذهنه لأناس بينهم من الاختلاف مثل ما بين جمال الدين داعية الجامعة الاسلامية واللورد كرومر — كل هذا لا يكفي لتفسير قبضته الغريبة على شعب كثير التحول . فان وراء كل هذا ، وفوق كل هذه العوامل المؤهلة للنجاح قدرة خاصة قيضت له ذلك النفوذ على أبناء وطنه ، ومغناطيسية شخصية تجذب اليه الألوف من التابعين »

وقد أدى البحث في أصل سعد الى اختلاف الأقاويل بين قائل يزعم أنه من البدو وقائل يزعم أنه من المغاربة وقائل يزعم أنه ليس من هؤلاء ولا هؤلاء ، ولكنه يشبه الترك في بعض الملامح والأخلاق ، فليختلفوا ماشاءوا وليعزز كل منهم أقاويله بما شاء ، فان الحقيقة التي لا تقبل الجدل الكثير

أن صفات سعد التي لاشك فيها هي أصالح الصفات لزعامة المصريين . وأن
مزاياه الشخصية ، وتوفيقات زمانه السياسية والاجتماعية قد جعلته الزعيم
المصرى الذى ليس بين معاصريه أحد أجدر منه وأولى بالزعامة ، وذلك
وحده كفيل بتقرير مكانه كما قرره لنفسه وقررت له الأحداث والتوفيقات
فهو فى طبيعته العملية ، وفصاحته المقنعة ، وفكاهته المرتجلة ، وعزيمته
الماضية ، وسماته المهيبة ، ومنزلته الرفيعة ، خير من ترشحه مصر لزعامتها من
صميم تكوينها ، وإنه لأصل فى زعامة الشعوب ليس بعده رسوخ ولا عمق
فى الأصول

كان ساحراً للفلاح الساذج وابن البلد الظريف : سمعه فلاح من قنا فى
الاحتفال بعيد النوروز فبكى . ثم أفاق لنفسه وهو شيخ لم يتعود أن يبكى
إلا لحادث يصيبه فى آله أو ماله ، فطفق يعجب لنفسه ويسأل من حوله :
ما بالى أبكى ؟ أمات أبى ؟ أمات أمى ؟ أغرقت مراكبى ؟ أأجذب زرعى ؟
وما لهذا الرجل يبكىنى ؟ أساحر هو ؟ أفاتن هو ؟ والله لا أدرى !! ولكن
الفلاح الساذج الحائر فى بكائه قد بين لنا أوجز البيان أن سلطان سعد على
النفوس المصرية حادث كهوادث القضاء والقدر أو هو من قبيل الحوادث التى
تحرك تلك النفوس وتمزها فى أعماقها ، أو هو من قبيل تلك العوامل التى ظن
الفلاح الساذج أنها هى وحدها خليفة أن تسيل الدموع من عينيه

وسمعه مصرى من أبناء البلد يخطب فى نادى « سيروس » ويضحك
ضحكته العالية من خصومه . فما تمالك أن صاح : يا سلام يا باشا ! ضحكك
حلوة . حلوة جداً ، الله ! الله ! فما ترك سعد هذا التعقيب « البلدى » على
ضحكته الساخرة أو الساخرة دون أن يشفعه بتعقيب من جنسه ، وهتف
بالحاضرين فى طلب السكوت كما يناسب المقام : سمع . سمع . هس !

فمواقف الخطابة أو مواقف الزعامة لم تكن عند هذا الزعيم إلا تياراً

جارفاً ينبعث من قرارة وجدانه ، فيحتوى الحاضرين في غمراته ويردهم الى عنصرهم الاصيل فيشعرون على البديهة انهم وهذا الزعيم من موطن واحد في الشعور وموطن واحد في الارادة ، وموطن واحد في الجد والفكاهة ، غير أنه يقدر من حيث لا يقدر ، أو يقدر لهم وهم من ورائه تابعون

والزعامة إذا بلغت هذا المبلغ من الاصاله كانت قوة مطبوعة — بل فرصة الهية — لا تفرط فيها أمة رشيدة ، ولا تقدر على التفريط فيها أمة ولو كان ديدنها التفريط . لأن الأمر في هذه الزعامات من وراء المشيئة والتدبير .

وقد يكون في الأمة عشرات أو مئات يقاربون ذلك الزعيم في جملة الصفات أو يفوقونه في بعض الصفات ، لكنهم لا يغنون عنه ولا يعوضونه وهو واحد وهم عشرات أو مئات . لأن الفضل في الزعامة للدرجة والنوع لا للعدد والكثرة ، والشأن هنا كالشأن في درجات الجمال . لو اجتمع ألف وجه على اعتدال في المحاسن لما بلغت كلها في الأثر والفتنة ما يبلغه الوجه الواحد الفائق في حسنه ، ولالوم على القلوب إذا هي آثرت أن تفتن بذلك الوجه الواحد أضعاف ما تفتنها تلك الوجوه الكثيرة ، ولالوم على الشعوب إذا هي آثرت أن تفتن بتلك الزعامة الواحدة أضعاف ما تفتنها تلك الزعامات الشتى ، لأن الطبيعة لا تحس إلا هكذا ولا يحسن بها ولا ينفعها أن تنحرف عن سوائها ، وكل احساس مطبوع فهو قوة مطبوعة نافعة في ايقاظ قوى الأفراد وقوى الشعوب ، ومتى كان سبب التأثير طبيعياً فالتأثير لا جرم طبعي لا اصطناع فيه ، وإنما الآفة الكبرى أن تكون الزعامة من توليد الاصطناع والمواربة والتمويه والتواطؤ على الغش والمغالطة والانتفاع ، فانها تكون حينئذ كالصحة التي تصطنعها المخدرات ليست من الصحة وليست من الشفاء ، ولكنها من السقام

لما نهض سعد بالدعوى الوطنية لم تكن مصر خالية بطبيعة الحال من أولئك المحكمين الأذليين أو أولئك المتحدلقين أحلاس القهوات الذين

يخطئون كل عمل ويخطئون كل رجل ويخطئون كل رأى ولا يحسبون
الأمور فى الدنيا تجرى أبدا إلا على خلاف ما يحكمون ويستحسنون ... ثم
لا يعرفون بعد ذلك انهم هم المخطئون

كان هؤلاء المحكمون الأزليون يرون كل إنسان فى مصر صالحاً للزراعة
إلا الزعيم القائم بها فى حينها . لأن أصول الصناعة تقضى بذلك ، وإلا لم
تكن هناك صناعة ولم تكن هناك قهوات ... ولم يكن هناك محكمون

أما كان زيد أولى بحل القضية المصرية لأنه مقرب من الانجليز ؟ أم
كان عمرو أولى بحلها لأنه مشهور بالمرونة ؟ أم كان فلان أولى منهم جميعا
لأنه خليفة فلان . ولعلمهم لو طولبوا بالاتفاق فيما بينهم لما انتهوا إلى اتفاق ،
لأن الثروة لم تكن قط وسيلة الاتفاق . وإنما كانت وتكون أبداً وسيلة
المحال والشقاق

وأوجز ما يوصف به هؤلاء - على أحسن الظنون بهم - انهم كسما سرة
الزواج : كل خطيب عندهم غير أهل لخطيبته وكل خطيبة عندهم غير أهل
لخطيبها . إلا ان يكون لهم نصيب فى الوساطة والمهر والوليمة . وعندئذ يكون
كل خطيب وخطيبة فى الدنيا على ما يرام

وإذا حاورتهم باصطلاح سماسة الزواج فليس بالنادر أن يصيدوا من
حيث يخطئ الأزواج والاصهار . فهذا الفتى الممقوت خير من جميع الفتيان
لأنه يملك المستقبل وينتظر الميراث ، وهذه الفتاة الدميمة السقيمة خير من
جميع الفتيات لأنها تدخل إلى بيت قرينها والوظيفة معها بجاه أبيها أو ذويها ،
وهذا الشيخ خير من جميع الشبان لأنه غدا يموت ، وهذه المرأة النصف
لا تضارع فى بيت القرين لأنها تغنيه ولا تحاسبه على ما يبقيه ويفنيه : نصائح
نافعة من حيث ينظر السمسار وأشباه السمسار ، ولكن النصائح التى هى
أنفع منها وأعلى هى النصائح التى يستمع إليها الناشئ الصغير بالهامه والناشئة

الصغيرة بالهامها ، لأنها هي النصائح التي توحى بها الفطرة الخالدة وتنوط بها بقاء الحياة وتقدم الأحياء .

وهذا الإلهام هو الذي استمعت اليه الأمة المصرية ولم تستمع إلى حكمة السماسرة وأحلاس القهوات ، فما كانت تلبية سعد إلى ندائه سييلا إلى المنافع أو سييلا إلى الوظائف أو سييلا إلى الراحة والاطمئنان ، ولكنها كانت على تقيض ذلك مضیعة للمنفعة والوظيفة مجلبة للمحنة والبلاء . فطاعتها هي من قبيل الطاعة التي يلهمها الناس ، والناشئة لصوت الفطرة ودعاء السريرة . يخطيء من يسمعها في بعض الأحياء من الوجهة الدنيوية ، ويخطيء ألف مرة من يصم عنها أذنيه من وجهة الحياة الباقية والحكمة الخالدة ، وإن كان خطأه لا يظهر له ولا للآخرين . لأن الذي يفقد الكمال لا يشعر بفقد الكمال ، أو لا يعترف بخسارته كما يعترف فاقد الخبز والحطام

وإذا ظفرت الأمة بالزعيم الذي تكون طاعته من قبيل هذا الإلهام فتلك هي الزعامة التي تنتظر الأجيال بعد الأجيال ، وتلك هي الفرصة التي يخشى عليها الضياع . لأن الزعامة التي تكون طاعتها من قبيل الاهتداء بحكمة السماسرة وأحلاس القهوات هي فرصة لن تضيع ، إذ هي فرصة موجودة كوجود المنافع وعلم الحساب في كل زمان

هذا الإلهام الفطري هو الأثر الأكبر لزعامة سعد زغلول ، وهو شيء لا يدخل في الإحصاء والأرقام ، ولكنه مع هذا شيء لا غنى عنه لكل منفعة أو مصلحة يدركها الإحصاء وتحصرها الأرقام

والزعيم لا يحاسب في التاريخ بحساب الدقتر الذي يحمله الأجير فلا يعطى فيه درهما إلا بما يقابله من عمل في ساعات النهار ، إن الرجل الذي لا تظهر مآثره إلا بهذا الحساب فهو أنقص الناس في صفات الزعامة وقيادة الشعوب ، لأنه أذن يعمل بيديه كما يعمل الآخرون ويتلقى جزاءه كما يتلقاه سائر الناس ويحاسب بمفرده ولا يحاسب بما يدعو الناس إليه ، وإنما

يحاسب الزعيم حساب الشمس التي تشرق على الحقول أو حساب النهر الذي يجري بين الأعشاب والأشجار . لا يضرب كلاهما فأساً ولا يغرس جذرا ولا يخطط سطرأ بهندسة ولا يبني جدارا على حوض أو خزان ، ولكن الضاربين بالقوس جميعاً والغارسين للجذور جميعاً والعاملين في الهندسة والبناء جميعاً لا يثبتون سنبلة واحدة بغير الشمس والماء

فإذا استطاع هذا الزعيم أن يثبت هذا الروح أو يوقظه أو يجمعه حواله فكل ما تنشئه الأمة وهي مأخوذة بهذا الروح فهو من عمله وصنع يديه ، أما إذا كان عمله كله هو ما يعمل به نفسه ويرسم عليه طابع يديه فما هو بزعيم وسعد زغلول قد بث في مصر هذا الروح ، أو هو قدأيقظه ، أو هو قد جمعه حواله . فكل ما نهضت به الأمة من اشتغال بالصناعات أو مصارف الأموال أو شركات التجارة أو معاهد التعليم أو مجامع السياسة مما لم يكن فيها قبل تلك النهضة ففيه سهم لا ينكر لزعامه سعد زغلول

هذه الزعامه هي التي اتقى حولها المصريون فعملوا أنهم أمة ، وعلموا أنهم مسلمون ومسيحيون ولكنهم أمة ، وانهم رجال ونساء ولكنهم أمة ، وانهم شيب وشبان ولكنهم أمة ، وانهم حضريون وريفيون ولكنهم أمة ، فانبعثت للأمة حياة ماثلة إلى جانب حياة كل فرد وكل طبقة وكل طائفة وكل جنس وكل دين ، ورأينا الأيام التي نسي فيها اللص انه سارق ولم يذكر إلا انه مصري من المصريين ، ونسيت فيها البائسة الموصومة أنها متاع مهين ولم تذكر إلا انها مصرية تطالب بقضية ، وفهم حتى هؤلاء أن هنالك معنى من معاني الرفعة الانسانية يسمى الشرف ويسمى الحياء ، بل رأينا السنين التي لبث فيها المئات والألوف يسامون الخسار فيقبلون الخسار ولا يقبلون المراء في العقيدة ، ويخبرون بين منفعة النفس ومنفعة الأمة التي يدينون بها فيختارون منفعة الأمة ولا يحفلون بمنفعة النفس ولا بمنافع الآل والبنين . وتلك غنيمة قومية لا تدخل في حساب الأرقام ، ولكن الأمة التي تهملها وتبخس قدرها لا تدخل هي نفسها في حساب

وسرى قبس من روح الوحدة المصرية إلى كل أمة في الشرق تعلم أن شأنها في طالب الحرية كشأن المصريين ، وأن حاجتها إلى الوحدة الوطنية كحاجة المصريين . فظهر الوفاق بين الطوائف في بلدان لم تعرف قط وفاقاً ولا رغبة في وفاق ، وأصبح سعد زغلول علماً للنهضة الشرقية بأسرها وللنهضة المصرية وحدها ، ورمزاً لدعوة الوحدة في كل بلد ممزق بين العصبية الداخلية والمطامع الأجنبية

روى موظف مصرى أنه لقي المهاتما غاندى في لندن حين زارها لحضور المؤتمر الهندى فيها فخرى الحديث بينهما عن القضية المصرية واستطرد إلى ذكر سعد فقال المهاتما : « اننى تتبعت سيرة هذا الرجل القدير من سنة ١٩١٩ إلى الآن ، ولا يزال له فى نفسى أثر عظيم ، وأنا أعدّه قدوة وأراه بمثابة أستاذ » قال الموظف المصرى : ذلك تواضع منك ولا ريب . إن الأمة المصرية أربعة عشر مليوناً وأنت قد شملت حركتك ثلثمائة وخمسين مليوناً من الناس قال المهاتما : « على هذا التقدير يكون سعد هو صاحب الفضل فى السبق والابتداء . ثنى أن الحركة الهندية سارت على أعقاب الحركة المصرية . انى اقتديت بسعد فى اعداد طبقة بعد طبقة من العاملين فى القضية الهندية ، فلا تعتقل طبقة منهم إلا لحق بها خلفاؤها على الأثر ، وعن سعد أخذت توحيد العنصرين ولكنى لم أنجح بعد كما نجح فيه . . . ان سعداً ليس لكم وخدمكم ولكنه لنا أجمعين »

وأيا كان نصيب هذه الرواية من الصحة فالحقيقة التى لا تحتاج إلى اثبات ولا استشهاد هى أن الوحدة المصرية سابقة لكل وحدة فى دعوات الشرق الوطنية ، وأن الوحدة المصرية مدينة لسعد بمزاياه التى توافرت له أو توافرت حوله ، فجعلته دون غيره أصلح الزعماء للزعامة على جميع المصريين

لقد كانت الزعامة بداهة فيه تقابلها التلبية البديهة من الجماهير . كان يدبر ويقرر ويأخذ الأمور بالروية والنظر البعيد ولكنه لا يعول على التقدير

والتدبير بعض تعويله على البداهة التي ترتبها الشعوب في غير تكلف ولا استعصاء ، وعنده أن العناية الالهية تعمل في هذه البدايات المرتجلة ما ليس يخطر على بال : ومن ثم كانت كلمته التي يرددها كلها اتجهت الحوادث في غير اتجاهها المنظور أو انفرجت الأزمان من غير مظنة الفرج المقدور : انها العناية ! انها العناية ! ويرفع بصره إلى السماء ولا يزيد

أذكر في الأيام التي أعقبت عودته من المفاوضات مع مستر مكدونالد أننا زرناه وعنده الأستاذ حامد جودة المحامي يقترح عليه بعض الآراء

فقال سعد بدعابته المعهودة : يا حامد . أنا ختمت العلم ! فهاتوا العمل الناجع ، فلا حاجة بي إلى اقتراح

ثم قال : ماذا تروننا صانعين في مواجهة الانجليز ؟

قال أحد الحاضرين : الاضراب العام يشترك فيه الموظفون حتى تجاب مطالب البلاد

فسأل الباشا : وهل يقع هذا الاضراب ؟

فقال بعض الحاضرين يقع عاماً وقال غيرهم يقع في بعض الجهات ، وخالفهم آخرون فقالوا انه لا يُنظر ولا يطول

قال سعد : الدليل على أنه لا يقع ولا يصمد طويلاً إن وقع انكم تختلفون فيه ... ان هذه الحركات لا تأتي إلا عفواً . وقالها بالفرنسية « Spontanément » وعند ما يكون الجو مهيباً لن تختلفوا فيها بل تجيئوا بلسان واحد : انها أمر واقع لا ريب فيه

ولتعويل سعد على هذه البداهة كان لا يكرب ذهنه كثيراً بهموم المستقبل ولا يزيد على أن يعطيها حقها من التفكير والروية ثم يدع البقية للمفاجأة أو للبداهة أو للعناية كما يقول . واطمئنانه إلى المستقبل من هذه الناحية كاطمئنان التاجر الغنى الوطيد المسكان الذي يعمل عمل الرجاء ولا يضيره أن تفاجئه السوق

بالهبوط أو الكساد ، لأنها كيفما تقلبت واضطربت ان تجده إلا على استعداد للصعود والهبوط ، وغيره قد يطمئن إلى المستقبل هذا الاطمئنان فيضيع ويبور ، أما هو فالثروة التي لديه ضمان لا يعتريه خذلان ، فمن فضول الوهم أن يكرب نفسه طويلا بالوساوس والهموم

كان لقومه مدد من عزمه وكان لعزمه مدد من قومه ، وكانا كالشحنتين الكهر بائيتين كلتاهما بمفردها في سكون . ولكنهما لا يلتقيان حتى تندفع القوة الكامنة التي لا تندفع على انفراد

ولم يكن أقدر منه على الاتجاه والتوجيه ان لم يكن بوحى البداة فبان الكلام الذى يبلغ مبلغ البداة من اخلاق سامعية

كان خصومه يدسون عليه في بيت الأمة أناساً من المشاغبين الذين لا خلاق لهم ليلغظوا في مواقف التأثير والاحتدام ، فيفسدوا الخطاب عليه وعلى السامعين ، وكان الجمهور يحار في تأديب هؤلاء لأنه لا يدري هل يتركهم فيفوته حظ السماع أو يجاوبهم فينقطع الخطاب . وتمادى سليط من هؤلاء يوماً فضاقت الجمهور به ذرعاً وأخذوا بتلاييه وبهم اشفاق من ضياع الخطابة فهم يترددون ولا يدرون كيف يصنعون : هل يضربونه فيقع الاضطراب أو يرسلونه فيعود ويجتري أمثاله السلطاء على مثل عمله وكخطف البرق تبدر الكلمة من سعد فيكون فيها فصل الخطاب مع هذا السايط ومع من تحدثه نفسه من زملائه بركوب هذا المركب العسير ، ويقول سعد : لا يضرب في بيتي ! ويترك مقام الخطابة ! وكخطف البرق يفهم الجمهور ما يريد وينقطع دابر هؤلاء السلطاء فلا يرجعون

كتب سعد وهو في نحو العشرين من عمره في الوقائع المصرية — صحيفة الحكومة — يشهر بالاستبداد ، ويحرض الناس على دفعه ويستشهد بقول النبي عليه السلام : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن

يعمهم الله بعقاب من عنده » ويختم كتابته بقوله : « إن شريعتنا شريعة سمحة تأبى أن يتولى أمور ذويها من لا يراعون للشرع حرمة ولا يحفظون للسنة ذمة . وتوجب الشورى على كل من الرعية والحاكم جميعاً . ذلك هو الحق والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل »

ويروى عن السيد جمال الدين الأفغانى أنه أمر تلاميذه بالكتابة في موضوع الحرية فكان سعد وهو أصغر التلاميذ سنّاً أحسنهم كتابة في هذا الموضوع . فقال السيد : ان من علامة نشأة الحرية في هذه الأمة أن لا يجيد الكتابة فيها إلا ناشئ . كهذا الفتى !

وحضرته أثناء الحرب العظمى يسمع قصيدة حافظ العمري فما استعاد ولا صفق فيها لأبيات كما استعاد أبيات الشورى وصفق لها ، حتى مال إليه محمد محمود باشا يداعبه قائلاً : معلوم !... وكيل الجمعية التشريعية !

فسكراهة الاستبداد في طبعه

وقيادة الشعوب في طبعه

ولولم يكن حبه الحرية مصلحة عامة وعقيدة راسخة لكان مصلحة خاصة تقوم عنده مقام العقيدة ، فهو يزود عن كبريائه حين يقضى للفلاح بحق الحرية ولا يرى فيه رأى الزملاء من حكام الترك الذين يقضون عليه بالخضوع ويقضون لأنفسهم بالسيادة . ومن اتفقت له كراهة الاستبداد ، والقدرة على دفعه ، واستنهاض الشعب إلى صدع قيوده ، والشعور مع الشعب بعزته وهوانه ، فقد رشحته ارادة الغيب ولم ترشحه ارادة الناس للزعامة والاضطلاع بهذه الأمانة ، واصطلحت هداية الالهام وهداية التفكير على تقديمه لهذا الأمر الكبير

لقد وجدت الأمة المصرية نفسها على يدى سعد . ولم يكن لها قط وجود أكمل من وجودها إلى جانب هذا الزعيم ، وهذا أثر لزعامته لاشك فيه ! وهذا وحده في عالم السياسة أثر يعلو على جميع الآثار

سعد وخصومه

من غير النادر أن يلام الزعيم على النقيضين في وقت واحد ومسألة واحدة : على التشدد والتسهيل ، وعلى الاقدام والأحجام ، فيحسبه قوم مضيعاً للصحة لأنه تشدد وغلاً ويحسبه آخرون مضيعاً للصحة لأنه تساهل وتهاون ... وغالباً ما يكون الزعيم الوطني هو الواقف في مفترق الصواب والخطأ عند ما يتناقض الخصمان

وكان نصيب سعد من ضريبة الزعامة في هذه الخصلة كنصيب أكثر الزعماء ، فوهم المعتدلون انه متشدد تعوزه المرونة ، ووهم المتطرفون انه لين تعوزه الصلابة . والصواب انه لو تساهل كما أراد أولئك أو تشدد كما أراد هؤلاء « لتلاشى » بينهم في الوسط ولم يكن له عمله اللازم في الزعامة الوطنية ، وإنما عليه أن يعمل عمله ولغيره أن يصف ذلك العمل بما يشاء فلا ضير في اختلاف الصفات إذا تحققت الأعمال

كان المعتدلون يطلبون منه المرونة لأنها هي وحدها سبيل الخلاص ، ولقد كانوا مرنين يوم قبلوا الحماية ، وكانوا مرنين يوم رحبوا بها أحسن ترحيب ، وكانوا مرنين يوم قبلوا مشروع ملنر وروجوا له في الصحافة والأندية الخاصة ، وكان هو على خلاف ما كانوا عليه لأنه اشترط إلغاء الحماية الغاء صريحاً بين مصر وانجلترا وبين مصر والدول . فاذا حكمنا « الواقع الحاصل » وهو الحكم الذي يحلو للمعتدين أن يحكموه في جميع القضايا فهو المصيب وهم الخطئون ... لأن الحماية قد ألغيت وما كانوا يظنونها تلغى ، ولأنه لم يكتف حين اكتفوا فعادوا يطلبون مثل ما طلب ، وانحرفوا عن طريق المرونة كارهين

أما المتطرفون أعداء المفاوضات - ومنهم الفتى الذى أطلق الرصاص عليه - فهم قد حسبوا عليه مجرد قبوله الدخول فى المفاوضات مع الانجليز تفریطاً فى حقوق البلاد ، لأن القضية المصرية قضية دولية لا تنفرد بريطانيا العظمى فيها بصفة خاصة فلا يصح أن تحل بالاتفاق معها وحدها ، ولأن المفاوضات تضعف عزيمة الجهاد وتعلق آمال الشعب بالمحال ، فيركن إلى أمل لا يفيد . إذ كان من غير المعقول أن ينزل الانجليز عن منافعهم فى مصر باختيارهم من أجل المفاوضات

لكن الصحيح أن اعتمادنا على الصفة الدولية للقضية المصرية يضيعنا بل قد ضيعنا قبل ضياع المفاوضات... فلم تبسط القضية المصرية قط للبحث بين الدول بعد الحرب العظمى إلا اعترفت فيها الدول جميعاً بدعوى الانجليز . سواء فى مؤتمرات السلام أو فى غيرها من المجالس الدولية

أما ان المفاوضات تضعف عزيمة الجهاد فالحقيقة أنها لا تخلق الضعف ان لم يكن موجوداً ولا تمنع الشعب أن يرفض نتائجها إذا كان قوياً لا يرضى بالقليل . ومن الجائز أن يؤمن بنبذ المفاوضات إذا جرب الفشل فيها مرات عديدة . ولكن ليس من الجائز أن يؤمن بنبذها ويجمع على هذا الايمان قبل تجربتها ، ومن هنا ينشب الخلاف والضعف الويل

نعم ان المفاوضات لا يلىق أن تكون هى وسيلة الشعب الوحيدة إلى الحرية ، ولكن لا يلىق كذلك أن تكون محرمة ذلك التحريم البات فى جميع الأحوال والمناسبات ، وليس من الضرورى أن ننتظر إلى المرحلة الأخيرة والمكسب الحاسم أو الجلاء التام حتى ندخل فى مفاوضة مع الانجليز . فقد تكون المفاوضات لازمة لتصفية المكاسب الصغيرة كما تكون لازمة لتصفية المكاسب الكبيرة والأخيرة ، والمعول فى ذلك على مناسبات الأحوال وعلى اختبار الزعماء والسياسة ، الذين يجب أن يعملوا كما يعمل أصحاب الإرادة والتفكير لا كما تعمل الآلات تحرم الشيء وتصمد على تحريمه فى جميع الأوقات بغير تفرقة بين المناسبات والأحوال

ولقد خالف سعد خصومه المعتدلين كما خالف خصومه المتطرفين ، فلم يثبت انه مفتقر إلى المرونة ولا ثبت انه مفتقر إلى الصلابة ، ولكن ثبت من مخالفته اياهم انه زعيم يصلح للقيادة ويمضى في طريقه المستقيم أمامه ، لأنه يعمل ما يوحيه اليه وحى الساعة وان أغضب أصحاب الآراء من الجانبين

في بعض أحاديث سعد كان يقول إن العمل للمصلحة العامة « جذبة » تستولى على الانسان كجذبة الدراويش ، وانه لو شاور الفكر وحده لما اشتغل بالمصلحة العامة ولفضل عليها الاشتغال لنفسه ولذويه

والحقيقة أن المداورين النفعيين الذين يفكرون في أنفسهم ولا تملكهم تلك « الجذبة » للمصلحة العامة جديرون بالغبطة والتهنئة حتى من وجهة النظر إلى النتائج التاريخية والاعتبارات العامة التي ينالونها ، فانهم يفكرون في مصالحهم ولا يفكرون في غيرها إلا بمقدار ما يدارون أغراضهم ويدفعون التهمة عنهم ، وإذا وجدوا في بلد مصاب بالسيطرة الأجنبية عرفوا كيف يرضون القوة ويستقبلون قبلتها في كل حالة ويرتقون على يديها إلى المناصب ويقدرّون بحاجه المناصب على كسب الأشياع والاتباع . فيقال إنهم مصالحون وأنهم غيورون صادقون ! ولا ينالهم من الجزاء على خدمة القوة واغتنام الفرصة إلا غضب الرأي العام ونفور الجماهير . ثم تنصرم الأيام والأعوام فيقال إنهم قوم ممتازون ارتفعوا عن شأو الجمهور فغضب عليهم الجمهور ، وانهم ليسوا من قادة العامة والدهماء ولكنهم من الخاصة والعلية المنتقة . فإذا بالعقوبة الوحيدة التي تعرضوا لها من أجل خدمة أنفسهم وقد انقلبت شرفاً لهم وسبب من أسباب التعظيم

وهناك من الطرف الآخر الزعماء أصحاب « الجذبة » يغضبون القوة فتقف لهم بالمرصاد وتسلط عليهم أشياعها واتباعها من المداورين والنفعيين وتتعهد القوة أن لا تعطيهـم مطالبهم ومطالب أقوامهم إذا انهزمت أمامهم

بل تعطيها المداورين النفعيين لتزيدهم قدرة على خدمتها ومحاربة خصومها .
فيقال إنهم هم الذين بلغوا تلك المطالب وما بأيديهم من حول ولا حيلة
يبلغون بها مطلباً لولا معارضة الزعماء المناضلين

يفعل هؤلاء الزعماء المناضلون ذلك فلا ينالهم من الجزاء إلا إعجاب
الرأى العام وولاء الجماهير . ثم تنصرم الأيام والأعوام فيقال إنهم قوم من
قادة الجماهير التي تتبع كل ناعق . فاذا بالشئ الوحيد الذي نالوه وقد انقلب
خسارة في ميزان التاريخ ، أو ميزان بعض التواريخ . وأقل ما هنالك أنهم
يتساوون هم وجماعة المداورين في بعض الموازين

والعجيب أن في فطرة الناس جميعاً أن يحسبوا المطامع على العظماء
ولا يحسبوها على الصغار أو الأوساط . كأنما هؤلاء الصغار والأوساط
قديسون لا يعملون إلا للآخرين ، أو كأنهم مباح لهم أن يطمعوا وينتفعوا
لمجرد كونهم صغراً وأوساطاً ينالون مطامعهم بالوسائل التي يقدر عليها جميع
الناس ، ولا يحشمون من يقتدى بهم أن يكون على امتياز خارق في القدرة
والخلاق ! !

أليست المداورة إذن « رأياً سديداً » الى جانب جذبة المخدوعين ؟

لقد وجد خصوم سعد ما يقولون عنه لقيادته الجماهير واضطلاعه بالهمم
الكبار ، لأنهم لا بد أن يقولوا ، لا لأن ما يقولونه يصدر عن عقيدة منهم
أو يستحق مؤونة الاصغاء

فالرجل قاد الجماهير لأنه لا يستطيع أن يقاوم دولة أجنبية وهو بمعزل
عن جماهير قومه ، وإنما تعاب هذه القيادة إذا كان صاحبها لا يحسن ما هو أرقى
منها وأحوج الى الكفاءة ، وتعاب إذا كان صاحبها يقود الجماهير بالغرائز
الذنيئة والغواية الأئيمة ، ولا يقودهم بالحكمة والأريحية ليقدموا على التضحية
والمشقة ، وتعاب إذا هبط اليهم الزعيم وتخلق بأخلاقهم ليملك مقاديرهم
ويزدلف اليهم ، وتعاب إذا كان ممدوحاً محموداً من الجماهير أن تسكن وتستكين

وفي بلادها قضية بينهم وبين غاصبيهم . أما إذا كان صاحب القيادة مبعجلاً متحلياً بالصفات التي يعجب بها العلية والسواد ، وكان متزن الكلام لا ينطق بكلمة واحدة تستهوي العقول السخيفة ولا تقبلها العقول الراجحة الحصيفة ، وكان جانبه جانب التضحية والمشقة والمثل الأعلى ، ولم يكن جانب الغنائم والمآرب والاسفاف الى الغوايات الوضيعة ، وكان واجباً على الجماهير أن تهتم وتقلق وتشرب إلى أفق الرجاء وتنقاد لمن يحسن أن يقودها ، فهناك يكون قائد الجماهير هبة من هبات السماء ، وتكون قيادة الجماهير واجباً تنحني أمامه رموس الجماهير وغير الجماهير .

ومع هذا ظن بعض الصغار والأوساط أنهم يسامون الرجل لأنهم عاجزون عن هذه القيادة ، كأنهم استطاعوها وزهدوا فيها ، أو كأنما وجود الحقراء من قادة الجماهير ينفي أن للأمم قواداً في الذروة العليا من المقدرة والكرامة



وتعود الناس في خلافات الأحزاب السياسية أن يسمعوا التهمة الواحدة تقال وتعاد من الجانبين أو من الجوانب الكثيرة . فكل حزب هو الحزب المخلص العامل النافع الرشيد ، وكل من عداه هو الحزب المغرض المتواكل الذي لا ينفع ولا يهتدى الى صواب . وإذا كانت الآونة من آونات الثورة واشتعال الخصومة وغليان الحقوق فالحيانة والاجرام وسوء الدخيلة وقبح الصنيع تهمة أو تهمة لا يسلم منها انسان مشترك في السياسة : يقولها هذا الفريق كما يقولها ذلك الفريق ، ويعلم أناس من المطلعين بطلانها أو صدقها في حينها ثم يترأخى الزمن ويقدم العهد ويحىء اليوم الذي يحار فيه التاريخ بين الأقاويل المتضاربة والنقائض المتراكبة ، فيفصل فيها على طريقة الفصل بين المرأة الصادقة والمرأة الكاذبة في ادعاء الأمومة ، وهي شطر الحقيقة نصفين شطراً لهذا وشطراً لذلك . فكلاهما مصيب وكلاهما معيب ، لأن الشأن في

كل سائس وكل زعيم أن يقول في خصومه وأن يقال فيه ، فلا حاجة إذن بالمؤرخين الى الفصل والانصاف ، ولا موجب إذن للتدقيق والتحقيق لكن هذا الحكم لو أخذ على إطلاقه اظلم فيه أناس كثيرون ، ونجا من العقاب العدل أناس كثيرون — وليس هذا هو المقصود من عبر الحوادث ودراسة العظماء والزعماء ، بل المقصود أن يعطى كل إنسان حقه وأن لا يتساوى المصلحون والمفسدون

إذ ليس من البعيد أن يصل الى الحكم في أيام القلاقل والمنازعات الدامية رجال محتالون ما كرون نفعيون يدارون ظواهرهم وهم في باطن الأمر على أخبث ما يكون الحاكمون . بل الشأن في إبان القلاقل والمنازعات الدامية أن يكثر هذا الطراز من طلاب المغنم ورواد الفرص والعارفون باستغلال النقائص الانسانية والردائل الخلقية في الشعوب المتبلة بالنزاع والطغيان . ومتى وصل واحد من هؤلاء الى منصة الأحكام واستولى في يديه على أزمة النفع والضرر والتقريب والاقصاء والوعد والوعيد فأى شيء أيسر لديه من خلق المادحين والقادحين ؟ يمدحونه وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويقدحون في خصومه وهم يعلمون أنهم كاذبون ، ويغالون في الكذب والصفقة وهم يعلمون أنهم آمنون كاسيون ، وأن المستقبل كفيل بطمس المعالم وتبديل الظواهر والبواطن ، والمساواة بين التهم من هنا والتهم من هناك ، فلا فرق بين أنصار المبدأ والمصلحة العامة وبين أنصار النذالة والمنافع القريبة . بل يرجح هؤلاء بالمنفعة التي غنموها ويبقى نصيبهم من الحمد والقدح كنصيب الآخرين

ومن يضمن العواقب ؟ فلعل أنصار المبدأ والمصلحة العامة يعجزون عن تحقيق آمالهم وتصديق وعودهم فينقلب الأمر عليهم وتسأم الأسماع الأصغاء إلى مبادئهم ودعائهم ، فاذا هم هم الخاسرون في الرأى والخاسرون في فرص الحياة ، وإذا بالعبرة الخالصة من هذه المعمة الخاسرة أن المبادئ والفضائل لغو وعيب وضياع ، وإن الضعة والأثرة العمياء حكمة وجد وغنيمة ، وبئس

ما يكون التاريخ وكتابة التاريخ ان كان هذا خلاصة العناية به والبحث فيه من الواجب عند النظر في سيرة كل زعيم وطني أن نذكر هذه الحقائق ولا نسو عنها كلها نصبنا الميزان بينه وبين خصومه في عمل من الأعمال أو أو زعم من المزايعم أو مصائر فشل أو بؤادر نجاح . ولا نقول إننا يجب أن نصدق حربه في كل دعواه وأن نكذب ما يقال فيه بلا استثناء ، وإنما نقول إن الظلم البين في هذه الحالة هو شطر الحقيقة شطرين والخروج من القضية بين بين ، لأننا لن نرجح في ذلك إلا أن نقتل الحقيقة ونقتل العظمة ونحبي الحسة والخبث والمصانعة ، إذ نلحقها بالعظمة ونسوى بينها وبين الرفعة والظاهرة والشجاعة في تقدير بني الانسان

فالسيف الذي يقطع الحقيقة نصفين لا يجدى في انصاف سعد من .
خصومه كما أجدى في الانصاف بين المرأتين على طريقة سليمان الحكيم ، ولا بد هنا من التفرقة بينه وبين خصومه على نمط غير هذا النمط وتقدير غير هذا التقدير

لا ريب أن أناساً خاصمو سعداً للرأى والعقيدة ، ولم يخاصموه بالمنفعة والضعف ، ولكننا يجب أن نعلم أن حقوق الناس في العقيدة لا تتساوى ولا تماثل ، ولا سيما إذا كانوا طلاب زعامة أو كانوا وزراء وساسة يعملون في مصائر الشعوب

فأنا أعتقد وأنت تعتقد وكل إنسان يعتقد ، ولكن الرجل الذي يعتقد وهو قادر قدرة الزعيم هو أولى بالاعتقاد وأحق به ممن يناقضونه ويناقضونه ولو كانوا مخلصين مؤمنين بما يعملون

ورشدى وعدلى حين خالفا سعداً لم يخالفاه الا وهما يعتقدان انهما على صواب فيما رأياه وأن سعداً على خطأ فيما رآه ، ولكن ليس معنى ذلك ان الناس مطالبون بالتسوية بين الحزبين لأن الحزبين يعتقدان ما يدعوان اليه ، وإنما الناس مطالبون بأن يعرفوا صاحب الزعامة الذي هو بها حقيق وعليها

قدير ، ولا يلامون بعد ذلك إذا فضلوا اعتقاداً على اعتقاد وإخلاصاً على إخلاص
وقد نال سعد من خصومه كما نال منه خصومه ، وقد تمادى كما تمادوا
مع اللدد في الخصومة ، وأمكن العذر في جانبه أظهر من العذر في جانب غيره
وكثيراً ما كان الابتداء منهم والرد على ذلك الابتداء ضرورة لا طاقة
بدفعها لانسان

ولست أذكر من تماديه في اللدد ما هو أولى بالنقد والمؤاخذة من مثاين
يحضر اتنى الآن ، ويتلخص فيهما كل مثل آخر على قلة هذه الأمثال
فلما كان عدلى فى لندن لمفاوضة الحكومة الانجليزية جرى حديث بين
سعد ومندوب شركة روتر قال فيه :

« لا أعرف عن المفاوضات شيئاً غير ما أراه فى الصحف ، ولكنى
أعتقد من ظواهر الأمور أن كثيراً من الخداع يجرى الآن ، وإن هناك
محاولة لظهار عدلى باشا فى مظهر الرجل القوى الذى يقاوم فكرة الانجليز
فى بقاء جيش بأنحاء مختلفة من القطر المصرى ، وأنه يشدد فى أن يكون مقر
هذا الجيش أما فى منطقة القناة أو فيما يجاورها . وهذا خداع . لأن نقطة
البحث الحقيقية ليست تنحصر فى المكان الذى تعسكر فيه الجنود البريطانية
ولكن فى هل تقبل وجودهم عندنا على الإطلاق ، وفوق ذلك لا حق لبريطانيا
العظمى فى وضع جنود بمنطقة القناة بمقتضى معاهدة الحياد . وقد اقترحت
يوماً ما أن تعسكر الجنود البريطانية شرق القناة ، وأن يعطى شبيه جزيرة
سيناء لبريطانيا العظمى عدداً من السنين ، ولكن الأمة لم تقبل هذا الرأى ،
وأنا طبعاً أوافقها على رأيها »

وهذا كلام لا يقوله القائل إلا ذهاباً مع اللدد والنكايه ، لأن مفاوضات
عدلى اذا أسفرت عن جلاء الجيش البريطانى عن القطر كله وبقائه الى أجل فى
ناحية من القناة لا تستحق الرفض والاحباط ، ولا يصح ان تنتظر الأمة
المصرية فى المفاوضات على يد عدلى أو على يد غيره مطالباً أكبر من هذا

المطلب الذى يوشك ان تتفق عليه الآراء . ولكن الرجل السياسى اذا قال مثل هذا المقال فى عناد الخصومة لا يأتى بعمل عجيب من الانسان ، ولا سيما اذا كان القتل والارهاق والمكابرة وتضييق الخناق وانتزاع ثمر الاعمال عنوة وقسرا وانتهاك الحرمات والامعان فى النكاية « واصنع ما شئت » ... بعض ما كان يستهدف له فى تلك الآونة من أولئك الخصوم

والمثل الآخر ان سعداً كان يظاهر الحانقين على الاستاذ على عبد الرازق حين تعرض للتجريد من لقب العالمية لانه الف كتابا فى الاسلام وأصول الحكم يخالف به بعض العلماء ، وكان سعد يسوغ ذلك التجريد بكل ما أوتى من قوة المنطق والبرهان . قال يوما وكنت اناقشه فى ذلك : أوليس من حق كل طائفة من الناس ان تقبل فيها من تشاء وتقصى عنها من تشاء ؟ هب هؤلاء العلماء جماعة اذشأوا لهم ناديا وحكما وفى يوم من الايام على واحد من حظيرتهم بالاقتضاء من هذه الحظيرة . أتراه يحق له ان يبقى بينهم على الرغم منهم ولو كان مصيبا وكانوا هم المخطئين ؟ قلت يا باشا : ليس من حق جماعة ان تحرم واحدا منها حقوقه المصرية . لأن وظيفة القضاء التى يليها الاستاذ على عبد الرازق حق من حقوقه الوطنية التى لاسلطان عليها لغير القانون . ولو كان قصارى الأمر أن يخرج الرجل من ناد أو زمرة لا تريده لما استوجب الخلاف ، ولكنه مجرد من وظيفة القضاء بعد التجريد من لقب العالمية ، وليس هذا بحق لهم يستأثرون فيه بالمنع والاعطاء ، فضلا عما فيه من مصادرة الحرية والخرج على التفكير

فوافق كعادته حين تتضح له الحجة ، وقال : أما ان كان الأمر هكذا فقد اختلف على هذا الوجه

ولكنه ظل مع هذا يود لو تم التجريد ويستريح الى اخباره ولو لم يجادل فيه من وجهة الحق والشرعية ، لانه كان يقدر من ورائه شقاقا بين حزب الاتحاد وحزب الاحرار الدستوريين القائمين بالوزارة ، فسقطا للوزارة بعد

ذلك ، فعودة الى الدستور والحياة النيابية ، وفي انتظار هذه النتيجة كان رجاؤه في تحقيقها أغلب على نفسه من نصرة مظلوم يرى أنه هو وحزبه ظالمون من غير هذا الطريق ... ولا ازال أقول ان سعدا كان بغير هذا المسلك أجدر وأحرى ، واسكني أقول كذلك انه مسلك ان لم تظهر فيه بطولته فقد ظهرت فيه انسانيته التي لا تستغرب من انسان ، أو كما قلت حين هنأته باعتزال وزارة الحقانية أيام الخديو عباس

ولئن هفوت فما اخالك مخطئاً الا اتفى عصمة الانسان

ويلحق بهذين المثليين ما كان يجري احيانا في مجلس النواب أو مجلس الشيوخ من قبول طعون في الانتخاب لا يصح أن تقبل أو رفض طعون أخرى لا يصح أن ترفض ، وكنت اشفق ان يقع ذلك ، فاقترحت ان يكون الفصل في الطعون من عمل القضاء لا من عمل المجلسين ، اتقاء لطغيان الاحزاب وغلبة الاهواء ، ولكن سعدا آثر ان يستبقى هذا الحق للمجلسين ، وهو لم يشترك في قبول ما قبل أو رفض ما رفض من طعون ، ولكنه كان لا ينكر ما حدث ولا يمنع به مجرود

على انه كان يسامح خصومه اكثر مما سامحوه ، ويحاملهم اكثر مما جاملوه ، مع انهم لم يجتمع عليهم من العداوات مثل ما اجتمع عليه ، ولم يصبهم من الذحول والترات مثل ما اصابه ، ولم ينهضوا بمثل ما نهض به من النقائص والتبعات . وكان لا يألو جهدا في نزع ما بصدورهم من غل وتقريب ما بينه وبينهم من قطيعة . فلما عاد من باريس بعد النفي الاول ذهب الى منزل صديقه علي شعراوى باشا يزوره ويصل ما انقطع من صداقته وولائه . وكانا قد افترقا في باريس على جفوه . فلم ينسه استقبال الأمة برمتها أن يخف هو الى استقبال ذلك الصديق القديم ، ولم يكن به من حاجة الى استرضائه وإزالة ما بنفسه غير الواجب وبراء الضمير . وكذلك اغتئم فرصة الائتلاف في سنة ١٩٢٦ وقام يوم الاحتفال بالثالث عشر من نوفمبر يثنى على عبد العزيز فهمي « بك » ثالث

الثلاثة الذين ذهبوا الى دار الحماية في فجر الثورة ، وهم سعد وشعراوى وعبد العزيز ، وقال حين أثنى عليه انه هو أولى منه بفضل ذلك اليوم ، وما كانت به من حاجة سياسية الى استرضاء عبدالعزیز (بك) وقد رجعت الامة بجميع احزابها اليه واعتزل عبد العزيز بك السياسة يومئذ وخرج من مضارها لا ينصر هذا ولا يخذل ذاك . وكثيرا ما كان يهيم بهذا التقرب او هذه المجاملة كلها وقعت النبوة بينه وبين صديق او زميل ، فيثنية عنها ما لقي قبلها من سوء اللقاء ورد المحاسنة بالجفاء .

وبما حسبه عليه جوابه على عبد الخالق ثروت باشا بعد أن دعاه الى الاحتكام الى الامراء والوزراء فيما كان بينهما من عداوة و ثروت باشا رجل من طراز غير طراز رشدى وعدلى ، وخصومته لسعد غير تلك الخصومة واغراضه من الحكم غير تلك الاغراض ، وجوابه نفسه الى سعد دليل على طريقته فى الكيد مع اصطناع الطيبة والبراءة .

فقد كتب اليه بعد عودته من المنفى يقول : « غير أنه وقد رفع الامراء صوتهم عالياً لضم الصفوف وتوحيد الكلمة رأيت ان مما يعين على تحقيق ما دعوا الامة اليه تمحيص الحق واماطة اللسان عن واقع الحال والأعمال السياسية التى تمت على يدي . سواء ما كان منها سابقا على تشكيل الوزارة مما أفضى الى تصريح ٢٨ فبراير أو جرى فى عهدهما كسياستهما فى وضع الدستور وموقفها فى أمر تعويضات الموظفين الأجانب وتمثيل مصر فى مؤتمر لوزان وقانون التضمينات ، وذلك بان نحتكم كلانا فى أوجه الخلاف بيننا الى مجالس من الامراء يضمون اليهم رؤساء الوزارات والوزراء السابقين وأعضاء الهيئات النيابية وغيرهم من أولى الرأى فى البلاد ، يدلى فيه كل منا بحجته ويبدى ما لديه من الأدلة والمستندات . وانى لأرجو وأنتم لا تريدون إلا خير البلاد أن لا تجدوا ما يمنعكم من قبول هذا الاقتراح الذى يمهّد سبيل الوفاق والوئام ان شاء الله والسلام »

كتب ثروت هذا فكل ما فهمه « الطيبون الأبرياء » أنه رجل وديع سموح يعنى مايقول ويطلب السلام والوثام ... لم يكن على سعد شيئاً وإنما سعد جنى عليه في شرعة المنصفين ، وها هو ذا يحتكم الى الامراء والوزراء ويقبل حكم القضاة المنصفين ، وكل ما فهمه « الطيبون الأبرياء » ان الاحتكام على هذا النحو الغريب أمر معقول ناجع في فض المشكلات بين الأحزاب : يدع سعد برلمانه وانصاره ويقبل مع ثروت الى عشرين أو ثلاثين من الامراء والوزراء يعرضان ما يعرضان من الشكايات ويبسطان الحوادث والاسانيد والاوراق ، ويقولان ويردان وينتظران فصل القضاء ، فاما خرج سعد نازلا عن وكالة الأمة وعن البرلمان ، وإما خرج ثروت نازلا عن تصريح ٢٨ فبراير وهو لا يملك النزول عن شيء في هذا المقام

نعم . فهم الطيبون الأبرياء ذلك أو شاءوا أن يفهموه ولم يشاءوا ان يفهموا الغرض الذى لاخفاء به على أحد يريد النظر ويحب ان يفتح عينيه ، وهو أن ثروت يوقع بين سعد والامراء والوزراء ليقول : انظروا اليه يرفض اليد المبسوطة اليه ويرفع على قضاء المخلصين ، وانظروا الى انا الرجل الوديع الودود أسأله وأناجيهِ ولا اتق منه غير الاعراض والاحجام

فهى مكيدة جديدة وليست بيد مبسوطة ولا مودة معروضة ، ولم يكن فى وسع سعد أن يقابلها بغير ما صنع وان يجيب عليها بغير ما أجاب حين قال . . . ما أنت بزعيم فى الأمة ولا رئيس حزب منها ، حتى يكون هناك أهمية لخلافك أو وفاقك ، واسكنك فرد اختبرته السلطة الانجليزية فوجدت فيه آلة صالحة لترويج سياستها ضد بلاده ، فسلطته عايتها فاذا قها عذاب الهون ، وسعى جهده فى اسكات حركتها واخضاع نهضتها بوسائل من الارهاق بلغت حد الاعدام ، والاضلال وصلت الى الكذب والبهتان ، وكاد يصل بها الى تلك الغاية السيئة لولا عناية من الله ادركتها ولفتة من المليك اغاثتها فأقصته عن منصة الحكم وانقذت البلاد من ذلك الخطر العظيم . وأصبحت

بعد ذلك فردا لا يهم منك الا التحذير من ماضيك والاعتبار بحاضرك والاحتياط لقابلك . امامك المناظر العامة فاعلمها ان وجدت سميعا ، والجرائد السيارة فاكتب بها ان وجدت قارئاً ، والنوادي الخاصة فتحدث اليها ان وجدت نصيراً . اما التجاؤكم الى الامراء فشر ف ولكن لا يحوزه الا الاكفاء ، ولخير لبنى الانسان ألف مرة أن يكون الناس صرحاء على هذا الأسلوب من أن يكونوا طيبين على أسلوب ثروت في ذلك الخطاب

* * *

ومن الحق أن نذكر أن خصومه كانوا يخاصمونه ومن ورائهم سطوة الدولة البريطانية وفي أيديهم سطوة الحكومة المصرية ، ولا شاغل لهم بالليل والنهار الا أن يدبروا الأحابيل وينصبوا الشباك ولا يدخروا من السطوتين وسعاً في سبيل تحطيمه واغتصاب سعيه واستنارته إلى أقصى حدود الاستنارة فأغرب شيء بعد هذا أن يستغرب « المنصفون الطيبون » أن يحمل على خصومه وأن يقول عن بعضهم أنهم « برادع الانجليز » وعن بعضهم أنهم مجرمون ، وما في هذه ولا تلك ما هو أشد من كلمة السيد المسيح حين خاطب الكتبة والفريسيين بقوله « يا أولاد الأفاعى » وهو هو مثال الصفح والاحسان

لكن « المنصفين الطيبين » الذين لا يتحيزون لخصومه عليه — معاذ الله ! — قد استغربوا ما ليس بغريب ولم يروا حرجاً فيما كان يصنعه الخصوم لأنهم صنعوه باسم الحكومة والنظام والقانون ، ورأوا حرجاً فيما كان يقوله لأنه لا يقوله باسم الحكومة والنظام والقانون ؛ ترى ما ذا يرى المنصفون الطيبون لو انه جعل خصومه أولئك مجرمين حقاً بدلاً من أن يقول عنهم إنهم مجرمون ؟ ترى ماذا يرون لو انه استطاع وهو في الوزارة أن يدينهم بسفك الدماء وتزوير الوثائق والتحريض على انتهاك القوانين وتعذيب الأبرياء وتلويث سمعة القضية الوطنية بالمذابح والآثام ؟ ماذا يرى المنصفون الطيبون لو انه جعل خصومه المجرمين مجرمين قانوناً ورسمياً بدلاً من وصفهم بالاجرام بلفظ اللسان ؟ الا يكونون إذن مجرمين وتكون معاملتهم معاملة المجرمين

ونعتهم بنعوت المجرمين واجبا مفروضا على المجتمع الانساني يخطيء من
يقصر في أدائه ؟ وإذا كان لم يستطع أن يدينهم لأن السطوة البريطانية
تحميهم أيكون ذلك شفاعة لهم تشرفهم وملازمة عليه تعييه في نظر المنصفين الطيبين !
لخير ابني الانسان ألف مرة أن يدان الزعماء هـذه الادانة من أن
يظفروا عند المنصفين الطيبين بالثناء والاعجاب !

وقد رد سعد كثيرا من الأيدي التي انبسطت اليه ولكنه كان يرد
النفاق والغفلة ولا يرد الصدق والاخلاص . حضرته مرة وعنده فتح الله
بركات باشا يعالج إقناعه باستقبال أناس خرجوا عليه ثم عادوا اليه لما أقبلت
عليه الدولة وصلحت الأمور

قال يا فتح الله : إني لا أطيق أن يستغفاني هؤلاء الناس

قال فتح الله باشا : إنهم يا باشا يستغفرون ولا يستغفلون ! وما زال به حتى
رضى باستقبالهم على مضض ، ولو أصر على اقصائهم لأحسن غاية الاحسان
وله في كراهة النفاق وتبكيك المنافقين كلما عرضت لذلك مناسبات
الحديث نوادر من حضور البديهة وصراحة القول قلما نجأ منها مستحقو التبكيك
سأله أديب كبير كان من الخارجين عليه ثم عاد إلى تمليقه حين صارت
الدولة اليه : أحق يا باشا أنك كنت تقرأ صحيفة « كذا » في منفاك ! ويعني
صحيفة كانت تتممكم بأصحابه وتنحى على حزبه وتفحش في كثير من الأباطيل
قال : نعم وخير ما كان يعجبني منها حديثها عن نادى المنافقين أو حزب
المنافقين ! !

وكان من عادته على المائدة إذا كثرت عدد الحاضرين أن يوكل بكل صف
صديقا يعني بمن يليه ، فسمع يوما صديقا من هؤلاء يسأل جاره على سبيل
المداعبة أتأخذ مني أم تأخذ من فلان ؟ وكان ذلك الجار من أقرباء سعد الذين
يقبلون عليه في دولته كما يقبلون على خصومه إذا تغيرت الجدود . فسرعان
ما أجاب سعد : دعه فهو بارع في الأكل على الجنين !

فن هذا وأمثاله لم يكن المنافقون ليقاربوه الا وهم على حذر شديد

ولم تعرف لسعد خصومة عنيفة قبل ولاية الوزارة . فقد كان في القضاء محبوباً مبعجلاً بين زملائه وإخوانه ، وبين المحامين وأصحاب القضايا والموظفين الذين كانت تربطهم به روابط العمل . وكان مجمعاً على الثقة به والاعجاب بفضله وسجاياه بين عارفيه وصحابته حتى المتنازعين الذين لا يتفقون على شيء في مذاهب السياسة وتقدير الرجال . أما بعد ولاية الوزارة فقد أثقل إلى المجال الذي لا يسلم فيه من العداوة والأراجيف إلا رجل لا يفكر ولا يعمل ولا يستحق صداقة الأصدقاء . وقد كان هو أول وزير حرك بركة الوزارة الراكدة وأقلق الهاجمين عليها فيما كانوا مستغرقين فيه من سباب عميق . فجعل زملائه ومنافسوه من طبقة الوزراء يتهمونهم لأنهم لا يريدون أن يتهموا أنفسهم ، ووصفوا أقدامه على ما يحجمون عنه بالطمع تارة وبالبلادة تارة أخرى . وطاب لهم أن يسموه «أبا طويلة» لأن هذا اللقب يطلق في البيئات البلدية على الطوال الذين يتهجمون لما يعوزهم من رصانة ودهاء . كأنما كان أولئك الضعفاء المهازيل يحجمون لأنهم حكماء لا لأنهم جبناء ، وكأنما كانوا قادرين على مثل سعيه ولكنهم يأبونه قياماً بواجب الرصانة والدهاء

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

فلا جرم تضطرب حوله الأهواء وتضطرم حوله العداوات والمنافسات ، وأحجى أن يكون ذلك في بلاد تعددت فيها مناحي السلطة وأغراض الحاكمين ودسائس طلاب الحظوة والغنيمة عند أصحاب السلطات المتفرقين المتنازعين وقبلما عرفت لسعد — مع هذا — خصومة في هذه الفترة كان هو جانبيها والبادي بالعدوان فيها ، ولو شاء أن يتجنب الخصومات ويحيد عن سبيلها لما استطاع لأنه إذا نسي أنه عظيم لم ينس زملائه ومنافسوه عظمتهم وضآلتهم بالقياس إليه ، وقد يغتفر بعضهم عداوة بعض لأنهم يملكون وسائل الغلب

وأسلحة الصراع فيما بينهم فلا يئأس أحدهم من بلوغ ما قد بلغه سواه : إن كان حامل لقب فغدا يحمل مثل لقبه بسعى مثل سعيه ، وإن كان محسودا على وظيفة فغدا يدركه في تلك الوظيفة مع مضي الزمن أو مؤاتاة الأسباب والشفاعات . أما المزية التي لا يدركونها ولا يطمعون في ادراكها فهي القوة التي من أجلها يحسب لسعد حسابه وتعرض عليه من أجلها مودة الاقوياء الذين لا يحفلون بهم ولا ينتظرون منهم غير الخضوع والزاني والاستعطاف ، وذنوب سعد في ذلك ذنب كل عظيم ؛ أما فضيلته في محاسبة خصومه فليست مما نراه في كل عظيم ، لان كثيراً من العظماء لا يقنعون بما كان يقنع به من نقمة أو عقاب أو عتاب

ومقطع الحكم في هذا الباب أن تسأل : كم زعيما وطنيا في العالم كان أقل خصومة وارفق في الملاحاة من سعد زغلول ؟ فأن كان سعد من أقلهم خصومة وارفقهم ملاحاة فذلك حسبه من عذر وحسبه من ثناء . . . وإذا هو لم يكن بطلا في كل خصومة فعذره الواضح بل حجته القائمة انه لم يكن دائما في خصومة ابطال ، بل كان من خصومه من لا يستحقون صفح البطولة وسماحة الانفة ، ويرجع اللوم اليهم في ذلك وقلبا يرجع اليه



في أوقات قليلة كان يجرى الحديث بين سعد وبينى في الشعر والادب والفنون : احادثه في ذلك اذا قصدت خدمة لاهل الفن استعين به على قضائها ، أو احادثه اذا فاتحنى في بعض ارأى عن الأدباء المعاصرين أو الأقدمين أو عن مقالاتي الأدبية التي كنت انشرها يوما من كل أسبوع ولا أكتب يومها في السياسة . وكنت اشعر اذا انقضى الحديث ولم اتجه بالقول اليه انه كان يراقبني طويلا ولا يلبث ان يقول بين الجد والفكاهة : « يا فلان ، ما أحسبك إلا تعجب منا ومن خصوماتنا وانت فوق سحابك بين الشعر والخيال ! » قلت له يوما على اثر كلمة من هذه الكلمات : الحق اتنى لاعجب من هذا

ياباشا لأنه ليس بعجيب أن تكون للسياسة خصومات ، وأن يكون لهذه الخصومات أهلها والقادرون عليها . ولكن الحق أيضا انى لا أنصر رأيا على رأى رعاية للبرامج الحزبية أو المناوشات الموقوتة ، فانها كما تقول يادولة الباشا لا تستغرق انسانا مشغولا بالأدب والخيال . انما انصر الرأى على الرأى رعاية للقيم الانسانية العليا التى هى عندى أرفع من القيم الحزبية ، بل أرفع حتى من القيم الوطنية

ولا أدرى هل أعجبه ذلك أو لم يعجبه ، ولكنى اعلم ان الخصومات السياسية فى عهد سعد لم تكن تعينى الا لأنها كانت تمثل لى جانبين فى أحدهما القوة المستقيمة والدعوى الصحيحة وفى الجانب الآخر الحيلة الملتوية والدعوى الزائفة أو التقليدية على احسن ما توصف به من صفات

ها هنا رجل قادر لم يكسب قدرته من المناصب والتقاليد وانما كسبها من خلقته وتكوينه وميراث آيائه واجداده ، وها هنا رجال يناضلونه عن لا يعز وجودهم فى كل زمان وعن يقضون الحياة فى الزلقى الى السادة الغالين ينالون منهم المظاهر والمراسم او ينالون المظاهر والمراسم لأنهم منسوبون الى هذه الأسرة أو تلك بين طبقات الموظفين . ثم يخيل اليهم انهم عملوا كل ما عليهم لا كتساب العظمة وتسخير التاريخ ، ويسائلون أنفسهم مخلصين أو غير مخلصين : ما هى العظمة الانسانية بعدما بلغناه وادركناه ؟ ومن هؤلاء أبطال الأمم وأصحاب القيادة فيها ونحن فى الذروة العليا من المراتب والإلقاب ؟ يتبيخ الدم فى العروق حين يصطدم الانسان بدعوى هؤلاء الادعاء ، ويتبيخ الدم فى العروق حين يصطدم باحتياهم ونجاحهم وما هو إلا نجاح فى تزيف الحقائق الكبرى والقيم الخالدة وابرار للمساعى الانسانية فى صورة كلها تمويه على تمويه

ومتى نظر الانسان الى سعد وخصومه هذه النظرة فانه لينصره لأنه إنسان قبل ان ينصره لأنه من حزبه أو من وطنه ، فان القيم الانسانية هى الباقية الهادية من وراء ضلال المطامع والاضغان وحروب الاحزاب والاطان .

سعد في بيته

في ديسمبر سنة ١٨٩٥ خطب سعد شريكة حياته السيدة الجارية أم المصريين صفية زغلول كريمة المرحوم مصطفى فهمي باشا رئيس الوزراء في ذلك الحين ، وفي شهر فبراير من السنة التالية احتفل بزواجه ، إذ كان يومئذ في السادسة والثلاثين

والسادسة والثلاثون ليست بالنسب المبكرة للزواج بين المصريين . فقد جرت العادة — ولا سيما في تلك الأيام — أن يفكر الآباء في تزويج أبنائهم وهم دون العشرين أو في العشرين على أقصى تقدير ، ولكن سعداً لم يكن ينظر الى الحياة نظرة الفتيان الذين يعيشون معيشتهم الدارجة من الدراسة الى الزواج الى التجارة أو الوظيفة على نظام رتيب لا يطرأ عليه تبدل ولا تغيير . بل كان قتي يتطلع الى المجد والمستقبل من بداية حياته ، وكان رجلاً له رأى في المرأة وفيما ينبغي أن تكون عليه شريكة الحياة يخالف رأى السواد الغالب في تلك الأوقات وفي جميع الأوقات ، وحسبه من ذلك أنه هو الذي أعان قاسم أمين زميله وصديقه الحميم على إظهار كتابه في « تحرير المرأة » وتشجيعه على احتمال مآل في سبيله من سخط وعناء ، وكان فضلاً عن ذلك يقيما يتصرف في أمر زواجه كما يشاء هو لا كما يشاء الآباء والأهلون . ولو عاش أبوه حتى بلغ سن الزواج في القرى لجاز أن يختلف تاريخ حياته من هذه الناحية بعض الاختلاف ، ولكنه ترك لنفسه في هذا الأمر فأصبح في حل من اختيار الزمن واختيار القرينة كما يريد ، وأصبح في حل من الانتظار الى أن يدرك الشأو الذي يتيح له أن يتطلع الى قرينة توافقه في العقل والخلق وتجاربه في مضمار الحياة ، وقد كان فوق ذلك تلميذاً للسيد جمال الدين الذي عاش عيشة المتبتلين واستطاب حياة الانفراد والجهاد

فلم يكن غريباً عنده أن يبقى الرجل الى الثلاثين أو ما بعد الثلاثين بغير زواج وكانت السيدة قرينته في الثامنة عشرة حين بنى بها ، أى في السن المألوفة لزواج البنات بين الأسر التركية والبيوت المهذبة الى الآن . وكان هذا الزواج من أسعد توفيقاته في جميع أدوار حياته ، لأنه وفق فيه الى قرينة هى نعم القرينة للرجل العظيم : كانت فى سن بنته فتعلمت ما تتعلمه البنات من الآباء ، واطاعته طاعة الصغير للكبير الموقر المحبوب ، ولكنها عاشت معه حتى رثمته وتكفلت به تكفل الامهات بالبنين الذين هم فى حاجة الى العطف والعناية والتدبير . ولم يرزقا الابناء فى قرانهما الطويل فاستحالت عاطفة الالفة الزوجية الى عاطفة الأمومة الحنون ، وامتزجتا أحسن امتزاج

وكان من دلائل نبوغ سعد وامتيازهِ على الجيل الذى هو فيه انه أصهر الى بيت مصطفى فهمى باشا رئيس الوزراء . فقد كانت الأسر التركية جميعا - فضلا عن الأسر الرفيعة من تلك الطبقة - ترفع عن مصاهرة الفلاحين وسعد فلاح . وكانت ترفع ~~عن~~ مصاهرة المحامين وسعد كان محاميا فى العهد الذى لم تسم فيه صناعة المحاماة الى ذلك المقام . فصاهرته لمصطفى فهمى باشا تدل على سعة فى تفكير ذلك الوزير الكبير وطيبة فى سريرته وسجاياه ، كما تدل على مكانة لسعد لم تكن لنظرائه فى ذلك الجيل

وقد وقع ذلك الزواج موقع الاستغراب عند كثيرين فزعموا أنه لم يكن ليوفق هذا التوفيق لولا وساطة الأميرة نازلى فاضل صديقة سعد وصاحبة المنزلة الرفيعة عن الساسة المثقفين . لكن الحقيقة التى سمعناها من الثقة ان الأميرة لم تكن ترتاح الى هذا الزواج ولم تساعد على إتمامه ، بل لعلها ساعدت على نقضه وارجائه ، وإنما كان قاسم أمين صديق سعد هو هاديه الى هذا التوفيق ، لما كان يعلم من شرط سعد فى الزوجة الصالحة كلها تحذثا فى شأن المرأة والزواج ، وكثيرا ما كانا يتحدثان فى هذا الموضوع

وقد سئل سعد مرة — كما سمعت — في حقيقة ما يروى عن وساطة الأميرة نازلى في زواجه بالسيدة صفية . فابتسم وقال : لا . لم تكن الأميرة رحمها الله هى صاحبة هذا الفضل ولكنه كان قاسم أمين . . . ثم قال بعد صمت يسير : تلك أكبر مآثرة أذكرها لقاسم مدى الحياة

ولم يرق زواج سعد بصفية كثيرين من « عذال » الزواج الملازمين لكل بيئة شرقية إلى هذه الأيام . فلا يكاد يشرع في زواج حتى تكثر الأقاويل من هنا وهناك عن الزوج والزوجة وعن الاصحار والآباء . فأشاعوا فيما أشاعوا أن سعداً تزوج في شبابه من إحدى بنات بلده وأن له منها ذرية في قيد الحياة ، وساعد على رواج هذه الاشاعة كبر سنه عن السن المألوفة لزواج الموسرين من أبناء الفلاحين . ولكنها أشاعة سمعت ما ينفىها نفياً قاطعاً ولم أسمع ما يؤيدها من أحد يعول له على كلام . وسألت العالم الفاضل المرحوم الشيخ محمد زيك بك الايبانى فيها فاستبعدها جداً وقال : « إنى أعتقد أنها غير صحيحة » . ويؤكد اعتقاده أن ابيانة قائمة على أسر ثلاث هى أسرة الزغاللة وأسرة زيد وأسرة حسام الدين ، فلو تزوج من بلدته لتزوج من إحدى هذه الأسر ولاشتهر ذلك . وبعيد جداً أن يتزوج من فتاة من المجهولات الانساب لانه كان عاراً شديداً بين أبناء الريف . وقد كان سعد مشغولاً بتحصيل دروسه حتى في أجازات الصيف . فغير بعيد أن يتحصن طويلاً أيام الشباب »

وتظل هذه الاشاعة تتردد حتى بعد الزواج ، ويتفق أن يشتغل سعد بالتحضير لشهادة الحقوق ودراسة اللغة الفرنسية عقيب زواجه بوقت قصير وأن يعكف على الدراسة في حجرة لا يدخلها أحد الى السحر أو مطلع الفجر في بعض الأحيان ، ويزور السيدة صفية صديقاتها وصويحباتها أثناء تلك الليالى فلا يرين سعداً حيث ينبغي أن يرينه في تلك الايام ، ويشاء الفضول أن تسألها بعضهن : أصحيح أن قرينك له بيت آخر وقرينة أخرى كما يقال ؟

والسيدة صفية إن لم تكن متهمكة بطبعها فقد تعلمت التهمك من ذلك الرجل الذى كان يتسلح بالفكاهة كما كان يتسلح بالجد فى تزييف الاشاعات والأقاويل ... فتقول السيدة : نعم . له زوجة أخرى ولكنها فى هذا البيت . انظرن : سأريكن إياها وأسمعكن سرار سعد معها فى هذه اللحظة . فيعجبن ويزداد بهن الاستطلاع والفضول والاستغراب من رضى السيدة بهذه المشاركة ، وينهضن معها الى حيث يكون سعد منكباً على الأوراق يقرأها بصوت جهير على عادة الأزهرين ، والى جانبه سرير أعده للنوم إذا تأخر به الدرس الى هزيع الليل الأخير ، مخافة أن يزعج السيدة بعد هذا السهر الطويل

— أسمعتن ؟

— نعم . ولكن أين الزوجة

— الزوجة هى هذه الأوراق ، وهى هى الضرة التى سمعتن بها فيما يقال .

وجد سعد بعد زواجه البيت الذى يحتاج اليه أمثاله ويأوى اليه قلبه وعقله والعهد برجال العمل والكفاح جميعاً أن ينشدوا الدعة والسكينة فى البيوت لافرق فى ذلك بين ميدان الحرب وميدان العمل والطموح ، فالجنود وأبناء الأمم المتجندة عامة مشهورون بتوفير زوجاتهم ، والاطمئنان إلى تدبيرهن المنازل ، واستقلالهن بكل ما فيها من شئون .

اشتهر بذلك رجال الترك والفرس الأقدمين واليابان ، واشتهرت به عصور الفروسية فى جميع الشعوب

وسعد فى بيته كان هو المناضل المكافح فى ساعة السلام . لا يسمع له صوت ولا يعرض لشأن من شئون المنزل . حتى استغربت أمره خائطة من الحائطات اللواتى يزرن بيت الأمة . وبنات هذه الطبقة يعجبن دائماً من الرجل بارتفاع صوته فى الدار ، وعندهن أن صوت الرجل الجهير المسموع

الذى يرن بالزجر والنهر والدعاء والنداء هو نحر الزواج وهيبة البيوت ،
فقلت يوماً للسيدة الجميلة أم المصريين : أين هو الباشا ياسيدتى ؟ ألا يسمع
له صوت ؟ ألا يحس له وجود ؟ فقلت لها : بلى يسمع صوته فى كل مكان
إلا هذا المكان

وبلغ من ذلك أن الخدم كانوا لا يرهبونه ولا يتقونه ، وكانت أم المصريين
تشكوهم اليه وتدعوه الى تخويفهم وزجرهم ، فكان يقول لها : هذا شأنك ،
فاصنعى بهم ما بدالك ، وعاقبهم بما تشائين إلا قطع العيش . فدون ذلك
ويكفى العقاب والتأنيب .

وجرت معاملته الخدم على ذلك فلم يطرد من بيته أحداً دخل خدمته
إلا لسرقة أو وقاحة لا تطاق . أما من برىء من السرقة والوقاحة فهو فى
أمان ولا يزال فى أمان مدى الحياة . يتولاهم ببره ويوصى ببرهم بعد مماته ،
وفى إحدى وصاياه يقول لأم المصريين : « إذا حم القضاء وأدركتنى الوفاة
أرجو أن تصرفوا من تركتى مبلغ خمسمائة جنيه للحاج أحمد تابعى وخمسمائة
الى محمد أحمد ومائة الى على الفراش إذا كانوا فى خدمتنا عند حلول الأجل »
وأوصى للآنسة « فريدا » الوصيصة الألمانية بمبلغ خمسمائة جنيه ، كما أوصى
لآخرين بمبالغ تقل أو تزيد على حسب طول الخدمة وحسن السلوك

وعرف الخدم منه هذا العطف وهذه السماحة فكانوا يحترثون عليه ولا
يتهميون الصراحة فى التحدث اليه : حدث مرة حين كان فى قصر كارنافون
بانجلترا أن نظار تابعه الحاج أحمد الى تلك الدنيا العريضة والمجد الأثيل فوقع
فى روع التابع الساذج أن الانجليز يساومون سعداً بكل هذا ليركن اليهم فى
قضية البلاد . فصاح به وهو مشدوه : « يا باشا « اوع » للبلد يا باشا
هذا شىء مهول » !!

قال سعد وهو يروى لنا هذه القصة . فضحكت وطمأننت الحاج أحمد ،

وقلت في نفسي : إن قضية يخشى عليها هذه الخشية أمثال هذا الرجل الساذج
لهي في حرز حريز »

وربما تبسط في ملاحظة الخدم في اخرج الاوقات ليدفع وحشتهم
ويسرى عنهم همومهم وأوجالهم ويداعب جهلهم كما يداعب الأب جهل
الأطفال الصغار ، ومن نوادره في ذلك انه كان معهم عند نفيتهم الى جزيرة مالطة
خادم لخدم الباشا اسمه حسن ، فلما وصلوا الى بورسعيد وايقن الخادم بالسفر
البعيد اضطرب اشفاقا على ابنائه وتوجسا من هذه الغيبة المجهولة التي لا يعرف
مدامها ولا يدري متى تقسم له الاوبة منها . فقال سعد لخدم : ضاعف له ولهم
أجرهم ليطمئن على رزقه ورزقهم ، ولما وصلوا الى مالطة والرجل لا يزال
في جزع واضطراب قال سعد : أما المرتب فقد زيد وبلغ حد الرضى ! فلم يبق
إلا القاب التكريم والتشريف ، ونحن هنا صالحون لتأليف مجلس وزراء
فهلوا نجتمع وننظر في أمر صاحبنا حسن بما يرضيه ! واجتمع المجلس
- مجلس الوزراء المعتقل - وقرر منح الخادم حسن رتبة البكوية السنية ! ،
وتعاهدوا من تلك اللحظة ان لا يتادوه إلا بما يحسن بك ولا يذكره إلا
باسم حسن بك . وسر الرجل بالمنحة واعتقد انها منحة رسمية ، وظل معتزا
باللقب غيورا عليه ، إلى أن مات

وبهذه الملاحظة كسب قلوب الخدم واطمئنناهم إلى حلمه وقلة خشيتهم
منه واتقاهم لزجره وعقابه . وهكذا كان من عجائب الطبائع الانسانية ان
الرجل الذي كان يملا صوتة الدنيا لم يكن يسمع له صوت في بيته ، وان
الرجل الذي كان يهابه الكبراء والأمراء لم يكن يهابه الخدم والاتباع

ومضت السنوات ولم يرزق سعد نعمة الذرية . فكأنما كان هذا الحرمان
يزيد عطف الزوجين كل منهما إلى الآخر ولا ينقص منه ولا يكدره بأسف
ظاهر ولا شجن دخيل ، فليس بين الأزواج الممتعين بالأبناء والأحفاد

من كان يحب زوجه أكثر من حب سعد لصفية أو من كانت تحب زوجها أكثر من حب صفية لسعد ، ولحده عليها وحرصه على سلامتها آثر السفر إلى أوروبا في الصيف الذي مات فيه محمد عبده رحمه الله . مع ولاته الشديد لذلك الصديق العظيم والأستاذ الكريم ، ووفاته المعروف لخاصة الصحب والاخوان ، لأن السيدة صفية كانت ذلك العام على حالة من المرض لا يؤمن فيها الإهمال ولا غنى فيها عن العناية والعلاج

ولم يسمع عن سعد أنه كان يذكر الحرمان من البنين أمام أهله أو شريكه حياته . وإذا ذكره لها فإنما يذكره في معرض التهوين والمواساة ، فكان يقول لها : لقد فاتنا النسل فاصبحت هذه الأمة كلها من أبنائك وأبنائى . ونعم العوض الذى عوضنا الله

ولدقة الحس فى نفسه من هذه الناحية كان يؤثر أن لا يمسها بكلام أو إشارة على مسمع من الأزواج المحرومين : رأى يوما إحدى قريباته تشتري تذكرة يريد عليها صورة طفل جميل . فقال لها : ما عساك أن تصنعى بها ؟ قالت أرسلها إلى فلانة وأتمنى لها أن يرزقها الله طفلا مثله فى صباهته وجهاله . قال : وهل هناك ما يدعو الآن إلى ذلك الأمل ؟ إن كان فابعثى بها ، والا فخير أن لا تثيرى فى قلبها هذه الذكرى ، فلعلها لا تظفر بالولد فتقلب إلى حسرة وشقاء.

وإذا كان سعد لم ينعم بعطف الأبوة فقد كان عطفه على أهله وأقربائه مضرب الأمثال بين عارفهم وعارفيه . بل لقد كان هذا العطف يبلغ به أحيانا مبلغ الضعف والتسليم ، فكان لأخيه أحمد فتحى سلطان عليه عظيم ، وكان لابن أخته فتح الله باشا دالة عليه لا يتعذر معها رجاء . ولما مات أخوه أحمد فتحى ووقف لشكر المحتفلين بتأبينه أقم أمام الجمع وهو الخطيب المنطيق ، ولبث هنيهة لا ينطق ولا يتحرك . ثم احتبس صوته وانفجرت عيناه بالدموع ولم يقو على الكلام

ولاحظ عليه بعض الصحف انه يعين أقرباءه فى المناصب الكبيرة ،

وتحدث اليه بعض الصحفيين فقال : « إنهم يدهشون لأنى عينت فى بعض المصالح رجالا كان الانجليز قد اتخذوا ضدكم اجراءات يقولون إنها جنائية وقد كان الواجب ألا يروا فى عملى هذا غير انه أمر طبيعى ما دام على رأس الحكومة رجل كان الانجليز قد نفوه »

قال الصحفي فقلت : ويلومونك أيضاً على أنك عينت بعض أقاربك فى وظائف عالية فقال : أو كد لك ان لى أقارب كثيرين . كثيرين جدا فى الغربية ، وفى مناطق عديدة من أقاليم القطر : وأنا آسف جداً للأسف لأنهم ليسوا على معرفة ولا كفاءة ، والا لكنت عينتهم فى كل مكان ، لتكون لنا بهم إدارة زغلولية حقيقة اسماً ومعنى ودما . ثم ضحك الرئيس وواصل كلامه فقال :

« لما نفونى نفوا معى اثنين من اقرب اقربائى الى فهل نفيا لأنهما من دى ؟ أو لأنهما كان يمثلان قوة حقيقية فى خدمة القضية الوطنية ؟ سواء اكان هذا أم ذاك فواجبى مرسوم يقضى بأن أضع هذين الرجلين الى جنبى ليقاسمانى مسئوليتى مادام قد قضى عليهما بان يكون حظهما من حظى . . . قل عنى اننى عند تساوى المعرفة والكفاءة أفضل قريبى على غيره لأنى بطبيعة الحال اثق بقريبى ثقة تامة فى تنفيذ سياستى وجعل الحكم سائرا على وجهة نظرى ، أليست على جميع مسئولية الحكومة والادارة ؟ فهل تكون مسئولية على الرئيس اذا لم تترك له حرية تامة فى اختيار معاونيه ؟ وهل ألام على سوء الادارة اذا كنت مضطرا للاحتفاظ بجميع رؤساء المصالح الذين عينتهم غيرى ؟ لقد قلت لك ان انتقادات خصومى لم تؤثر فى ، وسأواصل المهمة التى بدأت بها »

قال الصحفي : قلت ويزكرون ايضا ان هناك سعديين مستائين

فقال : قرأت هذا فى جريدتك ولكن لم أصدقه ١١

ودع أن سعداً لم يعد فى كلامه الانصاف ، ودع أن الكفاءة التى شهد بها لأقربائه قد شهدت بها وزارات غير الوزارات السعدية ، ودع انه كان يستحق

اللوم — لا الشناء — لو تخطى الأكفاء من رجاله لأنهم أقرباء ، ودغ ما في كلامه ذاك من التحدى والاغظة التي كان يتعمدها في أمثال هذه الأحاديث دع هذا كله ويبقى أن عطف سعد على أقربائه أمر ماثور مشهور ، وأنه كان لا ينسأهم حين ينبغي أن يذكرهم بالخير والمبرة . نعم وكان يذكرهم بما له كما يذكرهم بجاهه وسلطانه ، وقد ترك قليل ما بقي من ثروته لينفق منه بعد موته على الأقرباء الفقراء ، وكتب إلى الأستاذ محمد زيد بك رحمه الله عن الضياع التي كان يملكها سعد فقال ما يأتي بنصه :

« سلاما وتعظيما واحتراما . وبعد فقد قلت لسيادتكم ان المغفور له سعد زغلول كان قد اشترى عزبتين بجوار دمنهور ثم باعهما . وازيد على هذا انه كان قد اشترى أيضا أرض المرحوم سيد احمد القاضي عمدة مطوبس بالاشتراك مع المرحوم سيد احمد بك زغلول ، ومساحة هذه الأرض أربعمئة فدان تقرىبا ويبيع بالمزاد العلنى لوفاء دين عليه (أى على العمدة) ولم يزل المرحوم سيد احمد بك زغلول يباشر ادارتها حتى توفى فانتقل نصيبه الى نجله سيد احمد بك زغلول الصغير وهى مملوكة له للآن . وقد باع المغفور له سعد باشا زغلول نصيبه الى المغفور له عبد الله بك زغلول رغبة منه فى ترقية أفراد الأسرة ماديا وأديبا ، وأشيع فى وقتها انه نزل له عن نصيبه كما نزل له عن الأطنان التي ورثها من والده فى ابيانه »

والذى سمعته من مصدر آخر أنه أعطى من ملكه ستين فدانا لابن أخيه عبد الله بك زغلول لانه توسم فيه النجاة كما قال ، ثم أعطاه الاربعمئة الفدان التي ذكرها الأستاذ زيد بك ، وأنه أوصى بالثلث من جميع الأموال التي يتركها سواء كانت ثابتة أو منقولة الى كل من سعيد ورتيبة ولدى شقيقته . لكل منهما النصف أى نصف الثلث المذكور ، وذلك قبل ان يدرك الموت سعيداً فى عنفوان صباه

فالرجل كان يتخذ من ذوى قرابته أبناء شملهم بأجمل ما تشملهم به الابوة

من معونة واشفاق ، وكان عطفه في حياته الخاصة مقسوما بين آله وشريكه حياته ، وقد أخلف أناس من أقاربه ظنونه بما جزوه من عقوق وكنود ، فاما في بيته فقد جوزى على عطفه الكريم أوفى الجزاء

نعم . نعتقد نحن كما يعتقد جميع العارفين بمناقب السيدة الجليلة أم المصريين أنه قد استفاد من عشرتها في حياته العامة كما استفاد من عشرتها في حياته الخاصة فهي قد مهدت له الدعة والهناء في البيت ، وهي قد مهدت له النصر والرجاء في معترك النضال . وكان قلبها الكبير يعرف الخنو على مجد سعد كما يعرف الخنو على شخص سعد ، فلم تكن تستسلم للجزع حين لا بد من الجلود والاقدام ولم تكن تضعف اشفاقا على سلامة قرينها حين ينبغي ان تقوى اشفاقا على مجده الباقي على السنين

يوم جاءها سعد يقول لها في فجر الثورة : يا صفيّة ؟ اتنى وضعت رأسى على يدى هذه . وبسط لها يمينه - كان جوابها : وضع رأسى هذا على يسراك ويوم جاءها الرسل ينقلون لها ما يعاينه سعد في منفاه بسيشل وبيالغون في سوء ما يعاينه ويسألونها أن تستعطفه على نفسه وعليها وترجوه أن يعتزل السياسة ليضمن العودة الى بلاده وبيته - كان جوابها : ان كانت حياة النهضة في بقاء سعد بمنفاه فبقاؤه في ذلك المنفى هو الذى آتمناه .

ويوم تحدثت الى دار الحماية بعد نفيه الى سيشل كانت تحدثهم باللغة العربية وتأتى أن تتكلم بغيرها وهي تحسن الفرنسية والانجليزية ، وكانت تتطلب اللحاق به الى الجزائر السحيقة وهم لا يجيبون . ثم بدا لها انها استطاعت أن تخلف سعداً في إذكاء روح الأمة وشحن عزائمها فابت إلا البقاء بعد أن عادوا يأبون عليها البقاء ويسمعون لها بالذهاب الى حيث تشاء ، وكانت يومئذ أكبر عطفاً على قرينها وأيقظ عيناً على مجده وخلوده مما كانت يوم استطارها الاشفاق إلى موافاته ، وأنساها ما يكون عليه بيت الأمة وتكون عليه الديار المصرية كلها بعد غيابها وغيابه

ومواقفها من هذا القليل لا تحصى في هذا المقام . لكن موقفين اثنين منها
فيهما الكفاية للدلالة على المعين الغزير الذى كان يأوى اليه سعد من نبل نفسها
ورجاجة لبها وسرعة تصرفها في مقابلة كل حالة بما يناسبها ويستدعيها ، فهى
التي أنكرت أن يحمل سعد في نعش تناط به الأوسمة والأنواط وعلامات
المناصب الرفيعة ، وأبت إلا أن يدفن وهو «سعد زغلول» وحسب كما سيعيش
في ذكريات التاريخ وهو «سعد زغلول»

ذلك موقف جليل من زوجة في ساعة الفراق الأخير
وموقف آخر يشف عما عندها من روح الفكاهة في رد الاساءة بما
تستدعيه من سخر وتقرير . ذلك يوم أن تسوّر بعض المحققين دارها ولم
ينتظروا حتى يفتح لهم الباب بل هبطوا الدار على سلم جاءوا بها هذه المفاجأة ...
فقد أصرت بعد ذلك أن لا تفتح لهم الباب ليخرجوا ووقفت في حديقة
الدار تنظر اليهم وهم يصعدون على السلم متعثرين ، وتقول لهم : من جاء من
الحيطان فليذهب من الحيطان . أما الباب فأنما يفتح لمن يأتون البيوت
من الأبواب

هذه اللباقة وتلك النبالة كانت ولا شك مصدر عون كبير في الحياة
العامة والحياة الخاصة للزعيم العظيم

وان من دلائل العظمة في سعد — ولا شك — ان استحق الحب في
حياته وبعد مماته من هذه النفس الكريمة وهذه الفطنة الأملية وهذا القلب
الكبير ، بل استحق الطاعة فيما لا طاعة فيه بين النساء العصريات حتى للزوج
المحجوب والآب الموقر ، وهو مخالفة الزى الشائع والعرف المصطلح عليه ،
فان للزى سلطانا فوق كل سلطان وللزينة حكما يصعب نقضه بغير مضاضة
واستكراه ، لأن نقضه لا يفيد ترك الزينة وحسب فهذا خطب يسير وخسار
لا يضير . ولكنه يفيد أحيانا معنى التعرض للزوجة في خصائص أمرها والمشاركة

لها في منظرها وملايح وجهها ، وهو شيء إذا فهمته الزوجة على هذا المعنى فسرعان ما تنكره وتتمرد عليه ، ومع هذا كانت السيدة صفية تعلم أن سعداً لا يرضى عن المساحيق التي كانت ولا تزال شائعة بين السيدات فأخذت نفسها باجتتاب هذه المساحيق طوال الحياة ، ولم تبال أن تظهر بغيرها بين صديقات وقريبات كلهن يجارين العرف ويلتزم من شعائر الأزياء

وكانت تنسى في معيشتها الزوجية كل تفرقة في الحقوق والمعاملات التي كثيراً ما ينفصل فيها الأزواج والآباء والأبناء ، فمكأننا كأنهما شخص واحد له مورد واحد وحساب واحد ، ولم ينفصل حسابها من حسابها إلا بعد ما تكررت حوادث النفي والمصادرة لأموال الثوفد وأموال سعد ، وخيف من ضياع حقوقها وهي وحدها في مصر تحتاج إلى مال معروف لها ليس ينازعها فيه منازع أو يلتبس حسابها بحساب غيره ، ولو لذلك لنسيت مدى العمر أن لها وجوداً مستقلاً في المال كما نسيت أن لها وجوداً مستقلاً في العطف والعناية ولعله مما يستحق الإثبات في تاريخ سعد ، لأنه قلما يخطر على البال ، أن خزانته لم تكن تحتوى يوم نفيه الأول أكثر من خمسين جنيهاً ويوم نفيه الثاني أكثر من جنيهاً واحد ! لأن سعداً لم يكن حريصاً على المال وليس الاشتغال به من شهوات نفسه وهموم فكره ، وقد أسلفنا أنه لم يقبل في قضية من قضاياها أيام المحاماة أكثر من خمسمائة جنية على كثرة المتنافسين على توكيله واستعداد معظمهم لارضائه ، وإن غالى في الطلب والاشتراط

ومما يذكر عن زهده في المال أنه لم يقاض في طلب حقوقه أحداً في مستأجرى أرضه أو أرض حرمه والفقراء منهم بصفة خاصة . فإذا أبطأ أحدهم في سداد ما عليه وعلم أنه معذور أمهله زمناً وربما نزل له عن بعض حقه ، وقد يتجاوز عن ثلث الاجرة أو نصفها إذا كانت الستة من سنوات العسر والكساد ، وكان تصرفه هذا مع المستأجرين مثلاً اقتدى به أصحاب الحقوق راضين أو كارهين في سنة ١٩٢٦

ولم يتردد في يسع ضيعة كانت باقية له بأقليم البحيرة في بداية الحركة الوطنية ، لأنه اراد ان يتفق على نفسه وعلى الاعمال التي يعملها باسمه في أيام جهاده ، ولا يكلف خزانة الوفد درهما مما جمعه الوفد باسم القضية الوطنية وكذلك اتفق مزاج الزوجين في قلة الاشتغال بالمال الا بالقدرة الضرورية المعقول

وكانت السيدة صفية — وهي ربيبة البيت العامر بالخدم والاتباع — تأتي ان تكل شأننا من شئون سعد في بيته الى خادم أو خادمة ولو كان من اتفه الشئون ، فكانت لا تأنف من الاشراف على تنظيم الاثاث وطهو الطعام ولا سيما بعد أن أصيب بالاسقام التي تستدعي العناية الخاصة باعداد طعامه ، وجعلت همها الا كبر أن يجد البيت — في كل حين وفي كل حالة على النظام الذي يحبه والتدبير الذي يستريح إليه ، فلم يسأل هو قط عن عمل من أعمال المنزل ولم تغفل هي قط عن عمل من هذه الاعمال ، وبذلك كان الزواج لسعد « سكونا » بالمعنى الرحيب الذي اراده القرآن الكريم ، وسهل على سعد ان يتعب في ميدان الكفاح لأنه قد سهل عليه ان يستريح في البيت

ومن المشهور عنه انه كان لا يغير نظام معيشته في بيته أقل تغيير على تعاقب السنين الا لطاريء غير منظور ، ففي نحو الساعة السادسة الى السادسة والنصف يستيقظ فيتناول القهوة ثم يستحم ويتناول طعام الافطار . ويأخذ يعد ذلك في حلاقة ذقنه يسهده وهو يستمع الى ما يقرأ له من الصحف والوسائل ، ثم يهبط الى مكتبه قريبا من الساعة العاشرة فيلبث به قليلا ان كان على نية الرياضة أو يبقى فيه الى الساعة الواحدة ان كان على موعد من عمل أو مقابلة زاترين ، وفي اكثر الاحيان يركب سيارته مع صاحب من أصحابه أو مساعد من مساعديه الى الجيزة أو الزمالك أو حدائق القبة أو القناطر الخيرية للرياضة والترويح عن الخاطر ، وقد يتمشى هنالك نحو نصف

ساعة اذا صفا الجو واعتدل الهواء . ثم يعود الى البيت ليتناول الغداء فيما بين الساعة الواحدة والساعة الثانية ، ولا يأكل على انفراد بل يرسل احيانا في طلب اناس من اصحابه ومعارفه ان لم يجد في بيت الامة من يجالسه على المائدة ، وحديثه على الطعام من امتع ما يكون الحديث : بين ذكريات الماضي وحوادث الحاضر والتعليق على الأحوال والاشخاص ، فاذا فرغ من غداءه لبث على المائدة نحو نصف ساعة يشرب القهوة ويستطرد في الحديث ، وينام ساعة أو ساعة ونصفاً ثم يقرأ صحف المساء ورسائله ويهبط الى مكتبه حوالى الساعة الخامسة ، فيخرج للرياضة أو يبقى للعمل واستقبال الزائرين الى ما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، اذ يتناول العشاء مع من يدعوهم من الحاضرين ، ويقضى ساعة في العشاء والحديث . ثم يستريح لحظة ويأخذ في القراءة الى الساعة الواحدة وهى موعد نومه في اكثر الاوقات .

ويكفيه في النوم من اربع الى خمس ساعات

هذا في غير أيام الوظيفة ، أما أيام العمل في الوزارة أو القضاء فكان يلاحظ مواعيد الديوان قبل كل شيء ، ثم ينظم أوقاته في غير تلك المواعيد على نحو ما تقدم ، وقد يأخذ نفسه بمواعيد العمل حتى حين يتطوع به في غير دواوين الحكومة . فلما كان يتولى رقابة الجامعة قبل ان تلحق بالحكومة كان يثابر على الحضور والانصراف كل يوم في موعد محدود ، ويندر ان يغيره لقلّة العمل في موسم الاجازات

ولم تكن له صنوف خاصة من الطعام يحببها ويستكثر منها . لكنه كان كسائر المصريين يحب الملوخية الخضراء في أوانها ، وكان كسائر ابناء الاقليم الرشيدى يحب الارز ويميل الى الافتنان في طبخه ، ومن خلائقه التي تدل على ملسكات نفسه اكثر من دلالتها على ذوق الطعام انه لم يقطع الارز والحلوى قط عن مائدته بعد أصابته بداء السكر ، وكان يلذ له ان يراها تؤكل وان لم يكن من الآكلين ، وتلك خصلة سعدية فيها مثال من قوة الارادة

المطبوعة بلا كلفة ، وفيها تفسير لمعنى الانانية أو الشخصية فيه . . . لا ينسى ما يشتهي ولكن يكفيه من اشتهاه ان يستمتع به الآخرون بأذنه وعلى يديه وكان يحب العنب والبرتقال ، ولعله كان يحب كروم العنب ومروج البرتقال أكثر من حبه الفاكهة لمذاقها وغذائها . فاذا رأى تلك الكروم والمروج قال في لهجة الشاعر المغتبط بمنظر الوف والجزالة : هذه بلاد غنية أو هذه تربة خصيبة ، وسره أن يلح الخصوبة ممثلة في دوالي العنب وأشجار البرتقال

ومن عنايته بضيوفه انه كان يأكل من الأصناف التي تطبخ لهم وان لم تكن به رغبة فيها . أذكر انه لحظ يوماً أن ضيفاً من ضيوفه القبط في مسجد وصيف كان يحجم عن معظم الأصناف فسأله : ما بالك لا تأكل معنا يا فلان ؟ قال انه انصيام يا باشا . . . قال وماذا تشتهي أن تأكل في الصيام ؟ قال الفول و« البيسارة » وما إليها . . . فأمر الطاهي أن يصنع له ما يطلبه من هذه الأصناف كل يوم . وجىء بالبيسارة في اليوم التالي فتناول منها وأمر الخادم أن يطوف بها علينا ، ثلثا يشعر ضيفه بعزلة الانفراد

ولم أرم قط يدخن أو يشرب خمرًا . الا انه كان يتعاطى كأساً من الكونياك اذا اجهدته الخطابة أو أحس ضعفا في نبضه ، واذا لعب الورق جعل للعبة حداً يقف عنده ولا يتجاوزه باغراء كائنا ما كان ، وقد كان يدخن في صباه ويستكثر من التدخين ، ثم نهى عنه بعد اصابته بالربو وهو في القضاء . فامتنع عنه بته ولم يعد اليه ، وظل على ذلك نحو عشرين سنة لا يقرب التبغ ولا يطيقه حتى ادركته الوفاة .

والآن وقد مضت تسع سنوات على وفاة سعد يزور الزائر بيته أو بيت الامة فيرى كل ما فيه على العهد به أيام حياته : كل صورة في مكانها وكل كرسي في مكانه ، وصاحبة الدار قد جعلت من الوفاء لذكره أمانة كأمانة الشعائر

الدينية ، تزور ضريحه كل صباح ولا تغير من البيت شيئاً تعودده ووقعت عليه عيناه ، ولا تلقى أحداً لم تلقه اذ هو في عالم الأحياء ، وكأنها لا تزال تعيش باذنه بعد الممات كما كانت تعيش باذنه أيام الحياة .

واضطرتني دواعي البحث عن تاريخ الزعيم العظيم الى سؤال السيدة الجليلة عن بعض ما تعلمه وتذكره من أحواله وعاداته ، فما استرسلت في الحديث هنيئة استرجع فيها بعض الذكريات التي أسأل عنها وأستقصي أنباءها وحقائقها حتى غلب عليها الشجن وعز عليها التمالك وقاضت عبراتها كأنها تبكيه ساعة وفاته ، وهذا بعد ثمانى سنوات من يوم الوفاة .

ان سعدا لعظيم لانه استحق هذا الحب العظيم ، وانه لمن العظماء الذين انتصروا في الحياة لانهم وجدوا من البيت حصناً منيعاً لا تقتحمه الطوارق وان جازت جدرانها وشغلت أركانها ، لانه حصن في عالم الروح قبل أن يكون حصناً في عالم الحجر والتراب ، وان أمثال هؤلاء العظماء لسعداء ، وانهم لظافرون .

شخصيته وأخلاقه

سعد زغلول قوة نفس وقوة بدن . من الزعماء الذين اثبتوا صدق القائمين ان متانة البنيان شرط لازم لمن يتمضون بقيادة الامم ويضطجعون باعباء السياسة ومصاعب الأمور . تعاورته الاسقام في شيخوخته ولكنها لم تسلبه ماركب فيه من الجلد والصلابة ومكافحة الاسقام كما كان يكافح الخطوب ، وعلى الرغم من الربو وتصلب الشرايين وضغط الدم وداء السكر وداء الزلال بقي الشيخ الممكن قادرا على عمله ماضيا فيه نشيطا اليه في انبساط نفس وتجدد اقبال تراه قترى من النظرة الاولى انك على مقربة من رجل ممتاز في الصورة كامتياز في الطبيعة ، وطلعته تذكرك على الفور طلعة الأسد في بأسه ونبله وجلالة محياه ، وليس بين الوجوه الآدمية ما هو أشبه بالأسد في قسماته وهمايته من وجهه سعد زغلول .

له قامة مديدة ووجه أقرب الى البياض ورأس مستطيل في غير ضخامة ، وجبين يميل الى السعة وينحدر قليلا الى الأعلى ، وعينان ثابتتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ ، يطبقهما أحيانا عند الحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كأنه سهم نافذ أو إيماء متوم جبار ، وله صدغان ناتئان وأذنان بسطاوان ، وأنف منفرج واسع المنخرين ، وفم أهرت الشدقين كما يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ، وذقنه من تحت ذلك بارزة في غير حدة ولا استعراض كثير ، تتمم ملامح البروز في ذلك الوجه فياوح للوهلة الأولى كأنه مفصل من زوايا حديد لا من اللحم والعظام . يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين وصدر فسيح أقعس واسع التجويف . . . وقد نفذ الرصاص عن قرب إلى ذلك الصدر وصاحبه مصاب بتلك الأدواء فاندمل الجرح بعد أيام وتأللت أسقام الشيخوخة وسكرات الموت ونبضه لم يزل موزونا سليما الى ما قبل الموت بساعات معدودات ،

فاذا كان في ذلك علامة على الطبع كما فيه علامة على البنية فلا شك أنها علامة على طبع من أقوى الطباع

أول ما تطالعك من رؤية سبعمائة بالغة تملأ ماحوله من فضاء ، ويكون في المجلس من يكون فيه من كبار أو صغار ، ومن أقوياء أو ضعفاء ، ومن كثرة أو قلة ، فلا يخطر لك وأنت تغشاه ان في المجلس أحداً غير سعد زغلول يحس ذلك أعداؤه كما يحسه أصدقاؤه ويلقاه من يدخل للتحدى والمناوأة كما يلقيه من يدخل للتحية والولاء . وقد حضرنا يوماً وفي المجلس وزير كان من ألد خصوم سعد وأشد هم إمعاناً في الاساءة اليه وإلى أنصاره وتحريضاً لمرؤسيه على حربه واستباحة الغنت له والتضييق عليه . وكان يقول للوظفين : افعيلوا مابدا لكم ولا تخافوا عاقبة ولا حساباً فاننا الملهم لكم بكل ما تفعلون . فاذا به وهو بين يدي سعد كالتليذ الخائف بين يدي الاستاذ الخيف ، وإذا به يخف الى طرف الكرسي ولا يتمكن في مجلسه كلما اتجه اليه سعد بسؤال أو كلام . فالتفت حافظ ابراهيم رحمه الله اليه وقال يا عجباً : اليس هذا هو الملهم ؟ فأين ذهب الالهام ؟

وتحدث عبد الحليم عاصم باشا صاحب مصنع الطرايش في قها عن مهابة سعد بين زملائه فقال وهو يظهر الغرابة : والله ما أدري بماذا يسحر الناس هذا الرجل ؟ لقد رأيت عدلي باشا معه في باريس ، ورأيت خادماً يناوله رسالة من البريد . فابقاها في يده ولم يقرأها حتى قام . وليس في قراءة رسالة ما يتخرج منه حتى امثال عدلي باشا من أصحاب الكياسة المشهورة

وكان بعض خصومه في مجلس النواب يعتمدون على نائب منهم سليط اللسان جرىء على المهاجمة في غير هذا المقام ، فكان اذا دخل المجلس مستعداً بالحجج والردود متحزراً للتحدى والمناجزة لم يزد على ان يفوه بوضع كلمات متقطعات ثم يجلس وهو لا يدري ما يقول . فكان اصحابه يتلقونه اذا خرج ويسألونه مستثيرين ومحرزين : اين ما وعدت ؟ واين ما أعددت ؟ فلا يحجم ان

يقول في صراحة صاحب العذر الظاهر الذى لا يضيره هذا الاعتراف : « كل استعداد لا يفيد مع هذه الشخصية الطاغية ! »

ومن الواضح ان صاحب هذه الشخصية لن يكون الا رجل صراع وجلاد قبل كل شئ . شجاعا في الحق كما وصفه اللورد كرومر ، أو عظيما يضرب ضربات قوية ويتلقى مثلها كما قالت صحيفة التيمس في تأييده ، أو مقداما يرد العدوان بمثله كما قال الكولنل الجود El good في كتابه مصر والجيش . . . وقد تم له ما ليس يتم لجميع المناضلين من عزة النفس وشدة المراس ومضاء العزيمة وجرأة العمل والصراحة في القول ، فهو لا يدس ولا يطبق الدسيسة ، ولا يرأى ولا يطبق الرياء

ومن هوى الصدق في نفسه ما يحقق بيت أبى الطيب اذ يقول :

ومن هوى الصدق في نفسى وعادته تركت لون مشيبي غير مخضوب

وانه من كراهته للرياء ليكرمه حتى في الطلاء ، ويؤذيه ان يرى سيدة تتجاوز الحد في طلائها وزينتها المصطنعة فلا ينسى ان يكشف هذا الضرب المؤلف من الرياء بضرب من الصراحة يناسبه ويلاقيه وان يكن غير مؤلف . . . يرى السيدة التى تفرط في تدميم وجهها فيلتفت الى غيرها من الحاضرات ويقول لها يا فلانة ! مالك قد أكرثت اليوم من الاصباغ ؟ فتفهم المقصودة أنها هى المعنية بهذا الكلام . وتقول : لا يا باشا ! أنا التى أكرثت من الاصباغ وليست فلانة ! فيقول متجاهلا : اصحيح ؟ لقد حسبتها هى صاحبا الله !

ومن طرائفه في فضل الصراحة والاستقامة - حتى عند غير المستقيمين - نادرة قصها على في ساعة كان فيها مستريح الخاطر وادع الفؤاد ، على أثر اجتماع المؤتمر الوطنى سنة ١٩٢٦ وتقرير الانتخاب المباشر وانتصار سياسة الصراحة والاستقامة على سياسة اللف والمرونة . وذلك انى قابلته يومذاك مهنئاً فسألنى سؤاله المعتاد : ما أخبارك ؟ وما قولك اليوم ؟

قلت : كلها أخبار خير يادولة الرئيس . شئ لم يكن في الحسبان . قال
دولته مثيلاً : أو ليس كذلك ؟ ثم أظهر ثقته بعناية الله . وهي العناية التي
كان يطمئن إليها في كل حال ويعتقد أنها تلاحظه وتلحظ الأمة في جهادها
الشريف . وقال إنها نتيجة لو توصلنا إليها بغير وسيلة القصد الصريح
لما باعناها

وتبسط للسكلام كعادته حين يستريح بعض الراحة من همومه الكبيرة
فقال : إن استقامة القصد قلما تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم . أذكر اني
كنت في مكنتي أيام المحاماة وإذا بسيدة في زى نساء البيوتات تدخل المكتب
وتحيني تحية الأدب والاحتشام ، فأشرت إليها بالجلوس والتفت إليها بعد أن
فرغت من عمل الحاضرين وسألتها : من السيدة التي شرفتنى بهذه الزيارة ؟
قالت محسوبة بك ع . اسكندر اسم امرأة من أصحاب البيوت المربية المشهورة
في ذلك الحين ، فما سمعت الاسم حتى ثارت ثائرتي وعجبت لوكيل كيف
سمح لها بالدخول وعجبت لها كيف اختارتني هي لقضيتها أو للسائلة التي
قصدتني لأجلها ، وخاطبتها بكلام قارص لم أرفع فيه حق الأنوثة ، فلم تحر
جواباً وتركتني أقول ما أريد . حتى إذا هدأت ثائرتي وسكنت قالت أسمح
لي بكلمة ؟ قلت تفضل . قالت : إن الناس إذا رآني عندك في قضية كان
هذا شهادة لك لا عليك . إذ لو كنت أنت من معارفى لما صدقوا اننى أثق
بك واتمنىك على المصالح . ولولا إنك مستقيم لما جئتك اليوم ، وإلا فإن
زوارى المحامين كثيرون لم أفكر في واحد منهم لأننى أعرفهم وفكرت فيك
لأننى لا أعرفك ، ولا أراك فيمن أراهم كل يوم

قال رحمه الله : فسمعت كلاماً أريباً ولباقة معجبة ، وسرتنى هذه الشهادة
بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة

* * *

ولاشتهاره بالصراحة تعرض فيها لكل ما يتعرض له المشهور بصفة

من الصفات ، إذ ينسب الناس اليه ما حصل وما لم يحصل وما يحسن لديه وما لا يحسن كعادتهم في كل شهرة وكل مشهور . وكانت تنمى اليه بعض هذه الروايات فتضايقه لأنه — كما يقول — لا يحب أن يكون قول الحق سبباً لأن يقال فيه غير الحق ، ويهتم بتصحيح ما ينمى اليه أحياناً ولا سيما ما يؤخذ منه أنه يضع الصراحة في غير موضع ، أو يذهب بها مع الغلوام في غير موجب

من ذلك حكايتهم التي يتناقلونها عن المناقشة بينه وبين الخديو عباس في مسألة « القضاء الشرعى » وقد أسلفنا تصحيحها بلسانه

وشاعت اشاعات كهذه عن محادثات جرت بينه وبين صاحب الجلالة الملك فؤاد في مسألة الكبراء أنصار الوفد ومسألة الأعضاء المعينين بمجلس الشيوخ . فكل الحقيقة فيها كما سمعت منه أن صاحب الجلالة الملك ذكر له مرة إن أحمد مظلوم باشا لا يزور القصر منذ عهد بعيد . فقال دولته : ذلك يا صاحب الجلالة لأنه استأذن في مقابلة جلالته فقبل له إنكم لا تستقبلونه حتى يكتب براءة من الوفد . فقال جلالة الملك : إني لأعلم هذا . قال الزعيم : إن هذا ما سمعه مظلوم باشا من بعض موظفى الديوان

أما مسألة الأعضاء المعينين في مجلس الشيوخ فقد شرحها شاهد عيان كما حضرها ورآها بعينه وهو البارون « فان دن بوش » البلجيكي الذي كان نائباً عمومياً للمحاكم المختلطة أيام الوزارة السعدية . ثم استقال وألف عن ذكرياته المصرية كتاباً أسماه « عشرون سنة في مصر » . فانه قد دعى لاستشارته في حق التعيين هل يكون بواسطة الوزارة أو يكون بغير واسطتها لأنه رجل شريعة من أهل البلجيكي ، والدستور المصرى ملحوظ في قواعده نظام تلك البلاد . فقال البارون : « دخلت الى مكتب الملك وكان ظاهر التأثير يقلب في يده مقطعاً للورق بحركة عصبية ، وكان زغلول باشا جالساً قبالة وهو مالك لنفسه يتكلم في تودة وهذو .

« ودار الحديث امامي . وادركت توافخواه وخطره ، فمن ناحية ملك
نشأ على التقاليد الشرقية من تقرير سلطانه الشخصي يجاهد ليحتفظ بفلذة من
ذلك السلطان ، ومن ناحية اخرى رئيس وزارة عنيد في غيرته على كرامة
الحقوق التي كفلها له الدستور ، وقد لمحت وراء ادب الخطاب صراعا بينهما
يجب تسكينه من غير ابطاء ، حذرا من بادرة لا تلبث أن تقلب الى كارثة

« واخذ الحديث يحمي وطيسه فقال زغلول : « لو استفتينا الأمة ؟ »
قال فان دن بوش : « وتطلعت في هذه اللحظة من الشرففة الواسعة
الزجاجية الى رحبة عابدين ورملمها المذهب تحت وهج الشمس ، والناس غادون
الى اعمالهم هادئين والصدية هنا وهناك يلعبون . فقلت في نفسي : كلمة واحدة
من هذا الرجل السياسي ومصر كلها اليوم معه ارواحاً وأجساداً فاذا بهذه
الحياة الوادعة الباسمة المائلة لناظري الآن وقد استحالت لمراى العين ميداناً
يعيث فيه الشعب جامحاً لا يكبحه عنان

« غير أن صوت زغلول ارتفع قائلاً : أسمح بامولاي بأن يفق حضرة
النائب العمومى في الخلاف وأن تكون فتواه فصلاً في الموضوع ؟ فتأمل
جلالته هنية ثم ارتضى مسلماً وقال « نعم ! »

وهذا هو الحديث كما رواه شاهده بلا مبالغة ولا تحريف . ليس فيه
كلمة لا يقولها للملك وزير دستورى يدافع عن رأى كراى سعد زغلول .
فاذا كانت هية سعد ومكانته قد جعلتنا لحديثه « تأثيراً » فى نفس الملك
لا كتأثير غيره من الوزراء فليس ذلك ذنبه ولا هو بالامر الذى يحاسب عليه
وليس من قبيل هذا ما استعظمه اللورد جورج لويد من حديث سعد
معه فى المقابلة الأولى ، ولكنه شئ قد يذكر فى هذا الصدد ليدل على
اختلاف الروايات والتقديرات فيما يحمد ومالا يحمد من القول الصريح
زعم اللورد لويد أن زغلولا فاجأه بالصلف والكبرياء فى أول خطاب
وأول لقاء ، وكل ماجرى فى ذلك اليوم أن سعداً لقي اللورد بعد صدور

الحكم ببراءة الاستاذين ماهر والنقراشى فسأله مازحاً: ألا تخاف منى؟ فقال اللورد ولم ياباشا أخاف؟ قال: لأنهم يحسبوننى زعيم سفاحين! ... وبعد استطراد قليل سأله اللورد: ماذا فى نيتك نحو انجلترا والأجانب؟

فأجاب سعد: انها نية الصداقة لجميع الأجانب حتى الانجليز. فعاد اللورد يقول: أحسب أنك تعنى مصادقتهم جميعاً والانجليز على الخصوص أى ان اللورد يطلب منه أن يشهد على نفسه بأنه لا يحسن التعبير عما يعنيه وانه يلغى زعامته الوطنية التى تقوم على قضية بينه وبين الانجليز لا على مودة خاصة بين الطرفين ، فليس بغريب فى هذه الحالة أن لا يقبل الرجل مايسومه اللورد وأن يردد قوله الأول بشئ من التوكيد: بل حتى الانجليز! هنا لجأ اللورد الى تهديده الدائم قائلاً: اذا سمحت فسأبلغ ذلك الى حكومتى!

واتهى بذلك الحديث فى هذا الموضوع
أفرايت إذن ذلك الصلف الذى وقع فيه سعد زغلول؟ أن السؤال الفكاهى طبيعى فى مثل ذلك اللقاء عقب تلك البراءة وعقب ماكان من قطيعة واتهام. وطبيعى كذلك أن يعنى سعد أنه يريد صداقة الأجانب جميعاً حتى الانجليز الذين يبتهم وبين المصريين قضية ونزاع على الاستقلال. ولكن غير الطبيعى أن يفرض اللورد على الزعيم الوطنى أن يميز الانجليز بالصداقة الخاصة لانهم احتلوا بلاده... فما لم يكن اللورد لويد يحسب الصلف حقاً من حقوقه فلا صلف هناك ولاوجه للاستغراب

* *

وصفوة القول أن سعد زغلول كان مثلاً فى الصراحة والجرأة وطبيعة الكفاح، ولكن الذين يفهمون أنه كان لذلك يحمل سلاح الصراحة ليضرب به ذات اليمين وذات الشمال يخطئون فهمه ولا ينصفونه. إنما كانت صراحته وسيلة لا بداء الحق والأعراب عن رأى وكشف رذيلة الرياء ودفع مذلة الخنوع. فأما الصراحة التى هى لغو يؤذى ولا يفيد فليست هى من شأنه وليست هى من الخلال التى يتسم بها طبع مثل طبعه

كذلك يخطئ. فهمه ولا ينصفه من يعلم أنه رجل كفاح فيحسب أنه لذلك لا يحسن غير مصارعة الخصوم واقتحام المعارك وأثارة الشجناء . فذلك صورة لا تشبه سعد زغلول ولا تمت إليه بقراءة ، وإنما كان الرجل مناضلاً لأنه كان حياً جيش الطبيعة على مقربة من الميدان الذي يدعو إلى النضال ، وهو — لأنه حتى جيش الطبيعة — لم يكن أصلح منه للعطف والصدقة وحسن المودة والآنس بالناس والارتياح إلى المعاشرة ، وقد حفظ قلبه الكبير ما أودعته الفطرة من ذخيرة العطف الزاخر إلى آخر أيام الحياة . فإذا تأثرت نفسه بحالة مفرحة أو محزنة فكثيراً ما تغرورق عيناه أو تنهملان بالدمع الغزير . وكان في مجالسه الخاصة من أقدر الناس على مؤانسة الجلوس بالحديث الشائق والفكاهة الحاضرة والحذب المطبوع ، وأكبر ما كان يشكو منه أطباؤه أنه كان لا يمنع لقاء الناس ولا ينقطع عن محادثة الجلوس عند اشتداد المرض عليه لأنه مطبوع على أن يتصل بالناس كما هو مطبوع على أن يقودهم في ميدان النضال ، والطبعان فيه شيء واحد أو هما شيئان متجاوران وهذا المناضل المكافح طول الحياة لم يكن أبغض إليه من رؤية العنف ولا مشاهدة الحزن وانحزوين . ذهب بعد الافراج عنه في جبل طارق ليشهد صراع الثيران على الأرض الإسبانية فلم يطق ما رآه من تعذيب هذه الحيوانات وانصرف بعد فترة وجيزة وهو يتأفف من هذا اللعب الممقوت ، وعرف عنه ذووه أنه لا يطيق أن يرى البكاء لأنه يؤذيه ويستبكيه ، فكان يقول لهم : لا تبكوا أحداً أمامي وإذا مت فخذوا ثأركم مني ولا تبكوني ! ومن عادته أن لا يظهر أمام الناس في موقف يخشى فيه من جيشان نفسه وغلبة دموعه . ولهذا لم يستقبل أم المصريين على المرسى في جبل طارق واكتفى بأن ينتظرها في حجرة الاستقبال . مخافة أن تجيش نفسه لهذا اللقاء بعد ذلك الفراق فلا يملك الدموع على مشهد من الناظرين

شبهه مستر جورج يونج في كتابه « مصر » بإبراهيم لنكولن الزعيم

الأمريكي الكبير المعروف بالطيبة والقوة والمزاح . والتشبيه قريب في كثير من الوجوه بين هاتين « الشخصيتين » العظيمتين . فكلاهما فلاح وكلاهما مناضل وكلاهما طيب القلب صريح اللسان لا صبرله على سفاسف المجاملات وكلاهما يمزح ويتنادر ويحب الحياة . إلا أننا لا نعرف لسعد زغلول خشونات في المعاملة والكلام كخشونات لنكوان ، ولا نعرف للزعيم الأمريكي العظيم حظاً من ملكة الحديث ولا من ملكة الفكاهة الحاضرة كالحظ الموفور الذي كان لسعد زغلول من هاتين الملكتين

تسمع سعداً محدثاً فلا تسأم ولا تزال بين أزواد من الخبرة وصدق الملاحظة وطرائف الذكريات تشتاق أن تسمعها لذاتها ولولم يكن المحدث سعد زغلول الذي يعينك أن تعرف كل مألوفه لتعرف كل ما ينطوي عليه هذا الزعيم المبجل المحبوب ، وهو يجد غاية الجد في أحاديثه وذكرياته دون أن تلح فيها شيئاً من فيمقة العالم أو لاجاجة الشيخ في تقرير آرائه وتجاربه على سامعيه ، ومن عاداته في الحديث أن يقرن الحوادث الكبيرة الحاضرة بالذكريات الماضية أو الملاحظات العارضة أو الأمثال الشعبية التي يحفظ منها الشيء الكثير

دخلت عليه يوماً والبحث دائر بين الأحزاب على تقسيم دوائر الانتخاب . فسألني : أتعرف يا فلان حكاية « فطير وإلا أرمي روحى » ؟ فعملت ما وراء هذا المثل من استطراد إلى الحالة الحاضرة . ولكنى قلت : كلا يا دولة الرئيس لا أعرفه ، ولعل أعرفه اليوم !

قال إذن فاعلم أن بدوياً من البدو الذين تروى عنهم الحكايات ضاقت به الدنيا وسئم الفاقة فخرج من محلة قومه يضرب في الأرض إلى أن نزل بمحلة أخرى لقوم من الأعراب ، فأضافوه ثم برموا به وتجاهلوه ، وسول له الضيق أن ييخع نفسه فعمد إلى مأذنة الجامع الذي في البلدة فصعد إليها وهم بأن يلقى نفسه منها ، وأنه ليفعل وإذا بيد تجذبه وقائل يناديه : ما خطبك يا هذا ؟

وماذا بك أن تصم الجامع الشريف هذه الوصمة ؟ فقال الجوع . إنه الجوع ...
لقد جمعت في بلدكم وضاق بي العيش فلم يبق إلا أن أموت
فكبر الأمر على القوم وتنادوا فيما بينهم أن أدركوا الرجل وأنقذوا
المحلة من وصمه هذا العار : أيموت رجل من الجوع بين العرب ؟ أيوصم
مسجد الصلاة عندهم بهذه الفضيحة ؟ لاهون عليهم أن يكرموه من أن يهونوا
على أنفسهم هذا الهوان

قال الباشا . وطاب المقام لصاحبنا وكثر الفطير عنده ، وعرف كيف
ينذر القوم بسوء العاقبة كلما تناقلوا عنه وضنوا عليه بالضيافة ، فأقرب شئ
إليه أن يقصد إلى المسجد ويصعد إلى المئذنة ويصيح بالقوم صياح المؤذن
للصلاة : « فطير يا عرب وإلا أرمي روحى ! فطير وإلا أرمي روحى »
ولا يزال يردد هذا النذير حتى يحجئه الفطير !

قال الباشا : وهؤلاء أصحابنا السياسيون الأجلاء . لا تسمع منهم كل
يوم إلا طلبا لكراسى البرلمان يفرضونه علينا وإلا أنذرونا بخراب البلد
وخيانة القضية ! وعلينا نحن أن نعطي الفطير وأن نحمل المسجد من العار !
وبشره يوماً أحد أصحاب الرؤى والأحلام بنجاح الوفد في الانتخابات
فقال رحمه الله : وماذا عليه ؟ إن أخفقنا لم نر له وجهاً وأن نجحنا جاءنا
يطلب البشارة . وحكى لنا حكاية جرت للشيخ جمال الدين الأفغانى فى سفينة
خيف عليها الغرق العاجل . قال الرئيس : « أخبرنا الشيخ أنه لما رأى الصية
والنساء وضعاف القلوب فى السفينة يضطربون ويهلعون ذهب يؤكد لهم
أشد التوكيد أن سفيتهم لن تغرق فى تلك السفرة ويقسم لهم أنها لناجية بلا
مراء . قال الشيخ : وكان الركب يظنون فى القداسة ويروتنى بالعمامة الخضراء
فيحسبوننى من دراويش الهند الذين يكشفون الغيوب ويطلعون على أسرار
المستقبل . والمسألة بعد مسألة حساب ، فان غرقت السفينة لم أجد منهم من
يكذبنى ، وان سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل

ومن عادته أيضاً في أحاديثه أن يتبع الأحكام الاجتماعية الخطيرة بملاحظات صغيرة تدل عليها . قال مرة : إن آفتنا الكبرى أن لانحمل تبعاتنا وأن نحاسب غيرنا على واجباتهم ولانحاسب أنفسنا على واجباتنا . ثم استطرد قائلاً : منذ نحو ثلاثين سنة دعونا بفراش مشهور طابنا إليه أن يقيم سرادق عرس وأوصيناه أن يفرغ من إقامته قبل المساء . وفي عصارى اليوم مررنا بالمكان فاذا بالسرادق أكوام من الأخشاب والكراسى والثريات والمصابيح ولا سرادق إلا العمدان مفردة هنا وهناك لا تؤذن بالانتهاء قبل أيام . . . ما الخبر ؟ الخبر أن العمال اختلفوا في التنظيم والتقسيم فراح كل عامل منهم يشير على غيره بما يعمل وينتظر هو تنفيذ الإشارة ! واضع الكراسى يقول إنه لا يدري كيف يصفها قبل أن تقام العمدان فيأمر من يقيم العمدان بأن يقيمها حسبما يأمره ويملى عليه ! ومعلق الثريات في خلاف مع الاثنين يقول إن الكراسى ينبغي أن تصف هنا والعمدان يجب أن تقام هناك ، ولو أقبل كل على عمله لانتهوا جميعاً واستطاعوا أن يفضوا فيما بينهم هذا الخلاف

وقال مرة أخرى أن الحرية تتقدم في بلادنا . لقد كنا نحضر الولائم الرسمية قبل سنين فكنا نرى المدعويين من الوجهاء والموظفين يأخذون من الطبق الذى يأخذ منه الأمير أو الوزير ويعرضون عن الطبق الذى يعرض عنه ، أما اليوم فهم يسمحون لأنفسهم بذوق فى الطعام يخالف أذواق الأمراء والوزراء . . . هذا فضل كبير . وهذا تقدم غير يسير

وله أسلوب من الحديث فى تقريب القضايا البعيدة التى لا رابطة بينها يذكرك بقدره الفارس الماهر الذى يقود عشرين جواداً بزماء واحد كان فى إنجلترا يدعو إلى القضية المصرية ، وكان من همه أن يقرب بين موقف الانجليز وموقف المصريين من هذه القضية . ولكن كيف يتقاربان وهما جد نقيضين : لالغة ولا جنس ولا دين ولا وحدة فى المطالب السياسية ولا تضامن فى الأحاسيس القومية . غير أنه استطاع بحملة واحدة أن يجمع

بين مصر وإنجلترا بشعور واحد في قضية الاستقلال . فقال لبعض محدثيه من الصحفيين : « لو استحضرتنا روح يوليوس قيصر لأنبأنا أنه لم يتعب في إخضاع بلدين كما تعب في إخضاع الانجليز والمصريين ! »
وهذا التقريب البعيد ولا شك لمحة من لمحات الالهام
وقال مرة أخرى وإن كان التقريب هنا لا يحتاج إلى مثل ذلك المجهود :
إننا أبناء أكبر دولة في العالم القديم وأنتم معشر الانجليز أبناء أكبر دولة في العالم الحديث

وبهذه القدرة على الحديث يقول مايريد ، بل يعمل مايريد

* *

أما فكاهة سعد فهي حاضرة على البديهة يستعين بها على لطف مؤاخذه أو رد مكيدة أو الزام حجة أو صرف حادثة مؤلمة بكلمة مضحكة ، فهي تارة بلسم جراح وتارة عدة كفاح ، وهي مؤنة تصلح حيناً لمساجلة الأصدقاء كما تصلح حيناً لمناجزة الأعداء

أنبأه صحفى انجليزى أن اللورد جورج لويد صاحب الأزمات المعروفة يقول : إن صحة سعد باشا تتقدم على الأزمات ... فقال سعد للصحفى : قل له « ربنا يطول عمره ! »

وكانت صحيفة البلاغ تنشر أسئلتها التى تستند إلى أوراق ومراسلات خاصة يتبادلها بعض الموظفين وبعض زعماء حزب الاتحاد . فأشيع يومان قضية دبرت لا تضطرار صاحب البلاغ إلى التصريح باسم الرجل الذى ينقل اليه تلك الأوراق . ثم زرنا ليلة الاشاعة بيت الأمة فسأل الرئيس الأستاذ عبد القادر حمزة متهمكا : ما العمل ؟ ها أنت ذا تسأل عن « سر مهنة » فيما ذا تجيب ؟ ثم قال : ما رأيك إذا كنت أنت تأخذ هذه الأوراق من رئيس حزب الاتحاد نفسه ؟ ألا يصدقونك ؟ ومضى يقص علينا قصة وقعت له أيام المحاماة حين كان يتولى الدفاع عن موظف فصلته نظارة الحفانية بغير حق قال الباشا

وكانت النظارة مخطئة في فصله . وأفتى قلم قضايها باستحقاقه التعويض
ووصلت اليها هذه الفتوى فاعتمدنا عليها في الدفاع . وقد حضر عن نظارة الحقانية
رجل كانت فيه خفة وخذلقة فترك موضوع القضية وأراد أن يوجه إلى تهمة
الحصول على ورقة سرية أو بعبارة أخرى تهمة السرقة ! وكان رئيس
البحكمة رجلا ظريفا فسألني وهو يتظاهر بالخير : ما العمل يا فلان ؟ ان
مندوب الحقانية يتهمك فهل أنت مستعد للجواب ؟ قلت نعم : قال من أين لك
هذه الورقة ؟ هل أنت مستعد لذكر اسم الموظف الذي أعطاك إياها ؟ قلت
نعم بعد استئذان حضرة المندوب ! . فصاح المندوب يرجو الرئيس أن
يسألني لأجيب في الحال ويأدر باتخاذ الاجراءات قلت : إذن هو حضرة
المندوب نفسه الذي أعطاني هذه الورقة جزاه الله خيرا قال الباشا :
فوقع الرجل في حيص بيص . وخاف أن يبلغ الأمر النظارة فتصدق التهمة
ويلحقه العقاب ، فعاد يتزلف ويتماص ونحن نطاول في قضية الورقة ولا
نريد أن نصرفها ، فاذا هو المتهم ونحن المطلوب منا السماح

هذا نوع من فكاهة الزعيم الكبير أو من الكيد الظريف الذي يسلطه
على من يريد أن يخرجه فاذا هو داخل في الشبكة التي كان يريد أن يدخله فيها
وجاءه جماعة من الأزهريين فطلبوا إليه أن يتوسط في ارسال بعثة منهم
إلى أوروبا أسوة بطلاب المدارس العليا ، فضحك وأجابهم مداعبا : وإلى أين
نرسلكم ؟ إلى الفاتيكان ؟

وهذا نوع آخر لا فرق فيه بين النكمة اللاذعة والحجة الصادقة . فهي
نوع من المنطق المختصر الذي اشتهر به سعد في نقاشه ، وكأنه يقول في سلسلة
من القضايا المنطقية المسئلة : إن طلاب البعثات يرسلون إلى أوروبا لاتمام
الدراسة في معاهدها ، وأنتم طلاب علوم دينية ، فأنتم تريدون إتمام دروسكم
العالية في معاهد أوروبا ، وليس في أوروبا من معهد للعلوم الدينية غير الفاتيكان
أو ما يشبه الفاتيكان . فأنتم إذا تطلبون الذهاب إلى الفاتيكان للتخصص في
دروس الاسلام

وجاءه عمدة من أنصاره في ابان احتدام الخلاف بين الوفد والحكومة فشكا اليه انهم فصلوه ولم يحسن ذنباً بعد أن قضى سبعة عشر عاماً في العمدية . قال سعد : وهل ذنب أكبر من ذلك ؟؟ أو لم تسمع يا بك بعذر الرجل الذي طاق امرأته بعد عشرة طويلة في صفاء ووثام ؟؟ طلقها ف راحت تشكوه وتعتب عليه ! ما ذنبي يا فلان ؟ أبعد خمس وعشرين سنة تعمل هذه العملة ؟ قال لها : مهلاً يا أم فلان هداك الله . وهل ذنب أكبر من خمس وعشرين سنة في عيشة لا تتغير ؟

ولما وصل أصحابه منفيين إلى مالطة جلسوا ذات مساء يتذكرون حالة أسراتهم وما تعانيه أزواجهم من هذه المباغثة التي لا يعلن ما وراءها . فقال سعد هلا أشير عليكم بمشورة تقرب وجد من سرورا بنفيكم وتنسيهن غيابكم وحضوركم ؟؟ أكتبوا اليهن انكم قد تزوجتم في مالطة وسكنتم إلى الإقامة فيها . فلا يتمنين لكم بعدها الا طول الغياب

وهكذا كانت فكاهته كلها أو معظمها من النوع البري . السليم الذي لا أذى فيه ولا ضغينة ، ولا يعدو أن يكون « مقلباً » أو مناوشة يضحك بها الغالب والمغلوب

على انه إذا تحدث عن خصم كرهه لم يبال أن يرسمه بالفكاهة رسمه الهزلي الذي ينطبق عليه أو يرد عليه شيئاً من عداوته وأذاه . قال في حديث عن خصومه : إني أطيق هذا وذاك ولو كانا من خصومي . أما فلان أخزاه الله فلا يطاق . انه كالمخاط لا تدري ماذا به تصنع ؟ تمسحه فتشمئز وتتركه فتشمئز ، فهو مقزز على الحالتين

وقيل إن صحفياً من يحملون عليه مريض - فسأل : ماذا أصابه ؟ قالوا عسر هضم ومغص معوى ... قال لعله بلغ مقالة من مقالاته !

وربما حكمت « النكتة » فلم يدعها دون أن يلتقطها ولو كانت مريبة في مبادرتها الأولى : جلس عنده يوسف وهبه باشا وهو بمكتبه في رئاسة مجلس

النواب فلم يستقر به المقام حتى دخل عريان أفندي يوسف سعد يعرض بعض الأوراق وهو الشاب الذى ألقى القنبلة على وهبة باشا يوم كان رئيساً للوزارة ثم أفرج عنه ووظف بمجلس النواب . فضحك سعد لهذه المصادفة وسأل : ألا تعرف هذا يا باشا ؟ فتأمله وهبة باشا وكان فيه ضعف نظر وغروب تفكير ثم قال : لا أحسبني عرفته ! قال سعد : عجياً . أو هكذا تنسى أصدقاءك بهذه السرعة ؟ فأكد وهبة باشا انه لا يعرفه وسأل : من هو يا ترى هذا الصديق ؟ قال عريان يوسف يا باشا . أنسيته ؟ . فاضطرب الباشا اضطراباً يسيراً وتمتم كالمستغيث : الله يهديه ويكفينا شره

وقد شاعت الاشاعات التى لا تحصى عن استبداد سعد برأيه وغضبه فى حديثه وقلة صبره على مناقشيته . فالذى أعرفه عن هذه الاشاعات انها فى جوهرها خرافة من الخرافات . فان سعداً لم يكن يكره المناقشة بل كان يطلبها ويستدعيها وينفر من الجلساء الذين لا عمل لهم غير التسليم والتأمين ، وكان كلاعب السيف البارع يحب المبارزة لذاتها ولو لم ينتصر فيها على قريبته ، وشعوره بالتسليم إذا لزمته الحجة أمام من هو أصغر منه كشعور الأب الذى يعلم ابنه المصارعة فيغلبه ابنه فى بعض الاحايين : هو شعور اغتباط لا شعور استيلاء . وليس من النادر أن يسلم الحجة علانية ولو كان القائل بها من خصومه ، كما حدث مثلاً حين انتقد الكاتب الصحفي المعروف الأستاذ محمود عزمى اشتراك الرئيس فى المناقشات وهو على منصة الرئاسة بمجلس النواب ، فانه كان يترك المنصة بعدها كلما خطر له الاشتراك فى المناقشات ، وما يسلمه علانية يسلمه فى مجالسه الخاصة عن طيبة وارتياح

وقد لازمت سعداً سنوات ووافقته كثيراً وخالفته كثيراً كما يعلم القراء فلا أذكر يوماً انه طلب منى أو طلب من غيرى أمامى أن نكتب فى رأي بغير ما نراه ، وإنما كان أسلوبه فى هذه الحالة أن يفتح باب المناقشة

فيما يريد الكتابة فيه ؛ فان خالفناه وأقنعناه لم يطلب منا كتابة ولم يلج إلى طلبها أقل تليح ، وكثيرا ما كان يتألف فيقول : أنت جبار المنطق يا فلان ... وهذا هو اللقب الذي تفضل فاطقه على كاتب هذه السطور

وإن وافقناه ورأينا رأيه قال : حبذا لو وقف القراء على جليلة هذا الموضوع ، وهذا غاية ما كنا نسمع من طلبه الكتابة في موضوع من الموضوعات كذلك لم يحدث قط انه طلب اليينا السكف عن الكتابة في مسألة من المسائل ولو جلبت عليه الأزمات وأوقعت النزاع بينه وبين ذوى السلطان ومن ذاك اننا كتبنا مع الكتبتين عن زيارة اللورد جورج لويدي للنينا واستقباله في الأقاليم استقبال أصحاب العروش . واشتدت الحملة على اللورد من جراء هذه الزيارات حتى اشترك فيها مجلس النواب على اختلاف الاحزاب ، فبلغ الحق باللورد أن يخفق بعدها أزمة يستحضر من جرائها سفن الاسطول إلى الاسكندرية ليزيل ما أصاب هيئته من تلك الحملات . كل ذلك وسعد لا يشير اليناولإلى غيرنا بكلمة ولا إيجاء . وظال كذلك حتى انقضت الأزمة ومضى على انقضائها أسابيع ودخلت عليه يوما فقال : أتدرى ماذا صنعت لينا يا فلان ؟ إن اللورد جورج يتهمنا بأننا كنا الموعزين بحملة الصحافة وحملة مجلس النواب على زيارته الأقاليم ... أما أنا فأقول له : « إنها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه »

ولقيته بعد خطبة العرش الأولى وكان حساس النفس من ناحية الخلاف عليها لأنه أول خلاف تعرض فيه نفوذه الشعبي للامتحان ، وكان الوفديون وغير الوفديين مختلفين في شأنها يكتفى بعضهم بما قيل ويطلب بعضهم المزيد من الايضاح ، وكان في المجلس فتح الله بركات باشا والأستاذ محمود فهمي النقراشي والأستاذ عبدالقادر حمزة . فسألني دولته

ما رأيك فيما يقال عن خطبة العرش؟

قلت رأيي يا دولة الرئيس إنها كان يمكن أن تكون أوضح مما هي عليه
قال : وهل لا ينطبق هذا على كل كلام ؟

قلت : بلى . ولكن إذا تساوى الوضوح وغيره في جميع الاعتبارات
ف رأيي يا دولة الرئيس إن الوضوح أولى بالترتيب

فلبت رحمه الله نصف ساعة يناقشني في رأيي بلا ضجر ولا استياء ،
ومضت فترة بعد ذلك ، وانتقل الكلام إلى شأن آخر فأصغى إلى أحسن
إصغاء . ثم سألتني : ولماذا تحاسبني أنا في هذا ولست أنا المسؤول عنه ؟

قلت : لأن دولتك وكيل الأمة والمسؤول عن عمل الآخرين !
فضحك رحمه الله طويلاً . ثم قال : لو حاسبني كل فرد في الأمة حسابك
يا فلان لعجزت عن إعباء هذه الوكالة

قلت وفي نفسي غضب أغاليه : يا باشا . . ولكن ليس كل فرد في الأمة
عباس العقاد . فتبسم مؤمناً وقال : نعم ! ليس كل فرد عباس العقاد ... صدقت
إنما كان يضجر سعد من المناقشة في حالة واحدة لم أشاهده غاضباً في
سواها . فقد علمت عاداته في تبسيط المسائل وتفصيل وجوها وتقريرها
من البدهة بالبرهان الصادع والعبارة الجلية ، فاذا حادثه من لم يتعود هذا
النسق من البحث أو من يضم غرضاً غير الاقتناع بالحجة الظاهرة بدا عليه
الضجر وتسكدر من ضياع الوقت في غير طائل ، وما أحسب غيره كان يكون
أصبر منه أو أقل ضجراً في أمثال هذه الأحوال . فكل المناطقة الكبار
يناقشون ويجادلون ولكنهم يفرضون التسليم والاذعان في بعض الأمور .
وما ذا يصنع الرجل الذي يرى على بعد ميل مع الرجل الذي لا يرى ماتحت
قدميه ؟ انه ليفرض عليه التسليم شاء أو لم يشأ . وذلك هو الواجب ، وذلك
هو المنطق القويم

وكل شخصية عظيمة من قادة الأمم عرضة لمظنة متشابهة في جميع الأزمان وهي مظنة الأنانية أو الاثرة . لأن الأنانية والاعتداد بالنفس خصلتان متساويتان في رأى النظر القريب

وسعد زغلول لم يكن بالمستثنى من هذه المظنة العامة ، فان خصومه كانوا لا يلحون في وصفه بشيء كما يلحون في وصفه بالافراط في الاثرة ، وقلة الاكتراث للآخرين

إن سعداً لم ينس خدمه فضلاً عن أن ينسى واجب الوفاء لأصدقائه . وقد نقل من سيشل الى جبل طارق وهو في حالة أخرى أن تشغله بنفسه ، فكان أول ما فكر فيه بجبل طارق كتابة بيان سلبه الى حاكمها فصل فيه ما يعانيه أصحابه بسيشل وحاجتهم الى العناية والانتقال من تلك الجزيرة ، وكان أول ما فكر فيه بعد الافراج عنه أن يطلب من الدكتور حامد محمود إعادة الكرة في كتابة عريضة من نواب الانجليز الى حكومتهم ، الافراج عن أولئك الأصحاب

هذه أريحية مشكورة إلا أنها غير نادرة في ذوى المروءة . انما النادر حقاً أن يأخذ الرجل نفسه بواجب النجدة لمن كانوا أصدقاء له ثم ضربت بينه وبينهم ضربات الأيام وطالت بينه وبينهم القطيعة . وإحدى ما تسعد في هذا الباب أنه سمع من بعض جلسائه أن منزل الأستاذ الهلباوى بك المحامى الكبير يعرض للبيع فى المزاد ، ولم يخطر لمحدثه أنه يلقي عليه خبراً يكدره أو يشق عليه . ولكنه ما علم أن رآه بآدى الحزن مشغول البال ثم التفت الى فتح الله بركات باشا وهو يقول : إن السكوت عن هذه المسألة لا يليق ! وأمر بأن يؤخذ من ماله ألف جنيه لتفريج هذه الضائقة وإبقاء المنزل فى حوزة صديقه القديم . فاستعمله فتح الله باشا ريثما يتحرى الأمر لئلا يكون فى هذا التدخل تعطيل لمصلحة مقصودة أو تسوية مالية يجهلونها . وعلم الهلباوى بك أثناء البحث فى هذه

المسألة بما يريدده سعد فأرسل اليه يشكره ويبلغه إنه دبر للأمر تديبره واستعد
لا تقاء ضرره .

ومن المحامين القدماء رجل لم تكن بينه وبين سعد علاقة غير علاقة
المعرفة ولكنه بلغ الشيخوخة وقعدت به الفاقة فرتب له سعد أربعين جنيهاً
يرسلها اليه في كل شهر إلى أن توفاه الله

وما من منصف يرمى رجلاً كهذا بالأنانية المحدودة والأثرة المذمومة
وبعد فنحن نعتقدان الأثرة والايثار يتلاقيان في كل عمل عظيم ، لأن العمل
العظيم يشتمل بطبيعته على مصالح الألوف بل الملايين من الناس . فلا فرق
في نتائجه بين الأثرة والايثار مادام الخير فيه عاماً شائعاً لا ينفرد به صانعه
ولا ينفرد به ذووه ، فإذا كان المقصود بالأثرة عند سعد أنه كان يهتم بأعماله
ويغار على تحقيق مطالبه وآرائه وأنه لا يقبل من الآخرين أن يجبطوا سعيه
وينتصروا عليه فالأثرة هنا صفة لا تضير . أما إن كان المقصود بها أن أعمال
سعد تنفعه ولا تنفع غيره وتنحصر في شخصه ولا تتجاوزه إلى قومه فذلك
هو الكذب الصراح ، وأما أن كان المقصود بها أن سعداً كان يعنى نفسه من
الجهود والضحايا في سبيل عمله ، ويذهب مذهب الأنانية الضعيفة في الضن
براحته وصغائر شئونه فذلك أيضاً كذب صراح ، ومادامت الأنانية لا تمنع
الإنسان أن يعمم الخير وأن يبذل الضحية فهي والايثار صنوان والأنانية
هنا والغيرية تتلاقيان

الا أن الخطأ الذي يقع فيه أصدقاء سعد كما يقع فيه خصومه هو الخلط
بين طبيعة النضال فيه وطبيعة التمرد أو الثورة

طبيعة النضال في سعد على أمها وأندرها ، وهي ان شئت ضرورة حيوية
في بنيتها أو ضرورة « فزيولوجية » يعيش بها الجسم ويلتمس فيها علاجه وشفاه
واستعادة نشاطه ، وما من زائر حميم من زوار بيت الأمة إلا وهو يذكر
كيف كان يرى سعداً في الشتاء وهو ملفف بالدثر والكوفيات من عنقه الى

قدمه وكيف يراه بعد هنيئة اذا استطرد الجدل الى أمر يمسه ويمس خصوصه ولقد تزحزحت الكوفية حتى انحلت ، وتزحزح الدثار حتى سقط وانبرى الرجل كأنه فتي في ميعة العمر يتوئب بحمية الشباب ولا يبالي ما يفعل الشتاء ولا ما يقول الأطباء .

وليس بالمجدي أن يمنة الأطباء أن يعمل ويتكلم إذا دفعته طبيعته الى العمل والكلام ، فانه ليصدق من وحيا ما ليس يصدق من وحى الطب ووحى التفكير ، وانها لتصيب حيث لا يصيب هذا ولا ذاك . وقد حدث مرة — في الثالث عشر من نوفمبر سنة ١٩٢١ — أن أطباء رأوا من حالة الصدر وضغط الدم خطراً على حياته إن هو أجهد نفسه أو خطب في ذلك اليوم . ولكن اليوم يوم الذكرى الوطنية ، وهو عائد من رحلة الصعيد وعنده كلام كثير يقوله ولا يؤديه عنه غيره . فليتكلم إذن وليبطل كلام الطب ونصيحة الزوج الرؤم ورجاء الأصدقاء . وقد تكلم كما شاء ووحى الطبيعة وأعتلى المنبر أكثر من ثلاث ساعات فاذا الخطبة من أجود ما قال وأفعل ما ارتجل . وماذا حدث ؟ هل تحقق الخطر ؟ هل تعب وأعي ؟ هل اقتصر الأمر على السلامة ؟ لا . . . عولج بما كان يشكوه من وصب وعاد كاقوى ما كان

ولأنك لتبصره في أيام الأزمات والأخطار فتبصر الحوت في بحرء والطائر في سمائة : لا كرب ولا وجوم حين يكون هناك مراس ونضال ، وانما الكرب والوجوم حين يكون الفراغ والسكون

تلك طبيعة النضال على آتمها وأندرها . أما طبيعة التمرد والثورة فشئ آخر طبيعة النضال لا تناقض المحافظة على العرف الشائع ، بل كثيراً ما يكون الجنود في ميدان القتال وفي ميدان الرأي محافظين جداً المحافظة وهم شجعان مستبسلون . أما طبيعة التمرد فتناقض المحافظة كل المناقضة ، ولا يندر أن تنشأ من الضعف والاختلال كما تنشأ من القوة والاستواء

وإن كثيراً من أصدقاء سعد ليحسبونه من الثوار المتمردين ولا يخطر

لهم على بال أنه من المحافظين الواقعيين، وعذرهم في هذا الحسبان قريب مفهوم، وإلا فأى شيء أقرب إلى الثورة والتمرد من خليقة الرجل المفطور على المقاومة وهو يقود أمة تغضب وتثور؟ إن الذي يصفه بالتمرد لا يقرر إلا واقعاً يؤيده العيان ولا يحتاج إلى استقصاء.

لكن الواقع إن سعداً كان في قرارة نفسه من المحافظين لا من المتمردين وإن كان يشور على الظالمين ويحب الثائرين كما قال في بعض الأحاديث، فلم يبن دعوته قط إلا على أساس القواعد المصطلح عليها بين الناس، وهي قواعد الحرية والمساواة وانصاف الضعفاء واحترام الدساتير، ومقالاته التي كان يحمل بها على وزارة خصومه وينشرها بعنوان: «ثورة الوزارة على الدستور» ليست لعباً بالآلفاظ ولا احتيالا على التعبير ولكنها عقيدة تشف عن سليقة، وعنوان يترجم عن إيمان، فهو في ثورته على الوزارة إنما يطلب شيئاً تعترف به الوزارة ولكنها تغالط فيه، أو هو بعبارة أخرى ثائر على ثائرين.

ولست هذه خليقة المتمردين المطبوعين على التردد والاتقاض، فإن هؤلاء يهدمون قواعد مؤسسة مصطلحاً عليها، ويقيمون في مكانها قواعد أخرى لا يعترف بها أحد غيرهم في بداية الدعوة إليها. ولم نعرف لسعد قط دعوة من هذا القليل، ولا نستثنى من ذلك رأياً من الآراء، ولا ميلاً من الميول حتى مشايعته للسفور ومناصرته لقاسم أمين. فإنه قد كان يعيش في جو سفور ويقابل النساء السافرات فلم يزد على مجازاة الواقع الذي هو فيه، ولم يكن من طبعه الرياء وأن يعمل الشيء ويظهر بنقيضه أمام الناس وأنه لعمله واقعي حتى في ثورته وهجومه. وكل ما هنالك أنه يبدو متمرداً نظرياً لمن هم أضعف منه عزماً وأقل منه طاقة، كالرجل الذي لا يستطيع أن يحمل الأبطال بحسب المصارع الذي يتحدث عن حمل القناطير ضارباً في أوهام الخيال. لكننه في الحقيقة واقعي مثله لا يختلف عنه إلا بالعزيمة والاعتدال.

لقد كان مسعد يشور على أفراد خالفوا القواعد المقررة فهو غير النافرين على قواعد مقررة يؤمن بها جميع الأفراد . وما أحسب ثورته على الدولة البريطانية وتحديه لسلطانها تحليفاً منه في جو النظريات ولا جملاً منه بوقائع العمليات . كلا ! فأنما كان يشور على الظلم الذي ياحقه به وبالامة أذئاب تلك الدولة وآلاتها من الانجليز والمصريين ، ويأبى أن يخنى رأسه لأولئك الأذئاب والآلات ، ويعلم انه قادر على مكافحتهم في الميدان الذي يناوئونه فيه ، وان الثبات أمامهم أجدى وأصلح من التسليم

وتتمثل الطبيعة العملية الواقعية التي انطوى عليها هذا الزعيم العظيم في كثير من أعماله وكثير من شواغله وتصرفاته : أوضحها وأقربها إلى الفهم عنايته بتحصيل « شهادة الحقوق » في سن الكهولة مع أنها لا تزيد علماً ولا تدل على كفاءة ولا تزيد على قصاصة ورق بالقياس اليه . ولكنها وسم معترف به شائع بين أقرانه فلا مناص له إذن من تحصيله . ولو رجل غيره من أصحاب الطبائع النظرية كان في مقامه لما جشم نفسه هذا العناء من أجل الاصطلاح والشيوع ، ولا غنى نفسه باحتقار الاصطلاح والمصطلحين عليه . لكنه يكون حينئذ رجلاً غير سعد زغلول ، ويكون شاعراً أو متصوفاً أو عالماً بين الكتب وليس زعيماً مخلوقاً لقيادة الشعوب : يعنيه أن يقنع الآخرين ولا يكتفى باقناع نفسه ، وأن يرى الأمور كما يراها الناس بعين الواقع . ولا يكتفى برؤيتها كما هي في عالم النظر والتجريد ، ويعيش بين الأحياء ولا يعيش بين الأفكار والأوراق

وربما شابه هذا في الدلالة على طبيعته العملية الواقعية انه أراد أن يكون لزملائه في وزارته الأولى ما كان لسائر الوزراء قبلهم من الرتب والألقاب . وكنت قد اقترحت أن يظل الوزراء بألقابهم التي دخلوا بها الوزارة ، لأن الجماهير ينبغي أن تتعود توقير العظماء لجهادهم لا لعناوينهم ، ولتمثيلهم إياها وإخلاصهم في خدمتها لا لما يحملونه من الملابس والشارات ، ولأن الوزراء

فى عهد الحكومة النيابية غير الوزراء فى عهد النظام القديم . فقد كان الوزير فى العهد القديم لا يستوزر إلا بعد الترقى فى الرتب والألقاب إلى أرفع المناصب الحكومية وهو منصب الوزارة . فاذا حصل على الباشوية وما يرافقه من الأوسمة والأنواط فذلك هو الترقى الطبيعى الذى لا حيلة فيه . أما الوزير الدستورى فالיום وزير وغدا غير وزير ، وربما دخل الديوان ولم تسبق له قط خدمة فى الحكومة ولا علاقة بالمظاهر الحكومية . فلا وجه إذن للتقيد بالنظام القديم فى تلقيب الوزراء ، ولا نتيجة لذلك إلا تثبيت النظام القديم الذى لا يحسن أن يدوم

فلما اقترحت ذلك لم يقع اقتراحى عند سعد موقع الارتياح ، وقال :
أريدون أن يكون وزراؤنا نحن وحدنا بدعة بين الوزراء ؟
فهو فى جميع أعماله وتصرفاته نائر لأسباب عملية أو محافظ لأسباب عملية . والنائر والمحافظ لهذه الأسباب على حد سواء

أو هو واقعى ولكن دائرة الواقع عنده واسعة لا تنحصر فى القريب الصغير من الشؤون ، ومبادئه مبادئ الواقع لا مبادئ النظريات ، ويقينه يقين الواقعيين لا يقين المثاليين ، وإنما أكبر أسباب الشك عند الناس فى المبادئ والعقائد هو عدم القدرة على تنفيذها والاضطلاع بأعبائها ، فاذا كان سعد زغلول قليل الشك فذاك لأنه عظيم القدرة ، لا لأنه يؤمن على طريقة المثاليين

وتقدير سعد للرجال لا يرجع إلى مقياس غير الأثر المحسوس والعمل المشهود . فقيمة الرجل عنده هى قدرته على إثبات شأنه وتقرير وجوده . ويوشك أن يكون اعتبار المراسم والتقاليد فى هذا التقدير هو المقياس الراجع على غيره من المقاييس



وقد كان من رأى دائماً أن سعد زغلول لو لم يشتهر بالصراحة والجرأة

لاشتهر بالدهاء والحيلة ، لأن معرفته بالرجال وحيلته في علاج المشكلات لا يفوتهما كثيرون ممن اشتهروا بالدهاء وقامت شهرتهم عليه . ولا تناقض بين هذا وبين ما فطر عليه من طبيعة المناضلة والصراع . لأن الحيلة نقيض الهوج وليست نقيض الشجاعة والنضال . بل كثيراً ما تكون الحيلة من أسلحة المناضل المقدام في نضاله ، لأنها داخلة في طبيعة الحرب والغلاب

وربما غلا سعد في الحيلة إلى حد يحير عارفيه ويحسبونه لغزاً يضطربون في تعليقه . وقد سئل هو في ذلك يوماً فقال كما أسلفنا في فصل سابق أنه ورث الحيلة من أمه والاقدام من أبيه

ولعل هذا هو التفسير الصحيح . لكنه على كل حال لا يدل على تناقض واضطراب في هذه « الشخصية » المنتظمة التي ينسدر فيها التناقض والاضطراب .

لقد كان سعد منطقياً بتكوينه ولا غرابة في حيلة المنطقي ولو كان أقوى الأقوياء . بل لا غرابة في نبذه الحيلة أحياناً لأنه لا ينبذها إلا في حالة اضطرار ، وعند ما ينبذ المنطقي الحيلة لأنه لا يملك إلا نبذها يكون منطقياً مقبولا حتى في المجازفة واهمال التدبير إلى حين ، وإلا فالى أى شيء يهديه المنطق غير ذاك ١١

ومهما تختلف التفسيرات والتأويلات فالأمر الذي لا نخسبه قابلاً للخلاف هو جلاء طبيعة سعد جلاء لا غموض فيه ولا إبهام ولا شذوذ عن النمط القويم . فلم تكن في هذه الطبيعة أسرار ولا ألغاز ولا سراديب ، وكل شيء فيها معروف أو ميسور العرفان ، وقوته كقوة الجيش الكبير الذي تستطيع أن تراه بعينيك والذي يخطئ فيه من يخطئ بالمقدار لا بالكنه والعنصر : يجوز أن يكون مائة ألف ويجوز أن يكون مائة وخمسين ، ولكن لا يجوز أن يكون شيئاً مجهولاً في عالم الحساب وعالم التعبئة والاستطلاع ... لذلك لم يتصوف قط ولا جنح إلى التصوف في شبابه أو كهولته مع أنه حضر

على جمال الدين الأفغانى وصاحب الشيخ محمد عبده وكلاهما تصوفا ودرسا
التصوف أيام الشباب ، لأن التصوف لا يتطرق إلى الطبائع التى تخلو من
الحقاء ، وإنما يتطرق إلى كل طبيعة بعضها معروف وبعضها مجهول ، أو بعضها
مفهوم وبعضها متروك للحدس والتخمين ، وليس فى طبيعة سعد شىء من ذلك
ومن شاء مسباراً لطبيعة هذا الرجل الصريح فى تكوينه وفى كلامه
فمسبار الصادق هو منطق الحيوية الجياشة القوية حيثما كانت وحيثما كان .
كل ما وافق هذه الحيوية فهو من صفاته ، وكل ما ناقضها وخرج عليها
فليس من صفاته ، وكل خصلة فى سعد فردها إلى نفس منطقية قوية تحب
ما تحب وتكره ما تكره لأسباب لا تستعصى على تفسير

سل عن حبه للصراحة وكرهه للرياء تجد أنهما كانا عنده ضرباً من منطق
الأحياء الأقوياء ، لأن المنطق السليم يقول أن الإنسان يدارى رأيه لجبن
أو جهل ، وليس القوى بجهل وليس المنطقى بجاهل . فلا محيص له من
الصراحة وبغض الرياء

المنطق يقول أن سكوت العارف عن الرياء الذى يعرفه إرغام وإذلال ...
والفطرة القوية الجياشة لا تدعن للإرغام والإذلال ، وفى كل لحظة يجترىء
فيها الرجل على قول صريح إنما يعمل — على غير قصد منه — بقضية
منطقية لا التواء فيها ، وكأنه يسأل نفسه : لماذا يسومنى هذا أو ذاك أن أَرْضَى
بكذبه ولا أسومه أن يَرْضَى بصدقى ؟ فلا يعرف جواباً يلائم المنطق السليم
ويلائم القوة الحية إلا الصراحة والأنفة من تعاطى الرياء أو قبول الرياء
وفكاهاته كلها لو راجعتها لخرجت من كل واحدة منها بقضية منطقية
مستقيمة المقدمات والنتائج ، وإقدامه كله إقدام يطرد مع منطق الأقوياء
وإن لم يطرد مع منطق الضعفاء ، إذ الجائر فى المنطق عند القوى غير جائز فى
المنطق عند الضعيف ، لأن سداد الرأى أن يهرب الإنسان من القوة الغالبة

إذا كان ضعيفاً ، وليس هذا عند القوى القادر على الغلبة والآنف من
الضم بسداد

* *

وجملة ما يقال في هذه الشخصية الكبرى أنها شخصية رجل جدير
بالأ كبار جدير بالحب والولاء ، شخصية إنسان مهيب محبوب في مواقف
الزعامة والنضال وفي مواقف المزاملة والمواخاة .

لقد أحبه الشعب حب التقديس وهتف بحياته المسوقون إلى الموت
وهم على مصاريع المشاتي وفي غياهب السجون ، وشهد اثنتان من السيدات
تعتاتيان في المعرض الزراعى عتاباً أليماً لأن إحداهما حظيت بتقبيل يده ولم
تخبر صاحبتهما بنيتها لتحظى هى أيضاً مثل هذه الخطوة . إلا أن أناساً من
الزعماء والساسة قد ظفروا بمثل هذا الحب من الجماهير دون أن تؤثر
عنهم تلك المناقب الانسانية والعواطف انقلبية التى تستحق الحب الخالص
والمودة الكريمة . فاذا قلنا أن سعداً كان جديراً بالحب كما كان جديراً بالمهابة
فنحن لا نعنى حب الزعامة وحده بل نعنى معه حب النفوس القرية الحيمة
نفوس الأصدقاء والأ كفاء ، وحسب سعد من ذلك حب رجل كقاسم أمين
وسيدة كأم المصريين . فقد كان قاسم مثلاً نادراً في نزاهة الرأى ولطف الحس
وعزة النفس ودقة التعبير وكان يكتب إلى سعد حين أهدى إليه كتابه في
تحرير المرأة :

« إلى صديقى سعد زغلول

« فيك وجدت قلباً يحب ، وعقلاً يفكر ، وإرادة تعمل ، أنت الذى
مثلت لى المودة فى أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء ، وإن
فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها

« من هذا أمكننى أن أحكم أن هذه المودة تمنح ساعات أحلى إذا كانت
بين رجل وزوجته . ذلك هو سر السعادة الذى رفعت صوتى لأعلنه لأبناء
وطنى رجالاً ونساء »

وان القلب الذى يجد فيه رجل كقاسم أمين هذه « الصداقة الحلوة »
طوبى ولا شك قلب منطو على رحمة ومودة تفوقان ما يرى على صاحبه من شدة
ومهابه ، وان كانت المهابة يستحقها منه ألوف ، والمحبة لا يستحقها منه إلا
أفراداً فذاذ

أما السيدة الجليلة أم المصريين فما الذى يلجئها الى محبة سعد إلا أنه يستحق
المحبة ؟ لا هى فقيرة فأغناها ، ولا هى خاملة فرفع نسبها ، ولا هى جاهلة
فتجمل ما ينبغي لها من المعاملة ، ولا هى أم فيقال إن الأواصر البنيوية هى التى
تلجئها الى قبول ما لا يقبل من الأزواج . فلولم يكن سعد أهلاً للحب الخالص
والمودة الكريمة لما استحق منها فى حياته وبعد مماته ذلك الولاء النبيل الذى
يقبل مثله بين زوجات مدينت لأزواجهن بكل شرف ونعمة

ومن شهادة ثروت باشا له وهو يؤنبه باسم الحكومة ما يدل على ان عذوبة
النفس فيه صفة من الظهور والاصالة بحيث لا ينساها الانسان بعد العدم.
الشديد وهو غير مطالب بذكرها لو كان يريد أن يتخطاها ... قال ثروت باشا :
« أما الصديق وعهدى بصداقته طويل فقد القيت منه طول هذه المدة خير
ما يجد الصديق لدى الصديق : طيب أخاء ، وصدق عهد فى المشهد والمغيب
وفاء على القرب والبعد ، وصراحة فى غير جفاء ، وإخلاص نصح وسداد
رأى فى المشورة . وما أنس لا أنس سعداً محدثاً فقد كان متاعاً لا يمل وذخراً
لا يبلى . فما شئت من حسن محاضرة ، وحلو فكاهة ، ولطف مدخل ، وبراعة
تفنن ، وسحر حديث ، فاذا جادل أو ساجل فهو البحر تدفقاً وأندفاعاً
هذا الى خصوبة فى الفكر ومتانة فى التدليل كان فيها لا يجارى »

وقد تدل على شخصية سعد أكبر من هذه الدلالة آراء اناس من غير
جنسه ومن غير وطنه ومن غير منحاه فى السياسة مثل كرومر الانجليزى
ومورتن هول الأمريكى ومايل جايار الانجليزية وانى فيفاتى الايطالية
فكرومر هو القائل فيه : انه علمه كيف يحترمه . وهى كلمة لا يقولها كرومر

في مصرى صغير ، ولا يقولها في مصرى كبير الا اذا كان من الكبر بحيث
لا تنكر من اياه

ومورتون هول سفير الولايات المتحدة الأول في مصر يقول عنه في
كتابه « مصر ، ماضيها وحاضرها ومستقبلها » :

« اظن انه من المتفق عليه انه لا يكمل تاريخ مصر الحاضرة بغير الاشارة
الى رجل من أكبر ابناءها شجاعة ووطنية وطبية وحكمة وأعنى به المرحوم
سعد زغلول . فأما انه كان أنسانا من البشر له نصيب من ضعف البشرية الذى
لا يخلو منه انسان فذلك أمر لا يحفل أحد بنقضه وتفنيده ، ولكننا نستطيع ان
نرى ان هذه المآخذ القليلة التى لاغنى له عنها في مظهره ومسعاها انما كانت من
مآخذ الرأس ولم تكن من مآخذ القلوب

« وان زوجته الرؤم المهذبة وسائر من لازموا في بيته لهم شهود على انه
كان زوجا دائم الحب والعطف والرحمة ، وقد كان على هذا النحو صديقا
صادقا وفيئا لايسهل عليه ان يصدق ان أخا وثق به وأتمنه ينقلب الى نقيض
الثقة والامانة . فاذا أصابته هذه المحنة كما حدث من قليل منهم بين ألوف
الأصدقاء المعجبين به فهو أبدا على استعداد لأن يبسط يده اليهم بالغفران
والطيبة ، ولم أر قط بين من رأيت من مسيحيين أو مسلمين أو يهود من كان
أوفى نصيباً من هذه السجية التى هى اعظم السجايا » (١)

وقالت السيدة مابل جايار تصف لقاءه الأول في زيارة لأسرتها بالقاهرة
« لم أعرفه قبل ذلك ، فكان الأثر الأول منصرفا بطبيعة الحال الى ملاحظه
ومرآه . وهى ملاحظ لم تكن من دواعى تمليقه قبل أن تسبغ عليها السن
جلالها ووقارها . الا أن الأثر الذى لا يقل عن ذلك ولا يزال حيا في
ذكرى هو الأثر الذى يقع في النفس من مسلكه المستقيم وقلة اضطباره على

(1) Egypt Past, Present, and future. By Dr. Morton
Howell

صغائر المجاملات التي تعودنا أن نقرنها بالآداب الشرقية . فقد كان مسلكه خاليا كل الخلو من الكلفة والتصنع ، وقد تقدمنا في جلاله وهيبه الى حجرة المائدة مختاراً لنفسه المكان الذي رأى باعتباره الضيف المميز أنه هو المكان الذي يليق به الى جانب صاحبة الدار . وبدأ الحديث في غير ما تردد بيقين الرجل الذي يعلم أن لديه ما يقال وما يسمع ، وكنا قد تفاهمنا من قبل فيما بيننا على اجتناب مواضع الجدل والمناقشات السياسية لاعتقادنا أن زغولاً يفضل أن يمتنع عن ابداء الآراء التي لا تروق مضيفيه ، ولكنه سرعان ما أرانا خطأنا وتطرق هو نفسه الى الموضوع بصراحة تامة لم تدع لنا شكاً في نفوره من الحكم البريطاني ، أو لم تدع لنا شكاً في العزيمة الصارمة التي انطوى عليها ذلك الضيف الكبير » (١)

وقالت الكاتبة الايطالية أنى فيفاتى في كتابها أرض كليوباترة « يبدو لي الزعيم المصرى كما كنت أعرفه تماماً في باريس منذ خمس سنوات مضت ، فلا العظمة ولا الاضطهاد ولا سلطان الحكم ولا النفي ولا السجن ولا الهتاف باسمه ولا الدس عليه ولا شيء مما جرى في هذه السنوات الخمس استطاع أن يحدث أقل تغيير في ذلك الوجه العبوس المائل الى السمرة أو يقلل من عظمة تلك القامة الطويلة النحيلة أو أن يضعف نور هاتين العينين القاسيتين الغارقتين تحت جبينه واللتين يشعر الناظر اليه أن نظراتهما تحترق صميم احشائه وتبحث عن طيات نفسه وأعماق فؤاده . ولقد حياني تحية شعرية هادئة نطق بها دون ابتسام بصوت كأنه ينبعث من بعيد ، فتحركت لها نفسى وأثرت في أثر كبيراً ، فاردت اذذاك أن أعبر له بكل قوتي عن عظيم اخلاصى وأن أعرب له عن إعجابى وابته كل آلامى وأسنى لذلك الحظ القاسى الذى اصابه وأصاب وطنه فلم استطع ، وكأنه فهم ذلك منى وعرف ما يجيش في صدرى

(1) A. Lifetime in Egypt 1879-1935 By mnabel Gaillard

ويدور في خاطري فرد على سكوتى هذا بايتسامة مشرقة نادرة تهللت على وجهه المتألم الذى هجره الابتسام ... « (١)

هذه الآثار التى كانت تقع من نفوس ناظرية من الرجال والنساء الأجانب هى الآية على مكان تلك الشخصية بمعزل عن عبادة الجماهير ، أو بمعزل عن العنصرية الوطنية ، فلو كان سعد فى غير مصر ، لبرز فيها بروزه فى مصر ، ولاستحق المحبة والمهابة ولو لم ينهض للقيادة التى تذكى النخوة وتجمع أهواء الشعوب

ومن الاضافة اللازمة هنا لتمام العلم بجوانب هذه الشخصية الرحبية أن نقرنها بالخصائص الذهنية التى كانت أظهر من غيرها فى هذا الرجل العظيم . ففى الخصائص التى توائم هذه الطبيعة وتجري مجراها من الانتظام والاستقامة والوضوح والنفاد : قياس سليم وفطنة جيدة ، وملاحظة صادقة وذائكة واعية يقظى ، لا يخطئ . قياسه الأمور ولا يرى شيئاً إلا أحسن ملاحظته وأحسن فهم الدلالة التى يدل عليها ، وقد ينتهى من قراءة مئات الصفحات ويذكر تفصيلات الوقائع الهامة منها ، وقد يمر به الاسم فيذكر ما يتصل به من الذكريات قبل عشرات السنين ... قرأ التحقيقات فى قضية السردار وهى تستغرق آلاف الأوراق فحضرته بعد ذلك وهو يصحح للمحاميين فيها ما يسردونه عن بعض الشهادات ، وقدمت له يوماً رجلاً من قرية سلوى باقلم ياسوان فما أسرع ما سمع الاسم حتى سأله : أأنت قريب فلان ؟ وفلان هذا كان صاحب قضية اشترك سعد فى دفاعها قبل نيف وعشرين سنة ، ولم يحدث بعدها ما يذكره بها الا ذلك اللقاء

هى على الاجمال شخصية تكثر فيها الأنوار وتقل الظلال ، والأنوار التى تنبعث منها خليفة أن تريك سطوة البرق كما تريك صفاء الربيع .

ثقافة سعد

كان سعد عملياً في ثقافته كما كان عملياً في مساعيه وأخلاقه ، فكانت مكتبته مكتبة الأزهرى القانونى الوزير ، لأنه نشأ فى الأزهر ، وجنح بعد ذلك إلى دراسة القانون . وانتظم بعد ذلك فى سلك الوزراء ورجال السياسة . فالكتب التى فى مكتبته كلها هى كتب فقه دينى أو فقه مدنى أو فقه دستورى أو كتب تجمع بين هذه الأغراض بجامعة الاشتراك فى دراسة الشريعة والاجتماع .

وإذا قرأ كتاباً فى غير هذه المباحث فغالباً ماتدعوه إلى قراءته حركة عملية تحوم حول ذلك الكتاب وتتصل بالسياسة أو بأمر من أمور الواقع الذى يشغل الأذهان . فقرأ كتاب « الاسلام وأصول الحكم » للأستاذ على عبد الرازق حين ثارت حوله ضجة المعارضين وأذنت هذه الضجة باسقاط الوزارة من جراء الأزمة التى استحكمت بين الاتحاديين والأحرار الدستوريين ، ومنهم الأستاذ على عبد الرازق . وقرأ كتاب « الشعر الجاهلى » للدكتور طه حسين حين ثارت حوله مثل تلك الضجة وأذنت بمثل تلك النتيجة ؛ وكان يقرأ فى أيامه الأخيرة مطبوعات دار المكتب التى تهدى إليه ، تجديدًا لمادة اللغة التى كان يشعر أن السياسة شغلتها عنها منذ زمن بعيد

درس بعض التراجم الشرقية وبعض التراجم الغربية ، ولكنه كان يرجع فى حكمه على الرجال إلى اختبارات عامة ومبادئ مجملة قلما تتناول التفصيلات أو المزايا غير المحسوسة . مثال ذلك ما قاله لمسيو « جايار » الذى كان يعنى بجمع آثار نابليون فى القاهرة : « ومن هو نابليون ؟ انه جزار » وما قاله عن عدلى وقد عرض الحاضرون لطريقته فى علاج المسائل الشعبية فقال سعد : « ان عدلى يكن ارسقراطى والاستقراطى يأخذ ولا يعطى . . »

وقلت لدمرة ان الناس يقيسون عظمة السياسى بعظمة الدولة التى يخدمها وهذا قياس خاطىء . فربما كان فى دويلة من دويلات البلقان وزير أورئيس وزارة أكبر وادرى بالعلاقات الدولية من جراى أو مكدونالد قال أصبت . الحق يقال اننى ما شعرت وأنا أحدث مكدونالد الا ان الرجل واحد من أمثال أولئك المفتشين الانجائز أو المستشارين الذين نراهم عندنا فى الدواوين... وقد يكون الجانب المحسوس من مكدونالد فى السياسة والمراسم الشخصية كما قال سعد . أما الجانب الذى نعرفه من كتبه ومحاولات حياته الأولى فهو صفحة اخرى بغير نزاع

واللغات التى كان يعرفها هى الفرنسية فالألمانية فالانجليزية، ولدراسة كل لغة من هذه اللغات سبب من أسباب الواقع وداع من الدواعى العملية . فاما الفرنسية فقد تعلمها لأنها ضرورية لدراسة القانون ، واما الألمانية فقد تعلمها لانه كان يتردد على البلاد الألمانية فى رحلة الصيف ، وأما الانجليزية فقد شرع فى تعلمها منذ سنة ١٩١٩ وجدد اهتمامه بها فى سيشل لأنها لغة لازمة فى علاج المفاوضات والعلاقات السياسية بين مصر وبريطانيا العظمى ورأيت فى مكتبته بمسجد وصيف كتاب « ألمانيا الحديثة وتطوراتها »

لهنرى لختنبرجر

« L'Allemagne moderne, son Jvolution par Henri Lختنبرجر »

قرأه حين شغل الحديث عن ألمانيا ونهضتها ومطامعها اذهان العالم المتحضر فى أبان الحرب العظمى ، ورأيت فى تلك المكتبة كتابا عن أصل الاعتقاد بالله الأستاذ سرتيانج أستاذ الفاسفة بالمعهد الكاثولىكى بباريس

Les Sources de La Croyance en Dieu, Par Sertillangeo
Proffesseur de philosophie a L institut catholique de Paris
وخطر لى أن أسأله فى موضوعه . وكان الحديث يدور احدى الليالى على

اثبات وجود الله - فعلبت انه اقتناه ليقابل بين أدلة علماء الدين المسلمين وأدلة علماء الغربيين من المتدينين وغير المتدينين على اثبات وجود الاله ؛ واستطرد الحديث في شعاب هذا الموضوع فكانت خلاصة رأيه وهو يرفع أصبعه الى السماء انه يؤمن بالعناية الالهية ، وتلك كانت عادته كلما جد في السياسة المصرية طارىء لا يقع في حسابان . فكان يقول « انها العناية » أو يقول : « يا ما أنت كريم يارب » ويشير الى السماء .

وأعجب قراءاته طرأ قراءته للامير كرويتكين ومذهبه في القوضى والغاء الحكومة وأين سعد من هذه الأودية السحيقة في أطراف الفلوات الاجتماعية ؟؟ بيد أنك حين تستطلع الامر ترى أنه لم يقرأه الا عجا من أن يكون في الدنيا من يخرجون على النظام هذا الخروج ، وتشرفوا الى الحجج العقلية التي يؤيدون بها مذهبها لا يلوح عليه أنه قابل للتأييد ، فهو اطلاع التشوف والامتحان والاستنكار ، وليس هذا الاطلاع بالذي ينفي المحافظة العملية في التفكير .

وبعد فإن أوجز ما توصف به ثقافة سعد أنها ثقافة رجل خطيب بطبعه وتكوين فكره وملكاته . اذا اتصل بالناس صلة التفاهم والارشاد فأنما يتصل بهم من طريق التأثير الشخصي والمخاطبة اللسانية ، ولهذا كانت موضوعات درسه كلها من الموضوعات التي تنفع فيها الخطب والمحادثات الشفوية ، ولم يتفرغ قط للتأليف في بحث من البحوث التي يحسنها خيرا من احسان بعض الكتابين فيها ، لأنه كان « شخصية » تؤثر في شخصيات ، ولم يكن دارسا يؤثر من طريق الاقلام والاوراق

نعم أنه وقف وهو دون العشرين على تصحيح كتاب لم يتم طبعه وهو كتاب الاخلاق لابن مسكويه ، ونعم أنه تفرغ حينما لترتيب آيات القرآن على حسب الشواهد والموضوعات ، ولكنه لم يؤلف كتابا مفصلا فيما يعلمه

ويحيط به من الدراسات القانونية أو الاجتماعية ، ولعله تفرغ لترتيب آيات القرآن على حسب شواهدها وموضوعاتها ليستعين بها في مواقف الخطابة عند الاحتجاج والاستشهاد .

وقد خطر له في سنة ١٨٨٦ وهو محام أن ينشئ صحيفة باسم العدالة لدرس المباحث القانونية من الوجهة النظرية ، ولكن هذه الصحيفة لم تظهر وما كان ظهورها ليصرفها إلى الدراسات النظرية لبحث ، وفيها مجال واسع للدراسات العملية كنشر الأحكام والوقائع والمرافعات

وهو اذا لم يخطب تحدث كأنه يخطب ، وفضل الاملاء على الكتابة لأن الاملاء ضرب من الخطابة ، فهو خطيب حيث يكتب على الطرس وحيث يلقي على الاستماع

سألني مرة : هل تخطب يا فلان ؟

قلت : قد تعودت القاء الدرس في التاريخ وأدب اللغة ، وفي الالتقاء شيء من الخطابة

قال : نعم - ولكن الخطابة تبادل ، والقاء الدروس يأتي من ناحية المعلم ولا يشارك فيه تلاميذه ، إلا أن تكون مشاركتهم بسرعة الفهم وحسن الاصغاء وهنا ذكرت أن سعداً كان أكثر ما يتدقق في خطبه عند ما يتعدى التبادل بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجاذبة بالكلام . فاذا سئل ونوقش قليلاً تفتح في القول وأخذ من طوابع الملتفين به ما يوحى اليه فنون المقال المناسب لذلك المقام ، وكان أسرع ما يكون إلى الافاضة إذا تكلم أمامه المتكلمون وأحسنوا التعبير واللقاء ، فاذا أجابهم بعد ذلك جمع أغراضهم كلها وتأهب للكلام كما يتأهب الفرس الكريم للايقاض في مجال السباق وقال لي وقد دخلت عليه يوماً على أثر أيام توالى فيها خطبه وجهوده : أسمعنا ما عندك ؟

قلت : إنما جئت أسمع من الرئيس

قال : ولكن الرئيس يريد أن يكون اليوم سامعاً . ثم ضحك وقال :

لا المغنى يحق أن يطلب الطرب ولا الخطيب يحق له أن يطلب الكلام ،
أليس كذلك ؟ وأخذ يتحدث عن الكاتب والخطيب ومزاج كل منهما فقال :
أن الكاتب تناسبه العزلة ويخاطب قراءه من وراء حجاب فلا يراهم ولا
يروونه ، أما الخطيب فالاجتماع ميدانه ولرؤيته السامعين أثر في نفسه يستجيشه
ويهب بملكته

ثم قال : ان الكتابة أصبحت تتعنى اكثر من الكلام . قلت يا باشا ان
بياناتك خطب مكتوبة . قال نعم . اذا أملتها كانت كالخطب واذا كتبتها
استحضرت موقف الخطابة

على ان الامر الجدير بالملاحظة في خطب سعد وبياناته أنك تقرأ خطبه
فتجد فيها دقة علمية لا تجدها في أقوال الخطباء ، وتقرأ بياناته فتجد فيها رنة
بيانية لا يعنى بها في خطبه ، وتعليل ذلك عندى ان محضره المهيب الجذاب
يغنيه في موقف الخطابة عن الرنة الحماسية فيحرص على التدقيق ، وانه يحب
أن يودع بياناته روح الخطابة على البعد ، فيكون الخطيب فيه أيقظ من
الكاتب والمتحدث

فهو يعنى بالدقة حين يخطب ، ويعنى بالنغمة حين يكتب ، ولا يفوته
التحريض في الحالتين

كتبت الآنسة النابغة « مى زيادة » تحية جميلة في ذكرى من ذكريات
سعد عنوانها : « ذكرى جبار الوادى » قالت فيها عن سعد الخطيب :
« سمعت سعداً متكلماً على المنبر فأدركت ثمة كيف الوجه العادى يصبح
أجمل من الجمال وأوفر إغراء ، وكيف نهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان
فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف ، وكيف ينفتح الجفن الكشيف
المتهدل عن بؤبؤ العين فينجلي البصر حساماً استل من غمده وتشيع النظرات
أنصلاً تشق الصدور »

ثم قالت — وهنا موضع الملاحظة من هذه التحية — « وكيف يشذ

خطيب عن جميع أصول الخطابة ولا تصمد جميع بياناته للتحليل والتحصيل وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضى يتقاذفه ويلهوه وأنت من نشوتك لا تفيق . وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وترجر خلاله العواصف لتتجلى فيه إرادة شعب يقول : أنا ... إني موجود »

والأثر النفسى لخطابة سعد هو الأثر النفسى الذى وصفته الآنسة وصف النفس الحساسة والطبع المجيب ، لكننى لا أرى مسوغاً ظاهراً من خطبه الكثيرة لقولها « أن بياناته لا تصمد للتحليل والتحصيل » ... كل خطيب سعد وبياناته تصمد للتحليل والتحصيل ولا تبدو عليها صفة واحدة كما تبدو عليها هذه الصفة الشائعة فى كل ما يقول

وأنى لأقلب الآن أمامى مجموعة من خطبه السياسية فى أعنف أيام النضال الحزبى ثم أتعهد أن أختار أقواها حماسة وغضباً فلا أجِدُ واحدة منها تشدعن تلك الصفة الشائعة فى جميع خطبه وأحاديثه ومسامراته وهذه خطبة له فى أيام النزاع على المفاوضات يقول فيها :

« الثقة التى شرفتنى الأمة بها لا يمكن أن تنعدم كما قلت لو فدكم بالأمس إلا فى واحدة من حالتين : إحداهما أن تعدل الأمة نفسها عن طلب حريتها واستقلالها وترضى الحماية ، وإنى أعيدها من هذا الخبال . والثانية أن يكون موضع ثقة الأمة قد خالف مبادئها ، فبدلاً من أن يسعى للاستقلال سعى فى غيره وعمل لسواه ، وفى هذه الحالة لا يصح أن يكون جزاؤه سحب الثقة منه فقط بل يجب أن تحكم الأمة عليه بالإعدام ويكون حكمها من أعدل الأحكام ، وإنى أبيع دى إذا رأيتم منى انحرافاً عن قصدكم أو تسامحاً فى حقوقكم أو خروجاً عن حدود المهمة التى عاهدتكم على القيام بها ، وما عدت ولن أعدل عنها مادام فى عرق ينبض أو نفس يتردد ، وإنى أحارب كل شخص يسير ضد هذه الخطة ويضع العقبات فى طريقها مهما كانت رابطة معنا

وحاله من الصداقة لنا . واقد قاطعت كثيراً من أصدقائي لا لأسباب شخصية بل غيرة على القضية العامة وحرصاً على التمسك بحقوق الأمة . فكل من رأيت فيه تهاوناً في السعي وتواكلاً في العمل أو تساعجاً في الحق وأعيتني الحيلة في اصلاح شأنه قطعت بيني وبينه كل صلة ولو كانت أقوى الصلات وأمتنها ... أفعل ذلك غير آسف ، لأن حقوق الأمة لا تقبل مجاملة ولا مسايرة لصاحب «

فهذه خطبة متوهجة مرتجلة في ساعة لم تكن فيها دعوة الخطابة منظورة ولا مرجحة ، وكلها كما يرى القارىء كلام على العقاب وقطع الصلات وتحدى الخصوم ، فأى حشو فيها ؟ وأى عبارة من عباراتها لا تثبت على التحييص والتحليل ؟ بل أى عبارة لا تصلح أن تكون نصاً من نصوص القانون أو حكمة من حكم السلوك ؟ فيها ولا شك تأكيد وجزم واشتداد ولكن ليس فيها مخالفة للمنطق وأصول التحرير والتحييص . حتى حين عرض لقطع الصلات وهو معنى تنطابق فيه الألسنة ويقل الاحتراس لم ينس أن يقول : « وأعيتني الحيلة في اصلاح شأنه » شرطاً لقطع تلك الصلات بعد أن يتهاون المتهاون ويتواكل المتواكل ويتساحح المتساحح ، وكل كلمة من هذه الكلمات الثلاث : التهاون والتواكل والتساحح لها معنى لا تؤديه الكلمتان الأخريان كأنه في معرض التقسيم والتفصيل لا في معرض الانذار والوعيد . وانا لنسمع اليوم زعماء الأمم يندرون خصومهم فاذا البطش والفتك والسحق والتخميم وماقارب ذلك من الایعاد والارعاد جزاء عاجل لكل من اشتبهت فيه نظرة أو حامت حوله غيرة أو زالت به عثرة

بل حتى حين تسكلم عن سحب الثقة وخيانة الأمانة لم ينس أن يتم فيها الشروط القانونية التي لا بد منها في تقرير الجزاء ، فلا يكفي أن يقصر الوكيل في أداء الأمانة ليستوجب الحكم عليه بالاعدام ، بل يجب أن يقصر في أدائها ويعمل لغيرها

وقس على ذلك كل خطبة ، وكل حديث ، وكل وعد أو وعيد ، وأقول

ذلك عن يقين الاختبار . لأننى سمعت سعداً خطيباً ومتحدثاً وسميراً ومناقشاً فلا أذكر فى كل ما سمعت شذوذاً عن قاعدة التدقيق المحكم فى كل ما قال .

وكان من عاداته أن يقطع الكلمات أحيانا فى أثناء الخطابة ، فينطق بها متفرقة بين كل كلمة وما بعدها فترة وجيزة ، كأن يقول مثلا :

« ولقد قاطعت كثيراً من أصدقائى » لأنه لا يريد أن يفوه إلا بالكلمة المعنية دون سواها على سهولة الفيض بالكلمات عنده .

ولو أن خطيباً غيره قطع الكلمات ذلك التقطيع لجاز أن يفتر فى حضرته اقبال السامعين ، ولكن سعداً كان يرسل فى نفوس سامعيه تياراً من السحر والجاذبية يصل ما انقطع من الكلمات ويعلق الاسماع بشفتيه كيفما أبطأ أو أسرع وكيفما وصل أو قطع ، وتلك هى ميزته « الشخصية » على كل من سمعته من الخطباء ، ومن فتنه هذه المزية الشخصية للناس فى أيامه أن نطقه بحرف القاف — وكان ينطقه بين القاف والكاف — غلب على ألسنتهم فأهملوا التفخيم ليلفظوا بهذا الحرف كما يلفظ به سعد زغلول

نعم هى مزية شخصية وليست مزية فنية يستفيد بها كل مستفيد . وقد صدقت الكاتبة الفضلى حين قالت « انه كان يشذ أحيانا عن جميع أصول الخطابة » وينزع مع ذلك قلوب سامعيه

نعم . انك لا تقنع من كل خطيب بوقفة سعد الساكنة التى قلما ينقل فيها قدما أو يتحول عن مكان أو يستعين بإيماء غير مد الذراع أو رفعها فى الحين بعد الحين . ولكنك تقنع من الشيخ المهيب بهذا السكون فيزيدك روعة وتجيلا ويغنيك بالنظرة الماضية والطلعة الحية عن الافراط فى حركات الخطباء الشبان

وكذلك لا تقنع من كل خطيب بذلك الصوت الذى لا جهد فيه ولا

أكثر من التنويع والتنغيم ، ولكن « المزية الشخصية » في صوت سعدانه صوت رفيع لين الوقع على الأسماع يخفى فيه الجهد ويظهر الارتفاع الذى يعم أجزاء المكان ولو كان من أرحب ميادين الخطابة ، فهو صوت مرتفع لا شك في ارتفاعه . . . إلا أنك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدير بالقول لم تر أوداجاً تنفخ ولا ملامح تلتوى وتمغضن ، وأحسست بسهولة القول وسهولة الصوت فأحسست بالقدرة التى تلازم السهولة ! ، وبالسيطرة التى تملك الأسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطمع الخطيب

وكذلك لا تعجبك من كل قائل تلك الكلمات الموزونة والأحكام المسببة والقضايا المقيسة ، ولكنك إذا وقع من نفسك توكيده موقع القضاء المبرم ، واشتعلت في نفسك شدته كما يشتعل الحريق المضرم ، واطمأنت بك عظمتة اطمئنان الطود الأعظم ، فهناك ليست الكلمات الموزونة كلمات موزونة ، وليست الأحكام المسببة أحكاماً مسببة ، وليست القضايا المقيسة قضايا مقيسة ، بل هى عاصفة جارفة كأقوى ما تكون المبالغة فى اجتراف السامع ، وكأقصى ما تكون الصرخات الجامحات فى خروجها على المنطق والتحليل والتعليل ، لأنها قطعة من نفس قوية انتقلت اليك فنقلت معها القوة كما هى فى جوارح صاحبها ، فلا حاجة بها إلى مبالغة المبالغين ولا جموح الجامحين

هذا شأنه فى الخطابة وهذا شأنه فى الحديث ، وإنى لأذكر أنى سمعته يصف اجتماعاً واحداً ثلاث مرات فى جلسة واحدة ، فكدت أعتقد أنه كان يحفظ الوصف لقلة الاختلاف فى ألفاظه الجوهرية

كان ذلك يوم انعقاد المؤتمر البرلمانى فى الكنتنتال لعهد الوزارة الزبورية ، وذهبت الى بيت الأمة فسمعت سعداً يصف ما كان فى اجتماع ذلك اليوم لبعض مهنئه . ثم انصرف الزائرون وجاء بعدهم آخرون ، واستبقانى يومئذ للعشاء فحضرت فوجاً بعد فوج من زائريه ، وسمعته يعيد وصف الاجتماع وما حدث قبله وفى أثناءه وبعده ثلاث مرات

ثم جاء محام من أعضاء الوفد كان في الاجتماع فقال له سعد مازحاً : « والله اني مكسوف من العقاد . فقد أسمعته حديثاً واحداً ثلاث مرات ، فتول أنت شرح ما رأيت »

فما هو إلا أن شرع ذلك المحامى في شرحه حتى استوقفه سعد مرة بعد مرة . مراجعة لبعض الكلمات أو ترتيباً لبعض الوقائع ، وتوخياً في كل أوائك للتدقيق وسرد الأمور كما حدثت بلا تصرف أو تحريف ، فقال المحامى : يظهر يا باشا ان من حظ الزائرين أن يسمعوا منك الحديث مرة ، ومن حظ العقاد أن يسمعه أربع مرات

وإذا كان كبار المحامين — رجال الفصاحة والدقة الفقهية — لا يسهلون من ملاحظاته في سرد وصف لا ينشر ولا ينبئ على الخطأ فيه ضرر يذكر فللقارىء أن يقيس على ذلك تمحيصه للكلام في الخطب والأحاديث . وإنما عذر الأنسة مى فيما وهمت أنها لم تسمع سعداً إلا قليلاً وان الخطباء الذين يستهونون الجماهير دون أن ينسوا التحليل والتحصيص قليلون ، لأن الاستهواء بالمبالغة والتهويل كثير . أما الاستهواء مع التزام المنطق ووزن الكلام فلن يتاح إلا لخطباء لهم مثل ما لسعد من سحر المحضر وهيبة المنظر وقوة الروح المغناطيسية ، وهم أقل من القليل

حدثنا الشيخ محمد زيد بك رحمه الله عن بعض نوادر سعد أيام الطفولة فقال انه — أى الشيخ زيد — كان قريناً لفتحى زغلول في المكتب ، وكان سعد قد ذهب إلى القاهرة ليحضر الدروس : في الجامع الأزهر ، فكان إذا عاد في اجازة الصيف امتحن تلاميذ المكتب في قراءة القرآن وطلب اليهم أن يشكروا أواخر الكلمات ولا يقفوا عليها بالسكون

قال الشيخ زيد : وأذكر من امتحانه لنا في قراءة القرآن هذه الآية خاصة : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » فإنه كان يسألنا لماذا هذه الضمة

على نون اليقين فلا ندرى ، وكنا نعجز عن وضع الحركات على الحروف
الأخيرة إلا أن نرجع إليها في المصحف الشريف . لأننا كنا نحفظ القرآن
ولا نفقه قواعده الاعراب

والذين سمعوا سعدا يخطب يعرفون من هذه الحكاية كيف تتأصل خواطر
الطفولة وتتمكن في طبائع العقل وخصائص التعبير بعد ذلك بأزمان طويلة
فإن سعدا كان في خطابه يعرب أواخر الكلمات ولا يسكتها على عادة الفريق
الأكبر من خطباء العربية ، ولا شك أن عاداته هذه من عاداته تلك أيام الطفولة ،
ولا شك أيضا أن العادتين معاً ترجعان إلى طبيعته الأصلية التي تمتزج بجميع
أحواله وعاداته ، وهي الكشف عن الرياء وحب الامتياز فقد علم أن
الذين يسكنون أواخر الحروف يفعلون ذلك جهلاً بحركاتها في الاعراب ،
ويبتغون السلامة في التسكين اعتماداً على القاعدة المشهورة : «سكن تسلم» ...
علم هذا فلم يشأ أن يفلتوا بهذه الحيلة وأن يعتصموا منه بهذا الرياء ، وأحب مع
ذلك أن يعلم هؤلاء الصبيان أنه لم يذهب إلى القاهرة عبثاً وأنه قد عاد منها
بشيء يعرفه هو ولا يعرفونه : وهو قواعده الاعراب ... فظهر هنا سعد زغلول في
خاطرة الطفولة كما كان يظهر في كل مرحلة من مراحل العمر وكل ميدان من
ميادين المنافسة : وأى عمل من أعمال سعد زغلول الكبير أو سعد زغلول
الصغير لم يكن باعته حب الامتياز وكرهه الرياء ؟

على أننا نعود فنقول إن سعداً الخطيب هو سعد كله في الحقيقة بجميع عاداته
وأطواره وخلائقه وملكوته . فما من خصلة ولا ملكة إلا ومردّها إلى الخطابة
أو هي واجدة لها مظهرًا من المظاهر في الخطابة : قوة العارضة وجلال البرهان
في المحاماة والسياسة والقدرة على الاقناع أو القدرة على التأثير وقيادة الجماهير ...
كل أولئك هو سعد الخطيب سواء تكلم في القوم أو لم يتكلم . وينبغي أن نوسع
نطاق الخطابة على هذا الاعتبار إلى أبعد مداه وهو القدرة على التأثير كيفما
كان هذا التأثير ، فعلى هذا الاعتبار يدخل في معنى الخطيب معنى الزعيم أو معنى

القائد الغالب على من دونه من الأصحاب والأعداء

وكان سعد يقرأ الشعر ويأتى فى خطبه وأحاديثه بأبيات أو شطرات يترجم
بها ويستشهد بمدلولها . ومنها قول المعرى
هذا كلام له خبيء معناه ليست لكم عقول
ومنها بيت عبد الله بن الزبير يريد مالكا الأشر
اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معى
ومنها قول البارودى
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة على يدا أغضى لها حين يغضب
ومنها هذه الشطرة لعدي بن زيد العبادى
« لو بغير الماء خلقى شرق » (١)

وكان يقرأ المتنبي ويحفظ له أبياتا كثيرة ويستشهد بها فى بعض الأحاديث .
ويذكر أقوال المتنبي ويعزوها اليه إذا استشهد بها أحد أمامه . ولكنه على
الجملة لم يكن يتكلم كثيرا فى الشعر والشعراء ، وهمس لى مرة كأنه يمزح : كلام فى
سرك . أنا ليس لى فى الشعر « وقال مرة أخرى « إنما أحب الشعر الواضح
المبين . أما الشعر الذى يحوجنى الى التنجيم فلا أستطيعه » وكان يرى أن
شعر الحكمة أفضل الشعر وأعلاه ، ولهذا يفضل المتنبي على سائر الشعراء .
رأيت مرة فى عبادة محمرة كان يلبسها أيام كان طالبا بالأزهر واحتفظ بها
على سبيل الذكرى يعاود لبسها فى الشتاء بالمنزل من حين إلى حين . فخطر لى
أن أسأله : ألم يحاول قط وهو فى الأزهر أن ينظم الشعر على عادة الطلاب
الأزهريين فى ذلك الزمان ؟ فلم يجبنى جوابا مباشرا ولكنه قال : إنهم قبضوا
عليه بعد الثورة العراقية واتهموه بالاشتراك فى جماعة سرية هى جماعة الانتقام
التي زعموا أنها تألفت لقتل أعداء الثورة والشهود على رجالها ، ولم يكن عند

(١) بقية البيت : كنت كالنعمان بالماء اعتصارى

محافظ العاصمة من دليل على التهمة الا بشطرة من بيت وجدها مكتوبة
بغير خطي على غلاف كتاب : وهي « لي في ضمير الدهر سر ظاهر » ؟ ...
فكان المحافظ يقول ما هو هذا السر ان لم تكن فيه اشارة إلى جماعة سرية ؟ ...
وهذا ما صنعت بنا شطرة واحدة لم ننظمها فكيف بالشعر لو نظمناه ؟

وحضرته يوما في مسجد وصيف يستمع إلى شيخ من أبناء إقليمه ينشده
قصيدة في مدحه من الشعر الذي لا يغبط الممدوح عليه . فاصغى اليه حتى
فرغ من انشاده ثم قال له : إنهم يقولون يا شيخ فلان إن القاضي يعمل قاضي ...
فهل سمعتم قالوا إنه يعمل شاعر ؟ ... ولا أدري هل هذا رأيه في المديح
الردى . وحده أو هو رأيه في كل مديح

أما الكتابة فسعد يعد فيها من الرواد الذين سبقوا المعاصرين بربعين أو
خمسین سنة إلى أسلوب الكتابة الحديثة . ونعني به الأسلوب السهل الدقيق
الخالص من قيود السجع والفضول ، وأثره في تجديد الأسلوب العربي منذ
اشتغاله بالوقائع المصرية قبل الثورة العرابية أثر جدير بالتنويه في تاريخ
الأدب العربي الحديث

وهو يستسهل الشائع أحيانا فيخالف القواعد الصرفية والنحوية وتزداد
هذه المخالفة في كتاباته الأخيرة على كتاباته الأولى أيام التحصيل والدراسة ،
غير انه يدقق في اختيار كلماته ما استطاع التوفيق في تدقيقه بين أحكام
الفصاحة ومفهوم الجمهور . وأغرب ما ورد في كلامه الحديث كلمة « الامعات »
ولكنها أصبحت من المألوفات بعدما تناقلتها الأفواه وتسامل عن معناها
جمهرة القراء

ومن أمثلة الاستسهال للشائع كلمة « يمكن له » التي كانت ترد في
بعض خطبه ورسالاته ، وقوله في خطابه إلى الدكتور حامد محمود :
« انكسرت سنة في طقم أسنان عاطف بك » وقوله في ذلك الخطاب : تخصص
لكل واحد من إخواني في الشهر ثلاثين جنيه تقريبا » وقوله فيه : ولما

وصلت الى السفينة استقبلني كومنذائها على السلم « الى أمثال ذلك مما يقل في بعض الخطب والرسائل ويكثر في بعضها على حسب حالته من الارتياح وتوخى الافهام ، وربما استحسن الكلام بالعامية في بعض الخطب بعد الشروع في الكلام بالفصحى ، فيقول لسامعيه مازحاً « إن هذا « النحوى » يتعبنى أحياناً فتعالوا نتحدث كما نتحدث في كل ساعة » ولكنه لم يكن قط ينسى الاحتفال بصياغة بياناته الهامة ، فيرتقى بها الى غاية الوسع من الايقاع والبلاغة ، وينقحها ويعيد كتابتها ثلاث مرات أو أربعاً في بعض الأحيان

وله في الأدب والنقد آراء الذهن السديد الذي يتجه الى القصد القويم بغير عناء كثير : جرى الحديث في أساليب بعض الكتاب في يوم عيد والمجلس حافل بالأدباء والفضلاء فقال رحمه الله « اتنى أتناول أسلوب هؤلاء الكتاب جملة جملة فإذا هي جمل مفهومة لا بأس بها في الصياغة ، ولكنى أتبع هذه الجمل الى نهايتها فلا أخرج منها على نتيجة ، ولا أعرف مكان احداها مما تقدمها أو لحق بها ، فالحل هؤلاء الكتاب يبيعون بالمفرق ولا يبيعون بالجملة ؟ » قال الشيخ المنفلوطى وكان حاضراً : يغلب يا باشا أن يشيع هذا الأسلوب بين الصحفيين الذين يكفون ملء الفراغ ، ولا تيسر لهم المادة في كل موضوع .

فابتسم الباشا وقال للشيخ : انك يا أستاذ تتكلم عن الصحفيين وهنا واحد منهم ، ثم التفت الى وقال : مارأيك يا فلان ؟ قلت : هو ما يقوله الشيخ المنفلوطى مع استدراك طفيف .

قال : ما هو ؟ قلت ان هذا الأسلوب هو أسلوب كل من يتصدى لملء فراغ لا يستطيع ملئه سواء كتب في الصحافة أو في غير الصحافة ... وعاد الشيخ المنفلوطى فقال : ان « العقاد » لا يحسب من الصحفيين لأنه من الأدباء . قال الباشا : أو كذلك ؟ ثم تفضل بوصف موجز لأسلوب كاتب هذه السطور ليس من حقنا أن نرويها

واستطرد الكلام الى الایجاز والاطناب فقال الباشا : ان الایجاز متعب ولكن الاطناب مريح : لأن القلم یسترسل فيه غير مقيد ولا ممنوع . وقص علينا قصة رجل كتب الى صديق له رسالة مسهية ثم ختمها بقوله : « اعذرني من التطويل فليس لدى وقت للایجاز » . . .

وعقب عليها بقوله : ان هذا الاعتذار قد يبدو عجيباً لمن لم یمارس الكتابة أما الذين مارسوها فهم یعلمون صعوبة الایجاز وسهولة التطويل وجاء ذكر المحسنات والشغف بها فقال رحمه الله : إن المحسنات حلية والشأن فيها كالشأن في كل حلية . ینبغي أن تكون في الكتابة بمقدار والا صرفت الفكر عنها وعن الكتابة . وعندی ان المقال الذی کله محسنات كالحلة التي کله قصب . لا تصالح للبس ولا للزينة

وکنا عنده يوماً وفي المجلس صروف وحافظ ومكرم فجاء ذکر کتاب حديث فقال الباشا : إن عيب صاحبه كثرة الاستعارة . ثم قال ما أظن صاحبه يريد ما یقول ، لأن الذهن الذی یملك معناه یملك عبارته بغير حاجة كثيرة إلى المجاز

قلت يا باشا إن الاستعارة ما برحت دلیل الفاقة في المال وفي اللغة

قال هذا معنى حسن . ولذلك أنت لا تستعير ! ومضى یقول : إننى أفهم الاستعارة للتوضيح والتمکين ، ولكنى لا أفهم أن تكون هي قوام الكلام كله . لأن الذهن یطلب الاستعارة لیستعين بها على التحديد ، فاذا وصل إلى التحديد كان في غنى عن الاستعارة وعن المجاز ، وكان یقول هذا الرأي وأسأله في إتمام بعض جملة لأننا متفقان علیه جد الاتفاق

ولما كتبت الفصلین اللذین ظهرا في «المراجعات» عن المنفلوطی وفرقت بین الكاتب والمنشیء ووفعت منزلة الکتاب علی منزلة المنشیء ناقشني فی هذا التفريق وهذه التسمية فقال : إن الانشاء - فيما یدوله - هو أعلى من الكتابة لأنه خلق وابداع ولا یشرط فی الكتابة أن تكون كذلك . فالمنشیء كاتب

وزيادة والكاتب قدياً بشئ من عنده وقدياً ببيضاء غيره . قلت إنما عذبت
الاصطلاح ولم أعن الأصل في وضع اللغة ، والانشاء عندنا هو تمرين التلاميذ
على صف الكلام وتنميق الألفاظ فهو بهذا المعنى دون الكتابة في مراتب
الأدب ، والذي ينشئ يحفل بلفظه وتنزيده أما الذي يكتب فلديه معناه
يفرغه في القالب الذي يؤديه ... فاجاب دولته : ما أحوج الاصطلاح إذن
إلى تغيير أو تفسير

ولك أن تقول على الاجمال أن آراءه في النقد الأدبي من هذا القبيل
كانت كأقوم ما تكون آراء رجل لا ينقطع للنقد ولا يتوفر على الصناعة
الأدبية . فهي آراء قوامها الذوق السائد والقياس المعقول ، وجانب الملاحظة
عليها هو جانب الملاحظة على نظائر هذه الآراء

ويسأل سائل في هذا السياق ، هل كان سعد مشغولاً بفن من الفنون الجميلة ؟
فأقول إنه كان يميل إلى السماع ولكن لا إلى حد الشغف ، وميله إلى الغناء
أقرب إلى جيل عبده الحمولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى دون من تبعهم
من المعاصرين

أما التصوير فكان يحسبه من وجاهات الأمم المترفة كوجاهة الرجل
الغنى بالآثاث الفاخر والسمت الجميل . ولم يقن صورة فنية من صور
المناظر الطبيعية أو صور المعاني الرمزية ، ولا أذكر أننى سمعته يتحدث عن
الصور والتماثيل تحدث المشغول بهذه الأمور . ففى مكتبته وحجراً استقبله
صور شمسية له ولصهره مصطفى فهمى باشا والسيدة قرينته وأخيه وجمال
الدين الأفغانى ومحمد عبده ولورد كرومر وبسمارك وغيرهم من الأصحاب
والمعارف المصريين والأجانب ، وليس فيهما غير ذلك رسوم أو نقوش من
أعمال الفنانين

وهو على هذا كان سريع التلبية الى تشجيع الفنون الجميلة اذا فاتحه في ذلك أحد المعجبين بها من أصدقائه وأنصاره ، وقد أسدى اليها في أيام وزارته ورأسته لمجلس النواب أيادي مشكورات

فلا الفنون الجميلة كانت من شواغل طبعه ، ولا هي كانت من نقائص طبعه . انما كان مصروفا عنها الى ما فطر عليه وجذبه الحوادث اليه بغير هيام وبغير نقور .

الوفاة

كان فصل الانتقال في الشتاء الى الربيع متعباً لسعد . فلزم الراحة نحو ثلاثة أسابيع من شهر ابريل ، ونصح له الأطباء بتبديل الهواء في الصعيد فأمضى في النيل ثلاثة أيام عاد بعدها الى القاهرة ليستأنف عمله في بيت الأمة وفي مجلس النواب، وكان يجاهد نفسه لثابر على حضور الجلسات ومراقبة الخلاف عن كثب . بين دار المنسوب البريطاني والحكومة المصرية - ومعها مجلس النواب - فيما يطرأ من الأزمات الدائمة التي يفتأ يثيرها اللورد جورج لويد وفي مقدمتها أزمة الجيش

وازداد شعوره بجهد العمل يوماً بعد يوم قبيل انتهاء الدورة البرلمانية فكان يحضر حيناً ويغيب حيناً ويعانى مشقة بالغة في متابعة الأعمال البرلمانية وغير البرلمانية ، وكثير منها كان يجري وراء الستار ، وهو الذي يجهدده ويضنيه ولا ينشط الى الخوض في دخائله وخوافيه .

وقبل اليوم الأخير للدورة البرلمانية استجم في المنزل ليستطيع أن يشهد الجلسة الأخيرة ويلقى فيها كلمة الختام التي تعودها منه النواب . غير أنه لم يقو على التحضير كدأبه في المناسبات الرسمية واجتزأ بكلمة قال في مطلعها : « حاولت عند اقتراب انتهاء هذا الدور أن أعد خطبة كما فعلت في الدور السابق ، ولكنني لم أتمكن من ذلك لضعف في صحتي » وختمها قائلاً :

« لقد كنت أود أن أتحدث إليكم كثيراً ، ولكنني أشعر أنني تعبت وأتعبتكم ، ولا أريد أن أجعل أحداً يمل مني . ولكنني قبل أن أختم كلامي أرجو منكم حينما تغادرون هذا المكان أن لا تنسوا وظائفكم . . . لا تنسوا أنكم نواب دائماً ليحدوكم هذا العلم الى البحث عن آمال مواطنيكم واحتياجاتهم

ورغباتهم . لكي تبدوها للحكومة مباشرة أو بطريق هذا المجلس في الدورة القادمة ان شاء الله .

« والآن استودعكم الله جميعا وأسأله لكم الصحة والعافية ، وأرجو أن أراكم قريبا وأن يهني الله جل وعلا من القـوة ما يعينني على مشاركتكم في خدمة البلاد حتى نصل بها الى مانوده جميعا »

وغادر القاهرة بعد يوم الى بساتين بركات في بلبس فوصل اليها مساء يوم الأحد السابع عشر من شهر يولية ؛ وقضى بها عشرة أيام في سكون ورياضة وادعة استرد بها كثيراً من نشاطه وانشراح صدره ؛ وأعرب عن اغتباطه بهذه الرحلة يوم سفره من البساتين بالتبرع لفقراؤها بمائة جنيه من ماله تذكراً لهذه الزيارة ، ثم برحها الى مصطافه في مسجد وصيف

وكان قد ظهر على أذنه اليمنى احمرار خفيف لم يؤلمه في بادئ الامر ولكنه شعر بالآلم منه بعد أيام حيث كان بمسجد وصف . وأخذ هذا الآلم يضايقه في الثاني عشر من شهر أغسطس فظن بعض الأطباء أنه التهاب أو « اكزيما » وعالجه على هذا الاعتبار . وفي الخامس عشر منه انتشر الاحمرار وانتقل الى جلد الرأس وأخذت الحرارة في الارتفاع فدعى الدكتور وديع لبنان لفحصه فقرر أنه الحمرة وأنه من الواجب أن ينتقل سعد الى القاهرة الآن أو يبقى بمسجد وصيف الى انتهاء العلاج ، ثم دعى الدكتور عبدالعزيز اسماعيل بك واشترك معهما الدكتور حامد محمود والدكتور احمد شفيق صهر السيدة الجليلة أم المصريين . وكانا يرددان على مسجد وصيف في زيارة الرئيس ، فتبين من فحصهم جميعاً أن الرئيس مصاب بداء الحمرة ، وبدأوا علاجه على هذا الاعتبار ، فحقنوه بالمصل المقاوم لهذا الداء ، والأرجح أن الاصابة بالحمرة طارئة ، وان الاحمرار الاول كان من أثر التهاب أو اكزيما سهلت نفاذ جراثيم الحمرة الى الجلد ، لأن المعروف عن هذه الجراثيم أنها لا تمسك في الجسم بغير فعل أربعة أسابيع .

ثم حسنت حاله في اليومين التاليين وعادت الحرارة الى الهبوط ، فاستحسن
الاطباء الحاضرون نقله الى القاهرة ليكون بها على مقربة من وسائل العلاج ،
واختلف المقيمون بمسجد وصيف يومئذ في الانتقال أو استمرار العلاج
بمسجد وصيف الى أن يتم الشفاء أو تهدأ سورة الداء . فأما الموافقون على
الانتقال الى العاصمة فقد فضلوها لما يتوافر فيها من وسائل العلاج الحاضرة
التي لا تتوافر في الريف ، وأما الذين كرهوا هذا الانتقال فقد استكثروا
ما فيه من الجهد على شيخ مريض ، ولم يروا صعوبة في إقامة الأطباء بمسجد
وصيف ولا في اتصالهم من ثم بالعاصمة كلما طلبوا وسيلة من وسائل الفحص
والعلاج ، وخشوا أن ينزعج الشعب لهذه المفاجأة وأن يدخل في روع
الرئيس أنه على خطر قريب فيثقل عليه ذلك ويسوء أثره في خاطره وجسمه ،
والقرية بعد أنقى هواء وأبعد عن الضجيج والحركة وأصلح من المدينة للعلاج
وكان كاتب هذه السطور على هذا الرأي فأبدى لآخوانه ما يعن له من
الأسباب ، ثم استأذن في العودة إلى القاهرة

وصعد بعض المعارضين في الانتقال إلى الطبقة العليا حيث يلحون الرئيس
ويلحون في رجائه أن يؤجل هذه النقلة ولو بضعة أيام ، وإن لا يجشم نفسه تعباً
قبل تمام الشفاء ، فتبسم رحمه الله قائلاً : إني معكم لا أرى ضرورة للسفر .
ولكن الكثرة ليست معنا فهل نخرج على النظام ؟

وصحت نيته على السفر صباح الجمعة التاسع عشر من شهر أغسطس ،
وكانما أراد أن يغلب المرض بالعزيمة فأبى أن يعتمد على أحد في نزوله ،
ورفض أن يحمل الى الباخرة على كرسي يحمله الخدم . وقال : أما المشي وأما
الركوب كما يركب الناس .. ! وحيء بمركبة صغيرة يحركها جواد واحد فركبها
الى الباخرة وأبى أن يعتمد هناك على أحد في صعوده الى المقصورة

سارت الباخرة على هينة وهو لا يشكو شيئاً الا المضايقة من
العرق الغزير في المقصورة المقفلة . لأن الجو جو الفيضان في شهر أغسطس

رسالة مختلفة من الزوجة المنظورة ، أو شرط لها تشترطه في هندام الدكتور
أو منام يحتاج الى تفسير ، أو أشاعة تتراعى عن الوزارة الموعودة ، والدكتور
في كل ذلك يقول : ما بيننا ياسيدى وبين الوزارة الا زارة من زارات سعد
فاذا الانجليز ينشئون عن عنادهم صاغرين

فيقول سعد : حسن . ولكن لماذا أزار يادكتور ؟
وكل زائر جديد يصل الى مسجد وصيف فهو مشترك طوعا أو كرها في
مناورة مبتكرة يبتلى بها الدكتور

جاء يوما الدكتور نجيب اسكندر من القاهرة — وكان الطريق قد توفى
قبل ذلك بأسابيع — فالتف به الضيوف وقالوا له : اسمع يادكتور : انك
لم تحضر الى مسجد وصيف للسؤال عن الباشا ولكنك حضرت لدعاء
الدكتور محجوب الى مرافقة الوفد المسافر الى الحبشة لاستفتاء أهلها في
اختيار الطريق الجديد !

قال الدكتور نجيب : ما هذا الكلام ؟ الدكتور محجوب عضو في وفد
قبلى لاختيار الطريق ؟

قالوا : نعم . هو ذاك . وهو بعد شأن الدكتور يصرفه كما يشاء ،
فمالك ولشؤونه ؟

ونزل سعد بعد ساعة فاذا بالدكتور نجيب يمثل الرواية أحسن تمثيل
قال : يا باشا ، إني قادم لاستشارة دولتكم في أمر يتعلق بالدكتور محجوب
فاشرأب الدكتور محجوب وهمس مشاقلا : ماهو ياسيدى ؟
فأجابه الدكتور نجيب : السفر الى الحبشة !

قال الدكتور محجوب : وهل فرغنا ياسيدى من السودان حتى نشغل
أنفسنا بالحبشة ؟

قال الدكتور نجيب : انما تسافر لسؤال الأحباش عن رأيهم في اختيار
الطريق الجديد

فرد عليه الدكتور محجوب متبرماً : ولماذا لا تسافر أنت وأنت بهذه المهمة أولى ؟

قال الدكتور نجيب : هكذا وقع الاختيار

لخندق الدكتور محجوب وزمجر قائلاً : دعونا من هذا العبث ... دعونا في الجدل الذي نحن فيه ، وخشى المتآمرون أن تفشل المناورة فخطر الخبيث منهم أن يستفز الدكتور الى الحرص على المهمة والمبادرة بقبولها فقال :

ومع ذلك يا باشا لا أظن الدكتور محجوباً يصلح لهذه المهمة الخطيرة فالتفت اليه الدكتور غاضباً وقال : ماذا ؟ ماذا تقول ياسيدي ؟ لا أصلح لهذه المهمة ؟ أتقول اننى لا أصلح لماذا ياسيدي لماذا ؟ فقال الخبيث : لأنك تتحدث عن السودان فتوقعنا فى أزمة مع الحكومة الانجليزية .

فصاح به الدكتور : ياسيدي نمسك عن ذكر السودان ، ونسكلم عن المدارس والتعليم

قال : إذن تكون الطامة اكبر . أليس العرف قد جرى بالتمهيد بالمدارس والتعليم لفتح مناطق النفوذ السياسية ؟

فعاد الدكتور يقول : ونمسك يا وادى عن المدارس والتعليم أيضا ، وتسكلم عن الصحة

قال الباشا : وهل ضرورى يا دكتور أن تسكلم ؟ أنت ذاهب للاستفتاء فى اختيار الطريق . فلماذا لا تقصر عملك على ما أنت ذاهب لأجله ؟ ثم قال ضاحكاً : أراك قد قبلت ورضيت وعهدنا بك منذ لحظة أنك أبيت ونفرت

قال الدكتور : لأجل خاطرك يا باشا نقبل والله كل شيء . . . نقبل يا باشا نقبل . ومن يصلح لها غيرنا . . . لقد شربت القهوة فى دير السلطان أيام الخلاف عليه بين القبط والأحباش ، فأنا ابن بجدتها . نعم أنا ابن بجدتها ! ولأجل خاطرك يا باشا نذهب الى أقصى مكان

وفض الباشا الحوار في هذه المهمة الخطيرة بقوله : الآن قد انحلت المشكلة
وحرمت المهمة على غيرك ما دمت قد شربت القهوة في دير السلطان ...
لم لم تقل ذلك من البداية يا دكتور ؟
وحدث بعضهم صباح يوم أنه رأى الدكتور في منامه على ناقة ورأى رجلا
يرفع اليه ورقة وهو ينجني ليأخذها ، ووراءه جحفل كبير من الخير
فقال الباشا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ... فن
هنا يعلم تفسير الأحلام ؟

قال حافظ : أنا أفسرها وأبشر الدكتور سلفا
قال الدكتور : وفيم البشارة ياسيدي ؟
قال حافظ : بالوزارة فهي الناقة ، وبأمر التعيين فهو الورقة التي تمنحني
لتأخذها !

فسأل أحد الحاضرين : بقي شيء يا حافظ قد نسيتته . فما هذا الجحفل
الكبير من الخير الذي كان وراء الناقة
فلم يتردد حافظ أن قال : وهل في تفسير ذلك مشقة ؟ هم ولا ريب ...
ناخبون

وعلى هذا النمط كان ضيوف الرئيس يزجون أوقاتهم في ذلك الجو
الرائق وتلك العزلة السعيدة . فاذا فرغ الرئيس من رسائله وتوجيهاته فأما
الاحاديث والذكريات وأما هذه المناوشات أو المخترعات التي لا يسلم منها
أحد ولا يأمن على سهوة أن تصيبه قرعتها ويدور عليه دورها . وليس
الرئيس بمستثنى من قضائها إذا لزم الأمر وحكمت القافية كما يقولون ، ففي
ضحوة من الضحوات ذهب فريق من الضيوف مع الرئيس الى الساقية
التي يجلس اليها في أثناء الرياضة اليومية وتختلف فريق آخر في حجرة المكتب
التي فيها التلقون ينتظرون رسالة هامة ... فلما عاد الرئيس تلقاه أحدهم

في جدور صانة وقال : يادولة الباشا وفد من القاهرة يستأذنون في السفر الى دولتكم

قال : هل كتبت أسماهم ؟

قال : نعم . ومضى يتلو من ورقة في يده : فلان وفلان وفلان وفلان . جماعة يستنقلهم الرئيس لوخامة أرواحهم وكثافة حسهم وشدة غضوهم . فما هو الا أن سمي الاسم الثالث منهم حتى صاح به : على رسلك ! هؤلاء لا تحملهم بقعة واحدة من الأرض ، ولا أدري كيف يجتمعون حتى على اللسان !

وكان نظام المعيشة في مسجد وصيف يحرق على وتيرة واحدة : يستيقظ الرئيس باكراً ويتناول طعام الافطار في الطبقة العليا ثم ينزل الى مكتبه حوالي الساعة التاسعة فيجلس فيه ريثما يراجع بريد الصباح . ثم يخرج للرياضة فيركب حملاً خاصاً معداً له يستريح الى مشيته أو خطوته كما كان يقول رحمه الله . فيجول في الغيطان نحو ساعة ومعه واحد أو اثنان من الصحاب يركبان الخيل أو الحمير أحياناً ، وأحياناً يمشيان

فان لم يجد نشاطاً للركوب تمشى مع بعض الصحاب الى الساقية التي في جوار المنزل ، فيجلس هناك ساعة أو نحو ذلك يقضيها في الحديث وتذاكر الشؤون العامة ، ثم يعود ماشياً فيصل الى المنزل حوالي الساعة الحادية عشرة ويجلس في استقبال الزائرين الى نحو الساعة الثانية وهي موعد الغداء ، ومن عادة الرئيس أن يتناوله مع ضيوفه وأن يقضى على المائدة ساعة على الأقل يتنقل خلالها من حديث الى حديث ومن موضوع الى موضوع يلاحظ فيها جميعاً أن تناسب أذواق الزائرين وأن يشتركوا فيها جميعاً بما لهم من خبرة فيها أو رغبة ، فاذا فرغ من الطعام تناول القهوة وودع ضيوفه ليقيم في الطبقة العليا الى ما بعد الساعة الخامسة بقليل ، ثم ينزل الى المكتب ليراجع بريد المساء ، ثم يخرج للرياضة مرة أخرى مشياً على الأقدام ، ويعود الى حيث

يجلس عادة ما بين حجرة المكتب وحجرة المائدة في طرقة مجاورة للحديقة هي في الغالب أصلح الأماكن هناك لتلقى الهواء الطلق من وراء المروج ، ويقضى هنيهة في استقبال الزائرين ثم يحين موعد العشاء في نحو الثامنة فيتناولوه كذلك مع الضيوف وهو يسامرهم بأمتع الأحاديث وأطيب الفكاهات ، وينتقل إلى الطرقة أو إلى المكتب إذا برد هواء الليل ، فيلبث هناك حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ولا يطيل السهرة إلى ما بعد ذلك إلا فيما ندر وأكثر ما كان يقضى السهرة في استعراض الأعمال السهلة أو التعقيب على الحوادث والأشخاص ، ويستطرد أحياناً إلى الذكريات والملاحظات بأسلوب يمزج فيه الجد بالفكاهة ويتوخى فيه راحة السامعين ، ويتعمد أحياناً أن يسألهم ويحاذيهم أطراف الأحاديث ليستدرجهم إلى الكلام ويستطلع ما عندهم من الآراء والخواطر . فإذا حان موعد نومه ودعهم وتمنى لهم رقداً هنيئاً وليلة سعيدة . وصعد إلى الطبقة العليا وذهبوا هم إلى دار الضيافة ينامون أو يلعبون بعد ذلك ماشاءوا من وقت يلعبون انزرد ويسمرون

وصلنا إلى مسجد وصيف عصاري يوم الخميس الحادى عشر من شهر أغسطس . فاستقبلنا الرئيس في الطرقة ورحب بنا وأوصانا أن نستعد للبقاء في مسجد وصيف فترة طويلة ، فقلت : يا باشا ذلك ما تمنى . لولا أننى أتيت على نية المبيت ليلة واحدة فلم أحضر معى ما يلزمى من الدواء والملابس ، فأما وقد أنا لنى الرئيس شرف ضيافته فأنا أعود إلى القاهرة غداً وأرجع منها متأهباً للإقامة في مسجد وصيف بقية الصيف ان شاء دولة الرئيس قال : لا تمزح . انى أحسبك فى حاجة إلى هذه الراحة فى هذا الهواء . وحسبك كدأ لذهنك ونصبا لجسدك طوال العام

فشكرت لدولته دعوته واهتمامه ، وأمضيت المساء والسهرة على أطيب ما يكون السمر وأطيب ما يكون الألوان وأطيب ما يكون الهواء : تارة

يحدثنا عن المصطافين الذين يذهبون إلى أوروبا لانفاق ما جمعوه من بلادهم كأنهم يؤدون الاتاة المضروبة عليهم ، أو المصطافين الذين يذهبون إليها مرغمين كأنهم في سخرة مفروضة عليهم وعلى أبناء طبقتهم لا حيلة لهم في أدائها ولا لذة لهم في قضائها ، فيعيشون في شظف وعسر ليعوضوا على أنفسهم نفقات رحلاتهم ، ثم يرجعون وما استفادوا من الرحلة سلوة ولا نفعا ، ولا عرفوا من الديار التي طافوا بها أكثر مما يعرفون وهم بعيدون منها . وتارة يحدثنا عن انتخاب البطريق وما اصطلح عليه العرف في انتخاب البطارق الأقدمين وما اشتهروا به من النسك والانزواء عن العالمين ، وتارة أخرى يسألنا رأينا في هذا وعهدنا بذلك وما يقال عن هذا الأمر وما يشاع عن ذلك البلد ليشارك كل منا في حديث يرضاه ويستريح اليه . وكانت الليلة قمرء والسكينة في الأرض وفي السماء ، وبعض الحاضرين من طلاب المناوشات يقول للرئيس كلما رأ في أسرح النظر في المروج والفضاء واستقبل الهواء « الحنون » الذي لا نستمتع به في القاهرة ولا الاسكندرية : العقاد ياباشا ليس معنا . العقاد ينظم قصيدة : والباشا يقول وهو ضاحك : حسبته اذن شيطانه . فلا تزيدوه شياطين !

وصعد الباشا وأوينا نحن إلى حجراتنا فنام من نأام ولبت الآخرون يلعبون أو يفتنون في تدير المكائد والمناوشات !

ثم استيقظنا مبكرين لنشاط النفس وجودة الهواء ، وجاءنا من قبل المنزل من ينبئنا بنزول الباشا إلى المكتب . فذهبنا اليه وحييناه تحية الصباح فكان أول ما سألنا عنه بعد التحية : كيف كان مبيتنا وماذا نقترح من الطعام في يومنا ؟ وعلمت أنها كانت عادته رحمه الله مع جميع ضيوفه الذين يعلم أنهم لا يأكلون كل طعام ، وأنهم يلتزمون نظاما خاصا في المعيشة والغذاء .

وقبل الرياضة الصباحية دعانا الرئيس وزميلا لنا من ضيوفه فقضينا ساعة في الطريقة يستعرض لنا بعض المواقف ويصف بعض الجماعات

المصرية . ثم نهضنا للرياضة مشياً الى الساقية فالتفت الرئيس في أول الطريق وسأل :

ألم يأت فلان بعد ؟

وفلان هذا ثرثار غريب الأطوار يستطاب حديثه وتملح بدوائه . فقال
أحدنا : كلا . يا باشا ، ولا نحسبه يأتي ، لأنه لا يزال عاتبا على البيغاء !

أما البيغاء هذه فلها قصة ظريفة مع ذلك الثرثار ، وهي في الأصل هدية
إلى الرئيس أهداها اليه بعض مروضى الطيور لأنها تعلمت الهتاف باسمه
لطول المراتة من جهة ، ولطول ما سمعت من هذا الهتاف في المظاهرات
من جهة أخرى . فكانت بين لحظة وأخرى تنطق هاتفة « يحيي سعد . يحيي
سعد » وتشفع ذلك أحيانا بالوثب والرقص الموزون كلما صفق لها المصفقون
على نعمة الهتاف فنقلها أصحابنا « أولا » إلى دار الضيافة ثم أخذوا في
تعليمها اسم ذلك الثرثار بتلقينها إياه في الصباح والمساء وكلما عبروا بها أثناء
النهار ، فطرب الرجل لهذه الشهرة التي بلغت إلى مسامع الطير . وظل يأنس
إليها ويروضها على ترديد اسمه ، ويفرح بتنغيمها إياه تارة تمده وتارة تقتضبه
وحينا تكرر على عجل وحينا آخر تفرده على مهل ، وهو جد مسرور بهذه
التحية يحسبها الهاما من البيغاء تخصه به دون سواه . حتى كان يوم فاذا هي تناديه
باسمه وتشفعه بلقب لا يسره . فقفز من المفاجأة وهم أن يبطش بها من الغضب
وانحدر على السلم متوعداً بالشكاية إلى الرئيس ثم غادر الدار دون أن يلقي
الرئيس أو يودع الصحاب

فيل لنا حين حضرنا — ولم نكن قد شهدنا شيئا من هذا — أنه قد أقسم
لا يعودن أو تعتذر البيغاء من هذه الزلة وتمسك عن التطاول الذي اجترأت
به على مكانته وفضله !

فسأل الرئيس : ! أو لا تزال البيغاء مصرة على رفض الاعتذار

فقالوا جميعاً : كل الاصرار

قال الرئيس : لا عجب ، بيغاء تعتب على بيغاء !

وبلغنا الساقية بجلسنا قليلا ، ولحق بنا من الزوار من كان يعجلهم الوقت عن الانتظار ، فأنشده بعضهم قصيدة وبلغه بعضهم تحية من الطلاب المصريين في باريس ، وأوشكت الضحوة أن تنقضى على خير لولا خبر حملته الصحف عن التعيينات القضائية سمع به الرئيس فتكدر ألبما كدر ، وزاد في غضبه انه لم يسمع بشيء من تهديدات هذه التعيينات كأنما كان أنصاره في الوزارة يتعمدون اخفاءها ليضطر إلى قبولها بعد وقوعها ، مع علمهم باعتراضه الشديد على بعضها . فرجع الرئيس إلى المكتب منقبضا وأمر باستدعاء وزير الحقانية في الاسكندرية على التلفون ليسأله عن خبيثة هذه المناورة المسيئة . ففهم منه أن الأمر قد عرض على جميع الوزراء الوفدين فأقروه ولم يلاحظوا شيئا عليه ، فوقع ذلك في نفسه موقعا أليما وأتعبه في حالة المرض التي كان فيها بين النقاها والاعياء . ولم نلتفع بحديث الرئيس بقية اليوم حتى ودعته مستأذنا في الاياب

وأنت القاهرة وفي نيتي أن أرجع منها إلى مسجد وصيف آخر الأسبوع بعد ترتيب العمل والاستعداد للأجازة بضعة أسابيع . فلم يمض السبت حتى طلبني الرئيس صباح الأحد على التلفون وقال لي إنه ينتظرني مساء ذلك اليوم ، فشكرت لدولته واستمهلته إلى الاثنين . فاذن ، وأمر كاتبه أن يكرر تذكيري بالموعد مساء الأحد . وما كنت في حاجة إلى التذكير والتكرير ، وليكنه لطف الرئيس رحمه الله وإيناسه لضيقه ومدعويه

ووصلت إلى مسجد وصيف مساء الاثنين فلقيت إخواننا بين باب الحديقة وباب دار الضيافة وقد بدا عليهم شيء من الوجوم فسألتهم : ما بالكم هنا في هذا الأوان ؟ قالوا : إن الباشا متعب قليلا فهو عاكف في المنزل ونحن مبتعدون من نوافذ الحجرة التي ينام فيها لئلا يرتفع إليه صدى من ضوضاء الحديث . ولم تمض دقائق معدودات حتى أقبلت الأنسة المهذبة « فريدا »

تحينى باسم الرئيس وتبلغنى أسفه لأنه لا يستقبلنى هذا المساء ، ورجاه أن يرانى فى الصباح

وفى تلك الليلة أنبأنا الدكتور حامد محمود ان المرض لا يتخلو من خطورة ولكن بنية الباشا القوية كفيلة بالتغلب عليه ، وانه يحتاج الى الراحة والاقبال من الحركة والكلام والاشتغال بمرهقات السياسة والمشاكل العامة . فقضينا الليلة تتفال وتتشام ونحن على غير هدى من هذا ولا ذاك ، وجاء الصباح فسألنا فقيل لنا : إن الحالة أحسن . ولكن الحاجة الى الراحة والعكوف بالمنزل لا تزال

وكان أول ما تلقيناه بعد تناول الافطار تحية من الرئيس واعتذارا من احتجاجه عنا ، ووعدا بأن يرانا قريباً حسبما يستطيع أو حسبما يأذن الطبيب ثم جاءتنى الآنسة فريدا تدعونى الى لقائه ، فلم أنس ولا أحسبني أنسى ذلك الشعور الذى خامرنى وأنا أخطو خطواتى المنيعة المتقاربة الى حجرة نومه . فأتى أحسست أننى فى حضرة القدر الذى لا يكشف ما أضمر . وعنده الرجاء العظيم ، وعنده كذلك الخوف العظيم ، ونحن منه بين ستارين لا ندرى أيهما الرجاء وأيهما الخوف ، وأيهما ينشره وأيهما يطويه

واقتربت من الحجرة وأنا أعلم أن الحديث يتعبه وانه أتعب ما يكون له إذا خاض فى السياسة ومشاكل الحكومة . ووجدته راقداً فخيتته فرد التحية معتذراً لا اضطرابه إلى قلة الحركة . وأسرعت بابتداء الكلام لأعفيه من مشقة الحديث ، وطرقت كل موضوع عن الجو وعن الصحة وعن المصيف وعن الصحاب الا السياسة وما إليها فأتى اجتنبتها أبعد اجتناب ، وطفقت أسرع فى وصل كل حديث بما قبله على خلاف عادتى لكى لا يتكلم ثم ألجأ إلى مقاطعته فأسوؤه بذلك . وقد تسمع الآنسة فريدا صوته بين فترة وأخرى فتظهر وتناديه بأهجة المستعطف المترفق : يا باشا . لا كلام الا كلام . . . فيصمت حتى تخرج ثم يقول : إن على يابنى هنا رقيبين لا يرحمان . إذا أهر الطبيب

لم ياذنا لشفق أن تفترا بكلام ولا للهواء أن ينفذ من هذه الأبواب...
» وأقول له إن رقيبك يامولاي لا يرحمان لأنهما يرحمان.....

وعلى الرغم من هذا استطرد الكلام إلى أنباء الصحف والحكومة وجاء
ذكر الخصوم والأصدقاء فقال رحمه الله : « ليس لي يا بني خصوم أحسب
حسابهم إنما آفتى كلها من الأصدقاء . ثم تمثل قائلاً : « لو بغير الماء خلق
شرق » وكررها مرتين

ثم أمر باستدعاء نخرى عبدالنور بك فسأله عن زملائه وعمن وصل من
الزائرين . فافاض برواياته المعهودة ومخترعاته الحاضرة والباشا بين سامع
وناعس . حتى أحسنا أنه يغفو فاوماً بعضنا إلى بعض بالسكوت ،
وخرجنا متمهلين

وكان ذلك هو اللقاء الأخير

تخليد الذكرى

توفي سعد والوزارة التي في الحكم وزارة الائتلاف التي يؤيدها الوفديون وحلفاؤهم من الأحزاب الأخرى ، فقامت الوزارة بواجبها في تشييع جثمان سعد إلى قبره الموقوت بصحراء الأمام ، وأمرت بنقل الجثمان على مدفع وإطلاق سبع عشرة طلقة في أثناء سير الجنازة ، واشتركت هي والمجلسان النيابيان وعلية الشعب وسواده في تشييع الجنازة عصر اليوم التالي لوفاته ، وعلى الرغم من القيظ وأجازات الصيف وغياب الكثيرين في الأقاليم والبلاد الخارجية كان المشتركون من أهل القاهرة والذين استطاعوا إدراك موعد الجنازة من أهل الأقاليم يعدون بعشرات الألوف

وأمرت الوزارة بشراء بيت الأمانة وحساباته من أملاك الدولة لصيانة آثار سعد الباقية فيه ، وأمرت كذلك بتشديد ضريح إلى جانب بيت الأمانة ينقل إليه الجثمان بعد الفراغ من بنائه ، وبصنع تماثيلين يقام أحدهما في القاهرة والآخر في الاسكندرية

وبلغت الاكتتابات الشعبية لتخليد ذكرى الزعيم نحو عشرين ألف جنيه ثم وقفت عند هذا القدر اكتفاء بما أقامته الحكومة الممثلة للشعب من الذكريات

ولما تم بناء الضريح كانت الوزارة القائمة — أو كان الحكم كله — حكم خصومة لسعد والسعديين . فتباطأت الوزارة في نقل الجثمان ثم حولت الضريح إلى مقبرة لبعض الملوك الفرعنة الأقدمين ، وتعللت لذلك بأن السيدة الجليلة قرينة سعد رفضت أن ينقل رفاته إلى الضريح إذا كان في النية تحويله إلى مقبرة عامة له ولبعض الوزراء الآخرين ، ولكنها حيلة سياسية لا تخفى . لأن الوزارة عطلت إقامة التماثيل كما حالت دون نقل الجثمان إلى الضريح .

وفي عهد الملك فاروق الأول عادت الحياة النيابية على أساس الدستور القديم وقامت في الحكم وزارة وفدية فسمح بنقل الرفات إلى الضريح بعد وفاة سعد بتسع سنوات في يوم الجمعة التاسع عشر من شهر يونيو سنة ١٩٣٦ ، وكان كثير من أصدقاء سعد يخشون أن تكون الجثة قد سرقت من مدفنها ليحال بينها وبين الضريح المشيد لمشواها في يوم من الأيام مهما تتعاقب الدول والوزارات ، ولكنها وجدت في مدفنها النقي سليمة من عوارض الفناء لم يصبها إلا جفاف وضمور يسير

والضريح الذي استقر فيه رفات الزعيم العظيم بنية لا ثقة بتخليد ذكراه ، لأنها بنية مصرية توافرت فيها البساطة والفخامة وأخذت من الطراز المصرى القديم مالا تناقض بينه وبين الأصول الإسلامية . أما التمثالان فلا يوحيان شيئاً من السمائل الانسانية والقوة النفسية والأريحية الخلقية التي بها كان سعد عظيماً وبها كان مستحقاً للتخليد . وكل ما فيهما من سعد شبه مادي لم يوفق فيه الأستاذ محمود مختار رحمه الله حتى إلى إختيار أحسن الصور الشمسية وأقرب الملامح إلى المعاني النفسية

وتزداد النفس شعوراً ببيوسة المعاني المفرغة في التمثال عند ما تنظر إلى ذلك المعطف الطويل المفرغ على القامة المديدة بلا حركة ولا ثنية كأنه خارج من عند الكواء . وما لاشك فيه أن تمثيل رجل كسعد في المعدن أو الرخام أو الصخر ليس بالأمر اليسير ، فهو أصعب من تمثيل العسكريين لأن ملامح القوة العسكرية ليست بالعسيرة التصوير ، وهو أصعب من تمثيل الفلاسفة والشعراء لأن ملامح الخالمين والمثاليين ليست كذلك بالعسيرة التصوير . إنما العسير في تصويره تلك المعاني والأخلاق التي تراها في جميع الناس ولا تراها في انسان واحد بهذا المقدار ، فإذا صورتها كما تراها في جميع الناس خرجت عادية لا تحمل سمات العظمة التي يتسم بها صاحبها الفريد ، وإذا عمدت إلى إظهار الفرق بين صاحبها وسائر الناس بتكبير

المقدار كانت المسألة مسألة احجام لا مسألة معان وأخلاق وملكات . لهذا أخفق محمود مختار مع اصابته في كثير من التمثيل الأخرى ، وأخفق من قبله « يورفتش » صاحب التمثال النصفى الذى نقله عن سعد وهو مريض معتكف فى الطبقة العليا من بيت الامة ، فلم يكن فيه إلا الشبه المادى دون المشابه النفسية التى تظهر بالدراسة والاختبار

والسبيل إلى اصلاح التمثالين أن يتولى إصلاحهما رجل يدرس سعداً دراسة نفسية ويعلم من أخباره ونوادره ما يوحى اليه جوانب العظمة فى ذلك الانسان الذى تختلف فيه القوة من قوة العسكريين وقوة الفلاسفة والشعراء ، فيترجم الفرق بينه وبين سائر الناس بلغة الشعور والبداهة لا بلغة المقدار والمظاهر المادية . وعسى أن يتم هذا الاصلاح قبل اقامة التمثالين حيث يستقبلان أنظار التاريخ

ولهذه المناسبة فى تخليد ذكرى سعد ، وفى ختام هذا الكتاب الذى أودى به واجب الوفاء لذكره - أرى كما رأى كثير من القراء أن أختمه بآخر ما نظمت فى تحية سعد زغلول ، وهو القصيدة التى نشرتها يوم نقل رفاته إلى الضريح قبل صدور هذا الكتاب بشهر واحد :

فاز سعد

عرف النقي حياة ومماتا وأصاب النصر روحا ورفاتا
كلما أقصوه عن دار له رده الشعب اليها واستماتا
كيف يحزيه افتياتا وهو من كان لا يرضى على الشعب افتياتا
أصبحت دارك مثواك فلا تخش بعد اليوم ياسعد شتاتا
حبذا الخلد ثماراً للذي غرس المجد وتماه نباتا

كل أرض للبصلي مسجد غير أن الكعبة الكبرى مقام
هكذا قبرك مرفوع الذرى في جوار البيت أو سفح الامام
أرض مصر حيث أمسيت بها فبنو مصر حجيج وزحام
غير أن الذكر يبغى منسكا مثلما يبغيه حج واستلام
فالتق في قبرك خلداً كلما مر عام تبعته ألف عام

جيرة الأحياء أولى بالذى بعث الدنيا حياة لن تبيد
معشر الأحياء أتم لكم مدد من ذلك الميت مديد
مستعدين رجاء كلما جزتموه، وهو منكم مستعيد
إنه في كل جيل ذاكر من بنيه، أبد الدهر وليد
تلك ياسعد مغانيك فما في سواها يسكن اللحد شهيد

اعبر القاهرة اليوم كما كنت تلقاها جموعاً ونظاما
ساعة في أرضها عابرة بين آباد طوال تترامى
ساعة من عالم الفردوس لا تشبه الساعات بدءاً وختاماً

كل من شاهدها زيد بها من معانيك جلالاتها ودوامها
قل لهم أبلغ ما قلت لهم أيها الواعظ صمتاً وكلاماً

جردوا الأسياف من أعمادها ذلك يوم النصر لا يوم الحداد
ارفعوا الرايات في آفاقها أين يوم الموت من يوم المعاد ؟
لا يلاقي الخلد بالحزن ولا يكتسى الفتح بجلباب السواد
ذاك يوم ما تمناه العدى بل تمناه ولاء ووداد
فانفضوا الحزن بعيداً واهتفوا فاز سعد وهو في القبر رماذ

الفراعين الأولى أجليتهم لتمنوا لو أجازوك الطريق
أنت أضفيت على أوطانهم سعة ، وهي من الأسر مضيق
أنت أيقظت لهم تاريخهم وهو في نومته لا يستفيق
فضلك اللاحق أحيا فضلمهم فاستوى منه طريف وعريق
آية في الحق لا ينسخها في مدى الدهر عدو أو صديق

يا بنى مصر اجعلوا نقلته رمز إحياء وعزم ومضاء
وانظروه كيف حالت دونه غير شتى ، وما حال القضاء
المنحون تنحوا جانباً آخر الأمر ، وسعد في البناء
كل ذى حق سيعطى حقه ليس للجد من الخلد نجاه
كل ما عارض سعيها باقيا عرض فان وزور ورياء

ترمز الشمس (١) إلى نقلته بسفور غالب بعد حجاب
صرغت ليلين صباحاً فروت عن حضور ناصع بعد غياب

(١) إشارة إلى كسوف الشمس صباح ذلك اليوم

هو أيضا قد طوى ليل الردى وطوى ليل الغواشي والكذاب
في السموات وفي الأرض له أثر ينبيء عن يوم الحساب
أثر الفجر إذا انجاب لنا عن ضحاه بعد لآي وغلاب

دان يا سعد لك الذكر بما شيد الباني وما خط الزبور
قدر نادى قلبه على موعد الذكرى صخور وسطور
أنا بان لك في ملك النهي منزلا يبقى ولا تبقى الصخور
من أسانيدك أساس له ومن الحق له حسن ونور
إن أنل شأوك فيه إني بالذي شيدت منه لفخور

فتية الوادي بسعد فاقتدوا إن تخيرتم له خير وفاء
أذكروه بالذي يعمل به منكم العامل في غير ونا
واذكروه بالذي امتاز به من مزاياه الآيات الوضاء
هكذا يخلد سعد بينكم بتماثيل حياة ورواء
كل ما يعظم من أعمالكم هو تخليد لذكرى العظاماء

تصحيح اخطاء

حدث في الصفحة ١٩٤ (السطر الأخير) تغيير في وضع الكلمات وصوابه
 « في هيئة واحدة وانحسم الخلاف »
 وحدث تغيير مثله في الصفحة ٢٩٥ (السطر ٢٢) وصوابه « فتعلم الأمة الانجليزية
 وبعلم العالم معها »
 وحدث تغيير مثله في الصفحة ٤٤٤ وصوابه « ولم يفتنى أيضا أنه قد نقل إلى
 أن زغلولاً باشا ادعى لمصر في شهر يونيو الماضي حقوق ملكية السودان العامة
 ووصف الحكومة البريطانية بأنها غاصبة »
 وهناك غلطات أخرى نكتفي بالتنبية الى الآتي منها :

صواب	خطأ	ص	س	صواب	خطأ	ص	س
الطريقة	الطريقة	٤١٤	٦	الغربية	القريبة	٣٢	١٣
وضعه	ضعه	٤٢٥	١٣	النبوة	البنوه	٥٠	٥
على	عن	٤٢٩	٩	المدين	الدين	٧٤	٢٢
المحدورة	المحدورة	٤٥٩	١٧	اختبارى	اختيارى	١٦٩	١٢
الهيئة	الهيئة	٤٦٢	١٩	الأولى	الأول	١٨٠	٢٠
يعترض	يعترف	٤٦٣	١٩	حسينا	حسين	١٩٣	٦
اعتداد	اعتداداً	٤٧١	٦	يزعزع ماعنده	يزعزع عنده	٢٧٠	١٨
نكذب مايقال	نكذب يقال	٥١٦	٥	الذاتية	الذانية	٢٧١	٢٠
ادراكها	ادركها	٥٢٥	٤	البقاء	البقاد	٢٧٢	٢٠
رأسى هذا	رأسى هذه	٥٣٦	١٢	وهو رأى له	وهو له رأى	٢٨٧	٢٣
بحملة	بحله	٥٥٨	١٦	قيمته	قيمته		
يجب	يجب	٥٦٣	٦	تكثرث	تكثرث	٣٠٢	٢٢
هذه	هذا	٥٦٩	١٤	عودوا الناس	عودوا للناس	٣٠٣	١
فقه	فقد	٥٧٣	٤	الاجتماعية	الاجتماعه	٣٧٠	١٧
Les	Le	٥٧٤	٢١	الاوتوميلات	الاوتوميلات	٣٨٨	١٢
أن	ن	٥٧٤	٢٣	انطلقت			
يحق له	يحق	٥٧٧	١	فضع	فضع	٣٩٨	١٤
				ظاهرة	ظاهرة	٣٩٩	٥

فهرست

صفحة	
٣	تمهيد
٥	الطبيعة المصرية في أوهام الناس
١٥	الطبيعة المصرية في حقيقتها
٣٧	أصل سعد
٤٤	جيل سعد
٤٩	بيئة سعد ونشأته
٦٨	سعد من الثورة العرابية إلى الوزارة
٨٧	في طريق الوزارة
٩٣	سنة ١٩٠٦
١٦	وزارة المعارف
١٠٣	سعد الوزير
١٢٤	وزير الحقانية
١٣١	ملاحظات على سعد في وزارتي المعارف والحقانية
١٣٨	الحركة الدستورية
١٤٤	الوزير المصري في المعاش
١٥١	في ميدان الانتخاب
١٥٨	الجمعية التشريعية في خمسة أشهر
١٧٥	قبيل الحرب
١٧٨	الحرب العظمى

صفحة	
١٨٦	تأليف الوفد المصرى
١٩٧	بدء العمل
٢٢١	القارعة
٢٢٦	الثورة
٢٣٩	من القاهرة إلى مالطة إلى باريس
٢٥١	تأليف الوفد الأول
٢٥٩	موقف الوزارة الرشدية
٢٦٥	برنامج الوفد والامتيازات
٢٦٨	الوفد فى أوروبا
٢٨٤	من سفر الوفد إلى لجنة ملنر
٣٠٤	المفاوضة فى لندن
٣٢٩	فى مصر أثناء المفاوضات
٣٣٤	بعد عودة الأعضاء
٣٤٧	الوزارة العدلية
٣٥٣	العودة
٣٥٨	الخلاف على المفاوضات
٣٦٤	القطيعة بين سعد والوزارة
٣٦٩	فشل المفاوضات الرسمية
٣٧٩	النفي
٤٠٩	تصريح ٢٨ فبراير
٤١٦	من المنفى إلى الوزارة
٤٣٩	فى راسة الوزارة
٤٦٧	الملك فؤاد وسعد

صفحة	
٤٧٤	من رئاسة الوزارة إلى رئاسة النواب
٤٩١	رئاسة مجلس النواب
٤٩٩	زعامة وأثرها
٥١٠	سعد وخصومه
٥٢٧	سعد في بيته
٥٤٣	شخصيته وأخلاقه
٥٧٣	ثقافة سعد
٥٩٠	الوفاء
٦٠٠	اللقاء الأول واللقاء الأخير
٦١٩	تخليد الذكرى
٦٢٢	فاز سعد
٦٢٥	تصحيح أخطاء